فهرس



من

تفسير القرآن الحكيم

الشهير بتفسير المنار

يراعى في هذا الفهرس :—

١ — انه قد روعي الترتيب الهجائي في الكلمة الثانية والثالثة وقدم المعرف وأهمل اعتبار واو العطف وحرف الجر

٢— ان الاصفار التي عن يسار الارقام تشير إلى إتمام أو إعادة المعنى في الصفحة التالية أو ما بعدها

٣ — ان الترتيب على حسب النطق لا المادة

(تنبيه) أرقام عدد الآيات في الشواهد تختلف باختلاف عد المصاحف فمن لم يجد الآية موافقة لمصحفه وجدها بالقرب من عدده

الطبعة الاولى في مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٧ هـ — ١٩٢٨ م

مطبعة المنار بمصر

فهرس عام للجزء التاسع من تفسير المنار

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

ك

ن

(تم الفهرس)

فهرس الغلط الواقع في الجزء التاسع من تفسير المنار وتصحيحه

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤	١٠	هو العزيز	العزيز
٥	٢٠	ولقد أوحينا	وكذلك أوحينا
٦	١٠	مؤيس	موئس
٧	٥	رسلنا	رسلنا والذين آمنوا
١١	١٠	لون	كون
١١	٢٠	فؤده	فؤاده
١٣	٦	عليهم .	عليهم . اه
١٧	٧	لخير	الخير
١٧	١٤	ولدهم	والدهم
١٨	١٧	استعدادهم	باستعدادهم
٢٠	٢٠	لدين	الدين
٢٢	٤	وتنهى	وتنتهي
٢٤	١٤	السبات	الثبات
»	١٩	لمتاع	المتاع
٢٥	٢٠	من غيرهم	ومن غيرهم
٢٦	١	أن مكر	يأمن مكر
»	٢	أو م	أو لم
»	»	ا رض	الأرض
٢٧	١٧	لا بتأو	إلا بتأول
٢٩	١٤	عن القرى	عن أهل القرى
»	١٥	وسنة أهل الله	وسنة الله
٣٠	١	بسورة	بصورة
٣٢	١٦	عليها	عليهم
٤٦	٢٢	المتكلين	المتكلمين

صفحة	سطر	خطأ	صواب	
٤٧	٨	الخداع	خداع	
»	١٢	الشيطان	الشياطين	
٥١	٩	ويظهرون	ويظهران	*)
»	»	ويهوهم	ويهيأهم	*)
»	»	بقولهم	بقولهما	*)
٥٧	٦	لا يبدأهم	لا يبدؤهم	
٥٩	١٨	في هذا	هذا	
»	٢٦	أزكى الانفس	أعلى الانفس	
٦٠	١	ما نكره	ما انكره	
»	١٥	يناوؤه	يناوئوه	
٦١	١	وه أجدر	وهو أجدر	
٦٤	٤	إنه	أنه	
٦٧	٢٥	مسحورا	مسحور	
٧١	١٠	أأذن	آذن	
٧٦	١٦	وما (وما	(وما	
٧٧	٢٥	ايراد	يراد	
»	١٢	مستلمين	مستسلمين	
٧٨	١١	بوادر	بوادر	
»	١٤	رايه يكن	رايه لم يكن	
»	٢٢	ستعينوا	استعينوا	
٧٩	٢٥	وفي تصريح	وفيه تصريح	
٨٠	١٨	يطمأنهم	يطمئنهم	
٨٣	٢٣	فيالتوراة	التوراة	
٨٦	١٨	قبهم	قبلهم	
»	٢٣	وروابتهم	ورؤيتهم	

*) هذه الاغلاط من الاصل المطبوع لتفسير الجصاص نبهنا عليهاهنا

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨٨	٣	وجود	وجوده
٩٥	١٢	أجل بالفوه	أجل هم بالفوه
٩٦	٢	ذا كان	إذا كان
٩٨	١٣	وسلطانهم عنها فقد كانت بلاد فلسطين وحرمانهم	وسلطانهم عنها وحرمانهم من التفكه بنعيمها فقد كانت بلاد فلسطين إلى الشام تابعة لمصر
٩٩	٢٢	رعون	فرعون
١٠٠	١٢	مخالف	ومخالف
»	٢١	ما اكتشفت	ما اكتشف
»	٦	بدء	بدأ
١٢٨	٤	شتبه	اشتبه
»	٢٢	والوهية	والواهية
١٢٩	٢٥	أفراد	أفرادا
١٣١	١٩	ورد شيء	بردشيء
١٣٢	٢٣	فكارهم	أفكارهم
»	٢٥	بها	به
»	٢٦	شيء	شيئا
١٣٥	١٤	كل المتأول	المتأول
١٣٧	٢٣	تكرارا	تكرار
١٤٠	٥	وراثها	من وراثها
»	١٣	وامتاعها	وامتناعها
»	٢٢	يتمتع	يغتنم
١٤١	»	ألم تروا كيف بدأ الله الخلق ثم الله الخ	قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله الخ
١٤٢	١٠	منه	منها
»	٢٦	وهذا كأنه أراد	هذا وكأنه أراد

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٤٣	٤	وإملاقاته	ملاقاته
«	٨	نه	إنه
«	٢٣	تضارن	تضارون
١٤٤	٢٤	لله	الله
١٤٧	٢١	الجمع	والجمع
١٤٩	١٩	والفلاسفة	الفلاسفة
١٥٠	٤	فيا	فيها
١٥٧	«	يجلعها	يجعلها
١٦٠	١٤	وفالى	فالى
١٦١	٨	عد الدرهم	عد الدراهم
١٦٣	«	فيه	فيها
١٦٤	رأس الصفحة	قائع	وقائع
«	٨	تخيل	تخيلا
«	١٤	لدقيق	الدقيق
«	٢٧	لذي	الذي
١٦٥	٢٢	لى	الى
«	٢٤	هذ النجار	هذا النجار
«	٢٥	غارا	عازا
١٧٣	٢	وجم	وجهه
١٧٤	٥	وإن تخل	وإن لم تخل
١٧٥	٧	الباحون	الباحثين
١٧٦	١٥	توليد	وتوليد
١٧٨	٥	وهو	هو
«	٢٦	لا معاني	إلا معاني
١٨٢	١٦	يلزمو نا	يلزمونتا
١٨٤	١٠	لذي يقرأه	الذي يقرؤه
«	١٣	الفظ	اللفظ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٨٩	١٠	النو	النور
١٩١	١٨	الرب	إلى الرب
١٩٣	٣	اى خلقه	إلى خلقه
١٩٤	١٤	أن يوصل	به أن يوصل
»	٢٧	ربى	ربى
١٩٥	٢	لمائدة	المائدة
١٩٦	٤	حبَطت	حبِطت
»	١٤	على	عليه
»	١٥	عليها	عليه
١٩٨	٢	على هو	على ما هو
٢٠٠	٤	لِتَكون	لتكون
٢١٣	١٣	لا أياما	إلا أياما
٢١٥	٢٤	منا	ومنا
٢٢٠	رأس الصفحة	يتجزأ	يتجرأ
٢٢١	٦	ونبلونكم	ونبلوكم
٢٢٤	٢٥	بالامتين	بالاميين
٢٢٨	١٦	كالرياء	كالربا
٢٢٩	رأس الصفحة	التغرير	التعزير
٢٣٤	١٠	وإهانة	وأهانه
»	١٦	لخبر	الخبر
٢٤٤	٢	الديار الديار	الديار
٢٥٠	١٣	أني	أنه
٢٦٢	٧	عشرة	عشر
٢٦٤	١٧	مخالف أمر	مخالفا أمر
»	٢٥	المسكنة	والمسكنة
٢٧٦	١٠	بحيرة سارة	بحيرة ساوة
٢٧٩	٥	لفظ	لفظا

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٨٢	٢٤	لاتهم	لاتقهم
٢٨٥	»	ربعته	شريعته
٢٩٤	رأس الصفحة كسابقه ولاحقه		
٢٩٦	١	العزلي	العربي
٢٩٨	رأس الصفحة	بشائر المسيح بمحمد في انجيل برنابا	بشائر النبي حجي بمحمد (ص)
٣٠٥	٥	ماور	ماورد
٣٠٨	١٧	لله	الله
٣٠٩	رأس الصفحة	الادلة على وجوب العربية	مايجب مراعاته في دعوة الاسلام اليوم
٣٢٠	١٣	والعثمانيين	العثمانيين
٣٢٢	٦	جاءهم	جاءهم
٣٢٤	رأس الصفحة	كتاب قوم جديد التركي	فتوى المنار في حظر ترجمة القرآن
٣٢٩	٤	نقرأها	نقرؤها
٣٣٢	١٨	كما بدائم	كما في بدائع
٣٣٥	رأس الصفحه	مذهب المالكية والحنابلة في المسألة	مذهب الشافعية في المسألة
٣٤٣	٢٣	وهذا من دليل	وهذا دليل
٣٤٦	٦	نظاء	نظام
٣٥٠	٢٣	الفرق	هذا الفرق
٣٥١	١	شرط إن يكون	شرط إن أن يكون
٣٥٧	٩	خطأهم	خطؤهم
٣٦٢	٢١	ان الايمان	يقولون: ان الايمان
٣٦٥	١٣	وَظَلَّلَمَا	وَظَلَّلْنَا
٣٧٠	١٠	وكان	كان
٣٧٤	٢٠	البحرَ	البحرِ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٧٥	٢	بنهونَّ	ينهونَ
٣٨٠	رأس الصفحة هكذا		سنة الله في عقاب الامم
٣٨١	١١	فأمنهم	اذ أمنهم
٣٨٤	٢٠	آمنوإ	آمنوا
٣٨٨	٦	آباءهم	آبائهم
٣٩٩	١٣	أتيتكم	آتيتكم
٤٠٠	٨	بهذه	بهذا
»	٩	كانت هذه آية الاعراف	كانت آية الاعراف هذه
٤٠٤	٤	هذا	هذه
»	١٨	(خاضعين للاعناق)	(خاضعين) للاعناق
»	٢١	القناة	القناة اه
٤٠٥	٢٣	فيها	فيما
٤٢١	رأس الصفحة هكذا		استعمال مادة الفقه في القرآن
٤٢٢	»		الرقى والتمائم والطلاسم
٤٢٣	٢	تدعون	تدعون اليه
»	٢٥	خالهم	حالهم
٤٣٩	١٤	المذكورة	المذكور
٤٤٠	٢١	عن	عنه
٤٥٤	٢٥	ولها	لها
٤٥٥	٨	لايزال	لاتزال
٤٦٤	٢٤	ويل	فويل
٤٦٥	١١	وتعلمون	ويعلمون
٤٧٥	١٨	خمسين	خمسون
٥١٤	٨	تسمى	أن تسمى
٥١٤	١١	لما	ما
٥١٥	٢٤	أنزل	نزل

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥٢٢	١٨	عبداحارث	عبدالحارث
٥٢٦	٢٢	يدعو	يدعون
٥٣٢	٧	ولمرقنهم	ولتعرفنهم
»	٢٣و٢٢	فأنت	أفأنت
٥٣٥	٢١	العابدون السائحون	العابدون الحامدون السائحون
٥٥٥	٧	وقالوا	وقال الذين كفروا
٥٥٧	١٤	نفسه	وحده
٥٦٥	٢٢	يتخلف	تخلف
٥٦٦	١٩	منها	منها
٥٩٢	١٠	لكم فزادهم	لكم فاخشوهم فزادهم
٥٩٣	١٤	وانظر	وانتظر
»	٢١	تقدم في تفسير	تقدم تفسير
٦٠٤	٢٥	سرع	شرع
٦١٧	٤	لحال	الحال
٦٢٣	٢٤	رح	قرح
٦٢٥	١٠	عنه	عند
٦٣٠	٨	نجى	نجوى
٦٣٥	١٦	قلبه وسمعه	سمعه وقلبه
٦٣٧	٢٥	قرآنا	قرأنا
٦٤٤	٨	ولا يبخس منه شيئاً (*)	
٦٤٧	١	يجل	يجمل
»	٦	لفصل	الفصل
٦٤٨	١٨	(يؤت الحكمة	يؤتي الحكمة
٦٤٩	٢١	يزعمون	فهم يزعمون
٦٦٨	رأس الصفحة	الطالحين	الطالحين

(*) ترمج (تشطب) هذه الجملة اذ الشاهد يتم بما قبلها وليس هذا بمحلها من التنزيل بل محلها في أوائل الآية التي قبلها



هذا التفسير الوحيد الذي فسر به القرآن من حيث هو هداية عامة للبشر، ورحمة للعالمين، جامعة بين حقوق الارواح والاجساد وأمور الدنيا والدين، ومرشد لاصول العمران وسنن الاجتماع، ووسيلة لسعادة الناس في كل زمان ومكان، بانطباق عقائده على العقل، وآدابه على الفطرة وأحكامه على درء المفاسد وحفظ المصالح، وهذه هي الطريقة التي جرى عليها في دروسه في الازهر حكيم الاسلام



الشيخ محمد عبده

(رضي الله عنه)



أوله (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) وقد بدىء نشره في أول المجلد ٢٥ من المنار (سنة ١٣٤٢)

(تأليف)

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

الطبعة الاولى بمطبعة المنار سنة ١٣٤٢ هـ ق الموافق سنة ١٣٠٣ هجرية شمسية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا، قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا . رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ

هذه الآيات ومابعدها تتمة قصة شعيب عليه السلام. مبدوءة بجواب قومه له عما أمرهم به من البر ونهاهم عنه من المنكرات والآثام، وأنذرهم إياه من الانتقام، بقوله (فاصبروا حتى يحكم الله بيننا) ورد بأسلوب الاستئناف البياني كامثاله من مراجعة الكلام، وتولاه الملا منهم اي كبراء رجالهم كدأب الجماعات والأقوام ، وهو:

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا ﴾ أي قال اشراف قومه وأكابرهم الذين استكبروا عن الايمان له وعتوا عما أمرهم به ونهاهم عنه اتباعا لاهوائهم — وقد استضعفوه — نقسم لنخرجنك يا شعيب انت والذين آمنوا معك من قريتنا الجامعة او من بلادنا كلها — فلفظ القرية والبلد يطلق أحيانا على القطر أوالمملكة — او لتعودن وترجعن الى ملتنا وماندين به من تقاليدنا الموروثة

عن آبائنا ، فتكون ملة لكم ومحيطة بكم معنا. ضمن العود معنى الظرفية. وهو يتعدى باللام والى وفي ومنه (١٧: ٦٩ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى) يعني البحر اذ الخطاب قبله لمن مسهم الضر فيه وليس فيه من معنى الظرفية ما في قوله (٢٠: ٥٤ منها خلقناكم وفيها نعيدكم) يعني الارض. والمعنى تقسم ليكونن احد هذين الامرين: إخراجكم اوعودتكم في الملة. فاختاروا لانفسكم، قيل ان التعبير بالعود يقتضي انهم كانوا على ملتهم ثم خرجوا منها وهو يصدق بالمجموع فلا ينافي القول بعصمة الانبياء من الكفر حتى قبل النبوة ، على ان شعيباً عليه السلام لم يكن قبل النبوة على ملة اخرى غير ملة قومه فيمنعهم ذلك من التعبير في شأنه بالعودة ، وكونه لم يشاركهم في شركهم ولا في بخس الناس اشياءهم وهضم حقوقهم امر سلبي لا يلتفت اليه جمهورهم ، ولا يعدونه به خارجا عنهم، وقال الراغب : العود الرجوع الى الشيء بعد الانصراف عنه إما انصرافا بالذات أو بالقول والعزيمة اه ومنه ذمه والدعوة الى غيره ولا يقتضي هذا المعنى سبق الكون فيه ولا عدمه، فلا حاجة إذن الى تصحيح التعبير بما قيل من تفسير العود بالمصير، وفيه من التكلف ما ليس فى القول بالتغليب ، ولا سيما في جوابه عليه السلام

﴿ قال اولو كنا كارهين؟ ﴾ يعني العود في ملتكم على كل حال من الاحوال حتى حال الكراهة لها الناشئة عن اعتقاد بطلانها وقبحها وما يترتب عليها من الفساد في الدنيا والعذاب في الآخرة ؟ فالاستفهام للانكار و«لو» للغاية ، أو أتأمروننا ان نعود فيها وتهددوننا بالنفي من وطننا والاخراج من ديارنا إن لم نفعل ولو كنا كارهين لكل من الامرين؟ — على الاصل فيما يحذف متعلقه، وهو ان يتناول كل ما يصلح له، فالاستفهام للتعجب من صنيعهم واستنكار طلبهم ورفضه بدون مبالاة ، ووجه كل من الانكار والتعجب جهل هؤلاء الملأ بكنه الدين والملة، وكونه عقيدة يدان الله بها، وأعمالا يتقرب اليه بأدائها وان كان غنياً عنها، وأعاشرعها لتكمل الفطرة البشرية بالتزامها — وجهلهم بكون حب الوطن، وإلف السكن، لا يبلغ هذه المنزلة، ولجهلهم هذا ظنوا ان شعيباً عليه السلام قد يؤثر هو ومن آمن معه التمتع بالاقامة في وطنه ومجاراة اهله في كفرهم ورذائلهم على مرضاة الله تعالى بالتوحيد المطهر للنفس من ادران الخرافات، وبالفضائل المرقية للنفس في معارج الكمال ، ذلك بأن الملة عند اولئك الملأ الخاسرين رابطة تقليدية، وعصبية قومية، يجري اصحابها فيها على قول الشاعر :

وهل انا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية ارشد

وملة الرسل عليهم السلام ليست كذلك بل هي دين مالك للنفس ، حاكم على الوجدان والعقل، يقصد به الكمال البشري الاعلى بمعرفة الله تعالى والقرب منه، ومايتبع ذلك من صلاح الدنيا وسعادة الآخرة، فان تمكن صاحبه من إقامته في وطنه واصلاح اهله به فهم احق به بدءاً ودواما، وان منع فيه حريته ففتن في دينه كان تركه واجبا، فان لم يخرج منه شعيب ومن آمن معه إخراجا وهم كارهون كما اخرج خاتم النبيين مع السابقين الاولين الى الاسلام، خرجوا مهاجرين كما فعل ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، (٢٩ : ٢٥ وقال اني مهاجر الى ربي إنه هو هو العزيز الحكيم) وقد اوجب الله تعالى الهجرة على من يستضعف في ارض وطنه فيمنع من إقامة دينه فيها ، ويوجب المتعصبون للاوطان في هذا العصر الهجرة منها اذا منعوا حريتهم الشخصية فيما هو دون الدين والوجدان ، بل يعز على بعضهم ان يقيم في وطنه اذا منع فيه حرية الفسق والآثام، ورُبَّ اناس عز عليهم ترك وطنهم ، فآثروا البقاء فيه مفتونين في دينهم ، فأظهروا الكفر ليأمنوا على حياتهم، وظلوا يسرون المحافظة على الاسلام في خاصة انفسهم ، ولكنهم لم يتمكنوا من تلقينه لاولادهم وتربيتهم عليه فارتدت ذريتهم عنه في زمنهم او من بعدهم ، كما وقع لبعض مسلمي الاندلس بعد ثل الاسبانيين لعرش دولتهم العربية وإكراههم على التنصر او الخروج من البلاد فخرج بعض وبقي آخرون تحت وعيد قوله تعالى (٤ . ٩٦ ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الارض — قالوا: الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً (٩٧) الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا (٩٨) فأولئك عسى الله ان يعفو عنهم وكان الله عفوا غفوراً)

وقد قدر بعض المفسرين الفعل المحذوف من الجملة ومتعلق الكراهة هكذا : قال أنخرجوننا من وطننا بغير ذنب يقتضي الاخراج ولو كنا كارهين لمفارقته حريصين على الاقامة فيه؟ وهو تخصيص لا وجه له، فاللفظ يقتضي تقدير كراهة كل من الامرين لحذف متعلق الكراهة والمقام يجوز تخصيصه بالعود في ملتهم لانه الاهم عند الانبياء ، والمناسب لبقية جوابه عليه السلام :

﴿ قد افترينا على الله كذبا ان عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ﴾

هذا كلام مستأنف لبيان أهم الامرين وأولاهما بالرفض والكراهة وهو انشاء في لفظ الخبر فاما أن يكون تأكيداً قسميا لرفض دعوة الملأ إيام الى العود في ملتهم كما يقول القائل: برئت من الذمة أومن ديني أومن رحمة الله تعالى ان فعلت كذا. فيكون مقابلة لقسمهم بقسم أعرق منه في التوكيد — وإما أن يكون تعجباً خرج لا على مقتضى الظاهر وأكد بقد والفعل الماضي، والمعنى ما أعظم افتراءنا على الله تعالى ان عدنا في ملتكم بعد اذ نجانا الله منها وهدانا الصراط المستقيم ، بالحنيفية ملة ابراهيم، واذا كان من يتبع ملتكم يعد مفترياً على الله تعالى بقوله عليه مالا يعلم، لا بهداية من الوحي، ولا برهان من العقل؟ فكيف يكون حال من افترى عليه وضل عن صراطه على علم؟ وان كفر الجحود وهو انكار الحق وغمطه بعد العلم به هو شر أنواع الكفر ، والافتراء على الله تعالى فيه أفظم ضروب الافتراء التي لا يقبل فيها أدنى عذر؟

وأنت ترى أن التنجية أدل من العود على إثبات أنهم كانوا على ملة قومهم حقيقة . وقد علمت ان المفسرين يجعلونه تغليبا لاستثنائه عليه السلام . ونقول بناء على ما قررناه من أن عدهم إياه من أهل ملتهم لا يقتضي أنه كان يعبد ما يعبدون، ويفعل من التطفيف وبخس الناس أشياءهم ما كانوا يفعلون،: إنه يصح أن يشمله إنجاء الله تعالى إياه منها بمعنى انجائه من الانتماء الى ملة ما كان يؤمن بعقيدتها ، ولا يعمل عمل أهلها ، ولا كان يهتدي بعقله ورأيه الى ملة خير منها ، فكان موقفه موقف الحيرة في شأنها ، كما يؤخذ من قوله تعالى في خطاب النبي الخاتم الاعظم ؛ صلى الله عليه وسلم (ووجدك ضالا فهدى) وتفسيره بقوله (ولقد أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا) الآية

﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا ﴾ هذا رفض آخر للعود في ملتهم مؤكد ابلغ التأكيد معطوف على مناسبه ، والتعبير يدل على نفي الشأن ، وهو أبلغ من نفي الفعل ، لانه نفي له بالدليل وهو كونه غير مستطاع ، ولا جار على سنن الله في الاجتماع ، والمعنى ليس من شأننا أن نعود فيها في حال من الاحوال الا حال مشيئة الله ربنا ، المتصرف في جميع شؤوننا ، فهو وحده القادر على ذلك لا يقدر عليه غيره لا أنتم ولا نحن أيضا، لاننا موقنون بأن ملتكم باطلة ضارة مفسدة، وملتنا هي الحق، التي بها صلاح

الناس وعمران الارض، والموقن لايستطيع إزالة يقينه ولاتغييره، وانما ذلك بيد مقلّب القلوب سبحانه ورهن مشيئته ﴿ وسع ربنا كل شيء علماً ﴾ فعنده من العلم بأسباب الايمان والكفر والهدى والضلال والصلاح والفساد ماليس عندكم ولاعند أحد من الخلق، ومشيئته تجري بحسب علمه وحكمته في خلقه. ومما كان يعلمه عليه السلام من حكمته تعالى وسننه في خلقه أنه يقيم حجته بأهل الحق على أهل الباطل وينصرهم عليهم بالقول والفعل ماداموا ناصرين له وقائمين بما هداهم اليه منه، فكأنه يقول لهم : اذا كان الامر كذلك فلا تطمعوا اذاً أن يشاء ربنا الخفي بنا عودتنا في ملتكم بعد اذ نجانا بفضله منها وأقام الحجة عليكم بنا، وماكان تعالى ليدحض حجته ، ويبطل سنته

فهذا الاستثناء مؤيس للملأ من قوم شعيب من عودته عليه السلام مع من آمن معه في ملتهم ، لانه بعد أن نفى وقوع العود منهم باختيارهم نفيا مؤكداً بأنه ليس من شأنهم ولا مما يجيء من قبلهم في حال ما من الاحوال التي تطرأ عليهم كالترغيب والترهيب والرجاء في المنافع والخوف من المضار، ومنها الاخراج من الديار، استثنى حالا واحدة وهي مشيئة الله تعالى وحده، فدل على عموم النفي فيما عدا المستثنى وقد يستعمل لتوكيده من غير ملاحظة لمتعلق المشيئة هل هو ممكن يجوز أن يقع أم لا، كقوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى الا ماشاء الله) أو للتنبيه على النفي بكرم الله وفضله لا بالايجاب عليه وهو الوجه الذي اختاره شيخنا رحمه الله تعالى في تفسير سورة الاعلى. ولايخل بتوكيد عموم النفي جواز تعلق المشيئة بالمنفي في كلام شعيب عليه السلام والقرائن اللفظية والمعنوية تدل على عدم وقوع هذا الجائز وهو انه تعالى لايشاء عودته مع من آمن معه في ملة قومهم. فهو قد قرر أن هذا شيء لايقدر عليه الا الله تعالى فطلبه من غيره عبث ، يؤكده ذكر الرب مضافا الى ضمير المتكلم ومن معه فأفاد بدلالة الالتزام او الاقتضاء أنه لايشاء لهم الاماعودهم بحسن تربيته اياهم ولطفه وعنايته بهم، اذ أنجاهم من تلك الملة الباطلة، وهو تأييد عصمة رسولهم وحفظ جماعتهم من العود فيها ، فكان هذا بمعنى قول عبد أمين أراد أن يغويه بعض المغوين ويغريه بخيانة سيده الخفي به وصرف بعض ماله فيما يضره هو ويفسد عليه نفسه : ليس هذا من شأني ولا مما يدخل في تصرفي الا أن يشاء سيدي الصالح المصلح المعتني بشأني ، وهو اعلم مني بأمري . فالتعبير ليس مسوقا

لتقرير حجة الاشاعرة على جواز مشيئة الله لكفرهم بالفعل، ولا حجة المعتزلة على وجوب رعاية الصلاح والاصلح لهم ولغيرهم بالعقل، ولكنه يدل بطريق الالتزام على ما ذكرنا من عناية الرب سبحانه وتعالى برسله وأتباعهم المستقيمين على دينهم، ومضي سنته ووعده بتأييدهم ، المصرح به في آيات أخرى كقوله تعالى (إنا لننصر رسلنا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد) وقوله (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وان جندنا لهم الغالبون) فهو لن يشاء كفرهم بالفعل ، بل يختار لهم الاصلح بحكمته وفضله لا بايجاب العقل .

وقد روى ابن جرير وغيره عن السدي انه قال في الآية : وما كان ينبغي لنا ان نعود في شرككم بعد اذ نجانا الله الآ أن يشاء الله ربنا والله لا يشاء الشرك ولكن يقول الا أن يكون الله قد علم شيئا فانه وسع كل شيء علما اه ولعله يريد أنه لا يشاء ذلك لانه مخالف لسننه الحكيمة وفضله العظيم على رسله ومن آمن بهم وان كان لا يقع من اهل الشقاء بسوء اختيارهم الا بارادته ومقتضى سنته ، وسننه في الفريقين مختلفة كما شرحناه مرارا

وقد سبق مثل هذا الاستثناء في سورة الانعام ، حكاية عن ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، اذ قال لقومه (٦ : ٨١ ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون) وقد اخترنا هنالك أنه استثناء من عموم الاوقات وأنه منقطع معناه : لكن ان شاء ربي ان يصيبني في وقت من الاوقات مكروه من قبل ما تشركون به كوقوع صنم علي يشجني ، فانه يقع بقدرته تنفيذاً لمشيئته ، لا بقدرة شركائكم ولا بمشيئتهم لانهم لا قدرة لهم ولا مشيئة ، ثم علل ذلك بمثل ما علله به بعده شعيب عليهما الصلاة والسلام وعلى نبينا وآله فقال : (وسع ربي كل شيء علماً) أي ومعبوداتكم لا تعلم شيئاً ، الخ واخترنا هنا جعل الاستثناء من أعم الاحوال لا الاوقات وان جاز الجمع بينهما ، لان الوقت لا شأن له هنا ، على ان عموم الاحوال يستلزم عموم الاوقات

ثم أكد عليه السلام ذلك كله بقوله ﴿ على الله توكلنا ﴾ أي اليه وحده وكلنا أمرنا، مع قيامنا بكل ما أوجبه علينا من المحافظة على الدين الذي شرعه لنا، فهو يكفينا أمر تهديدكم، وكل مالم يجعله في استطاعتنا من جهادكم . وذلك أن من أصول المعرفة بالله عز وجل التي يعرفها جميع رسله أن من توكل عليه

كفاه (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وان من شروط التوكل الصحيح في الامر القيام بكل ما أوجبه الله تعالى فيه من الاحكام الشرعية ، ومراعاة ما اقتضته حكمته فيه من الاسباب والسنن الكونية والاجتماعية . فمن يترك العمل بالاسباب فهو جاهل مغرور ، لا متوكل منصور ولا مأجور ، وقال النبي (ص) لمن سأله أيترك ناقته سائبة ويتوكل على الله تعالى «اعقلها وتوكل» رواه الترمذي وقال تعالى لرسوله بعد امره بمشاورة اصحابه في غزوة احد (فاذا عزمت فتوكل على الله) وانما يكون العزم بعد الاخذ بالاسباب ومنها مظاهرته (ص) يومئذ بلبس درعين . وقد بينا ذلك مفصلا في مواضع من هذا التفسير (١)

والخلاصة انه عليه السلام بدأ جوابه للملأ من قومه بالتعجب من تهديدهم وانذارهم ، وإقامة الادلة الدينية والعقلية على امتناع عودهم الى ملة الكفر باختيارهم . وعدم استطاعة أحد على اجبارهم عليه غير الله تعالى الفعال لما يريد ، والاستدلال على أن هذا مما لا يريده — وثنى ببيان توكلهم على الله تعالى الذي يكفي من توكل عليه ما أهمه وهو فوق كسبه واختياره ، فتجتمع له العناية الكسبية والوهبية — ثم ثلث بالدعاء الذي لا يكون شرعيا مرجوّ الاجابة الا بعد القيام بما في الطاقة من العمل الكسبي ، والتوكل القلبي ، فقال

﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ المعنى لمادة (الفتح) كما حققه الراغب إزالة الاغلاق والاشكال ، وهو ضربان (أحدهما) ما يدرك بالبصر كفتح العين والقفل والغلق والمتاع من صندوق وغرارة وخرج وعلبة و (الثاني) هو ما يدرك بالبصيرة كفتح أبواب الرزق ، والمغلق من مسائل العلم ، والمبهم من قضايا الحكم ، والنصر في وقائع الحرب ، وفي آيات القرآن استعمالات من الضربين كليهما ، ولك ان تقسمه الى حسي ومعنوي — ومن الاول الفتح الذي يكون بالكلام كحكم القاضي وفتح المأموم على الامام في الصلاة وهو أن يقرأ الآية التي أخطأ فيها أو وقف عن القراءة ناسياً لما بقي منها — والى حقيقي ومجازي ومن مجاز الاساس: فتح على فلان اذا جُد وأقبلت عليه الدنيا ، وفتح الله عليه — نصره .. وفتح الحاكم بينهم ، وما أحسن فُتاحته أي حكمه ، قال

(١) راجع كلمة التوكل في فهارس أجزائه ومن أوسعها ما في ص٢٠٧–٢١٤ ج٤

ألا أبلغ بني وهب رسولا بأني عن فُتاحتهم غنيّ

وبينهم فتاحات أي خصومات . وفلان ولي الفتاحة بالكسر وهي ولاية القضاء، وفاتحه حاكمه. وعن ابن عباس: ماكنت ادري ما قوله تعالى (ربنا افتح بيننا وبين قومنا) حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها : تعال أفاتحك. وقالت اعرابية لزوجها بيني وبينك الفتاح اه وأثر ابن عباس اخرجه قدماء التفسير المأثور وابن الانباري في الوقف والابتداء والبيهقي في الاسماء والصفات وفسر المفاتحة فيه بالمقاضاة . وهو يدل لغة على انها ليست قرشية بهذا المعنى ويؤيد ما روي عن السدي من انها يمانية وخصها بعضهم بالحميرية وذو يزن من اسمائهم . والمناسب ان كل فتح بين فريقين فهو عمى الحكم والفصل بينهما إما بالقول والفعل او بأحدهما ومنه النصر، ومن الآيات فيه (٣٤: ٢٦ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم) ومنها حكاية عن نوح عليه السلام (٢٦ : ١١٩ فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين) وهذا عين مراد شعيب عليه السلام في دعائه الملاقي لانداره قبله بقوله (حتى يحكم الله) الخ

والمعنى : ربنا احكم وافصل بيننا وبين قومنا بالحق الذي مضت به سنتك في التنازع بين المرسلين والكافرين، وبين سائر المحقين المصلحين ، والمبطلين المفسدين في الارض، وأنت خير الحاكمين، لاحاطة علمك بما يقع به التخاصم وتنزهك عن الظلم ، واتباع الهوى في الحكم

---

(٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ

لما يئس الملا من قوم شعيب من عودته في ملتهم ، وعلموا انه ثابت على مقارعتهم ، خافوا ان يكثر المهدون به من قومهم ، فحذروهم ذلك بما حكاه الله تعالى عنهم بقوله :

﴿ وقال الملا الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون ﴾
هذا عطف على (قال الملا الذين استكبروا) وليس جوابا لشعيب عليه السلام ولا داخلا في هذه المراجعة بينه وبينهم اذ لو كان كذلك لفصل ولم يعطف، بل ذلك ماقالوه له والمناسب فيه وصفهم بالاستكبار فهو الذي حرأهم على تهديده وإنذاره الاخراج من قريتهم المشعر بأنهم هم اصحاب السلطان فيها، وهذا ما قالوه لقومهم اغواء لهم بصدهم عن الايمان له، والاخذ بماجاءبه، والمناسب فيه وصفهم بالكفر، فهو الحامل لهم عليه، سواء كان سببه الاستكبار عن اتباعه أو غيره، بل لو علم أولو الرأي من قومهم أن سبب صدهم عنه هو الاستكبار والعتو لما أطاعوهم، ولذلك عللوا لهم صدهم عنه بما يوهمهم أنه هو المصلحة لهم اذ قالوا لهم بصيغة القسم لئن اتبعتم شعيبا انكم في هذه الحالة لخاسرون، وحذف متعلق الخسار ليعم كل ما يصلح له، اي خاسرون لشرفكم ومجدكم، بايثار ملته على ملة آبائكم وأجدادكم، ومناط عزكم وفخركم، واعترافكم بأنهم كانوا كافرين ضالين وانهم معذبون عند الله تعالى - وخاسرون لثروتكم وربحكم من الناس بما حذقتموه من تطفيف الكيل والميزان وبخس الغرماء أشياءهم لا بتزاز اموالهم، وأي خسارة أكبر من خسارة الشرف والثروة ؟ فمعلوم أن اللام في قولهم «لئن» موطئة للقسم وهي أقوى مؤكد للكلام، والجملة لاسمية وتصديرها بإن وقرن خبرها باللام وتوسيط «اذاً» التي هي جواب وجزاء بين طرفيها - كل ذلك من المؤكدات لمضمونها الخادعة لسامعيها، وان مثلها مما يروج بين امثالهم في كل زمان، ولا سيما زمن التفاخر بالآباء، والتعصب للاقوام والاوطان، فانا ابتلينا في دعوتنا الى الاصلاح بمن كانوا يصدون الناس عنا وعن نصيحتنا لاهل ملتنا بأننا لم نولد في بلادهم، ولا ننتمي الى أحد من أجدادهم، على أنا ننتمي بفضل الله تعالى الى آل بيت نبيهم صلى الله عليه وسلم، وان منهم من لا يعرف له نسب، ومنهم من ليس من القبط ولا العرب، وانا نرى أشد الشعوب عصبية للوطن لا يجعلونها سببا للصد عن العلوم والفنون ولا الدين ومذاهبه وانما التنافس بينهم في جعل كل واحد منهم وطنه أعز وأقوى وأغنى وأقنى ولو باقتباس العلم من الآخر : نرى رجال الدين الكاثوليكي من الالمان والفرنسيس أعوانا على نصر الكثلكة ونشرها في بلادهم وغيرها ، كما نرى مثل هذا بين رجال البروتستانية من الالمان والانكليز، كدأبهم وسيرتهم في العلم، فعلماء كل شعب

يتسابقون الى اقتباس مايظهر عند الآخر من اختراع أو كشف عن حقيقة علمية أو اهتداء لسنة كونية او منفعة للخلق، ويعزون كل امر الى صاحبه، ويقولون ان العلم لا وطن له . وانما يقع التغاير والتفرق بين البشر في مثل هذا في ابان ضعفهم وغلبة الجهل عليهم ، وفشو التحاسد وسائر الاخلاق الرديئة فيهم ، واعتبر ذلك في الامة الاسلامية في ابان ارتقائها العلمي حتى القرن الخامس والسادس اذكان مثل ابي حامد الغزالي يجيء بغداد عاصمة العلم والملك الكبرى في الارض فيكون رئيسا لاعظم مدرسة فيها بل في العالم (وهي النظامية) ولا يحول دون ذلك كونه من قرية طوس في بلاد الفرس — وفيا بعده إذ تغيرت الحال، كما بيناه في مواضع من المنار، ونحمد الله ان تلك النزغة الشيطانية تكاد تزول من مصر بارتقاء العلم والعمران على كون النزعة الوطنية المصرية تزداد قوة وانتشارا

﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ تقدمت هذه الجملة بنصها فى بيان عذاب قوم صالح عليه السلام من هذه السورة (الآية ٧٧) فيراجع تفسيرها (في ص ٥٠٧ و٥٠٨ من المجلد الثامن) وفيه أنه عبر عن عذابهم في سورة هود بالصيحة بدل الرجفة — وكذلك قوم شعيب — والرجفة المرة من الرجف وهو الحركة والاضطراب، ويصدق برجفان الارض وهو الزلزلة ومنه (يوم ترجف الارض والجبال) وبرجفان القلوب من الهول والخوف ومنه قول عائشة (رض) في حديث بدء الوحي : فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ـ والراجح هنا الاول والمعنى فأخذتهم الزلزلة فأصبحوا في دارهم باركين على ركبهم أو منكبين على وجوههم ميتين. فهذا عذاب أهل مدين عبر عنه هنا بالرجفة وفي سورة هود بالصيحة، كعذاب ثمود في السورتين وقد بينا وجه الجمع بينهما

وفي سورة الشعراء أن الله تعالى أرسل شعيباً الى أصحاب الايكة وهم غير مدين فانه وصفه في سورة الاعراف بأنه أخو مدين أي في النسب كما تقدم ولم يصفه في سورة الشعراء بذلك كما وصف من ذكر قبله : نوحا وهوداً وصالحاً ولوطاً (ع . م) وقد أخرج اسحق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس في قوله تعالى ـ من سورة الشعراء (كذب أصحاب الايكة المرسلين) قالوا كانوا أصحاب غيضة بين ساحل البحر الى مدين الخ فأفاد هذا أن الله

تعالى أرسله الى قومه أهل مدين والى من اتصل بهم الى ساحل البحر الاحمر وان حال الفريقين في الكفر والمعاصي كانت واحدة وكان ينذرهم متنقلا بينهم في زمن واحد، فلا يبعد حينئذ أن يكون العذاب قد أخذ الفريقين في وقت واحد أو وقتين متقاربين ، فكان عذاب مدين بالرجفة والصيحة المصاحبة لها، وعذاب أصحاب الايكة بالسموم وشدة الحر الذي انتهى بظلة من السحاب فزعوا اليها يتردون بظلها، فأطبقت عليهم فاختنقوا بها أجمعون، وذهب بعض المفسرين الى أن عقاب الفريقين واحد وسيأتي بيان ذلك في تفسير سورة الشعراء ان شاء الله تعالى

﴿ الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها ـ الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾ يقال غني بالمكان يغنى بوزن « رضي يرضى » اذا نزل به وأقام فيه . هكذا أطلقوه وقيده بعضهم بقيد أو قيدين ، قال الراغب : وغني في مكان كذا اذا طال مقامه فيه مستغنياً به عن غيره . وا كتفى بعضهم بقيد طول الاقامة وبعضهم بالاقامة في رغد عيش

والآية بيان مستأنف من قبل الله عز وجل ناقض لقول الملا من قوم شعيب لقومهم (لئن اتبعتم شعيباً انكم اذاً لخاسرون) وقولهم قبله (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا) كأن سائلا يسأل عنهم باعتبار كل من الحالين كيف انتهى الامر فيها وكيف كان عاقبة أهلها ؟ فأجيب عن الاول بقوله : الذين كذبوا شعيباً ـ هددوه وأنذروه الاخراج من قريتهم قد هلكوا وهلكت قريتهم فخرموها كأن لم يقيموا ولم يعيشوا فيها مطلقاً أو في ذلك العيش الرغيد، والامد المديد ، فتى انقضى الشيء صار كانه لم يكن

وأجيب عن الثاني بقوله : الذين كذبوا شعيباً وزعموا أن من يتبعه يكون خاسراً وأكدوا زعمهم بأقوى المؤكدات كانوا هم الخاسرين لما يعتزون به من تقاليد ملتهم ، ومن مالهم ووطنهم ، ولما كانوا موعودين به من سعادة الدنيا والآخرة لو آمنوا ـ دون الذين اتبعوه فانهم كانوا هم الفائزين المفلحين ، فالجملة تفيد حصر الخسار في المكذبين له بالنص ، وتقتضي نفيه عن المتبعين له بالاولى، ومناسبة الجزاء للذنب بجعل الحرص على التمتع بالوطن والاستبداد فيه على اهل الحق سببا للحرمان الابدي منه ، وجعل الحرص على الربح بأكل اموال الناس بالباطل سببا للخسران بالحرمان منه ومن غيره

واختار بعضهم في نكتة الفصل والتكرار وجها آخر وهو انه بيان

مستأنف من الله تعالى جاء بأسلوب الخطابة العربية المؤثرة في الوعظ والتوبيخ وما في معناهما نحو : أنت الذي جنيت علينا ، أنت الذي سلطت علينا اعداءنا، انت الذي فرقت كلمتنا ، انت الذي اوقعت الشقاق بيننا

وقال الزمخشري في الكشاف : ان في هذا الاستئناف وتكرير الموصول والصلة مبالغة في رد مقالة الملا لاشياعهم وتسفيهاً لرايهم، واستهزاء بنصحهم لقومهم ، واستعظاما لما جرى عليهم . وقد خفيت على بعض العلماء الاذكياء دلالة العبارة على هذه المعاني كلها لعدم تأملها : فأما المبالغة في الرد فظاهرة لما يدركه كل من الفرق في نفسه بين مامثلنا به آنفا لاسلوب الخطابة وبين ذكر تلك المسندات بالعطف ، وسببه ان تكرار ذكر المسند اليه بصيغة الموصول والصلة المؤذن بعلة الجزاء يعيد صورة كل منهما في الذهن ، ويكون حكما جديدا بعد حكم، وللحكمين من التأثير في النفس ما ليس للحكم الواحد . واما تسفيه الرأي، والاستهزاء بذلك النصح، فهو تابع لهذا التأثير، المتضمن لما ذكر من التصوير والتمثيل .

﴿ فتولى عنهم وقال ياقوم لقد ابلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ﴾

تقدم تفسير مثله في قصة صالح (ص ٥٠٩ ج ٨ تفسير) وفيه بحث دقيق في ذكر التولي عن القوم ومخاطبتهم بعد هلاكهم .وقد اتحد إعذار الرسولين لاتحاد حال القومين وعذابهما ، ولكن تتمة الآية هناك (ولكن لا تحبون الناصحين) وتتمة الآية هنا ﴿ فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ ولا يبعد عندي ان يكون ناقد قال هذا وذاك ، فعبر عنهما بأسلوب الاحتباك . والمعنى : اني ياقوم قد ابلغتكم رسالات ربي ـ اي ما ارسلني به اليكم من العقائد والمواعظ والاحكام والآداب ــ لجمع الرسالة هنا بحسب متعلقها وافرادها في قصة صالح بحسب معناها المصدري ــ ونصحت لكم بما بينته من معانيها والترغيب فيها وانذار عاقبة الكفر بها، فكيف آسى اي احزن الحزن الشديد على قوم كافرين اعذرت اليهم ، وبذلت جهدي في سبيل هدايتهم ونجاتهم ، فاختاروا ما فيه هلاكهم ، وانما يأسى من قصر فيما يجب عليه من النصح والانذار

(٩٣) وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ

الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

﴿ سنن الله وحكمه في هذه القصص وأمثالها ، والاعتبار بها ﴾

من سنة القرآن الحكيم انه يبين العقائد بدلائلها ، والاحكام مؤيدة بحكمها وعللها ، والقصص مقرونة بوجوه العبرة والموعظة بها وسنن الاجتماع فيها ، كما ترى في هذه الآيات التسع التي قفي بها على قصص القوم المهلكين

﴿ وماارسلنافي قريةمن نبي الاأخذنا اهلها بالبأساءوالضراء لعلهم يضرعون ﴾ الواو في أول الآية لعطف الجملة وما بعدها الى آخر السياق الذي وضعنا له العنوان على مجموع ماقبلهن من القصص لمشاركته إياه[1] في كونه حكما له وعبرا مستفادة منه — فعطف الجمل يشمل الكثير منها (كالسياق برمته)، ولا وجه للفصل هنا . والقرية المدينة الجامعة لزعماء الامة ورؤسائها التي يعبر عنها في عرف هذا العصر بالعاصمة كما تقدم مرارا وكان الانبياء يبعثون في القرى الجامعة لان سائر البلاد تتبع أهلها اذا آمنوا . والبأساء الشدة والمشقة كالحرب والجدب وشدة الفقر، والضراء مايضرّ الانسان في بدنه أو نفسه أو معيشته، والاخذ بها جعلها عقابا، وقد تكون تجربة وتربية نافعة. وتقدم مثل هذا في قوله تعالى من سورة الانعام (٦ : ٤٢ ولقد ارسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون) فيراجع (في ص٤١٢ ج٧ تفسير) فانه بمعنى ما هنا ولكن السياق مختلف ، فلما كان ما هنا قد ورد عقب قصص طائفة من الرسل جعل هذا المعنى قاعدة كلية وسنة مطردة في الرسل مع أقوامهم ليعتبر به كل من سمعه أو قرأه في عصر التنزيل وما بعده . ولما كان ما هنالك قد ورد في سياق تبليغ خاتم الرسل للدعوة ومحاجة قومه جعل خطابا خبريا له لتسليته وتثبيت قلبه من جهة ولتخويف كفار قريش وانذارهم من جهة أخرى — وهذا ملاحظ هنا أيضا ولكن بالتبع للاعتبار بالسنة العامة لا بالقصد الاول .

والمعنى : ذلك شأن الرسل مع اقوامهم الهالكين ، وما ارسلنا نبيأ في

(١) أي لمشاركة المعطوف للمعطوف عليه

قوم الا وقد انزلنا بهم الشدائد والمصائب [1] بعد ارساله أو قبيله لنعدّهم ونؤهلهم بها للتضرع وهو إظهار الضراعة أي الضعف والخضوع لنا ، والاخلاص في دعائنا بكشفها ، فلعل تفيد الاعداد للشيء وجعله مرجوا . ومما ثبت بالتجارب وتقرر عند علماء النفس والاخلاق ان الشدائد وملاحج الامور مما يربي الناس ويصلح من فسادهم ، فالمؤمن قد يشغله الرخاء وهناء العيش فينسيه ضعفه وحاجته الى ربه ، والشدائد تذكره به ، والكافر بالنعم قد يعرف قيمتها بفقدها ، فينقلب شاكرا بعدعودها ، بل الكافر بالله عزوجل قد تنبه الشدائد والاهوال مراكز الشعور بوجود الرب الخالق المدبر لامور الخلق في دماغه ، وتذكره بما أودع في فطرته من وجود مصدر لنظام الكون واقداره، كما وقع كثيرا ، والآيات فى هذا كثيرة تقدم بعضها، وقد روي لنا ان الحرب العظمى قد كان لها هذا التأثير حتى في أقل الناس تدينا وهم اهل مدينة باريس فكانت المعابد ترى مكتظة بالمصلين في اثناء شدائد الحرب

ومن مباحث البلاغة ان نكتة خلو جملة « اخذنا اهلها » الحالية من الواو وقد — هي أن الاصل في المقترنة بهما ان يكون مضمونها مقدماً على العامل فيها كالجملة الاسمية . فاذا قلت مافعل زيد كذا الا وقداعد له عدته — كان المتبادر انه اعدها قبل الشروع في فعله لاجله كقوله تعالى في الجملة الاسمية (وما كنا مهلكي القرى الا وأهلها ظالمون) أي متلبسون بالظلم من قبل لا حال الاهلاك فقط ، واذا قيل : مافعله الا اعدله عدته — شمل إعدادها قبله لاجله وهي الحال السابقة ، واعدادها عند الشروع فيه وهي الحال المقارنة ، بل هذه المتبادرة الى الذهن هنا كقولك : ماسألته الا أجابني ، أي عند السؤال ، ولا يصح أن تقول الا وقد أجابني ، ويصح أن تقول ماسألته الا وقد أذن لي ، أي قبل السؤال . فان قلنا انه يتعين ان تكون الحال مقارنة في الآية اقتضى ذلك ان يكون ما أفادته هي ومابعدها من الابتلاء بالسيئة ثم بالحسنة ثم بما يترتب عليهما من الكثرة وكفر النعمة واقعا كله بعد ارسال الانبياء وفي عهدهم وهو قد يصدق في قوم نوح دون من بعده فلذلك قلنا انها تشمل الحال السابقة والمقارنة ، فليتأمل فاننا لم نر لاحد بحثا في هذه المسألة . ولكن الامام عبد القاهر الجرجاني حقق أن الحال المفرده تفيد المقارنة والجملة الحالية

(١) قالوا ان جملة أخذنا حالية ولم تقرن بالواو وقد لوقوعها بعد « إلا » وهو جائز بالثلاثة الاوجه : الواو وحدها والواو مع قد وحذفهما معا

والمصائب تربية لهم وتمحيصا. كما تكون للكافرين عقابا وإبلاسا، وقد بين الله تعالى ذلك في مواضع من كتابه أظهرها بيانه اياه بالتفصيل في قصة احد من سورة آل عمران اذ قضت حكمته بأن يقصر المسلمون في سبب من أسباب النصر في الحرب فيظهر عليهم المشركون فيزل تلك الآيات الحكيمة المبينة للحقائق وسنن الاجتماع في الحروب والشدائد التي اولها (٣ : ١٢٧ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا — الى قوله — ١٤١ — وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) ومنها قوله (١٤٠ وتلك الايام نداولها بين الناس) ولكن شأن المؤمن أن يعرف هذه المداولات بأسبابها وحكمها ويتحرى الاتعاظ وتربية نفسه بها، لا كما يراها الكافرون والجاهلون بظواهرها وصورها، والآيات التي بعدما أشرنا اليه منها تتمة وإيضاح لها. فراجع تفسيرها في الجزء الرابع من التفسير. وفي معناها أحاديث كقوله صلى الله عليه وآله وسلم «عجباً لامر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لاحد الا للمؤمن : ان أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وان أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » رواه احمد ومسلم من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه

(فان قيل) إننا نرى غير المسلمين يعلمون في هذا العصر ما لا يعلم المسلمون من هذه السنن الاجتماعية التي أرشد اليها القرآن ويستفيدون منها عبراً وتقوى للمضار يظهر أثرها استعدادهم للمصائب قبل وقوعها، حتى لا تأخذهم بغتة، وحتى يتلافوا شرورها بعد وقوعها بقدر الطاقة، ونرى أكثر المسلمين جاهلين وغافلين عن ذلك، وقد فتن بعضهم بهؤلاء الافرنج وحسبوا أنهم لا يكونون مثلهم في استمتاعهم واستعدادهم لدفع الشدائد ، والاستفادة من الاحداث والوقائع، الا إذا تركوا الاسلام ، ونبذوا هداية القرآن !! كما فتنوا هم بالمسلمين باحتقارهم لدينهم تبعاً لاحتقارهم لهم، وطعنهم فيه بما يظنون من تأثيره في اذلالهم واضعافهم، فما قولك في ظلم الفريقين له . وفي انتهاء الحرب العامة الاخيرة باستيلاء غير المؤمنين ، على أقطار عظيمة من بلاد المسلمين ؟ ومن أشد اهل هذه الاقطار استسلاما للذل وخضوعاً للقهر ، هم الذين يدعون أنهم أصح إيمانا ، وأحسن اسلاما ؟ حتى كان ذلك فتنة لبعض زعماء شعب سلم من الهلاك بعد ان كاد يحاط به ، فظنوا ان التقيد بالاسلام سبب الهلكة ، والالقاء بالايدي الى التهلكة ، وان في الانسلال منها المنجاة وارتقاء المملكة ؟

(قلنا) اننا كشفنا أمثال هذه الشبهات ، في تفسير كثير من الآيات ، وفي غير التفسير من المنار ، وبينا مراراً أن المسلمين قد تركوا هداية القرآن في حكوماتهم ومصالحهم العامة . وفوضوا أمورهم الى حكامهم الذين يندر أن يوجد منهم من له إلمام بتفسيره أو علم السنة . حتى من سلموا لهم بمنصب خلافة النبوة — كما تركوا هداية الكتاب والسنة في أعمال الافراد ، فأكثرهم لا يعرف من دينه الا ما يسمعه ويراه ممن يعيش معهم من قومه وفيه الحق والباطل والسنة والبدعة ، وأمثلهم يتلقى عن بعض الشيوخ بعض كتب الكلام الجدلية التي ألفت للرد على فلسفة نسخت وبدع باد أهلها ، وكتب الفقه التقليدية الخالية من جل هداية القرآن والسنة في مثل موضوع الآيات التي نحن بصدد تفسيرها ، وما أشرنا اليه في هذا التفسير من آيات الشواهد ، حتى بلغ الجهل من المسلمين في أم المسائل الخاصة بحياتهم السياسية التي هي مناط دولتهم وبقاء ملكهم أو زواله (وهي مسألة الامامة العظمى) أن يكتب الافراد والجماعات من علمائهم فيها ما هو مخالف لجميع أئمتهم ومذاهبهم ولاجماع سلفهم ، على تهافت ظاهر ، واختلاف فاضح . على ان العلماء المتقدمين قد قصروا في هذه المسألة وهم الذين كان العلم صفة من صفاتهم وملكة من ملكاتهم ، لا ورقة شهادة يحملونها ممن سبق الاجماع على أن مثلهم من المقلدين لا يعد عالما في خاصة نفسه ، حتى يعتد بشهادته لغيره ، بله ما عرف عن بعضهم من شهادة الزور ، وقول الكذب وأكل السحت ، وقد استسفر بعض مجاوري الازهر المقدمين لامتحان شهادة العالمية واحدا منهم لعرض الرشوة على الاستاذ الامام رحمه الله تعالى ليساعدهم في الامتحان فضربه الاستاذ رحمه الله بيديه ، ورفسه برجليه ، وقال له : ياعدو الله أتريد أن أغش المسلمين بك وبأمثالك من الجاهلين بعد هذه الشيبة وانتظار لقاء الله ، فأكون ممن يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ؟ ولو كنت ممن يطبيهم المال ، ويحفلون بجمعه ولو من الحلال ، لكنت من أغنى الاغنياء ؟

ولما كان القرآن هو الذي هدى المسلمين الى أنواع العلم ، وأعطاهم الحكمة والحكم ، كان تركهم لهدايته هو الذي سلبهم ذلك حتى انقلب الامر ، وانعكس الوضع ، واتبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعا بذراع — كما صح في الحديث — فالسواد الاعظم الجاهل اتبع سنن أهل الكتاب في شر ما كانوا عليه في طور جهلهم من الخرافات ، وابتداع الاحتفالات ، وتقليد الآباء والاجداد ، واتخاذ

أوربة واستحوذت عليها الافكار المادية فذهبت بالفضيلة . وهذه الافكار المادية ظهرت في الانكليز أولا فأفسدت الاخلاق وأضعفت الفضيلة ، ثم سرت عدواها منهم إلى الانكليز فهم الآن يرجعون القهقرى بذلك ، وسترى هذه الامم يختبط بعضها ببعض وتنتهي إلى حرب طامة ليتبين أيها الاقوى فيكون سلطان العالم

قال له الامام : اني آمل أن يحول دون ذلك همم الحكماء (مثلكم) واجتهادهم في تقرير مبادىء الحق والعدل ونصر الفضيلة

قال الفيلسوف : وأما أنا فليس عندي مثل هذا الامل فان هذا التيار المادي لابد أن يبلغ مداه غاية حده

وأقول اني ذاكرت في هذا المعنى سياسيا اوربيا في جنيف من بلاد سويسرة فرأيته يعتقد اعتقاد سبنسر بل أخبرني ان كثيرا من عقلاء اوربة يعتقدون ان فساد الاخلاق بالترف الذي أهلك الامم الكبرى كاليونان والرومان والفرس والعرب قد أوشك ان يقضي على اوربة وستهلك بالحرب التي تلي هذه الحرب الاخيرة ، وما هي ببعيدة . ونصح لنا بان لا نقلد اوربة في مدنيتها المادية، وان نحافظ على آداب ديننا وفضائله ، وأن نجمع كلمتنا، ونجعل الزعامة فينا لاهل الرأي والفضيلة منا، ونتربص الدوائر بالاوربيين المعتدين علينا (١)

وجملة القول أن الانسان حيوان انسي وحشي بجسده، وملك روحاني بعقله وروحه ، وانه انما يكمل بكمال العقل والروح ويعتدل بالتوازن بينهما ، ولا يكون هذا الا بهداية الاسلام الجامع لكل ما يحتاج اليه البشر من ذلك ، ولهذا نصحنا لزعماء الترك المفتونين بمدنية الافرنج المادية لجهلهم بما يفتك بها من دود الفساد بأن يقيموا حكم الاسلام واصلاحه الذي يكفل لهم القوة المادية والعمران ويقيهم غوائل هذا الفساد كالبلشفية التي ثلت عرش قيصرية الروسية فقلنا في فاتحة الكتاب الذي صنفناه في مسألة (الخلافة — أو — الامامة العظمى) ما نصه :

« أيها الشعب التركي الحي ! ان الاسلام أعظم قوة معنوية في الارض ، وانه هو الذي يمكن أن يحيي مدنية الشرق وينقذ مدنية الغرب ، فان المدنية لا

(١) راجع النبذة ٦ من رحلتنا الاوربية التي نشرت ج ٨ من المجلد ٢٣ من المنار

تبقى الا بالفضيلة . والفضيلة لا تتحقق الا بالدين ، ولا يوجد دين يتفق مع العلم والمدنية الا الاسلام ، واذا عاشت المدنية الغربية هذه القرون بما كان فيها من التوازن بين بقايا الفضائل المسيحية . ثم تمتع من العلم الاستقلالي والتعاليم الكنسية، فان الامم لا تنسلّ من فضائل دينها بمجرد طروء الشك في عقائده على أذهان بعض الافراد والجماعات منها، انما يكون ذلك بالتدريج وعدة أجيال ، وقد انتهى التنازع ، بفقد ذلك التوازن ، وأصبح الدين والحضارة على خطر الزوال ، واشتدت حاجة البشر الى إصلاح روحي مدني ثابت الاركان، يزول به استعباد الاقوياء للضعفاء ، واستذلال الاغنياء للفقراء ، وخطر البلشفية على الاغنياء ، ويبطل به امتياز الاجناس ، لتحقق الاخوة العامة بين الناس ، ولن يكون ذلك الا بحكومة الاسلام ، التي بيناها بالاجمال في هذا الكتاب ؛ ونحن مستعدون للمساعدة على تفصيلها ، اذا وفق الله للعمل بها

«أيها الشعب التركي الباسل : انك اليوم قدر الشعوب الاسلامية ، على أن تحقق للبشر هذه الامنية ، فاغتنم هذه الفرصة لتأسيس مجد إنساني خالد ، لا يذكر معه مجدك الحربي التالد ، ولا يحرمنك المفرنجون على تقاليد الافرنج في سيرتهم ، وأنت أهل لان تكون إماما لهم بمدنية خير من مدنيتهم، وما ثم الا المدنية الاسلامية ، الثابتة قواعدها المعقولة على أسس العقيدة الدينية ، فلا تزلزلها النظريات التي تعبث بالعمران ، وتفسد نظام الحياة الاجتماعية على الناس»

نصحنا للشعب التركي بهذا ولكن زعماءه الكماليين اليوم كزعمائه الاتحاديين من قبلهم قد فتنوا بهذه المدنية المادية ، وجهلوا كنه الاسلام والحكومة الاسلامية ، وقد اعذرنا اليهم ببيانها ، وانذرناهم عذاب الله باهمالها ، فتماروا بالنذر ، وطفقوا يطمسون ما بقي من الاسلام في حكومتهم وامتهم ، وسنرى ما يكون من امرهم، وقد ظهر ما كان مستورا من فساد سريرتهم ، ونسأله تعالى لنا ولهم صلاح الحال ، وحسن المآل .

٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

لما بين الله سبحانه أخذه لاهل القرى الذين كذبوا الرسل بما كان من كفرهم

وظلمهم لانفسهم وللناس بين لاهل أم القرى «مكة» ولسائر الناس ما كان يكون من اغداق نعمه تعالى عليهم لو آمنوا بالرسل ، واعتبروا بالسنن ، فقال :

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ﴾ أي آمنوا بما دعاهم اليه رسلهم من عبادة الله وحده بما شرعه من الاعمال الصالحة واتقوا ما نهوهم عنه من الشرك والفساد في الارض بالظلم والمعاصي كارتكاب الفواحش وأكل أموال الناس بالباطل ، ﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ قرأ الجمهور فتحنا بالتخفيف من الفتح وقرأها ابن عامر بالتشديد من التفتيح الدال على الكثرة ، والمعنى لفتحنا عليهم أنواعا من بركات السماء والارض لم يعهدوها مجتمعة ولا متفرقة ، فاذا أريد ببركات السماء معارف الوحي العقلية ، وانوار الفيض الروحانية ، ونفحات الالهامات الربانية ، فالمعنى أن فائدة الايمان واتباع الرسل عليهم السلام تكون تكميل الفطرة البشرية روحا وجسدا ، وغايته سعادة الدارين الدنيا والآخرة ، واذا أريد ببركات السماء المطر وببركات الارض النبات كما قيل فالمعنى أنها ابواب نعم يكون بركات لهم غير التي عهدوا في صفتها وعاقبتها وثباتها وحالتهم فيها وأثرها فيهم ، وبذلك تكون بركات فان مادة البركة تدل على السعة وزكاء من بركة الماء ، وعلى الثبات والاستقرار من برك البعير ، ألم تقرأ او تسمع قوله تعالى من سورة هود (١١ : ٤٨ قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى امم ممن معك ، وامم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم) فخص المؤمنين بالبركات وجعل نعمة الدنيا متاعا موقتا للكافرين يتلوه العذاب ، ولذلك لم يعطفهم على من قبلهم روى عن محمد بن كعب القرظي انه دخل في تلك البركات كل مؤمن ومؤمنة — وفي ذلك المتاع والعذاب الاليم كل كافر وكافرة . وعن الضحاك قال (وعلى امم ممن معك) يعني ممن لم يولد اوجب لهم البركات لما سبق لهم في علم الله من السعادة - (وامم سنمتعهم) يعنى متاع الحياة الدنيا (ثم يمسهم منا عذاب اليم) لما سبق لهم في علم الله من الشقاوة

فالقاعدة المقررة في القرآن ان الايمان الصحيح ودين الحق سبب لسعادة الدنيا ونعمتها بالحق والاستحقاق وان الكفار قد يشاركونهم في المادي منها كما قال تعالى فيهم من سورة الانعام فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شيء) فذلك الفتح ابتلاء واختبار لحالهم كان أثره فيهم فرح البطر والاشر بدلا من الشكر وترتب عليه العقاب الالهي فكان نقمة لا نعمة ، وفتنة لا بركة .

وأما المؤمنون فان مايفتح عليهم يكون بركة ونعمة ويكون أثره فيهم الشكر لله عليه والرضا منه والاغتباط بفضله واستعماله في سبيل الخير دون الشر، وفي الاصلاح دون الافساد، ويكون جزاؤهم عليه من الله تعالى زيادة النعم ونحوها في الدنيا وحسن الثواب عليها في الآخرة، فالفارق بين الفتحين يؤخذ من جعل هذا من البركات الربانية، ومن تنكيره الدال على أنواع لم يعهدها الكفار،

ومما ورد في الآيات الاخرى الدالة على أن غاية هداية الايمان الجمع بين سعادة الدنيا والآخرة، كقوله تعالى خطابا للبشر موجها لابويهم من قصة آدم في سورة طه (٢٠، ١٢٠ فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى (١٢١) ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) وقوله في خطاب بني آدم من هذه السورة بعد ذكر قصته المبينة لخواص هذا النوع وحكم الله في خلقه والاصول العامة لدين الرسل الذين يبعثهم لهدايته ٧، ٣١ يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين (٣٢ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) فراجع تفسيرها في الجزء الثامن من التفسير

فهذا بيان لكون اصل الدين يقتضي سعادة الدنيا قبل الآخرة من اول النشأة البشرية في عهد آدم وتقدم آنفا ما انزله تعالى على نوح وهو الاب الثاني للبشر وقال تعالى حكاية عن هود في سورته (١١: ٥٢ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم) وهذه الآيات كلها حجج على اعداء الاسلام من المنتمين اليه من غيرهم الزاعمين انه — وكذا كل دين الهي — سبب للضعف والفقر !!

﴿ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ من أعمال الشرك الخرافية والمعاصي المفسدة لنظام الاجتماع البشري، فكان أخذهم بالعقاب أثراً لازما لكسبهم بحسب سنن الكون، وعبرة لامثالهم ان كانوا يعقلون

(٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ

(٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ؟

(٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ
(٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يسمعون ؟)

هذه الآيات الاربع إنذار لامة الدعوة المحمدية عربها وعجمها من عصر النور الاعظم الى يوم القيامة لتعتبر بما نزل بغيرها . كما ترشد اليه الرابعة منها. وأهل القرى فيها يراد به الجنس اي الامم، ويحتمل أن يكون المراد به من ذكر حالهم فيما تقدم وضع المظهر فيه موضع المضمر ليدل على ان مضمونها ليس خاصا بأقوام بأعيانهم فيذكر ضميرهم بل هو قواعد عامة في أحوال الامم، فيراد بالاسم المظهر المعنوان العامّ لها، لا آحاد ما ذكرمنها ،ولو ذكرها بضميرها اواسم الاشارة الذي يعينها، لدل على أن العقاب كان خاصا بهالا داخلا في افراد سنة عامة ، وهذا عين ما كان يصرف الاقوام الجاهلة الكافرة عن الاعتبار بعقاب من كان مثلها ، ويحتمل أن يكون المراد به أهل أم القرى عاصمة قوم الرسول الخاتم وعشيرته الاقربين وسائر قرى الامم التي بعث (ص) الى أهلها من حيث إن بعثته عامة

﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ﴾ الاستفهام للتذكير والتعجيب من امر ليس من شأنه ان يقع من العاقل والفاء عطف على محذوف تقديره على الوجه الاول . اغر اهل تلك القرى ما كانوا فيه من نعمة حين كذبوا الرسل فأمنوا ان يأتيهم بأسنا ؟ إلخ وعلى الثاني أجهل اهل مكة وغيرها من القرى التي بلغتها الدعوة - ومثلها من ستبلغها- ما نزل بمن قبلهم وحرّ ماهم فيه من نعمة فأمنوا أن يأتيهم عذابنا وقت بياتهم - أو اتيان بيات - وهو الهجوم على العدو ليلا وهو بائت فقوله « وهم نائمون » حال مبينة لغاية الغفلة وكون الاخذ على غرة كما قال فيمن عذبوا « فأخذتهم بغتة » وليراجع تفسير الآية ٣ من هذه السورة وكم من قرية اهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون)

﴿ أو أمن اهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر «أو» بسكون الواو ، والمعنى بحسب أصل اللغة أأمنوا ذلك الاتيان أو هذا؟ وهو لا يمنع الجمع بين الامنين - وقرأ الباقون بفتح

الواو على أن الهمزة للانكار والواو للعطف على محذوف كالذي قبله ، وقد أعيد الاستفهام وما يتعلق به لنكتة وضع المظهر موضع المضمر التي بيناها آنفا . والضحى انبساط الشمس وامتداد النهار ويسمى به الوقت ، أو ضوء الشمس في شباب النهار ، واختاره الاستاذ الامام . واللعب بفتح اللام وكسر العين ما لا يقصد فاعله بسبب منفعة ولا دفع مضرة بل تفعله لانس له به أولذة له فيه كلعب الاطفال ، وما يقصد به العقلاء رياضة الجسم قد يخرج عن حقيقة اللعب ويكون اطلاقه عليه مجاريا بحسب صورته ، وكم من عمل صورته لعب أو هزل ، وحقيقته حكمة وجد ، وكم من عمل هو عكس ذلك كالعمل الفاسد الذي يقصد به ما يظن أنه نافع وهو ضارّ ، وما يتوهم انه حكمة وهو عبث وخرق ، وقد يكون اطلاق اللعب على أعمال هؤلاء الجاهلين الغافلين من هذا الباب: أي أوأمن اهل القرى ان يأتيهم عذابنا في وقت الضحى وهم منهمكون في أعمالهم التي تعد من قبيل لعب الاطفال لعدم فائدة تترتب عليها مطلقاً و بالنسبة الى ما كان يجب تقديمه عليها من سلوك سبيل السلامة من العذاب؟

فأما أهل القرى من الغابرين فالظاهر ما حكاه الله تعالى عنهم أنهم كانوا آمنين اتيان هذا العذاب ليلا ونهاراً فكان إتيانه إياهم فجأة في وقت لايتسع لتلافيه وتداركه فالاستفهام لا يظهر في شأنهم الا بتأول لايحتاج الى مثله في اهل القرى الحاضرين ، ومن سيكون في حكمهم من الآتين ، والمراد انه لم يكن لهم ان يأمنوا لو كانوا يعلمون ، فان وجود النعم ليس دليلا على دوامها ، فكم من نعمة زالت بكفر اهلها ، وهذا ما كان يجهله الذين قالوا قدمس آباءنا الضراء والسراء ، فراوا صورة الواقع وجهلوا اسبابه . واما الحاضرون فلا يعذرون بالجهل ، بعد ان بين لهم القرآن كنه الامر ، وسنن الله في الخلق ، ولكن ادعياء القرآن ، قد صاروا اجهل البشر بما جاء به القرآن ، ويدعي بعضهم ان سبب جهلهم الانتماء الى دين القرآن !!!

﴿ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون ﴾ قال الراغب المكر صرف الغير عما تقصده بحيلة . وقسمه الى محمود ومذموم . وأصح منه وأدق قولنا في تفسير (٣: ٥٤ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) : المكر في

الاصل التدبير الخفي المفضي بالممكور به الى مالايحتسب . وقفينا على هذا التعريف ببيان السيء و الحسن من المكر و بن الاكثر فيه ان يكون سيئا كالشأن في غيره من الامور التي يتحرى إخفاؤها ، وفيه أن مكر الله تعالى وهو تدبيره الذي يخفى على الناس انما يكون باقامة سننه وإتمام حكمه ، وكلها خير في أنفسها وان قصر كثير من الناس في الاستفادة منها بجهلهم وسوء اختيارهم اه والمراد بالجهل مايتعلق بصفات الله تعالى وسننه اغتراراً بظواهر ، كأن يغتر القوي بقوته، والغني بثروته، والعالم بعلمه والعابد بعبادته ، فيخطيء تقديره ماقدره الله تعالى فيظن أن ما عنده يبقى، وما يترتب عليه من الآثار في ظنه لا يتخلف ، كما أخطأ الالمان في تقدير قوتهم وقوة من يقاتلهم من الدول فلم يحسبوا أن تكون دولة الولايات المتحدة منهم

والمعنى أكان سبب أمنهم إتيان بأسنا بياتا أو ضحى وهم غافلون أنهم أمنوا مكر الله بهم باتيانهم من حيث لم يحتسبوا ولم يقدروا ؟ ؟ ان كان الامر كذلك فقد خسروا أنفسهم فانه لا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون. وقد سبق الكلام في خسران النفس في غير هذا الموضع

واذا كان أمن العالم المدبر والصالح المتعبد من مكر الله تعالى جهلا يورث الخسر، فكيف حال من يأمن مكر الله وهو مسترسل في معاصيه اتكالا على عفوه ومغفرته ورحمته ؟ قال تعالى (وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين)فأعلم الناس بالله واعبدهم له واقربهم اليه هم أبعدخلقه عن الامن من مكره ، اذ لا يصح أن يأمن منه الا من أحاط بعلمه ومشيئته، وليس هذا لملك مقرب ولا لنبي مرسل، (يعلم ما بين ايديهم وماخلفهم ولا يحيطون به علما)ألم تر الى الرسل الكرام كيف كانوا يستثنون مشيئته حتى فما عصمهم منه؟ كقول شعيب الذي حكاه الله عنه قبيل هذه الآيات (قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا) وقد كان أصلح البشر وخاتم الرسل (ص) يكثر من الدعاء بقوله « يا مقلب القلوب والابصار ثبت قلبي على دينك » كما ثبت في *الصحاح* وقد ذكر تعالى ان الراسخين في العلم يدعونه بقوله (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك انت الوهاب)

وقال (انما يخشى الله من عباده العلماء) ويقابل الامن من مكر الله ضده وهو اليأس من رحمة الله فكل منهما مفسدة تتبعها مفاسد كثيرة

﴿ أولم يهد للذين يرثون الارض من بعد اهلها ان لو نشاء اصبناهم بذنوبهم ﴾ يقال هداه السبيل او الشيء وهده له وهداه اليه — اذا دله عليه وبينه له ، واهل الغور من العرب كانوا يقولون هدى له الشيء بمعنى بينه له نقله في (لسان العرب) وذكر انه قد فسر به ما في الآية وامثالها . وهذا التعبير ورد في سياق النفي والاستفهام . ومثله في سورة طه (٢٠ : ١٢٠ افلم يهد لهم كم اهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لاولي النهي) وفي سورة (الم - السجدة) (٣٢ : ٢٦ أولم يهد لهم كم اهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ؟ ان في ذلك لآيات أفلا يسمعون) والسياق الذي وردت فيه آية الاعراف التي نفسرها مثل السياق الذي وردت فيه آيتا طه والسجدة . والاستفهام هنا داخل على فعل محذوف عطف عليه ما بعده كما سبق في نظائره وللتقدير وجوه كلها تفيد العبرة فهو مما تذهب النفس فيه مذاهب من أقربها أن يقال : أكان مجهولا ما ذكر آنفا عن القرى وسنة أهل الله تعالى فيهم ولم يبين للذين يرثون الارض من بعد أهلها قرنا بعد قرن وجيلا في اثر جيل -او ولم يتبين لهم به — ان شأننا فيهم كشأننا فيمن سبقهم وهوانهم خاضعون لمشيئتنا فلو نشاء أن نصيبهم ونعذبهم بسبب ذنوبهم اصبناهم كما اصبنا أمثالهم من قبلهم بمثلها . وقوله تعالى ﴿ونطبع على قلوبهم ﴾ معطوف على « اصبناهم » لانه بمعنى نصيبهم اذ الكلام في الذين يرثون الارض في العصر الحال أو المستقبل على الاطلاق وليس في قوم معينين طبع الله على قلوبهم بالفعل كما ظن الزمخشري وغيره فمنعوا هذا العطف وقالوا المعنى : ونحن نطبع على قلوبهم . والمراد أنه ينبغي لمن يستخلفهم الله في الارض، ويرثون ما كان لمن قبلهم من الملك والملك، ان يتقوا الله ولا يكونوا من المفسدين الظالمين، ولا من المترفين الفاسقين ، وان يعلموا أن من المحتم عقاب الامم على السيئات، وقد خلت من قبلهم المثلات، فلم يكن ماحل بمن قبلهم من المصادفات، بل هو من السنن المطردة بالمشيئة والاختيار، فلاهوادة فيه ولاظلم ولامحاباة . والناس في ذلك فريقان : فريق يصاب بذنبه ، فيتعظ ويتوب الى ربه ، وفريق يصر

عليه حتى يطبع على قلبه، وهو مستعار من طبع السكة و نقشها بسورة اوكتابة لا تقبل غيرها او من الطبع الذي بمعنى الختم كقوله تعالى (ختم الله على قلوبهم) والطابع والخاتم (بفتح الباء والتاء) واحد . وقيل انه مأخوذ من الطبع (بالتحريك) وهو الصدأ الشديد يعرض للسيف ونحوه فيفسده . يقال طبع الطباع السيف والدرهم — أي ضربه، وطبع الكتاب وعلى الكتاب وختمه اذا ضرب عليه الطابع والخاتم بعد إتمامه ووضعه في ظرفه حتى لا يدخل فيه شيء آخر . ومنه الطبع والطبيعة وهي الصفة الثابتة للشيء أو الشخص ، فالسجية نقش النفس بصورة ثابتة لا تتغير لان ما يتغير لا يسمى طبيعة . ومنه طبع الكتب في الآلة المعروفة بالمطبعة سمي بذلك لانه لا يقبل المحو والتغيير كالخط ، على ان الناس قد صنعوا أحبارا لا تمحي ايضا

ولا يستعمل الطبع على القلوب الا في الشر والمراد به انها وصلت من الفساد الى حالة لا تقبل معها خيرا كالهدى والايمان والعلم النافع الذي هو فقه الامور ولبابها ، وانما يحصل بالاصرار على الشرور والمعاصي استحلالا واستحسانا لها، حتى لا يعود في النفس موضع لغيرها ، قال تعالى في اليهود (٤ : ١٥٤ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف — بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الاقليلا) اي الا قليلا منهم وهم الذين لم يطبع على قلوبهم . وقال تعالى في المنافقين (٩ : ٨٨ وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) ومثله في سورتهم . وقال هنا ﴿فهم لا يسمعون﴾ اي فهم بهذا الطبع لا يسمعون الحكم والنصائح سماع تفقه وتدبر واتعاظ ، (وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يعقلون) ما يراد منها ، لان قلوبهم قد ملئت بما يشغلهم عنها ، من آراء وافكار وشهوات ملكت عليها أمرها ، حتى صرفتهم عن غيرها ، فجعلتهم من (الاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا)

قد كان ينبغي للمسلمين وهذا كتابهم من عند الله عز وجل أن يتقوه تعالى باتقاء كل ما قصه عليهم من ذنوب الامم التي هلك بها من قبلهم وزال ملكهم ، ودالت بسببها الدولة لاعدائهم ، اذ بين لهم ان ذنوب الامم لا تغفر كذنوب بعض الافراد وسنته فيها لا تتبدل ولا تتحول ، ولكنهم قصروا

اولا في تفسير أمثال هذه الآيات المبينة لهذه الحقائق ، ثم في وعظ الامة بها. وانذارهم عاقبة الاعراض عنها، وترك الانعاظ بتدبرها ، ومن يقرأ شيئا من تفسيرها فانما يعنى باعرابها ، والبحث في الفاظها، أوجدل المذاهب فيها، ثم انهم يجعلون معانيها خاصة بالكافرين ، ويفسرون الكافرين بمن لا يسمون انفسهم مسلمين، وطالما انكر علينا بعض ادعياء العلم والدين ، اننا جعلنا الآيات التي نزلت في الكفار ، شاملة لاهل الاسلام والايمان مأفوكين عن تدبرها المراد منها جاهلين للسنن العامة فيها . وكذلك كان يقول اهل الكتاب من قبلهم ، فظنوا كما ظنوا ان الله تعالى يحابي الاقوام لاجل رسلهم ،وأنه يعطيهم سعادة الدنيا والآخرة بجاههم لا باتباعهم ، وقد راجت هذه العقائد الفاسدة في المسلمين ، وكانت تجارة للشيوخ المقلدين الجامدين ، والدجالين الضالين المضلين (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، بل كانوا فتنة للكافرين ،وحجة على الدين، كما بيناه من قبل وفي هذا السياق آنفا (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها)؟ أفلا يعتبرون بقول رسولهم (ص) «شيبتني هود واخواتها»[1] (أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين * أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون)

---

(١٠٠) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ، وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ

وجه الخطاب في هاتين الآيتين الى النبي صلى الله عليه وسلم لاجل تسليته وتثبيت فؤاده بما في قصص أولئك الرسل مع أقوامهم من العبر والسنن التى

(١) رواه الطبراني في الكبير عن عقبة بن عامر وأبي جحيفة بسند صحيح ، ورواه هو والترمذي والحاكم عن غيرهما وفيه زيادة بيان لاخواتها وابن عساكر مرسلا بزيادة « وما فعل بالامم قبلي » وهو وجه العبرة بهود

بين فقهها وما فيها من الحكم في الآيات السبع التي قبلهما . قال تعالى

﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ﴾ كلام مستأنف قفي به على جملة قصص الرسل عليهم السلام التي تقدمت وما عطف عليها من بيان حكمها وفقهها فكانت كالفذلكة لها ، فالقرى هنا هي المعهودة في هذه القصص، وحكمة تخصيصها بالذكر أنها كانت في بلاد العرب ما جاورها وكان من بعد قوم نوح من العرب ، وكان أهل مكة وغيرهم من العرب الذين هم أول من وجهت اليهم دعوة الاسلام يتناقلون بعض أخبارها مبهمة مجملة ، وكانت على هذا كله قد طبعت على غرار واحد في تكذيب الرسل ، والتماري فيما جاؤا به من النذر ، الى أن حل بهم النكال ، وأخذوا بعذاب الاستئصال ، فالعبرة فيها كلها واحدة . وليس كذلك قوم موسى فانهم آمنوا . وانما كذب فرعون وملؤه فعذبوا ، ولذلك أخر قصته

والمعنى تلك القرى التي بعد عهدها ، وطال الأمد على تاريخها ، وجهل قومك أيها الرسول حقيقة حالها ، نقص عليك الآن بعض أنبائها ، وهو ما فيه العبرة منها ، وإنما قال نقص لا قصصنا لان هذه الآية نزلت مع تلك القصص لا بعدها.

﴿ ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ أي ولقد جاء أهل تلك القرى رسلهم بالبينات الدالة على صدق دعوتهم، وبالآيات التي اقترحوها عليها لاقامة حجتهم ، بأن جاء كل رسول قومه بما أعذر به اليهم، فلم يكن من شأنهم أن يؤمنوا بعد مجيء البينات بما كانوا كذبوا به من قبل مجيئها عند بدء الدعوة الى توحيد الله تعالى وعبادته وحده بما شرعه وترك الشرك والمعاصي . وقيل ان الباء للسببية والمعنى فما كانوا ليؤمنوا بعد بعثته بسبب تعودهم تكذيب الحق قبلها ، وهو تأويل واه جدا فان قوله فما كانوا نفي للشأن ، وليس من شأن كل من كذب بشيء أن يصر عليه بعد ظهور البينات على خطاه فيه، ولكن شأن بعض المكذبين عناداً او تقليداً أن يصروا عليه بعد إقامة البينة لانها لا قيمة لها عندهم. فهم إما جاحد معاند صل عن علم، وإما مقلد يأبى النظر والعلم على أن ما قالوه لا يفهم من الآية الا بتكلف يخالفه المتبادر من اللفظ. فالعجب ممن قتصر عليه ولم يفهم غيره . وسيأتي في سورة يونس بعد ذكر خلاصة قصة نوح عليه السلام ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب

المهتدين) فالمراد بهؤلاء الرسل الذين بعثوا بعد نوح من ذكروا في سورة الاعراف ولذلك قال هناوهنالك (ثم بعثنا من بعدهم موسى) وحينئذ يحتمل أن يقال في آية الاعراف أن أهل تلك القرى في جملتهم ومجموعهم لم يكن من شأنهم أن يؤمن المتأخر منهم بما كذب به المتقدم وهم قوم نوح بالنسبة الى الجميع ثم قوم هود بالنسبة الى قوم صالح الخ والراجح المختار هو الاول — ويليه هذا — والثاني باطل البتة

﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ أي مثل هذا الذي وصف من عناد هؤلاء واصرارهم على ضلالهم ، وعدم تأثير الدلائل والبينات في عقولهم ، يكون الطبع على قلوب الذين صار الكفر صفة لازمة لهم ، بحسب سنة الله تعالى في أخلاق البشر وشؤونهم ، وذلك بأن يأنسوا بالكفر وأعماله حتى تستحوذ أوهامه على أفكارهم ، ويملأ حب شهواته جوانب قلوبهم ، ويصير وجدانا تقليديا لهم ، لا يقبلون فيه بحثا ، ولا يسمعون فيه نقدا ، فيكون كالسكة التي طبعت في أثناء لين معدنها بصهره واذابته ثم جمدت فلا تقبل نقشا ولا شكلا آخر

ومن وجوه تسلية النبي (ص) بالآية إعلامه ان من وصلوا بالاصرار على الجحود والعناد أو التقليد الى هذه الدرجة من فساد الفطرة واهمال استعمال العقل لا يؤمنون بالبينات وان وضحت، ولا بالآيات وان اقترحت ، فقد كان كفار مكة يقترحون عليه الآيات وكان يتمنى ان يؤتيه الله ما اقترحوا منها حرصا على ايمانهم ، حتى بين الله تعالى له هذه الحقائق من طباع البشر واخلاقهم ، وتقدم هذا البيان في ايات من اوائل سورة الانعام وأثنائها ، ومما يناسب ماهنا منها قوله تعالى (٦ : ١٠٨ واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها . قل إنما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون ، (١١٩) ونقلب افئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون) فقوله تعالى (كما لم يؤمنوا به أول مرة) بمعنى قوله هنا « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل »

﴿ وما وجدنا لاكثرهم من عهد ﴾ العهد الوصية بمعنى إنشائها وبمعنى متعلقها وهو ما يوصي به الموصي . وعهدت اليه بكذا وصيته بفعله أو حفظه. ويكون بين طرفين وهو المعاهدة كما يكون من طرف واحد وهو من يعهد

حقه او يعطي احدا غير حقه، وقد نوهنا بهذه الدقة من قبل، وغفل عنها بعض المفسرين فزعموا هنا ان المراد بالاكثر الكل في الكل

والفسق في الاصل أعم من نكث العهد ويتساوى مفهومهما بما فسرنا به عموم العهد هنا . ففي التعبير من محاسن الكلام الطرد والعكس ، باعتبار مدلول اللفظ ، اذ الاول يقرر بمنطوقه مفهوم الثاني الذي يقرر بمفهومه منطوق الاول . وفيه الجناس التام بين وجدنا الاولى وهي بمعنى ألفينا والثانية وهي بمعنى علمنا — والمقابلة بين النفي والاثبات في سلب الوجود الاول واثبات الثاني

---

(١٠٢) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَلَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّدِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحِرٍ عَلِيمٍ

﴿ قصة موسى عليه الصلاة والسلام ﴾

هو موسى بن عمران بكسر العين واهل الكتاب يضبطون اسم والده بالميم في آخره (عمرام) وبفتح أوله ، وجميع الامم القديمة والحديثة تتصرف

في نقل الاسماء من لغات غيرها إلى لغتها. ومعنى كلمة «موسى» المنتاش من الماء أي الذي أنقذ منه، وروى أبو الشيخ عن ابن عباس أنه قال: انما سمي موسى لانه ألقي بين ماء وشجر ، فالماء بالقبطية «مو» والشجر «سى» . وذلك أن أمه وضعته بعد ولادته في تابوت (صندوق) أقفلته إقفالا محكما وألقته في اليم (بحر النيل) خوفا من فرعون وحكومته أن يعلموا به فيقتلوه إذ كانوا يذبحون ذكور بني اسرائيل عند ولادتهم ويتركون إناثهم — وقالت لاخته قصيه أي تتبعيه لتعلم اين ينتهي ومن يلتقطه، حتى لا يخفى عليها أمره، فما زالت أخته تراقب التابوت على ضفاف اليم حتى رأت آل فرعون ملك مصر يلتقطونه الى آخر ما قصه الله تعالى من خبره في سورة القصص

وقد ذكرت قصته في عدة سور مكية بين مطولة ومختصرة أولها هذه السورة (الاعراف) فهي أول السور المكية في ترتيب المصحف التي ذكرت فيها قصته، ومثلها في استقصاء قصته طه والشعراء ويليها سائر الطواسين الثلاثة (النمل والقصص) وقد ذكر بعض العبر من قصته في سور اخرى كيونس وهود والمؤمنين، وذكر اسمه في سور كثيرة غيرها بالاختصار ولا سيما المكية وتكرر ذكره في خطاب بني اسرائيل من سورة البقرة المدنية وذكر في غيرها من الطول والمئين والمفصل حتى زاد ذكر اسمه في القرآن على ١٣٠ مرة فلم يذكر فيه نبي ولا ملك كما ذكر اسمه

وسبب ذلك أن قصته أشبه قصص الرسل عليهم السلام بقصة خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله من حيث انه أوتي شريعة دينية دنيوية، وكوّن الله تعالى به أمة عظيمة ذات ملك ومدنية، وسنبين ما فيها وفي غيرها من حكم التكرار واختلاف التعبير في مواضعها ان شاء الله تعالى

قال الله تعالى ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملئه ﴾

هذه القصة معطوفة على جملة ما قبلها من القصص من قوله تعالى (لقد أرسلنا نوحا) الى قوله (والى مدين أخاهم شعيبا) ـ القصة ، فهي نوع وهذه نوع آخر، والفرق بين النوعين أن تلك القصص متشابهة في تكذيب الاقوام فيها لرسلهم ومعاندتهم إياهم وإيذائهم لهم، وفي عاقبة ذلك باهلاك الله تعالى اياهم بعذاب الاستئصال. ولذلك عطف كل واحدة منهن على الاولى بدون إعادة ذكر الارسال

للايذان بأنها نوع واحد فقال (والى عاد أخاهم هوداً ... والى ثمود أخاهم صالحاً ... ولوطاً ... والى مدين أخاهم شعيباً) وقد أعاد في قصة موسى ذكر الارسال المتفرقة ولكن بلفظ البعث وهو أخص وأبلغ من لفظ الارسال لانه يفيد معنى الاثارة والازعاج الى الشيء المهم ، ولم يذكر في القرآن الا في بعث الموتى وفي الرسالة العامة أي بعث عدة من الرسل، وفي بعثة نبينا وموسى خاصة، وكذا في بعث نقباء بني اسرائيل وبعث من انتقم منهم وعذبهم وسباهم حين أفسدوا في الارض. فالتعبير بلفظ البعث هنا يؤكد ما افادته اعادة العامل من التفرقة بين نوعي الارسال ـ أعني أن لفظه الخاص مؤكد لمعناه العام ـ كما يؤكدها عطف هذه القصة على أولئك بثم التي تدل على الفصل والتراخي إما في الزمان وإما في النوع أو الرتبة والاخير هو المراد هنا. وبيانه ان هذا الارسال وما ترتب عليه وأعقبه في قوم موسى مخالف لجلة ماقبله مخالفة تضاد فقد أنقذت به أمة من عذاب الدنيا وهو تعبيد فرعون وملئه لها وسومهم إياها أنواع الخزي والنكال ، واهتدت الى عبادة الله تعالى وحده وإقامة شرعه فأعطاها في الدنيا ملكا عظيما، وجعل منها أنبياء وملوكا، وأعد بذلك المهتدين منها السعادة الآخرة الباقية فأين هذا الارسال من ذلك الارسال، الذي أعقب اقوام اولئك الرسل في الدنيا عذاب الاستئصال، وفي الآخرة ماهو أشد وأبقى من الخزي والنكال؟ وقد يظهر للتراخي الزماني وجه باعتبار كون العطف على قصة نوح فان ماعطف عليها من قصص ومن بعده قد جعل تابعاً ومتمما لها بعدم إعادة العامل «ارسلنا » كما تقدم آنفاً ، وإلا فان شعيباً وهو آخر أولئك الرسل كان في زمن موسى وهو حموه، وقد أوحى الله تعالى الى موسى وهو لديه مع زوجه وأولاده في سيناء وارسله منها الى فرعون وملئه لانقاذ بني اسرائيل من حكمه وظلمه.

ويؤيد ذلك كله أن الله تعالى ذكر إرسال نوح في سورة يونس وقفى عليه بقوله: (ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم) الخ وقال بعد هذا (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون الى فرعون وملئه) ومن المعلوم عقلا واستنباطاً أن التراخي بين بعثة نوح ومن بعده من الرسل زماني إذ كان بعد تناسل الذين نجوا معه في السفينة وتكاثرهم وصيرورتهم شعوبا وقبائل ، وهذا الاجمال في سورة يونس في الرسل مبني على التفصيل الذي سبقه في سورة الاعراف التي نزلت قبلها أو هو اعمّ منه فان الامم قد كثرت بين نوح وموسى عليهما السلام وقد قال تعالى (ولقد بعثنا في كل امة رسولا) وقال لخاتم رسله (منهم من قصصنا

عليك ومنهم من لم نقصص عليك) وقد بينا حكمة تخصيص من ذكر في هذه السورة منهم بالذكر وكذا من ذكر في سورة الانعام وغيرها

والمعنى ثم بعثنا من بعد اولئك الرسل موسى بآياتنا التى تدل على صدقه فيما يبلغه عنا الى فرعون وملئه . اما فرعون فهو لقب لملوك مصر القدماء كلقب قيصر لملوك الروم وكسرى لملوك الفرس الاولين و « الشاه » لملوك الايرانيين في هذا العصر ، وكانوا يطلقون على فرعون لقب الملك أيضاً . واختلف في اشتقاق كلمة فرعون ومعناه ، وفي اسم فرعون موسى وزمنه ، وليس في الآثار المصرية ما يبين هذا واما ملؤه فهم اشراف قومه ورجال دولته ، ولم يقل الى فرعون وقومه لان الملك ورجال الدولة هم الذين كانوا مستعبدين لبني اسرائيل وبيدهم امرهم وليس لسائر المصريين من الامر شيء لانهم كانوا مستعبدين ايضا ولكن الظلم على بني اسرائيل الغرباء كان اشد، وانما بعث الله تعالى موسى لانقاذ قومه بني اسرائيل من فرعون ورجال دولته وإقامة دين الله تعالى بهم في بلاد أجدادهم ، ولو آمن فرعون وملؤه لآمن سائر قومهم لانهم كانوا تبعاً لهم بل كان هذا شأن جميع الاقوام مع ملوكهم المستبدين الجائرين، وقد علم الله تعالى ان فرعون وملأه لايؤمنون بموسى وان قومه تبع له لا اختيار لهم وا كثرهم مقلدون ولذلك قتل السحرة لما آمنوا بموسى،وانما آمنوا لانهم كانوا علماء مستقلي العقل اصحاب فهم وراي، وكان السحر من علومهم وفنونهم الصناعية التى تتلقى بالتعليم وليس كالآيات التي جاءبها موسى فانها من خوارق العادات التى لا يقدر عليها إلا الله تعالى

وقد اقام الله تعالى الحجة بآيات موسى على فرعون وملئه ﴿ فظلموا بها ﴾ اي فظلموا انفسهم وقومهم بالكفر بها كبراً وجحوداً فكان عليهم إثم ذلك وإثم قومهم الذين حرموا من الايمان باتباعهم لهم، كما كان يكون لهم مثل اجورهم لو آمنوا بالتبع لهم، وجملة القول ان موسى عليه السلام كان مرسلا الى قومه بني اسرائيل بالذات والى فرعون وملئه بالتبع ، ولك ان تقول ان الارسال الى بني اسرائيل مقصد والى فرعون وملئه وسيلة . وقد عدي الظلم في الجملة بالباء لتضمينه معنى الكفر فصار جامعاً للمعنيين ، ولا يصح تفسيره بأحدهما اذ لو اريد احدهما لعبر به ولم يكن للتضمين فائدة . وقيل ان الباء في قوله فظلموا بها السببية اي فظلموا انفسهم وقومهم بسبب هذه الآيات ظلما جديداً

وهو ما ترتب على الجحود من العذاب بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ثم بالغرق كما سيجيء في محله. والاول اظهر وابلغ على انه لا تنافي بينهما في المعنى

﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ اي فانظر ايها الرسول — او ايها السامع والتالي بعين العقل والفكر كيف كان عاقبة فرعون وملئه المفسدين في الارض بالظلم واستعباد البشر حين جحدوا آيات الله وظلموا بها عملا بمقتضى فسادهم . وهذا تشويق لتوجيه النظر لما سيقصه تعالى من عاقبة امرهم اذ نصر عبده ورسوله موسى عليهم وهو فرد من شعب مستضعف مستعبد لهم، وهم اعظم اهل الارض دولة وصولة وقوة، نصره عليهم اولا بابطال سحرهم وإقناع علمائهم وسحرتهم بصحة رسالته وكون آياته من الله تعالى، ثم نصره بارسال انواع العذاب على البلاد ثم بانقاذ قومه وإغراق فرعون ومن اتبعه من ملئه وجنوده. وهذه عبرة ظاهرة وحجة قائمة مدة الدهر، على القائلين انما الغلب للقوة المادية على الحق، ولا سيما المغرورين بعظمة دول اوربة الظالمة لمن استضعفتهم من اهل الشرق، وعلى اولئك الباغين بالاولى، فأولى لهم اولى، ثم اولى لهم اولى

بعد هذا التشويق والتنبيه قص تعالى علينا ما كان من مبدإ أمر اولئك المفسدين الذى انتهى الى تلك العاقبة فقال : ﴿ وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين * حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق ، قدجئتكم ببينة من ربكم فارسل معي بنى اسرائيل ﴾ نبدأ بما في هذه الآية من المباحث اللفظية والقراءات ونكت البلاغة لتفهم عبارتها كما يجب ويكون سياق القصة بعد ذلك متصلا بعضه ببعض ، وفيها بحثان دقيقان أحدهما بدء القصة بالعطف وكونه بالواو ،والثاني قول موسى (ع .م) ' حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق)

لم أر من تكلم على وجه بدء الآية بالعطف وبيان المعطوف عليه والتفرقة بينها وبين مثلها من سياق القصة في سورة طه اذ قال بعد أمر موسى بالذهاب مع أخيه هرون الى فرعون وتبليغه الدعوة مبينا كيف كان أمتثالهما للامر(إنا قد أوحي الينا أن العذاب على من كذب وتولى) فجاء به مفصولا على وجه الاستئناف البياني غير موصول بالواو ولا بالفاء ، ومثله في الفصل قوله تعالى في القصص التى قبل قصة موسى من هذه السورة (والى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله) وكذا ما بعده من قصة صالح ولوط وشعيب ، ولم يقل

فقال او وقال ولكنه عطف تبليغ نوح (عم) قبلها بالفاء (لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله) الآية وقد بينا الفرق بين هذا الوصل ومابعده من الفصل فى قصة هود عليه السلام

والحاصل ان لدينا هنا عطفا بالفاء في قصة نوح وعطفا بالواو في قصة موسى وفصلا بيانيا في القصص التى بينهما يشبهه الفصل في قصة موسى في سور اخرى وله نظائر كثيرة . فأما الاول فعطف التبليغ فيه على الارسال بالفاء لافادة التعقيب وعدم جواز تأخير تبليغ الدعوة . واما الفصل في القصص بعده فلانه لما صار هذا معلوما وكان ماجرى من امر قوم نوح عبرة لقوم هود وكانا معا عبرة لقوم صالح وهلم جرا – حسن في كل قصة من هذه الفصل على انه جواب لسؤال مقدر، كأن قائلا يقول في كل منها ماذا كان من امر هذا النبي مع قومه؟ كما تقدم بيانه . واما الأخير الذي نحن بصدده فوجه العطف فيه وكونه بالواو هو أنه قد قفي في قصة موسى هنا على ذكر إرساله الى فرعون وملئه بذكر نتيجة هذا الارسال وعاقبته بالاجمال وهو قوله تعالى (فظلموا بها) الخ ، وبدئت القصة بعده بتفصيل ذلك الاجمال ومقدمات تلك النتيجة، فكان المناسب أن يعطف عليها لا ان يستأنف استئنافا بيانيا لما هو ظاهر من الاشتراك بين المقدمات والنتيجة ، أو بين التفصيل والاجمال — وأن يكون العطف بالواو لا بالفاء لان الفاء تدل على التعقيب والترتيب وهو لا يصح هنا لانه يقتضي أن تكون المقدمات متأخرة عن النتيجة وذلك باطل بالبداهة ، فتعين أن يكون العطف بالواو ، وهذه دقة في البلاغة لا يهتدى الى مثلها الا غواصو بحر البيان ، ولا يكادون يجدون فرائدها الا في أسلوب القرآن، واعجب للامام الزمخشري كيف غفل عنها اذ لم يتعرض للمسألة من أصلها

وحكمة بدء القصة بذكر نتيجتها والعبرة المقصودة منها ، هي — والله أعلم — أن تكون متصلة بما يناسبها من العبرة في القصص التى قبلها ، من حيث إهلاك معاندي الرسل عليهم السلام جحوداً واستكباراً ، وقد ذكرت هذه العبرةُ بعد جملة تلك القصص لتشابهها مبدأ وغاية كما تقدم ، وقصة موسى (ص) طويلة فهي تساويها في هذا من حيث رسالته الى فرعون وملئه فقط. وفيها عبر أخرى فيما تشابه به أمر خاتم الرسل (ص) من حيث إرساله الى بنى اسرائيل وإرسال محمد خاتم النبيين الى العرب وسائر البشر وتوفيق الله قومهما للايمان

ونشر شريعتهما فيمن أرسلا اليهم - الى آخر ما بيناه آنفا في نكتة عطفها على ماقبلها بثم ونكتة التعبير ببعثنا ، ولذلك ذكر في اواخرهاتبشيرموسى وكذا عيسى بالنبي الامي الخاتم محمد صلوات الله عليهم أجمعين

وأما قوله (حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق) على قراءة الجمهور فقد جاء على غير المشهور عن العرب في هذه الكلمة اذ يقولون : أنت حقيق بكذا — وأنت حقيقة بأن تفعلي كذا ، كما يقولون أنت جدير به وخليق به،ولم ينقل عنهم استعماله بعلى، ولكن ورد في كلامهم استعمال «على» بمعنى الباء كقولهم: اركب على اسم الله — وهو الذي اعتمده ابن هشام في المغني في تخريج الآية عندذكر المعنى السابع من معاني «على» الجارة وأيده بقراءة أبيّ بن كعب رضي الله عنه (حقيق بأن لا أقول) ومثلها قراءة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه (حقيق أن لاأقول..) لان المتبادر أن الجار المحذوف من أن هو الباء وحذف الجار من أن الخفيفة وأن المشددة قياسي معروف. وقد سبقه الى هذا الاختيار بعض المفسرين: قال الحافظ ابن كثير في الجملة عن بعضهم : معناه حقيق بأن لاأقول على الله الا الحق ،أي جدير بذلك وحري به قالوا والباء وعلى يتعاقبان يقال رميت بالقوس وعلى القوس وجاء على حال حسنة وبحال حسنة . وقال بعض المفسرين معناه حريص على ان لاأقول على الله الا الحق اه والمراد من القول الثاني أن حقيقاً قد ضمن معنى الحرص وهو منقول عن الفراء النحوي المفسر المشهور، وقد بينا مراراً أن التضمين جمع بين المعنى الاصلي للكلمة والمعنى الذي أفادته التعدية فيكون المراد من العبارة: إني رسول من رب العالمين حقيق وجدير بأن لاأقول على الله الا الحق وحريص على ذلك فلن أخلّ به . وما قيل من أنه من باب قلب الحقيقة الى المجاز أو من باب الاغراق في وصف موسى نفسه بالصدق حتى جعل قول الحق كانه يسعى ليكون هو قائله والقائم به ولا يرضى أن ينطق به غيره — فلا يخلو من تكلف وان قال الزمخشري في الاخير انه هو الاوجه الادخل في نكت القرآن

وقرأ نافع (حقيق عليّ أن لا أقول على الله الا الحق) أي واجب وحق عليّ أن لا أخبر عنه تعالى الا بما هو حق وصدق لما أعلم من عز جلاله وعظيم شأنه — كما قال الحافظ بن كثير. اذا علم هذا فنقول في تفسير الآيات

بلغ موسى (ص) فرعون انه رسول من رب العالمين كلهم — أي سيدهم

ومالكهم ومدبر جميع أمورهم ـ وانه بمقتضى هـذه الرسالة لا يقول على الله الا الحق اذ لا يمكن أن يبعث الله رسولا يكذب عليه ، وهو الذي بيـده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليـه ، فهو حقيق بالصدق والتزام الحق في التبليغ عن ربه ومعصوم من الكذب والخطأ فيه ، وشديد الحرص عليه بما له من الكسب والاختيار — فاشتمل كلامه على عقيدة الوحدانية وهي أن للعالمين كلهم ربا واحداً ، وعقيدة الرسالة المؤيدة منه تعالى بالعصمة في التبليغ والهداية ، وقد ناقشه فرعون البحث في وحدانية الربوبية العامة لله تعالى كما هو مبين في سورة الشعراء فوصفه موسى بما يليق به تعالى ويوضح المعنى المراد في أجوبة عدة أسئلة أوردها عليه ، وقد سأله هو وهارون عن ربهما في سياق سورة طه ، وجاء فيما حكاه الله تعالى عنهما فيها ذكر البعث والجزاء . وكان قدماء المصريين يؤمنون بالبعث كما يؤمنون بالرب الاله الغيبي ولكنهم شابوا العقيدتين بنزغات الشرك وبعض الخرافات الناشئة عنه .

فعلم من هذا أن موسى قد بلغ فرعون وملأه اصول الايمان الثلاثة : التوحيد والرسالة والبعث والجزاء ، وفي كل سياق من قصة موسى المكررة في عدة سور فوائد في ذلك وفي غيره لا توجد في الاخرى . ـ وابسطها واوسعها بيانا هذه السورة (الاعراف) وطه والشعراء والقصص ـ وانما التكرار لجملة القصة لا التفصيل لها كما سيأتي

ثم ذكر أن الله تعالى أيده ببينة تدل على صدقه في دعواه وتبليغه عنه ورتب عليه ما هو مقصود له بالذات أو بالقصد الاول فقال حكاية عنـه :

﴿ قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني اسرائيل ﴾ أي قد جئتكم ببينة عظيمة الشأن ، ظاهرة الحجة في بيان الحق ، فتنكير البينة للتفخيم ، والتصريح بكون هذه البينة المعجزة من عند ربهم نص على أنهم مربوبون وان فرعون ليس ربا ولا الٰها ، وعلى أنهـا أي البينة ليست من كسب موسى ولا مما يستقل به عليه السلام — وبنى على هذا قوله فأرسل معي بني اسرائيل أي بأن تطلقهم من أسرك ، وتعتقهم من رق قهرك ، ليذهبوا معي الى دار غير ديارك ، ويعبدوا فيها ربهم وربك . وبم اجاب فرعون ؟

﴿ قال ان كنت جئت بآية ﴾ اي قال فرعون لموسى عليه السلام : ان

كنت جئت مصحوبا ومؤيدا بآية من عند من أرسلك كما تدعي — والشرط بإن يدل على الشك في مضمون الجملة الشرطية او الجزم بنفيها — ﴿ فأت بها ان كنت من الصادقين ﴾ فاءتني بها بأن تظهرها لدي اذ كنت من أهل الصدق، الملتزمين لقول الحق، وهذا شك آخر في صدقه، بعد الشك في مجيئه بالآية.

﴿فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين*ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين ﴾ أي فلم يلبث موسى أن ألقى عصاه التي كانت بيمينه أمام فرعون فاذا هي ثعبان — وهو الذكر العظيم من الحيات — مبين أي ظاهر بين لا اخفاء في كونه ثعبانا حقيقيا يسعى وينتقل من مكان الى آخر تراه الاعين من غير أن يسحرها ساحر فيخيل اليها أنها تسعى كما سيأتي من اعمال سحرة فرعون — ونزع يده أي أخرجها من جيب قميصه بعد أن وضعها فيه بعد إلقاء العصا فاذا هي بيضاء ناصعة البياض تتلألأ للناظرين اليه وهم فرعون وملؤه أو لكل من ينظر، والنظارة هم الذين يجتمعون عادة لرؤية الامور الغريبة. وقد وصف الله تعالى بياضها في طه والنمل والقصص بأنه (من غير سوء) أي من غير علة كالبرص.

وفي التفسير المأثور روايات في صفة الثعبان الذي تحولت اليه عصا موسى (ع . م) وفي تأثيره لدى فرعون ماهي الا من الاسرائيليات التي لا يصح لها سند ولا يوثق منها بشيء، ومنها قول وهب بن منبه ان العصا لما صارت ثعبانا حملت على الناس فانهزموا منها فمات منهم خمسة وعشرون ألفا قتل بعضهم بعضا وقام فرعون منهزما . قال ابن كثير : رواه ابن جرير والامام احمد وابن أبي حاتم وفيه غرابة في سياقه والله أعلم اه وقد اقتصرت على هذه الرواية لاقول انني أرجح تضعيف عمرو بن الفلاس لوهب على توثيق الجمهور له بل أنا أسوأ فيه ظنا على ماروي من كثرة عبادته، ويغلب على ظني أنه كان له ضلع مع قومه الفرس الذين كانوا يكيدون للاسلام وللعرب ويدسون لهم من باب الرواية ومن طريق التشيع فقد ذكر الامام احمد ان والده منبها فارسي أخرجه كسرى الى اليمن فأسلم في زمن النبي (ص) وان ابنه وهبا كان يختلف من بعده الى بلاده بعد فتحها وههنا موضع الشبهة في الغرائب المروية عنه وهي كثيرة — ومثله عندي كعب الاحبار الاسرائيلي — كلاهما كان تابعيا كثير الرواية للغرائب التي لا يعرف لها أصل معقول ولا منقول ، وقومهما كانوا يكيدون

للامة الاسلامية العربية التي فتحت بلاد الفرس وأجلت اليهود من الحجاز ، فقاتل الخليفة الثاني فارسي مرسل من جمعية سرية لقومه ، وقتلة الخليفة الثالث كانوا مفتونين بدسائس عبدالله بن سبأ اليهودي. والى جمعية السبئيين وجمعيات الفرس ترجع جميع الفتن السياسية واكاذيب الرواية في الصدر الاول

﴿ قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم * يريد ان يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ﴾

﴿ فصل في حقيقة السحر وأنواعه ﴾

كان السحر فنا من فنون قدماء المصريين يتعلمونه في مدارسهم العالية مع سائر علوم الكون، وكان كذلك عند أقرانهم من البابليين، وكذا الهنود وغيرهم، ولا يزال يؤثر عن الوثنيين منهم أعمال سحرية غريبة اهتدى علماء الانكليز وغيرهم من الافرنج الى تعليل بعضها أو كشف حقيقته ولا يزالون يجهلون تعليل بعض . والمعنى الجامع للسحر أنه أعمال غريبة من التلبيس والحيل تخفى حقيقتها على جماهير الناس لجهلهم بأسبابها فمتى عرف سبب شيء منها بطل اطلاق اسم السحر عليه ، ولذلك كان الاقوام الجاهلون يعدون آيات الرسل الكونية التي يؤيدهم الله تعالى بها من قبيل السحر ويجعلون هذا مانعا من دلالتها على صدقهم وتأييد الله تعالى لهم ، لان السحر صنعة تتلقى بالتعليم والتمرين فيمكن لكل أحد أن يكون ساحرا اذا أتيح له من يعلمه السحر . ومن المعلوم في التاريخ القديم والحديث أن السحر لا يروج الا بين الجاهلين وله المكانة المهيبة المخيفة بين اعرق القبائل في الهمجية، ولا يكاد يوجد في البلاد التي ينتشر فيها العلم والعرفان بل يسمى أهله بأسماء أخرى كالمشعوذين والمحتالين والدجالين

وقد سبق لنا بيان حقيقة السحر في قصة هاروت وماروت من جزء التفسير الاول وفي بعض مجلدات المنار وخلاصته انه ثلاثة أنواع (أحدها) ما يعمل بالاسباب الطبيعية من خواص المادة المعروفة للعامل المجهولة عند من يسحرهم بها ومنها الزئبق الذي قيل إن سحرة فرعون وضعوه في حبالهم وعصيهم كما سيأتي .

ولو شاء علماء الطبيعة والكيمياء في هذا العصر أن يجعلوا أنفسهم سحرة في بلاد أواسط افريقية الهمجية وأمثالها.ن البلاد الجاهلة التي يروج فيها السحر العتيق لاروهم من عجائب الكهرباء وغيرها ما يخضعونهم به لعبادتهم لو ادعوا الالوهية فيهم، دع دعوى النبوة أو الولاية . وقد اجتمع السحرة في بعض هذه البلاد على بعض السياح الغربيين ليرهبوهم بسحرهم وكانوا في مكان بارد والفصل شتاء فأخذ بعض هؤلاء السياح قطعة من الجليد وجعلها بشكل عدسي بقدر ما يرى من قرص الشمس وقال لهم انني أعلم منكم بالسحر واني أقدر به أن أجعل في يدي شمسا كشمس السماء ثم وجه عدسيته الى الشمس عند بزوغها واكتمال ضوئها فصارت بانعكاس النور فيها كالشمس لم يستطع السحرة أن يثبتوا نظرهم اليها فخضعوا له ولمن معه وكفوا شرهم عنهم خوفا منهم

(النوع الثاني) الشعوذة التي مدار البراعة فيها على خفة اليدين في اخفاء بعض الاشياء واظهار بعض، واراءة بعضها بغير صورها، وغير ذلك مماهو معروف في هذه البلاد وغيرها من بلاد الحضارة بكثرة المكتسبين بها من الوطنيين والغرباء. ولم يبق أحد في هذه البلاد يسميها سحرا

(النوع الثالث) ما مداره على تأثير الانفس ذوات الارادة القوية في الانفس الضعيفة ذات الامزجة العصبية القابلة للاوهام والانفعالات التي تسمى في عرف علماء هذا العصر بالهستيرية ، وهذا النوع هو الذي قيل ان أصحابه يستعينون على أعمالهم بأرواح الشياطين ، ومنهم الذين يكتبون الاوفاق والطلسمات للحب والبغض وغير ذلك . ومن يقول ان للحروف خواص وتأثيرات ذاتية يخرج عمل الاوفاق والنشرات وما في معناها من السحر . ومن هذا النوع ما استحدث في هذا العصر من التنويم المغناطيسي واخباره مشهورة

ومما سبق لنا بيانه في هذا الباب تخطئة من قال من المتكلمين ان السحر من خوارق العادات الذي هو الجنس الجامع لمعجزات الانبياء وكرامات الاولياء ، وفاتهم أن السحر صناعة تتلقى بالتعليم كما ثبت بنص القرآن وبالاختبار الذي لم يبق فيه خلاف بين أحد من علماء الكون في هذا العصر

ولعلمائنا كلام كثير في السحر بعضه صحيح وبعضه أوهام واننا ننقل هنا كلام بعض كبار محققي المفسرين فيه. ومن أخصره وأفيده قول ابن فارس: هو اخراج الباطل في صورة الحق . وقال الراغب الاصفهاني في مفرداته لغريب القرآن ما نصه :

تعريف السحر ومأخذه من اللغة

السحر (١) طرف الحلقوم والرئة وقيل انتفخ سحره وبعير سحر عظيم السحر والسحارة (بالضم) ما ينزع من السحر عند الذبح فيرمى به وجعل بناؤه بناء النفاية والسقاطة وقيل منه اشتق السحر وهو اصابة السحر. والسحر يقال على معان

(الاول) الخداع وتخييلات لاحقيقة لها نحو مايفعله المشعبذ بصرف الابصار عما يفعله لخفة يد ومايفعله النمام بقول مزخرف عائق للاسماع وعلى ذلك قوله تعالى (سحروا أعين الناس واسترهبوهم) وقال (يخيل اليه من سحرهم) وبهذا النظر سموا موسى عليه السلام ساحرا فقالوا (يا أيها الساحر ادع لنا ربك)

(والثاني) استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرب اليهم كقوله تعالى(هل انبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم) وعلى ذلك قوله تعالى (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر)

(والثالث) ما يذهب اليه الاغتام وهو اسم لفعل يزعمون أنه من قوته يغير الصور والطبائع فيجعل الانسان حمارا ولا حقيقة لذلك عند المحصلين . وقد تصور من السحر تارة حسنه فقيل «ان من البيان لسحرا» وتارة دقة فعله حتى قالت الاطباء الطبيعة ساحرة وسموا الغذاء سحراً من حيث انه يدق ويلطف تأثيره.اه

وقد عقد الشيخ أبو بكر أحمد بن علي الرازي المعروف بالجصاص من أئمة الحنفية في القرن الرابع بابا خاصا من تفسيره الجليل (أحكام القرآن) لبيان معنى السحر وحكم الساحر عند كلامه على قوله تعالى (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) قال في أوله « الواجب ان نقدم القول في السحر لخفائه على كثير من اهل العلم فضلا عن العامة ثم نعقبه بالكلام في حكمه في مقتضى الآية في المعاني والاحكام فنقول

---

(١) ذكره بالفتح وفيه ثلاث لغات باوزان فلس وسبب وقفل

«إن أهل اللغة يذكرون أن أصله في اللغة لما لطف وخفي سببه والسحر عندهم بالفتح هو الغذاء لخفائه ولطف مجاريه ، قال لبيد :

أرانا موضعين لامر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

«قيل فيه وجهان: نعلل ونخدع كالمسحور والمخدوع — والآخر نغذى . وأي الوجهين كان فمعناه الخفاء . وقال آخر :

فان تسألينا فيم نحن فاننا عصافير من هذا الانام المسحر

«وهذا البيت يحتمل من المعنى ما احتمله الاول ، ويحتمل أيضا انه أراد بالمسحر انه ذو سحر . والسحر الرئة وما يتعلق بالحلقوم ، وهذا يرجع الى معنى الخفاء أيضا . ومنه قول عائشة : توفي رسول الله (ص) بين سحري ونحري . وقوله تعالى (إنما أنت من المسحرين) يعني من المخلوق الذي يطعم ويسقى . ويدل عليه قوله تعالى (وما أنت الا بشر مثلنا) وكقوله تعالى (مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق) ويحتمل أنه ذو سحر مثلنا. وانما يذكر السحر في مثل هذه المواضع لضعف هذه الاجساد واطاقتها ورقتها ، وبها مع ذلك قوام الانسان — فمن كان بهذه الصفة فهو ضعيف محتاج — وهذا هو معنى السحر في اللغة ثم نقل هذا الاسم الى كل أمر خفي سببه وتخيل على غير حقيقته ، ويجري مجرى التمويه والخداع . ومتى أطلق ولم يقيد أفاد ذم فاعله . وقد أجرى مقيدا فيما يمتدح ويحمد كما روي « ان من البيان لسحرا »

(وههنا ذكر الجصاص روايته لهذا الحديث وهو في الصحيح وأطال الكلام عليه في زهاء ورقة كبيرة ذكر في أثنائه سحر سحرة موسى لاعين الناس وتخييلهم ان حبالهم وعصيهم تسعى ولم تكن تسعى ، وذكر ماقيل من حيلهتم في ذلك بوضع الزئبق فيها وتحريك النار الخفية للزئبق فكان سبب حركتها ، وسيأتي نقل ذلك عنه قريبا . ثم ذكر قصة تاريخية في أصل السحر ببابل وقفى عليها ببيان أنواعه فقال)

كلام الجصاص في السحر وأنواعه

«واذ قد بينا أصل السحر في اللغة وحكمه عند الاطلاق والتقييد فلنقل في معناه في التعارف والضروب الذي يشتمل عليها هذا الاسم وما يقصد به كل فريق

من منتحليه ، والغرض الذي يجري اليه مدعوه، فنقول : وبالله التوفيق إن ذلك ينقسم الى انحاء مختلفة .

« (فمنها سحر أهل بابل) الذين ذكرهم الله تعالى في قوله (يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) وكانوا قوما صابئين يعبدون الكواكب السبعة و يسمونها آلهة . ويعتقدون ان حوادث العالم كلها من أفعالها ، وهم معطلة لا يعترفون بالصانع الواحد المبدع للكواكب وجميع أجرام العالم ، وهم الذين بعث الله تعالى اليهم ابراهيم خليله صلوات الله عليه فدعاهم الى الله تعالى وحاجهم بالحجاج الذي بهرهم به وأقام عليهم به الحجة من حيث لم يمكنهم دفعه ، ثم ألقوه في النار فجعلها الله برداً وسلاما . ثم أمره الله تعالى بالهجرة الى الشام . وكان أهل بابل واقليم العراق والشام ومصر والروم على هذه المقالة الى أيام بيوراسب الذي تسميه العرب الضحاك . وان افريدون وكان من أهل دُنباوند استجاش عليه بلاده وكاتب سائر من يطيعه وله قصص طويلة حتى أزال ملكه وأسره . وجهال العامة والنساء عندنا يزعمون ان افريدون حبس بيوراسب في جبل دنباوند العالي على الجبال وانه حي هناك مقيد ، وان السحرة يأتونه هناك فيأخذون عنه السحر ، وانه سيخرج فيغلب على الارض وانه هو الدجال الذي أخبر به النبي عليه السلام وحذرناه ، وأحسبهم أخذوا ذلك عن المجوس . وصارت مملكة إقليم بابل للفرس ، فانتقل بعض ملوكهم اليها في بعض الازمان فاستوطنوها ، ولم يكونوا عبدة أوثان ، بل كانوا موحدين مقرين بالله وحده ، الا أنهم مع ذلك يعظمون العناصر الاربعة الماء والنار والارض والهواء لما فيها من منافع الخلق ، وان بها قوام الحيوان ، وانما حدثت المجوسية فيهم بعد ذلك في زمان كشتاسب حين دعاه زرادشت فاستجاب له على شرائط يطول شرحها ، وانما غرضنا في هذا الموضع الابانة عما كانت عليه سحرة بابل . ولما ظهرت الفرس على هذا الاقليم كانت تتدين بقتل السحرة وابادتها ولم يزل ذلك فيهم ومن دينهم بعد حدوث المجوسية فيهم وقبله الى أن زال عنهم الملك .

« وكانت علوم أهل بابل قبل ظهور الفرس عليهم الحيل والنيرنجيات وأحكام النجوم،

وكانوا يعبدون أوثانا قد عملوها على أسماء الكواكب السبعة وجعلوا لكل واحد منها هيكلا فيه صنمه ويتقربون اليها بضروب من الافعال على حسب اعتقاداتهم من موافقة ذلك الكوكب الذي يطلبون منه بزعمهم فعل خير أو شر ، فمن أراد شيئا من الخير والصلاح بزعمه يتقرب اليه بما يوافق المشتري من الدخن والرقى والعقد والنفث عليها ، ومن طلب شيئا من الشر والحرب والموت والبوار لغيره تقرب بزعمه الى زحل بما يوافقه من ذلك . ومن أراد البرق والحرق والطاعون تقرب بزعمه الى المريخ بما يوافقه من ذلك من ذبح بعض الحيوانات . وجميع تلك الرقى بالنبطية تشتمل على تعظيم تلك الكواكب الى مايريدون من خير أو شر ومحبة و بغض فيعطيهم ماشاؤا من ذلك فيزعمون انهم عند ذلك يفعلون ماشاؤا في غيرهم من غير مماسة ولا ملامسة سوى ماقدموه من القربات للكوكب الذي طلبوا ذلك منه . فمن العامة من يزعم انه يقلب الانسان حمارا أو كلبا ثم اذا شاء أعاده ، ويركب البيضة والمكنسة والخابية ويطير في الهواء فيمضي من العراق الى الهند والى ماشاء من البلدان ثم يرجع من ليلته

«وكانت عوامهم تعتقد ذلك لأنهم كانوا يعبدون الكواكب وكل ما دعا الى تعظيمها اعتقدوه . وكانت السحرة تحتال في خلال ذلك بحيل تموه بها على العامة الى اعتقاد صحته بأن يزعم ان ذلك لا ينفذ ولا ينتفع به أحد ولا يبلغ ما يريد الا من اعتقد صحة قولهم وتصديقهم فيما يقولون

«ولم تكن ملوكهم تعترض عليهم في ذلك بل كانت السحرة عندها بالمحل الاجل لما كان لها في نفوس العامة من محل التعظيم والاجلال ، ولان الملوك في ذلك الوقت كانت تعتقد ما تدعيه السحرة للكواكب ، الى أن زالت تلك الممالك . ألا ترى ان الناس في زمن فرعون كانوا يتبارون بالعلم والسحر والحيل والمخاريق ولذلك بعث اليهم موسى عليه السلام بالعصا والآيات التي علمت السحرة أنها ليست من السحر في شيء ، وانها لايقدر عليها غير الله تعالى ، فلما زالت تلك الممالك وكان من ملكهم بعد ذلك من الموحدين يطلبونهم ويتقربون الى الله

تعالى بقتلهم كانوا يدعون عوام الناس وجهالهم سرا كما يفعله الساعة كثير ممن يدعي ذلك مع النساء والاحداث الاغمار والجهال الحشو

« وكانوا يدعون من يعملون له ذلك الى تصديق قولهم والاعتراف بصحته. والمصدق لهم بذلك يكفر من وجوه (أحدها) التصديق بوجوب تعظيم الكواكب وتسميتها آلهة (والثاني) اعترافه بأن الكواكب تقدر على ضره ونفعه (والثالث) ان السحرة تقدر على مثل معجزات الانبياء عليهم السلام. فبعث الله اليهم ملكين يبينان للناس حقيقة مايدعون، وبطلان مايذكرون، ويكشفان لهم مابه يموهون، ويخبرانهم بمعاني تلك الرقى وانها شرك وكفر، وبحيلهم التي كانوا يتوصلون بها الى التمويه على العامة، ويظهرون لهم حقائقها، وينهونهم عن قبولها والعمل بها، بقوله (انما نحن فتنة فلا تكفر) فهذا أصل سحر بابل ومع ذلك فقد كانوا يستعملون سائر وجوه السحر والحيل التي نذكرها ويموهون بها على العامة ويعزونها الى فعل الكواكب لئلا يبحث عنها ويسلمها لهم

«فمن ضروب السحر كثير من التخيلات التي مظهرها على خلاف حقائقها (فمنها) مايعرفه الناس بجريان العادة بها وظهورها ومنها مايخفى ويلطف، ولا يعرف حقيقته ومعنى باطنه الا من تعاطي معرفة ذلك، لان كل علم لابد أن يشتمل على جلي وخفي وظاهر وغامض، فالجلي منه يعرفه كل من رآه وسمعه من العقلاء والغامض الخفي لا يعرفه الا أهله ومن تعاطى معرفته وتكلف فعله والبحث عنه وذلك نحو مايتخيل راكب السفينة اذا سارت في النهر فيرى ان الشط بما عليه من النخل والبنيان سائر معه، وكما يرى القمر في مهب الشمال يسير للغيم في مهب الجنوب، وكدوران الدوّامة فيها الشامة فيراها كالطوق المستدير في ارجائها، وكذلك يرى هذا في الرحى اذا كانت سريعة الدوران، وكالعود في طرفه الجمرة اذا أداره مديره رأى تلك النار التي في طرفه كالطوق المستدير، وكالعنبة التي يراها في قدح فيه ماء كالخوخة والاجاصة عظما، وكالشخص الصغير يراه في الضباب عظيما جسيما، وكبخار الارض الذي يريك قرص الشمس عند طلوعها عظيما فاذا فارقته وارتفعت صغرت، وكما

يرى المرئي في الماء منكسراً أومعوجا، وكما يرى الخاتم اذا قربته من عينك في سعة حلقة السوار. ونظائر ذلك كثيرة من الاشياء التي تتخيل على غير حقائقها فيعرفها عامة الناس

«ومنها مايلطف فلا يعرفه الا من تعاطاه وتأمله كخيط السحارة الذي يخرج مرة أحمر ومرة أصفر ومرة أسود. ومن لطيف ذلك ودقيقه مايفعله المشعوذون من جهة الحركات واظهار التخيلات التي تخرج على غير حقائقها حتى يريك عصفورا معه أنه قد ذبحه ثم يريكه وقد طار بعد ذبحه وابانة رأسه وذلك لخفة حركته ، والمذبوح غير الذي طار لانه يكون معه اثنان قد خبأ احدهما وأظهر الآخر ويخبأ لخفة الحركة المذبوح ويظهر الذي نظيره، ويظهرانه قدذبح انسانا، وأنه قد بلع سيفا معه وأدخله في جوفه ، وليس لشيء منه حقيقة

«ومن نحو ذلك مايفعله أصحاب الحركات للصور المعمولة من صفر (١) او غيره فيري فارسين يقتتلان فيقتل احدهما الآخر وينصرف بحبل قد أعدت لذلك ، وكفارس من صفر (١) على فرس في يده بوق كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق من غير أن يمسه أحد ولا يتقدم اليه .

« وقد ذكر الكلبي ان رجلا من الجند خرج ببعض نواحي الشام متصيدا ومعه كلب له وغلام فرأى ثعلبا فأغرى به الكلب ، فدخل الثعلب ثقبا في تل هناك ودخل الكلب خلفه فلم يخرج فأمر الغلام أن يدخل فدخل وانتظره صاحبه فلم يخرج فوقف متهيئا للدخول ، فمر به رجل فأخبره بشأن الثعلب والكلب والغلام وان واحداً منهم لم يخرج وانه متأهب للدخول ، فأخذ الرجل الجندي له الى هناك فمضيا الى سرب طويل حتى أفضى بهما الى بيت قد فتح له ضوء من موضع ينزل اليه بمرقاتين فوقف به على المرقاة الاولى حتى أضاء البيت حينا ثم قال له : انظر، فنظر فاذا الكلب والرجل والثعلب قتلى ، واذا في صدر البيت رجل واقف مقنع في الحديد وفي يده سيف فقال له الرجل : أترى هذا لو دخل اليه

---

(١) الصفر بضم الصاد وسكون القاف النحاس

هذا المدخل الف رجل لقتلهم كلهم، فقال : وكيف؟ قال : لانه قد رتب وهندم على هيئة متى وضع الانسان رجله على المرقاة الثانية للنزول تقدم الرجل المعمول في الصدر فضربه بالسيف الذي في يده، فاياك أن تنزل اليه . فقال : فكيف الحيلة في هذا ؟ قال: ينبغي أن تحفر من خلفه سربا يفضي بك اليه ، فان وصلت اليه من تلك الناحية لم يتحرك . فاستأجر الجندي اجراء وصناعا حتى حفروا سربا من خلف التل فأفضوا اليه فلم يتحرك ، واذا رجل معمول من صفر أو غيره قد ألبس السلاح وأعطي السيف، فقلعه ، ورأى بابا آخر في ذلك البيت ففتحه فاذا هو قبر لبعض الملوك ميت على سرير هناك ، وأمثال ذلك كثيرة جدا (١) .

«ومنها الصور التي يصورها مصورو الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بين الانسان و بينها، ومن لم يتقدم له علم انها صورة لا يشك في أنها انسان، وحتى تصورها ضاحكة أو باكية وحتى يفرق فيها بين الضحك من الخجل والسرور ، وضحك الشامت.

«فهذه الوجوه من لطيف أمور التخاييل وخفيها، وما ذكرناه قبل من حليها وكان سحر سحرة فرعون من هذا الضرب على النحو الذي بينا من حيلهم في العصي والحبال. والذي ذكرناه من مذاهب أهل بابل في القديم وسحرهم ووجوه حيلهم بعضه سمعناه من أهل المعرفة بذلك ، و بعضه وجدناه في كتب قد نقلت حديثا من النبطية الى العربية منها كتاب في ذكر سحرهم وأصنافه ووجوهه وكلها مبنية على الاصل الذي ذكرناه من قربانات الكواكب وتعظيمها وخرافات معها لا تساوي ذكرها ولا فائدة فيها

(وضرب آخر) من السحر وهو ما يدعونه من حديث الجن والشياطين وطاعتهم لهم بالرقى والعزائم، ويتوصلون إلى ما يريدون من ذلك بتقدمة أمور ومواطأة قوم قد أعدوهم لذلك ، وعلى ذلك كان يجري أمر الكهان من العرب في الجاهلية، وكانت أكثر مخاريق الحلاج من باب المواطآت ولولا ان هذا الكتاب لا يحتمل

(١) هذا ما يسميه العامة الى هذا العهد بالرصد

استقصاء ذلك لذكرت منها مايوقف على كثير من مخاريقه ومخاريق أمثاله (١) وضرر أصحاب العزائم ، وفتنتهم على الناس غير يسير ، وذلك انهم يدخلون على الناس من باب ان الجن انما تطيعهم بالرقي التي هي أسماء الله تعالى فانهم يجيبون بذلك من شاؤا ، ويخرجون الجن لمن شاؤا، فتصدقهم العامة على اغترار بما يظهرون من انقياد الجن لهم بأسماء الله تعالى التي كانت تطيع بها سليمان بن داود عليه السلام، وانهم يخبرونهم بالخبايا و بالسرق

« وقد كان المعتضد بالله مع جلالته وشهامته ووفور عقله اغتر بقول هؤلاء . وقد ذكره أصحاب التواريخ ، وذلك انه كان يظهر في داره التي كان يخلو فيها بنسائه وأهله شخص في يده سيف في أوقات مختلفة وأكثره وقت الظهر فاذا طلب لم يوجد ولم يقدر عليه ولم يوقف له على أثر مع كثرة التفتيش ، وقد رآه هو بعينه

(١) المواطآت جمع مواطاة وهي الاتفاق بين اثنين أو أكثر على أمر. والمخاريق جمع مخراق وهي في الاصل خرق كانوا يفتلونها و يلعبون بها بادارتها بخفة ومهارة. ومواطآت الحلاج هي انه كان يتفق مع اناس من رجاله على مايلبسون به على الناس بدعوى الكرامات وقد اكتشف ذلك في عصره كما بينه التنوخي فى جامع التواريخ « نشوار المحاضرة» ومنه أن رجلا جاء بصفة مسترشد وانما هو مختبر فقال له الحلاج: تشه علي ماشئت فقال: أريد سمكا طريا وكانوا في بعض بلاد الجبل البعيدة عن الانهار والبحر فدخل بيتا خاليا من داره وأغلق عليه بابه وعاد بعد ساعة طويلة وقد خاض وحلا الى ركبتيه و بيده سمكة تضطرب وزعم أنه دعا الله فامره أن يذهب الى البطائح قال فمضيت الى البطائح فخضت الاهواز وهذا الطين منها حتى أخذت هذه . فقال الرجل : تدعني ادخل البيت فان لم ينكشف لي حيلة فيه آمنت بك . فقال شانك — فدخل و بعد عناء وتنقيب اهتدى الى دار كبيرة فيها بستان عظيم فيه صنوف الفاكهة والثمار والنوار ومنها ما ليس من وقته ولكنه محفوظ بحيلة صناعية ووجد فيها خزائن مليحة فيها أنواع الاطعمة الناضجة والحوائج لما يهيأ بسرعة ورأى في الدار بركة ماء مملوءة سمكا فاخذ واحدة منها وخرج ... فتبعه الحلاج فرمى بالسمكة وجهه وصدره وهرب وأقسم الحلاج ليقتلنه ان حدث احدا بذلك ولو في تخوم الارض ولم يحدث بها الرجل الا بعد قتله لعلمه بانه لو امر احد المفتونين به ان يقتله فانه يفعل .

مرارا فأهمته نفسه ودعا بالمعزمين فحضروا وأحضروا معهم رجالا ونساء وزعموا ان فيهم مجانين وأصحاء ، فأمر بعض رؤسائهم بالعزيمة فعزم على رجل منهم زعم انه كان صحيحا فجن وتخبط وهو ينظر اليه وذكروا له ان هذا غاية الحذق بهذه الصناعة اذ اطاعته الجن في تخبيط الصحيح، وانما كان ذلك من المعزم بمواطأة منه لذلك الصحيح على أنه متى عزم عليه جنن نفسه وخبط ، فجاز ذلك على المعتضد فقامت نفسه منه وكرهه، الا أنه سألهم عن أمر الشخص الذي يظهر في داره فمخرقوا عليه باشياء علقوا قلبه بها من غير تحصيل لشيء من امر ماسألهم عنه فامرهم بالانصراف وأمر لكل واحد منهم ممن حضر بخمسة دراهم . ثم تحرز المعتضد بغاية ما أمكنه وأمر بالاستيثاق من سور الدار حيث لايمكن فيه حيلة من تساق ونحوه و بطحت في أعلى السور خواب لئلا يحتال بالقاء المعاليق التي يحتال بها اللصوص

«ثم لم يوقف لذلك الشخص على خبر الاظهوره له الوقت بعد الوقت الى ان توفي المعتضد وهذه الخوابي المبطوحة على السور ، وقد رأيتها على سور الثريا التي بناها المعتضد فسألت صديقا لي كان قد حجب المقتدر بالله عن أمر ذلك الشخص وهل تبين أمره ؟ فذكر لي انه لم يوقف على حقيقة هذا الامر الا في أيام المقتدر ، وان ذلك الشخص كان خادما أبيض يسمى (يقق) وكان يميل الى بعض الجواري اللاتي في داخل دور الحرم ، وكان قد اتخذ لحى على ألوان مختلفة ، وكان اذا لبس بعض تلك اللحى لايشك من رآه انها لحيته ، وكان يلبس في الوقت الذي يريده لحية منها ويظهر في ذلك الموضع وفي يده سيف أوغيره من السلاح حيث يقع نظر المعتضد فاذا طلب دخل بين الشجر الذي في البستان أو في بعض تلك الممرات أو المعطفات ، فاذا غاب عن أبصار طالبيه نزع اللحية وجعلها في كمه أوحزته (١) ويبقى السلاح معه كانه بعض الخدم الطالبين للشخص ولا يرتابون به ويسألونه هل رأيت في هذه الناحية أحدا فانا قد رأيناه صار اليها؟ فيقول ما رأيت أحدا. وكان اذا وقع مثل هذا الفزع في الدار خرجت الجواري من داخل الدور الى هذا الموضع فيرى هو تلك

(١) الحزة بالضم الحجزة وهي من الازار معقده ومن السراويل ما تكون فيه التكة وهي معقده أيضا وفي كل منهما مخبأ للدراهم ونحوها

الجارية ويخاطبها بما يريد وانما كان غرضه مشاهدة الجارية وكلامها فلم يزل دأبه الى أيام المقتدر، ثم خرج الى البلدان وصار الى طرسوس وأقام بها الى ان مات وتحدثت الجارية بعد ذلك بحديثه ووُقف على احتياله. فهذا خادم قد احتال بمثل هذه الحيلة الخفية التي لم يهتد لها أحد مع شدة عناية المعتضد به وأعياه معرفتها والوقوف عليها ولم تكن صناعته الحيل والمخاريق فما ظنك بمن قد جعل هذا صناعة ومعاشا؟

(وضرب آخر من السحر) وهي السعي بالنميمة والوشاية بها (١) والبلاغات والافساد والتضريب من وجوه خفية لطيفة، وذلك عامّ شائع في كثير من الناس وقد حكي ان امرأة أرادت افساد ما بين زوجين، فصارت إلى الزوجة فقالت لها: ان زوجك معرض وقد سحر وهو مأخوذ عنك وسأسحره لك حتى لا يريد غيرك، ولا ينظر الى سواك، ولكن لا بد أن تأخذي من شعر حلقه بالموسى ثلاث شعرات اذا نام وتعطينيها فان بها يتم الامر، فاغترت المرأة بقولها وصدقتها. ثم ذهبت الى الرجل وقالت له: ان امرأتك قد علقت رجلا، وقد عزمت على قتلك، وقد وقفت على ذلك من أمرها فأشفقت عليك ولزمني نصحك فتيقظ ولا تغتر فانها عزمت على ذلك بالموسى وستعرف ذلك منها فما في أمرها شك. فتناوم الرجل في بيته فلما ظنت امرأته انه قد نام عمدت الى موسى حاد وأهوت به لتحلق من حلقه ثلاث شعرات ففتح الرجل عينه فرآها وقد أهوت بالموسى الى حلقه فلم يشك في انها أرادت قتله فقام اليها فقتلها وقتل، وهذا كثير لا يحصى

(وضرب آخر من السحر) وهو الاحتيال في اطعامه بعض الادوية المبلدة المؤثرة في العقل والدخن المسدرة المسكرة نحو دماغ الحمار اذا طعمه انسان تبلد عقله وقلت فطنته مع أدوية كثيرة هي مذكورة في كتب الطب ويتوصلون الى ان يجعلوه في طعام حتى يأكله فتذهب فطنته ويجوز عليه اشياء مما لو كان تام الفطنة لانكرها فيقول الناس إنه مسحور (٢)

«١» بهذا فسر الاستاذ الامام النفاثات في العقد من سورة الفلق

«٢» قد كثرت بعد عصر المؤلف العقاقير المفسدة للعقل والمبلدة للذهن ولا سيما في زماننا هذا ومنها الحشيشة المشهورة وما يتخذ منها ومن غيرها من المعاجين — والكوكايين ولكنها لاشتهارها لم تعد تعد من اعمال السحر

« وحكمة كافية تبين لك ان هذا كله مخاريق وحيل لاحقيقة لما يدعون لها. ان الساحر والمعزم لو قدرا على ما يدعيانه من النفع والضرر من الوجوه التي يدعون وأمكنهما الطيران والعلم بالغيوب واخبار البلدان النائية والخبيآت والسرق والاضرار بالناس من غير الوجوه التي ذكرنا لقدروا على ازالة الممالك واستخراج الكنوز والغلبة على البلدان بقتل الملوك بحيث لا يبدأهم مكروه ولما مسهم السوء ولامتنعوا ممن قصدهم بمكروه ، ولاستغنوا عن الطلب لما في ايدي الناس. فاذا لم يكن كذلك وكان المدعون لذلك اسوأ الناس حالا وأكثرهم طمعا واحتيالا وتوصلا لاخذ دراهم الناس واظهرهم فقرا واملاقا علمت أنهم لا يقدرون على شيء من ذلك

« ورؤساء الحشو والجهال من العامة من أسرع الناس الى التصديق بدعاوى السحرة والمعزمين وأشدهم نكيرا على من جحدها، ويروون في ذلك اخبارا مفتعلة متخرصة يعتقدون صحتها كالحديث الذي يروون ان امرأة أتت عائشة فقالت اني ساحرة فهل لي توبة؟ فقالت وماسحرك؟ قالت سرت الى الموضع الذي فيه هاروت وماروت ببابل لطلب علم السحر فقالا لي ياامة الله لا تختاري عذاب الآخرة بامر الدنيا، فابيت، فقالا لي اذهبي فبولي على ذلك الرماد فذهبت لابول عليه ففكرت في نفسي فقلت لافعلت وجئت اليهما فقلت قدفعلت، فقالا مارأيت؟ فقلت مارأيت شيئا، فقالا مافعلت اذهبي فبولي عليه، فذهبت وفعلت، فرأيت كان فارسا قد خرج من فرجي مقنعا بالحديد حتى صعد الى السماء ، فجئتهما فاخبرتهما فقالا ذلك ايمانك خرج عنك وقد أحسنت السحر، فقلت وماهو؟ فقالا لا تريدين شيئا فتصورينه في وهمك الا كان. فصورت في نفسي حبا من حنطة فاذا أنا بالحب، فقلت له انزرع فانزرع وخرج من ساعته سنبلا فقلت له انطحن وانخبز الى آخر الامر حتى صار خبزا، واني كنت لا أصور في نفسي شيئا الا كان. فقالت لها عائشة ليست لك توبة

« فيروي القصاص والمحدثون الجهال مثل هذا للعامة فتصدقه وتستعيده وتسأله ان يحدثها بحديث ساحرة ابن هبيرة فيقول لها ان ابن هبيرة أخذ

ساحرة فاقرت له بالسحر فدعا الفقهاء فسألهم عن حكمها فقالوا القتل ، فقال ابن هبيرة لست أقتلها الا تغريقا قال فاخذ رحى البزر فشدها في رجلها وقذفها في الفرات فقامت فوق الماء مع الحجر تنحدر مع الماء فخافوا ان تفوتهم فقال ابن هبيرة من يمسكها وله كذا وكذا؟ فرغب رجل من السحرة كان حاضرا فيما بذله فقال اعطوني قدح زجاج فيه ماء فجاؤه به فقعد على القدح ومضى الى الحجر فشق الحجر بالقدح فتقطع الحجر قطعة قطعة فغرقت الساحرة — فيصدقونه، ومن صدق هذا فليس يعرف النبوة ولا يأمن ان تكون معجزات الانبياء عليهم السلام من هذا النوع وانهم كانوا سحرة وقال الله تعالى (ولا يفلح الساحر حيث أتى)

«وقد أجازوا من فعل الساحر ماهو أطم من هذا وأفظع ، وذلك أنهم زعموا ان النبي عليه السلام سحر وان السحر عمل فيه حتى قال فيه «انه يخيل الي اني أقول الشيء وأفعله ، ولم أقله ولم أفعله » وان امرأة يهودية سحرته في جف طلعة ومشط ومشاقة (١) حتى أتاه جبريل عليه السلام فأخبره أنها سحرته في جف طلعة وهو تحت راعوفة البئر (٢) فاستخرج وزال عن النبي عليه السلام ذلك العارض. وقد قال الله تعالى مكذبا للكفار فيما ادعوه من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال جل من قائل (وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا) ومثل هذه الاخبار من وضع الملحدين تلعبا بالحشو الطغام ، واستجرارا لهم الى القول بابطال معجزات الانبياء عليهم السلام، والقدح فيها، وانه لا فرق بين معجزات الانبياء وفعل السحرة وان جميعه من نوع واحد . والعجب ممن يجمع بين تصديق الانبياء عليهم السلام واثبات معجزاتهم ، وبين التصديق بمثل هذا من فعل السحرة مع قوله تعالى (ولا يفلح الساحر حيث أتى) فصدق هؤلاء من كذبه الله وأخبر ببطلان دعواه وانتحاله . وجائز أن تكون المرأة اليهودية بجهلها فعلت ذلك ظنا

«١» جف الطلع بضم الجيم هو الوعاء الذي يخرج منه طلع النخل، والمشاقة من الكتان معروفة وفي اكثر الروايات مشاطة وهي بالضم الشعر الذي يسقط من الشعر عند تسريحه بالمشط والمراد ان المشط والمشاطة وضعا في جف طلعة وصفت عند الشيخين بانها طلعة ذكر اي من النخل «٢» راعوفة البئر الحجر الثابت الذي يقف عليه المستقي من البئر

منها بأن ذلك يعمل في الاجساد وقصدت به النبي عليه السلام فأطلع الله نبيه على موضع سرها ، وأظهر جهلها فيما ارتكبت وظنت ليكون ذلك من دلائل نبوته، لا ان ذلك ضره، وخلط عليه أمره ، ولم يقل كل الرواة انه اختلط عليه أمره وانما هذا اللفظ زيد في الحديث ولا أصل له (١)

«والفرق بين معجزات الانبياء وبين ماذكرنا من وجوه التخييلات ، ان معجزات الانبياء عليهم السلام هي على حقائقها ، وبواطنها كظهائرها ، وكلما تأملتها، ازددت بصيرة في صحتها ، ولو جهد الخلق كلهم على مضاهاتها ومقابلتها بأمثالها ظهر عجزهم . ومخاريق السحرة وتخييلاتهم انما هي ضرب من الحيلة والتلطف لاظهار أمور لا حقيقة لها، وما يظهر منها على غير حقيقتها، يعرف ذلك بالتأمل والبحث ومتى شاء أن يتعلم ذلك بلغ فيه مبلغ غيره ، ويأتي بمثل ماأظهره سواه » اه

هذا جل ما قاله ابو بكر الجصاص في معنى السحر وحقيقته وعقد بعده بابا في ذكر قول الفقهاء فيه وماتضمنته الآية من حكمه وما يجرى على مدعي ذلك من العقوبات ومنها القتل كفراً في بعض أنواعه المتضمنة للشرك والمستلزمة للريب

---

١) انكر الجصاص الحديث المروي في ذلك - وكذلك الاستاذ الامام - لمعارضته للقرآن ومافيه من الشبهة على عصمة النبي «ص» حتى في امر التبليغ مع انه مروي في الصحيحين لان من علامة الحديث الموضوع مخالفته للقطعي من القرآن وغيره ، ومثل هذا انكار النووي لما روي عن ابن مسعود « رض » من انكار كون المعوذتين من القرآن مع صحة سنده. والجمهور يؤولون في هذا وذاك ويغرهم ان المقلدين يسلمون لهم كل تأويل ولو متكلفا وينسون ان اعداء الاسلام ومستقلي الفكر من غيرهم لا يقبلون التأويل المتكلف الذى لا يطمئن له القلب ، والظاهر ان الجصاص لم يطلع على روايات الشيخين في مسألته كاطلاع النووي على جميع الروايات في مسألته. وفيهما ان الذي سحر النبي «ص» هو لبيد بن الاعصم اليهودي لا امراة، ومذهب الاشعرية أن للسحر تأثيرا حقيقيا وليس كله حيلا ومنه انه أثر في جسم النبي «ص» وخياله دون عقله وروحه فكان يخيل اليه أنه أتى نساءه ولم يكن اتاهن ولم يتجاوز هذا الحد ، وقال الاستاذ الامام ان هذا تأثير في النفس ومداركها ورسول الله اجل واعظم من ذلك فنفسه أزكى الانفس وازكاها واقواها فلا يمكن ان تؤثر فيها نفس خبيثة فاسدة

في معجزات الرسل . وان كثيراً من العلماء يثبتون ما نكره من تأثير الجن واستخدام بعض الناس لهم . ومن العجيب أنه لا يزال في هذا العصر من يتوسل إلى الاستعانة بالجن على بعض الاعمال السحرية بما هو كفر قطعا كربط بعض القرآن على السوءتين كما علمت من بعض المخبرين لهؤلاء الدجالين الذين يعيشون بكتابة العزائم والحجب للحب والبغض والحبل وغير ذلك والمفاسد في ذلك كبيرة جدا وقد ذكرنا بعضها في تفسير (٧ : ٢٦ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء الذين لا يؤمنون) فيراجع (في ص ٣٦٧ — ٣٧١ من المجلد الثامن تفسير)

﴿ عود الى تفسير الآيات ﴾

لما أظهر موسى عليه السلام آية الله تعالى في مجلس فرعون (قال الملا من قوم فرعون) أي أشراف قومه واركان الدولة منهم : (ان هذا لساحر عليم) أي راسخ في العلم — كما تدل عليه صيغة عليم (يريد ان يخرجكم من ارضكم) اي قد وجه ارادته لسلب ملككم منكم وإخراجكم من ارضكم بسحره بأن يستميل به الشعب المصري فيتبعه فينتزع منكم الملك ويستبد به دونكم ، ويلي ذلك اخراج الملك وعظماء رجاله من البلاد لئلا يناوؤه لاستعادة الملك منه ، كما فعل متغلبة الترك في هذه الايام بعد إسقاط الدولة العثمانية فانهم أخرجوا جميع افراد الاسرة السلطانية من البلاد التركية التي بقيت لهم . وفي معنى هذا القول من فرعون ورجال دولته ما حكى الله تعالى عنهم من مراجعتهم لموسى واخيه في سورة يونس (١٠ : ٧٨ قالوا اجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الارض ؟ وما نحن لكما بمؤمنين)

وما قال الملا من قوم فرعون هذا القول الا تبعاً لقوله هو الذي حكاه تعالى عنه في سورة الشعراء (قال للملا حوله إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون) اي رددوا قوله وصار يلقيه بعضهم الى بعض كدأب الناس في نقل كلام ملوكهم ورؤسائهم وترديده إظهاراً للموافقة عليه ، وتعميما لتبليغه . وإنما لم يصرحوا بكلمة « بسحره » كما صرح هو لانهم كانوا دونه خوفا وانزعاجا ، وأقل منه حرصا على الطعن في دعوة موسى ،

ولكن ذكرها السحرة في تناجيهم مع فرعون وهأجدر بذكرها فحكاها الله تعالى عنهم بقوله من سورة طه (فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى* قالوا ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى*فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاوقد افلح اليوم من استعلى)

والامر في قول فرعون لهم وقول بعضهم لبعض (فماذا تأمرون) ليس هو المقابل للنهي بل هو بمعنى الادلاء بالرأي في الشورى قال الزمخشري في الاساس: وتآمر القوم وائتمروا، مثل تشاوروا واشتوروا . ومرني بمعنى اشر عليّ . قال بعض فتاكهم .

الم تر اني لا اقول لصاحب اذا قال مرني: أنت ماشئت فافعل
ولكنني افري له فأريحه ببزلاء تُنجيه من الشك فيصل

وقال في مادة (ب ز ل) ومن المجاز بزل الامر والراي : استحكم .وامر بازل . وتقول خطب بازل ، لا يكفيه الا راي قارح ، وإنه لذو بزلاء ، أي ذو صريمة محكمة ، وهو نهاض ببزلاء اى بخطة عظيمة . قال

إني اذا شغلت قوما فروجهم رحب المسالك نهاض ببزلاء

(أقول) ومعنى بيتي الفاتك أن صاحبه اذا استشاره فقال له امرني — أي أشر علي — لا يقول له افعل ما تشاء اعراضا عن نصحه أو عجزا عنه، بل يفري أي يقطع له الرأي المحكم بخطة بزلاء أي قوية محكمة تخرجه من الشك والتردد وتكون فيصلا أي فاصلة بين الخطأ والصواب . والبزلاء وبزول الامر والرأي مأخوذ من بزول ناب البعير وهو أن ينشق ويخرج عند دخوله في السنة التاسعة فهو بازل ولذلك أطلقوا لقب البازل على الرجل القوي المحكم التجربة

﴿ قالوا أرجه[1] واخاه وارسل في المدائن حاشرين﴾ اي قال الملأ لفرعون

(١) في هذه الكلمة عدة قراءات لفظية محضة سببها اختلاف لهجات العرب في اثبات الهمزة وحذفها تخفيفا وقد بينها السيد الآلوسي في روح البيان مع تعليلاتها فقال :
وأصل أرجه أرجئه بهمزة ساكنة وهاء مضمومة دون واو ثم حذفت الهمزة وسكنت الهاء لتشبيه المنفصل بالمتصل وجعل ارجه كابل(كذا)في اسكان وسطه وبذلك قرأ ابو عمرو وابو بكر و يعقوب على انه من ارجأت وكذلك قراءة ابن كثير وهشام وابن عامر ارجئهو بهمزة ساكنة وهاء متصلة بواو الاشباع وقرأ نافع في رواية ورش واسماعيل والكسائي ارجهي بهاء مكسورة بعدها ياء من ارجيت =

حين استشارهم بقوله « فما ذا تأمرون ؟ : ارجـه اى ارجيء واخر امره وامر اخيه ولا تفصل فيه بادي الرأي وأرسل في مدائن ملـكك رجالا او جماعات من الشرطة والجند حاشرين اي جامعين سائقين للسحرة منها — فالحشر الجمع والسوق — وانما يوجد السحرة في المدائن الجامعة الآهلة بدور العلم والصناعة ، فان ترسلهم ﴿ يأتوك بكل ساحر عليم ﴾ بفنون السحر ماهر فيها وهم يكشفون لك كنه ما جاء به موسى فلا يفتتن به أحد .

قرأ الجمهور (ساحر) بصيغة اسم الفـاعل ، وحمزة والكسائي هنا وفي يونس (سحار) بصيغة المبالغة له وجاء ذلك بالامالة وعدمها ـ وبها قرأ الجميع في الشعراء. ورسمهما في المصحف الامام واحدهكذا (سحر) ليحتمل القراءتين ووجههما ان فرعون لما طلب كل ساحر عليم في مدائن البلاد خص بالذكر المهرة المتمرنين في السحر المكثرين منه — او ان بعض مائه طلب هؤلاء فقط لأنهم اجدر باتيان موسى بمثـل ما جاء به من الامر العظيم كما حكى الله تعالى عن فرعون في سورة طه (قال اجئتنا لتخرجنا من ارضنـا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله) وطلب آخرون حشر جميع السحرة الراسخين في العلم لعله يوجد عند بعض المقتصدين او المقلين من السحر ما لا يوجد عند المكثرين منه ـ فبينت القراءتان كل ما قيل مع الايجاز البليغ .

= وفي رواية قالون ان ارجه بحذف الياء للاكتفاء عنها بالكسرة وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان ارجئه بالهمزة وكسر الهاء وقد ذكر بعضهم ان ضم الهاء وكسرها والهمز وعدمه لغتان مشهورتان وهل هما مدتان او الياء بدل من الهمزة كتوضأت وتوضيت؟ قولان. وطعن في القراءة على رواية ابن ذكوان فقال الحوفي انها ليست بجيدة وقال الفارسي ان ضم الهاء مع الهمزة لا يجوز غيره وكسرها غلط لان الهاء لا تكسر الا بعد ياء ساكنة او كسرة واجيب كما قال الشهاب عنه بوجهين احدهما ان الهمزة ساكنة والحرف الساكن حاجز غير حصـين فكأن الهاء وليت الجيم المكسورة فلذا كسرت والثاني ان الهمزة عرضة للتغيير كثيرا بالحذف وابدالها ياء اذا سكنت بعد كسرة فكأنها وليت ياء ساكنـة فلذا كسرت، واورد على ذلك ابو شامة ان الهمزة تعد حاجزا وان الهمزة لو كانت ياء كان المختار الضم نظراً لاصلها وليس بشيء بعد ان قالوا ان القراءة متواترة وما ذكر لغة ثابتة عن العرب اهـ

(١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ
(١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ
تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا
سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ

﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا ان لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين ﴾ اي وجاء فرعون السحرة الذين حشرهم له اعوانه وشرطته ولم يذكر الكتاب الحكيم ولا الرسول المعصوم عددهم اذ لافائدة منه وكل ماروي فيهم من أنهم عشرات الالوف فهو من الاسرائليات التى لااصل لها عندنا ولا في التوراة التى بين ايديهم . فلما جاؤا قالوا لفرعون ان لنا لاجرا وجزاء عظيما يكافيء ما يطلب منا من العمل العظيم ان كنا نحن الغالبين لموسى. ذكر قولهم هنا بأسلوب الاستئناف البياني كأنه جواب سائل: ماذا قالوا؟ وجاء في سورة الشعراء بصيغة الشرط والجزاء (فلما جاء السحرة فرعون قالوا) وهو تفنن في العبارة. قرأ ابن كثير ونافع وحفص عن عاصم (ان لنا لاجرا) بهمزة واحدة قيل انه على الاخبار الدال على ايجاب الاجر وكونه لابد منه . وقيل انه على حذف همزة الاستفهام الذي يكثر في كلام العرب، وهو المتبادر والمختار ليوافق قراءة ابن عامر باثباتها هنا وهو ما اتفقوا عليه في سورة الشعراء

﴿ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾ أي قال فرعون مجيباً لهم الى ما طلبوا نعم إن لكم لاجراً عظيما وانكم مع ذلك الاجر المالي او المادي لمن المقربين من جنابنا السامي، فيجتمع لكم المال والجاه وذلك منتهى نعيم الدنيا ومجدها. أكدلهم نيل ما طلبوه منه وما زادهم عليه تأكيداً بعد تأكيد لاهتمامه بهذا الامر وخوفه من عاقبته ، فانه لو قال لهم نعم ولم يزد عليها لافاد إجابة طلبهم، ولو قال في منحة القربى : وتكونون من المقربين، لكفى. ولكنه عبر عنها بالجملة الاسمية المؤكدة بإن وبتحلية الخبر باللام وبعطف التلقين أي عطف «وانكم لمن المقربين» على

الجملة المقدرة التي دل عليها حرف الايجاب «نعم» وهي «ان لكم لاجراً» فما عطف عليها الا وقد قدر اعادتها . وفي سورة الشعراء زيادة « إذن » أي وانكم في هذه الحالة وهي كونكم أنتم الغالبين دون موسى لمن المقربين وحذفها من هذه السورة دليل على إنه قالها مرة دون اخرى فأفادأنه كرر لهم الاجابة والوعد وذلك تأكيد آخر

﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ استئناف بياني كنظائره أي قال السحرة لموسى عليه السلام بعد أن وعدهم فرعون ما وعدهم: إما أن تلقي ماعندك أولا، واما أن نكون نحن الملقين لما عندنا من دونك. اما تخييرهم اياه فلثقتهم بأنفسهم، واعتدادهم بسحرهم، او إرهابا له، واظهاراً لعدم المبالاة به، مع العلم بأن المتأخر يكون ابصر بما تقتضيه الحال بعد وقوفه على منتهى شوط خصمه، وما قيل من ان علة التخيير مراعاة الادب لا وجه له البتة، بل مقامهم بحضرة ملكهم الذي يدعي الالوهية والربوبية فيهم وماطلبوه منه وما وعدهم إياه - كله يقتضي ان يحتقر واخصمه لاان يتأدبوا معه كما يتأدب اهل الصناعة الواحدة بعضهم مع بعض اذا تلاقوا للمباراة وهوماوجه الزمخشري به التعليل ، وماقاله البيضاوي وغيره من ان علته إظهار التجلد فضعيف اذلم يروا من موسى شيئاً بأعينهم يقتضيه وانما سمعوا انه القى عصاه بحضرة فرعون فصارت ثعبانا فاستعدوا لمقابلته بعصي وحبال كثيرة يخيل اليه والى كل ناظر انها ثعابين تسعى فيبطلون سحره بسحر مثله كما قال ملكهم (فلنأتينك بسحر مثله)

وذهب الزمخشري ومن تبعه الى ان هذا التعبير عن إلقائهم يدل على رغبتهم في البدء بما ينبيء عنه تغييرهم للنظم بتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل « نحن » وتوكيد الضمير المستتر به. وفي سورة طه (اما ان تلقي واما أن نكون اول من القي) وفيه من التوكيد ما يدل على الرغبة في الاولية التي صرحوا بذكرها هنا . فلا فرق بين التعبيرين في المعنى فلا بأس حينئذ بجعل الاختلاف اللفظي في الحكاية عنهم لمراعاة الفواصل ، وقد اختلف فيه على اقوال ثالثها وهو الصحيح المعتمد انه جائز وواقع فيما لا يخل بأداء المعنى، ولا ينافي البلاغة العليا ، فكيف اذا كان مزيد تفنن قد يصل الى حد الاعجاز - فيها، وذلك ان تأدية دقائق المعاني مكررة بألفاظ مختلفة في منتهى العسر وكثيراً

ما يكون متعذراً ، فلو لم يؤكد الضمير المتصل ههنا بالضمير المنفصل «نحن» لما افاد معنى الرغبة في اولية الالقاء المصرح به في سورة طه ، وبذلك علم ان مراعاة الفاصلتين في الموضعين هو الذي وحد بينهما بجعل كل منهما دالا على رغبة السحرة في التقدم والاولية ، فأيّ خطيب او كاتب يقـدر على افادة هذا المعنى بأسلوبين مختلفين في اللفظ من غير تصريح به ، واي مترجم تركي او افرنجي يفقه هذا ويؤديه في ترجمته للقرآن ؟

﴿ قال ألقوا ﴾ وفي سورة طه (قال بل القوا) وهو ادل على رغبته عليه السلام في سبقهم للالقاء . ولعله نطق اولا بما فيـه الاضراب فقال بل القوا انتم من دوني ثم اعاد كلمة القوا وحدها لتأكيد رغبته والايذان بعدم مبالاته . وفي سورتي يونس والشعراء (قال لهم موسى القوا ما انتم ملقون) فأظهر اسم موسى الذي أضمره هنا وفي سورة طه لانه جواب لخطابهم اياه باسمه بالتخيير ، فالمقام فيها مقام الاضمار حتما . واما اظهاره في سورتي يونس والشعراء فسببه انه ليس فيهما ذكر لنداء السحرة اياه وتخييرهم له فأول آية يونس (فلما جاء السحرة قال لهم موسى القوا) وقبلها طلب فرعون للسحرة فلو لم يصرح باسم موسى لكان المتبادر ان الذي امرهم بالالقاء هو فرعون حسب قاعدة عود الضمير الى اقرب مذكور ، وكذلك آية الشعراء جاءت بعد ذكر طلب فرعون للسحرة ومجيئهم وسؤالهم اياه الاجر إن كانوا هم الغالبـين واجابته إياهم، فهي أولى من آية يونس بما ذكر . واما زيادة (ما انتم ملقون) فانها فائدة نافلة ذات شأن تدل على عدم مبالاته بما يلقون مهما عظم امره وكان مجهولا عنده ، وهي لا تنافي عدم ذكرها في آية الاعراف فيجمع بينهما

وقد قيل كيف أمرهم موسى عليه السلام بالقاء ما عندهم وهو من السحر المنكر؟ وأجيب بأنه لم يأمر بفعل السحر ابتداء وانما أمر بأن يتقدموه فيما جاؤا لاجله ولا بدّ لهم منه،واراد التوسل به الى إظهار بطلان السحر لا اثباته، والى بناء ثبوت الحق على بطلانه،ولم يكن ثم وسيلة لابطاله الا ذلك، وقد صرح به فيما حكاه تعالى عنه في سورة يونس (قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبطله، ان الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) ومثله توسل ابراهيم صلى الله عليه وعلى نبينا وآلهما الى اظهار حقيقة التوحيد لعبدة الكواكب من

قومه لما رأى كلا من الكوكب والقمر والشمس بازغا فقال «هذا ربي» ثم تعقبه بما يدل على كونه لا يصح أن يكون ربا واسماعه إياهم بعد ابطال ربوبيتها كلها حقيقة التوحيد بقوله (اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين)

﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم ﴾ أي فلما ألقوا ما ألقوا من حبالهم وعصيهم كما في سورتي الشعراء وطه سحروا اعين الناس الحاضرين ومنهم موسى عليه السلام ففي سورة طه (فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى) واسترهبوهم أي اوقعوا في قلوبهم الرهب والخوف كما قال تعالى (فأوجس في نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف انك أنت الاعلى) واصل الاسترهاب محاولة الارهاب وطلب وقوعه بأسبابه، وقد قصدوا ذلك فحصل. وجاؤا بسحر عظيم أي مظهره كبير، وتأثيره في أعين الناس عظيم، قال الحافظ ابن كثير: اي خيلوا الى الابصار ان ما فعلوه له حقيقة في الخارج ولم يكن الا مجرد صنعة وخيال. ثم ذكر عن ابن عباس «ر ض» انهم القوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا «قال» فأقبلت يخيل اليه من سحرهم انها تسعى. ثم ذكر عن ابن اسحق ان السحرة كانوا خمسة عشر الف ساحر وان الحيات التي اظهروها بخيال سحرهم كانت كأمثال الجبال قد ملأت الوادي ـ وعن السدي ان السحرة كانوا بضعا وثلاثين الفا، وعن القاسم بن أبي بزة ٧٠ الفا. وذكر غيره ما هو اعظم من ذلك من المبالغة والتهويل ولا يصح شيء من ذلك في خبر مرفوع وانما هي من الاسرائيليات الباطلة المروية عن اليهود كما تقدم، على انه ليس في توراتهم منها شيء وانما جاء في الفصل السابع من سفر الخروج منها ان فرعون دعا الحكماء والسحرة «ففعل عرافو مصر أيضا بسحرهم كذلك: طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصي ثعابين ولكن عصا هارون ابتلعت عصيهم»

وقد ذكر بعض المفسرين سر صناعتهم في ذلك بما اراه استنباطا علميا لا نقلا تاريخيا. قال الامام الجصاص في احكام القرآن: قال الله تعالى (سحروا اعين الناس) يعني موهوا عليهم حتى ظنوا ان حبالهم وعصيهم تسعى، وقال (يخيل اليه من سحرهم انها تسعى) فأخبر ان ماظنوه سعيا منها لم يكن سعيا وانما كان تخيلا. وقد قيل إنها كانت عصيا مجوفة قد ملئت زئبقا وكذلك الحبال كانت معمولة من أدم (اى جلد) محشوة زئبقا، وقد حفروا قبل ذلك تحت المواضع أسرابا وجعلوا آزواجا ملؤها نارا فلما طرحت عليه وحمي الزئبق حركها

لان من شأن الزئبق اذا أصابته النار أن يطير ، فأخبر الله ان ذلك كان مموها على غير حقيقته، والعرب تقول لضرب من الحلي مسحورا اى مموه على من رآه مسحور به اه فعلى هذا يكون سحرهم لاعين الناس عبارة عن هذه الحيلة الصناعية اذا صح خبرها، ويحتمل أن يكون بحيلة أخرى كاطلاق ابخرة أثرت في الاعين فجعلتها تبصر ذلك أو بجعل العصي والحبال على صورة الحيات وتحريكها بحركات خفية سريعة لاتدركها أبصار الناظرين ، وكانت هذه الاعمال من الصناعات وتسمى السيمياء

(١١٦) وَأَوْحَيْنَا الَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صٰغِرِينَ (١١٩) وَالقِيَ السَّحَرَةُ سٰجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ العٰلَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهٰرُونَ

﴿ وأوحينا الى موسى أن الق عصاك فاذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ أي أوحينا اليه بأن ألق عصاك فقد جاء وقتها فألقاها كما أمر فاذا هي تلقف ما يأتون به من الافك . ذكر هنا وفي سورة طه امره تعالى لموسى بالالقاء وفي سورة الشعراء أنه فعل الالقاء الذي أمر به ولم يذكر الامر فحذف من كل سورة ما اثبت مقابله في الاخرى وهو من قبيل الاحتباك في السور والايجاز المؤدي للمعاني المتعددة بأخصر عبارة. قرأ حفص تلقف بالتخفيف من الثلاثي والباقون بالتشديد وأصله تتلقف وهو يدل على لقف شيء بعد شيء

ما معنى لقف العصا للافك ؟ الافك بالكسر اسم لما يؤفك أي يصرف ويحول عن شيء الى غيره ويستعمل في التلبيس والشر وقلب الحقائق ، وبالفتح مصدر افك « بالفتح كجلس وضرب » ويقال افك بالكسر « كتعب » قال في الاساس : افكه عن رأيه صرفه ، وفلان مأفوك عن الخير . وقال الراغب الافك كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه ومنه قيل للرياح العادلة عن المهاب مؤتكفة قال تعالى (وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة) وقال تعالى (والمؤتكفة أهوى) وقوله تعالى (قاتلهم الله انى يؤفكون) أي يصرفون عن الحق في الاعتقاد الى الباطل ، وعن الصدق في

المقال الى الكذب ، وعن الجميل في الفعل الى القبيح . ومنه قوله تعالى (يؤفك عنه من افك * انى يؤفكون) وقوله (أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا) فاستعملوا الافك في ذلك لما اعتقدوا ان ذلك صرف عن الحق الى الباطل — فاستعمل ذلك في الكذب لما قلنا اه ويعلم منه ومن سائر استعمال المادة في القرآن وغيره ان الافك يكون بالقول ومنه الكذب وما يؤدي المراد من الكذب كالايهام والتدليس والتجوزات والكنايات والمعاريض التي توهم السامع أو القارىء لها مايخالف الحق ، وقد يكون بالفعل كعمل سحرة فرعون .

واما لقف الشيء وتلقفه بالتشديد فهو تناوله بحذق وسرعة كما قال الشاعر

كرة حذفت بصوالجة فتلقفها رجل رجل

قال الراغب لقفت الشيء القفه «أي من باب علم» وتلقفته تناولته بالحذق سواء في ذلك تناوله بالفم أو اليد قال (فاذا هي تلقف ما يأفكون) اه ومن مجازه تلقف العلم أي تلقيه بسرعة وحذق . ومافي قوله تعالى « ما يأفكون» إما موصولة واما مصدرية وعلى الاول يتخرج ما نقل عن ابن عباس وقتادة والحسن والسدي من كون عصا موسى عليه السلام التقمت حبال السحرة وعصيهم واسترطتها أي ابتلعتها فهو مما يحتمله اللفظ، والراجح انه مأخوذ عن اليهود لما علمت آنفا من نص سفر الخروج فيه. وينافيه كونها مصدرية إذ المعنى عليه انها تناولت عملهم هذا فأتت عليه بما أظهرت من بطلانه وحقيقة الامر في نفسه بسرعة، فان كان إفكهم عبارة عن تأثير أحدثوه في الاعين فلقفها إياه عبارة عن ازالته وابطاله ورؤية الحبال والعصي على حقيقتها — وان كان تحريكا لها بحركات خفية سريعة فكذلك — وان كان قد حصل بجعلها مجوفة محشوة بالزئبق وتحريكه إياها بفعل الحرارة سواء كانت ناراً اعدت لها او الشمس حين اصابتها فلقفها لذلك يجوز ان يكون بعمل من الحيلة اخرجت به الزئبق من الحبال والعصي فانكشفت به الحيلة. قال الشيخ محي الدين بن العربي مامعناه أو محصله على ما نتذكر ان إبطالها السحر السحرة انه ترتب على القائها ان رأى الناس تلك الحبال والعصي على أصلها ولو ابتلعتها لبقي الامر ملتبسا على الناس اذ قصاراه ان كلا من السحرة وموسى قد اظهر امرا غريبا ولكن احد الغريبين كان أقوى من الآخر فأخفاه على وجه غير معلوم ولا مفهوم وهذا لا ينافي كونهما من جنس واحد . ولكن زوال غشاوة السحر وتخييله حتى رأى الناس ان الحبال والعصي التي القاها

السحرة ليست الا حبالا وعصيا لا تسعى ولا تتحرك، وان عصا موسى لم تزل حية تسعى — هو الذي ماز الحق من الباطل ، وعرفت به الآية الالهية ، والحيلة الصناعية . وكل ما في الامر ان عصا موسى ازالت هذا التخييل بسرعة وهو معنى اللقف ولكن لا نعلم بم كان لها هذا التأثير لانها آية الهية حقيقة لا امر صناعي حتى نعرف صفته وحقيقته .

وقوله تعالى ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾ اظهر في هذا المعنى منه في ابتلاع العصا للحبال والعصي اذا فسرت الفاظه بمعانيها الحقيقية فالذي بطل كان عملا عملوه، وكيدا كادوه، وليس شيئا ماديا اوجدوه، كما علم من سورة طه وسورة يونس ، أي فثبت الحق وفسد ما كانوا يعملون من الحيل والتخييل وذهب تأثيره

﴿ فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾ اي فغلب فرعون وملؤه في ذلك الجمع العظيم الذي كان في عيد لهم ويوم زينة من مواسمهم ضربه موسى موعدا لهم بسؤالهم كما بين في سورة طه (قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى) لتكون الفضيحة ظاهرة مبينة لجماهير الناس ، ولم يقل فغلبهم موسى لان ذلك لم يكن بكسبه وصنعه — وانقلبوا أي عادوا من ذلك الجمع صاغرين اذلة ، بما رزئوا به من الخذلان والخيبة ، أو صاروا صاغرين . وانما خص هذا بفرعون وملئه وكان المتبادر ان يكون للسحرة اولا وبالذات ولفرعون بالتبع أو للجميع على سواء ، لانه تعالى بين ما كان من عاقبة السحرة بقوله

﴿ وألقي السحرة ساجدين ﴾ فسره في الكشاف بقوله : وخروا سجدا كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم ، وقيل لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم القوا اهـ. والمراد ان ظهور بطلان سحرهم وادراكهم فجأة لحقيقة آية موسى « ع . م » وعلمهم بأنها من عند الله تعالى لا صنع فيها لمخلوق قد ملأت عقولهم يقينا وقلوبهم ايمانا فكان هذا اليقين في الايمان البرهاني الكامل، والوجداني الحاكم على الاعضاء والجوارح، هو الذي ألقاهم على وجوههم سجدا لله رب العالمين، الذي بيده ملكوت الخلق أجمعين ، ولم يبق في انفسهم ادنى مكان لفرعون وعظمته الدنيوية الزائلة، ولاسيما وقد ظهر لهم صغاره أمام هذه الآية . وفي آية سورة طه (فألقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب هرون وموسى) فالفاء

تدل على التعقيب ومثلها في سورة الشعراء .

(فان قيل) ولم قال هنا (وألقي) ولم يقل « فألقي » ليدل على التعقيب أيضاً (فالجواب) ان ألقي هنا عطف على قوله تعالى (فغلبوا) فهو يشاركه بما تفيده فاؤه من معنى التعقيب وكونه مثله أثراً لبطلان سحر السحرة ووقوع الحق بثبوت آية موسى (ع.م) ولو عطف عليه بالفاء لدل على كون السجود أثراً للغلب والصغار لا لظهور الحق وبطلان كيد السحر ، وحينئذ يكون منافيا لما في سورتي طه والشعراء

﴿ قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون ﴾ الجملة إما بيان مستأنف وإما حال من السحرة أي حال كونهم قائلين في سجودهم آمنا ... ومثله في سورة الشعراء

(فان قيل) ولم لم يذكر في سورة طه إيمانهم برب العالمين ؟ ولم أخر فيها اسم موسى وقدم اسم هارون؟ (فالجواب) عنهما أن سبب ذلك مراعاة فواصل السور بما لا يعارض غيره مما ورد في غيرها ، ولا سيما وقد نزل قبلها، فالايمان برب هارون وموسى هو الايمان برب العالمين لانهما قالا لفرعون (إنا رسول رب العالمين) وقد بينا مراراً أن القرآن ليس كتاب تاريخ تدون فيه القصص بحكايتها كلها كما وقعت ويذكر كل ما قيل فيها بنصه أو بترجمته الحرفية — وانما هو كتاب هداية وموعظة، فهو يذكر من القصص ما يثبت به الايمان ، ويتزكى الوجدان ، وتحصل العبرة ، وتؤثر الموعظة ، ولا بد في ذلك من تكرار المعاني مع التفنن في الاسلوب والتنويع في نظم الكلام وفواصل الآي، وتوزيع الفوائد وتفريقها ، بحيث يوجد في كل قصة مالا يوجد في غيرها

---

(١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ؟ إِنَّ هٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ

مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ

بعد ما كان من إيمان السحرة كان أول مايخطر في البال، ويتوجه اليه السؤال، ما فعل فرعون وما قال ؟ وهاك البيان ﴿ قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ؟ ﴾ قرأ حفص آمنتم بصيغة الخبر ويحتمل فيه تقدير همزة الاستفهام فهو قياسي يعتمد في فهمه على صفة الاداء وجرس الصوت فيه . وبذلك يوافق سائر القراء في المعنى فهو عندهم استفهام إنكاري توبيخي أثبت همزته حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب ، وروي في اثباتها تحقيق الهمزتين بالنطق بهما وتحقيق الاولى وتسهيل الثانية بين بين ؛ وقري بذلك في أمثالها . والمعنى أآمنتم بموسى أو برب موسى وهارون قبل أن آذن لكم وآمركم بذلك ؟ وفي سورة طه (قال آمنتم له) والضمير فيه لموسى قطعاً لان تعدية الايمان باللام تضمين يفيد معنى الاتباع والخضوع المعنى : وأآمنتم به متبعين له إذعانا لرسالته قبل أن آذن لكم ؟ ولذلك يتعين استعمال هذا التضمين في الايمان بالرسل والاتباع لهم كقوله تعالى حكاية عن فرعون (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ؟) وقد اقتبس المعري هذا الاستدلال في قوله

أعبّاد المسيح يخاف صحبي ونحن عبيد من خلق المسيحا

ومثله قوله تعالى في سورة الشعراء حكاية عن قوم نوح عليه السلام (أنؤمن لك واتبعك الارذلون ؟) وقوله حكاية عن كفار قريش (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا) وليس منه قوله تعالى حكاية عن اخوة يوسف (وما أنت بمؤمن لنا) بل هذه لام التقوية أي وما أنت بمصدق لنا. وقد بين فرعون علة إيمانهم بما ظنه أو أراد أن يعتقده قومه فيهم فقال مواصلا تهديده ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها ﴾ أي ان هذا الصنيع الذى صنعتموه انتم وموسى وهارون بالتواطؤ والاتفاق ليس الا مكراً مكرتموه في المدينة بما أظهرتم من المعارضة والرغبة في الغلب عليه مع إسرار اتباعه بعد ادعاء ظهور حجته ، زاد في سورة طه (إنه لكبيركم الذي

علمكم السحر) فأجمتم كيدكم لنا في هذه المدينة لاجل أن تخرجوا منها أهلها المصريين بسحركم — وهو ما كان اتهم به موسى وحده — ويكون لكم فيها مع بني اسرائيل ما هو لنا الآن من الملك والكبرياء كما حكاه تعالى عن فرعون وملئه في سورة يونس — ﴿فسوف تعلمون﴾ ما يحل بكم من العذاب، جزاء على هذا المكر والخداع ، وبين ذلك بقوله : ﴿ لاقطعن ايديكم وأرجلكم من خلاف ثم لاصلبنكم أجمعين ﴾ أي أقسم لافعلن كذا وكذا في عقابكم والتنكيل بكم وهو قطع الايدي والارجل من خلاف كأن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو العكس ، ثم لاصلبن كل واحد منكم وهو على هذه الحالة المشوهة لتكونوا عبرة لمن تحدثه نفسه بالكيد لنا ،أو بالخروج عن سلطاننا ، والترفع عن الخضوع لعظمتنا. وقد تقدم الكلام على هذه الالفاظ في العقاب الذي هدد به البغاة من سورة المائدة. ومن المعقول ما قاله بعض المفسرين من كون اتهام فرعون للسحرة بالمكر والكيد له وللمصريين، وبتواطئهم مع موسى للادالة منهم لبني اسرائيل — انما كان تمويهاً على قومه المصريين لئلا يتبعوا السحرة في الايمان، ويقع ما خافه وقدره واتهم به موسى عليه السلام، فهو على عتوه على الخلق ، وعلوه في الارض ، قد خاف عاقبة ايمان الشعب ، وافتقر على ادعائه الربوبية الى إيهامهم بأنه لا ينتقم من السحرة الاحباً فيهم، ودفاعاً عنهم، واستبقاء لاستقلالهم في وطنهم، ومحافظتهم على دينهم وكذلك يفعل كل ملك وكل رئيس مستبد في شعب يخاف أن ينتقض عليه باجتماع كلمته على زعيم آخر بدعوة دينية أو سياسية، وما من شعب عرف نفسه وحقوقه وتعارف بعض أفراده وتعاونوا على صون هذه الحقوق ، الا وتعذر استبداد الافراد فيهم وان كانوا ملوكاً جبارين

﴿ مباحث لغوية بيانية فيما اختلف فيه التعبير من قصة موسى في السور المتعددة ﴾

ومن مباحث المقابلة والتنظير بين سياق هذه السورة في القصة وسياق غيرها أنه زاد في سورة الشعراء اللام في حرف التسويف فقال : (فلسوف تعلمون) ولم يذكر هذا التسويف في سورة طه. قال الاسكافي في هذه اللام إنها تدل على تقريب ما خوفهم به حتى كأنه حاضر موجود (قال): «واللام للحال والجمع بينها وبين سوف التي للاستقبال إنما هو تحقيق الفعل وادناؤه

منَ الوقوع كما قال تعالى (وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة) فجمع بين اللام وبين يوم القيامة على ما قاله تعالى (وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب) وقد بينا أن سورة الشعراء أكثر اقتصاصاً لاحوال موسى عليه السلام في بعثه وابتداء أمره وانتهاء حاله مع عدوه فجمعت لفظ الوعيد المبهم مع اللفظ المقرب له المحقق وقوعه — الى اللفظ المفصح بمعناه ، ثم وقع الاقتصار في السورة التي لم يقصد بها من اقتصاص الحال ما ذكر في سورة الشعراء على نقص مَّا في موضع البسط والشرح وهو التعريض بالوعيد مع الافصاح به

(قال) «فأما في سورة طه فانه اقتصر فيها على التصريح بما أوعدهم به وترك « فسوف تعلمون » وقال (فلاقطعن أيديكم . . .) الا أنه جاء بدل هذه الكلمة ما يعادلها ، ويقارب ما جاء في سورة الشعراء التي هي مثلها في اقتصاص أحواله من ابتدائها الى حين انتهائها، وهو قوله بعده (ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) فاللام والنون في « لتعلمن » لادناء الفعل وتوكيده كما أتى باللام في قوله (فلسوف تعلمون) لادناء الفعل وتقريبه ، فقد تجاوز ما في السورتين المقصود فيهما الى اقتصاص الحالين من إعلاء الحق وإزهاق الباطل »اه

أقول من المعلوم أن هذه اللام لام الابتداء وأن فائدتها الاولى المتفق عليها توكيد مضمون الجملة وقد سكت الاسكافي عن التعليل بها على ظهورها وعدم خفاء شيء من شواهدها واقتصر على توجيه ما ذكروا لهذه اللام من معنى الحال اذ قالوا ان الفائدة الثانية لها تخليص معنى المضارع للحال ، نقله ابن هشام في المغني وقال إن ابن مالك اعترضه بقوله تعالى (وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة) وبقول يعقوب عليه السلام فيما حكاه الله عنه (إني ليحزنني أن تذهبوا به) فان الذهاب كان مستقبلا فلو كان الحزن حالا لزم تقدم الفعل في الوجود على فاعله مع أنه أثره (قال) والجواب عن الاول ان الحكم في ذلك اليوم واقع لا محالة فنزل منزلة الحاضر المشاهد — وان التقدير في الثاني قصد أن تذهبوا به والقصد حال اه

وأنت ترى أن تعبير الاسكافي في هذه الفائدة أوسع من التعبير الذي ذكره ابن هشام وغيره وأبعد عن الاشكال فقد قال هو إن معنى الحال فيها عبارة عن تحقيق الفعل وادنائه من الوقوع. وهو يصدق بجعل المضارع للحال حقيقة أو بجعل معنى الاستقبال فيه قريباً جدا حتى كأنه حال ، ولا يرد على هذا ما

يرد على قولهم: تخليص معنى المضارع للحال . وجوابهم عن الآيتين لا يظهر في تعبيرهم كما يظهر في تعبيره هو بغير تكلف ما .

ثم انه لا بد في صدق التعبير بقوله (فلسوف) من كون فرعون ذكر في وعيدهم المستقبل أنه قريب وأنه قطعي لا مردّ له، سواء قاله على سبيل الايضاح أو على سبيل الاستدراك . ورب جملة أو جمل طويلة تؤدى في القرآن بجملة قصيرة أو كلمة أو حرف في كلمة كاللام هنا ، وهذا من دقائق إيجاز القرآن وهو ضرب من ضروب إعجازه اللفظية في غير الاسلوب والنظم ، وكلها دون إعجازه في بيان حقائق الشرع والعلم، فكيف يمكن لبشر أن يؤدي هذه الدقائق بالترجمة ؟ ومثله في هذا ماسبق وما يأتي من تتمة هذه المباحث

(ومنها) — أي مباحث المقابلة والتنظير بين السور — أنه قال هنا (ثم لاصلبنكم) وقال في طه والشعراء (ولاصلبنكم) ولا تعارض بين العاطفين فان العطف بالواو مطلق يصدق بالتعقيب الذي تدل عليه الفاء وبالتراخي الذي تدل عليه ثم وليس مقيدا بأحدهما، وغايته أنه أفاد بثم معنى خاصا وهو ما تدل عليه من التراخي في الزمن أو الرتبة وكلاهما جائز هنا فانه بعد أن أفاد بقوله (فلسوف) وقوله (فلاقطعن) ان الوعيد سينفذ حالا في المجلس بقطع الايدي والارجل من خلاف— أفاد بقوله (ثم لاصلبنكم) ان التصليب نوع آخر ومرتبة ثانية من التنكيل بهم ،أو سيتأخر عن التقطيع في الزمن بأن يظلوا بعده مطروحين على الارض إهانة لهم ثم يعلقون على جذوع النخل،ويجوز الجمع بينهما. وكون التصليب في جذوع النخل فائدة أخرى زادها في سورة طه وتخصيصها بها مناسب لنظمها ولعلك تدرك ذلك بالذوق كما تدرك به التفرقة بين بحور الشعر.

أوردنا هذا البحث الفني وأمثاله من هذه القصة على اجتنابنا للاصطلاحات الفنية والعلمية في الغالب لثلاثة أسباب

(١) إن هـذه المسائل مما يقع فيه الاشتباه ولم نر لها بيانا في التفاسير المتداولة حتى التي تمتاز بالعناية بمثلها

(٢) بيان ما فيها من الدقة في تحديد المعاني، وغرائب الايجاز، والاتفاق في مظنة الاختلاف، وهو المعهود في كل موضوع طويل يعبر عنه بعبـارات مختلفة (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) اذ ليس في استطاعة بشر أن يحكي قصة كقصة موسى بعبارات مختلفة بمثل هذا التحديد للمعاني مع

سلامتها كلها من التعارض والتناقض وغيرهما من أنواع الاختلاف وان كتب ذلك كتابة وقابل بعضه ببعض منقحاله ومصححا، فكيف اذا كان يرتجل الكلام ارتجالا في أوقات مختلفة كما كان النبي (ص) يتلو القرآن كالمرتجل له، وانما كان يلقاه فيؤديه كما تلقاه فيعجل به خائفا أن ينسى منه شيئا حتى لقن فيه نبأ عصمته من نسيان شيء منه، وانه تعالى كفل حفظه (سنقرئك فلا تنسى * لاتحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه * ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي اليك وحيه) وتلك ضروب من اعجازه اللفظي، ولضروب اعجازه المعنوي اكبر

(٣) إثبات عجز البشر عن ترجمة القرآن بلغة أخرى تؤدي معانيه كلها، واذا كان من المتعذر أداؤها بمثلها من لغتها، فترجمتها بلغة أخرى أولى.

وقد تصدى بعض المغرورين في هذه الايام لترجمته باللغة التركية الفقيرة الملفقة من عدة لغات لاجل أن يستعين بهذه الترجمة الملاحدة من زعماء الترك على مايبتغون من سل الشعب التركي من الاسلام بأن يحمله على الاستغناء بهذه الترجمة عن كتاب الله المنزل من عند الله تعالى (بلسان عربي مبين) كما ثبت في عدة آيات

فان انخدع هذا الشعب المسلم بهذا سهل على هؤلاء الملاحدة أن يحولوا بينه وبين السنة النبوية العربية أيضا لانها في المرتبة الثانية، ثم أن يحولوا بينه وبين آثار الصحابة والتابعين فانها في المرتبة الثالثة — ثم أن يحولوا بينه وبين ما كتبه أئمة العلماء في التفسير وشرح الحديث وما استنبط منهما في أمور الدين من العقائد والآداب وأحكام العبادات والمعاملات، وبعد هذا يتحكمون في تفسير هذه الترجمة له بما شاؤا، ويوردون الشبهات على الاسلام المشوه المأخوذ من ترجمتهم القابلة لذلك — وحينئذ يتم لهم ما يريدون من جعل الترك أمة لادينية. ولكن لن يتم لهم ذلك ان شاء الله تعالى، فالشعب التركي راسخ في الاسلام، ومتى عرف كيد هؤلاء الملاحدة المضلين فانه ينبذهم نبذ النواة.

*

تتمة تفسير الآيات

وههنا يرد سؤال. ما ذا كان من أمر السحرة عند ما سمعوا هذا التهديد والوعيد؟ وبم أجابوا ذلك الجبار العنيد؟ وجوابه هنا ﴿ قالوا إنا الى ربنا منقلبون ﴾ يجوز أن يكونوا قد عنوا بقولهم هذا أنفسهم وحدها وأرادوا

أنهم لا يبالون ما يكون من قضائه فيهم وقتله لهم لأنهم راجعون الى ربهم، راجون مغفرته ورحمته بهم ، وحينئذ يكون تعجيل قتلهم سببا لقرب لقائه ، والتمتع بحسن جزائه . ويجوز أن يكونوا قد عنوا أنفسهم وفرعون جميعاً وأرادوا اننا واياك سننقلب الى ربنا ، فلئن قتلتنا فما أنت بخالد بعدنا، وسيحكم عز وجل بعدله بينك وبيننا ، وفيه تعريض بكذبه في دعوى الربوبية ، وتصريح بايثارما عند الله تعالى على ما عنده من الشهوات الدنيوية، وفي سورة الشعراء (قالوا لاضير انا الى ربنا منقلبون * انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين) وهو يؤيد المعنى الاول ولا ينافي الثاني لانه يشمل الاول

﴿ وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ﴾ قال الراغب : نقمت الشيء ونقمته (أي من بابي فرح وضرب) اذا أنكرته اما باللسان واما بالعقوبة قال تعالى(وما نقموا الا أن أغناهم الله * وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله * هل تنقمون منا) الآية والنقمة العقوبة قال (فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم) الخ وتفسيره هذا لنقم أدق وأشمل من قول الزمخشري في الاساس : ونقمت كذا — انكرته وعبته. فانه لم يذكر الا القولي منه وقد استشهد له بقوله تعالى وما (وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا)وهوفي اصحاب الاخدود وكان النقم منهم بالفعل لا بالقول ، فسبحان من لا ينسى ولا يغفل . وما ذكره السحرة من نقم فرعون منهم كان بالقول وهو الاستنكار التوبيخي لايمانهم والتهمة فيه والوعيد عليه . والظاهر انه نفذ الوعيد بالانتقام بالفعل واستنبط بعض المفسرين من قوله تعالى لموسى وهارون (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) ان فرعون لم يقدر على تنفيذ الوعيد فيهم . وأجيب عن هذا بأن المراد الغلبة بالحجة والبرهان وفي عاقبة الامر ونهايته والا لم يقتل أحد من اتباع الرسل عليهم السلام ، وهو صريح قوله تعالى في أول هذه القصة الذي ذكرنا أنه بيان لنتيجتها ووجه العبرة فيها (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) يعني فرعون وملاه ، ويؤيده ما ورد في معناه من الآيات الكثيرة كقوله تعالى حكاية عن شعيب في قصته التى مرت في هذه السورة أيضا (وانظر كيف كان عاقبة المفسدين) وقوله قبله في قصة لوط منها (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين وقوله تعالى في مكذبي الرسل عامة بعد ذكر تكذيب قوم خاتم الرسل «ص»

(كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) ويجوز أن يراد بمن اتبع موسى وهارون قومهما خاصة وهم الذين بشرهم موسى بأن العاقبة لهم بعد وعيد فرعون لهم عقب خبر السحرة وهو ما تراه في الآية الثانية بعد هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها . وهذه العاقبة قد بينها الله تعالى بقوله في سورة القصص (فأخذناه — يعني فرعون — وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين)

وقد ختم تعالى ماقصه هنا من كلام السحرة بهذا الدعاء فنذكره تالين داعين

﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ أي ربنا هب لنا صبراً واسعاً تفيضه وتفرغه علينا افراغا بتثبيتك إيانا على الايمان وتأييدنا بروحك فيه كما يفرغ الماء من القرب، حتى لا يبقى في قلوبنا شيئاً من خوف غيرك ، ولا من الرجاء فيما سوى فضلك ونوالك . وتوفنا اليك حال كوننا مسلمين لك مذعنين لامرك ونهيك متسلمين لقضائك، غير مفتونين بتهديد فرعون، وغير مطيعين له في قول ولا فعل . جمعوا بدعائهم هذا بين كمال الايمان والاسلام

يدل على ماقررناه من المبالغة في طلب كمال الصبر-تنكيره والتعبير عن إيتائه بالافراغ وهو صب الماء الكثير من الدلو ونحوه وأما تصويرنا لحصول ذلك بقوة الايمان فأخذه من العقل والتجارب ان الصبر من صفات النفس وهو عبارة عن قوة فيها على احتمال الآلام والمكاره بغير تبرم ولا حرج يحملها على ما لا ينبغي من ترك الحق أو اجتراح الباطل ، ولا شيء كالايمان بالله والخوف منه والرجاء فيه يقوي هذه الصفة في النفس ، ومأخذه من النقل آيات كقوله تعالى في بيان المؤمنين الذين عملوا الصالحات فوجبت لهم الجنة (٢٩ : ٢٩ (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) وقوله فيهم (وتواصوا بالحق وتوصوا بالصبر) ومما يناسب المقام قوله (فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين)

ولدينا من نقول التاريخ القديم والحديث مايؤيد ذلك وقد صرح الذين كتبوا أخبار الحروب الاخيرة بعللها وفلسفتها أن المؤمنين بالله وباليوم الآخر من جميع الملل أعظم شجاعة وأشد صبراً على مشاق الحرب من غيرهم، ولذلك يحرص أوسع الناس علما بسنن الخلق، وأشدهم عناية بفنون الحرب، -كالشعب الالماني - بالمحافظة على الدين في جيشهم . وللبرنس بسمارك مؤسس وحدتهم ووزيرهم الاعظم بل أكبر ساسة أوربة في عصره كلمة في هذا المعنى أثبتناها في المجلد

الاول من المنار من ترجمة الاستاذ الامام رحمه الله تعالى عن كتاب (وقائع بسمارك ومذكراته) التي نشرها كاتم سره مسيو بوش بعد موته نكتفي منه هنا بقوله

« جلس البرنس بسمارك على مائدة الطعام فرأى بقعة من الدهن على غطاء المائدة فقال لاصحابه : كما تنتشر هذه البقعة في النسيج شيئا فشيئا كذلك ينفذ الشعور باستحسان الموت في سبيل الدفاع عن الوطن في أعماق قلوب الشعب ، ولو لم يكن هنالك أمل في الجزاء والمكافأة ، أي في الدنيا) ذلك لما استكنّ في الضمائر من بقايا الايمان — ذلك لما يشعر به كل أحد من أن واحداً مهيمنا يراه وهو يجالد ويموت وان لم يكن قائده يراه

فقال بعض المرتابين أتظن سمادتكم ان العساكر يلاحظون في أعمالهم تلك الملاحظة ؟

فأجابه البرنس: ليس هذا من قبيل الملاحظات، وانما هو شعور ووجدان، هو بوادر تسبق الفكر ، هو ميل في النفس وهوى فيها كأنه غريزة لها، ولو لاحظوا لفقدوا ذلك الميل وأضلوا ذلك الوجدان ، هل تعلمون اني لا أفهم كيف يعيش قوم وكيف يمكن لهم أن يقوموا بتأدية ما عليهم من الواجبات، أو كيف يحملون غيرهم على أداء ما يجب عليه — ان يكن لهم ايمان بدين جاء به وحي سماوي ، واعتقاد باله يحب الخير ، وحاكم ينتهي اليه الفصل في الاعمال في حياة بعد هذه الحياة ؟ »

ثم أطال في ذلك بأسلوب آخر صرح فيه بأنه لولا عقيدته الدينية لماخدم سلطانه وعاهله (الامبراطور) ساعة من الزمان الخ ما قاله فيراجع في محله [1]

(١٢٦) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ؟ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِن

(١) ص ٨٤٦ من الطبعة الثانية للمجلد الأول من المنار

بَعْدِ مَا جِئْتَنَا . قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ

خاف ملأ فرعون عاقبة تركه لموسى حراً مطلقا في مصر فكلموه في ذلك وقد أخبرنا الله تعالى بما قالوه له وما أجابهم به وما كان من تأثير جوابه في موسى وقومه من نصحه لهم وما دار بين موسى وبينهم في ذلك فقال

﴿ وقال الملأ من قوم فرعون اتذر موسى وقومه ليفسدوا في الارض ويذرك وآلهتك ؟ ﴾ اي قالوا له أتترك موسى وقومه أحرارا آمنين لتكون عاقبتهم ان يفسدوا قومك عليك في أرض مصر بادخالهم في دينهم ، أوجعلهم تحت سلطانهم ورياستهم ، ويتركك مع آلهتك كالشيء اللقا ، فيظهر للمصريين عجزك وعجزها ، وقد رأيت ما كان من أمر ايمان السحرة — إذ الظاهر من السياق أن هذا القول كان بعد قصة السحرة — وسيأتي ما فيه . وجمهور المفسرين على المراد بتركه وآلهته عدم عبادته وعبادتها ، وقرأ ابن عباس (وإلاهتك) أي عبادتك . ومن المعلوم من التاريخ المستمد من العاديات المستخرجة من أرض مصر انه كان للمصريين آلهة كثيرة منها الشمس واسمها في لغتهم (رع) وهو متضمن في لقب فرعون فهو عندهم سليل الشمس وابنها ، وسننقل بعد جوابه لهم أثرا يدل على ذلك ويذكر فيه بعض هذه الآلهة

﴿ قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ﴾ أي قال مجيبا للملأ سنقتل أبناء قومه تقتيلا ما تناسلوا — فتعبيره بالتقتيل يدل على التكثير والتدريج — ونستبقي نساءهم أحياء كما كنا نفعل من قبل ولادته حتى ينقرضوا .

﴿ وانا فوقهم قاهرون ﴾ وانا مستعلون عليهم بالغلبة والسلطان قاهرون لهم كما كنا من قبل فلا يستطيعون افسادا في ارضنا ، ولا خروجا من حظيرة تعبيدنا . وفي سورة المؤمن (وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه : إني أخاف ان يبدل دينكم أو أن يظهر في الارض الفساد) وهو يدل على انه كان لديه من يدافع عن موسى ممن آمن به سرا وممن كان يحبه وان لم يؤمن به فقد قال تعالى له (وألقيت عليك محبة مني) وفي تصريح بما كان له في أنفس

المصريين من المحبة والاحترام . وقد حكى الله تعالى لنا دفاع واحد ممن آمن به فقال (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا ان يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ وان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم . ان الله لا يهدي من هو مسرف مرتاب)

والمرجح عند المتأخرين من المؤرخين الواقفين على العاديات المصرية ان فرعون موسى هو الملك (منفتاح) وكان يلقب بسليل الاله (رع) وقد جاء في آخر الاثر المصري الوحيد الذي ذكر فيه بنو اسرائيل (وهو المعروف برقم ٣٤٠٢٥ المحفوظ في متحف مصر) ان مصر هي السليلة الوحيدة للمعبود (رع) منذ وجود الآلهة وان « منفتاح » سليله ايضا وهو الجالس على سدة المعبود « شو » وان الاله « رع » التفت الى مصر فولد « منفتاح » ملك مصر وشيء له ان يكون مناضلا عنها فتخنع له الولاة ولا يرفع أحد من البدو رأسه تخضع له القبروانيون والحيثيون والكنعانيون وعسقلان وجزال وينعام وفيه: وانفك الاسرائيليون فلا بزر لهم وأصبحت فلسطين خلية لمصر[1] والاراضي كلها مضمومة في حفظه، وكل اسم وعفه « اضعفه واذله » الصيدن القب (منفتاح) سليل الشمس معطي المعيشة كل نهار مثل الشمس اه[2] وما ذكر لا ينافي ادعاءه الانفراد بالالوهية والربوبية العليا بعد. وقوله: فلا بزر لهم هو بمعنى قولنا انقطع دابرهم يستعمل في الحقيقة وفي المجاز من باب المبالغة او بالنظر الى المآل

ومن البديهي أن يخاف بنو اسرائيل هذا الوعيد وان يطمئنهم موسى عليه السلام وهو ما بينه تعالى بقوله ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ، ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ أي اطلبوا معونة الله تعالى وتأييده لكم على ما سمعتم من الوعيد واصبروا ولا تجزعوا، فان سألتم لماذا والى متى؟ أقل لكم إن الارض — جنسها أو الارض التي وعدكم ربكم إياها وهي فلسطين — لله تعالى الذي بيده ملكوت كل شيء يورثها من يشاء من عباده لا لفرعون فهي بحسب سنته تعالى دول والعاقبة الحسنة التي ينتهي

---

(١) الخلية التي لا زوج لها وهذا كناية عن كون فلسطين تحت كفالة مصر وتصرف فرعونها ويؤيده ما يجيء بعد فليحفظ

(٢) تراجع ترجمة هذا الاثر في ص ٣٨٧ م ١٨ من المنار

اليها التنازع بين الامم للمتقين أي الذين يتقون الله بمراعاة سننه في أسباب ارث الارض كالاتحاد وجمع الكلمة ، والاعتصام بالحق ، وإقامة العدل ، والصبر على المكاره ، والاستعانة بالله ولا سيما عند الشدائد، ونحو ذلك مما هدى اليه وحيه وايدته التجارب . ومراده عليه السلام ان العاقبة ستكون لكم بارث الارض ولكن بشرط أن تكونوا من المتقين له تعالى باقامة شرعه ، والسير على سننه في نظام خلقه، وليس الامر كما تتوهمون ويتوهم فرعون وقومه من بقاء القوي على قوته والضعيف على ضعفه ، او ان الآلهة الباطلة ضمنت لفرعون بقاء ملكه ، على عظمته وجبروته وظلمه

ماذا كان من تأثير وصية موسى عليه السلام لقومه؟ وهل فهموها وقدروها قدرها ؟ وبم اجابوه ؟ ﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ يعنون أنهم لم يستفيدوا من إرساله لانقاذهم من ظلم فرعون شيئاً فهو يؤذيهم ويظلمهم بعد إرساله كما كان يؤذيهم من قبله أو أشد — وهذا الايذاء مبين في الفصل الخامس من سفر الخروج من التوراة ففيه ان موسى وهارون لما طلبا من فرعون إطلاق بني اسرائيل لكي يعبدوا ربهم ويعيدوا له في البرية ويذبحوا له ، قال لهما لماذا تعطلان الشعب عن أعماله — وأمر فرعون في ذلك اليوم مسخري الشعب ومدبريه أن يمتنعوا من اعطائه التبن الذي كانوا يعطونه إياه ليعمل به اللبن (الطوب النيّ) الذي كان مفروضا عليهم كل يوم وان يكلفوه جمع التبن من البلاد ولا ينقصوا من عدد اللبن المفروض عليه شيئا ، فتفرق الشعب في جميع أرض مصر ليجمعوا جذامة (*) عوض التبن فعجزوا عن تمام المقدار المفروض عليهم من اللبن والمسخرون يلحون عليهم : أكملوا فريضة كل يوم كما كانت عند ما كنتم تعطون التبن ، فجاء مدبرو بني اسرائيل الذين ولاهم عليهم المسخرون لهم من قبل فرعون واستغاثوا فرعون نفسه قائلين (١٥) لماذا تصنع بعبيدك هكذا؟ (١٦) انه لا يعطى لعبيدك تبن وهم يقولون لنا اعملوا لبنا ، وها ان عبيدك يُضربون وشعبك يعاملون كذنبين (١٧) قال انما انتم مترفهون ولذلك تقولون نمضي ونذبح للرب (١٨) والآن فامضوا اعملوا ، وتبن لا يعطي لكم ، ومقدار اللبن تقدمونه (١٩) فرأى مدبرو بني اسرائيل نفوسهم في شقاء اذ قيل لا تنقصوا

(*) الجذامة بالضم ما بقي من الزرع في الارض بعد الحصد

من لبنكم شيئا بل فريضة كل يوم في يومها (٢٠) وصادفوا موسى وهارون وهما واقفان للقائهم عند خروجهم من عند فرعون (٢١ فقالوا لهما ينظر الرب ويحكم عليكما كما افسدتما أمرنا عند فرعون وعند عبيده وجعلتما في أيديهم سيفا ليقتلونا » انتهى المراد منه

﴿قال عسى ربكم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون﴾ اي قال موسى عليه السلام ان المرجوّ من فضل ربكم ان يهلك عدوكم الذي سخركم وآذاكم بظلمه ويجعلكم خلفاء في الارض التي وعدكم إياها، ويمنعكم فرعون من الخروج اليها ، فينظر سبحانه كيف تعملون بعد استخلافه اياكم فيها : هل تشكرون النعمة أم تكفرون ؟ وهل تصلحون في الارض أم تفسدون ؟ ليجازيكم في الدنيا والآخرة بما تعملون

وقد عبر بعسى ولم يقطع بالوعد لئلا يتكلوا ويتركوا ما يجب من العمل او لئلا يكذبوه لضعف أنفسهم بما طال عليهم من الذل والاستخذاء لفرعون وقومه واستعظامهم لملكه وقوته وفي التوراة ما يؤيد هذا وما قبله

جاء في آخر الفصل الخامس من سفر الخروج بعد ما نقلناه آنفا ما نصه : (٢٢) فرجع موسى الى الرب وقال يا رب لماذا ابتليت هؤلاء الشعب لماذا بعثتني (٢٣) فاني منذ دخلت على فرعون لاتكلم باسمك أساء الى هؤلاء الشعب وانت لم تنقذ شعبك »

وفي اول الفصل السادس منه (١) فقال الرب لموسى : الآن ترى ما أصنع بفرعون انه بيد قديرة سيطلقهم وبيد قديرة سيطردهم من أرضه » — واعلمه بأنه اعطى ابراهيم واسحق عهدا بأن يعطيهم ارض كنعان وانه سمع أنين اسرائيل الذين استعبدهم المصريون فذكر عهده ـ ثم قال (٦) لذلك قل لبني اسرائيل أنا الرب لاخرجنكم من تحت اثقال المصريين واخلصكم من عبوديتهم وافديكم بذراع مبسوطة واحكام عظيمة (٧) وأتخذكم لي شعبا وأكون لكم آلها وتعلمون انى انا الرب آلهكم المخرج لكم من تحت اثقال المصريين (٨) وسأدخلكم الارض التي رفعت يدي مقسما ان أعطيها لابراهيم واسحق ويعقوب فأعطيها لكم ميراثا أنا الرب (٩) فكلم موسى بذلك بنى اسرائيل فلم يسمعوا لموسى لضيق ارواحهم وعبوديتهم الشاقة » اه المراد منه ، وهو من ترجمة اليسوعيين

كالذي قبله . ويليه عودة موسى الى فرعون ومطالبته باخراج بنى اسرائيل وامتناعه واظهار الرب الآيات له واحدة بعد اخرى كما يأتي مجملا في الآيات التالية

(فان قيل) ظاهر ترتيب الآيات هنا يفيد ان هذه المراجعة بين فرعون وملئه من جهة وبين موسى وبنى اسرائيل من جهة اخرى وقعت بعد قصة السحرة ، وسياق التوراة صريح في وقوعها قبلها وبعد تبليغ اصل الدعوة — فهل يجب ان نقول ان ظاهر السياق هنا غير مراد وهو معطوف بالواو التي لا تدل على الترتيب — أعني قوله (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه) الخ ليوافق التوراة وتتم به الحجة على رسالة نبينا (ص) من هذا الوجه وهو أنه كان أميا لا اطلاع له على التوراة ولا غيرها من كتب أهل الكتاب ولا غيرهم وانه لم يعلمه الا بوحي الله اليه ؟ كما قال له تعالى عقب قصة نوح (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وما في معناه من قصة موسى في سورة القصص؟

(قلنا) انه لا مانع من هذا الجمع ولا تتوقف الحجة عليه ، فان القرآن مشتمل على حجج كثيرة من هذا النوع ومن غيره تدل على كونه وحيا من الله تعالى لا يقدر على مثله محمد الامي (ص) ولا غيره من القارئين الكاتبين ايضا وهو على كونه كما قال مصدقا لكون تلك الكتب من عند الله تعالى اي في الاصل قد قال أيضا ان أهل التوراة اوتوا نصيبا منها ونسوا حظا ونصيباً آخر وانهم حرفوا بعض ما عندهم منها ، وإنه هو اي القرآن مهيمن عليها ، فما أقره منها فهو الذي لا شك فيه ، وما صححه بايراده مخالفا لما عندهم فهو الصحيح سواء كان بايراده إياه مخالفا لما فيها من بعض الوجوه ككون موسى هو الذي ألقى العصا فاذا هي حية واذا هي تلقف ما يأفكون لا هارون كما في التوراة ، أو دلت قواعده أو نصوصه على امتناعه كما جاء في اول الفصل الثامن من سفر الخروج من ان الرب جعل موسى إلها لفرعون ويكون اخوه هارون نبيه !! فأصول القرآن وكذا في التوراة — تمنع أن يكون إله غير الله عز وجل . وقد ثبت في تواريخ أهل الكتاب وغيرهم أن التوراة التي كتبها موسى عليه السلام قد فقدت وأن عزرا الكاتب هو الذي كتب الاسفار المقدسة بعد السبي البابلي في القرن الخامس قبل الميلاد وهو الذي استبدل الحروف الكلدانية بالعبرانية ، على ان ما كتبه عزرا قد فقد ايضا ولكن جميع نسخ التوراة الموجودة في العالم مستمدة مما

كتبه وفيها تحريف كثير لا يمكن أن يكون من الاصل ويسمونه مشكلات يتكلفون الاجوبة عنها وقد بينا نموذجا منها من قبل ومنها ان الفصل الاخير من سفر التثنية وهو الاخير من التوراة قد ذكر فيه وفاة موسى عليه السلام وانه لم يقم بعده نبي مثله والمرجح عندهم ان يشوع هو الذي كتبه على أن فيه ذكر يشوع..

ومما يوضح معجزة القرآن فيما أخبر به عن التوراة ويؤكدها خطأ المفسرين الكثيرين من المتقدمين والمتأخرين في تفسير بعضه وتعيين المراد منه لعدم اطلاعهم على ماعند أهل الكتاب منها ومن سائر كتبهم المقدسة وغيرها من التواريخ و العاديات المستخرجة من آثار قدماء المصريين والبابليين وانما كان جل ما يعرفون عن بني اسرائيل ما سمعوه ممن اسلم منهم وما كل من اسلم منهم بحفيظ عليم ، ولا بصادق امين . ثم ما اخذوه عن كتب تاريخية غير موثوق بها ، فكان أكثر ما كتبوه في التفسير منها مشوها له وحجة لاهل الكتاب علينا — فاذا كان هذا حال علمائنا في اخبار اهل الكتاب بعد انتشار العلوم في الاسلام فكيف حال أهل مكة عند ظهوره ولم يكن فيها كتاب يقرأ ولا أحد يقرأ ويكتب قيل الا ستة نفر من التجار كانوا ممن يقال فيهم اليوم « يفكون الخط » فانى لمن كان أبعدهم عن ذلك وهو محمد بن عبدالله (ص) ان يعرف هذه الدقائق المفصلة السالمة من الشوائب التي لا يصدقها العقل أو لا تتفق مع توحيد الانبياء وفضائلهم لو لا ما انزل عليه من الوحي الالهي ؟

---

(١٢٩) وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ. أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

هذه الآيات تفصيل لمقدمات الهلاك الموعود به فيما قبلها وإنجاز وعد الله تعالى لبني اسرائيل بالاستخلاف في الارض

﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ صدرت الجملة بالقسم الدالة عليه لامه لتأكيد مضمونها وتعظيم شأنه وكيف لا

وهو من أظهر آياته سبحانه على تأييد رسله وقدرته على الادالة للمظلومين المستضعفين من الاقوياء الظالمين . وقد كثر استعمال مادة «الاخذ» في العذاب وما في معناه كقوله تعالى (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد * فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر * فأخذناه أخذاً وبيلا (يعني فرعون موسى) فأخذهم أخذة رابية) وآل فرعون قومه كما أطلقه المفسرون، أو خاصته وأعوانه في أمور الدولة وهم الملا من قومه الذين كثر ذكرهم في قصته ووجهه أنهم هم المذنبون المعاندون لموسى وانما وقوع العذاب على غيرهم بالتبع لهم لانهم كانوا موافقين ومقرين لهم على ظلمهم وقد قال تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبين الذين ظلموا منكم خاصة) وهذه سنة من سنن الاجتماع العامة وسيأتي توجيه القول الاول

وأصل اللغة أن آل الرجل أهل بيته وأقاربه الذين يضافون الى اسمه ، وهو لا يضاف الا الى أعلام شرفاء قومهم وكبرائهم كالانبياء والملوك والرؤساء ثم أطلق على أهل الاختصاص بهم او جميع أتباعهم ، ومن هنا قال بعض العلماء، ان آل النبي (ص) يطلق على جميع أتباعه وان هذا هو المراد بالصلاة على آل النبي في التشهد وغيره . قال الراغب: الآل قيل مقلوب عن الاهل ويصغر على اهيل إلا أنه خص بالاضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات ودون الازمنة والامكنة يقال آل فلان ولا يقال آل رجل ولا آل زمان كذا أو موضع كذا ولا يقال آل الخياط بل يضاف الى الاشرف الافضل يقال آل الله وآل السلطان، والاهل يضاف الى الكل يقال أهل الله وأهل الخياط كما يقال أهل زمن كذا وبلد كذا. وقيل هو في الاصل اسم الشخص ويصغر أويلا ويستعمل فيمن يختص بالانسان اختصاصاً ذاتيا إما بقرابة قريبة أو بموالاة قال عز وجل (وآل ابراهيم وآل عمران) وقال : (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) قيل وآل النبي عليه الصلاة والسلام أقاربه وقيل المختصون به من حيث العلم وذلك أن أهل الدين ضربان ضرب متخصص بالعلم المتقن والعمل المحكم فيقال لهم آل النبي وأمته وضرب يختصون بالعلم[1] على سبيل التقليد ويقال لهم أمة محمد عليه الصلاة والسلام ولا يقال لهم آله، فكل آل للنبي أمة له وليس كل أمة له آله. وقيل لجعفر الصادق رضي الله

(١) كذا في النسخة المطبوعة ولعل الصواب بالعمل فان التقليد لا يسمى علما

عنه: الناس يقولون المسلمون كلهم آل النبي عليه الصلاة والسلام، فقال كذبوا وصدقوا، فقيل ما معنى ذلك؟ فقال كذبوا في ان الامة كافتهم آله وصدقوا في أنهم إذا قاموا بشرائط شريعته آله. وقوله تعالى (رجل مؤمن من آل فرعون) أي من المختصين به وبشريعته وجعله منهم من حيث النسب أو المسكن او من حيث تقدير القوم أنه على شريعتهم اه

بعد هذا نقول إن « آل فرعون » أطلق في القرآن على أهل بيته خاصة في موضع واحد لا يحتمل غيرهم وفي موضع آخر محتمل لغيرهم فالاول قوله تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنا) والثاني قوله (وقال رجل مؤمن من آل فرعون) وأطلق كثيراً بمعنى ملئه وخاصة أتباعه أو جملتهم كقوله (وأغرقنا آل فرعون * أدخلوا آل فرعون أشد العذاب * وإذ نجينا كم من آل فرعون * وحاق بآل فرعون سوء العذاب * ولقد جاء آل فرعون النذر) كذلك كثر ذكر ملإ فرعون في إرسال موسى اليهم وما دار بين فرعون وبينه وهم أشراف قومه ورجال دولته كما تقدم ولولا أن ورد ذكر قومه في بعض الآيات لحملنا الآل في الآية التي نحن بصدد تفسيرها وفي أمثالها عليهم دون سائر قومه فقد قال تعالى في أول قصة موسى من سورة الشعراء (وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين * قوم فرعون ألا يتقون) وقال في سورة الدخان (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم) الخ ومن الواضح أن عامة قوم فرعون ينالهم من عذاب الاخذ بالسنين ونقص الثمرات ما لا ينال فرعون وأهل بيته وخاصة ملئه فالمراد بآله قومه وهم أهل مصر في عهده، وهم مؤاخذون بظلمه وطغيانه لان قوته المالية والجندية منهم، وقد خلقهم الله أحراراً وكرمهم بالعقل والفطرة التي تكره الظلم والطغيان بالغريزة فكان حقا عليهم أن لا يقبلوا استعباده لهم وجعلهم آلة لطغيانه وإرضاء كبريائه وشهواته ولا سيما بعد بعثة موسى ووصول دعوته اليهم ورؤيتهم لما ايده الله به من الآيات

وأما السنون فهي جمع سنة وهي بمعنى الحول ولكن أكثر ما تستعمل في الحول الذي فيه الجدب كما قال الراغب وغيره أي الا اذا ذكرت في مقام العدد والاحصاء. والاخذ بالسنين صريح في ارادة العقاب بالجدب والضيق ويؤيده نقص الثمرات، وهل يدخل نقص الثمرات في عموم المراد من السنين أم هي خاصة بنقص الغلال التي عليها مدار الاقوات دون الفاكهة التي لا

تكفي للقوت وان كان منها النخيل والاعناب ؟ وجهان. ونقص الثمرات نص على شدة الضيق في كل حال ، وهذا إجمال يفسره قوله تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان) وما هو ببعيد

وجملة معنى الآية أنه تعالى أخذ آل فرعون بالجدب وضيق المعيشة لعلهم يتذكرون ضعفهم أمام قوة الله وعجز ملكهم الجبار المتغطرس وعجز آلهتهم ولعلهم اذا تذكروا اعتبروا واتعظوا فرجعوا عن ظلمهم لبني اسرائيل وأجابوا دعوة موسى عليه السلام ، فان الشدائد من شأنها أن ترقق القلوب وتهذب الطباع وتوجه الانفس الى مرضاة رب العالمين والتضرع له دون غيره من المعبودات التي اتخذت في الاصل وسائل اليه وشفعاء عنده ، ثم صار ينسى في وقت الرخاء لانه غيب لا يرى وتذكر هي لانها مشاهدة مجانسة لعابديها بل هي أو اكثرها دونهم لوكانوا يعقلون، فاذا بلغ الشرك من الناس ان ينسوا الله تعالى حتى في أوقات الشدائد فذلك هو الضلال البعيد

كذلك كان دأب آل فرعون بعد إنذار موسى إياهم ﴿فاذاجاءتهم الحسنة﴾ من خصب ورخاء وهو الغالب ﴿قالوا لنا هذه﴾ دون غيرنا ونحن المستحقون لها بما لنا من التفوق على الناس ﴿ وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾ أي وان اتفق ان أصابتهم سيئة أي حالة تسوءهم كجدب أو جائحة أو مصيبة أخرى في الابدان أو الارزاق تشاءموا بموسى ومن معه من الانصار كأخيه هارون أو جميع قومه ويرون أنهم انما اصيبوا بشؤمه وشؤمهم ، ويغفلون عن سيئات أنفسهم وظلمهم لقوم موسى لان هذا عندهم من الحقوق ، كما هو شأن الافرنج في ظلمهم لمن يستضعفونهم من أهل الشرق

أصل يطيروا يتطيروا فأدغمت التاء في الطاء وسبب استعمال التطير بمعنى التشاؤم أن العرب كانت تتوقع الخير والشر مما تراه من حركة الطير حتى انها تزجرها اذا لم تمر من تلقاء نفسها فاذا طارت من جهة اليمين تيمنت أي رجت وقوع اليمن والبركة والخير — واذا طارت من جهة الشمال تشاءمت وتوقعت الشر والمصيبة ، ويسمى الطائر الاول السانح والاخر البارح ، ثم إنهم سموا الشؤم طيراً وطائراً والتشاؤم تطيراً ، ولذلك قال تعالى في رد خرافتهم

﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ولكن اكثرهم لا يعلمون ﴾ ابتدأ الرد عليهم

بأداة الافتتاح « ألا » للاهتمام به إذ المراد بها توجيه ذهن القارىء لما يلقى بعدها حتى لا يفوته شيء منه ، أي الا فليعلموا ان الشؤم الذي نسبوه الى موسى وعدوه من آثار وجود فيهم هو عند الله تعالى لا عند موسى ومن معه ، فهو تعالى قد جعل لكل شيء قدرا من حسنة وسيئة بمعنى انه وضع لنظام الكون سننا تكون فيها المسببات على قدر الاسباب ، ولكل منها حكم ، فبمقتضى هذه السنن والاقدار ينزل البلاء عليهم ، وهو امتحان واختبار لهم بما يسوءهم ، ليتوبوا ويرجعوا عن ظلمهم وبغيهم على بني اسرائيل وطغيانهم واسرافهم في كل امورهم ، ولكن اكثرهم لا يعلمون حكم التصرف الرباني في الخلق ولا اسباب الخير والشر الصورية ولا المعنوية وكون كل شيء في هذا الكون بمشيئته تعالى وتدبيره

وفي الآية من نكت البلاغة انه عبر عن مجيء الحسنة بإذا الدالة على تحقق الوقوع وعرفها لافادة انها الاصل الثابت الغالب بغلبة رحمة الله وفضله على سخطه وعقابه ، وعبر باصابة السيئة بان التي هي اداة الشك — اي إن شرطها إما مشكوك في وقوعه وإما منزل منزلة المشكوك فيه لندرته أو لسبب آخر — ونكر السيئة لافادة ان وقوعها قليل وخلاف الاصل الغالب . وافاد بالتعبيرين ان القوم لم يتربوا بالحسنات ولا بالسيئات ، وان الحسنة على عظمتها وكثرتها ما زادتهم إلا غروراً بحالهم ، وتماديا في ظلمهم ، وإصراراً على بغيهم ، وان السيئة لم تفدهم عظة ولا عبرة ولم تحدث لهم توبة ، وهاك تفصيل ذلك

---

(١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ

قلنا ان القوم لم يتربوا بالحسنات ولا بالسيئات . ولم يذعنوا لما ايد الله به تعالى موسى من الايات ، بل اصروا بعد ايمان كبار السحرة على عد آيتي موسى من السحر ﴿ وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾

«مهما» اسم شرط يدل على العموم ، والمعنى إنك إن تجئنا بكل نوع من انواع الآيات التي تستدل بها على حقية دعوتك لاجل ان تسحرنا بها اي تصرفنا بها بدقة ولطف في التأثير عما نحن عليه من ديننا ومن تسخيرنا لقومك في خدمتنا وضرب اللبن لمبانينا — فما نحن لك بمصدقين ، ولا لرسالتك بمتبعين

﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾ اي فأنزلنا عليهم هذه المصائب والنكبات حال كونها آيات بينات على صدق رسالة عبدنا موسى بأن توعدهم بها قبل وقوع كل واحدة منها تفصيلا لا إجمالا، لتكون دلالتها على صدقه واضحة لا تحتمل التأويل بأنها وقعت بأسباب لها لا دخل لرسالته فيها — فاستكبروا عن الايمان به استكبارا، مع اعتقاد صحة رسالته وصدق دعوته باطنا، وكانوا قوما راسخين في الاجرام والذنوب مصرين عليها فلا يهون عليهم تركها

جاء في سورة الاسراء — أو بني اسرائيل — أن الله تعالى أعطى موسى تسع آيات بينات وقد عد هنا منها خمسا وهي مذكورة في التوراة على غير هذا الترتيب وهو غير مراد وعطف بعضها على بعض بالواو لا يقتضيه :

فأما الطوفان فمعناه في اللغة ما طاف بالشيء وغشيه وغلب في طوفان الماء سواء كان من السماء أو الارض وكذا كل ما ينزل من السماء بكثرة تغشي الارض. قال ابن كثير اختلفوا في معناه فمن ابن عباس في رواية عنه : الامطار المغرقة المتلفة للزرع والثمار وبه قال الضحاك بن مزاحم ، وعن ابن عباس رواية أخرى هو كثرة الموت وكذا قال عطاء ، وقال مجاهد الطوفان الماء والطاعون على كل حال، وقال ابن جرير : حدثنا ابن هشام الرفاعي حدثنا يحي بن هيمان حدثنا المنهال بن خليفة عن الحجاج عن الحكم بن ميناء عن عائشة (رض) قالت قال رسول الله (ص) « الطوفان الموت » وكذا رواه ابن مردويه من حديث يحيى بن هيمان به وهو حديث غريب . وقال ابن عباس في رواية أخرى هو أمر من الله طاف بهم ثم قرأ (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون) اهـ

أقول أما حديث عائشة المرفوع فهو ضعيف لا يثبت بمثله قول مخالف للمتبادر من اللغة — فيحيى بن هيمان الذي انفرد به هو الكوفي العجلي كان

من العباد ضعفه الامام احمد وقال حدث عن الثوري بعجائب وقال غيره : إنه كان صدوقا لا يتعمد الكذب ولكنه كثير الخطأ والنسيان وقد أصيب بالفالج فتغير حفظه وهذا هو الصواب . والمنهال بن خليفة العجلي الكوفي الذي روي عنه ضعفه ابن معين وغيرهما وقال البخاري حديثه منكر وقال ابن حبان كان ينفرد بالمناكير عن المشاهير فلا يجوز الاحتجاج به. وهذا طعن مبين السبب فهو مقدم على توثيق البزار له وكذلك الحجاج وهو ابن ارطاة الكوفي القاضي مدلس ضعيف لا يحتج به ، وأولى الآثار بالقبول قول ابن عباس الاول الموافق للمتبادر من اللغة اي طوفان المطر، وماعدا ذلك فمن الاسرائيليات واولاها بالقبول مالا يخالف القرآن من اسفار التوراة نفسها وهو ما ننقله عنها :

جاء في الفصل التاسع من سفر الخروج : (١٣) ثم قال الرب لموسى بكر في الغداة وقف بين يدي فرعون وقل له . كذا قال الرب اله العبرانيين أطلق شعبي ليعبدوني (١٤) فاني في هذه المرة منزل جميع ضرباتي على قلبك وعلى عبيدك وشعبك لكي تعلم انه ليس مثلي في جميع الارض (١٥) وأنا الآن أمد يدي وأضربك أنت وشعبك بالوباء فتضمحل من الارض * (١٦) غير اني لهذا ابقيك لكي أريك قوتي ولكي يخبر باسمي في جميع الارض (١٧) وأنت لم تزل مقاوماً لشعبي (١٨) ها أنا (؟) ممطر في مثل هذا الوقت من غد برداً عظيما جدا لم يكن مثله في مصر منذ يوم أسست الى الآن » ثم ذكر وقوع البرد مع نار من السماء ووصف عظمته وشموله لجميع بلاد مصر وان فرعون طلب موسى وهارون واعترف لهما بخطئه وطلب منهما أن يشفعا الى الرب ليكف هذه النكبة عن مصر ووعدهما باطلاق بني اسرائيل وقال في ختام ذلك

*) هذا نص ترجمة اليسوعيين التي نقحها وصححها الشيخ ابراهيم اليازجي وهي مخالفة في المعنى لترجمة الامريكان ونصها : « ١٥ فانه الآن لو كنت أمد يدي وأضربك وشعبك بالوباء لكنت تباد من الارض » فالأولى جزمت بالضرب بالوباء والثانية علقته بلو الدالة على عدم وقوعه والمتبادر أنها هي الصحيحة المعنى فتامل ولا تظن أن الترجمة التي صححها اليازجي خالية من الخطأ اللغوي كما يظن الغالون فيه وأقرب غلط في هذا السياق أول الجملة ١٨ ها أنا .. فها التنبيهية تدخل على ضمير الرفع المخبر عنه باسم الاشارة فيقال ها أنا ذا (وقد تكتب هاء نذا اختصارا) – وها أنتم أولاء. وهذا الغلط قد تكرر فيها كغيرها وله أمثال

(٣٣) فخرج موسى من المدينة من لدن فرعون وبسط يديه الى الرب فكفت الرعود والبرد ولم يعد المطر يهطل على الارض »اه ولم يذكر المطر عند الوعيد بل ذكر هنا عند كف النكبة

وأما الجراد فهو معروف وقد ذكر في التوراة بعد الطوفان ففيها بعدما تقدم أن فرعون قسا قلبه فلم يطلق بنى اسرائيل فأخبر الرب موسى كما في الفصل العاشر بأنه قسى قلبه وقلوب عبيده ليريهم آياته ولكي يقص موسى على ابنه وابن ابنه (كذا) مافعل بالمصريين وأمره بأن ينذره بارسال الجراد عليهم فيأكل ماسلم من النبات والشجر فلم يحسه البرد ويملا بيوته وبيوت عبيده وسائر بيوت المصريين ففعل — فرضي فرعون أن يذهب الرجال من بني اسرائيل ليعبدوا ربهم دون النساء والاولاد والمواشي - فمد موسى عصاه بأمر الرب على أرض مصر فأرسل الرب ريحاً شرقية ساقت الجراد على أرض مصر (١٥) فغطى جميع وجه الارض حتى أظلمت الارض وأكل جميع عشبها وجميع ما تركه البرد من ثمر الشجر حتى لم يبق شيء من الخضرة في الشجر ولا في عشب الصحراء في جميع أرض مصر » وفيه أن فرعون استدعى موسى وهارون واعترف لهما بخطئه وطلب منهما الصفح والشفاعة الى الرب الههما أن يرفع عنه هذه التهلكة ففعلا فأرسل الله ريحاً غربية فحملت الجراد كله فألقته في بحر القلزم

وأما القمل بضم القاف وتشديد الميم المفتوحة فعن ابن عباس هو السوس الذي يخرج من الحنطة وعنه أنه الدبى وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة وعن الحسن وسعيد بن جبير انه دواب سود صغار ، وعن ابن جرير انها دابة تشبه القمل تأكل الابل ، ونقل عن بعض علماء اللغة البصريين ان القمل عند العرب الحمنان واحدتها حمنانه وهي صغار القردان — ذكر هذا كله ابن كثير . وجزم الراغب بأن القمل صغار الذباب وهو موافق لما في التوراة ففيها ان البعوض والذبان كان من الضربات العشر التي ضرب الرب بها فرعون وقومه ليرسلوا بني اسرائيل مع موسى ففي الفصل الثامن من سفر الخروج أن موسى انذر فرعون ان الذبان سيدخل بيوته وبيوت عبيده وسائر قومه فيفسدها ولا يدخل في بيوت بنى اسرائيل المقيمين في ارض جاسان وان ذلك وقع وفسدت الارض من تأثير الذبان .

وأما الضفادع فهي المعروفة لا خلاف فيها وفي أول الفصل الثامن من سفر الخروج (١) وقال الرب لموسى ادخل على فرعون وقل له كذا قال الرب أطلق شعبي ليعبدوني (٢) وان أبيت أن تطلقهم فها أنا (ذا) ضارب جميع تخومك بالضفادع (٣) فيفيض النهر ضفادع فتصعد وتنتشر في بيتك وفي مخدع فراشك وعلى سريرك وفي بيوت عبيدك وشعبك وفي تنانيرك ومعاجنك» الخ وكذلك كان ولكن فيها أن السحرة فعلوا مثل ذلك وأصعدوا الضفادع ، وان فرعون طلب من موسى أن يشفع له عند ربه برفع الضفادع فأجابه الى ذلك قال (١٣) ففعل الرب كما قال موسى وماتت الضفادع من البيوت (؟) و لاقبية والحقول (١٤) فجمعوها أكواماً وأنتنت الارض منها »

وأما الدم فقسره ربيعة بن أنس بالرعاف وأكثر أهل التفسير المأثور أنه دم كان في مياه المصريين وهو موافق لما جاء في التوراة وهو فيها أول الضربات العشر التي أنزلها الله على فرعون وقومه بعد انسلاب العصا ثعبانا ففي الفصل السابع من سفر الخروج أن الرب أمر موسى أن ينذر فرعون ذلك ففعل (١٩، ثم قال الرب لموسى قل لهارون خذ عصاك ومدّ يدك على مياه المصريين وأنهارهم وخلجهم ومناقعهم وسائر مجامع مياههم فتصير دماً ويكون دم في جميع أرض مصر وفي الخشب وفي الحجارة » وفيه أن موسى وهارون — فعلا ذلك وان سمك النهر مات وأنتن النهر فلم يستطع المصريون أن يشربوا منه ، وفيه أن سحرة مصر فعلوا مثل ذلك (؟ ؟) وان الدم دام سبعة أيام

هذه الخمس جملة ماذكره القرآن من الآيات التسع التي أيد بها عبده ورسوله موسى عليه السلام وليس فيها شيء من المبالغات التي في التوراة فلا هو ينفيها ولا يؤيدها، ومقتضى أصول الاسلام الوقف فيها الاما دل دليل من القرآن على نفيه كما تقدم . وفيها أن من تلك الآيات أو الضربات (البعوض)وذلك أن هارون ضرب بأمر الرب تراب الارض «فكان البعوض على الناس والبهائم ، وكل تراب الارض(؟) صار بعوضاً في جميع أرض مصر » (كذا في ٨ : ١٧ خر) وفيها أن السحرة فعلوا مثل ذلك !! (ومنها الوباء) وقع على دواب المصريين وأنعامهم فماتت كلها من دون مواشي الاسرائيليين فانه لم يمت منها شيء(ومنها البثور والقروح المنتفخة) أصابت الناس والبهائم — ومن أين جاءت البهائم بعد

أن ماتت بأسرها ؟ (ومنها الظلام) غشي جميع المصريين ثلاثة أيام كان الاسرائيليون فيها يتمتعون بالنور وحدهم (ومنها إماتة جميع أبكار الناس والبهائم) وهي الضربة العاشرة ففيها « وقال موسى كذا قال الرب إني نحو نصف الليل أجتاز في وسط مصر فيموت كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على عرشه الى بكر الأمة التي وراء الرحى وجميع أبكار البهائم (من أين جاءت بعد ان ماتت منذ ايام؟) ويكون صراخ عظيم في جميع أرض مصر لم يكن مثله ولن يكون مثله (١١ : ٤ — ٦ خر)

---

(١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَٰمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ

بعد بيان تلك الايات ذكر ما كان من تأثيرها وتأويلها معطوفا عليها فقال عز وجل ﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك : لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل ﴾ قال في الاساس : ارتجز الرعد اذا تداوك صوته كارتجاز الراجز . . والبحر يرتجز بآذيه أي موجه . . . فمادة الرجز تدل في أصل اللغة على الاضطراب كما قال الراغب وهو يكون في النفس كما يكون في الاجسام ومنه قوله تعالى في وصف الماء الذي أنزله على المسلمين في بدر (ويذهب عنكم رجز الشيطان) أي وسوسته لهم بأن يأخذهم العطش فلا يستطيعون الصبر على القتال وقيل غير ذلك . وقد يكون في الصوت ومنه الرجز في الشعر سمي بما كان لهم من اضطراب الصوت في إنشاده ، وقد سمي عذاب قوم لوط رجزاً بقوله تعالى في سورة العنكبوت (إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) وفي

سورتي سبأ والجاثية انذار للكافرين بعذاب من رجز أليم . وفسر الرجز هنا بالعذاب وروي عن قتادة وفيه حديث مرفوع عن عائشة عند ابن مردويه ، وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أن المراد به الطاعون . وكأنهما أخذاه من حديث أسامة بن زيد مرفوعا « الطاعون رجز أرسل على بني اسرائيل — أو على من كان قبلكم — فاذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » رواه مسلم عنه بهذا اللفظ وألفاظ أخرى بمعناه منها « الطاعون آية الرجز ابتلى الله به عز وجل أناساً من عباده » الخ وفي رواية له « هو عذاب أو رجز أرسله الله على طائفة من بني اسرائيل أو ناس كانوا قبلكم » الخ وأوله في بعضها « ان هذا الطاعون » الخ ورواه احمد والنسائي ومصنفو التفسير المأثور عنه وعن سعيد بن مالك وخزيمة بن ثابت ووجهه في اللغة أن الطاعون من الاوبئة التي تضطرب لها القلوب لشدة فتكها وذكر المفسرون في تفسير قوله تعالى من سورة البقرة (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية — الى قوله — فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) وهو يصدق بطائفة من بني اسرائيل وقد نزل الطاعون بهم كغيرهم مراراً

ولا يوجد حديث مرفوع يدل على أن الطاعون هو المراد بالرجز في الآية التي نفسرها وضربة القروح المذكورة في التوراة يجوز أن تكون هي الطاعون ، وموت الابكار يحتمل أن يكون بالطاعون أيضاً

والمتبادر من عبارة الآية أن المراد من الرجز جنسه وهو كل عذاب تضطرب له القلوب أو يضطرب له الناس في شؤونهم ومعايشهم وهو يشمل كل نقمة وجائحة أنزلها الله تعالى على قوم فرعون كالخمس المبينة في هذا السياق وفي التوراة أن فرعون كان يقول لموسى عند نزول كل منها ادع لنا ربك واشفع لنا عنده أن يرفع عنا هذه، ويعده بأن يرسل معه بني اسرائيل ليعبدوا ربهم ويذبحوا له ثم ينكث ، فاذا أريد بالرجز افراده وافق التوراة في ان فرعون وملأه كانوا يطلبون من موسى عند كل فرد منها ان يدعو ربه بكشفها عنهم، ولفظ « لما » لا يمنع من ذلك كما صرح به المفسرون الذين قالوا بهذا ، وان اريد به جملته ومجموع افراده او فرد آخر غير ما تقدم فالمتبادر ان يكون طلب كشفه قد وقع مرة واحدة ، والاول اظهر ويرجحه التعبير عن نكثهم بصيغة

المضارع (ينكثون) فانه يدل على الاستمرار

ومعنى النظم الكريم : ولما وقع على فرعون وقومه ذلك العذاب المذكور في الآية السابقة فاضطربوا اضطراب الارشية في البئر البعيدة القعر، وحاصوا حيصة الحمر فوقعوا في حيص بيص — وهو ما يدل عليه تسمية ذلك العذاب بالرجز — قالوا عند نزول كل نوع منه بهم: يا موسى ادع لنا ربك واسأله بما عهد عندك من امر إرسالك الينا لانقاذ قومك ليعبدوه وحده — فالنبوة والرسالة عهد من الرب تعالى لمن اختصه بذلك يدل عليه قوله تعالى لابراهيم صلى الله عليه وعلى آله وسلم (إني جاعلك للناس إماماً ، قال ومن ذريتي ، قال لا ينال عهدي الظالمين) — او ادعه بالذي عهد به اليك ان تدعوه به فيعطيك الآيات ويستجيب لك الدعاء — ان يكشف عنا هذا الرجز ، ونحن نقسم لك لئن كشفته عنا لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل قال تعالى :

﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز الى اجل هم بالغوه اذا هم ينكثون ﴾ اي فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد مرة الى اجل هم بالغوه ومنتهون اليه في كل مرة منها — وهو عود الحال الى ما كانت عليه — او في مجموعها وهو الغرق الذي هلكوا فيه — اذا هم ينكثون عهدهم ويحنثون في قسمهم في كل مرة . اي فاجأوا بالنكث ، وبادروا الى الحنث ، بلا روية ولا ريث . واصل النكث في اللغة نقض ما غزل او ما فتل من الحبال ليعود انكاثا وطاقات من الخيوط كما كان . والانكاث ما نقض من الغزل ليغزل ثانية (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا)

﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾

اي فانتقمنا منهم عند بلوغ الاجل المضروب لهم بأن اغرقناهم في اليم — وهو البحر في اللغة المصرية الموافقة للعربية في الالوف من مفرداتها[١] وهو يطلق على النيل وغيره — والفاء الداخلة على انتقمنا تفسيرية كقوله تعالى : (ونادى نوح ربه فقال . . .) وعلل هذا الانتقام كما علل امثاله بأنهم كذبوا بآيات الله وتكرر هذا اللفظ في قصص الانبياء من هذه السورة اكثر من غيرها وان لم

(١) قد اكتشف هذه الموافقة علامة العاديات المصرية صديقنا احمد باشا كمال الاثري المصري صاحب المعجم الكبير للغة الهيروغليفية (رحمه الله تعالى) ومنه يعلم ان أصل اللغتين واحد او ان اصل الامتين واحد

يؤمن بعضهم غير آية واحدة فان تكذيب الواحدة كتكذيب الكثير ويقتضيه باتحاد العلة، كما أن تكذيب احد الرسل كتكذيب الجميع اذا كان بعد ظهور آيته، وقيام الحجة على دعوته. وكذلك تكرر في القرآن كون الغفلة على الحق ودلائله من صفات الكفار. واما جمع الآيات هنا فلانها متعددة. واما عطف الانتقام بالفاء فليس تعليلا آخر وانما هو تعقيب على كونه وقع بعد التكذيب بتلك الآيات كلها، والمعنى انهم كانوا يظهرون الايمان عند كل آية من آيات العذاب ثم يكذبون حتى اذا انقضى الاجل المضروب لهم انتقمنا منهم بسبب انهم كذبوا بها كلها وكانوا غافلين عما تقتضيه وتستلزمه من عذاب الدنيا والآخرة، إذ كانت في نظراً كثرهم من قبيل السحر والصناعة، وكانوا قد بلغوا فيهما الغاية، ولذلك كانوا يكابرون انفسهم في كل آية، ويحاولون ان يأتي سحرتهم وعلماؤهم بمثلها، ويحملون عجزهم على تفوق موسى عليهم فيها، ويعدون إسناده كل شيء الى ربه من قبيل اسنادهم الامور الى آلهتهم الباطلة بحسب التقاليد التي لم يكن حكماؤهم يؤمنون بها، وانما يحافظون عليها لاجل خضوع عامة الشعب لها، وأما من ظهرت لهم دلالة آيات موسى على الحق فمنهم من آمن جهراً ككبار السحرة ومن آمن فكتم إيمانه كالذي عارض فرعون وملأه في قتل موسى بالحجة والبرهان — كما في سورة غافر وذكرناه في هذا السياق — ومنهم من جحد بها لمحض العلو والكبرياء، كفرعون وأكابر الوزراء والرؤساء

ومن العبرة في مجاراة الحكومة الفرعونية للعوام على خرافاتهم أن حكومات هذا العصر توافق العامة على كل مايعدونه من الدين وان لم يكن منه كما تفعل الحكومة المصرية في بعض الاحتفالات الموسمية المبتدعة في الاسلام كالموالد بالتبع لجمهور الشعب من كبار علمائه الى أجهل عوامه وهي مشتملة على كثير من المعاصي المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة التي يعد مستحلها مرتدا عن الاسلام باتفاق المذاهب، والجمهور غافلون عن ضرر هذه البدع التي جعلت من قبيل شعائر الاسلام بالاحتفال بها وشد الرحال اليها، وانفاق الاموال العظيمة في سبيلها، وتعطيل كبرى شعائر الاسلام وهي الصلاة وابطال دروس العلوم الدينية من المساجد التي تقام فيها لاجلها، كالمسجد الاحمدي في طنطا والمسجد الابراهيمي في دسوق. وان اكبر ضررها تشويه الاسلام في نظر العقلاء من اولي العلوم الاستقلالية حتى كثر فيهم المرتدون عنه، وصد غير المسلمين عن

الاسلام لان القاعدة التى يجري عليها عرف الامم أن دين كل قوم ما هم عليه من التعبدات والشعائر ، وقد تكرر منا اقناع بعض مستقلي الفكر من غير المسلمين بحقية دين الاسلام المقرر في القرآن الحكيم والسنة السنية وتنزهه عن هذه البدع فاقتنعوا بأن ما قررناه لهم حق ولم يقتنعوا بأنه دين الاسلام الذي عليه المسلمون، وقد سبق ان نقلت عن رجل من فضلاء الانكليز منهم انه قال لي ان كان الاسلام ما ذكرت فأنا مسلم . وكان نعوم بك شقير المؤرخ السوري يقول لي اكتب عقيدتك وأنا أمضي عليها بخطي انها عقيدتي

(١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ

لما ذكر تعالى عاقبة تلك الآيات وتأويلها في المصريين عطف عليه بيان عاقبتها وتأويلها في بني اسرائيل بهذه الآية الجامعة البليغة فقال عز وجل :

﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾ تعدد في القرآن التعبير عن استخلاف الله قوما في أرض قوم بالايراث أي وأعطينا القوم الذين كانوا يستضعفون في مصر بما تقدم بيانه جميع الارض التي باركنا فيها بالخصب والخير الكثير مشارقها من حدود الشام ومغاربها من حدود مصر ، تحقيقا لوعدنا . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)

روي عن الحسن البصري وقتادة أنهما قالا في تفسير (مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها : هي أرض الشام ، وعن زيد بن أسلم قال : هي قرى الشام ، وعن عبد الله بن شوذب : فلسطين ، وعن كعب الاحبار قال ان الله بارك في الشام من الفرات الى العريش . ويؤيد هذه الروايات قوله تعالى في ابراهيم عليه الصلاة والسلام (ونجيناه ولوطا الى الارض التي باركنا فيها للعالمين) وقوله تعالى (ولسليمان الريح تجري بأمره الى الارض التي باركنا فيها) وقوله

عز وجل (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله)

وروي عن الليث بن سعد أنها أرض مصر التي كان فيها بنو اسرائيل وأطلق بعض المفسرين القول بأنها أرض مصر وفلسطين جميعا. وربما يتراءى أن ارادة أرض مصر هي الظاهر المتبادر من قوله تعالى في قوم فرعون من سورة الشعراء(٢٦ : ٥٧ فأخرجناهم من جنات وعيون ٥٨ وكنوز ومقام كريم ٥٩ كذلك — وأورثناها بني اسرائيل) وقوله فيهم من سورة الدخان(٤٤ : ٢٤ كم تركوا من جنات وعيون ٢٥ وزروع ومقام كريم ٢٦ ونعمة كانوا فيها فاكهين ٢٧ كذلك وأورثناها قوما آخرين) لان فرعون خرج بمن معه من الملا والجند من مصر وتركوا ما كانوا فيه من النعيم، الى الغرق المؤدي الى الجحيم، ولكن هذا الوصف أظهر في بلاد الشام ذات الجنات الكثيرة، والعيون الجارية، ومعنى اخراج المصريين منها ازالة سيادتهم وسلطانهم عنها فقد كانت بلاد فلسطين وحرمانهم من التفكه بنعيمها، الى الشام تابعة لمصر ، وكان من عادة فراعنة مصر كغيرهم من الامم المستعمرة أن يقيموا في البلاد التي يستولون عليها حكاما وجنود الثلاث تنقض عليهم، وأن يسكنها كثيرون منهم يتمتعون بخيراتها . وقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض) جملة من الاثر المصري القديم الوحيد الذي وجد فيه ذكر لبني اسرائيل تنطق بأن هذه البلاد كانت تابعة لمصر

على أنه وجد في بعض التواريخ القديمة ما يدل على صحة ما قاله بعض مفسرينا من أن موسى استولى على مصر وتمتع هو وقومه بالسيادة فيها طائفة من الزمن نذكره للاعتبار به وان كان صدق الآيات غير مقصور على صحة مضمونه وهو ما جاء في خاشية لاحد مباحث الدكتور محمد توفيق صدقي (رحمه الله تعالى) في كتب العهد الجديد وعقائد النصرانية ، وهذا نصه (كما في ص٤٤٦ و ٤٤٧ من مجلد المنار السادس عشر) :

«جاء في كتاب (الاصول البشرية) صفحة ٨٨ لمؤلفه لينج أن يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير نقل عن (مانيثو) هذه الرواية المصرية القديمة التي ملخصها « أن موسى بعد أن هزم فرعون مصر — الذي فر الى بلاد الحبشة — حكم مصر ١٣ سنة وبعد ذلك عاد اليه فرعون هو وابنه ومعهما جيش عظيم فقهروه وأخرجوه منها الى بلاد الشام » وجاء في قاموس الكتاب المقدس

لبوست مجلد ١ ص ٤١٠ أن هيرودوتس المؤرخ اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد قال « إن ابن سيسوسترس ضرب بالعمى مدة عشر سنين لانه رمى رمحه في النهر وقد ارتفعت أمواجه وقت فيضه بسبب نوء شديد الى علو غير اعتيادي » اه ويقول المؤرخون ان ابن سيسوسترس هذا (وهو منفتاح الثاني) هو فرعون الخروج ويتخذون هذه العبارة اشارة الى غرقه في زمن موسى . ولكن يرى القاريء منها أنها لو كانت اشارة الى الغرق لكان الغرق في النيل [1] ومن الرواية الاولى يعلم أن موسى حكم بعد فرعون ١٣ سنة في مصر . وهاتان الروايتان هما من أقدم الروايات المصرية وأصحها وربما كانتا الوحيدتين في هذه المسألة ، ولعل المصريين استغاثوا بمملكة الحبشة فأرسلت اليهم جيشا فأوحى الله الى موسى بالخروج حينئذ من مصر وتركها لاهلها ، وعليه يجوز أن المصريين كتموا خبر غرق ملكهم واستبدلوا به دعوى تقهقره الى الحبشة وقالوا إنه هو الذي عاد بعد ذلك وآخرج موسى بالقوة ستراً لخزيهم وخذلانهم وارضاء لملوكهم وأسر (جمع اسرة بالضم) هؤلاء الملوك وربما أنه لولا عظم هذه الحادثة وشهرتها بينهم لانكروها بالمرة

«ومن ذلك تعلم أن الخروج لم يكن عقب غرق المصريين مباشرة كما يفهم من التوراة ولم يكن السبب فيه هذه الحادثة التى غرق فيها فرعون وجيشه بل كان بعد ذلك ببعض سنين

«ويرى المطلع على القرآن الشريف أن هاتين الروايتين صادقتان في مسألة غرق فرعون في النيل ومسألة حكم موسى في مصر ١٣ سنة . وأما الغرق في النيل فيفهم من قول القرآن مثلا في سورة طه (اذ أوحينا الى أمك ما يوحى أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم) ثم قوله في آخر هذه القصة (فأتبعهم رعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم) فالمتبادر من ذلك أن فرعون غرق في نفس اليم الذي ألقى فيه موسى وهو النيل ،ومثل ذلك أيضا ما جاء في سورة القصص وهو قوله (فاذا خفت عليه فألقيه في اليم) ثم قوله فيها بعد (فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم)

(١) ويجوز أن تكون عبارة هيرودتس : رمي رمحه في البحر ثم ترجمت بالنهر لأن النهر الكبير يسمى بحراً ككل ماء كثير مستبحر

« وأما مسألة حكم موسى في مصر والتمتع بها هو وقومه مدة من الزمن بعد الغرق فهو أيضا المتبادر من نحو قوله تعالى (فأراد أي فرعون ان يستفزهم من الارض فأغرقناه ـ الى قوله ـ وقلنا من بعده لبني اسرائيل اسكنوا الارض) وقوله (فأخرجناهم من جنات وعيون، وكنوز ومقام كريم ، كذلك وأورثناها بني اسرائيل) ويجوز أن الشريعة أعطيت لموسى في الطور قبل تركه حكم مصر

« وفي زمن موسى أعطى الله بنى اسرائيل — بدلا عن مصر التي أمرهم بتركها — الممالك التي في شرق الاردن كما في كتبهم وفي زمن يشوع أعطاهم كل أرض كنعان الا بعض أجزاء منها (يش ١٣ : ١) وهذه الارض التي أعطيت لهم هي من أخصب أراضي العالم وأحسنها وهي المسماة عندهم بأرض الموعد لانهم كانوا وعدوا بها من قبل

« فأنى لمحمد صلى الله عليه وسلم علم ما بيناه من ذلك التاريخ وهو أجنبي عنه وعن قومه ومغاير للتوراة مخالف لما يعتقده جميع اليهود والنصارى من قديم الزمان ولكنه موافق لاقدم الروايات المصرية وأصحها التي لا يعرفها — حتى الآن — الا واسعو الاطلاع من محققي المؤرخين ؟

« وأما مانيثو (Manetho) المذكور هنا الذي وافقت روايته ما جاء في القرآن الشريف فكان كاهنا لمعبد من أقدم المعابد وأشهرها ، وقد كتب تاريخ مصر بأمر بطليموس فيلادلفوس في القرن الثالث قبل المسيح وكان من أدق مؤرخي القدماء وأصدقهم وقد أخذ بأوثق المصادر وأصحها في كتابة تاريخه، الا أن هذا التاريخ فقد مع ما فقد في حريق مكتبة الاسكندرية ولم يبق منه سوى مقتطفات في بعض الكتب القديمة اليونانية وقد أيد أكثر هذه المقتطفات ما اكتشفت حديثا من الآثار المصرية والمكتوبات العتيقة مع أن آباء النصرانية كيوسيبيوس حرفوا كعادتهم كثيرا مما نقلوه منها لتطابق نصوص العهد القديم كما ذكره العلامة لينج في كتابه « الاصول البشرية » ص ١١ منه » اهـ

﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ﴾ تمام الشيء وصوله الى آخر حده ، وكلمة الله وعده لبني اسرائيل باهلاك عدوهم واستخلافهم في الارض . وفي مجاز الاساس : وتم على امر مضى عليه وتم على امرك، وتم

الى مقصدك . والمعنى نفذت كلمة الله ومضت على بنى اسرائيل تامة كاملة بسبب صبرهم على الشدائد التى كابدوها من فرعون وقومه إذ كان وعد الله تعالى إياهم بما وعدهم مقرونا بامرهم بالصبر والاستعانة به والتقوى له كما أمرهم نبيهم عليه السلام تبليغا عنه تعالى راجع (وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا) — الآية — من هذا السياق . واذ كان قد تم وعد الله تعالى لهم بذلك ثم سلبهم الله تلك الارض لظلمهم لانفسهم وللناس فلم يبق من مقتضى الوعدان يعودوا اليها مرة أخرى لانه قدتم ونفذ صدقا وعدلا .

﴿ ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ التدمير ادخال الهلاك على السالم والخراب على العامر ، والعرش رفع المباني والسقائف للنبات والشجر المتسلق كمرا أش العنب ومنه عرش الملك . والمراد بما كان يصنع فرعون وقومه أولا وبالذات ماله تعلق بظلم بني اسرائيل والكيد لموسى عليه السلام ، فالاول كالمباني التي كانوا يبنونها للمصريين أو يصنعون اللبن لها ومنها الصرح الذي أمر هامان ببنائه له ليرقى به الى السماء فيطلع الى إله موسى ، والثاني كالمكايد السحرية والصناعية التى كان يصنعها السحرة لابطال آياته أو التشكيك فيها كما قال تعالى (انما صنعوا كيد ساحر * وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا لعلي ابلغ الاسباب ـ أسباب السموات ـ فاطلع الى إله موسى وإني لاظنه كاذبا ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب) والتباب بمعنى الدمار

وأما اسباب هذا التدمير لذلك الصنم والعروش فأولها الآيات التى أيد الله تعالى بها موسى عليه السلام من الطوفان والجراد وغيرهما — وتسمى في التوراة الضربات وفيها من المبالغة في ضررها وتخريبها ما أشرنا اليه وذكرنا بعضه — ويليها انجاء بنى اسرائيل وحرمان فرعون وقومه من استعبادهم في اعمالهم، وثالثها هلاك من غرق من قوم فرعون وحرمان البلاد وسائر الامة من ثمرات أعمالهم في العمران — هذا هو المعروف منها ، وما ظلمهم الله تعالى بذلك ولكنهم ظلموا انفسهم فقد انذرهم موسى عليه السلام كل ذلك ليتقوا سوء عاقبته فكذبوا بالآيات، وأصروا على الجحود والاعنات

والعبرة في هذه الآيات من وجهين (الاول) ان يتفكر تالي القرآن في

تأثير الايمان والوحي فى موسى وهارون عليهما السلام إذ تصديا لاعظم ملك في أعظم دولة في الارض قاهرة لقومهما ومعبدة لهم في خدمتها منـذ قرون كثيرة فدعواه الى الرجوع عن الكفر والظلم والطغيان وتعبيد بني اسرائيل وأنذراه وهدداه، ومازالا يكافحانه بالحجج والايات البينات حتى أظفرهما الله تعالى به وأنقذا قومهما من ظلمه وظلم قومه

فجدير بالمؤمنين بالله تعالى ورسله من المسلمين ان ينتقلوا من التفـكر في هذا الى التفكر في وعدالله تعالى للمؤمنين بالنصر كما وعد المرسلين اذاهم قاموا بما امرهم تعالى به على ألسنتهم ــ وان لا يستعظموا فى هذه السبيل قوة الدول الظالمة لهم ، فان قوة الحق التي نصرها الله تعالى برجل او رجلين على اعظم الدول لا تغلب اذا نصرناها ونحن مئات الملايين والله تعالى يقول (ان تنصروا الله ينصركم — ويقول — وكان حقا علينا نصر المؤمنين)

﴿ الوجه الثاني ﴾ إنه تجدد عندنا في هذا الزمان أمر عظيم يتعلق بهذه الارض المباركة المقدسة وهو محاولة اليهود انتزاعها من أيدي أهلها العرب وتنازع الفريقين في التعارض والترجيح بين وعد الله لكل منهما بهذه الارض وما أنجزه لكل منهما، ومن المستحق لها في هذا العصر، فليتأمل المعتبر في وعد الله تعالى بها لبنى اسرائيل من ذرية ابراهيم ثم وعده بها وبغيرها للعرب من ذريته على لسان خاتم الرسل صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ، وآلهم الصالحين المصلحين. ولعنته وخزيه على الفاسدين المفسدين المصرين. فقد انجز الله تعالى وعده للفريقين عند ما كانوا متقين ، وأخطأ كل فريق منهم في عصر رسولهم فأدبهم الله تعالى بما هو منصوص في الكتاب المبين :

أراد بنو اسرائيـل الذين أخرجهم موسى من مصر أن تكون لهم تلك الارض ،بغير عمل منهم ولا سعي ، فامتنعوا من قتال من فيها من الجبارين وقالوا لموسى (اذهب انت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) فحرمها الله تعالى عليهم اربعين سنة يتيهون فى الارض — كما عرض الغرور لبعض بني اسماعيل في عصر الرسول الاعظم بما كان من نصر الله تعالى لهم في غزوة بدر مع قلة المدد والعدد والزاد، وظنوا انهم ينصرون كما وعدوا، وان قصروا فيما أمروا، فلما اصيبوا بما اصيبوا به في غزوة أحد تعجبوا واستفهموا، فأجابهم الله تعالى بما علموا به ان وعده المطلق في قوله (كتب الله لاغلبن انا ورسلي) وقوله

(وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) مقيد بما في الآيات الاخرى كقوله (ان تنصروا الله ينصركم * ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) أجابهم بقوله (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أني هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم) الى آخر مافصلنا في تفسيرها مع سياقها من الجزء الرابع .

نعم ان الله تعالى أنجز وعده الاول لابراهيم صلوات الله وسلامه عليه بجعل هذه الارض لذريته فجعلها أولا للمتقين من آل اسحق، ثم نزعها منهم بظلمهم وافسادهم في الارض مرة بعد أخرى . ثم أعطاها للمتقين من آل اسماعيل ، ثم انتزع السلطان عليها منهم أيضا بظلمهم لانفسهم ، وتجدد التنازع في رقبتها بين الفريقين - بنى اسرائيل وبنى اسماعيل - باغراء الانكليز الذين استولوا عليها وأوقعوا الشقاق بين الفريقين فيها ، وهم أحذق الخلق ، في ضرب الشعوب بعضها ببعض ، وستكون العاقبة للمتقين ، بحسب سنة الله في البشر أجمعين . فلا يغترن قومنا بالاوهام ،ولا يتكلن على المتجرين بالاقوام ، ولا ينخدعن بعد بشقاشق الكلام ، ولا ينوطن الزعامة بأصحاب الانساب ، الفاقدين للعلم والاستقامة وسائر الاسباب ، ولاسيما من ثبتت موالاتهم لاعداء البلاد وسالبي استقلالها ، وواضعي الخطة الشيطانية لانتزاع رقبتها من أهلها ، والقضاء عليهم بالانقراض منها ، بتعذر الحياة عليهم فيها ، لا بالابعاد القسري عنها، بأن يكون شأنهم في هذا كسكان امريكا قبل استعمار الانكليز وغيرهم لها،

ولا منجاة لعرب فلسطين من هذا الخطر العظيم الآتي من قبل شعبين إثنين هما أشد شعوب الارض قوة وثروة ودهاء وكيدا وعلما وصبراً وجلداً الا باتحادهم مع سائر الشعوب والقبائل العربية على الاستبسال والاستقتال في الدفاع الحقيقي عن امتهم وبلادهم — ومع سائر الشعوب الاسلامية في الدفاع المعنوي عن الارض المقدسة والحرمين الشريفين اللذين لا استقلال لهما ولا أمن عليهما ،مع إحاطة هذه القوة الاجنبية بهما، ولكنهم لم يخطوا خطوة واحدة في طريق الوحدة العربية، بل خطوا خطوتين واسعتين في سبيل الشقاق والتفرق بين الامارات المسلحة في الجزيرة العربية تفروا بهما اكبر الشعوب الاسلامية منهم

(الاولى) موالاة صاحب الحجاز الذي أعان الانكليز على فتح بلادهم ثم كان هو واولاده مثبتا لاقدامهم فيما جاورها ، وحائلا بينهم وبين سائرها ، بأن أقروه على انتحاله لنفسه ملك البلاد العربية وعلى سعيه لاخضاع تلك الامارات

لحكمه بالاتكال على قوة الغاصب الاجنبية ؛ فلولا وجود أحد أولاده (عبدالله) في شرق الاردن من قبل الدولة الانكليزية الغاصبة لفلسطين والمنتزعة للسيادة العربية منها لأمكن ان يتحد عربهام عرب نجد الافوياء على إنقاذها . وكذا أهل العراق الذين سمى الانكليز ولده (فيصلا) ملكا عليهم . بل لولا افتتانه هو بما فتنوه به من تسميته ملكا للعرب وخليفة على المسلمين ، لما ثبتت في بلاد العرب قدم للمستعمرين .

(والثانية) مبايعة جمهور كبير منهم له بالخلافة التي يترتب عليها — لو صحت كما يدعي ويدعون له — انه يجب على تلك الامارات شرعا أن تخضع لحكمه والاوجب قتالها واخضاعها بالقوة ، وهل كان في مقدورهم سعي الى شقاق وتفرق شر من هذا ؟ على أنهم كانوا متحدين فانقسموا وصاروا أحزابا متنازعة ، فنسأله تعالى تغيير الحال بخير منها وحسن العاقبة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

---

(١٣٧) وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ، قَالُوا يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ

﴿ قصة موسى مع بني اسرائيل ﴾

هذه الآيات وما بعدها شروع في قصة موسى عليه السلام مع قومه بني اسرائيل معطوفة على قصته مع فرعون وقومه على ما كل وجوه العبرة مع السلامة من لغو القصص والتاريخ . قال عز وجل

﴿ وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ﴾ جاز الشيء وجاوزه وتجاوزه عداه وانتقل عنه . والعكوف على الشيء الاقبال عليه وملازمته على سبيل التعظيم ومنه العكوف والاعتكاف في المسجد وهو ملازمته لاجل العبادة. قرأ حمزة والكسائي يعكفون بكسر الكاف من باب جلس يجلس والباقون بضمها من باب قعد يقعد. والاصنام جمع صنم وهو مايصنع من الخشب أو الحجر أو المعدن مثالا لشيء حقيقي أو خيالي أو مذكرا به ليعظم تعظيم العبادة ، واتخذ بعض العرب في الجاهلية صنما من عجوة التمر فعبدوه ثم جاعوا فأكلوه . والفرق بينه وبين التمثال ان هذا لا بد أن يكون مثالا لشيء – وأنه قد يكون للعبادة وحينئذ يسمى صنما وقد يكون للزينة كالذي تراه على جدران بعض القصور المشيدة أو ابوابها أو في حدائقها ، وقد يكون للتعظيم والتكريم غير الديني كالتماثيل التى تنصب لبعض الملوك وكبار علماء الدنيا أو القواد والزعماء للتذكير بتاريخهم واعمالهم للاقتداء بهم، ويكثر هذا في بلاد الافرنج وقلدهم بعض بلاد الشرق كمصر فنصبت حكومتها تماثيل لبعض امراء بيت الملك الحاضر وغيرهم من رجالهم . والفرق بين هذا التعظيم السياسي أو العلمي و بين تعظيم العبادة أن الغرض من الاول اما رفعة شأن الدولة وتمكين سلطانها في انفس الامة بمشاهدة صور ملوكها وكبراء رجالها وتماثيلهم وهو قصد سياسي صحيح عند اهله — واما بعث شعور حب العلم والاقتداء بالعلماء والادباء والزعماء الذين نفعوا امتهم عسى أن يوجد في المستعدين من يكون مثلهم أو خيراً منهم، وهو قصد اجتماعي صحيح عند علماء التربية. وأما تعظيم العبادة فالغرض منه التقرب من المعبود وطلب ثوابه بدفع ضرر أو جلب منفعة من طريق الغيب لا الكسب والتعاون عليه من طريق الاسباب العامة. فتعظيم الشيء الذي يعتقد أن له سلطة غيبية أو تعظيم مايذكر به من صورة أو تمثال أو قبر أو ثوب أو غير ذلك من آثاره لاجل التقرب فيه وقصد الانتفاع به في الامور التى لا تنال بالاسباب العامة — وهي مالا يطلب إلا من الله تعالى أو لاجل التقرب الى الله تعالى بجاهه — كل ذلك عبادة ظاهرة، فان قصد المعظم لذلك الشيء أو لما يذكر به الانتفاع به نفسه بما ذكر من التعظيم بالقول كالدعاء والاستغاثة أو بالفعل كالطواف بتمثاله أو قبره وتقبيله والتمرغ بارضه ـ كانت العبادة خالصة

له من دون الله، وان قصد التقرب به الى الله تعالى ليحمله بجاهه على اعطائه ما يريد كانت العبادة له ولله تعالى بالاشتراك، وهذا من مظاهر الشرك الجلي التي لا يخرجها تغيير التسمية عن كونها كفراً أو شركا

﴿ استطراد فقهي ﴾

حظر الشرع الاسلامي نصب التماثيل لانها إما شرك أو ذريعة له أو تشبه بأهله وهي على هذا الترتيب في التدلي فأغلظها أولها وأخفها ثالثها. وللتشبه درجات في الحظر أشدها ما كان في أمور الدين فانه قد يكون كفرا، وأهونها ما كان في العادات وأمور الدنيا فنجتنب منه ما لنا غنى عنه وما كان نافعا غير ضار بنفسه لا نأخذه بقصد التشبه فقط لانه لا يكون الا من تعظيم المتشبه لغير أهل ملته وهو يتضمن أو يستلزم احتقارها أو احتقارهم والشعور بأنهم دونهم. وأما اقتباس العلم والحكمة والفنون والصناعات النافعة لاجل منفعتها بقدرها فليس من التشبه ولا من تفضيل المقتبس منهم على أهل ملته لان هذه الامور ليست من أمور الدين ولا اقتبست لاجل التعظيم بل لفائدتها، وقد تكون هذه الفائدة مما تعتز به ملة المقتبس المستفيد وأهلها . ومن ذلك أخذ النبي (ص) عمل الخندق عن الفرس اذ أخبره سلمان (رض) عنهم بذلك وقد يكون هذا الاخذ واجبا شرعا ومنه أخذنا لفنون الحرب وصناعاتها وآلاتها عن الافرنج اذ أتقنوها قبلنا، فهو فرض كفاية بلا نزاع فالامة الحية تقتبس كل شيء نافع يغذي حياتها ويزيدها قوة وعزة ، وتتقي في ذلك كل ما فيه ضعف لها في مقوماتها أو مشخصاتها ولا سيما اذا كان فيه تفضيل لخصومها أو غيرهم عليها ، وقد فطن اليابان لهذه القاعدة فحافظوا على شؤونهم الملية والقومية عند اقتباسهم لعلوم الفرنجة وفنونها فصاروا مثلهم في ثلث قرن . وغفل عنه الترك والمصريون فأضاعوا من ملكهم .

وليس في نصب التماثيل فائدة ومنفعة ذات بال لا تحصل بغيرها تبيح للمسلمين تقليد الوثنيين والنصارى فيها ولو في جعلها لغير رجال الدين بمداعن شبهة عبادتها ، ومن ذا الذي يأمن هذا وقد عبدت قبور الاولياء وأئمة آل البيت كما عبد غلاة الشيعة من الباطنية أشخاصا منهم احياء وامواتا، ونرى الشيعة المعتدلين الذين استباحوا نصب التماثيل غير الدينيه قد اتخذ بعضهم في هذه الايام تمثالا لامير المؤمنين علي كرم الله وجهه في بلاد إيران كما نقلت صحف الاخبار عنهم. وأما الصور فلها فوائد في الحرب وحفظ الامن وتحقيق معاني اللغة وكثير من العلوم ولا سيما

الطب والتشريح ... . فلا يحظر منها ما ليس عبادة ولا تشبها بعبدة الاصنام
بدليل ماثبت في السنة الصحيحة من أمر النبي (ص) بهتك القرام (الستار . الذي
نصبته (عائشة) في حجرتها اذ كان على هيئة الصور والتماثيل المعبودة فلما
جعلت منه وسادة كان صلى الله عليه وسلم يستعملها وفيها الصور اذ كان الاتكاء
والنوم عليها امتهانا لا تعظيما ولا يشبه التعظيم الوثني وقد حققنا هذا البحث
ببيان ماورد فيه من الاحاديث والآثار وأقوال العلماء في فتاوي المنار مراراً

عود الى تفسير الآية

معنى النظم الكريم : « وجاوزنا ببني اسرائيل البحر » انهم تجاوزوه
بعنايته سبحانه وتأييده اياهم بفلق البحر، وتيسير الامر ، حتى كانه كان معهم
بذاته فجاوزه مصاحبا لهم، أو المعنى اننا أيدناهم ببعض ملائكتنا، فجاوز بهم البحر
بأمرنا ، فمن المعهود في اللغة أن ينسب الى الملوك ورؤساء القواد ماينفذه
بعض اتباعهم بامرهم ، وما يقع بجاههم وقوة سلطانهم، ويجوز الجمع بين المعنيين.
ففرق البحر بهم كان بعناية الله وقدرته. وفي آخر الفصل الثالث عشر من سفر
الخروج ذكر خبر ارتحال بنى اسرائيل وقال « ٢٠ وكان الرب يسير امامهم
نهارا في عمود من غمام ليهديهم الطريق وليلا في عمود من نار ليضيء لهم ليسيروا
نهارا وليلا (٢١) لم يبرح عمود الغمام نهارا وعمود النار ليلا من أمام الشعب»
ثم جاء في الفصل الرابع عشر منه بعد ذكر إتباع فرعون ومن معه بنى اسرائيل
« ١٩ فانتقل ملاك الله السائر امام عسكر بنى اسرائيل فصار وراءهم وانتقل
عمود الغمام من امامهم فوقف وراءهم (٢٠) ودخل بين عسكر المصريين
وعسكر اسرائيل ، فكان من هنا غماما مظلما ، وكان من هناك ينير الليل ،
فلم يقترب أحد من الفريقين طول الليل »

وهذا بعض ماجاء في التوراة مما يصح أن يكون تفسيرا لقوله تعالى في القرآن
«وجاوزنا ببني اسرائيل البحر» فالباء هنا للمصاحبة كقولك سافرت به وجئت
به ، واسناد المسير في عمود الغمام الى الرب مجازي كقوله تعالى(هل ينظرون
إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) « فأتوا » عقب تجاوزهم إياه
ودخولهم فى بلاد العرب من البر الاسيوي « على قوم يعكفون على أصنام
لهم» يعبدونها ، فماذا كان من شأنهم اذا رأوهم يعبدون غير الله تعالى كالمصريين
الذين انقذهم الله تعالى منهم ، وأراهم آياته على وحدانيته فيهم ؟ هل استهجنوا

شركهم وانكروه كما هو الواجب عليهم والمعقول ممن رأى ما رأوا من سوء مصير المشركين، وحسن عاقبة الموحدين؟ الجواب انهم لم ينكروه بألسنتهم ولا قلوبهم، بل «قالوا يا موسى اجعل لهم إلها كما لهم آلهة» حنينا منهم الى ما ألفوا في مصر من عبادة آلهة المصريين وتماثيلها وانصابها وقبورها، فعلم بهذا الطلب انهم لم يكونوا فهموا التوحيد الذي جاء به موسى كما فهمه من آمن من سحرة المصريين، لان السحرة كانوا من العلماء فامكنهم التمييز بين آيات الله تعالى التي لا يقدر عليها غيره وبين السحر الذي هو من صناعات البشر وعلومهم، وأما هؤلاء الاسرائيليون فكانوا من العامة الجاهلين الذين بلد الذل افهامهم، وانما تبعوا موسى لانقاذه اياهم من ظلم فرعون وتعبيده لهم، لا لفهمهم حقيقة التوحيد بالآيات الدالة عليه ولذلك قيل انهم بعض القوم لا جميعهم، فالتوحيد المحض الخالص من شوائب الشرك والوثنية هو غاية ما يرتقي اليه عرفان البشر، وهو المراد من قوله تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) على القول بأن اللام للغاية، وهو لا يقتضي حصوله لكل فرد منهم، ولو عقل جميع بني اسرائيل كنه التوحيد لما وقع من تبرمهم بالتكاليف وتمردهم على موسى عليه السلام ما قصه الله تعالى علينا في كتابه، وفي التوراة التي لديهم من الزيادة عليه والتفصيل له ما هو من مواطن العجب، وقد ابتلاهم الله تعالى وربام بالحسنات والسيئات، وحرم الارض المقدسة عليهم اربعين سنة يتيهون في الارض، حتى انقرض ذلك الجيل الذي نشأ في حجر الوثنية، وشب أو اكتهل اوشاخ في ذل العبودية الفرعونية. وقد رأينا نموذجا لذلك في طوائف من امتنا ولدوا في مهد الظلم، وشبوا في حجر النفاق والفسق، فسنحت لاعلمهم بشؤون الاجتماع والعمران فرص متعددة كان يرجى أن يحرروا فيها أنفسهم من رقها السياسي ويستقلوا بأمرهم، فأضاعوها واحدة بعد اخرى، وكان هذا من عبر التاريخ التي تثبت أن فلاح الامم باخلاقها وعقائدها، وأن العلم الناقص شر من الجهل المطلق، وان العلم الصحيح في الرجل أو الشعب الفاسد الاخلاق كالسيف في يد المجنون ربما جنى به على صديقه أو على نفسه وربما نصر به عدوه

ولم يبين لنا كتاب الله تعالى ولا رسوله (ص) شيئا من امر القوم الذين أتى عليهم بنو اسرائيل عقب خروجهم من مصر الى ارض العرب والظاهر انهم من العرب الذين كانوا يقيمون بقرب حدود مصر: روي عن قتادة انهم من عرب لخم وعن أبي عمران الجوني لخم وجذام. وعن ابن جريج أن اصنامهم كانت

تماثيل بقر من نحاس ، فلما كان عجل السامري شبه لهم أنه من تلك البقر فذلك كان أول شأن العجل لتكون لله عليهم حجة فيذ قم منهم بعد ذلك (قول) ولم يكن ابن جريج يعلم أن قدماء المصريين كانوا يعبدون عجلا اسمه (أبيس) وكان بنو اسرائيل يعبدونه معهم كغيره من معبوداتهم، ويرون تماثيله منصوبة في معابدهم ، وان السامري لم يصنع لهم العجل بعد ذلك الا لما كان من إلفهم لعبادته ، وتأثر اعصابهم بما ورثوا من مظاهر روعته ، ولذلك قال تعالى فيهم (واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم) والمراد عجل السامري وقد علل اشرابهم اياه في قلوبهم بما كان من كفرهم السابق أي بالوراثة المتغلغلة في النفس بطول الزمان وتعاقب الاجيال ، فذلك الذي يطول تأثيره في الاعقاب والانسال ؛

ألم تر الى ما استحدثه بعض المبتدعة في الاسلام وقلدهم فيه بعض الملوك من المنسوبين الى السنة: من تشييد القبور، وتزيينها بالعمائم والستور، وبناء القباب فوقها، واتخاذها مساجد يصلى اليها أولديها ، وايقاد السرج والشموع عليها، انه قد جعل لها مكانة دينية كبيرة في قلوب عامة المسلمين حتى صارت عندهم من شعائر الدين، بحيث يعدون من روى لهم الاحاديث الصحيحة في لعن الله ورسوله لمن يفعل ذلك مبتدعا فيه أو مارقا منه، ويلبزونه في بعض البلاد بلقب «وهابي» اذ كانت طائفة من الحنابلة في بلاد العرب سميت الوهابية قد عمدوا الى ازالة هذه المنكرات بأيديهم ، لما لم يؤثر في ازالتها انكار علماء السنة المصلحين لها بألسنتهم وأقلامهم، عملا بقوله (ص) «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك اضعف الايمان» يعني الانكار بالقلب وحده ، ولو مع العجز عما فوقه . والحديث رواه احمد ومسلم واصحاب السنن الاربعة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

اذا علمنا هذا الشأن من شؤون الضعف البشري فلا نعجب أن روي عن بعض حديثي العهد من الصحابة بالاسلام، مثل ما طلب بنو اسرائيل من موسى عليه السلام، بما كان من تأثير مظاهر الوثنية في قلوبهم: روى احمد والنسائي واكثر مصنفي التفسير المأثور عن أبي واقد الليثي قال خرجنا مع رسول الله (ص) قبل حنين فمررنا بسدرة فقلت يارسول الله اجعل لنا هذه ذات انواط كما للكفار ذات انواط، فقال «الله اكبر، هذا كما قالت بنو اسرائيل لموسى (اجعل لنا الها كما لهم آلهة) انكم تركبون سنن من قبلكم» وروى نحوه ابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني

عن كثير بن عبدالله بن عوف عن أبيه عن جده مرفوعا وذكر أن المكان الذي طلبوا فيه ذلك بين حنين والطائف . والعبرة في هذا أن للمسلمين الآن ذوات انواط في بلاد كثيرة كشجرة « ست المنضورة » وشجرة الحنفي بمصر ، ونحو من ذلك ما اتخذوه من القبور والاشجار والاحجار والآثار يعكفون عليها ، ويطوفون حولها، ويقبلونها ويتمرغون باعتابها، ويتمسحون بها خاضعين ضارعين، خاشعين داعين، راجين شفاء الادواء ، والانتقام من الاعداء ، والغنى والثراء، وحبل العقيم ، ورد الضالة ، وغير ذلك من النفع وكشف الضر ، خلافا لنصوص كتاب الله عز وجل . ولكنهم لا يعلمون أنها تسمى في اللغة العربية آلهة وأن جلّ ما يأتونه عندها يسمى عبادة، وأنه شرك جلي لا يغفر، ولا فرق بينه وبين شرك عرب الجاهلية وأمثالهم الا الاختلاف في التسمية ، فأولئك كانوا يسمون الاشياء باسمائها لانهم أهل اللغة ، وهؤلاء تحاموا اطلاق لفظ الاله والمعبود والعبادة في هذا المقام ، واستباحوا غيرها من الالفاظ كالاولياء والشفعاء والوسيلة والتوسل وهي مشتركة أيضا ولكنها استعملت في الاسلام بغير المعاني التى كانت تستعمل بها في الجاهلية، كأن الله تعبد الناس باطلاق الالفاظ دون حقائق المعاني . وحقيقة معنى العبادة في اللغة العربية وكذا في غيرها من اللغات يشمل كل قول أو عمل يوجه الى معظم يرجى نفعه أو يخشى ضره وحده — وهذا توحيده له — أو يرجى ويخاف بالتأثير عندالله تعالى — وهذا هو الشرك — بشرط أن يكون هذا الرجاء فيه أو الخوف منه لامر غيبي خارج عن الامور الكسبية والاسباب الدنيوية، وقد سبق شرح هذا آنفا وقبله مرارا، ويظن أهل العلم بكتب الفقه والكلام الذين لم يطلعوا على ملل الوثنيين أنهم يعبدون الاصنام وغيرها من المخلوقات التى يتبركون بها لذاتها وأنهم يعتقدون انها تضر وتنفع بقدرتها وارادتها، والصحيح أنهم يتوسلون بها الى الخالق كما حكى الله تعالى عن مشركي قريش وغيرهم، وقد سمعت هذا من بعض علمائهم في الهند .

ماذا كان جواب موسى عليه السلام ﴿ قال إنكم قوم تجهلون ﴾ وصفهم بالجهل المطلق غير متعلق بشيء وهو على طريقتنا وطريقة ابن جرير والخصاف يشمل كل مايصلح له من الجهل الذي هو فقد العلم والجهل الذي هو سفه النفس وطيش العقل ، واهمه المناسب لمقام جهل التوحيد وما يجب من افراد الرب

تعالى بالعبادة من غير واسطة ، ولا التقيد بمظهر من المظاهر يتوجه اليه معه ، ولا سيما مظهر الاصنام والتماثيل لبعض المخلوقات التى اغتر الجاهلون من قبل بنفعها أو الخوف من ضررها ، فالاول كالكواكب والنيل والعجل (أبيس) والثاني كالثعبان - ثم جهل ما كرم الله تعالى به البشر فجعلهم أهلا لمعرفته ودعائه ومناجاته كفاحا بغير واسطة يقربهم اليه فانه اقرب اليهم من حبل الوريد، وهو الاحد الصمد الذي يتوجه اليه ويقصد وحده ولذلك قال اماما الموحدين، ابراهيم ومحمد عليهما الصلاة والتسليم (اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما انا من المشركين)

وهذا النوع من الجهل هو الذي قال الله تعالى فيه (ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه) واسناد الجهل الى القوم ابلغ من اسناده الى ضمير المخاطبين لانه حكم على جماعتهم، بما هو كالمتحقق المعروف من حالهم، الذي هو علة لمقالهم، يدخل فيه الذين سألوه ذلك منهم دخولا اوليا

وبعد أن ذكرهم بسوء حالهم من جهلهم وسفاهة انفسهم بين لهم فساد ماطلبوه في نفسه عسى أن تستمد عقولهم لفهمه واستبانة قبحه فقال باسلوب الاستئناف المفيد للتعليل والدليل ﴿ إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ماكانوا يعملون ﴾ التبار والتبر الهلاك والتتبير الاهلاك والتدمير يقال تبر الشيء من بابي تعب ونصر وتبره - بالتشديد : اهلكه ودمره . أي ان هؤلاء القوم الذين يعكفون على هذه الاصنام مقضي على ما هم فيه بالتبار ، بما سيظهر من التوحيد الحق في هذه الديار ، وباطل ماكانوا يعملون من الاصنام، وعبادة غير الله ذي الجلال والاكرام ، أي هالك وزائل لابقاء له ، فانما بقاء الباطل في ترك الحق له أو بعده عنه ، وهذا يتضمن البشارة منه عليه السلام بزوال الوثنية من تلك الارض وكذلك كان

قال البغوي في تفسيره ان طلب بنى اسرائيل للآلهة لم يكن عن شك منهم بوحدانية الله تعالى وانما كان غرضهم إلها يعظمونه ويتقربون بتعظيمه الى الله تعالى وظنوا أن ذلك لايضر بالديانة وكان ذلك جهلهم كما آذنت به الآيات

وقال الرازي : اعلم أن من المستحيل أن يقول العاقل لموسى (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) وخالقاً مدبرا، لان الذي يحصل بجعل موسى وتدبيره لايمكن أن يكون خالقا للعالم ومدبرا له ، ومن شك في ذلك لم يكن كامل العقل ،

والاقرب انهم طلبوا من موسى أن يعين لهم اصناما وتماثيل يتقربون بعبادتها الى الله تعالى ، وهذا القول هو الذي حكاه الله تعالى عن عبدة الاوثان حيث قالوا (مانعبدهم الاليقربونا الى الله زلفى) اذا عرفت هذا فلقائل أن يقول: لم كان هذا القول كفرا ؟ فنقول اجمع كل الانبياء عليهم السلام على أن عبادة غير الله تعالى كفر سواء اعتقد في ذلك الغير كونه الها للعالم أو اعتقدوا فيه ان عبادته تقربهم الى الله تعالى - لان العبادة نهاية التعظيم ، ونهاية التعظيم لاتليق الا بمن يصدر عنه نهاية الانعام والاكرام .

ثم قال بعد أن جزم بأن هذا القول صدر عن بعضهم لا كلهم وانه كان فيهم من يترفع عنه مانصه : ثم إنه تعالى حكى عن موسى عليه السلام انه أجابهم فقال : (انكم قوم تجهلون وتقرير هذا الجهل ماذكر من أن العبادة هي غاية التعظيم فلا تليق إلا بمن يصدر عنه غاية الانعام وهي بخلق الجسم والحياة والشهوة والقدرة والعقل وخلق الاشياء المنتفع بها ، والقادر على هذه الاشياء ليس الاالله تعالى فوجب أن لاتليق العبادة الا به ، (فان قالوا) اذا كان مرادهم بعبادة تلك الاصنام التقرب بها الى تعظيم الله تعالى فما الوجه في قبح هذه العبادة ؟ (قلنا) فعلى هذا الوجه لم يتخذوها آلهة أصلا وانما جعلوها كالقبلة ، وذلك ينافي قولهم (اجعل لنا الها كما لهم آلهة) اه

أقول من العجب أن يقع امام النظار في علم العقائد على طريقة الفلسفة والكلام في مثل هذا الخطإ في اسئلته واجوبته والتناقض في كلامه ، ومنشأ هذا الخطأ الغفلة عن مدلول ألفاظ القرآن في اللغة العربية واستعمالها بلوازم معناها العرفية كلفظ «الاله» فان معناه في اللغة المعبود مطلقا لا الخالق ولا المدبر لامر العالم كله ولا بعضه ، ولم يكن أحد من العرب الذين سموا أصنامهم وغيرها من معبوداتهم آلهة يعتقد أن اللات أو العزى أو هبلا خلق شيئا من العالم أو يدبر امرا من اموره ، وانما تدبير امور العالم يدخل في معنى لفظ الرب . والشواهد على هذا في القرآن كثيرة ناطقة بأنهم كانوا يعتقدون ويقولون ان خالق السموات والارض ومدبر أمورها هو الله تعالى وإن آلهتهم ليس لها من امر الخلق والتدبير شيء ، وإن شركهم لاجل التقرب اليه تعالى وابتغاء الشفاعة عنده بعبادة ماعبدوه ، ولذلك كانوا يقولون في طوافهم : لبيك لا شريك لك ،

الاشريكا هو لك، تملكه وما ملك ولذلك يحتج القرآن عليهم في مواضع بأن غير الخالق المدبر لا يصح أن يكون الها يعبد مطلقا، وهو معنى قول بعض المحققين انه يحتج بما يعترفون به من توحيد الربوبية ، على ما ينكرون من توحيد الالهية ، واذ كنا بينا هذا مرارا بالشواهد نكتفي بهذا التذكير هنا

ثم ان عبارة طلاب الاصنام من بني اسرائيل لم تنقل الينا بنصها في لغتهم فنبحث فيها أخطأ ام صواب وانما حكاها الله تعالى لنا بلغة كتابه فمعناها صحيح قطعا فان الاله في هذه اللغة هو المعبود بالذات او بالواسطة وان كان مصنوعا وإنما جهلهم موسى بطلب عبادة احد مع الله لا بتسمية ماطلبوا منه صنعه إلها فانه هو سمى المعبود المصنوع إلها ايضا في قوله للسامري الذي حكاه الله عنه في سورة طه (وانظر الى الهك التى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه) الآية وانما كان عجل السامري من صنعه ـ وان جميع من عبدوا الاصنام من قبلهم ومن بعدهم كانت اصنامهم مجعولة مصنوعة متخذة من هذه المخلوقات كالحجر والخشب والمعدن.
أنسي امام النظار وصاحب التفسير الكبير ماحكاه الله تعالى من تسمية قوم ابراهيم لاصنامهم بالآلهة ؟ أم نسي ماحكاه الله من حجته عليهم بقوله (قال أتعبدون ماتنحتون ، والله خلقكم وما تعملون ؟) ومن محاجته إياهم بقوله (واتل عليهم نبأ ابراهيم ، اذ قال لابيه وقومه ماتعبدون ؟ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم اذ تدعون ؟ أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * (سورة الشعراء ٢٦ :٦٩ ـ ٧٤)
وجملة القول أن هذا القول الذي قاله الرازي من اظهر هفواته الكثيرة بطلانا وسببه امتلاء دماغه عفا الله عنه بنظريات الكلام وجدل الاصطلاحات الحادثة وغفلته عن معنى الاله في أصل اللغة وعن آيات القرآن الكثيرة فيه، ومنها قوله تعالى

﴿ قال أغير الله ابغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين ﴾ أي قال لهم موسى أأطلب لكم معبوداً غير الله رب العالمين وخالق السموات والارض وكل شيء والحال انه فضلكم على العالمين، بما جدد فيكم من التوحيد وهداية الدين ، على ملة ابراهيم وسنة المرسلين ، ؟ فاذا تبغون من عبادة غيره معه أو من دونه ؟ والاستفهام في الآية للانكار المشرب معنى التعجب ، وانما هو انكار ابتغاء اله غير الله المستحق وحده للعبادة لا انكار تسمية المعبود المصنوع الها . وأبغي ينصب مفعولين بنفسه كقوله تعالى (يبغونكم الفتنة)

بدأ موسى عليه السلام جوابه لقومه باثبات جهلهم بربهم وبأنفسهم، وثنى ببيان فساد ماطلبوه وكونه عرضة للتبار والزوال ، وباطلا في نفسه على كل حال ، فلا الطالب على علم وعقل فيما طلب ، ولا المطلوب مما يصح أن يطلب ، (ضعف الطالب والمطلوب) فهذا ملخص معنى الآية السابقة

ثم انتقل في هذه الآية الى المطلوب منه جعل الاله لهم — وهو هو عليه السلام — والمطلوب لاجله هذا الجعل — وهو الله تعالى — وموسى على الحق والله تعالى هو الحق والذي يحق الحق ، وبين هذين الحقين وذينك الباطلين غاية المباينة ولذلك كان هذا جوابا مستقلا مباينا لما قبله بحيث لا ينبغي أن يعطف عليه عطفا ، ولا أن يعد معه عدا ، ولهذا أعاد فيه كلمة « قال » كما سنبينه. وقدقدم فيه ذكر الاهم الافضل المقصود بالذات من هذين الحقين فقال (أغير الله) وغير الله أعم الالفاظ الدالة على المحدثات فهو يشمل اخس المخلوقات واحقرها عن النفع والضر كالاصنام، ويشمل أفضلها وأكملها كالملائكة والنبيين عليهم السلام . ليثبت أنه لا يوجد مخلوق يستحق العبادة مع الله تعالى وان علا قدره ، وعظم أمره ، وان تجهيلهم بما طلبوا لا لان المطلوب كالاصنام خسيس وباطل في نفسه . وعرضة للتبار فلا فائدة فيه لغيره، — لا لهذا فقط — بل لان العبادة لا يصح أن تكون لغير الله تعالى البتة ، مهما يكن غيره مكرما عنده ، ومفضلا على كثير من خلقه ، على أن طلب عبادة الاخس، دليل على منتهى الخسة والجهل ، اذ لا شبهة توهم قدرته على الاثابة أو التقريب من الله عز وجل ، كشبهة من عبدوا الملائكة وبعض النبيين والصالحين، زاعمين انهم لكرامتهم عند الله يقربون اليه من قصر به إيمانه وعمله ان يتقرب اليه بنفسه ، مع إصراره على خبثه ورجسه ، جاهلين ان الله تعالى امر المشركين والفاسقين ، ان يتوبوا اي يرجعوا اليه لا الى غيره من عباده المكرمين ، وان يدعوه وحده كدعائهم مخلصين له الدين ،وان يخصوه مثلهم بالعبادة والاستعانة وذلك ما فرضه علينا في صلاتنا بقوله (إياك نعبد واياك نستعين)

وبعد ان قدم المقصود بالذات من الانكار وهو جعل غير الله الها ذكر من أرادوا ان يكون الواسطة في هذا الجعل ، الذي دعا اليه ذلك الجهل ، وهو نفسه عليه السلام بقوله (أبغيكم إلها) ليعلمهم أن طلب هذا الامر الإمر

والشيء الإد والمنكر الفظيع منه عليه السلام جهل بقيمته، وبمعنى رسالته، وبما رأوه من جهاده لفرعون وقومه، من غير حول ولا قوة له في شخص اخيه ولا في شخصه، بل بالاتكال على حول الله وقوته، ولولا ارادة انكار الامرين معا: طلب آله مع الله، وكونه بجهله عليه السلام — لقال: أغير الله تبغون الها. كقوله تعالى (أفغير دين الله يبغون)

ثم ايد هذا الانكار بما يعرفون من آيات الله تعالى فيهم، وهو تفضيلهم على اهل زمانهم، فقد كان ارقى الناس في ذلك العصر فرعون وقومه بما اوتوا من العلم والقوة والحضارة وسعة الملك ومن السيادة على بعض الشعوب، وقد فضل الله بني اسرائيل عليهم، برسالة موسى وهارون منهم، وتجديد ملة ابراهيم فيهم، وايتائهما من الآيات ما تقدم بيانه وأثره في السياق الذي قبل هذا، وقيل ان المراد تفضيلهم على العالمين مطلقا بكثرة الانبياء والمرسلين منهم، والاول أظهر، لانه عليه السلام احتج عليهم بما عرفوا فيه، ما أن يراد به تفضيلهم على القرون الاولى واقوام رسلهم وعلى من سيأتي بعدهم، وحال كل منهما مجهول عنده وعندهم، فقد سأل فرعون موسى عن القرون الاولى فقال (علمها عند ربي) والقرون الآخرة بذلك أولى. وانت اذا قلت لغني أو عالم انك اغنى أو أعلم الناس، أو لملك انك أقوى الملوك، أو في شعب انه ارقى الشعوب — فان أحداً لا يفهم من مثل هذا تفضيل من ذكر على غير أهل زمانهم، ولا سيما من يأتي بعدهم، وأهل الحضارة في زماننا يعتقدون أن الاجيال الآتية سيكونون خيراً من هذا الجيل، وكان موسى يعلم أن هداية الدين ستترقى الى أن تكمل برسالة خاتم النبيين، ولكنه اوتي هذا العلم بما اوحاه الله اليه في التوراة ولم يكن نزل منها شيء عند طلب بني اسرائيل منه ما ذكر

والدليل على أن المراد بتفضيلهم على العالمين ما ذكرنا انه عطف عليه أعظم مظاهره الحديثة العهد بقوله ﴿ واذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ قرأ ابن عامر (واذ نجاكم) على أنه من مقول موسى عليه السلام قطعا والباقون (أنجيناكم) وذكروا فيه احتمالين (احدهما) وهو الاظهر والمتبادر أن يكون مسنداً الى الله تعالى متمما لكلام موسى ومبينا للمراد منه على طريقة الالتفات عن الحكاية عنه، ولهذا الالتفات نظائر في التنزيل وفي كلام بلغاء العرب، ومنه قوله تعالى في قصة موسى من سورة طه (الذي جعل لكم الارض مهداً وسلك

لكم فيها سبلا وانزل من السماء ماء فاخرجنا به ازواجا من نبات شتى) الخ فأول الآية من قول موسى في جواب فرعون وقوله «فاخرجنا» التفات عن الحكاية وانتقال الى كلامه تعالى عن نفسه، خاطب به من انزل اليهم هذا الوحي من خلقه، تنبيها لهم بتلوين الكلام، وبما في مخاطبة الرب لهم كفاحا من التأثير الخاص، الى كونه هو المسدي لهذا الانعام. واقتصر بعض المفسرين على أن المخاطب بهذه القراءة من كان من بني اسرائيل في زمن النبي (ص) وأفادت قراءة ابن عامر أن موسى قالها لقومه في ذلك الوقت، وأفادت قراءة الآخرين أن محمداً (صلى الله عليهما وسلم) ذكر بها قوم موسى في زمنه كما تقدم في سورة البقرة وهذه فائدة الجمع بين القراءتين وهي من اعجاز إيجاز القرآن

(الثاني) أن قراءة الالتفات من جملة الحكاية عن موسى (ع . م) اسند الانجاء فيها الى الله تعالى مع حذف القول للعلم به من القرينة او بدونه أو الى نفسه وحده أو مع أخيه للاشارة الى جعله تعالى هذا الانجاء بسبب رسالتهما وتأييده تعالى لهما بتلك الآيات

والمعنى واذكروا اذ أنجاكم الله تعالى بفضله — او اذ انجيناكم بارساله تعالى إيانا لاجل ذلك وبما أيدنا به من الآيات — من آل فرعون حال كونهم يسومونكم سوء العذاب بجعلكم عبيدا مسخرين لخدمتهم كالبهائم فلا يعدونكم منهم، وخص بالذكر من هذا العذاب شر أنواعه بقوله : يقتلون مايولد لكم من الذكور — ويستبقون نساءكم بترك الاناث لكم لتزدادوا ضعفا بكثرتهن — وهذا بدل بعض من كل. وفي ذلكم العذاب والانجاء منه بفضل الرب الواحد عليكم وتفضيله اياكم على اولئك العالين في الارض وعلى غيرهم كسكان البلاد المقدسة التي سترثونها بلاء عظيم أي اختبار لكم من ربكم المنفرد بتربيتكم، وتدبير أموركم ليس وراءه بلاء واختبار، فان أجدر الناس بالاعتبار والاستفادة من احداث الزمان، من يعطى النعمة بعد النقمة، وأحق الناس بمعرفة وحدانية الله تعالى واخلاص العبادة له من يرى من آياته في نفسه وفي الآفاق مايوقن به انه لايمكن ان يكون لغيره شركة فيه أي فكيف تطلبون بعد هذا كله ممن رأيتم هذه الآيات على يده وليس لها فيها اقل تأثير ان يجعل لكم إلها من أخس المخلوقات تجعلونه واسطة بينكم وبين الله تعالى وهو قد فضلكم عليها وعلى عابديها، ومن هم ارقى منهم ؟

وقد غفل الشهاب الخفاجي عن كون تفضيلهم على العالمين لم يكن الا بدعوة

التوحيد المؤيدة بتلك الآيات ، فزعم أن الاحتجاج به خطابي ، لا برهان عقلي، واعتذر عن عدم احتجاج موسى ببرهان التمانع بأنهم من القوم ، وهو لا ينكر أن تلك المعجزات من البراهين القطعية ، وان اختلف المتكلمون في دلالتها هل هي عقلية أو وضعية ،. . وغفل أيضا عن كون برهان التمانع انما يحتج به على المشركين في الربوبية دون العبادة فقط . وقد تعقبه في هذا الالوسى فقال : وفي اقامة برهان التمانع على الوثنية القائلين (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى)والمجيبين اذا سئلوا من خلق السموات والارض؟ بخلقهن الله- خفاء، والظاهر اقامته على الثنوية كما لا يخفى اه ووجهه أن الثنوية يقولون بوجود ربين الهين اشتركا في خلق العالم وتدبير أمره أحدهما رب النور والخير، والثاني رب الظلمة والشر ، ويحتج عليهم بأنه لو كان في العالم خالقان مدبران أو اكثر لامتنع ان يوجد فيه نظام يصلح به امره اذا فرض جواز وجوده ، لان تعدد المدبرين لامر الشيء لتعدد الخالقين يقتضي تعدد العلم والارادة والقدرة التي يكون بها التدبير ، والخلق والتقدير ، وتعددها يقتضي التغاير والاختلاف فيها والا فلا تعدد ،وهذا الاختلاف يقتضي التعارض في متعلقاتها بأن يتعلق بعضها بغير ما تعلق به الآخر من ضد ونقيض ، وأي فساد في النظام وموجب للاختلال أشد من هذا؟ واعاقلنا اذا جاز وجوده لان الاشارة الى البرهان في قوله تعالى (لوكان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) قد بني على أن السموات والارض موجودتان والنظام فيهما مشاهد بالابصار والبصائر ، وكما يمتنع استقامة النظام وصلاح التدبير الصادر عن علوم وارادات وقدر مختلفة متعارضة، كذلك يمتنع صدور الكون نفسه عنها بالاولى

وفي الآية التى قبل الاخيرة من نكت البلاغة انه أعيد لفظ «قال» في أولها لما أشرنا اليه من ان هذا جواب مستقل لا يشترك مع ما قبله فيعطف عليه ، ولا هو معه من قبيل سرد الصفات أو الاعداد التي يطلب فيها الفصل، اي كقوله تعالى (التائبون العابدون السائحون الراكعون الساجدون) الخ وقولهم : الاول كذا - الثاني كذا الخ فلم يبق الا اعادة « قال» لامتناع الفصل والوصل كليهما بدونها ، وأن تكون « قال » مفصولة لا معطوفة لافادة هذا الاستقلال في الجواب ، اذ لا فرق بين عطف القول وعطف الجملة الاستفهامية بدونه في ان كلا منهما يقتضي الاشتراك بين المعطوف والمعطوف عليه كما

حققه عبد القاهر في دلائل الاعجاز

ولما كان كل من له ذوق في أساليب هذه اللغة يشعر بأن البدء بهذا الاستفهام هنا بدون «قال» غير مستعذب ولا مستساغ وان لم يعرف سبب هذا ونكتته - بحث طلاب نكت البلاغة في التفسير عن نكتة هذه الاعادة فامح بعضهم ماقررناه ولم يتبينه واضحا ليبينه : قال الالوسي: قيل هذا هو الجواب وما قبله تمهيد له ولعله لذلك اعيد لفظ قال اه فنقل هذه النكتة بصيغة التمريض « قيل » اذ كانت اخفى عنده منها عند صاحبها الذي قال : ولعله . . . فلم يجزم - ثم نقل عن أبي السعود قوله في هذا الجوب : هو شروع في بيان شؤون الله تعالى الموجبة لتخصيص العبادة به سبحانه بعد بيان أن ما طلبوا عبادته مما لا يمكن طلبه اصلا، لكونه هالكا باطلا اصلا ، ولذلك وسط بينهما «قال» مع كون كل منهما كلام موسى عليه السلام اه :ثم نقل تعليلا آخر للشهاب وهو: اعيد لفظ قال مع اتحاد مابين القائلين (؟) لان هذا دليل خطابي بتفضليهم على العالمين ولم يستدل بالتمانع العقلي لانهم عوام انتهى

وأقول إن العبارة الاولى أصح وأسلم من هذين القولين المعترضين على أنهما مبنيان على لمح مالمح صاحبها اذ لو سلم للاول أن الآية في بيان شؤون الله الخ وللثاني انها دليل خطابي لا برهاني لما كان هذا ولاذاك مقتضيا لاعادة فعل القول لذاته وانما العبرة بموقعه وامتناع كل من فصله بدون القول ووصله بالعطف على ما قبله كما علم مما بيناه والحمد لملهم الصواب، وقد بينا بطلان قول الشهاب آنفا ، وضعف قول أبي السعود لايحتاج الى بيان

(١٤١) وَوٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً . وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ . قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي. فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا، فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ

الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَلَتِي
وَبِكَلَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي
الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ، فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ
وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَسِقِينَ

هذه الآيات نزلت في بيان بدء وحي الشريعة لموسى عليه السلام وقد بدء الوحي المطلق اليه في جانب الطور الأيمن من سيناء منصرفه من مدين الى مصر ، وانما المذكور هنا بدء وحي كتاب التوراة بعد أن أنجى الله قومه بني اسرائيل من العبودية وجعلهم أمة حرة مستقلة قادرة على القيام بما يشرعه الله لها من العبادات وأحكام المعاملات ، والامة المستعبدة للاجنبي لا تقدر على ذلك ، ألم تر أن جميع أحكام المعاملات الدنيوية من شريعتنا المطهرة واكثر أحكام العبادات لم تشرع الا بعد الهجرة ؟ وأن الصلاة التي هي عبادة بدنية لما شرعت في مكة كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي هو ومن آمن به في البيوت سراً اتقاء أذى المشركين الذين كانوا يمنعونهم من الصلاة في المسجد الحرام وقد صلى فيه النبي (ص) مرة فجاء المشركون بسلا جزور — أي كرش بعير بفرثه — فوضعوه عليه وهو ساجد فلم يستطع رفع رأسه حتى جاءت ابنته السيدة فاطمة عليها السلام وألقته عن ظهره؟ وهمّ ابوجهل مرة ان يجلس عليه وهو ساجد فكفه الله عنه؟

قال تعالى ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ﴾ هذا السياق معطوف على السياق الذي قبله المبدوء بقوله تعالى (وجاوزنا ببني اسرائيل البحر) الآيات . قرأ ابو عمرو ويعقوب (وعدنا) من الوعد والباقون (واعدنا) من المواعدة فقيل إنها هنا بمعنى الوعد وقيل إن فيها معنى صيغة المفاعلة باعتبار أن الله تعالى ضرب لموسى عليه السلام موعداً لمكالمته وإعطائه الالواح المشتملة على أصول الشريعة فقبل ذلك ثم صعد جبل سيناء في أول الموعد وهبط في آخره ، وفرق بين الاتفاق على الشيء بين اثنين أو أكثر كالتلاقي في مكان معين أو زمان معين وبين الوعد به من واحد

لآخر لا يطلب منه شيء لاجل الوفاء بقولك لآخر سأدعو الله لك في البيت الحرام مثلا ـ فهذا وعد محض وذاك يحتمل الامرين باعتبارين لعبارة الآية . والميقات أخص من الوقت فهو الوقت الذي قرر فيه عمل من الاعمال كمواقيت الحج . وفي سورة البقرة (واذ واعدنا موسى أربعين ليلة) وهو إجمال لما فصل هنا من قبل لان الاعراف مكية والبقره مدنية فهي متأخرة عنها في النزول والمراد بالليلة مايشمل الليل والنهار في عرف العرب عند الاطلاق

روى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في تفسير الآية أن موسى قال لقومه : ان ربي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه وأخلف هارون فيكم ، فلما وصل موسى الى ربه زاده الله عشرا فكانت فتنتهم في العشر التي زاده الله ـ وذكر قصة عجل السامري — وروى الثاني عن أبي العالية في قوله (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر) يعني ذا القعدة وعشرا من ذي الحجة فكث على الطور أربعين ليلة وأنزل عليه التوراة في الالواح فقربه الرب نجيا وكلمه وسمع صريف القلم ، وبلغنا أنه لم يحدث في الاربعين ليلة حتى هبط من الطور ، وفي معنى هذا روايات أخرى صريحة في أن هذا الزمن ضرب لمناجاة موسى ربه في الجبل منقطعاً فيه عن بني اسرائيل ، وهو الحق الموافق لما ورد في هذه السورة وغيرها من قصة السامري وعبادة العجل في غيبة موسى ومنه قولهم لهارون[1] (لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى) وأخرج الديلمي عن ابن عباس رفعه « لما أتى موسى ربه وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين يوما وقد صام ليلهن ونهارهن فكره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم فتناول من نبات الارض فمضغه فقال له ربه : لم أفطرت ؟ وهو أعلم بما كان قال : أي رب ، كرهت أن أكلمك الا وفمي طيب الريح ، قال : أو ما علمت ياموسى ان فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك؟ اذهب فصم عشرة أيام ثم ائتني . ففعل موسى الذي أمره ربه » وهذا الحديث ضعيف السند ومتنه معارض بما أشرنا اليه من آيات قصة السامري ومن الروايات التي بمعناها .

ويستدل الصوفية بهذه الرواية على أيام خلوتهم التي يصومون ايامها

«١» استحسن علماء الرسم ان يكتب هارون بدون ألف واستحسنا نحن وكثير من الكتاب كتابته بالالف على الاصل كالحارث لان أكثر الناس لايتعلمون الرسم او لا يلقنون مثل هذا الاصطلاح فيخطئون فيهما

الاربعين لا يفطرون الا على حبات من الزبيب لما ورد في الاحاديث الصحيحة من النهي عن الوصال في الصيام ، والاولى أن يستأنس بالروايات الصحيحة للتفرغ لذكر الله ومناجاته بالصلاة أربعين يوما وليلة فيجعل مقصدا لا وسيلة

وهذا ما ورد في التوراة الحاضرة في المسألة من سفر الخروج (٢٤ : ١٢ وقال الرب لموسى اصعد الي الى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم ١٣ فقام موسى ويشوع خادمه وصعد موسى الى جبل الله ١٤ واما الشيوخ فقال لهم : اجلسوا ههنا ، وهوذا هارون وحور معكم ، فمن كان صاحب دعوى فليتقدم اليهما ١٥ فصعد موسى الى الجبل فغطى السحاب الجبل ١٦ وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام وفي اليوم السابع دعي موسى من وسط السحاب ١٧ وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بني اسرائيل ؛ ودخل موسى في وسط السحاب وصعد الى الجبل ، وكان موسى في الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة) اه

وفي الفصل الرابع والثلاثين منه ما نصه أيضا (٣٤ : ٢٧ وقال الرب لموسى اكتب لنفسك هذه الكلمات قطعت عهدا معك ومع اسرائيل ٢٨ وكان هناك عند الرب أربعين نهارا وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء ، فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر) اه

﴿ وقال موسى لاخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ يعني أن موسى لما أراد الذهاب لميقات ربه استخلف عليهم أخاه الكبير هارون عليهما السلام للحكم بينهم والاصلاح فيهم ، اذ كانت الرياسة فيهم لموسى وكان هارون وزيره ونصيره ومساعده كما سأل ربه بقوله (واجعل لي وزيرا من أهلي: هارون أخي، اشدد به أزري، وأشركه في أمري) وأوصاه بالاصلاح فيهم وفيما بينهم ونهاه عن اتباع سبيل المفسدين في الارض. والافساد أنواع بعضها جلي وبعضها خفي ومن كل منهما وسيلة ومقصد ، فمنها الحرام البين ومنها الذرائع المشتبهات التي يختلف فيها الاجتهاد ، ويأخذ التقي فيها بالاحتياط ، واتباع سبيل المفسدين يشمل مشاركتهم في أعمالهم ، ومساعدتهم عليها ، ومعاشرتهم والاقامة معهم في حال اقترافها ، ولو بعد العجز عن ارجاعهم عنها ، ومن ذلك مايجوز وقوعه من الانبياء عليهم السلام فيصح

نهيهم عنه تحذيرا من وقوعهم فيه بضرب من الاجتهاد كالذي وقع الاختلاف فيه بين موسى وهارون عليهما السلام في قصة عجل السامري الذي حكاه تعالى عنه في سورة طه بقوله (قال ياهارون : ما منعك اذ رأيتهم ضلوا الا تتبعني؟ أفعصيت أمري ؟ قال يابن أمَّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ، إني خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولي) فالرسالة كانت لموسى بالاصالة ولهارون بالتبع ليكون وزيراً لا رئيسا ، وموسى هو الذي أعطى الشريعة (التوراة) وكان هارون مساعدا له على تنفيذها في بني اسرائيل كما كان مساعدا له على تبليغ فرعون الدعوة وانقاذ بني اسرائيل .

وقد روى الشيخان وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقاص (رض) ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي كرم الله وجهه « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى » وذلك أنه استخلفه على المدينة في غزوة تبوك قبل خروجه فقال يارسول الله تخلفنى في النساء والصبيان؟ فقاله. وفي رواية لاحمد أن عليا (رض) قال : رضيت رضيت . وانما قال في النساء والصبيان لانه لم يتخلف عن الخروج مع النبي (ص) الى تبوك غير النساء والصبيان ومن في حكمهم من ضعيف ومريض الا من استأذن من المنافقين

قال القاضي عياض في شرحه لمسلم : هذا الحديث مما تعلقت به الروافض والامامية وسائر فرق الشيعة في ان الخلافة كانت حقا لعلي وانه اوصى له بها . قال ثم اختلف هؤلاء فكفرت الروافض سائر الصحابة في تقديمهم غيره وزاد بعضهم فكفر عليا لانه لم يقم بطلب حقه . وهؤلاء اسخف مذهبا وافسد عقلا من ان يرد عليهم الخ ما قال وقد ذكرت هذا من قوله لاذكر القاريء بأن هذين الفريقين لم يقولا ما قالا عن اعتقاد بل كانوا من جمعيات المجوس والسبأيين الذين يبغون الفتنة لابطال الاسلام وازالة ملك العرب بالشقاق الديني . وأما الاستخلاف فقد كان النبي (ص) يستخلف على المدينة بعض الصحابة كلما خرج الى غزوة ولم يكن يختار افضلهم لذلك ، وفي الحديث من المنقبة لعلي ما هو فوق استخلافه وهو جعله اخا للنبي (ص) ولا يتضمن ذلك استخلافه بعده (ص) لان هارون مات قبل موسى عليهما السلام قطعا

﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال : رب أرني أنظر اليك ﴾ أي ولما جاء موسى للميقات الذي وقتناه له للكلام وإعطاء الشريعة وكلمه ربه

عز وجل من وراء حجاب بغير واسطة الملك(١) استشرفت نفسه الزكية العالية للجمع بين فضيلتي الكلام والرؤية فقال : رب أرني ذاتك المقدسة بأن تجعل لي من القوة على حمل تجليك ماأقدر به على النظر اليك ورؤيتك وكمال المعرفة بك بالقدر الممكن أي دون ماهو فوق امكان المخلوقين من الادراك والاحاطة المنفي بقوله تعالى (لا تدركه الابصار وهو يدرك الإبصار وهو اللطيف الخبير) فيراجع تفسير هذه الآية من سورة الانعام(ص ٦٥١ — ٦٥٧ م٧تفسير)

﴿ قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ﴾ أي إنك لا تراني الآن، ولا فيما تستقبل من الزمان، ثم استدرك تبارك وتعالى على ذلك بما يدل على تعليل النفي، ويخفف عن موسى شدة وطأة الرد، باعلامه مالم يكن يعلم من سننه، وهو انه لا يقوى شيء في هذا الكون على رؤيته. كما قال (ص) في حديث ابي موسى عند مسلم «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه» فقال : ولكن انظر الى الجبل فانى سأتجلى له فان ثبت لدى التجلي وبقي مستقراً في مكانه فسوف تراني ، لمشاركتك له في مادة هذا العالم الفاني ، واذا كان الجبل في قوته ورسوخه لا يثبت ولا يستقر لهذا التجلي لعدم استعداد مادته لقوة تجلي خالقه وخالق كل شيء فاعلم أنك لن تراني ايضا وانت مشارك له في كونك مخلوقا من هذه المادة وخاضعا للسنن الربانية في قوتها وضعف استعدادها (وخلق الانسان ضعيفا) وقبولها للفناء

روى عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال : لما سمع الكلام طمع في الرؤية وروى أبو الشيخ عن ابن عباس قال حين قال موسى لربه تبارك وتعالى (أرني أنظر اليك قال) له يا موسى انك (لن تراني) قال يقول ليس تراني لا يكون ذلك أبداً ، يا موسى انه لن يراني أحد فيحيا ، قال موسى رب أن أراك ثم أموت أحب اليّ من ان لا اراك ثم احيا . فقال الله يا موسى (انظر الى الجبل) العظيم الطويل الشديد (فان استقر مكانه) يقول فان ثبت مكانه لم يتضعضع ولم ينهد لبعض ما يرى من عظمى (فسوف تراني) انت لضعفك وذلتك ، وان الجبل تضعضع وانهد بقوته وشدته وعظمه فأنت اضعف واذل اه

﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخرّ موسى صعقا ﴾ يقال جلا الشيء

«١» راجع تفسير (منهم من كلم الله) فى أول الجزء الثالث من تفسيرنا وتفسير «وكلم الله موسى تكليما » فى ص٧١ ج٦ منه

والامر وانجلى وتجلى بنفسه او بغيره وجلاه فتجلى — اذا انكشف وظهر ووضح بعد خفاء في نفسه ذاتي أو اضافي أو خفاء على مجتليه وطالبه . ويكون ذلك التجلي والظهور بالذات وبغير الذات من صفة أوفعل يزول به اللبس والخفاء ، وفي صيغة التجلي ما ليس في صيغة الجلاء والانجلاء من معنى التدريج والكثرة النوعية اوالشخصية قال تعالى (والليل اذا يغشى ، والنهار اذا تجلى) فالليل يغشى النهار ويستره ثم يتجلى النهار ويظهر بالتدريج وفي الاحاديث ان للرب تعالى تجليات مختلفة كما سيأتي .

والدك الدق او ضرب منه . قال فى الاساس : دككته دققته ، ودك الركية كبسها ، وجمل أدك وناقة دكاء : لا سنام لها ، واندك السنام : افترش على الظهر ونزلنا بدكداك : رمل متلبد بالارض اهـ واقول ان الفرق بين الدق والدك كما يؤخذ من الاستعمال العام الموروث عن العرب ان الدق ما يخبط به الشيء ليتفتت ويكون اجزاء دقيقة ومنه الدقيق . وكان القمح في عصور البداوة الاولى يدق بالحجارة فيكون دقيقا ثم اهتدوا الى الارحية التي تسحقه وتطحنه . واما الدك فهو الهدم والخبط الذي يكون به الشيء المدكوك ملبداً ومستويا، يقال ارض مدكوكة وطريق مدكوكة ، ودك الحفرة والركية (اي البئر غير المطوية) دفنها وطمها، ولا تزال سلائل العرب تستعمل هذه المادة بهذا المعنى ويسمون ما يوضع في الحفرة او الركية من الحصا والحصباء لاجل تسويتها « الدكة » . قرا حمزة والكسائي (جعله دكاء) بالمد والتشديد غير منون اي ارضا مستوية كالناقة التى لا سنام لها والجمهور (جعله دكا) بالمصدر اي مدكوكا دكا . ومثله في السد من سورة الكهف

والخرور والخر السقوط من علو والانكباب على الارض ، ومنه (يخرون للاذقان سجدا) والصعق بكسر العين صفة من الصعق وهو ما يكون من تأثير نزول الصاعقة من موت أو إغماء ثم توسع فيه باطلاقه على ما يشبه ذلك . قال الفيومي في المصباح : صعق صعقا من باب تعب : مات ، وصعق غشي عليه لصوت سمعه ، والصعقة الاولى النفخة ، والصاعقة النازلة من الرعد ، والجمع صواعق ، ولا تصيب شيئا الا دكته وأحرقته اهـ

وأحسن ماورد في التفسير المأثور لهذه الآية مطابقا لمتن اللغة ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الرؤية عن ابن عباس (فلما تجلى ربه للجبل)

قال : ما تجلى منه الا قدر الخنصر (جعله دكا) قال ترابا (وخر موسى صعقا) قال مغشياً عليه اهـ ومارواه ابن المنذر عن عكرمة أنه - أي الجبل - كان حجرا أصم فلما تجلى له صار تلا ترابا دكا من الدكاوات - اي مستويا بالارض . ولولا ذلك لجاز أن يقال إن صيرورته ترابا وان كان بمعنى الدكاء والمدكوك لا ينافي استقرار الجبل مكانه وقد ورد في بعض الآثار والاحاديث المرفوعة أيضا انه ساخ أي غاص في الارض ، وهو يتفق مع المعنى الاول ؛ أي أنه رج بالتجلي رجا ، بست بها حجارته بسا ، وساخ في الارض كله أو بعضه في اثناء ذلك حتى صار كما قال بعضهم ربوة دكاء كالرمل المتلبد .

والمعنى فلما تجلى ربه للجبل أقل التجلي وادناه انهد وهبط من شدته وعظمته وصار كالارض المدكوكة او الناقة الدكاء — وسقط موسى على وجهه مغشيا عليه كمن اخذته الصاعقة والتجلي انما كان للجبل دونه فكيف لو كان له ؟

وقد روي في تفسير هذه الآيات من الاخبار والآثار الواهية والموضوعة غرائب وعجائب اكثرها من الاسرائليات أمثل المرفوع منها ماروي من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك (ر ض) قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) قال : ووضع الابهام قريباً من طرف خنصره « فساخ الجبل » وفي لفظ زيادة (وخر موسى صعقاً) فقال حميد الطويل لثابت : ما تريد الى هذا ؟ فضرب صدره أي صدر حميد وقال من أنت ياحميد ؟ وما أنت ياحميد ؟ يحدثني أنس بن مالك عن رسول الله (ص) وتقول أنت ما تريد الى هذا ؟ رواه أحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه وأبناء جرير والمنذر وأبي حاتم وعدي في الكامل وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الرؤية وقد انفرد به عند مصححيه حماد ابن سلمة وهو من رجال مسلم الا أنه قد تغير حفظه في آخر عمره كما هو معلوم وله طريقان آخران عند داود بن المحبر وابن مردويه لا يصحان كما قال الحافظ ابن كثير . والمراد من التمثيل بالابهام والخنصر ان ذلك اقل التجلي وأدناه ، وسيأتي من الصحيح مايؤيد معناه

ومن أنكر هذه الروايات وأوهاها ما روي عن أنس مرفوعا « لما تجلى الله للجبل طارت لعظمته ستة أجبل فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة ... » وذكر أسماءها قال الحافظ ابن كثير وهذا حديث غريب بل منكر . أقول ولا يدخل

من ألفاظ الآية ولا معناها فى شيء

﴿ فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين ﴾ أي (فلما أفاق) موسى من غشيه والتعبير بالافاقة يدل على صحة تفسير ابن عباس والجمهور للصعق بالغشي وبطلان تفسير قتادة له بالموت وقال به بعض شذاذ الصوفية وادعوا انه رأى ربه فمات ، أو مات ثم رأى ربه، ولو مات لقال تعالى « فلما بعث » الخ كما قال في السبعين الذين اختارهم من قومه وذهبوا معه الى الجبل وطلبوا منه ان يريهم الله جهرة فأخذتهم الصاعقة فانه قال « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » كما في سورة البقرة، وسيأتي خبرهم في هذه القصة من هذه السورة —(قال سبحانك) أي تنزيها لك وتقديساً عما لا ينبغي في شأنك مما سألتك او من لوازمه — أو كما حكى تعالى عن نوح عليه السلام (أن أسألك ما ليس لي به علم) واكثر مفسري أهل السنة يجعلون وجه التنزيه والتوبة انه سأل الرؤية بغير إذن من الله تعالى وتقي العلم انما يصح عندهم بمعنى ان ماسأله غير ممكن أو غير واقع في هذه الحياة الدنيا، لانه غير ممكن في نفسه وغير واقع البتة ولا في الآخرة. ومعنى التوبة الرجوع والمراد هنا الرجوع عما طلب ، الى الوقوف مع الرب تعالى عند منتهى حدود الادب . قال مجاهد (تبت اليك) أن أسألك الرؤية (وانا أول المؤمنين) قال ابن عباس ومجاهد: أي من بني اسرائيل، ، في رواية أخرى عن ابن عباس: وأنا اول المؤمنين انه لا يراك احد، ذكرهما الحافظ ابن كثير وقال : وكذا قال أبو العالية : قد كان قبله مؤمنون ولكن يقول انا اول من آمن بك انه لا يراك احد من خلقك الى يوم القيامة . قال : وهذا قول حسن له اتجاه . وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره ههنا أثراً طويلا فيه غرائب وعجائب عن محمد بن اسحق بن يسار وكأنه تلقاه من الاسرائيليات والله اعلم اهـ

خلاصة معنى الآية ان موسى عليه السلام لما نال فضيلة تكليم الله تعالى له بدون واسطة فسمع مالم يكن يسمع قبل ذلك وهو من الغيب الذي لا شبه له ولا نظير في هذا العالم طلب من الرب تبارك وتعالى ان يمنحه شرف رؤيته وهو يعلم حتما انه تعالى ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته التي منها كلامه عز وجل فكما انه سمع كلاما ليس كمثله كلام بتخصيص رباني — استشرف لرؤية ذات ليس كمثلها شيء من الذوات ، كما فهم من ترتيب السؤال على التكليم ، فلم يكن عقل موسى — وهو في الذروة العليا من العقول البشرية بدليلي العقل

وهما في [illegible] بالله تعالى وعلمه [illegible] ولم [illegible] من هذا الطلب [illegible] له [illegible] الم.
الذروة تعليه ايضا ما تعين له منه ولكن الله تعالى قال له (لن تراني) ولكي يخفف عليه ألم الرد وهو كليمه الذي قال له في اول العهد بالوحي اليه (واصطنعتك لنفسي) اراه بعينيه ومجموع ادراكه من تجليه للجبل بما لا يعلمه سواه ان المانع من جهته هو لا من جانب الجود الرباني ، فنزه الله وسبحه وتاب اليه من هذا الطلب، فبشره الله تعالى بأنه اصطفاه على الناس برسالته وبكلامه اي دون رؤيته ، وامره بأن يأخذ ما اعطاه ، ويكون من الشاكرين له ،

﴿ قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ الاصطفاء اختيار صفوة الشيء وصفوه اي خالصه الذي لا شائبة فيه، ومنه الصفيّ من الغنيمة وهو ما يصطفيه الامام أو القائد الاكبر منها ويختاره لنفسه كاختيار النبي (ص) السيف المعروف بذي الفقار من غنائم غزوة بدر . وتعدية الاصطفاء هنا بعلى لتضمنه معنى التفضيل، فالمعنى إني اصطفيتك مفضلا إياك على الناس من اهل زمانك بالرسالة. قرأ ابن [illegible] «برسالتي» والباقون برسالاتي، فافرادها بمعنى الاسم من الارسال وجمعها باعتبار تعدد ما ارسل به من العقائد والعبادات والاحكام السياسية والحربية والمدنية والشخصية، وقيل بتعدد اسفار التوراة وهو ضعيف لان التوراة ما أوحاه من الشريعة الى موسى وهو موضوع رسالته وتسمية الاسفار الخمسة بالتوراة اصطلاحية وقد يطلقونها على جميع كتب أنبياء بني اسرائيل قبل عيسى عليهم السلام — واصطفيتك بكلامي أي بتكليمي لك بغير وحي الالهام من غير توسط ملك وان كان من وراء حجاب، وهو ما طلب رفعه لتحصيل الرؤية مع الكلام ، ووحي الله تعالى ثلاثة انواع بينها بقوله (وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً او من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء انه علي حكيم) فهذا النوع الاوسط هو الاعلى وقد اعطي لموسى عليه السلام بعد النوع الاول وقيل بالعكس، وقد بينا ما فيه من وجه الخصوصية في تفسير قوله تعالى وكلم الله موسى تكليما) من سورة البقرة

﴿ فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ أي فخذ ما اعطيتك من الشريعة «التوراة» وكن من الراسخين في الشكر لنعمتي بها عليك وعلى قومك، وذلك

باقامتها بقوة وعزيمة والعمل بها، وكذا لسائر نعمي فان حذف متعلق الشكر يدل على عمومه ، كما ان صيغة الصفة منه تدل على التمكن منه والرسوخ فيه

﴿ فصل ﴾

﴿ في اختلاف المسلمين في الرؤية وكلام الرب تعالى وتحقيق الحق فيهما ﴾

كان جماعة الصحابة رضوان الله عليهم يفهمون هذه الآيات وامثالها ولا يرون فيها اشكالا وهم اعلم العرب بلغة القرآن وبمراد الله تعالى من آياته فيه لتلقيهم اياها من الرسول المنزلة عليه المأمور فيها ببيانها للناس ، ثم انتشر الاسلام ودخل فيه من الاعاجم من كانوا على اديان مختلفة وصاروا يتلقون لغته بالتلقين ويقتبسونها بمعاشرة العرب الخلص ثم بالتعليم الفني ، ثم صارت السلائل العربية كذلك .ثم حدثت في الجميع الاصطلاحات العلمية والفنية لما وضعوا من العلوم الشرعية كأصول العقائد والفقه والحديث واللغوية كالنحو والصرف والبيان ولما ترجموا من كتب علوم الاوائل وما زادوا فيها من الرياضيات والعقليات والوجدانيات وسائر سنن الموجودات ، فامتزجت هذه الاصطلاحات بلغة القرآن والحديث فصارت آلات لفهمهما ، وسببا للخطأ في تعيين بعض المراد منها

ثم حدث ما هو أدعى الى الخطأ في الفهم وهو عصبية المذاهب والشيع التي فرقت بين المسلمين، على ما جاء في التفرق والتفريق من الوعيد الشديد ، فصار كل منتم الى شيعة وحزب لا ينظر في الكتاب والسنة الا بالمنظار المعبر عنه بمذهب الحزب ، وان كان من أهل النظر والاستدلال ، ومدعي الاجتهاد والاستقلال ، والبداهة قاضية بالتضاد بين التقيد بالمذهب ، والاستقلال الصحيح المسمى عندهم بالاجتهاد المطلق .

وهنالك سبب آخر وهو حشر الاسرائيليات والروايات الموضوعة والوهية في تفسير القرآن وكتب السنة وتقاصر الاكثرين عن تمحيصها ، والتمييز بين حقها وباطلها، حتى إن بعض الاسرائيليات قد شتبه بالاحاديث المرفوعة كما بينه بعض نقاد الحفاظ ومنهم ابن كثير في تفسيره

فبهذه الاسباب أبطلوا مزية كتاب الله وخاصيته في رفع الخلاف والتفرق المفسدين لامر الملة والامة اتباعا لسنن من قبلهم وهم لا يشعرون، لانهم جعلوه هو موضع الخلاف أيضا ، قال تعالى (٢ : ٢١٣ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) الآية . وقال تعالى : وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة وقال تعالى (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا)

فالرد الى كتاب الله وما بينه من سنة رسوله لازالة التنازع وحسم الخلاف تفاديا من التفرق والتمزق المنافي لوحدة الدين يتوقف على جعل الكتاب وبيان الرسول له فوق التنازع واختلاف المذاهب والشيع ، والا كان الدواء عين الداء

(فان قيل) إن القرآن ليس موضوع اختلاف بين الشيع والاحزاب المختلفين في المذاهب الاسلامية ، فهم مجمعون على أن من رد شيئا منه كان مرتدا عن الاسلام — ان كان قد عد من أهله — وانما الاختلاف في فهمه ، وأما السنة فاختلفوا في رواية بعضها وفي فهم بعض ، ومن صح عنده منها شيء يتعلق بأمر الدين وجب الاخذ به في كل مذهب من المذاهب التي يعتد باسلام اهلها. والاختلاف في فهم ما كان غير قطعي الدلالة ضروري لا يتناوله مثل قوله تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم)

ونجيب عن هذا - أولا - بأنهم انما كانوا كذلك في كل ذلك قبل الفتن وعصبية المذاهب وأما بعدها فقد صرح بعض كبار فقهاء الحنفية بأن الاصل عندهم في كل حكم كلام اصحابهم فان وجدوا آية تخالفه (!!) التمسوا لها ناسخا فان لم يجدوا أولوها، وان وجدوا حديثا يخالفه (!!) بحثوا في اسناده فان وجدوا فيه مطعنا نبذوه والا فعلوا في المعنى منه ما يفعلون في المعنى من القرآن (!!) وقد جرى على ذلك أهل كل مذهب الا أفرادا من كبار النظار خالفوا المذهب في بعض المسائل الكلامية والاصولية بالدليل ، وبعض كبار المحدثين رجحوا بعض الاحاديث الصحيحة الصريحة على المذهب ، وان شئت فراجع بعض الشواهد على ردهم

لها في « كتاب الموقعين » للمحقق ابن القيم و — ثانيا — بان الله تعالى يكلفهم أن لا يجعلوا ما ليس قطعي الدلالة سببا للتفرق والتعادي وتأليف الاحزاب والشيع التي يلقن أتباع كل منها فهم رجل أو رجال يسمونه مذهبهم ويتعلمون معه الرد على مخالفيهم وتفسيقهم أو تكفيرهم ، وبهذا كان الاختلاف ضارا ومفسدا على المسلمين ومن كان قبلهم من أهل الملل أمور دينهم ودنياهم ، وهو المراد بقوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) الآية ولولاه لما كان أولئك العلماء الاعلام من المعتزلة والاشعرية يتنابزون بالالقاب ، ويتبارون بالسباب ، ويتهاجون بالاشعار ، كقول الزمخشري المعتزلي بعد تفسيره لاية الاعراف التي نحن بصدد تفسيرها : ثم تعجب من المتسمين بالاسلام ، المتسمين بأهل السنة والجماعة ، كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهبا ؟ ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة ، فانه من منصوبات أشياخهم — يعني بالبلكفة قولهم انه تعالى يرى بلا كيف أي إن رؤيته ليست كرؤية أهل الدنيا بعضهم لبعض فيما يلزمها من كون المرئي جسما كثيفا تحيط به أشعة البصر ـ ثم قال والقول ما قال بعض العدلية فيهم :

وجماعة سموا هواهم سنة لجماعة حمر لعمري موكفة
قد شبهوه بخلقه وتخوفوا شنع الورى فتستروا بالبلكفة

يعني بالعدلية جماعته المعتزلة فانهم سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد فانظر الى جعله اثبات الرؤية الثابتة في الاحاديث المتفق على صحتها منافيا للاتسام بالاسلام والتسمي بأهل السنة ، وهو يعلم أنهم ينفون التشبيه في الرؤية بالتصريح كما ينفيه هو ، ولو لا تعصب المذهب لما ألزمهم اياه بدلالة اللزوم الضعيفة التي قالوا فيها «لازم المذهب ليس بمذهب» قيل مطلقا وقيل فيما لم يدل الدليل على التزام صاحب المذهب له ، وأما ما صرح بنفيه فلاوجه لاسناده اليه البتة ، ومن نسبه اليه وذمه به كان ظلوما جهولا

ولو أن الزمخشري وشاعر العدلية لم يقولا ما قالا من الطعن والهجو في أهل السنة بأن اكتفى الزمخشري في تأويل أحاديث الرؤية بما أولها به من كون الرؤية فيها عبارة عن كمال المعرفة الجلية لما جوريا على ذلك بمثل ذنبهما أو أكثر كما قال أحمد بن المنير الاسكندري في (الانتصاف) حاشيته على الكشاف :

وجماعة كفروا برؤية ربهم حقا ووعد الله ما لن يخلفه

وتلقبوا عدلية قلنا أجل عدلوا بربهم فحسبهم سفه
وتلقبوا الناجين كلا إنهم إن لم يكونوا في لظى فعلى شفه

وللشيخ تاج الدين السبكي صاحب جمع الجوامع وغيره مثل هذا الشعر المحزن ، والبادىء بالشر أظلم ، وهؤلاء الذين هجوا عدلية المعتزلة بمثل ما هجا به شاعرهم أهل السنة كافة هم من الاشعرية الذين يقولون مثلهم بالتأويل، ويشنعون على اخوانهم من الحنابلة وغيرهم من السلفيين في بعض مسائل التفويض، كالنصوص في علو الله تعالى خلقه ، واستوائه على عرشه ، التي اتبعوا فيها اجماع السلف أو جمهورهم الاعظم في امرارها كما جاءت مع تنزيه الرب تعالى عن مشابهة الخلق والتحيز والحد والحلول ، لان أصل عقيدتهم أنه تعالى مباين لخلقه بذاته وصفاته (ليس كمثله شيء) بل أول الامام أحمد بن حنبل نفسه نصوص المعية كقوله تعالى (وهو معكم أينما كنتم) نخصه بالعلم

فالحق الواقع أن المختلفين في فهم النصوص من المسلمين الصادقين يؤمنون بها ويعظمونها ولكن غلب على قوم ترجيح جانب التنزيه حتى انتهى ببعضهم الى التعطيل ، وجعل صفات الرب تعالى سلبية بضروب من التأويل ، وغلب على قوم جانب الاخذ بالظاهر في ذلك حتى وقع بعضهم فى التشبيه فعلا، كأن الكتاب والسنة خلو من المجاز والكناية في ذلك مع العلم بأن ماعدا اسم الجلالة من ألفاظ اللغة قد وضع قبل نزول القرآن للتعبير به عن المخلوقات وشؤونها ، فالفريقان أرادا تعظيم الرب تعالى وسد ذريعة القول في ذاته وصفاته بغير الحق الذي يرضيه، هؤلاء خافوا التعطيل ورد شيء من النصوص أو تحكم الاهواء في تأويلها — وأولئك خافوا الوقوع في تشبيه الرب سبحانه بخلقه، وسد ذريعة ما يعد نقصا في حقه ، فالنية كانت حسنة من الجانبين كما قال شيخنا الشيخ حسين الجسر الطرابلسي رحمه الله تعالى في درسه عند قراءة شرحي السنوسية والجوهرة

ولكن الذين ضلوا بالتأويل والتعطيل كثيرون حتى خرجت به عدة فرق من الملة بعضهم باطناً وظاهرا وبعضهم باطناً لا ظاهرا كالباطنية الذين تركوا أركان الاسلام ، من صلاة وزكاة وحج وصيام ، زاعمين أن لها معاني غير ما عمل به النبي (ص) وأصحابه وأجمع عليه المسلمون، وكغلاة الصوفية الذين ذهبوا في التأويل الى ما وراء طور العقل والنقل وأساليب اللغة ، فادعوا أنهم يرون لله تعالى عيانا في جميع الصور ، ويتلقون عنه كالانبياء ، وأن فيهم من هم

أفضل من الانبياء وأعلم بالله تعالى ، ومنهم من ادعى رفع التكليف عمن بلغ مقاماتهم في المعرفة ، بل منهم من علا في وحدة الوجود الى ادعاء الربوبية للبشر والبقر ، والحجر والمدر ، وما يستحي أويتنزه قلم المتدين الاديب عن ذكره — والى عدم التفرقة بين موحد ومشرك ، ومؤمن وكافر ، وبر وفاجر وعادل وجائر ، وطيب وخبيث ، ولا بين نافع وضار ، وطهور ورجس . ويستدلون على عقائدهم أو مزاعمهم بالآيات والاحاديث ، بضروب من التأويل ، وقد قال بعضهم :

عقد الخلائق في الاله عقائدا وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

ولم يقع من فرقة تأخذ بظواهر نصوص الكتاب والسنة من غير تأويل ولا تعطيل ، ولا تشبيه ولا تمثيل، في مثل هذا الضلال البعيد ، فهؤلاء الظاهرية ومن يسمونهم غلاة الحنابلة من أقوى المسلمين ايمانا ، واصحهم اسلاما ، وما رموا به من التشبيه والتمثيل الذي نفاه النص والعقل ظلم سببه التعصب المذهبي فاذا كانوا يثبتون للرب تعالى كل ما أثبته لنفسه في كتابه ، وأثبته له رسوله فيما صح من حديثه ، حتى فيما يفوضون كنهه اليه تعالى للاعتراف بأن عقولهم لا تحيط به ، فهل يعقل أن يثبتوا له ما نفاه عن نفسه بقوله (ليس كمثله شيء) وهو مما يعقلونه ولا يعقلون ضده ؟ كلا ان تعصب أصحاب النظريات الكلامية من المعتزلة ومن يقرب منهم من متأولة الاشعرية هم الذين افتأتوا عليهم بما ألزموهم إياه مما نفوه من لوازم ما صح في الكتاب والسنة من علوه تعالى على خلقه ، واستوائه على عرشه ، وكونه ينزل الى سماء الدنيا ويحب ويبغض ويضحك الخ مع استصحاب نص التنزيه، فهم لا يرون فرقا بينها وبين كونه يسمع ويبصر ويتكلم ، وكذا يعلم ويريد ويشاء ويقدر ، فكل ذلك مما يطلق على الخلق والخالق مع انتفاء التشبيه، وانما ذنبهم عندهم أنهم لا يستعملون نظريات فكارهم في التحكم بتأويل هذه النصوص، ولم يكلف الله تعالى أحدا من خلقه هذه النظريات الفلسفية الكلامية ، وانما كلفهم الايمان بجميع ماجاءهم به رسله (ص وأصل الدين الذي بعث الله تعالى بها جميع رسله الى خلقه هو أن يعبدوا الله تعالى وحده ولا يشركوا به شيء من خلقه، وأن يعبدوه بما شرعه لهم دون غيره ، اذ ليس لغيره أن يشرع شيئا من الدين بدون اذنه . فالله تعالى قد شرع

الدين لجميع أفراد الامة ، وهذه الفلسفة الكلامية من دقائق النظريات الفكرية التي انفرد بالغوص عليها أفراد معدودون من أذكياء الامم فتفرقوا فيها واختلفوا لان التفرق والاختلاف من لوازمها البينة ، فعصوا الله تعالى في نهيه عن التفرق والاختلاف في الدين ، فكيف يقول عاقل ان جميع المؤمنين قد كلفوها ، واذا كانت صحة الايمان تتوقف عليها ،فكم عدد المؤمنين في الامة كلها ؟ واذا كان الحق فيها واحدا كما يقولون فكم عدد أهل الحق منهم ؟ وكيف السبيل لدى كل من احتكر الحق فيها لنفسه الى تلقين السواد الاعظم من الامة مايراه بحيث لا يقبل سواه؟ فان كان هو أصل الدين الذي لا يقبل الله غيره ففهم لدين متعذر على أكثر الامة ،

وأما ماكان عليه السلف الصالح في صدر الامة فكان سهلا ويسيرا كما وصف الله ورسوله هـذا الدين وهذه الملة ، كان جميع المسلمين في الصدر الاول يصفون الله تعالى بجميع ما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله من غير تشبيه له بأحد من خلقه ، ومن غير هذه الفلسفة الكلامية التي لم يشرعها الله تعالى ولا نزل بها من سلطان، ولذلك استنكر جميع أئمة السلف علم الكلام وعدوه بدعة سيئة ، ومن خاض فيه بعد ذلك من أتباعهم فلانهم ظنوا انه يتوقف عليه ابطال البدع وازالة الشبهات المشكلة في الدين لا لذاته، وأرادوا به ازالة الخلاف فزادهم خلافا وافتراقا، حتى صار أكثرهم يزعم أن العقائد الصحيحة لا تعرف الا به، ويحصرها كل فريق في مذهبه، ولا سلامة للمسلمين في دينهم ودنياهم الا الرجوع في الدين المحض الى ماكان عليه السلف وفي أمور الدنيا الى ما أثبته العلم والتجارب في هذا العصر، وان ينبذوا جميع الاسباب والكتب التي كانت مثار الخلاف والتفرق وراء ظهورهم ، ولا يجعلوا قول عالم من علمائهم ولا فهمه سببا للتعادي والتفرق بينهم ، بل يعدوا كل ماليس قطعيا من كتاب ربهم وسنة رسولهم واجماع سلفهم من الاجتهاد الذي يعذر به من قام دليله عنده ومن وثق به ولا يكون حجة على غيره. وقد فصلنا القول في هذا في مجلتنا (المنار) مرارا. فبهذا يزول ضرر اختلاف المذاهب في الاصول والفروع ، ويتراجع الجميع الى وحدة الدين وأخوة الاسلام ، فينالوا من سعادة الدنيا ثم الآخرة ما شرع الله لهم الدين لاجله

بعد هذا التمهيد نقول ان مسألة الكلام الالهي كمسألة الرؤية فيما اختلف فيه

من تأويل وتفويض، اجتنابا من قوم للتعطيل ومن آخرين للتشبيه ، وإنما الفرق بينهما ان إثبات الكلام والتكليم لله تعالى صريح في القران المجيد في آيات متعددة لا تعارض بينها . وأما رؤية الرب تعالى فربما قيل بادي الرأي إن آيات النفي فيها أصرح من آيات الاثبات كقوله تعالى (لن تراني) وقوله تعالى (لا تدركه الابصار) فهما أصرح دلالة على النفي من دلالة قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة، الى ربها ناظرة) على الاثبات فان استعمال النظر بمعنى الانتظار كثير في القرآن وكلام العرب كقوله (ماينظرون إلا صيحة واحدة — هل ينظرون إلا تأويله — هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) وثبت انه استعمل بهذا المعنى متعديا بالي ولذلك جعل بعضهم وجه الدلالة فيه على المعنى الآخر —وهو توجيه الباصرة الى ماتراد رؤيته — انه اسند الى الوجوه وليس فيها مايصح اسناد النظر اليها إلا العيون الباصرة ، وهو في الدقة كما ترى ، ولذلك اختلف في فهمها العلماء قبل هذه المذاهب ، فقد روى عبد بن حميد عن مجاهد تفسير (ناظرة) بقوله : تنتظر الثواب . قال الحافظ ابن حجر : سنده الى مجاهد صحيح ، والجمهور يرون فهم مجاهد غير صحيح ولكن المعتزلة والخوارج والشيعة يرونه صحيحا ، وفي الفريقين من أساطين علماء اللغة مايسوغ لك أن تقول لكنه كما قالوا ليس صريحا، أو ليس قطعي الدلالة بحيث يعد حجة على جميع المكلفين ، ويمتنع جعل تأويله عذراً للمخالفين ، وقد كان النبي (ص) يعذر اصحابه في اختلاف فهمهم للنصوص، ويقرهم على ماكان للاجتهاد فيه وجه وجيه، كاخذ بعضهم بظاهر نهيه إياهم عن صلاة العصر إلا في بني قريظة اذ ذهب بهم اليهم ،وأخذ الآخرين بفحواه وهو عدم التخلف،فصلى هؤلاء في الطريق وادركوا معه بني قريظة في الموعد ، ولم يصل اولئك العصر إلا فيها . وكافهم بعضهم تحريم الخمر والميسر من آية البقرة التي رجحت اثمهما على منافعهما فتركوهما ، ولم يتركهما من لم يفهم ذلك وهم الاكثرون إلا بعد نزول النص القطعي باجتنابهما

فاذا محضنا اسباب الخلاف من جهة النصوص وحدها وجدنا لكل من النفاة للرؤية والمثبتين لها مايصح أن يكون له عذراً عند الآخر يعنم جريمة التفرق في الدين وجعل اهله احزابا وشيعا متعادية غير مبالية بما ورد فيه من الوعيد الذي كاد يجعله كالكفر ، ما دام كل منهم يعلم أن الآخر يؤمن بان جميع ماجاء

به الرسول (ص) من الدين حق ، وان الخلاف محصور في اختلاف الفهم،

وما كفر بعض علماء السلف بعض منكري الرؤية وغلاة التأويل لصفات الله تعالى وغيرها من النصوص إلا لاعتقادهم أنهم زنادقة لبسوا لباس الاسلام للافساد ، وبث دعوة الالحاد ، والتجرئة على رد نصوص القرآن والسنن التي تلقاها الصدر الاول بالقبول، او تحريفها بالتأويل عما فهموه اوعما ثبت عندهم بالعمل. اذكانوا قدعلموا أن بعض اليهود كعبد الله بن سبأ وبشر المريسي وبعض المجوس ومن سلائلهم جهم بن صفوان قد بثوا في المسلمين دعوة الكفر او البدع الداعية الى النفاق، اوالمفضية الى الشقاق ، فالامام احمد كفر منكري الرؤية من هؤلاء لاعتقاده فيما نرى انها صادرة عن زندقة ،لا لان هذا الانكار نفسه زندقة، بحيث يرتد المسلم المؤمن بالنصوص كلها بقلبه ولسانه وعمله اذا فهم أن آيات نفي الرؤية هو الاصل المحكم الذي يرد اليه ماورد من الآيات والاحاديث في اثباتها ، اذ الاول هو الموافق للعقل والنقل وهو التنزيه ، دون الآخر المستلزم عنده للتشبيه ، الواجب تأويله للجمع بين النصوص لالرد شيء منها

وأهل السنة يعذرون كل المتأول وكذا الجاحد لما ليس مجمعا عليه معلوما من الدين بالضرورة فلا يكفرونه بمخالفته للظواهر، ولا يعدون البدعة من هذا القبيل مسقطة للعدالة في الرواية، قالوا إلا اذا كان صاحبها داعية ، لان الدعوة الى أمر ديني لم يؤثر عن الصدر الاول احداث لفتنة وتفريق بين الموحدين كمسألة خلق القرآن، فما القول في الدعوة الى ما أثر عن الصدر الاول خلافه كالرؤية ؟ ثم ما القول في الدعوة الى مخالفة النصوص القطعية التي لاتحتمل التأويل لغة ولا شرعا ومخالفة ما اجمع عليه المسلمون وهو معلوم من الدين بالضرورة كدعاوي الباطنية المعلومة، ومثلها دعوى المسيحية القاديانية الهندية ، التي يلقب اهلها بالاحمدية، أن رئيس نحلتهم ميرزا غلام احمد القادياني هو المسيح المبشر بعودته الى الدنيا في بعض الاحاديث ، وانه كان يوحي اليه ، ونسخت فرضية الجهاد على لسانه فصار من الواجب على المسلمين عندهم أن يستسلموا للاجانب المستعبدين لهم، السالبين لاستقلالهم، المبطلين لشريعتهم، ولا يجوز لشعب اسلامي عندهم أن يدافع بالقتال عن ملته ووطنه، وإنما جعل القادياني هذا من اصول دينه خدمة للانكليز ، ولا يزال الباب مفتوحا عند اتباعه لمثل هذا بزعمهم أن وحي النبوة متصل في خلفائه وأتباعه ، فالقول بهذا خروج من ملة الاسلام ، لاتنفع معه صلاة ولا زكاة ولا

حج ولا صيام . وما أفضى الى هذا الضلال المبين إلا التوسع في باب التأويل ،

(فان قيل) إن كلا من مثبتي رؤية الرب تعالى في الآخرة ونفاتها قد ادعى بعضهم أن النصوص التي يستدل بها على مذهبه قطعية ، حتى إن النافي جعل نصوص الاثبات دالة على النفي ، والمثبت جعل نصوص النفي دالة على الاثبات ، كقول بعض النفاة ان قوله تعالى (الى ربها ناظرة) يفيد الحصر بتقديم الجار والمجرور على المتعلق أي تنظر الى ربها وحده دون سواه كقوله (ألا الى الله تصير الامور — وأن الى ربك المنتهى) أي لا الى سواه . ولما كان عدم نظرها الى غير ربها ممنوع عقلا ونقلا وجب حمل النظر على معناه الآخر وهو الانتظار بمعنى انها لا تنتظر الخير من غيره (راجع الكشاف)

ويقابل هذا من بعض أهل الاثبات الاستدلال بقوله تعالى (لا تدركه الابصار) على رؤيته تعالى من حيث إن الادرك معناه الاحاطة ، وادراك الابصار إنما احاطتها بالمرئي ، فنفي الادراك يستلزم اثبات رؤية لا ادراك فيها ، فكأنه قال لا تدركه الابصار التي تراه وهو يدرك الابصار التي يراها ويحيط بها . ونظيره قوله تعالى (يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما) أي هو يحيط بهم علما لانه يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم (والله من ورائهم محيط) وهم لا يحيطون به علما لان إحاطة المحاط به بالمحيط محال ، وهو يستلزم اثبات أصل العلم به لا نفيه كآية نفي ادراك الابصار ؛ وكل منها جار على قاعدة معروفة في اللغة وهي أن نفي المقيد يقصد به الى القيد وان نفي وصف خاص لمعنى عام يستلزم إثبات ذلك العام كقولك : فلان لا يشبع - فانه اثبات للاكل ونفي للشبع .

هذا توجيه لهذا الاستدلال فتح الله تعالى به علينا وقد رأينا للشيخ تقي الدين بن تيمية توجيها آخر ملخصه أن الله تعالى ذكر هذه الآية في مقام التمدح وانما يكون المدح بالاوصاف الثبوتية لا بالعدم المحض ، وما تمدح تعالى بامر سلبي أو عدمي إلا اذا تضمن معنى ثبوتيا كنفي السنة والنوم المتضمن لكمال القومية ونفي الموت المتضمن لكمال الحياة ، ونفي الشريك والظهير المتضمن لكمال الربوبية والالهية ، ونفي الشفاعة عنده إلا باذنه المتضمن لكمال توحيده وغناه عن خلقه ، ونفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته ... قال فكذلك نفي ادراك الابصار ليس معناه انه لا يرى بحال لان هذا يشاركه فيه العدم المحض والرب جل جلاله يتعالى أن يتمدح بما يشاركه فيه العدم المحض ، فالمعنى اذا أنه يرى

ولا يدرك ولا يحاط به — كنظائره — فقوله (لا تدركه الابصار) يدل على غاية عظمه وانه أكبر من كل شيء ، وانه لعظمته لايدرك بحيث يحاط به، * فان الادراك هو الاحاطة بالشيء وهو قدر زائد على الرؤية . ثم استدل على هذا المعنى لغة بما نستغني عن ذكره بما أوردناه في تفسير هذه الآية من سورة الانعام فقد حققنا المعنى اللغوي للادراك وألممنا بمسألة الخلاف في الرؤية ووعدنا بتفصيل الكلام فيها عند تفسير آية الاعراف التي نحن في صدد تفسيرها الآن

(وجوابنا) عماذكر ان هذه الدقائق اللغوية مما يخفى على اكثر علماء اللغة —وكذا أهل السليقة ايضاً — ولذلك اختلفوا في معناها فكيف يقال في شيء منها انه نص قطعي لا يحتمل التأويل؟

وغرضنا من هذا التطويل ببيان حجج كل فريق اقناع أهل البصيرة في الدين ، والاخلاص في جمع كلمة المسلمين ، من المستقلين في الفهم، والراسخين في العلم ، حتى المولودين في مهود المذاهب ، والناشئين في حجور الاحزاب والشيع ، أن يجتهدوا في التوفيق والتأليف ، ومنع جعل هذه المسألة وأمثالها من أسباب التفريق ، فضلا عن جعلها من أسباب التكفير أو التفسيق ، وليعذرنا من يرانا نخالف فهمه أو مذهبه في ترجيحنا المأثور عن جمهور السلف الصالح فيها وفي جميع أمور الدين ، ثم ليعذرنا اخواننا السلفيون في تقريب مذهب السلف الى العقول التي لا يرجى أن تهتدي به وتأخذه بالقبول الا باثباته بما ألفت من طرق الاستدلال ، وايضاحه بما يقربه اليها من ضرب الامثال، وقد سبق لنا تحقيق هذين الامرين معا بفتوى نشرت في ص٢٨٢ — ٢٨٨ من المجلد التاسع عشر من المنار ، فيحسن ان تضاف الى هذا البحث، وان يلخص الموضوع في قضايا معدودة تكون اضبط له واجمع لما يحتاج اليه المسلمون منه في دنياهم وآخرتهم، وان كان فيه تكرارا فان التكرار في ايضاح الحقائق ضروري

واننا نقدم بين يدي ذلك قضايا جامعة في المسألة وما ورد فيها من الاحاديث الصحيحة ، واقوال السلف والخلف فيها

(*) تعليلنا هنا لعدم ادراكه تعالى باحاطته بكل شيء اظهر وابعد عن الايهام من تعليل شيخ الاسلام اياه بعظمته سبحانه ،واظهر منه تعليل آية الاعراف نفسها اياه بلطفه تعالى وكل منهما صحيح ولكل منهما موقع — راجع ص٥٦ ج ٧ تفسير

قضايا جامعة في مسألة الرؤية

(١) ان اثبات رؤية الرب تعالى في الدار الآخرة المخالفة لهذه الدار في شؤونها وشؤون أهلها وسنن الله تعالى فيهما بالقيود التى قيدها بها المثبتون لها من تنزيهه تعالى عن مشابهة خلقه — ليس من المحالات العقلية الثابتة بالضرورة والا لما وقع فيها خلاف البتة ، ولا بالبراهين العقلية التي تنتهي الى الضرورة والا لارتفع الخلاف فيها بين حذاق النظار عند وصول البرهان الى هذا الحد، ولم يقم هذا ولا ذاك

(٢) ان الآيات القرآنية فيها ليست نصوصاً قطعية الدلالة في الاثبات وحده ولا في النفي وحده ، والا لما وقع الخلاف فيها البتة ، وقد وقع هذا الخلاف فيها بين قليل من السلف وكثير من الخلف ،ففهم عائشة لآية الانعام ومجاهد لآية القيامة مخالف لراي جمهور اهل السنة . — فعلم أنها غير قطعية الدلالة بحيث لا تحتمل الا أحد الوجهين ، فهي اذا ظنية والترجيح فيها بين ماظاهره الاثبات وما ظاهره النفي محل الاجتهاد ، ولا شك في أن كلا من المثبتين والنفاه يعتقد صحة ترجيحه نظراً واستدلالا ، او اتباعاً وتقليدا . فالمسألة بينهما مشتركة الالزام، فلا وجه لطعن احدمنهما في دين الآخر ولا في علمه بها

(٣) ان في الاحاديث الصحيحة من التصريح في اثبات الرؤية مالايمكن المراء فيه ولكن المراد من هذه الرؤية غير قطعي ، وفيها ما قد يدل على عدم الرؤية ، فيأتي فيها الخلاف بين السلف والخلف حتى من المنسوبين منهم الى السنة كالاشعرية بين التفويض والتأويل، لانها بحسب اصطلاحهم من النصوص الموهمة للتشبيه ، وقد قال صاحب جوهره التوحيد من الاشعرية :

وكل نص أوهم التشبيها أوله أو فوض ورم تنزيها

(٤) ان جمهور السلف والحنابلة واكثر أهل الحديث يفوضون في جملة النصوص الواردة فى صفات الله تعالي وشؤونه وأفعاله بمعني انهم يمرونها كما جاءت من غير تحكم في تأويل يخرجها عن ظواهر معانيها وينزهونه سبحانه عن مشابهة خلقه فيما أطلق عليهم من مثل تلك الالفاظ الدالة على تلك الصفات والشؤون والافعال ، وان جمهور الخلف من سائر الفرق يتأولون ما عدا صفات المعاني كالعلم والقدرة والارادة حتى الاشعرية من أهل السنة وانما تراهم أقرب الى السلف في المسائل الكبري التي اختلفوا فيها مع المعتزلة كالكلام

الالهي وروٴية الرب سبحانه وتعالى . وقد شنع بعضهم على الحنابلة بأشد ما يشنعون به على المعتزلة ، ولكنهم لاتفاقهم على كون احمد بن حنبل من كبار أئمة السنة يسلونه ممن يشنعون عليهم من أتباعه سلا، ويبرؤنه من أقوالهم فرعا وأصلا

(٥) ان من أصح الشواهد على ما ذكرنا في هذه القضايا العامة ما رواه الشيخان عن مسروق عن عائشة واللفظ لمسلم قالت : ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية - - قلت : ما هن ؟ قالت : من زعم أن محمداً (ص) رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية — قال مسروق: وكنت متكئاً فجلست فقلت يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني ألم يقل الله عز وجل (ولقد رآه بالافق المبين* ولقد رآه نزلة أخرى) فقالت أنا أول هذه الامة سأل عن ذلك رسول (ص) فقال « انما هو جبريل لم أره على صورته التى خلقه الله عليها الا هاتين المرتين : رأيته منهبطاً من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء الى الارض » فقالت أولم تسمع أن الله يقول (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير) أولم تسمع أن الله يقول (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء إنه علي حكيم) ؟ قالت : ومن زعم أن محمداً (ص) كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله يقول (يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته) قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون فقد أعظم على الله الفرية والله يقول (قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله)

فعائشة وهي من افصح قريش تستدل بنفي الادراك على نفي الروٴية مع ما علم من الفرق بينهما ، وتستدل على نفيها أيضاً بقوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب) وقد حملوا هذا وذاك على نفي الروٴية في هذه الحياة الدنيا ، ولكن ادراك الابصار للرب سبحانه محال في الآخرة كالدنيا ، والتعليل الصحيح لمثبتي الروٴية في الآخرة دون الدنيا أن البشر لا يقوى خلقه الدنيوي المعد للفناء ولا يطيق روٴية الرب تعالى كما تقدم ويقويه بعض الشواهد الاخرى ، وفيه بحث ذكرناه في الفتوي

(٦) ومنها ما رواه مسلم من حديث أبي موسى (رض) قال : قام فينا رسول الله (ص) بخمس كلمات فقال (١) ان الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام (٢) يخفض القسط ويرفعه (٣) يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار،

وعمل النهار قبل عمل الليل (٤) حجابه النور — وفي رواية النار (٥) لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه »[1] والمعنى أن النور العظيم هو الحجاب الذي يحول بينه وبين خلقه وهو بقوته وعظمته ملتهب كالنار، ولذلك رأى موسى عليه الصلاة والسلام عندابتداء الوحي ناراً في شجرة توجه همه كله اليها فنودي بالوحي وراءها، وفي التوراة ان الجبل كان في وقت تكليم الرب لموسى عليه السلام وإيتائه الالواح مغطى بالسحاب « وكان منظر مجد الرب كناراً آكلة على راس الجبل امام عيون بني اسرائيل » (خرو ٢٤ : ١٧)

ورأى النبي الخاتم الاعظم صلى الله عليه وآله وسلم ليلة المعراج نوراً من غير نار وربما كان هذا أعلى ولكنه كان حجابا دون الرؤية أيضاً فقد سأله أبو ذر (رض) هل رأيت ربك؟ فقال «نور أنى أراه» وفي رواية أخرى «رأيت نوراً»

ومعناهما معاً رأيت نوراً منعني من رؤيته لا انه تعالى نور وأنه لذلك لا يرى، وهذا يتلاقى ويتفق مع قوله « حجابه النور » ولذلك جعلنا أحاديث النور شاهداً واحداً في موضوعنا . وهي تدل على عدم رؤية ذات الله عزوجل و امتناعها كما تمتنع رؤية شيء يكون الشمس دونه حجابا له فمن ذا الذي تنفذ اشعة نور بصره من نور الشمس ونارها الى ما وراءها فتبصره ؟ وما هذه الشمس التي يراها على بعد قدّره علماء الهيئة الفلكية بأ كثر من تسعين مليون ميل وسائر الشموس الكثيرة التي يرونها بالمناظير المقربة للابعاد والتي لا يرونها الا بعض ما أفاضه تعالى من النور على خلقه وهو ، نور السموات والارض وسبحات نور وجهه أعظم وأقوى ، وأجلّ وأعلى ، فلا تذكر معها أنوار الشموس الا من باب ضرب المثل الذي ورد (ولله المثل الاعلى)

وقوله (ص) « لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه » يدل على أن رؤية ذاته عز وجل رؤية إدراك مما يمتنع على جميع

---

(١) قول أبي موسى (رض) قام فينا بخمس كلمات معناه انه قام بهم مرة أو ليلة يعلمهم فيها هذه الكلمات الخمس ويشرح لهم معانيها . والقسط كما في نهاية ابن الأثير ميزان أعمال العباد المرتفعة اليه أو أرزاقهم النازلة من عنده اي يرفع درجات اعمال بعض العاملين وهم الصالحون المصلحون ويخفض درجات آخرين وهم اضدادهم — او يزيد وينقص في الارزاق كالوزان الذي يزن لكل مشتر بقدر ماله فالكلام تمثيل . وسبحات وجهه نوره وبهاؤه وجلاله، قاله النووي

الخلق حتى الملائكة في الملا الاعلى لا في الدنيا فقط ، لان الوجه يعبر به عن الذات وفسروا وجه الله بذاته وان كان في أصل اللغة ما يواجه به الشخص غيره وفيه معارفه أي ما يعرف به ويمتاز عن غيره . ومعنى الجملة أنه تعالى لو كشف عن وجهه حجاب النور المخلوق الذي هو منتهى ما يصل اليه أكمل البشر عند ارتقائهم الى أعلى درجات المعرفة والعلم به عز وجل ، وتجلى سبحانه للخلق كافة بدون هذا النور الذي يحجبهم عنه ، لاحرقت سبحاته ما انتهى اليه بصره منهم ، أي لاحرقتهم كلهم فان بصره تعالى محيط بكل موجود في العالم كله من سمائه وأرضه ، وهو ضرب مثل خلاصته أن آخر ما يصل اليه العلم هو اكتشاف الحجاب الاخير الذي هو الفاصل بين المخلوق والخالق وهو النور الذي هو مبدأ التكوين ، ومصدر التطوّر والتلوين

قال الله تعالى (مالكم لا ترجون لله وقاراً ؟ وقد خلقكم أطواراً) وخلق الناس وكذا سائر المخلوقات أطواراً قد فصل في علوم سنن الله في التكوين ، ففي خلق الانسان من ذكر وأنثى أطوار ، وفي خلقه قبل ذلك من سلالة من طين أطوار ، وفي التكوين الاول للارض التي خلق منها أطوار ، وهي بعد المادة التي خلق منها السموات والارض المشار اليها بقوله (أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي) وقوله (ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) الخ والظاهر أن هذه المادة المعبر عنها أو المشبهة بالدخان في هذه الآية هي المشبهة بالغمام المشابه للدخان في قوله تعالى (هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) فهذا كلام عن إعادة الخلق يوم القيامة وهي النشأة الاخرى ، وذاك كلام في بدئه وهي النشأة الاولى ، وقد قال تعالى (ألم تروا كيف بدأ الله الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة) وقال (كما بدأنا أول خلق نعيده)

اذا تذكرت هذا فاعلم أن كل ما يشغل الانسان عن معرفة الله تعالى ومراقبته من أطوار الخلق وشؤونه فهو حجاب له عنه فالحجب بين العبد والرب كثيرة وطوبى لمن آمن وعرف أن له ربا وأن هذه المخلوقات حجب دونه ، وانه فوقها بائن منها لا تشبهه ولا يشبهها ، فانها حينئذ قد تكون من وسائل معرفته وشكره ومحبته ، ولا تكون حجبا الا دون ادراك كنهه وحقيقته ؛ وان من الناس من

تكون حجبا له دون الايمان والمعرفة، وسيأتي الفرق بين الفريقين في شاهد آخر.
وقد روى الطبراني في الاوسط من حديث أنس (رض) مرفوعا «سألت جبريل هل ترى ربك؟ قال: ان بيني وبينه سبعين حجابا من نور لو رأيت أدناها لاحترقت» ورواه عنه مصريه بلفظ «سبعين الف حجاب من نور ونار» وفي النهاية لابن الاثير أن جبريل عليه السلام قال «لله دون العرش سبعون حجابا لو دنونا من أحدها لاحرقتنا سبحات وجه ربنا» وهذه الروايات صحيحة المعنى وان كانت ضعيفة الاسناد لما يؤيدها من الصحاح. وعلماء الهيئة الفلكية يرون بما اكتشفوه بمناظرهم المكبرة عيانا ان أكثر هذه النجوم التي نراها أو ما عدا الدراري والاقمار منها كلها شموس منها ما هو أعظم من شمس عالمنا هذا وأبعد منه بسنين كثيرة من سني سير النور الذي يقطع به زهاء مئة مليون ميل في أقل من عشر دقائق، والنصوص تدل على أنها كلها دون العرش
(٧) ومنها ما رواه الشيخان من حديث أبي موسى الاشعري مرفوعا «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا الى ربهم الا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» قالوا ان الرداء هنا بمعنى الحجاب الذي ذكر آنفا وقد جعلوه من باب الاستعارة ولا اشكال في التعبير وانما الحديث صريح في عدم رؤية الذات بدون حجاب. وقال الحافظ ابن حجر في شرحه من الفتح نقلا عن الكرماني بعد عده من المتشابهات: ظاهره يقتضي أن رؤية الله غير واقعة واجاب (اي الكرماني) بأن مفهومه بيان قرب النظر اذ رداء الكبرياء لا يكون مانعا من الرؤية فعبر عن زوال المانع عن الابصار بازالة الرداء ـ وحاصله ان رداء الكبرياء مانع عن الرؤية فكأن في الكلام حذفا تقديره بعد قوله «الا رداء الكبرياء» فانه يمن عليهم برفعه . . . الخ ماقاله ـ وفيه من الكلام ما لا ينبغي لحفاظ السنة الاعتداد به وهم ينكرون على الجهمية والمعتزلة مثله وما هو امثل منه من تأويلاتهم
ثم ان الحافظ ابن حجر اعتمد في تأويل الحديث حمل رداء الكبرياء هنا على الحجاب في حديث صهيب الذي اخرجه مسلم بعد حديث ابي موسى وهذا كأنه رد تفسيره به ـ ورواه الترمذي والنسائي وغيرهما ايضا وهو قوله صلى الله عليه وسلم «اذا دخل اهل الجنة الجنة يقول الله عز وجل: تريدون شيئا ازيدكم؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا؟ الم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟

قال فيكشف الحجاب فما اعطوا شيئا احب اليهم من النظر الى ربهم عز وجل» وفي رواية زيادة: ثم تلا (للذين احسنوا الحسنى وزيادة) وفيه ان اهل الجنة هؤلاء لم يكونوا يعلمون انه سبحانه يرى بدون حجاب وان رؤيته في الموقف وملاقاته كانت مع الحجاب بهذه الملاقاة في الجنة عند سؤالهم مما يطلبون من زيادة النعيم

ولقائل أن يقول أيضا: إننا اذا قطعنا بأن المراد بهذا الحجاب رداء الكبرياء المذكور في الحديث الذي قبله وانه كان المانع من النظر فلا يمكننا أن نقول نه هو حجاب النور المانع من الرؤية في الاحاديث الاخرى، والنظر غير الرؤية، فيمكن أن يقال إن رداء الكبرياء الذي كان مانعا من النظر يكشف فيقع النظر فيرى الناظرون النور الذي رآه النبي (ص) وأخبر أنه كان المانع من رؤية الذات. وسيأتي تحرير هذا البحث

(٨) ـ ومنها ماورد في تجليه سبحانه في الصور ورواقواها واصحها حديثا ابي هريرة وابي سعيد الخدري (رض) الطويلين في الصحيحين وغيرهما ومحل الشاهد فيه ان ناسا قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟» قالو لا يارسول الله قال فانكم ترونه كذلك. يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول من كان يعبد شيئا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الامة فيها منافقوها فيأتيهم الله تعالى في صورة غير صورته التي يعرفون فيقول: انا ربكم. فيقولون نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فاذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون فيقول انا ربكم، فيقولون انت ربنا، فيتبعونه» اه المراد منه ويليه ذكر الصراط والجواز عليه والنار والحساب الخ وهذا لفظ مسلم عن أبي هريرة، وفي لفظ البخاري «هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟» وذكر بعدها القمر

وفي حديث أبي سعيد تشبيه رؤية الرب تعالى برؤية الشمس في الظهيرة والقمر ليلة البدر ايضا أي في كونه لامضارة فيه ولا في التزاحم عليه — لا تشبيه المرئي بالمرئي — وفيه ذكر من عبد العزير والمسيح ودخول كل من عبد غير الله النار ويقول (ص) بعده «حتى اذا لم يبق الا من كان يعبد الله تعالى من بر وفاجر أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه

فيها قال : فما تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، قالوا : يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا اليهم ولم نصاحبهم ، فيقول : أنا ربكم. فيقولون نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئا ـ مرتين أو ثلاثا ـ حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب . فيقول : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ؟ فيقولون نعم ، فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه الا اذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء الا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ، ثم يرفعون رؤسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة فقال انا ربكم ، فيقولون أنت ربنا » الحديث وفيه ألفاظ أخرى في الصورة ، ستأتي في آخره الكلام عليه

وهذا لفظ مسلم أيضاً ويخالفه لفظ البخاري في بعض التعبير ورواهما غيرهما بألفاظ توافق كلا منهما وتخالفه بتعبير أو زيادة أو نقصان والمعنى العام واحد ، فمن أمثلة اختلاف اللفظ رواية «فيكشف عن ساقه» وهي لا تعارض رواية « فيكشف عن ساق » الموافقة للفظ القرآن (يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون) ولكن تنكير الساق واسناد كشفه الى المفعول اوسع مجالا للتأويل من اضافته الى الرب تعالى واسناده كشفه اليه فهو كالتشمير عن الساعد مثلان في كلام العرب للجد والاهتمام وشدة الخطب ، وسبب الاول أن من يريد الفرار من شيء مخوف يكشف عن ساقه ليسهل عليه العدو السريع فلا يتعثر بثوبه وسبب الثاني أن من يريد أن يعمل عملا باتقان وسرعة يشمر عن ذراعيه حتى لا يعوقه كماه ، وفي مجاز الاساس قامت الحرب على ساقها ، وكشف الامر عن ساقه . قال :

عجبت من نفسي ومن اشفاقها ومن طرادي الطير عن أرزاقها
في سنة قد كشفت عن ساقها اهـ

أقول فخرج بعضهم عبارة الحديث على هذا الاستعمال بمعنى أن أمر امتحان لله تعالى للناس والتزييل بين المؤمنين والمنافقين ينتهي الى آخر حده بتيسيره جلت حكمته السجود للمؤمنين دون المنافقين . وذهب بعضهم الى أن لفظ الساق ورد بمعنى الذات والنفس واستشهدوا له بقول أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه في حرب الشراة لابد من قتالهم ولو تلفت ساقي . قالوا أي نفسي وعليه يصح أن يكون كشف الساق في الآية والحديث عبارة عن كشف

الحجاب ويخرج عليه ما رواه عبد بن حميد عن الربيع بن أنس في تفسير (يوم يكشف عن ساق) قال : عن الغطاء فيقع من كان آمن به في الحياة الدنيا فيسجدون له . ويدعى الآخرون الى السجود فلا يستطيعون لانهم لم يكونوا آمنوا به في الحياة الدنيا ولا يبصرونه . والاول أقرب الى أساليب اللغة وعليه ابن عباس وجمهور مفسري السلف ، قال ابن عباس فيما روي عنه من طرق (يوم يكشف عن ساق) عن شدة الامر وجده ، هي أشد ساعة تكون يوم القيامة ، حتى يكشف الله الامر وتبدو الاعمال . وقال : هو الامر الشديد المفظع من الهول يوم القيامة وسئل عكرمة عن الآية فقال : ان العرب كانوا اذا اشتد القتال فيهم والحرب وعظم الامر فيهم قالوا لشدة ذلك : قد كشفت الحرب عن ساق ، فذكر الله شدة ذلك اليوم بما يعرفون . وهذا من التفسير الجلي ، لا من التأويل الخفي بالمعنى الاصولي ، وأما تأويله بالمعنى اللغوي أي ما تؤول اليه ويتحقق به في الآخرة فلا يعلمه البشر الا اذا وصلوا اليه.

وقد بين البيضاوي أصلا آخر لكشف الساق تتجه به رواية عبد بن حميد في جعله بمعنى كشف الحجاب فذكر مع عبارته في المعنى الآخر الذي عليه الجمهور لحسن بيانه له وهما قوله في تفسير (يوم يكشف عن ساق) : يوم يشتد الامر ويعظم الخطب . وكشف الساق مثل في ذلك وأصله تشمير المخدرات عن سوقهن في الهرب قال حاتم :

أخو الحرب ان عضت به الحرب عضها وان شمرت عن ساقها الحرب شمرا

أو يوم يكشف عن اصل الامر وحقيقته بحيث يصير عيانا، مستعار من ساق الشجر وساق الانسان ، وتنكيره للتهويل او التعظيم اه

ومن ألفاظ الحديثين الى اضطرب فيها العلماء مسألة الاتيان في الصور المختلفة وانكار المؤمنين له في بعضها ومعرفته في بعض فاختلفوا في تفسيرها وتأويلها فنهم من أبعد النجعة ومنهم من قارب، قال بعض المؤولين المراد باتيانه تعالى رؤيته - أقول ولكن الاتيان كالرؤية في ايهام التشبيه فلم يخص دونها بالتأويل ؟ وقال بعضهم يأتي ملك بأمره لامتحانهم ، ولكن جاء في بعض النصوص الجمع بين اتيان الرب واتيان الملك فيمتنع أن يفسر الاول بالثاني كقوله تعالى (هل ينظرون ألا أن تأتيهم الملائكة او يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك) وقوله (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) على وجه. فمخالفة ظاهر

الحديث للهرب من اسناد الاتيان الى الرب لا حاجة اليه مع هذا ـ فالاولى قول جمهور السلف إنه اتيان يليق به لا كاتيان الخلق

وقد اختلفوا في معنى الصورة وأولوها أيضا، والاظهر أنها عبارة عما يقع به التجلي من حجاب ومنه رداء الكبرياء الذي سبق الكلام فيه ، وقد ورد لفظ الصورة في عدة روايات في الصحيحين لحديثي أبي هريرة وأبي سعيد (منها) كما تقدم من حديث أبي سعيد « أتاهم رب العالمين سبحانه في أدنى صورة من التي رأوه فيها » (ومنها) « فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون» (ومنها « في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة » (ومنها) « ثم يبتدي الله لنا في صورة غير صورته التي رأيناه فيها أول مرة »وفي رواية هشام بن سعد « ثم نرفع رءوسنا وقد عاد لنا في صورته التي رأيناه فيها أول مرة فيقول : انا ربكم . فنقول نعم انت ربنا »وفي رواية الاعمش عن ابي صالح عن ابي هريرة عند ابن منده « فيتمثل لهم ربهم »

ذكر النووي في شرحه لحديث ابي هريرة من صحيح مسلم مذهب السلف في امثال هذه الالفاظ والصفات وهو الايمان بها وحملها على مايليق بجلال الله تعالى وعظمته مع التنزيه كما تقدم ، ثم مذهب جمهور المتكلمين القائلين بالتأويل ومنه انه يجيئهم ملك في صورة ينكرونها لما فيها من صفة الحدث ولا تشبه صفات الاله ليمتحنهم « فاذا قال لهم هذا الملك أو هذه الصورة : أنا ربكم ـ رأوا عليه من علامات المخلوق ماينكرونه ويعلمون أنه ليس ربهم فيستعيذون بالله منه» وقال في شرح «فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون »: المراد بالصورة هنا الصفة ومعناه فيتجلى الله سبحانه وتعالى لهم على الصفة التي يعلمونها ويعرفونه بها وانما عرفوه بصفته وان لم تكن تقدمت لهم رؤية له سبحانه وتعالى لانه يرونه لا يشبه شيئا من مخلوقاته فيعلمون أنه ربهم فيقولون أنت ربنا . وانما عبر بالصورة عن الصفة لمشابهتها إياها ولمجانسة الكلام فانه تقدم ذكر الصورة اه وذكر الحافظ في الفتح تأويلات اخرى عن القرطبي والقاضي أبي بكر بن العربي من المالكية وابن الجوزي من الحنابلة تقرب مما اعتمده النووي

وغرضنا من هذه النقول بيان أن أهل السنة قد أولوا بعض أحاديث الرؤية كما أولت المعتزلة والخوارج والشيعة فلا مقتضي للتمادي والتفرق في الدين لاجل التأويل ، وبعض هذه التاويلات اعرق في التكلف من بعض، وماساغ

في بعض الروايات لايسوغ في البعض الآخر . واذا كان الغرض من التاويل تقريب المعاني الى الاذهان حتى لايبقى مجال واسع للتشكيك في النصوص فان الواقفين على علوم هذا العصر وفنونه قديحتاجون الى مالم يكن يحتاج اليه من قبلهم ، وقد بينا في مسألة الرؤية ما اشتدت اليه الحاجة في فتوى المنار التي أشرنا اليها في هذا البحث وفي مسألة الكلام الالهي مافسرنا به الآيات التى سبقت فيه وسنزيد ذلك بيانا هنا ، وسنذكر الفتوى بنصها

(٩) اختلف العلماء في رؤية النبي (ص) لربه ليلة المعراج بين إثبات و نفي ووقف ، واختلف المثبتون في الرؤية هل هي بعين البصر أم بعين القلب والبصيرة ؟ كما اختلفوا في المعراج نفسه هل كان يقظة أم مناما أم مشاهدة روحية بين اليقظة والنوم لاختلاف الروايات عن الصحابة والتابعين (رض) فيها ولما ورد في الاحاديث المتعارضة في المسألة عاماً وخاصاً . والتحقيق أنه قد وردت أحاديث مرفوعة صحيحة في النفي دون الاثبات كحديث « نور أنى أراه » المتقدم في النفي الخاص به (ص) وكحديث «واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا» رواه مسلم وكذا ابن خزيمة عن ابي امامة وعبادة بن الصامت

أما الصحابة فاشتهر الاثبات عن ابن عباس منهم وروي عن انس أيضا وأخذ به بعض التابعين وقبله بعض المحدثين والمتكلمين الذين لا يدققون في تمحيص روايات الفضائل والمناقب واشتهر المنع عن عائشة والرواية عنها فيه أصح واصرح ، وتقدم ما رواه الشيخان عن مسروق عنها فيه ، وفي بعض رواياته ان مسروقا لما سألها هل راى محمد ربه ؟ قالت له . لقد قف شعري مما قلت . وروي النفي عن آخرين من الصحابة منهم ابن مسعود وابو هريرة وغيرهما

واما المحدثون الذين عنوا بالتعادل والترجيح الجمع بين الروايات فنهم من نظر فيها لاثبات ما سبق الى اعتقاده ومالت اليه نفسه كالحافظ ابن خزيمة وتبعه النووي فرجحا رواية ابن عباس على رواية عائشة التى هي اصح سنداً واقوى دليلا بحجة انها لم تنف الرؤية بحديث مرفوع ولو كان معها لذكرته وانما اعتمدت على الاستنباط فتأولت آية (لا تدركه الابصار) وآية (وماكان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً) الخ وقد غفلا عما لم يجهلا من حديثها في الصحيحين وقولها لمسروق لما احتج عليها بدلالة آية سورة النجم على رؤيته «ص» لربه انها اول من سأله «ص» عن هذه الاية وتقدم لفظها في رواية الصحيحين ؛

وفيه رواية أخرى اصرح في المراد وهي ما أخرجه ابن مردويه باسناد مسلم قالت : أنا اول من سأل رسول الله «ص» عن هـذا فقلت يارسول الله هل رايت ربك ؟ فقال « لا ، انما رايت جبريل منهبطا » الخ

ومنهـم من نظر في الروايات لاجل التمحيص وتحقيق الحق فيها كشيخ الاسلام ابن تيميـة والحافظ ابن حجر فبينا ان الروايات عن ابن عباس بعضها مطلق وبعضها مقيد بالرؤية القلبية لاالبصرية فاذاحكمت فيها قاعدة حمل المطلق على المقيد زال التعارض بينها وبين حديث عائشة وما في معناه

قال الحافظ في شرح البخاري : جاءت عن ابن عبـاس أخبار مطلقة وأخرى مقيدة فيجب حمل مطلقها على مقيدها، فمن ذلك ما أخرجه النسائي بسند صحيح وصححه الحاكم من طريق عكرمة عنه : أتعجبون أن تكون الخلة لابراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد . وأخرجه ابن خزيمة بلفظ : ان الله اصطفى ابراهيم بالخلة الخ وأخرج ان اسحق من طريق عبد الله بن أبي سلمة انابن عمر ارسل الى ابن عباس : هل رأى محمد ربه ؟ فأرسل اليه أن نعم (ومنها) ما اخرجه مسلم من طريق ابي العالية عن ابن عباس « رض » في قوله تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى ـ ولقد رآه نزلة اخرى) قال رأى ربه بفؤاده مرتين ، وله من طريق عطاء عنه قال رآه بقلبـه . وأصرح منه ما اخرجه ابن مردويه عنه من طريق عطاء ايضا قال : لم يره رسول الله «ص» بعينه انما رآه بقلبه اه ملخصا ، وقد روى الترمذي عن الشعبي ان ابن عباس «رض» سمع حديث قسمة الكلام والرؤية بين موسى ومحمد «ص» من كعب الاحبار في عرفة !!

فعلم مما تقدم ان ما روي عن ابن عباس من الاثبات هو الذي يصح فيه (ماقيل خطأ فى نفي عائشة) انه استنباط منه . لم يكن عنده حديث مرفوع فيه، وانه على ماصح عنه من تقييده بالرؤية القلبية معارض مرجوح بما صح من تفسير النبي(ص) لآيتي سورة النجم وهو انهما فى رؤيته ص) لجبريل صورته التي خلقه الله عليها،على ان رواية عكرمة عنه لا يبعد ان تكون مما سمعه من كعب الاحبار الذي قال فيه معاوية ان كنا لنبلو عليه الكذب كما في صحيح البخاري ، ورواية ابن اسحق لا يعتد بها في هذا المقام فانه مدلس وهو ثقة في المغازي لا في الحديث ـ فالاثبات المطلق عنه مرجوح رواية كما هو مرجوح دراية

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية ان ابن عباس « رض » لم يقل انه (ص) رأى ربه بعيني رأسه يقظة ومن حكى عنه ذلك فقد وهم وهذه نصوصه موجودة ليس فيها شيء من ذلك . وقال : مانقل عن الامام احمد من اثبات رؤية النبي « ص » لربه انما يعني رؤية المنام فانه سئل عن ذلك فقال نعم رآه فان رؤيا الانبياء حق. ولم يقل انه رآه بعيني رأسه. وقال بعد ذكر ماتقدم عن ابن عباس : ولفظ الامام أحمد كلفظ ابن عباس ، وأهل السنة متفقون على ان الله تعالى لايراه أحد بعينيه في الدنيا لا نبي ولا غيره ولم يقع النزاع الا في نبينا « ص » خاصة مع ان الاحاديث المرفوعة ليس في شيء منها انه رآه وانما روي ذلك باسناد موضوع باتفاق أهل الحديث اه

فتوى المنار المشار اليها آنفا (من ص ٢٨٢ م ١٩)

﴿ التحقيق في مسألة رؤية الرب سبحانه وتعالى ﴾

إن من أصول العقائد القطعية المعلومة من الدين بالضرورة أن نعيم الآخرة قسمان روحاني وجسماني لان البشر لا تنقلب حقيقتهم في الآخرة بل يبقون بشرا أولي أرواح وأجساد، ولكن الروحانية تكون هي الغالبة على أهل الجنة ، فيكون النعيم الروحاني عندهم أعلى من النعيم الجسماني . ومن الثابت بالاختبار والتجارب أن العلماء الراسخين والحكماء الربانيين - والفلاسفة الماديون(١) والرؤساء السياسيون - كلهم يفضلون اللذات العقلية الروحية والحياة المعنوية ، على اللذات المادية الجسدية ، فترى أحدهم يزهد في أطايب الطعام ، وكؤوس المدام .

(١) أي وكذا والفلاسفة الماديون . وهو استعمال يعد بليغا اذا كان لما رفع خصوصية في السياق ككون الماديين هنا مظنة لمخالفة الروحيين . ومنه قوله تعالى في سورة المائدة (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون)الخ ويقابل هذا الاستعمال في نصب ما هو في مقام الرفع ما نصب على الاختصاص او المدح والذم وهو اكثر في الاستعمال ومنه قوله تعالى (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما انزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة) الخ والغرضان المقتضيان لتغيير النسق في مثل الآيتين من مقاصد بلاغة اللغة فيجب ان يكونا قياسيين وان كان النقل في الاول قليلا لعدم فطنة رواة اللغة له

ويتجافى جنبه عن مضجعه ، ذاهلا عن حقوق حليلته ، تلذذا بحل مشكلات المسائل واكتشاف أسرار الكون ، أو بالنفث في عقد السياسة ، وما تقتضيه أعباء الرياسة ، ألا وان أعلى العلوم العقلية والمعارف الروحية في هذه الدنيا هو معرفة الله سبحانه وتعالى والعلم بمظاهر أسمائه وصفاته في خلقه والوقوف على سننه وأسراره فيها ، وكشف الحجب عما أودع فيها من الجمال والجلال ، وفي النظام الذي قامت به من آيات الكمال ، التي هي مجلى صفات بارئها وهو منتهى الجمال والجلال والكمال ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال

وما زال أصحاب الهمم العالية من العلماء والحكماء يستدلون بما ظهر لهم من تلك السنن والآيات على كمال مبدعها ومبدئها ومصرفها ، وتتطلع عيون عقولهم الى كيفية صدور الوجود الممكن الحادث ، (وهو مجموع هذه العوالم العلوية والسفلية) عن الوجود الازلي الواجب ، ويهتمون بارتقاء الاسباب للوصول الى معرفة أول موجود ممكن منها ، وكيف ابتدأت سلسلة الاسباب بعد ذلك بتحول البسائط وتولد بعضها من بعض ، قبل وجود هذه المركبات المعروفة من السماء والارض ، طمعا في معرفة حقيقة ذلك الوجود الاعلى ، على عجزهم عن إدراك كنه أدنى هذه الموجودات السفلى ، وقد اختلف الحكماء في امكان وصول العلم البشري ، الى حقيقة الوجود الاول الازلي ، وكيفية صدور الموجودات الممكنة عنه ، فقال بعضهم بامكان ذلك وتوقع حصوله في يوم من الايام ، وقال آخرون بأنه فوق استعداد الانام

والحق في ذلك ما هدانا اليه دين الله الحق ، وهو أن ادراك أبصار الخلق له سبحانه وتعالى وإحاطة علمهم به من المحال الذي لا مطمع فيه (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما) ولكن العجز عن الادراك والاحاطة ، لا يستلزم العجز عما دون ذلك من العلم والمعرفة ، التي ترتقي الى الدرجة التي عبر عنها بالتجلي والرؤية ، فان كانت ظواهر الآيات في ذلك متعارضة ، فالاحاديث والآثار الصحيحة المبينة له جلية واضحة ، وإنما وقع المراء بين المتكلمين والمتفلسفين وبين علماء الآثار

في كلمة «الرؤية» فأثبتها أهل الاثر لدلالة ظواهر القرآن و نصوص الاحاديث عليها ، ومنعوا قياس رؤية الباري تعالى على رؤية المخلوقات ، بدعوى استلزامها التحيز والحدود وغير ذلك من صفات الاجسام ، وقالوا اننا لا نبحث في كيفية ذاته ولا صفاته تعالى ، فاننا نجزم بأن له علما وقدرة وسمعا و بصرا، ولكن علمه ليس ناشئا كعلمنا عن انطباع صور المعلومات في النفس ، ولا مكتسبا له بالحواس أوالفكر ، وكذلك قدرته وسائر صفاته ، فنحن نجمع بين الايمان بالنصوص في أسماء الله وصفاته وأفعاله وسائر شؤونه ، وبين تنزيهه عما لا يليق به من مشابهة خلقه، الممنوعة بدلائل النقل والعقل، كما قال عز وجل (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)

ونفاها (بعض) أهل الكلام والفلسفة بناء على قياس الخالق سبحانه وتعالى على المخلوق ودعوى منافاة الرؤية للتنزيه، الذي هو أصل العقيدة و ركنها الركين . ولكنهم لا يستطيعون انكار الحقيقة التي أثبتها أهل السنة والجماعة اذا عبر عنها بغير لفظ الرؤية، كأن يقال إن أعلى نعيم أهل الجنة لقاء الله تعالى بتجليه عليهم تجليا يحصل لهم به أعلى ما استعدت له أنفسهم وأرواحهم من المعرفة ، وان أعظم عقاب لاهل النار حجبهم عن ربهم وحرمانهم من هذا التجلي والعرفان ، الخاص بدار الكرامة والرضوان . فانهم لا يعتنون بتأويل مثل قوله تعالى في المتقين (تحيتهم يوم يلقونه سلام) وقوله في الكافرين (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) كما يعتنون بتأويل قوله (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) بأن النظر معناه الانتظار والرجاء ، وما رد به بعضهم على بعض في الآية يطلب من الكشاف والبيضاوي وحواشيهما وسائر كتب التفسير ومن كتب الكلام وشروح الاحاديث(*

وكم بين حذاق الجدال تنازع وما بين عشاق الجمال تنازع

ومن غرائب جدلهم أن كلا منهم يستدل على مذهبه بطلب موسى عليه السلام رؤية ربه وقوله تعالى (لن تراني . .) الآية . فأهل السنة يستدلون

*) قد عدنا فبينا آنفا لباب الخلاف ، واهم دلائل الفريقين مع الانصاف

على جواز الرؤية بسؤال الكليم اياها وعدم انكار الباري تعالى عليه هذا السؤال كما أنكر على نوح عليه السلام سؤاله نجاة ولده الكافر بناء على أنه من أهله الذين وعده بنجاتهم — وبتعليق الرؤية على جائز وهو استقرار الجبل ، والمعتزلة يستدلون بالآية على عدم الرؤية بعدم اجابة الكليم اليها وتعليقها على ما علم الله أنه لا يكون

واذا كانت الآيات التي استدل بها كل فريق ليست نصا قاطعا في مذهبه ففي الاحاديث المتفق عليها ما هو نص قاطع لا يحتمل التأويل في الرؤية وتشبيهها برؤية البدر والشمس في الجلاء والظهور وكونها لا مضارة فيها ولا تضام ولا ازدحام . وفي كتاب التوحيد من صحيح البخاري أحد عشر حديثا في ذلك ، وجمع ابن القيم في (حادي الارواح) ما ورد في ذلك من الاحاديث فكان ثلاثين حديثا . قال الحافظ ابن حجر عند اشارته الى ذلك : وأكثرها جياد . وزاد ابن القيم ما ورد عن الصحابة والتابعين وأئمة علماء الامصار في ذلك وحملهم اياه على ظاهره مع تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقات ، ولكن بعض مثبتي الرؤية من أهل السنة اختلفوا في معناها فكان بعض ماقالوه تأويلا أبعد من تأويل المنكرين

قال الحافظ في الكلام على تفسير (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) من شرح كتاب التوحيد من البخاري ما نصه : واختلف من أثبت الرؤية في معناها فقال قوم يحصل للرائي العلم بالله تعالى برؤية العين كما في غيره من المرئيات وهو على وفق قوله في حديث الباب « كما ترون القمر » الا أنه منزه عن الجهة والكيفية وذلك أمر زائد على العلم . وقال بعضهم : ان المراد بالرؤية العلم ، وعبر عنها بعضهم بأنها حصول حالة في الانسان نسبتها الى ذاته المخصوصة نسبة الابصار الى المرئيات . وقال بعضهم : رؤية المؤمن لله نوع كشف وعلم الا أنه أتم وأوضح من العلم ، وهذا أقرب الى الصواب من الاول اهـ

ثم ذكر ماتعقب به من قال ان المراد بالرؤية العلم . وانما قال في القول الاخير انه أقرب الى الصواب لما فيه من التفويض وعدم التحديد ، وهذا المعنى هو الذي قال به الغزالي وأوضحه في كتاب المحبة من الاحياء بما يعهد من قرأ الاحياء من بيانه وفصاحته

هذا وان احصاء ما ورد في هذا الباب مما استدل به على الرؤية اثباتا ونفيا من الآيات والاحاديث وسرد كلام المثبتين والنفاة وبيان الراجح منه والمرجوح يستغرق عدة اجزاء من المنار، ولن يرضى ذلك منا أكثر القراء(١) وجملة القول في المسألة ان الآيات القرآنية ليس فيها نص قاطع لا يحتمل التأويل، ولكن بعض الاحاديث الصحيحة والحسنة صريحة في ذلك لا تحتمل التأويل ، والمرفوع منها مروي عن أكثر من عشرين صحابيا دع الموقوف والآثار ، ولم يرد في معارضتها شيء أصرح من حديث عائشة المتفق عليه عن مسروق قال قلت لعائشة (رض) يا أمتاه هل رأى محمد (ص) ربه ليلة المعراج ؟ فقالت : لقد قف شعري مما قلت ! أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب ، : من حدثك أن محمداً (ص) رأى ربه فقد كذب ، وفي رواية : فقد أعظم على الله الفرية . ثم قرأت (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير * وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب) ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ، ثم قرأت (وما تدري نفس ماذا تكسب غدا) ومن حدثك أنه (أي أن النبي (ص) كتم شيئا من الدين فقد كذب ، ثم قرأت (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك) — الآية — ولكن رأى جبريل في صورته مرتين . اه

وقد ذكر النووي في شرح مسلم أن عائشة لم تنف وقوع الرؤية بحديث مرفوع ولو كان معها لذكرته وانما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية وقد خالفها غيرها من الصحابة الخ وذكر الحافظ في الفتح انه قال ذلك تبعا لابن خزيمة ذاهلا عما ورد في صحيح مسلم الذي شرحه ، وذكر ان في حديث مسروق عنده زيادة عما ذكرناه من لفظ البخاري وهي . — قال مسروق وكنت متكئا فجلست وقلت ألم يقل الله (ولقد رآه نزلة أخرى) فقالت أنا أول هذه الامة سأل رسول الله (ص) عن ذلك فقال « إنما هو جبريل » الخ

فعلم من هذا ان عائشة تنفي دلالة سورة النجم على رؤية النبي (ص) لربه بالحديث المرفوع وتنفي جواز الرؤية مطلقا أو في هذه الحياة الدنيا بالاستدلال بقوله

١) قد اوردنا في المباحث المتعلقة بها آنفا اصح ما ورد واقوى ما فيه .

تعالى (لاتدركه الابصار) وقوله (وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب) ويعارض هذا الاستدلال انه ليس نصا في النفي حتى يرجح على الاحاديث الصريحة في الرؤية وقد قال بها بعض علماء الصحابة . وقال بعض العلماء ان عائشة ليست أعلم عندنا من ابن عباس الذي أثبت الرؤية للنبي ليلة المعراج . وفي هذا القول بحث فان ابن عباس استنبط اثبات الرؤية في الدنيا من الآيات وقد انفرد بذلك دون سائر الصحابة . وأما من روي عنهم إثبات الرؤية في الآخرة فليس فيهم أحد يقال انه أعلم من عائشة الا والدها الصديق وعلى المرتضى وزيد ابن ثابت وقد يذكر في طبقتها منهم العبادلة . ولكن الحديث عن أبي بكر وزيد ابن ثابت في هذا الباب ضعيف وعن علي موضوع حتى ان ماروي عنها نفسها فيه أقوى سندا . ويقول النفاة لو رأى النبي (ص) ربه ليلة المعراج لما خفي نبأ ذلك عن عائشة مع ما علم من حرصها على العلم ، وسؤالها اياه عن آية النجم ؟ وقد يقول النفاة أيضا : لو كانت الرؤية في الآخرة عقيدة يطالب المسلمون بالايمان بها لما جهلتها عائشة . ولكن هذا القول لا ينهض لمعارضة اثبات المثبتين لها بالاحاديث الصريحة ، وانما قصاراه أن يعد دليلا على أن المسألة من أمور الآخرة التي كان يذكرها النبي (ص) أحيانا لبعض الخواص اذلا يضر العامة جهلها ، فلم يقصد أن تكون عقيدة يدعى اليها مع التوحيد .

وأحسن ما يجاب به عن استنباط عائشة وأقواه عند المثبتين أن يقال إنها تريد به نفي الرؤية في الدنيا كما قال بذلك الجمهور ولا تقاس شؤون البشر في الآخرة على شؤونهم في الدنيا لان لذلك العالم سننا ونواميس تخالف سنن هذا العالم ونواميسه حتى في الامور المادية كالاكل والشرب والمأكول والمشروب فماء الجنة غير آسن فلا يتغير كماء الدنيا بما يخالطه أو يجاوره في مقره أو جوه ، وخمرها ليس فيها غول يغتال العقل ولا يصدعون عنها ولا ينزفون ، ولبنها لا يعتريه فساد ولا تخالطه جنة (ميكروبات) أمراض ، وكذلك فاكهتها وغير انها هي على كونها أعلى وأشهى مما في الدنيا لا تفسد . قال ابن عباس : ليس في الدنيا شيء مما في الجنة الا الاسماء . وكذلك أمزجة أهلها ، هي أصح وأسلم من امزجة أهل الدنيا حتى إنهم يأكلون

ويشربون فيكون هضمهم بالتبخر ورشح العرق ، ففي الحديث الصحيح أنه جشاء ورشح لها ريح المسك . ولا عجب في ذلك فان علماء العصر الذين يظنون أن في كوكب المريخ أحياء عقلاء كالبشر يجزمون بأنهم لابد أن يكونوا أكبر منا أجساما وأسرع من الخيل العادية في حركتهم العادية، هذا وعالم المريخ لا يعرف فيه من الحياة الروحانية العالية مثل ما ورد في حياة الجنة ، ولكن ما ذكره علماء العصر في شأنه يقرب تصور ما ورد في صفة الآخرة من الاذهان المقيدة بالمألوفات، فان بعض الناس انما ينكرون أخبار الآخرة لانها مخالفة لما جدوا عليه من المألوفات ، ولو أنهم أخبروا بما اكتشف من أسرار الكون في هذا العصر كخواص الكهرباء والراديوم قبل أن يصير مشهودا مقطوعا به لما صدقوه

قال الله عز وجل في بيان جزاء المؤمنين القائمين بأعمال الايمان حق القيام (فلا تعلم نفس ما أخفيَ لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) ووضح ذلك رسوله (ص) في حديث قدسي رواه الشيخان في صحيحهما عن أبي هريرة قال (ص) « قال الله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وروى أهل الكتاب مثل هذا عن سيدنا عيسى (ص) فاذا ثبت لنا أن كل ما ورد في دار الكرامة أعلى وأسمى مما في الدنيا حتى الاجسام وصفات الناس وغرائزهم وانه لا يشارك ما في الدنيا الا بالاسم ، الذي عبر عنه به لضرورة تقريب تلك المعاني الغيبية من الفهم، فهل يصح بعد ذلك ان نعمد الى أعلى ما هنالك من الشؤون الالهية المعنوية فنشبهه بشؤون الدنيا؟ فنجعل تجلي الرب سبحانه وتعالى لاولئك العباد المكرمين الذين رقاهم وكملهم وأهلهم لكمال معرفته تحيزا ومشابهة للخلق ؟ ونجعل ما يحصل لهم من ذلك التجلي من العلم الا كمل والمعرفة العليا التي تستغرق أرواحهم وجميع مشاعرهم الظاهرة والباطنة إدراكا لكنه الرب عز وجل واحاطة علم به — تعالى عن ذلك — ثم نعذر أنفسنا على هذا الجهل بأن ذلك قد سمي رؤية ومعاينة ولا بد أن تكون الرؤية هنالك كرؤيتنا التي نعهدها هنا ؟

سبحان الله ! أيكون كل ما هنالك من أعيان المخلوقات وصفاتها وأحوالها

مخالفا لما له اسمه منها هنا الا ما يتعلق بشأن الخالق عز وجل فهو الذي يجب أن يكون مشابها لشؤون المخلوقين بعضهم مع بعض ؟ أهذا هو المذهب الذي يدعي أصحابه اتباع المعقول ، ويسخرون من أهل السنة بزعمهم انهم جمدوا على بعض أحاديث الآحاد من المنقول ؟ وهم الذين قد جمدوا على ما دون ذلك من الالفاظ العربية التي استعملت في صفات الباري تعالى وشؤونه وأخبار عالم الغيب فتراهم يصرفونها عن معانيها ويعطلون مدلولاتها المقصودة لتوهمهم أنها لا تكون صحيحة الا اذا كانت مدلولاتها في عالم الغيب كمدلولاتها في هذا العالم من كل وجه . ثم تحكموا فأثبتوا بعض صفات الباري، تعالى بدون تأويل كالعلم والقدرة والارادة، وهذا عين التشبيه ، وأولوا أكثرها كالكلام والرحمة والمحبة والغضب والرضاء والعلو والوجه واليدين الخ وهذا عين التعطيل — واهل السنة يثبتون له تعالى كل ما أثبته لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله (ص) وينزهونه فيه كله عن مشابهة خلقه ولا يرون فرقا بين العلم والرحمة والكلام فكلها من صفات الكمال الثابتة له مع التنزيه — فعلمه ليس كعلم البشر منتزعا من صور المعلومات بالحس أو الفكر — وكلامه ليس كيفية عرضية تحصل بتموج الهواء بتأثير الصوت الذي يخرج من الفم — وكذلك سائر صفاته وشؤونه تعالى ، فتجليه لخواص خلقه في دار كرامته ليس كظهور بعضهم لبعض، وما يحصل لهم من رؤيته ومعرفته وسماع كلامه لا يشابه ما يكون من بعضهم لبعض .

واذا كنا قد عرفنا بالمشاهدة في عالم الحس أن إيقاد مصباح زيت الزيتون أو زيت البترول لا يشبه إيقاد مصباح الكهرباء بوجه من الوجوه ولا يشترط في الثاني ما يشترط في الاول — ونجزم بأن هذا الفرق لا يمكن أن يتصوره من لم يعرف الكهرباء البتة — فيجب علينا أن لا نستغرب ما هو أبعد من هذا الفرق بين عالم الغيب والشهادة في اختلاف الكيفية لحقيقة واحدة كالرؤية . ومن كان له حظ من معرفة الله تعالى في الدنيا لا يحتاج الى الامثال، وحسب المحروم منها أن ينتفع بالامثال، (وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)

﴿ انتهت الفتوى ﴾

﴿ خلاصة وتتمة تزيد المسألة وضوحا ، ومذهب السلف ثبوتا ﴾

(١) الرؤية ليست من أصول الايمان القطعية

قد علم مما تقدم أنه ليس في الرؤية البصرية نص أصولي ولا لغوي متواتر قطعي الرواية والدلالة يجعلها من العقائد المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة، وليست مما كان يدعى اليه في تبليغ الدين مع التوحيد والرسالة بحيث يكون من يجهلها أو ينكرها كافرا، وانما هي من غريب العلم الاعلى الذي يستنبطه من القرآن كبار العارفين، وربما كان فتنة لمن دونهم - وكذلك كان - حتى إن كبار النظار وعلماء البيان قد اختلفوا في كل من الآيات الثلاث الواردة فيها : في سور الانعام والاعراف والقيامة ، فجعلها بعضهم مثبتة وبعضهم نافية ، والقاعدة في دين الرحمة والشريعة السمحة أن الحجة لا تقوم على جميع المكلفين إلا فيما كان قطعي الدلالة لغة ، وانهم يعذرون باختلاف الافهام في غيره كما علم من واقعة تحريم الخمر والميسر فان آية البقرة تدل على التحريم بمقتضى القاعدة المعروفة عند الفقهاء وهي تحريم ما تغلب المفسدة فيه على المصلحة ويرجح الضرر فيه على النفع، وقد نطقت الآية بهذا الترجيح في الخمر والميسر (وإثمهما أكبر من نفعهما) وهو ما فهمه بعض خواص الصحابة فتركوهما .ولم يكلف جميع المسلمين تركهما إلا بعد نزول آية المائدة التي هي نص قطعي لا يحتمل التأويل إذ نطقت بأنهما رجس من عمل الشيطان وصرحت بالامر باجتنابه وهو أبلغ من الامر بالترك

وما من مسألة ذكرت في القرآن بنص غير قطعي الدلالة إلا ولله تعالى حكمة في عدم القطع بها، وقد بين حكماء العلماء حكمة ذلك في الخمر والميسر بأن شدة افتتان الناس بهما كانت تقتضي أن يشق على الناس تركهما دفعة واحدة حتى يتعذر على بعض المؤمنين من ضعاف الايمان تركهما ويتعسر على بعض، وينفر غير المسلمين من الاسلام ، فكان من حكمة الرب ورحمته جل جلاله أن يحرمهما بالتدريج ولا سيما الخمر فانه أنزل آية تقتضي ترك الخمر في عامة النهار وناشئة الليل وهي قوله (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فراجع تفسيرها البليغ في سورة النساء — وآية يفهم منها دقيق العلم قوي الايمان التحريم فيتركها في كل وقت وهي آية سورة البقرة ثم صرح بعد ذلك بسنين بالاجتناب على سبيل القطع

لولا غفلة العلماء الذين طعن بعضهم في علم المخالف له في مسألة الرؤية وفي

دينه من هذه الحكمة وتلك القاعدة لعذر كل منهم الآخر ولم يجعلوا الخلاف فيها عصبية مذهبية ، ولعلم المثبتون لها منهم أن الله تعالى لو أراد أن تكون عقيدة عامة وركنا من أركان الايمان لبين ذلك في آية صريحة لا تحتمل التأويل ناطقة بأنه يرى بالابصار عيانا بلا كيف ولا إحاطة ولا تمثيل ولقال النبي (ص) حين عرّف الايمان في حديث جبريل بعد قوله « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » : وان المؤمنين يرون ربهم في الآخرة بأبصارهم عيانا بلا كيف ولا تشبيه — ولأمر بتلقين هذا لكل من يدخل في الاسلام ولتواتر عنه وعن أصحابه الجري على ذلك حتى يكون معلوماً من الدين بالضرورة، واذا لما وقع فيه خلاف ، ولما استنكرت عائشة سؤال مسروق إياها عن رؤية النبي (ص) لربه حتى قف شعرها من استعظام ذلك ، ولو كانت تعتقد أن الرؤية تكون في الآخرة لجميع المؤمنين لما استنكرت واستكبرت حصولها للنبي (ص) في الدنيا امتيازاً له لان روحه فيها أقوى من أرواح سائر المؤمنين في الآخرة فيطيق ما لا يطيقه غيره حتى موسى عليه السلام ، ولقاست هذا الامتياز على الناس بامتيازه — عليه صلوات الله — عليهم بالوحي ورؤية الملائكة وغير الملائكة من عالم الغيب، على أنه (ص) كان ليلة المعراج في ذلك العالم لا في عالم الارض

فالحكمة الظاهرة لعدم النص القطعي في القرآن على المسألة أنها مما تتحير فيه العقول وربما كانت مما يدخل في عموم ما رواه مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن مسعود « ما أنت بمحدث قوما حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » وعموم ما ذكره البخاري في كتاب العلم عن علي كرم الله وجهه. « حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذّب الله ورسوله » ـ ورويا مرفوعين ولكن بسندين ضعيفين ـ والمراد بالمعرفة في الثاني ما يقابل المنكر وما لا يعقل لا ما يقابل الجهل إذ يكون من تحصيل الحاصل وقد زاد فيه آدم ابن أبي اياس وأبو نعيم في المستخرج : ودعوا ما ينكرون. ذكره الحافظ في الفتح واستشهد له بأثر ابن مسعود المذكور آنفا ، واستدل به على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة وفسر مالا ينكرون بما لا يشتبه عليهم فهمه. ولا يسلم قوله هذا على إطلاقه فانه يجب استثناء ما في القرآن منه إذ لا يجوز كتمانه عن أحد ، على أنه كله من قبيل آيات الرؤية، ليس فيها مثار للفتنة، مع عقيدة التنزيه ونفي المماثلة ،

وقاعدة التفويض التي جرى عليها السلف ، فهذا هوالذي يحول دون اتباع المتشابه إلا لمن في قلبه زيغ كما نص في آية المحكم والمتشابه من أول سورة آل عمران. وهذا يؤيد قولنا إن الامام احمد لم يكفر منكري الرؤية إلا لانه كان يعتقد أن الحامل لهم على الانكار هو الزيغ والزندقة

ثم قال الحافظ : وممن كره التحديث ببعض دون بعض احمد في الاحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان ومالك في احاديث الصفات وابو يوسف في الغرائب ، ومن قبلهم ابو هريرة كما تقدم عنه في الجرابين وان المراد (اي بالثاني) مايقع من الفتن (١) ونحوه عن حذيفة وعن الحسن انه انكر تحديث انس للحجاج بقصة العرنيين لانه اتخذها وسيلة الى ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي . وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة وظاهره في الاصل غير مراد فالامساك عنه عند من يخشى عليه الاخذ بظاهره مطلوب والله اعلم اهـ (٢)

---

(١) أي حديث جرابي العلم اللذين حفظهما عن النبي (ص) فبث أحدهما ولو بث الآخر لقطع بلعومه

(٢) حاشية . ومن ذلك ما ذكره بعض علماء الشام لجمال باشا السفاك من جزاء البغاة الخارجين على امام المسلمين وجماعتهم فاتخذه حجة لدى العامة على صلب من صلبهم بغير حق من نابغي البلاد، ولم يكن هو منفذا لامر سلطانه الذي لم يكن من ائمة الحق بل لم يكن له من السلطة شيء إذ جمال باشا وجمعيته كانوا هم الخارجين عليه وكذلك كان يفعل أمير مكة حسين منذ سمي ملكا في الحجاز: يقطع الايدي والارجل ممن يخالف سياسته ولو بذنب معتاد أو بغير ذنب شرعي حتى روي أن رجلا فر من سجنه الذي هو أقبح مظاهر الظلم والقسوة فأمر بقطع يده ورجله من خلاف وان رجلا آخر أنكر في حرم المدينة المنورة اطراء الخطيب له في الخطبة بما هو كذب وزور فأمر به فقطع وصلب ووضع على صدره لوح كتب فيه (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف) الآية وكان هذا قبل جهره بدعوى الخلافة ، فلو أقره العالم الاسلامي على هذه الدعوى باجازة تلك البيعة الباطلة من بعض أولي العصبية =

(اقول) هذه مسألة كبيرة من مسائل الاجتهاد تدخل في باب التعارض والترجيح من الاصول ، اعني التعارض بين ما اوجب الله تعالى من بيان العلم واظهار الشرع وما حرم من الكتمان في قوله (ليبيننه للناس ولا يكتمونه) وبين ما حرم من الظلم والفساد والفتنة وما وجب من سد ذرائعها مما هو مجمع عليه ، ولم أر لاحد من العلماء تحقيقاً لهذا البحث وليس هذا محله

(•) الرؤية في العمل النومي

قد ثبت بالتجربة المكررة والرؤية البصرية أن بعض الناس يعملون في حال النوم المعطل لجميع الحواس اعمالا دقيقة كالقراءة والكتابة وتركيب الادوية ، بسرعة ومهارة يعجزون عن مثلها في اليقظة ، وقد كان يخرج أحدهم من منزله ثم يعود اليه وهو مغمض العينين وقد يفتحهما ولا يرى بهما إلا ما توجهت ارادته اليه كبعض الصيادلة الذي راقبه طبيب عرف حاله فرآه يقرأ وصفات الاطباء ويركب ما جاء فيها فألقى اليه فيها وصفة دواء سامّ يقتل شاربه في الحال فقرأها واعاد التأمل فيها وقال : لا شك أن هذا

= الجاهلية العمية وفالى أي حد كان يتهوك ويتقحم في جرأته على تحريف كتاب الله تعالى واستحلال دماء المسلمين به ؟ وانما نزلت الآية تهديداً للبغاة الخارجين على امام المسلمين وجماعتهم — بقطع الطرق وتهديد الامن العام ونهب الاموال وقتل الانفس لا على أفراد العصاة وان اقترفوا أكبر الكبائر كالقتل والسرقة وقد منع الله عقاب البغاة بذلك اذا تابوا قبل القدرة عليهم وخير الامام فيهم اذا ظهر عليهم بالقوة فقال: إنما جزاؤهم كذا أي اذا كانت المصلحة فيه ولم يقل فيهم كما قال في السارق والسارقة (فاقطعوا أيديهما) وفي الزاني والزانية (فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة)

(١) طرقه الامام الشاطبي في (الباب الثامن) من كتاب الاعتصام (في الفرق بين البدع والمصالح المرسلة والاستحسان) ومما ذكره من الوقائع في بعض فروعه ان بعض كبار العلماء افتوا بعض الملوك بوجوب صيام شهرين متتابعين في كفارة الوقاع في نهار رمضان دون العتق لان الصيام يزجرهم عن افساد صيامهم دون العتق ، وان مالكا افتى الرشيد بصيام ثلاثة ايام في كفارة اليمين ويراجع تفصيله في (ص ٤٨ ج ٣ منه)

غلط اوسبق قلم من الطبيب فأنا لا أرتبه ، وألقاها . وراقب بعضهم رجلا آخر كان يخبر أن نقوده تسرق من صندوقه الحديدي في كل ليلة فبات عنده فرآه قد قام من فراشه بعد استغراقه في النوم وفتح صندوقه وأخذ منه بعض النقود وخرج بها فتبعه حتى جاء مكانا خربا فتسلق جدارا من جدره المتداعية ومشى عليه بسرعة ثم نزل في داخله وحفر في الارض حفرة ووضع فيها ما حمله من النقود وعاد فتسلق الجدار ومر عليه مسرعا والمراقب ينظر اليه ولا يستطيع أن يفعل فعله وعاد الى منزله وأوى الى فراشه فلما استيقظ في النهار عدا الدرهم وأخبر الرجل الذي بات عنده ليكشف له حال من يسرق صندوقه عما نقص منها فحدثه هذا بما رآه فعجب وأنكره فذهبا الى المكان فلم يستطع الرجل أن يتسلق الجدار ويمشي عليه مسرعا كما فعل وهو نائم ولكنهما تكلما ذلك وتريثا فيه حتى وصلا الى مكان طمر النقود وبحثا عنها فوجداها في عدة مواضع . ورؤي بعض غلمان أسرتنا مرارا يقوم من النوم ويخرج لحاجته ثم يعود وهو نائم ودخل المطبخ مرة فنظف بعض الآنية فيه وعاد الى فراشه وهو نائم

وربما كانت هذه الحالة مؤيدة لمذهب من قال ان للانسان نفسين أو روحين تفارقه إحداهما في حال النوم فقط وتفارقه الثنتان معاً بالموت ، ويقرب هذا من قوله تعالى (الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى)

(٣) الرؤيا والاحلام

الرؤيا النومية والاحلام منها خواطر تتمثل واقعة في حال النوم وسببها اشتغال الفكر بها أو أسباب تعرض للنائم فيتخيلها بنفسها أو ما يشبهها واقعاً وهي أضغاث الاحلام ، ومنها الرؤيا الصادقة كرؤيا ملك مصر التي أولها له يوسف عليه السلام وأمثالها كثير وقع معنا ومع غيرنا وثبت بالتواتر ثبوتا لا يحتمل التأويل بالرغم من أنوف المكابرين وقد بيناه من قبل بالتجارب القطعية

وأعلاه وأكمله رؤيا الانبياء التي هي من مبادىء الوحي ، وقد وقع للنبي (ص) رؤية الرب تعالى في المنام كما روي عن ابن عباس وأنس وظن بعضهم أنه أرادبها اليقظة وقد تقدم ذكر ذلك في هذه المباحث ، ووقع ذلك لغيره أيضا

(٤) الرؤية في النوم المغناطيسي

النوم المغناطيسي قد اشتهر وكثر وهو يحصل بتنويم صناعي يستعان عليه

بقوة ارادة بعض الناس وتأثيرهم في أنفس من ينومونه أو ببعض الاعمال التي لامحل لبسطها هنا . والنائم به يغيب ادراكه وشعوره عن كل شيء ما عدا منومه فان نفسه تكون رهن تصرفه فاذا امره بشيء خضع لارادته بقدر ما في نفسه من الاستعداد لذلك وقد ثبت بالتجارب الكثيرة أن المنوم يسأل النائم عن أشياء غائبة أو مستورة ما هي وأين هي ؟ فعند سؤاله إياه عنها تتوجه نفسه اليها فيراها ويخبره عنها فيصدق

فهذه ثلاثة أضرب أو أنواع من الرؤية للشيء لا عمل للاعين فيها إلا أن العرب خصت ما يرى في النوم باسم الرؤيا - بالالف - وما يقع في اليقظة باسم الرؤية ، ولم تفرق بينهما في الافعال ، ولعلها لو عرفت النوع الاول والثالث مما ذكرنا هنا لسمته رؤيا أيضاً ،

روى احمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عباس (رض) في قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) قال : هي رؤيا عين أريها رسول الله (ص) ليلة أسري به الى بيت المقدس وليست رؤيا منام. نقول ولكن الله تعالى سماها « رؤيا » لا رؤية . والتحقيق المختار أن الاسراء والمعراج كانا في حالة روحية قوي فيها سلطان الروح على سنن الله في الجسد فصار خفيفاً لطيفاً كالاجسام التي تتمثل فيها الملائكة للانبياء (ع م) وتمثل فيها الروح للسيدة مريم (ع م) لا بالروح فقط كما قيل ولا في المنام كما في رواية شريك في كتاب التوحيد من صحيح البخاري وهو يتفق مع قول من قالوا إنهما بالروح والجسد إذ إطلاقهم لا ينافي هذا القيد - وان قيل ان الجسد الذي حلته روحه الشريفة ليلتئذ غير جسده المعتاد ليناسب العالم الذي دخل فيه - فكيف ولا مانع من كونه هو بعينه اثرت فيه الروح فلطفته وجعلته كالاثير في لطفه وقوته في هذا العالم الدنيوي وبقي السلطان للروح. فجبريل الذي تمثل للنبي (ص) بصورة دحية ولمريم بصورة شاب جميل الصورة هو جبريل الذي رآه النبي (ص) بصورته سادا الافق الأعلى وقال تعالى فيهما (فأوحى الى عبده ما أوحى) يوضح هذا ما يأتي

(٥) تشكل الملائكة والجن ورؤيتهم في هذه الحالة

قد ثبت عن أفضل البشر وأصدقهم من أنبياء الله وبعض أوليائه انهم كانوا يرون الملائكة والجن في صور لطيفة أو كثيفة وثبت تمثلهم لهم بنص

القرآن وغيره من كتب الوحي .

وقد صح أن النبي (ص) لم ير جبريل ملك الوحي في صورته التي خلقه الله تعالى عليها إلا مرتين ، وقد علم بالقطع أنه رآه في الصور التي كان يتشكل فيها مراراً تعد بالمئين أو أكثر ، وليست محصورة في عدد نزوله بآيات القرآن وسوره ، وقد كان من تلك الصور صورة دحية الكلبي رضي الله عنه ، ومنها صورة الرجل الغريب الذي سأل النبي (عليهما السلام) عن الاسلام والايمان الخ وهذا النوع من الصور الكثيفة رآه فيه من حضر مجيئه من الصحابة (ص) ومنها صور لطيفة لم يكن يراه فيه غير النبي (ص) وقوله في حديث الوحي الذي رواه الشيخان : « وأحياناً يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي ما يقول » يشمل النوعين ، وورد أنه (ص) مثلت له الجنة والنار في عرض الحائط فرآهما ولم يرهما غيره ، ومعنى هذا ان الله تعالى أراه مثالهما وهذا غير تمثل الملك له بارادته وعمله

وقد رأى (ص) غير جبريل من الملائكة ورأى بعض الشياطين أيضاً متمثلة في صور ؛ وكان يعبر عن ذلك بالرؤية . فثبت بهذا أن الرؤية للشيء لا تقتضي رؤية حقيقته في الواقع ونفس الامر وان كان مخلوقا له جنس ينقسم الى أنواع تحتها أصناف ، وشخوص لها أمثال

فاذا كان المخلوق يرى مخلوقا مثله رؤية لا يدرك بها كنهه ولا يحيط بحقيقته ولا يشاركه فيها كل من له عينان مثله ـ وهذا مما يؤمن به المعتزلة والشيعة والاباضية كغيرهم ـ فهل يستنكر أن تكون رؤية الرب الذي ليس كمثله شيء بلا كيف ولا مثال وعلى غير المعهود في رؤية بعضنا لبعض كما استنكر هؤلاء الذين قال شاعرهم :

قد شبهوه بخلقه وتخوفوا شنع الورى فتستروا بالبلكفه

أم يصح مع هذا أن يصر بعض أهل السنة على تقييد رؤيته تعالى بالابصار وأعين الرءوس واستنكار تسميتها رؤية روحية مع الاتفاق بينهم على أن الادراك بجميع أنواعه للنفس لا للجسد، كما ترى توضيحه في المسألة التالية

(٦) الكشف وكون الادراك للنفس

ان العلم والادراك في الحقيقة للروح وان الحواس والدماغ آلات حسية للعلم ببعض الحسيات بحسب سنن هذه الحياة الدنيا وقد ثبت بما تقدم

من الشواهد أن النبي (ص) كان يرى من ورواءه كما يرى من أمامه وهي رؤية روحية غير مقيدة ببصر العينين ولا بالمقابلة ، وثبت نحو من هذا لبعض المكاشفين بالروايات التي وصلت الى درجة التواتر ، ومن هذه المكاشفة مايقع في حال الصحة بقوة توجيه الارادة الى الشيء أو لجائيا بغير قصد ، كما وقع لمؤلف هذا التفسير في صغره فقد رأى جدته لامه وهو مضطجع مسجي في بستان لها تمشي في الطريق جائية اليه حتى اذا مارآها قد وصلت الى مدخل البستان من الطريق العام ناداها فأجابته ، ويبعد ان يكون هذا تخيل صادف الواقع ، وله أمثال ونظائر لولاها لتعين القول بذلك — وقد وقع لنا منه مع بعض الناس ما كنا نحمله على المصادفة لئلا يقيسوا عليه دجل المحتالين ولئلا نقع في الغرور ، ولكن مجموع ما نقله الثقات منه لا يحتمل التأويل . ومنه ما يقع في النفس بغير رؤية ولا تخيل وان كان فيما من شأنه ان يرى ، وليس مما نحن فيه

وقد يقع في أحوال مرضية كالمريض الذي كان يعالجه الطبيب شبلي شميل بمصر وكان يخبر بأشياء غائبة وبأمور قبل وقوعها فيصدق بالضبط الدقيق ، ومن الاول انه أخبر بأن قريبا له قد خرج من داره بالاسكندرية يريد السفر الى مصر لزيارته ثم أخبر انه رآه قد وصل الى محطة الاسكندرية ودخل القطار وبعد مضي ثلاث ساعات وكسور أخبر انه نزل من القطار في محطة القاهرة وخرج منها وركب مركبة لتحمله الى الدار التي هو فيها ، ثم أخبر انه وصل الى الدار ـ واذا به قد دخل . وكان الطبيب شبلي ينكر مثل هذا وينكر وجود أرواح مستقلة بالوجود تلابس الاجساد وتفارقها مدركة بالذات ، أي غير مقيده في ادراكها بوجودها في الجسد واكتسابها العلم من حواسه وعصب دماغه ، وقد صار بعد هذه الواقعة التي كتبها بقلمه ، وسمعناها من فمه ، يشبه دماغ الانسان بالآلة الكهربائية للتلغراف اللاسلكي التي تتلقف من كهرباء الجو مايرسله هذا التلغراف من أخبار السفن أو البلاد البعيدة ، ولكن كان من أخبار مريضه به أنه سيرعف أنفه في ساعة كذا من نهار غد ويخرج من دمه ما يبلغ وزنه كذا - - فكان كما قال ، وهذا اخبار عن الشيء قبل وقوعه لا يتناوله التشبيه الذي ذكره ، وهو من الغيب الاضافي الذي خلق الله الارواح كلها مستعدة لادراكه قبل وقوعه لو لا ما يشغلها عنه من مدارك الحواس والعقول وهموم الحياة — لا من الغ[illegible] الذي استأثر الله تعالى بعلمه ، وقد فصلنا

القول في الفرق بينهما في تفسير سورة الانعام (١)

(٧) أنواع المدركات وعناصر الكون وأحوالها

إن مدركات البشر الحسية والعقلية لا تتعلق في حال هذه الحياة الدنيا بكل ما في هذا الكون من أنواع الموجودات بل هناك حجج من الوحي والعقل والعلم تدل على ضد ذلك — أما الوحي فقد ثبت فيه أن العالم قسمان أو أن الكون قسمان : عالم الغيب وعالم الشهادة —

وأما العقل فمن أحكامه أن عدم العلم بالشيء لا يقتضي عدم وجوده وان من الجائز أن يكون في الكون موجودات كثيرة لا ندركها ولا تشعر بها حواسنا ومشاعرنا لعدم استعدادها لادراكها البتة كما أن بعضها لا يدرك مايدركه الآخر من الهيئات والالوان والطعوم والروائح مثلا — وإما لضعف الحاسة فينا عن إدراك ما هو من متعلقها لفقد بعض شروط ادراكه، وقد دل العقل على أن الوجود الممكن الذي نعرفه في الجملة يدل على الوجود الواجب الذي لم ندركه بحواسنا ولم تدرك كنهه عقولنا ، بل دل على وجود آخر من الممكنات وهو ما يسميه علماء الكون بالاثير

وأما العلم — علم التجربة والبحث العملي في الوجود — فقد أثبت وجود أحياء كثيرة الانواع ذات تأثير عظيم في حياة الاحياء من نفع وضر ترى بالمرايا المكبرة دون البصر المجرد واثبت وجود مواد أخرى لطيفة هي من أصول عناصره التي لم يتم تكوينه إلا بها ، وهي لا تدرك بالحواس ولا بالعقل بادىء بدء وانما عرفت بأعمال التحليل والتركيب وآلاتها وستحدث لكثير من المنافع والمضار ، وهي كالعناصر التي يتركب منها الماء والهواء

وقد ثبت بالتجارب العملية ما صار العلم به قطعيا يدخل في باب الحسيات من أن الجسم الجامد يتحول بالحرارة الى مائع كما يكون الجليد والثلج ماء ، وان المائع يتحول بها الى بخار وهو ما نشاهده كالدخان اللطيف يخرج من الماء عند تسخينه ومن كل مائع فيه ماء ، وان هذا البخار المائي وغيره يتحول بشدة الحرارة الى مادة لا ترى كالهواء ويسمونها غازاً ، وان الاجسام الجامدة كالذهب والقصدير والمائعة كالماء والغازية كالهواء منها البسيط ومنها المركب ، وان

(١) راجع ص ٢٢١ ، كذا ٣١٥ قبله ج ٧ تفسير

البسائط التي تتألف منها المركبات محدودة تعد بالعشرات وصار في قدرة البشر أن يحللوا المراكب ويفرقوا بسائطه بعضها من بعض بصناعة الكيمياء وآلاتها ، وأن يحولوا الجوامد من صفتها فيجعلوها غازات ، وأن يجعلوا من الغازات ومن السائلات جوامد ، وهم يتخذون منها أغذية وأدوية وسموما قاتلة بل استخرجوا من ماء البحر الملح ذهبا ابريزا

هذه الاعمال التي صارت من صنائع البشر تقرب من العقل والعلم ما صح عن الرسل المعصومين من أن الملائكة وغيرهم من الجن يتشكلون في صور كثيفة ترى بالابصار وبصور لا ترى بالابصار . أي أن الله تعالى أعطى أرواحهم قوة يتصرفون بها في مادة الكون وفي أنفسهم بأعظم من تصرف علماء الكيمياء في نفسه ، ولكنه من جنسه ، فقد أعطى الله تعالى الواحد منهم قدرة على تأليف جسم لروحه من هذه المادة اذا شاء ، وحله وتفريقه متى شاء ، وقد وضحنا هذا التقريب من قبل وغرضنا من التذكير به هنا ايضاح مسألة تجلي الرب سبحانه تعالى في الصور أو من وراء الحجب وكون رؤيته لا تقتضي تشبيهه بخلقه كما زعم من لم يعلموا من أنواع الادراك والمدركات المخلوقة ما يقتضي تشبيه بعضها ببعض وقد قال تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا)

(٨) مذاهب الصوفية في الرؤية

الصوفية فرقة من فرق المسلمين المختلفين في الاصول وهم لا يقلدون اماما واحدا في الفروع بل منهم المجتهدون فيها ومنهم المقلدون لاهل المذاهب المشهورة ويكثر فيهم الشافعية كما أن اكثر المعتزلة والمرجئة من الحنفية . وقد غفل من لم يعدهم من الفرق الثلاث والسبعين . وانما الكلام فيمن يسمون صوفية الحقائق ، وهم اقرب الى الفلاسفة الروحيين الاشراقيين والى قدماء الشيعة منهم الى أهل السنة والاثر وجمهورهم يجلون الصحابة ولاسيما الخلفاء الراشدين وعلماء السلف ولاسيما العباد منهم . ومنهم المعتدلون واهل الحديث كشيخ الاسلام ابي اسماعيل الهروي صاحب منازل السائرين ، ومنهم الغلاة الذين مرق بعضهم من الاسلام بنزغات الباطنية وزيغهم وهم غلاة الرافضة من الاسماعيلية الى البهائية وزعمهم ، وهم من الفرس ، ومنهم الكتشفية وقد راجت دعوتهم في بلاد الترك والالبان و يقابلهم صوفية الاخلاق واهل السنة فهم يقولون في الرؤية مايقوله سائر

أهل السنة وكذا المعتدلون من أهل الحقائق فترى ابا حامد الغزالي من علمائهم قد فسر الرؤية بما ينطبق على مذهب الاشعري . وشأن سائر مقلديهم كشأن سائر المقلدين للمذاهب الاخرى

واما صوفية الحقائق المستقلون فجمهور اهل الوحدة منهم يدخلونها في مسائل الوحدة : فغلاة وحدة الوجود ليس عندهم الا وجود واحد له مظاهر ومجالي فهم يثبتون الرؤية بهذا الاعتبار والا فالرائي والمرئي واحد عندهم ، يعنون أن الرب عين العبد والعبد عين الرب فانه تعالى يرى نفسه بما يتجلى فيه من صور عبيده او ماشاء من خلقه ، وهذا تناقض وهذيان بديهي البطلان ، وحسبنا ما ننشره في المنار من ابطاله وتناقضه لشيخ الاسلام ابن تيميه رحمه الله تعالى

واما اصحاب وحدة الشهود منهم فمذهبهم ان الرب تعالى يتجلى لعبده المؤمن في الدنيا تجليا غير كامل وفي الآخرة تجليا كاملا ، فيفنى العبد بهذا التجلي عن نفسه وعن كل ماسوى ربه فلا يرى غيره وهو يراه بكل روحه المدركة لا بعينيه فقط

ومن كلام ابن الفارض فيه * اذا ما بدت ليلى فكلي أعين * فان الرؤية بآلة الباصرة انما تكون للارواح المحبوسة في هياكل الاجساد المقيدة بسنن الله فيها كما تقدم آنفا ، فهي كالمحبوس في سجن له نوافذ وكوى قليلة يرى منها بعض مايحاذيها دون غيره مما وراء السجن وهم يثبتون تجليه تعالى في الصور المختلفة ولا يرون ذلك محالا يجب تأويله بل يبقون الاحاديث في ذلك على ظاهرها كجمهور السلف

ولكل من هؤلاء واولئك اقوال وشواهد مشتركة يشتبه معها بعضهم ببعض فيما سر التنزيل بينهم ، ومنها استشهادهم بالحديث القدسي الذي اخرجه البخاري في صحيحه فانتقد عليه لعلة في سنده وذكره [1] النووي في الاربعين ومحل الشاهد منه « ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » ومعناه الذي يتفق مع اسلوب اللغة وقواعد الشرع: كنت متعلق سمعه وبصره وسائر جوارحه اي فلا توجه ارادته هذه الجوارح الا الى ما يعلم انه يرضي ربه ولا ينسى مراقبته في اعمالها ، وكل من القائلين بوحدة الوجود ووحدة الشهود يستدل به على مذهبه. ومن شعرهم في ذلك :

---

(١) رواه عن خالد بن مخلد الكوفي وهو من شيوخه وقد وثقه بعضهم وقال احمد له مناكير وقال أبو حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به .

اعارته طرفا رآها به فكان البصير بها طرفها

والشيخ محيي الدين بن عربي كلام في كل ما سبق ذكره من الآيات والاحاديث على طريقتهم في الوحدة في الباب الحادي واربعمائة من الفتوحات المكية وهو:

كلمة لابن عربي في الرؤية

«قال الله عز وجل (لا تدركه الابصار) وقال عز وجل لموسى عليه السلام (لن تراني) وكل مرئي لا يرى الرائي اذا رآه منه الا قدر منزلته ورتبته فما رآه وما رأى الا نفسه ولولا ذلك ما تفاضلت الرؤية في الرائين إذ لو كان هو المرئي ما اختلفوا لكن لما كان هو مجلى رؤيتهم أنفسهم لذلك وصفوه أنه يتجلى وانه يرى ولكن شغل الرائي برؤيته نفسه في مجلى الحق حجبه عن رؤية الحق فلذلك لو لم تبد للرائي صورته أو صورة كون من الاكوان ربما كان يراه فما حجبنا عنه إلا أنفسنا ولو زلنا عنا ما رأيناه لانه ما كان يبقى ثم بزوالنا من يراه؟ وان نحن لم نزل فما نرى الا أنفسنا فيه وصورنا وقدرنا ومنزلتنا فعلى كل حال ما رأيناه، وقد نتوسع فنقول قد رأيناه ونصدق كما انه لو قلنا رأينا الانسان صدقنا في ان نقول رأينا من مضى من الناس ومن بقي ومن في زماننا من كونهم انسانا لا من حيث شخصية كل انسان، ولما كان العالم أجمعه وآحاده على صورة حق ورأينا الحق فقد رأينا وصدقنا ،وان نظرنا الى عين التمييز في عين عين لم نصدق واما قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الدجال ودعواه انه اله فعهد الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أحدنا لا لا يرى ربه حتى يموت لان الغطاء لا ينكشف عن البصر الا بالموت والبصر من العبد هوية الحق فعينك غطاء على بصر الحق فبصر الحق أدرك الحق ورآه لا أنت، فان الله (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير) ولا ألطف من هوية تكون عين بصر العبد وبصر العبد لا يدرك الله، وليس في القوة أن يفصل بين البصرين، والخبير علم الذوق فهو العليم خبرة أنه بصر العبد في بصر العبد وكذا هو الامر في نفسه وان كان حيا فقد استوى الميت والحي في كون الحق تعالى بصرهما وما عندهما شيء فان الله لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء إذ (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) اهـ، قد تكلم على الآية في مواضع أخرى وعلى جميع الاحاديث الواردة في المسألة وكلامه متعارض بعضه يتأول بتكلف او بدون تكلف

﴿ ٨ كلمة في النور والحجب والتجلي في الصور ﴾

قال المحقق ابن القيم في (مدارج السالكين ، شرح منازل السائرين) للهروي في الكلام على الدرجة الثانية من منزلة (اللحظ) مانصه

«ونور الكشف عندهم هو مبدأ الشهود وهو نور تجلي معاني الاسماء الحسنى على القلب فتضيء به ظلمة القلب، ويرتفع به حجاب الكشف، ولا تلتفت الى غير هذا فتزل قدم بعد ثبوتها ، فانك تجد في كلام بعضهم « تجلي الذات يقتضي كذا وكذا ، وتجلي الصفات يقتضي كذا وكذا ، وتجلي الافعال يقتضي كذا وكذا » والقوم عنايتهم بالالفاظ فيتوهم المتوهم انهم يريدون تجلي حقيقة الذات والصفات والافعال للعيان ، فيقع من يقع منهم في الشطحات والطامات؛ والصادقون العارفون براء من ذلك ، وانما يشيرون الى كمال المعرفة وارتفاع حجب الغفلة والشك والاعراض ، واستيلاء سلطان المعرفة على القلب بمحو شهود السوى بالكلية ، فلا يشهد القلب سوى معروفه ، وينظرون هذا بطلوع الشمس فانها اذا طلعت انطمس نور الكواكب ولم تعدم الكواكب وانما غطى عليها نور الشمس فلم يظهر لها وجود وهي موجودة في أماكنها ، هكذا نور المعرفة اذا استولى على القلب وقوي سلطانها وزالت الموانع والحجب عن القلب . ولا ينكر هذا إلا من ليس من أهله ، ولا يعتقد أن الذات المقدسة والاوصاف برزت وتجلت للعبد كما تجلى سبحانه للطور وكما يتجلى يوم القيامة للناس الا غالط فاقد العلم ، وكثيراً مايقع الغلط من التجاوز من نور العبادات والرياضة والذكر الى نور الذات والصفات . فان العبادة الصحيحة والرياضة الشرعية والذكر المتواطيء عليه القلب واللسان يوجب نورا على قدر قوته وضعفه ، وربما قوي ذلك النور حتى يشاهد بالعيان فيغلط فيه ضعيف العلم والتمييز بين خصائص الربوبية ومقتضيات العبودية فيظنه نور الذات ، وهيهات ! ثم هيهات : نور الذات لايقوم له شيء . ولو كشف سبحانه وتعالى الحجاب عنه لتدكدك العالم كله كما تدكدك الجبل وساخ لما ظهر له القدر اليسير من التجلي

«وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «ان الله سبحانه لاينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه » فالاسلام له نور والايمان له نور أقوى منه والاحسان له نور

أقوى منها ، (١) فاذا اجتمع الاسلام والايمان والاحسان وزالت الحجب الشاغلة عن الله امتلا القلب والجوارح بذلك النور ، لا بالنور الذي هو صفة الرب تعالى فان صفاته لا تحل في شيء من مخلوقاته . كما أن مخلوقاته لا تحل فيه فالخالق بائن عن المخلوق بذاته وصفاته فلا اتحاد ولا حلول ولا ممازجة . تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا » اه

اقول هذا التصوف الموافق للكتاب والسنة لا تصوف ابن عربي والفرق بين نفي كل منهما للحلول ان هذا يقول ان الخلق والخالق شيء واحد والشيء لا يحل في نفسه والآخر يقول ان النسبة بينهما المباينة التامة. وهذا التوحيد هو الحق الذي كان عليه السلف الصالح (رض)

وقال المحقق ابن القيم (رح) في فوائد الذكر من الكلم الطيب وهو :

«ان الذكر نور للذاكر في الدنيا ، ونور له في قبره ، ونور له في معاده يسعى بين يديه على الصراط [٢] في استنارة القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى قال تعالى (أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟) فالاول هو المؤمن الذي استنار بالايمان بالله ومحبته ومعرفته وذكره . والآخر هو الغافل عن الله تعالى المعرض عن ذكره ومحبته . والشأن كل الشأن والفلاح كل الفلاح في النور . والشقاء كل الشقاء في فواته . ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يبالغ في سؤال ربه تبارك وتعالى حين يسأله أن يجعله في لحمه وعظامه وعصبه وشعره وبشره وسمعه وبصره ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وخلفه وأمامه حتى يقول « واجعلني نوراً » فسأل ربه تبارك وتعالى أن يجعل النور في ذراته الظاهرة والباطنة ، وأن يجعله محيطاً به من جميع جهاته ، وأن يجعل ذاته وجملته نوراً ، فدين الله تعالى عز وجل نور ، وكتابه نور ، ورسوله نور ، وداره التي أعدها لاوليائه نور يتلألأ ، وهو تبارك وتعالى نور السموات والارض ومن أسمائه النور ، وأشرقت الظلمات لنور وجهه ، وفي دعاء النبي صلى الله عليه وسلم يوم الطائف «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات

« ١ » انما كان نور الاحسان اقوى لانه عبارة عن الاحسان في الاسلام والايمان فهو الكمال فيهما عملا واعتقادا .

« ٢ » كذا والظاهر ان ههنا حذفا قبل قوله « في استنارة

وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل علي غضبك ، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ؛ ولا حول ولا قوة الا بك » وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات من وجهه . وفي بعض ألفاظ هذا الأثر : نور السموات من نور وجهه، ذكر عثمان الدارمي وقد قال تعالى (وأشرقت الارض بنور ربها) فاذا جاء تبارك وتعالى يوم القيامة للفصل بين عباده وأشرقت بنوره الارض وليس اشراقها لشمس ولا قمر فان الشمس تكور ، والقمر يخسف ويذهب نورها ، وحجابه تبارك وتعالى النور . قال أبو موسى : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال : « ان الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع اليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه » ثم قرأ (أن بورك من في النار ومن حولها) فاستنارة ذلك الحجاب بنور وجهه ولولاه لاحرقت سبحات وجهه ونوره ما انتهى اليه بصره » ولهذا لما تجلى تبارك وتعالى للجبل وكشف من الحجاب شيئاً يسيراً ساخ الجبل في الارض وتدكدك ولم يقم لربه تبارك وتعالى . وهذا معنى قول ابن عباس في قوله سبحانه وتعالى (لا تدركه الابصار) قال ذلك الله عز وجل اذا تجلى بنوره لم يقم له شيء . وهذا من بديع فهمه رضى الله عنه ودقيق فطنته ، كيف وقد دعا رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم أن يعلمه الله التأويل ، فالرب تبارك وتعالى يرى يوم القيامة بالابصار عيانا ، ولكن يستحيل إدراك الابصار له ، وان رأته فالادراك أمر وراء الرؤية ، وهذه الشمس ولله المثل الاعلى نراها ولا ندركها كما هي عليه ولا قريبا من ذلك ، ولذلك قال ابن عباس لمن سأله عن الرؤية وأورد عليه (لا تدركه الابصار) فقال ألست ترى السماء ؟ قال بلى قال أفتدركها ؟ قال لا. قال فالله تعالى أعظم وأجل » اهـ (١)

« ١ » كان أهل النظر المشتغلون بالفلسفة اليونانيه يتأولون جميع الآيات والاحاديث الواردة في صفات الرب تعالى وينكرون على علماء الاثر الاخذ بظواهرها مع التنزيه والتفويض حتى ان الاشعرية الذين أرادوا أن يكونوا وسطا بين غلاة النظار من الجهمية وغيرهم و بين أهل الحديث كالحنابلة قد بالغ بعضهم في التأويل

قد أشار هنا العالم المحقق بهذه الجملة الوجيزة من كلامه الطويل في موضوعها الى جملة ماورد « في النور » من نصوص الكتاب والسنة فقد سمى الله تعالى نفسه نوراً وورد النور في اسمائه الحسنى المأثورة وأسند النور الى اسم الذات في قوله (الله نور السموات والارض) وأسنده رسوله الى وجهه تعالى بقوله « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات » ومثله في آثار اخرى والجمهور يفسرون الوجه بالذات . وهذا نوع من استعمال النور غير إضافته اليه تعالى في قوله (وأشرقت الارض بنور ربها) وقوله (يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم) على أن نوره في الاخيرة كتابه ووحيه وكلامه الذي هو من صفاته ، والمراد به في الاظهر مافيه آيات الهداية فهو كقوله (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) ومثله اطلاق اسم النور على النبي (ص) في قوله (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) على وجه . وورد مثل هذا في كتب العهد الجديد عند النصارى مروياً عن المسيح عليه السلام كقول يوحنا في رسالته الاولى « ١ : ٥ وهذه هي البشرى التي سمعناها منه ونبشركم بها : أن الله نور وليس فيه ظلمة البتة » وأطلق النور على المسيح نفسه في مواضع من انجيلي لوقا ويوحنا

ومن المعلوم أن النور حسي ومعنوي فالاول يرى بالبصر ويرى به البصر سائر المبصرات ، والثاني يدرك بالبصيرة وتدرك به البصيرة الحق والخير

حتى صار الخلاف بينهم وبين غلاة النظر لفظيا . والباعث لهم على ذلك محاولة تطبيق النصوص على نظريات الفكر التي عدوا الكثير منها قطعيا وليس بقطعي ونحمد الله تعالى ان العلوم الكونية قد نقضت في هذا العصر أكثر تلك النظريات الفلسفية اليونانية وقربت نصوص الكتاب والسنة من الافهام ، ومما ثبت بها اخيراً ان هذه الكهربائية التي رأى البشر كثيراً من عجائبها هي الاصل في تكوين مادة العالم كله وأطوارها ، وهي نور أو مصدر النور والحركة التي يحدثها النور أو يحدثه واذا كان الخالق الباري المنزه عن نقص المخلوقات التي لا يكمل شيء منها الا به قد حجب عنها بالنور ، فلك أن تفهم أن الكهرباء وماجعلها الله أصلا له من تكوين العالم المادي هي الحجاب المانع من رؤية الرب تعالى فيه وان انكشاف هذا الحجاب لا يكون الا في الجنة ، وان انكشافه هو الذي يوصل أهلها الى أعلى واكمل درجات المعرفة به تعالى وهي الرؤية بغير كيف ولا ادراك ، وقد نصر العلم مذهب السلف ، على تأويلات الخلف ، ولله الحمد

والصلاح. وكذلك نور الآخرة قسمان حسي ومعنوي، وأما نور الله تعالى الذي هو صفة من صفاته قد أضيف الى وجهه وأسند الى ذاته فهو فوق هذا وذاك لا يعرف كنهه سواه عز وجل ، وهو غير النور الذي هو حجابه المانع من رؤية ذاته وادراك كنهه ، ولا يكبرن عليك أيها الانسان المعجب بنفسك هذا العجز عن ادراك نور الله عز وجل فان هذا النور الحسي الذي تراه بعينيك لا تدرك حقيقته ولم يدركها أحد من أبناء جنسك الى الآن ، ولم يستطع أحد أن يضع له تعريفا يحدد هذه الحقيقة . ولم يكن المتقدمون يعرفون منه إلا ما يرونه من نار الارض ونيرات السماء، ثم عرف المتأخرون هذه الكهرباء والراديوم فدخل بذلك العلم والعمل في طور جديد اذا قيل انه فوق طور العقل والفلسفة والعلم التي انتهى اليها البشر قبله لم يكن هذا القول مبالغة ، وقد كانت الصوفية تقول إن وراء مدارك عقول البشر علوما صحيحة منطبقة على حقائق خارجية لا محض نظريات فكرية، فيقول مدعو الفلسفة والمنطق إن هذه خرافات خيالية، قال ابن الفارض:

فثم وراء العقل علم يدق عن مدارك غايات العلوم الصحيحة

فأي عقل كان يتصور أنه يمكن لشخص واحد أن يوقد مالا يحصى من المصابيح في دار او مدينة كبيرة في طرفة عين وأن يطفئها في طرفة عين؟ وأن هذه المصابيح توقد بلا زيت ولا نار ، وإنما تشتعل بتحريك هنة صغيرة بعيدة عنها ولكنها متصلة بها بسلك دقيق، وأي عقل كان يتصور أن البشر يتخاطبون ويسمع بعضهم كلام بعض على بعد الوف من الاميال؟ وهذا بعض خواص هذه الكهرباء

نعم إن علماء المسلمين قرروا ان أمثال هذه الامور من الممكنات لا المستحيلات، فورود نظائرها في أخبار الآخرة لا يقتضي ان في الدين شيئا يرده العقل الصحيح بالبرهان ، ولكن جماهير الكفار بالرسل لم تستطع عقولهم تصورها ولا التصديق بها – بل نرى ضعفاء العقل والعلم من المسلمين أنفسهم يظنون فيما نقلناه آنفاً من كتاب الوابل الصيب أنه من المشكلات التي لا تتفق معهما إلا بضرب من التأويل – لاجل هذا علقنا عليه الحاشية الوجيزة المثبتة معه هنا عند طبع الكتاب في (مجموعة الحديث النجدية) ليعلموا أن منتهى ما وصل اليه علماء الكون يؤيد مذهب السلف فيها وفي أمثالها ، ويبطل قاعدة المتأولة في جعل نظريات أفكارهم ومألوفات عقولهم وقضايا معلوماتهم الكلامية القليلة

أصلا ترجع اليه نصوص الكتاب والسنة ولو بالتأويل ، وقد علمنا أن بعض الذين اطلعوا على هذه الحاشية في مجموعة الحديث لم يفهموها فاضطربوا فيها ولهم العذر فانها على غرابة موضوعها وجيزة لم توضح المقام لامثالهم كما كان يجب، ولكن لها فيما سبق من المسائل والمباحث في رؤية الرب تعالى نظائر تغني من استحضرها من الايضاح ولا بأس مع ذلك من زيادة فيه وان تخل من تكرار لبعض القضايا

تقدم أن البشر لم يصلوا الى الاحاطة بكنه شيء من حقائق هذه المخلوقات وإنما يعرفون منها ظواهرها وبعض خواصها وسنن الخالق فيها ، فهم أولى بالعجز عن ادراك حقيقة الخالق وصفاته وأفعاله ، وإنما عرفوه سبحانه وعرفوا صفاته وأفعاله بآياته الكونية في خلقه ، وآياته الكلامية المنزلة على رسله، ففي كل شيء له آيات تدل على وحدانيته وعلمه ومشيئته وقدرته وحكمته ورحمته، فهو تعالى ظاهر في كل شيء بدلالته عليه وباطن في كل شيء يحجب عبده به عنه

ان اشتغال العبد بشؤون الخلق يحجبه عن معرفة ربه وعن مراقبته وعن عبادته وعن شكره اذا هو اشتغل بها لذاتها وما له من اللذة والمنفعة العاجلة فيها، كما أنها تكون آيات ودلائل لمعرفته ووسائل لمراقبته وبواعث لعبادته وذكره وشكره اذا هو نظر فيها بهذه النية، وان تجليه سبحانه للابرار في الآخرة يكون بقدر هذا -- كما أن حجب الفجار عنه يكون بقدر مقابله الذي ذكر قبله (جزاءا وفاقا) فسعة العلم بالكون وسننه ونظامه ومنافعه قد تكون من أسباب سعة المعرفة بالله والكمال الذي يقرب منه ، وقد تكون من أسباب الجهل بالله والبعد عنه ، ولو كان هؤلاء العلماء الذين عرفوا في هذا العصر أضعاف ما نقل عن الاولين من أسرار هذا العالم قد نظروا فيه بنور الله واهتدوا في مباحثهم بهداية وحيه لوصلوا الى درجة عالية من الكمال — على أن ارتقاءهم في الاسباب ونجاحهم المتصل في كشف أسرار العالم لا بد أن ينتهيا بهم إلى المعرفة الصحيحة والعبودية الكاملة التي بينها الرب سبحانه في آخر كتبه للبشر على لسان خاتم رسله لهم كما أرشد اليه في قوله (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد * ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا انه بكل شيء محيط)

ذلك بأنهم سيجدون في حقائق العلوم التي يهتدون اليها باتصال ابحاثهم

وتتابعها مصداقا لهذا الكتاب فيما اخبر عنه من عالم الغيب ولقاءالله تعالى وكل ماكفر به المقيدون بنظريات عقولهم القاصرة وعلومهم الناقصة ، كالارواح والملائكة والجن وتمثلهما في الصور المختلفة ، وتجلي الرب سبحانه لعباده بقدر استعداد أنفسهم وارتقاء أرواحهم من وراء الحجب التى كانت تحجبهم عنه. وان فيما وصلوا اليه من العلم اليوم مايقرب ذلك من المدارك وقد بينا بعض الامثلة له في هذه المباحث وغيرها

وان من أعظم مايشغل هؤلاء الباحثين في هذا العالم مسألة بدء الخلق كيف كان ومن أي شيء كان، وقدسبق لهم أن جزموا بأن هذه الاجرام السابحة في ملكوت الله من السموات والارض قد كانت مادة واحدة سديمية تشبه الدخان فانفتقت وانفصل بعضها من بعض فكانت اجراما متعدده ـ وقد جاءهم محمد النبي الامي (ص) بما هو صريح في ذلك قبل علمهم به بقرون وأجيال كثيرة كما بيناه في موضعه.

ثم اهتدوا في هذا الجيل الى ان أصل تلك المادة التي انفتق رتقها بما ذكر المؤلفة من عشرات العناصر قد كان مصدرها هذه الكهرباء التى دخلت بها علوم البشر وأعمالهم في طورغريب عجيب ولاتزال عجائبها كل يوم في ازدياد

والمسألة التى أشرنا اليها في الحاشية التى علقناها على عبارة ابن القيم في النور هي ماذكروه اخيراً من أن للكهربائية دقائق ـ أو ذرات أو ذريرات أو جواهر فردة ـ مستقلة بنفسها سموها (الالكترونات) ورجحوا أنها هي قوام كل جواهر المادة التى يتألف منها بناء العالم العلوي والسفلي وأن اهتزاز هذه الذرات أو الجواهر الفردة هو سبب طيف النور ، وأن له اهتزازات مختلفة وأنها هي منشأ تغير العناصر الطبيعية والكيمائية . وقد بينا من قبل أن هؤلاء العلماء قرروا القول من قبل بأن حركة المادة هي سبب جميع التغيرات والتطورات في هذا العالم اذ هي منشأ النور والحرارة التى قلنا إنها تحول الجوامد الى مائعات والمائعات الى غازات ، فالظاهر من كل ماتقدم أن الكهرباء هي الاصل لكل الكائنات التي تقدر مساحتها بحسب بعض النظريات العلمية بمئة وخمسين مليون سنة من سني النور، وهو يقطع في الثانية ١٨٦٣٣٠ ميلا في أقرب تقدير وأحدثه وفي الدقيقة ٨٠٠ ر ١٧٩ ر ٧ وفي الساعة ٠٠٠ ر ٧٨٨ ر ٤٣٠

أي أربعمائة وثلاثين مليون ميل وسبعمائة وثمانية وثمانين ألف ميل ، فكم يقطع في اليوم ثم كم يكون في السنة ؟ ؟ (وما أوتيتم من العلم الا قليلا)

ان ما ظهر من أسرار القوة الكهربائية الى الآن يقرب من العقل ان تكون بارادة الله تعالى وحكمته كما قالوا منشأ التكوين والتطور في عالم الامكان بسرعة حركتها وكونها مصدر النور ، فارتباط اجزاء العالم بها وانتظامه بسنن الله تعالى فيها معقول، وأما تولد العناصر منها وتجمعها وصيرورتها اجساداً كالدخان أو الغمام أو بخار الماء فهو طور ثان متأخر عن تولد بعض عناصر المادة من بعض وارتقاء ذلك في سلسلة الاسباب المتقدمة الى جواهر الكهربائية الفردة فاذا فرضنا ان الكهرباء اول ماخلق الله تعالى من المادة فانها تكون آخر حجاب مادي مما حال بين الماديين وبين معرفته تعالى في الدنيا ويحول بينهم وبين رؤيته في الآخرة ، فاذا انكشف هذا الحجاب وانتهى بالايمان في الدنيا فانه ينتهي بالرؤية في الآخرة التى هي أكمل المعرفة

ولكن الحجب كثيرة كما تقدم وكون الكهرباء أول ماخلق الله تعالى من المادة لم يبلغ درجة العلم القطعي الآن ، فهي باعترافهم مركبة ، ومنقسمة الى موجبة وسالبة ، وآثارها من إثارة الحركة توليد النور وغير ذلك انما تكون باقتران الزوجين الموجب والسالب فيجوز أن يكون ذلك بأمر الله تعالى ابتداء كما يجوز أن يكون بسبب مادي آخر أو بسبب روحي سابق عليها في الخلق فيكون هو الحجاب الاخير الذي لا يبقى بعد انكشافه إن هو انكشف الا معرفة الخالق ورؤيته كفاحا بدون حجاب البتة ـ فهذا ما أشرت اليه في تلك الحاشية من التقريب بين ماورد من التجلي الالهي في الحجب ومن وراء الحجب ، ولكن كان من السهو جعلنا اياها على اجمالها وابهامها في مجموعة الحديث النجدية واكثر قرائها لا إلمام لهم بشيء من هذه العلوم ولا الاصطلاحات التى يستغنون عنها في هذا المقام بقوة ايمانهم واعتصامهم فيه بهدي السلف وتكرر التنبيه فيهما على أننا إنما نذكر أمثال هذه المسائل في المنار وفي تفسيره لتقريب معاني النصوص من عقول المطلعين على هذه العلوم من أبناء هذا العصر المفتونين بها ، فاذا رأى هؤلاء أن أبعد ماورد في الكتاب والسنة عن مألوف البشر من اخبار عالم الغيب يتفق مع أحدث ماقرره العلم المبني على التجارب والبحث العملي فالمرجو

أن يكون أجذب لهم الى الايمان، وهذا يكثر يوما بعد يوم، ومنه ماصار حقائق واقعة ومنه ماقرب منها حتى وردت الانباء فى هذه الايام بالاهتداء الى ضرب من العلاج بالكهربائية يعيد الى الشيوخ قوة الشباب ونضارته وذلك يقرب كون أهل الجنة شباباً لا يهرمون وسنقرب مسألة الرؤية بأوضح مثال في بحث الكلام الالهي

وقد صرحنا مراراً بأن كل مانورده من تقريب وتأليف بين العلم والدين، ومن تفسير أو تأويل لرد شبهات الزائغين ، فاننا لانخرج به عن قاعد تنا في المعتقد المعتمد عندنا في جميع امور الدين من العقائد والعبادات والفضائل وهو ماكان عليه أهل الصدر الاول من سلفنا الصالح

وقد سبق لنا بحث مثل بحثنا هذا على قاعدتنا هذه في تفسير قوله تعالى (٢ : ٢٠٩ هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة)من جزء التفسير الثاني بعضه لنا وبعضه للاستاذ الامام فيراجع في ص ٢٦٦_٢٦٧

(تنبيه) ان ادخال مباحث علوم الكون في التفسير هو من أهم اركانه والعمل بهدي القرآن فيه فهو مملوء بذكر آيات الله في خلق السموات والارض وما بينهما وما فيهما ، وكان سلفنا من مفسري السلف والخلف يذكرون مايعلمون من اسرار الخلق وكذا مايتلقونه عن اهل الكتاب حتى الذين لا يوثق بعلمهم ولا روايتهم وهو مما ينتقد عليهم

« الكلمة الجامعة الخاتمة في مسألة الرؤية »

خلاصة الخلاصة أن رؤية العباد لربهم في الآخرة حق وأنها أعلى وأكمل النعيم الروحاني الذي يرتقي اليه البشر في دار الكرامة والرضوان ، وأنها أحق مايصدق عليه قوله تعالى في كتابه المجيد (فلا تعلم نفس ماأخفي لهم من قرة اعين) وقوله في الحديث القدسي الذي رواه عنه رسوله (ص) « أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وأن هذا وذاك مما يدل على مذهب السلف الذي عبر بعضهم عنه بأوجز عبارة اتفق عليها جيمهم « وهي أنها رؤية بلا كيف » ويؤيد ذلك اضطراب جميع أصناف العلماء في النصوص الواردة في نفيها وإثباتها سواء منهم أهل اللغة واساطين البيان ، ونظار الفلسفة وعلم الكلام ، ورواة الاحاديث والآثار،

ومرتاضو الصوفية وأولو الكشف والالهام ، فلم تتفق طائفة من هؤلاء على قول فصل قطعي تقنع به بقية الطوائف بدليلها اللغوي أو الاصولي أو العقلي أو فهم النص النقلي أو تسليم إلهامها الكشفي، ولكن من نظر في جميع ماقالوه نظر استقلال وانصاف يجزم بأن ماكان عليه عامة السلف من إثبات كل ماصح به النقل وتفويض تأويله الذي يكون عليه في الآخرة الى الله عز وجل وهو الحق الذي يطمئن به القلب ويؤيده العلم والعقل فهو الاسلم والاحكم والاعلم والله يعلم وأنتم لاتعلمون

﴿ خلاصة القول في مسألة الكلام الالهي ﴾

اضطرب المتكلمون في الكلام الالهي كما اضطربوا في مسألة رؤيته تعالى واستوائه على عرشه وغيرهما من صفاته وشؤونه فذهب الذين بنوا قواعد عقائدهم على اقتضاء التنزيه للتأويل الى أن الكلام من صفات الافعال كالخلق والرزق (بالمعنى المصدري) ولهذا قالوا إن القرآن مخلوق ، والحق الذى كان عليه السلف الصالح أن كلام الله تعالى صفة من صفاته لذاتيه كالعلم وهو مثله لا يقتضي التشبيه اذ من المعلوم بدليلي النقل والعقل أن الخالق لايشبه المخلوق كما تقدم شرحه في مسألة الرؤية فلا نعيده والعهد به قريب ، وانما نكتب شيئا تقرب به المسألة من الافهام ، بمدتفنيد تقاليد علم الكلام، فان اكثر متكلمي الاشعرية قد عقدوها تعقيدا شديدا بما حاولوا به التوفيق بين نصوص أئمة السنة ونظريات العقل بقولهم إن الكلام نفسي ولفظي فالاول صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ، والثاني عبارة عن ذلك المعنى القائم بالذات تؤدى باللفظ الذي يحصل بالصوت والحروف التي تكتب بالقلم ، وكل من الحروف والاصوات والالفاظ التي تكيفها الاصوات حادثة مخلوقة . قالوا وانما منع السلف من التصريح بذلك وانكروا على من قالوا ان القرآن مخلوق لان القرآن يسمى كلام الله بمعنى دلالته على صفة الله القديمة فلهذا الاشتراك يخشى ان يفضي القول بخلق كلمات القرآن الملفوظة والمكتوبة الى القول بأن كلام الله تعالى الذي هو صفته القديمة مخلوق

وهذه فلسفة مردودة مخالفة لمذهب السلف كأمثالها من تأويل سائر الصفات، وهي غير معقولة المعنى أيضا فان القرآن لامدلول له الا معاني مفرداته وجمله وهذه المعاني منها القديم وهي معاني اسماء الله تعالى وصفاته وسائرها حادثة

وقد ورد فيه ذكر « كلام الله » في مواضع لامدلول لها الا مايسمونه هم الكلام اللفظي — كقوله تعالى (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) فالمراد بكلام الله القرآن قطعا اذ لايمكن ان يقال انهم يسمعون صفة الله تعالى القائمة بذاته ، وقوله في اليهود (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه) يعني التوراة وقوله في المخلفين من الاعراب (يريدون ان يبدلوا كلام الله) يعني وعده في القرآن فيما سبق في السورة، اذلا يمكن ان يقال ان هؤلاء يبدلون واولئك يحرفون صفة الله تعالى

وقد اغتر بهذه الفلسفة الكلامية الجماهير الكثيرون لصدورها عن بعض كبار النظار ، الذين ملأت شهرتهم الاقطار ، فاعجب الباحثون منهم بها ، وقلدهم الا كثرون فيها ، ورجع عنها أساطين المذهب بعد تمحيصها ومقابلتها بأقوال السلف المؤيدة بالنصوص . فا كثر المتكلمين المستقلين المخلصين رجعوا الى مذهب السلف في أواخر أعمارهم ، ولكن بقي عامة الاشعرية متبعين لماقرروه لهم من قبل ذلك في كتبهم، كدأب الجماعات في كل مايتخذونه مذهبا لهم ، على أن الرجوع كان في الاغلب بالتدريج والمزج بين التفويض والتأويل ، فلم يشعر به الا الافراد من أهل الدليل

وقد اعجبني من كلام هؤلاء النظار المنيبين قول الامام ابي محمد عبد الله الجويني والد إمام الحرمين في رسالة له في نصيحة المسلمين عند رجوعه الى مذهب السلف في هذه المسألة واخواتها التي يتأولها اصحابه الاشاعرة لتصريحه ورده على شيوخه قال : (١)

« انى كنت برهة من الدهر متحيرا في ثلاث مسائل : مسألة الصفات ومسألة الفوقية ومسألة الحرف والصوت في القرآن المجيد ، وكنت متحيرا في الاقوال المختلفة الموجودة في كتب أهل العصر في جميع ذلك من تأويل الصفات وتحريفها، أو امرارها والوقوف فيها، أو اثباتها بلا تأويل ولا تعطيل ولاتشبيه ولاتمثيل فأجد النصوص في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ناطقة منبئة بحقائق هذه الصفات ، وكذلك في اثبات العلو والفوقية ، وكذلك في الحرف والصوت . ثم أجد المتأخرين من المتكلمين

(١) طبعت هذه الرسالة في مجموعة الرسائل (المنيرية) هذه الايام فرأينا عبارتها جلية مؤيدة لما اجملناه في بحث الرؤية فاحببنا نقلها لحسن بيانها واحترام الجمهور لصاحبها

في كتبهم منهم من يؤول الاستواء بالقهر والاستيلاء، ويؤول النزول بنزول الامر، ويؤول اليدين بالقدرتين أو النعمتين، ويؤول القدم بقدم صدق عند ربهم، وأمثال ذلك. ثم أجدهم مع ذلك يجعلون كلام الله تعالى معنى قائما بالذات بلاحرف ولاصوت ويجعلون هذه الحروف عبارة عن ذلك المعنى القائم.

«وممن ذهب الى هذه الاقوال أو بعضها قوم لهم في صدري منزلة مثل طائفة من فقهاء الاشعرية الشافعيين لاني على مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه عرفت فرائض ديني وأحكامه فأجد مثل هؤلاء الشيوخ الاجلة يذهبون الى مثل هذه الاقوال وهم شيوخي ولي فيهم الاعتقاد التام لفضلهم وعلمهم، ثم انني مع ذلك أجد في قلبي من هذه التأويلات حزازات لا يطمئن قلبي اليها، وأجد الكدر والظلمة منها، وأجد ضيق الصدر وعدم انشراحه مقرونا بها، فكنت كالمتحير المضطرب في تحيره، المتململ من قلبه في تقلبه وتغيره

« وكنت أخاف من إطلاق القول باثبات العلو والاستواء والنزول مخافة الحصر والتشبيه ومع ذلك فاذا طالعت النصوص الواردة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أجدها نصوصاً تشير الى حقائق هذه المعاني وأجد الرسول صلى الله عليه وسلم قد صرح بها مخبراً عن ربه واصفا له بها، وأعلم بالاضطرار أنه صلى الله عليه وسلم كان يحضر في مجلسه الشريف العالم والجاهل والذكي والبليد والاعرابي الجافي ثم لا أجد شيئاً يعقب تلك النصوص التي كان يصف ربه بها لا نصا ولا ظاهرا مما يصرفها عن حقائقها ويؤولها كما تأولها هؤلاء مشايخي الفقهاء المتكلمين، مثل تأويلهم الاستيلاء بالاستواء، ونزول الامر للنزول وغير ذلك، ولم أجد عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يحذر الناس من الايمان بما يظهر من كلامه في صفته لربه من الفوقية واليدين وغيرها، ولم ينقل عنه مقالة تدل على أن لهذه الصفات معاني اخر باطنة غير ما يظهر من مدلولها»

بعد هذا شرع الامام الجويني في إيراد النصوص من الكتاب العزيز والاحاديث النبوية في مسألة علوّ الرب تعالى وهي معروفة ولبعض حفاظ السنة فيها مصنفات خاصة كابن قدامة والذهبي وكتاباهما مطبوعان عندنا. ثم قال في المسألة من وجهة النظر العلمية «ومن عرف هيئة العالم ومركزه من علم الهيئة وانه ليس له إلا جهتا العلو والسفل ثم اعتقد بينونة خالقه عن العالم فن لوازم البينونة

أن يكون فوقه لان جميع جهات العالم فوق وليس السفل إلا المركز وهو الوسط»

ثم انه وضح هذه المسألة في آخر الرسالة وقال قبل ذلك وبعد بيان مسألة صفة العلو :

﴿ فصل ﴾ اذا علمنا ذلك واعتقدناه تخلصنا من شبه التأويل وعماوة التعطيل، وحماقة التشبيه والتمثيل، واثبتنا علو ربنا سبحانه وفوقيته واستواءه على عرشه كما يليق بجلاله وعظمته، والحق واضح في ذلك والصدور تنشرح له، فان التحريف تأباه العقول الصحيحة مثل تحريف الاستواء بالاستيلاء وغيره ، والوقوف في ذلك جهل وعيّ مع كون الرب تعالى وصف لنا نفسه بهذه الصفات لنعرفه بها ، فوقوفنا عن اثباتها ونفيها عدول عن المقصود منه في تعريفنا اياها، فما وصف لنا نفسه بها الا لنثبت ماوصف به نفسه لنا ولا نقف في ذلك(١) وكذلك التشبيه والتمثيل حماقة وجهالة . فمن وفقه الله تعالى للاثبات بلا تحريف ولا تكييف ولا وقوف فقد وقع على الامر المطلوب منه إن شاء الله تعالى

﴿ فصل ﴾ والذي شرح الله صدري في حال هؤلاء الشيوخ الذين أولوا الاستواء بالاستيلاء والنزول بنزول الامر واليدين بالنعمتين والقدرتين هو علمي بأنهم مافهموا في صفات الرب تعالى الا مايليق بالمخلوقين فما فهموا عن الله استواء يليق به ولا نزولا يليق به ولا يدين تليق بعظمته بلا تكييف ولا تشبيه فلذلك حرفوا الكلم عن مواضعه وعطلوا ماوصف الله تعالى نفسه به ، ونذكر بيان ذلك ان شاء الله تعالى

«لاريب انا نحن واياهم متفقون على اثبات صفات الحياة والسمع والبصر والعلم والقدرة والارادة والكلام لله ونحن قطعا لانعقل من الحياة الا هذا العرض الذي يقوم باجسامنا وكذلك لانعقل من السمع والبصر الا أعراضا تقوم بجوارحنا فكما انهم يقولون حياته ليست بعرض وعلمه كذلك وبصره

(١) في كلام الجويني هذا أوضح تفنيد لمنع بعض المتكلمين من تلقين العامة الآيات والاحاديث الواردة في صفاته تعالى كما اقترحوه على شيخ الاسلام ابن تيمية بما كان لهم من المكانة عند الحكومة المصرية في زمنه بعد الجويني الذي يعدونه هو وولده امام الحرمين من شيوخهم وائمتهم

كذلك هي صفات كما تليق به لا كما تليق بنا فكذلك نقول نحن حياته معلومة وليست مكيفة وعلمه معلوم وليس مكيفا وكذلك سمعه و بصره معلومان وليس جميع ذلك اعراضا بل هو كما يليق به

«ومثل ذلك بعينه فوقيته واستواؤه ونزوله ففوقيته معلومة أعني ثابتة كثبوت حقيقة السمع وحقيقة البصر فانهما معلومان ولا يكيفان ، كذلك فوقيته معلومة ثابتة غير مكيفة كما يليق به، واستواؤه على عرشه معلوم غير مكيف بحركة أو انتقال يليق بالمخلوق بل كما يليق بعظمته وجلاله — صفاته معلومة من حيث الجملة والثبوت، غير معقولة من حيث التكييف والتحديد، فيكون المؤمن بها مبصرا من وجه أعمى من وجه، مبصرا من حيث الاثبات والوجود، أعمى من حيث التكييف والتحديد، وبهذا يحصل الجمع بين الاثبات لما وصف الله تعالى نفسه به و بين نفي التحريف والتشبيه والوقوف، وذلك هو مراد الرب تعالى منا في ابراز صفاته لنا لنعرفه بها و نؤمن بحقائقها، وننفي عنها التشبيه، ولا نعطلها بالتحريف والتأويل، لافرق بين الاستواء والسمع ولا بين النزول والبصر ، الكل ورد في النص

«فان قالوا لنا في الاستواء شبهتم، نقول لهم في السمع شبهتم، ووصفتم ربكم بالعرض ، فان قالوا لا عرض بل كما يليق به، قلنا في الاستواء والفوقية لا حصر بل كما يليق به. فجميع مايلزمونا به في الاستواء والنزول واليد والوجه والقدم والضحك والتعجب من التشبيه نلزمهم به في الحياة والسمع والبصر والعلم، فكما لا يجعلونها هم اعراضا كذلك نحن لا نجعلها جوارح، ولا مايوصف به المخلوق ، وليس من الانصاف أن يفهموا في الاستواء والنزول والوجه واليد صفات المخلوقين فيحتاجوا الى التأويل والتحريف

« فان فهموا في هذه الصفات ذلك فيلزمهم أن يفهموا في الصفات السبع (١) صفات المخلوقين من الاعراض فما يلزمونا في تلك الصفات من التشبيه والجسمية نلزمهم به في هذه الصفات من العرضية، وما ينزهون ربهم به في الصفات السبع وينفونه عنه

(١) يعني الحياة والعلم والارادة والقدرة والسمع والبصر والكلام وهي التي يسمونها صفات المعاني و يجعلون مدار معرفة الله عليها

عوارض الجسم فيها فكذلك نحن نعمل في تلك الصفات التي ينسبوننا فيها الى التشبيه سواء بسواء. ومن أنصف عرف ماقلنا واعتقده وقبل نصيحتنا ودان لله باثبات جميع صفاته هذه وتلك ونفى عن جميعها التشبيه والتعطيل والتأويل والوقوف وهذا مراد الله تعالى منا في ذلك لان هذه الصفات وتلك جاءت في موضع واحد وهو الكتاب والسنة فاذا أثبتنا تلك بلا تأويل وحرفنا هذه وأولناها كنا كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض. وفي هذا بلاغ وكفاية ان شاء الله تعالى

﴿ فصل ﴾ واذا ظهر هذا وبان انجلت الثلاث المسائل بأسرها وهي مسألة الصفات من النزول واليد والوجه وأمثالها ومسألة العلو والاستواء ومسألة الحرف والصوت : أما مسألة العلو فقد قيل فيها ما فتحه الله تعالى وأما مسألة الصفات فتساق مساق مسألة العلو ولا نفهم منها مانفهم من صفات المخلوقين بل يوصف الرب تعالى بها كما يليق بجلاله وعظمته، فينزل كما يليق بجلاله وبعظمته ، ويداه كما يليق بجلاله وعظمته ، ووجهه الكريم كما يليق بجلاله وعظمته، فكيف ننكر الوجه الكريم ونحرف وقدقال صلى الله عليه وسلم في دعائه « أسألك لذة النظر الى وجهك» واذا ثبتت صفة الوجه بهذا الحديث وبغيره من الآيات والنصوص فكذلك صفة اليدين والضحك والتعجب ولا يفهم من جميع ذلك الا مايليق بالله عزوجل وبعظمته لا مايليق بالمخلوقات من الاعضاء والجوارح تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

(ثم قال) وأمامسألة الحرف والصوت فتساق هذا المساق فان الله تعالى قدتكلم بالقرآن المجيد وبجميع حروفه فقال تعالى (الم) وقال (المص) وقال (ق والقرآن المجيد) وكذلك جاء في الحديث « فينادي يوم القيامة بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب» وفي الحديث «لاأقول الم حرف، ولكن الف حرف، لام حرف ميم حرف » فهؤلاء مافهموا من كلام الله تعالى الا مافهموه من كلام المخلوقين فقالوا ان قلنا بالحروف فان ذلك يؤدي الى القول بالجوارح واللهوات [1] وكذلك اذا

« ١ » اللهوات جمع لهاة وهى اللحمة المشرفة على الحلق في اقصى الفم : و يجمع ايضا على لهى ولهات :

قلنا بالصوت أدى ذلك الى الحلق والحنجرة ، عملوافي هذا من التخبط كما عملوا فيما تقدم من الصفات

«والتحقيق هو أن الله تعالى قد تكلم بالحروف كما يليق بجلاله وعظمته فانه قادر والقادر لا يحتاج الى جوارح ولا الى لهوات، وكذلك له صوت كما يليق به يسمع ولا يفتقر ذلك الصوت المقدس الى الحلق والحنجرة : كلام الله تعالى كما يليق به وصوته كما يليق به ، ولا ننفي الحرف والصوت عن كلامه سبحانه لافتقارهما منا الى الجوارح واللهوات فانهما من جناب الحق تعالى لا يفتقران الى ذلك. وهذا ينشرح الصدر له ويستريح الانسان به من التعسف والتكلف بقوله: هذا عبارة عن ذلك

«فان قيل فهذا الذي يقرأه القاري، هو عين قراءة الله تعالى وعين تكلمه هو ؟ قلنا لا بل القاري، يؤدي كلام الله تعالى والكلام انما ينسب الى من قاله مبتديا لا الى من قاله مؤديا مبلغا، ولفظ القاري، في غير القرآن مخلوق وفي القرآن لا يتميز اللفظ المؤدي عن الكلام المؤدى عنه ولهذا منع السلف عن قول لفظي بالقرآن مخلوق لانه لا يتميز كما منعوا عن قول لفظي بالقرآن غير مخلوق فان لفظ العبد في غير التلاوة مخلوق وفي التلاوة مسكوت عنه كيلا يؤدي الكلام في ذلك الى القول بخلق القرآن وما أمر السلف بالسكوت عنه يجب السكوت عنه والله الموفق اهـ

(يقول مؤلف هذا التفسير) ان لدينا في تقريب صفة الكلام من الافهام قولا آخر وهو ان جميع ما ثبت في النصوص من صفات الله تعالى وشؤونه فالتعبير عنه مستعار مما وضعه الناس في اللغة لا تفسهم فنفهم بهذه المراد من تلك بقدر الطاقة البشرية ونعرف بدليلي العقل والنقل الفرق بينهما وأن النسبة بينهما المباينة في الحقيقة . وقد عبر أبو حامد الغزالي عن ذلك تعبيرا بليغا في قوله من كتاب الشكر من الاحياء :

« ان لله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع ، وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها فلم تكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن ان يمتد طرف فهمهم الى مبادي اشراقها ،

فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس لا لغموض في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الخفافيش ، فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها الى أن يستعيروا من عالم المتنـاطقين باللغات عبارة تفهم من مبادي حقائقها شيئا ضعيفا جدا فاستعاروا لها اسم القـدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا : لله تعالى صفة هى القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع » ثم ذكر المشيئة والمحبة والكراهة والرضا والغضب فلم يفرق بين ما يسمونه صفات المعاني وما يسمونه صفات الافعال التى يتأولها أصحابه الاشعرية تحكما منهم

ونحن نعلم من أنفسنا أن لنا كلاما هو صفة من صفاتنا وشأن من شؤوننا تتعلق بما يتعلق به علمنا ولكن تعلق العلم عبارة عن انكشاف المعلومات للنفس وتعلق الكلام عبارة عن كشفها وتصويرها بما يدل عليها في النفس أو لمن نريد كشفها له : تقول حدثتني نفسي بكذا ، وقلت في نفسي كذا ، وفي حديث عمر يوم السقيفة : وكنت زورت في نفسي مقالة - يعني هيأت في نفسي كلاما لاقوله . وقال الشاعر :

عندي حديث أريد اليوم أذكره وأنت تعلم دون الناس فحواه

وأما أداء الكلام لمن نريد اعلامه ببعض مانعلم فله طرق أعمها تعبير اللسان ويليه تعبير القلم والاول غريزة في النطق خاصة بالبشر بمقتضاها تواضعوا على الالفاظ الدالة على معاني المعلومات فاتسعت بقدر اتساع دائرة علومهم ، والثاني صناعة هداهم الله تعالى اليها بشعورهم بالحاجة الى ايصال معلوماتهم الى البعيد عنهم الذي لا يسمع كلامهم اللساني والى حفظها لمن يجيء بعدهم ، وقد استحدثوا في هذا العصر آلة لخطاب البعيد باللسان سموها (التلفون) وسميناها (المسرة) بكسر الميم وتشديد الراء (١) توصل الكلام من دار الى دار ومن بلد أو قطر الى آخر بأسلاك كهربائية تصل بين آلات المتخاطبين وقد استغنوا أخيرا عن هذه الاسلاك في بعض المواضع . واستحدثوا آلة لحفظ الاصوات الكلامية وغيرها واعادتها عند الحاجة ولو بعد موت صاحبها سموها (الفونغراف) وكان استحدثوا قبل ذلك آلة لنقل الكلام من مكان الى مكان في البلد الواحد وفي البلاد

(١) أخذناها من قول القاموس : المسرة بكسر الميم الآلة يسار بها كالطومار

والاقطار المختلفة بأسلاك كهربائية موصلة بين الآلات المؤدية للكلام والقابلة له بما هو من قبيل الخط لا الصوت وهي الآلة المعروفة بالتلغراف

فكل من هذا وذاك اداء للكلام الذي يقوم في نفس صاحبه ويريد ايصاله الى غيره وكل منها يسمى كلامه حقيقة كما يعلم من استعمال العرب الخلص والمخضرمين والمولدين الذين تلقوا عنهما ومن بعدهم ، وللأخطل الشاعر المشهور في دولة بني أمية بيت من الشعر تداوله المتكلمون واستشهدوا به على الكلام النفسي والكلام اللفظي يفهم منه ان الاول عنده هو حقيقة مدلول الكلمة وان الثاني مجاز مرسل وهو :

ان الكلام لفي الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وليس هذا بحجة لغوية على ماذكر وقصارى الاحتجاج بشعر الشاعر ان استعماله الذي يستعمله صحيح في اللغة في مفرداته وتركيبه ، وذلك لايقتضي أن يكون رأيه فيه صحيحا ، ولا أن يكون كل مايقوله حقائق الواقع ولا في اعتقاده ولا سيما اذا كان شعرا ، فاستعمال العرب لمادة الكلام تدل على ان اللفظ المركب الدال بالوضع على المعاني كلام حقيقة ، وقد قال الزمخشري في حقيقة الاساس من هذه المادة : سمعته يتكلم بكذا ، وكلمته وكالمته ، وكانا متصارمين فصارا يتكالمان ، وموسى كليم الله . ونطق بكلمة فصيحة وبكلمات فصاح وبكلم اه

فلكلام الانسان صفة أوملكة في نفسه يناجيها ويصور فيها ماينظمه أو يقدره ويزوره ليخاطب به غيره ، وصفة أوملكة في لسانه ، وصفة أو صورة فيما يرسمه بقلمه على الورق . وصورة أخرى فيما يحرك به آلة التلغراف السلكي أو غير السلكي مخاطبا لبعض الناس في بعض البلاد ، وصورة أخرى في الهواء تحدث عند النطق به زمنا قصيرا وقيل انه أطول ممايظن ، وصورة أخرى فيماينقشه المكروفون في لوح آلة الفونوغراف تكون محفوظة فيه الى ان تعيده الآلة كما ألقي فيها صوتا مؤلفا من الالفاظ الدالة على المعاني ،

وكلام كل أحد ما ينشئه في نفسه ويؤديه الي غيره بطريقة من الطرق التي ذكرناها ، وينقل عن قليل من البشر أنهم قد يؤدون بعض كلامهم الذي في أنفسهم الى بعض المستعدين بقوة توجيه الارادة وانهم قد يطلعون على بعض

مايجول في أنفس غيرهم من الكلام ، فمن لم يصدق هذا عنهم فليمد الاعتبار به من ضرب المثل . ومهما تكن الوسيلة التي وصل بها علم المنشىء للكلام الى غيره فان غيره يصير مثله في تصوره في نفسه وفي تصويره لغيره بالوسائل المشار اليها آنفا. مثال ذلك قول لبيد (رض)

ألا كل شيء ماخلا الله باطل وكل نعيم لامحالة زائل

تألف نظم هذا البيت في نفس لبيد بمقتضى الصنعة والغريزة التي بها يصور الانسان مافي علمه لنفسه ولغيره ، وسمعه الناس من لسانه فنقلوه عنه بالسنتهم ثم باقلامهم ، ولا يزال بعضهم يرويه عن بعض ويمكنهم في هذا العصر أن يتناقلوه بالتلفون والتلغراف ، ولكنه في أي صورة ظهر وبأية وسيلة نقل هو من كلام لبيد قاله منذ أربعة عشر قرنا وليس كلام أحد ممن ينشده اليوم بلسانه أو يرقمه بقلمه أو يؤديه الى غيره بالتلغراف أو غيره

اذا تذكرت هذا كله في كلام الانسان المخلوق على ضعفه ونقصه ، وأن الكلام من صفات الكمال التي اثبتها الله تعالى لنفسه — وتذكرت مع هذا كمال الخالق وتنزهه عن مشابهة خلقه في ذاته وصفاته وأفعاله — وأنه كلفك الايمان بوجوده وباتصافه بجميع ماوصف به نفسه من غير تعطيل ولا تشبيه — فأي عثرة يعثر بها عقلك اذا آمنت بأن لله تعالى كلاما هو صفة من صفاته الثابتة له أزلا وأبدا لانها مرآة علمه الازلي الابدي ، وانه بلغ بعض رسله من الملائكة ماشاء من كلامه ليوحوه الى رسله من البشر ليبلغوه لاممهم كما خاطب موسى بماشاء منه ، وان هذا الكلام واحد على اختلاف وسائل تبليغه وحفظه ، فقيامه بذات الله تعالى غير تمثله في نفس جبريل ، وفي نفس موسى حين سمعه من وراء حجاب ، وأداء جبريل إياه ونزوله به على قلب محمد صلى الله عليه وآله وعلى من قبله من الرسل (عم) غير أداء الله تعالى إياه الى جبريل ، وقيامه في نفس الملك غير قيامه في نفس البشر كما أن قيامه في الهواء عند التلفظ به غير قيامه في لوح الفونغراف ، وكلاهما غير قيامه في الصحف وكونه على اختلاف صوره وطرق ادائه واحدا في كونه كلام الله القديم الازلي كما قلنا في بيت لبيد من كون انشادنا له وكتابتنا إياه اليوم

لاينافي كونه كلام لبيد القديم النسبي غير الازلي. وكلام الله القديم الازلي حقيقة أولى (ولله المثل الاعلى) فلا حاجة تدعو العقل الى وصفه بأنه مخلوق أوحادث لان المخلوقين المحدثين يتناقلونه بألسنتهم وأقلامهم وسائر آلاتهم المحدثة ولا الى التفصي من القول بأنه ذو حروف مرتبة ولا بان تلقيه يسمى سماعا كقوله تعالى (حتى يسمع كلام الله)

اذا جعلت هذا البيان وسيلة لفهم ماورد في الكتاب والسنة من اثبات الكلام لله تعالى وكون مااوحاه الى رسله عليهم الصلاة والسلام من كلامه تعالى مع اجتناب التعطيل والتشبيه جميعا وفاقا للسلف الصالح ، ومع التقريب بالمثال المناسب لحال هذا العصر في علومه وفنونه، فلك بعد هذا أن تجعله مثالا يقرب من عقلك معنى تجلى الرب سبحانه في الصور المختلفة والحجب على تنزهه عن مشابهة تلك الصور والحجب

قد علمت أن للكلام حقيقة ولك ـ مع أمن اللبس ـ أن تقول صورة هي مظهر العلم في النفس ومبدأ اظهار ماشاء العالم المتكلم أن يظهره من علمه لغيره — وأن له صورا اخرى في أنفس من ألقي اليهم شيء منه على اختلاف أحوال أنفسهم من ملكية وبشرية، وصورا اخرى في الهواء وفي الخط على الكاغد وفي النقش على ألواح الفونغراف . وهذه الصور على ما بينها من التباين التام مظاهر لحقيقة واحدة هي ماأراد العالم المتكلم اظهاره من علمه بكلامه كبيت لبيد الشاعر — وكقوله تعالى

قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد *

فمن تلقى هذه السورة من لسان القارىء ، أو من الصورة التى كتبت بها السورة بحروف من الخط الكوفي أو النسخي أو الفارسي أو غيرها علم بها من كلام الله عين ما علمه جبريل وموسى ومحمد وغيرهم من الرسل في التلقي عن الله تعالى بلا وساطة أو التلقي عن جبريل عليهم السلام . وهو عين كلام الله تعالى القائم بنفسه من حيث انه هو المظهر لمعاني هذه السورة من علمه ومن حيث انه لامحل

ولا كسب لاحد من المبلغين لهافي تأليف عبارتها لا جبريل ولا محمد عليهما السلام ولا الصحابة الذين بلغوها للتابعين قولا وكتابة، ولا يقتضي هذا تأويل الكلام الالهي ولا تعطيله ولا حدوثه، ولا تشبيهه بكلام خلقه. كما أن علمه تعالى لا يشبه علم خلقه، ولا يقتضي أيضا ان نكون قد أدركنا كنه هذه الصفة بفهمنا لما بلغنا تعالى اياه من علمه بها، كما أن اطلاعه إيانا على ما علمه في الازل وفيما لا يزال من كونه أحدا صمدا لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد - لا يقتضي ادراك كنه علمه بذلك. بل نحن لم ندرك كنه كلامنا في أنفسنا ولا في الهواء ولا في غيره مما ذكر آنفا

كذلك نقول ان ماثبت في الصحاح من تجلي الرب تعالى في الصور المختلفة وتعرفه لمن شاء ببعضها دون بعض لا يقتضي حدوثه ولا مشابهته للصور ولا لحجاب النور ولا لغيره من خلقه ولا ادراك كنهه عز وجل . ومعرفة المؤمنين له ببعضها دون بعض كمعرفة بعضهم لكلامه بتبليغ اللسان دون الكتابة أو بالكتابة دون اللسان ، وكل ذلك كمال له وانما النقص ماتخيله نفاة الرؤية والصفات من جعل الخالق تعالى معنى سلبيا

﴿ تتمة السياق في الرؤية والكلام ﴾

أخبرنا الله تعالى في الآيات السابقة بأنه منع موسى رؤيته يعني في الدنيا وبشره بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالته وبكلامه ، ثم أخبرنا فيها بما آتاه يومئذ

بالاجمال فقال ﴿ وكتبنا له في الالواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء ﴾ أي اننا أعطيناه ألواحا كتبنا له فيها من كل نوع من أنواع الهداية موعظة من شأنها أن تؤثر في القلوب ترغيبا وترهيبا - وتفصيلا لكل نوع من اصول التشريع وهي اصول العقائد والآداب وأحكام الحلال والحرام، وتفصيلها ذكرها معدودة مفصولا بعضها من بعض . واسناد الكتابة اليه تعالى إما على معنى أن ذلك كان بقدرته تعالى وصنعه لا كسب لاحد فيه ، وإما على معنى أنها كتبت بامره ووحيه سواء كان الكاتب لها موسى أو الملك (عليهما السلام) قال بعض المفسرين إن الالواح كانت مشتملة على التوراة وقال بعضهم بل كانت قبل التوراة

والراجح أنها كانت أول ما أوتيه من وحي التشريع فكانت أصل التوراة الاجمالي وكانت سائر الاحكام التفصيلية من العبادات والمعاملات الحربية والمدنية والعقوبات تنزل عليه ويخاطبه الرب تعالى بها في أوقات الحاجة اليها كالقرآن .
واختلفوا في عدد الالواح فقيل كانت عشرة وقيل سبعة وقيل اثنين ، قال الزجاج يجوز أن يقال في اللغة للوحين ألواح . وهذا كل مايصح أن يذكر من خلافهم فيها
وأما تلك الروايات الكثيرة في جوهرها ومقدارها وطولها وعرضها وكتابتها وماكتب فيها فكلها من الاسرائيليات الباطلة التي بثها في المسلمين أمثال كعب الاحبار ووهب بن منبه فاغتر بها بعض الصحابة والتابعين ان صحت الروايات عنهم وقد لخص السيوطي منها في الدر المنثور ثلاث ورقات ـ أي ست صفحات ـ واسعات من القطع الكبير ، وليس منها شيء يصح أن يسمى درة وان كان منها أن الالواح من الياقوت او من الزمرد أو من الزبرجد كما أن منها أنها من الحجر ومن الخشب ، وقد اعجبني من الحافظ ابن كثير أنه لم يذكر من تلك الروايات شيئا على سعة اطلاعه ، وقد تبع في هذا عمدته في التفسير ابن جرير رحمهما الله تعالى ولكن ذكر بعضها الالوسي من المتأخرين تبعا لغيره كرواية الطبراني والبيهقي في الدلائل عن محمد بن يزيد الثقفي قال : اصطحب قيس بن خرشة وكعب الاحبار حتى اذا بلغا صفين وقف كعب ثم نظر ساعة ثم قال : ليهراقن بهذه البقعة من دماء المسلمين شيء لايهراق ببقعة من الارض مثله . فقال قيس : مايدريك ؟ فان هذا من الغيب الذي استأثر الله به ، فقال كعب مامن الارض شبر إلا مكتوب في التوراة التي أنزل الله على موسى مايكون عليه وما يخرج منه الى يوم القيامة. واستدل به الآلوسي على أن قوله تعالى (من كل شيء) على أوسع مايحمله اللفظ من العموم وأنا أظن أن هذا القول موضوع على كعب وان كنت أخالف الجمهور في مسألة تعديله ، وتأول الالوسي له هذا القول الظاهر بطلانه بالبداهة بقوله : ولعل ذلك من باب الرمز كما ندعيه في القرآن اه
وما ذكرت هذا إلا للتعجيب من فتنة هذه الروايات الباطلة الى أي حد وأي زمن وصل تأثيرها السيء حتى ان هذا النقادة قد اغتر بمثل هذا منها وتأويله بما هو باطل مثله ، فانه لم يصح عن أحد من أئمة المسلمين الذين يعتد بعلمهم بكتاب الله تعالى انه ليس في العالم أو في الارض شبر الا وقد كتب فيه (أي القرآن) ما يقع فيه وما يخرج منه ، وانما قال مثل هذا بعض المجازفين

والخياليين من الصوفية على انه من الكشف الذي يدعونه . راجع تفسير (ما فرطنا في الكتاب من شيء) في ص ٣٩٤ ـ ج ٧ تفسير

هذا واما ماورد في التوراة الحاضرة في شأن الالواح فمنه ماجاء في سفر الخروج من (٢٣ : ١٢) وقال الرب لموسى اصعد الى الجبل وكن هناك فاعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعلمهم الكلمات العشر) وجاء في وصف اللوحين منه (٣٢ : ١٥ ثم انثنى موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده : لوحان مكتوبان على جانبيهما ، من هنا ومن هناك كانا مكتوبين ١٦ واللوحان هما صنعة الله والكتابة هي كتابة الله منقوشة على اللوحين)وفيه أن موسى رمى باللوحين من يديه عندمارأى العجل الذي عبده قومه في أيام مناجاته لله تعالى ، وفي أول الفصل ٣٤ : ١ثم قال الرب لموسى انحت لك لوحي حجر كالاولين فاكتب عليهما الكلام الذي كان على الحجرين الاولين اللذين كسرتهما . . . ـ ٤ فنحت لوحي حجر كالاولين وبكر موسى في الغداة وصعد الى جبل سيناء كما أمره الرب وأخذ في يده لوحي الحجر) ويليه أن الرب هبط في الغمام ووقف عنده هناك ومر قدامه ووعده ووصاه وأمره بأوامر ونهاه عن امور ويلي ذلك (٢٧ وقال الرب لموسى اكتب لك هذا الكلام لاني بحسبه عقدت عهداً معك ومع بنى اسرائيل ٢٨ وأقام هناك عند الرب اربعين يوما واربعين ليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء فكتب على اللوحين كلام العهد الكلمات العشر) وههنا يحتمل أن يرجع ضمير « فكتب » الرب تعالى وأن يرجع الى موسى ، ولولم يرد ماتقدم عن (٣٢ : ١٦ لكان هذا متعينا بقرينة قول الرب له قبله اكتب لك هذا الكلام ،وله نظائر. وأما الوصايا العشر فقد نقلنا نصها في تفسير (٦ : ١٥٤ ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن) من سورة الانعام عقب وصايا القرآن التي هى أجمع واكمل منها (ص٢٠٢ ج ٨ تفسير)

ومن هذا الذي نقلناه هنا يعلم مافي تلك الاسرائيليات التي أوردها السيوطى في التفسير المأثور من المخالفة للتوراة ، إذ من المعلوم أن ما كان من التحريف اللفظي في التوراة من نقص وزيادة وغلط قد كان قبل الاسلام ، ولم يكن بعده الا التحريف المعنوي ـ فما في تلك الروايات من تعيين جوهر الالواح ومساحتها وكتابتها وما كتب فيها من وصف امة محمد (ص) وغيره مما يخالف هذه التوراة

فهو باطل أراد به واضعوه أن يذكر المسلمون في تفسير القرآن وغيره من كتبهم مايصد اليهود وغيرهم عن الاسلام، بأن دعوته مبنية على الكذب والبهتان ، ولم يدر اولئك الذين كانوا يكتبون كل مايسمعون شيئاً من هذا الكيد والمكر اليهودي ، ونحمد الله انه لم يرج منه على جهابذة نقد الحديث الا القليل

وأما قوله تعالى ﴿ خذها بقوة ﴾ فهو مقول قول مقدر لانه امر لموسى والخطاب قبله للنبي الخاتم عليهما الصلاة والسلام - والمعنى كتبنا له في الالواح ماذكر وقلنا له: خذها بقوة - أو وقلنا له هذه رسالتنا او وصايانا واصول شريعتنا وكلياتها فخذها بقوة أي حال كونك ملتبساً بجد وعزيمة وحزم ، أو أخذا بقوة وعزم ، وذلك أن المراد بها تكوين شعب جديد بتربية جديدة شديدة مخالفة كل المخالفة لما نشأ عليه من الذل والعبودية لفرعون وقومه والانس بما كانوا عليه من الشرك والوثنية ومفاسدها ، فاذا لم يكن المتولي تربية هؤلاء القوم والمرشد لهم صاحب عزيمة قوية وبأس شديد وعزم ثابت فانه يعجز عن سياستهم وتربيتهم ، ويفشل في تنفيذ أمر الله فيهم

﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ قيل ان (أحسن) هنا بمعنى ذي الحسن التام الكامل وليس فيه معنى تفضيل شيء على آخر ، وهو مايعبرون عنه بقولهم: اسم التفضيل على غير بابه - أي واء مر قومك بالاستمساك والاعتصام بهذه المواعظ والاحكام المفصلة في الالواح التي هي كاملة الحسن . وقيل إنه على الاصل فيه من تفضيل بعض المضاف اليه على بعض ومنه الحقيقي والاعتباري والاضافي، فأصول العقائد من الايمان بالله تعالى وتوحيده وتنزيهه أفضل وأشرف من الاحكام العملية ، ولكن لايصح أن يراد هنا، قيل الا اذا اريد بالاخذ الشروع والابتداء - والاوامر أفضل من النواهي ويصح أن تراد في مثل الامر بعبادة الله وحده والنهي عن اتخاذ الصور والتماثيل وكلاهما من الوصايا التى كتبت في الالواح وذلك أن الاخلاص لله تعالى في العبادة أمر وجودي يتحلى به العقل وتتزكى به النفس ، وترك اتخاذ الصور والتماثيل أمر سلبي محض اذا لم يكن أثراً للاخلاص في العبادة وسدا للذريعة فلاقيمة له فانه لم ينه عنه إلا لانه من ذرائع الشرك، وإلا فقد يتركه المرء لعدم الداعية وإن كان مشركا - والفرض أفضل من النفل ، ولكن ليس في الوصايا العشر نوافل ، ويقال مثله في قولهم

والعزيمة أفضل من الرخصة ومثل هذا التعبير قوله تعالى (واتبعوا أحسن ما انزل اليكم من ربكم) والمجال فيه أوسع فان القرآن أحسن ما أنزله الله تعالى الخ قمه على ألسنة رسله بأكمله تعالى الدين به وبغير ذلك من مزاياه ، والخطاب فيه لامة الدعوة أي للناس كافة لانه معطوف على قوله (وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له) ثم ان فيما أنزله فيه العزيمة والرخصة وفيه من الندب ماهو أفضل من مقابله كالصدقة بالدين بدل انظار المعسر به وهو واجب وكالعفو في مقابلة القصاص

وقوله تعالى ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ من حكاية خطابه لقوم موسى بالتبع له اذ وجه الامر فيما قبله اليه واليهم ، فهو داخل في مقول القول الذي خوطب به نبينا (ص) من قصتهم ، والجملة استئناف لبيان عاقبة الذين فسقوا عن امر الله وجحدوا بآياته فلم يأخذوا بأحسنها ، كأنه يقول ان لم تأخذوا ما آتيناكم بقوة وتتبعوا احسنه كنتم فاسقين عن امر ربكم فيحل بكم ما حل بالفاسقين من قوم فرعون الذين انجاكم الله منهم ونصركم عليهم وسيريكم ماحل بهم بعدكم من الغرق، أو الفاسقين من سكان البلاد المقدسة والمباركة التي وعدكم إياها وسينصركم عليهم بطاعتكم له وأخذكم ميثاقه بقوة

قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها : أي ستروف عاقبة من خالف امري وخرج من طاعتي كيف يصير الى الهلاك والدمار والتباب . وقال ابن جرير وإنما قال (سأريكم دار الفاسقين) كما يقول القائل لمن يخاطبه : ساريك غداً مايصير اليه حال من خالفني - على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره . ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصري . وقيل معناه سأريكم دار الفاسقين أي من أهل الشام واعطيكم إياها ، وقيل منازل قوم فرعون . والاول أولى والله أعلم لان هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر وهو خطاب لبنى اسرائيل قبل دخولهم التيه، والله أعلم اه ومن مباحث رسم المصحف الامام آن كلمة (ساوريكم) زيد فيها واو قبل الراء لئلا تشتبه بسأراكم اذ كانوا يرسمونها بالياء غير منقوطة فالمراد بها ضبط الكلمة كالضمة والله أعلم

والعبرة التي يجب أن يتذكرها ويتدبرها كل قارىء لهذه الآية من وجوه (أحدها) أن الكتاب الالهي يجب أخذه بقوة إرادة وجد عزيمة لتنفيذ ما هدى اليه من الاصلاح وتكوين الامة تكويناً جديداً صالحاً، ويتأكد ذلك في الرسول

المبلغ له والداعي اليه والمنفذ له بقوله وعمله، ليكون لقومه فيه اسوة حسنة. وتلك سنة الله تعالى في سائر الانقلابات والتجديدات الاجتماعية والسياسية وان لم تكن بهداية الدين ، والدين أحوج الى القوة والعزيمة لانه اصلاح للظاهر والباطن جميعا، وقد أمر الله تعالى بني اسرائيل بما أمر به رسولهم (ص) من أخذ الكتاب او ميثاق الكتاب بقوة أمراً مقرونا بتهديدهم وتخويفهم من وقوع جبل الطور بهم، كما تقدم في سورة البقرة (٢ . ٦٣ و٩٣) وسيأتي مثله في هذه السورة (الاعراف) وقد اخذ سلفنا القرآن بقوة فسادوا به جميع الامم التي كان لها من القوى المدنية والحربية والنظامية والمالية والصناعية ماليس لهم، وإنما سادوا بالعمل بهدايته كما أراد الله تعالى - لا بالتغني بقراءته في المحافل، ولا بالتبرك المحض بالمصاحف ، كما يفعل مقلدة الخلف الطالح ، إن من يأخذ القرآن بقوة يكون القرآن حجة له فيسعد به في الدنيا والآخرة ، ومن لا يأخذه بقوة يكون حجة عليه فيشقى بالاعراض عنه وهجر هدايته في الدنيا والآخرة (يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمر الله أن يوصل ويفسدون في الارض اولئك هم الخاسرون)

(ثانيها) أن سبب تخويف بني اسرائيل عند تبليغهم الميثاق الالهي بوقوع الجبل بهم وأمرهم في تلك الحال أن يأخذوه بقوة هي أن أحكام التوراة التي أخذ عليهم الميثاق بأخذها بقوة شاقة حرجة ، وحكمة ما فيها من الشدة والحرج أن القوم كانوا مستضعفين مستذلين باستعباد المصريين لهم منذ أجيال كثيرة وكان القوم أو الاقوام الذين وعدوا بأن يغلبوهم على بلادهم جبارين اولي قوة واولي بأس شديد ، وكان من سنة الله تعالى في البشر أن تتربى أفرادهم وشعوبهم بالشدة والارتياض بالصبر ،والجهاد بالمال والنفس ، ولهذا أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يسير ببني اسرائيل في طريق التيه وهو الجنوبي من برية سيناء دون الطريق الشمالي القريب من مدن فلسطين اذ لم يكن لهم طاقة بقتال جباري الكنعانيين وقتئذ فكتب الله تعالى عليهم التيه أربعين سنة هلك في أثنائها الذين استذلهم المصريون ونشأ من صغارهم ومواليدهم جيل جديد يربى في حجر الشرع الجديد، والتيه الشديد، كما بيناه في تفسير سورة

المائدة (ص ٣٠٢ - ٣٣٨ ج ٦ تفسير)

(ثالثها) أن الاسرائيليين قد عظم ملكهم باقامة شريعتهم بقوة حتى اذا غلب الغرور على العمل وظنوا ان الله تعالى ينصرهم ويؤيدهم لنسبهم ولقبهم وهو « شعب الله » فسقوا وظلموا ، فانزل الله بهم البلاء، وسلط عليهم البابليين الاقوياء، فثلوا عرشهم وتبروا ملكهم ، ثم تابوا الى رشدهم، فرحمهم الله واعاد لهم بعض ملكهم وعزهم ،ثم ظلموا وافسدوا فسلط عليهم النصارى فمزقوهم كل ممزق ، فظلوا عدة قرون متكلين على المسيح الموعود ليعيد لهم ملكهم بخوارق العادات ، ثم ربتهم الشدائد ونورهم العلم العصري فطفقوا يستعدون لاستعادة هذا الملك بكل ما في الامكان من الاسباب وفي مقدمتها المال والنظام والكيد والدهاء مع المحافظة على التقاليد الدينية في ذلك حتى انتهى بهم السعي الى استخدام الدولة البريطانية بما فصلناه في بيان العبرة في قوله تعالى (١٣٦ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها) من هذه السورة (ص٩٧ ج ٩)

(رابعها) ان المسلمين الذين اتبعوا سننهم وسنن النصارى شبرا بشبر وذراعا بذراع في الضر دون النفع كما فصلناه في غير هذا الموضع قد اغتروا بدينهم كما اغتروا، واتكلوا على لقب « الاسلام »، ولقب « أمة خاتم الرسل» عليه الصلاة والسلام ، ولكنهم لما يثوبوا الى رشدهم ، لان الذين سلبوا ملكهم وعزهم لم يسوسوهم شدة مربية كافية، بل اجتهدوا في إفساد عقائدهم واخلاقهم ، وايقاع الشقاق والتفريق فيما بينهم ، بل أفسدوا كذلك من لم يستولوا على ملكهم منهم ، بتوليهم التربية والتعليم لكثيرين منهم. كانوا عونا لهم على ما يريدون من ثل عروشهم والسيادة عليهم بالتدريج كالعثمانيين والمصريين كما فصلناه في مواضع أخرى (١) ولا يزال هؤلاء المتفرنجون المخربون يجدون في قتل هذه الامة وهم يظنون أنهم يجددون، ويفسدون عليها أمرها ويحسبون أنهم يصلحون ، (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)

(١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ

(١) أقربها مقالة «ماضي الازهر وحاضره ومستقبله» في ج٩ من المنار م ٢٥

بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

انتهى بالآية التي قبل هاتين الآيتين فصل من فصول قصة موسى عليه السلام وهاتان الآيتان استئناف مرتب على جملة ماتقدمه منها بين الله فيه لخاتم رسله في الاولى منهما سنته في ضلال البشر بعد مجيء البينات في كل زمان ويدخل فيه قوم فرعون من الغابرين دخولا أوليا وينطبق على رؤساء كفار قريش المعاندين له (ص) من الحاضرين وبين في الثانية جزاءهم على تكذيبهم وكفرهم ، قال :

﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق ﴾ هذا بيان لسنته تعالى في تكذيب البشر لدعاة الحق والخير من الرسل وورثتهم وسببه الاول التكبر فان من شأن الكبر أن يصرف أهله عن النظر والاستدلال على الحق والهدى لاجل اتباعه فهم يكونون دائما من المكذبين بالآيات الدالة على عليهما الغافلين عنها وتلك حال الملوك والرؤساء والزعماء الضالين كفرعون وملئه

وإنما ذكرت هذه السنة العامة من أخلاق البشر بصيغة المستقبل لاعلام النبي (ص) بأن الطاغين المستكبرين من مشيخة قومه لن ينظروا في آيات القرآن الدالة على صدقه (ص) في دعوى الرسالة من وجوه كثيرة بيناها مرارا ، والدالة على وحدانية الله تعالى بما اقامته عليها من البراهين الكثيرة ولا في غيرها مما أيده ويؤيده به من آياته الكونية لتكبرهم في الارض بالباطل فوجهة نظرهم تنحصر في تفضيل أنفسهم عليه (ص) بأنهم سادة قريش وكبراؤها واغنياؤها واقوياؤها فلا يليق بهم أن يتبعوا من هو دونهم سنا وقوة وثروة وعصبية، والمعنى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق من قومك أيها الرسول ومن غيرهم في كل زمان ومكان كما صرفت فرعون وملاءه عن آياتي

التي آتيتها رسولي موسى

— والتكبر صيغة تكلف او تكثر من الكبر الذي هو غمط الحق بعدم الخضوع له واحتقار الناس، فهو شأن من يرى انه أكبر من أن يخضع لحق، أو يساوي نفسه بشخص ، والاصل الغالب في التكبر ان يكون بغير الحق وقد يتصور أن يتكلف الانسان اعلاء نفسه على غيره أو اكثاره من الاستعلاء عليه بحق كالترفع عن المبطلين واهانة الجبارين واحتقار المحاربين . فقوله تعالى (بغير الحق) يكون على هذا صلة للتكبر وهو قيد له، وإلا كان بيانا للواقع. أو المعنى انهم يتكبرون حالة كونهم متلبسين بغير الحق أي منغمسين في الباطل فأمثال هؤلاء لا قيمة للحق في نفسه عندهم فهم لا يطلبونه ولا يبحثون عنه وقد تظهر لهم آياته ويجحدونها وهم بها موقنون ، كما قال تعالى في آل فرعون (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) وقال في طغاة قريش (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)

﴿وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ هذا إما عطف على جملة (سأصرف ..) أي سأصرفهم عن آياتي المنزلة والكونية فينصرفون وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها — وأما عطف على (يتكبرون) فيكون هو وما بعده بيانا لصفات المتكبرين وأحوالهم واولها أنهم ان يروا كل آية من الآيات التي تدل على الحق وتثبت وجوده لا يؤمنوا بها فان كثرة الآيات بتعدد أنواعها وأفرادها انما تفيد من كان طالبا للحق ولكنه جاهل أو شاك أو سيء الفهم فاذا خفيت عليه دلالة بعضها فقد تظهر له دلالة غيره ، وفي هذا اعلام للنبي « ص » بأن الذين يقترحون عليه الآيات من قومه انما يقصدون التعجيز ، لا استبانة الحق بالدليل، فهم ان اجيبوا الى طلبهم لا يؤمنون ، ولهذا نظائر تقدم بعضها في سورة الانعام مفصلا تفصيلا

﴿ وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا﴾ الرشد الصلاح والاستقامة وضده الغي وهو الفساد ، وفيه ثلاث لغات ضم أوله وسكون ثانيه وبه قرأ الجمهور هنا — وفتحهما وبها قرأ حمزة والكسائي — والرشاد وقد وردت في سورة المؤمن حكاية عن فرعون (وما أهديكم الا سبيل الرشاد) ومثلها السقم والسقم والسقام — والمعنى ان من صفة هؤلاء الذين مرنوا على الضلال

واستمرؤا مرعى الغي والفساد، ان ينفروا من الهدى والرشاد ، فان رأى احدهم سبيله واضحة جلية لايختار لنفسه جعلها سبيلا له بايثارها وتفضيلها على هو عليه ، وما كل أحد يصل الى هذه الدرجة من الغيّ لان من الناس من يسلك سبيل الغي على جهل فاذا علم بما تنتهي به اليه من الفساد ورأى لنفسه مخرجا منها تركها ، واختار سبيل الرشد عليها

﴿ وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ﴾ وهذه الحالة شر مما قبلها فان هذه إيجابية وتلك سلبية ، وبينهما حال اخرى وهي حال من ليس فيه من نور البصيرة وزكاء النفس ما يحمله على سلوك سبيل الرشد اذ رآه لضعف همته ؛ ولكنه يكره الغي والفساد اذ لم يصل من اعتلال الفطرة وظلمة البصيرة الى تفضيله على الرشد وايثار سبيله واختيارها لنفسه اذا رآها . بحيث لا يصرفه عن الفساد الا جهل سبيله أو العجز عن سلوكها

فمن اجتمعت له هذه الاحوال أو الصفات فهو الذي أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فلم تبق له سبيل من أسباب الحق والرشد يسلكها ، وقد علل ذلك سبحانه بقوله

﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ يعني ان الله تعالى لم يخلقهم مطبوعين على شيء مما ذكر طبعا، ولم يجبرهم ويكرههم عليه اكراها ، بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم للتكذيب بآياته الدالة على الحق ، والصدود عن سبيله الموصلة الى الرشد ، وكانوا غافلين عنها دون أهوائهم لا يعطونها حقها من النظر والتأمل والتفكر والتدبر ، لاشتغالهم عن ذلك باهوائهم ، وعصبيتهم لانفسهم ولآبائهم ، وبذلك قطعوا على أنفسهم طريق الهدى . فالغفلة هنا هى الغفلة المطبوعة المانعة من أسباب العلم والفطنة ، لاأي نوع من أنواع الغفلة ، بل هي المبينة في قوله تعالى من أواخر هذه السورة (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها . اولئك كالانعام بل هم أضل اولئك هم الغافلون)

الضالون من هؤلاء الغافلين عن آيات الله تعالى وماتهدي اليه من معرفته والاستعداد للحياة الاخرى الباقية هم الذين يقول الله تعالى في وصفهم (اولئك في ضلال بعيد) ويقول (قد ضلوا ضلالا بعيدا) اذ كان لهم من الانهماك فيما هم فيه والغرور به واحتقار ماسواه مايصدهم عن توجيه عقولهم الى غيره ،

ومنهم متفرنجة المسلمين الخرافيين في هذا العصر يحتقرون هداية الدين الروحية وما لها من التأثير العظيم في تهذيب النفس وحملها على الخير وصدها عن الشرور من الفواحش والمنكرات ، وإغاغرهم وأضلهم أنهم في عصر وصل فيه الغربيون الى غاية بعيدة من الفنون والصناعات، فأنهم يرون ان من عاش في هذا العصر يجب أن يكون مثلهم عبداً لشهواته ، ومقتضى ذلك انه كان الافضل لبني اسرائيل ان لا يتبعوا موسى عليه السلام لانه لم يكن عنده من زينة الدنيا وقوتها وصناعاتها وفنونها ما كان عند فرعون وقومه ، (فاعتبروا يا أولي الابصار)

ثم قال تعالى ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة هل يجزون الا ما كانوا يعملون ؟ ﴾ الآيات في الآية التي قبل هذه بمعنى الدلائل والبينات من براهين عقلية، نظرية كانت أو علمية أو كونية، كآياته تعالى في الانفس والآفاق، ومنها معجزات الانبياء عليهم السلام وأظهرها وأقواها القرآن العظيم ، من حيث هو دال على صدق النبي الامي في دعوى الرسالة من وجوه كثيرة تقدم بيانها ـ وأما الآيات المذكورة في هذه الآية فالظاهر المتبادر أنها الآيات المنزلة من حيث اشتمالها على الهداية والاصلاح بتزكية الانفس من خرافات الشرك وفساد الاخلاق ومنكرات الاعمال . واللقاء مصدر لقي الشيء أو الشخص ولاقاه كالملاقاة اذا صادفه أو قابله أو انتهى اليه يقال لقي زيدا ولاقاه ولقي خيرا أو شرا (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) * ومن يلق خيرا يحمد الناس أمره * ولقي جزاءه . قال الراغب وملاقاة الله عز وجل عبارة عن القيامة وعن المصير اليه قال (واعلموا انكم ملاقوه * وقال الذين يظنون أنهم ملاقو الله)

والمعنى والذين كذبوا بآياتنا المنزلة بالحق والهدى على رسلنا فلم يؤمنوا لهم ولا اهتدوا بها، وكذبوا بلقاء الاخرة وما يكون فيها من الجزاء على الاعمال — على الخير بالثواب وعلى الشر بالعقاب فاتبعوا أهواءهم ـ لا يجزون هناك الا ما كان من تأثير أعمالهم النفسية والبدنية معا أو النفسية فقط (كترك الواجبات) في أرواحهم وأنفسهم من حق وخير زكاها وأصلحها أو من باطل وشر دساها وأفسدها ـ ان الله لا يظلم الناس في الجزاء مثقال ذرة وانما مضت سنته بجعل الجزاء في الاخرة أثرا للعمل مرتبا عليه ترتب المسبب على السبب كانه هو نفسه وقد شرحنا هذا المعنى مرارا « تراجم كلمة جزاء في فهارس التفسير

(١٤٧) وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا
لَهُ خُوَارٌ . أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ؟ اتَّخَذُوهُ
وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا
قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ

﴿ قصة اتخاذ بني اسرائيل للعجل ﴾

في أثناء مناجاة موسى عليه السلام لربه عز وجل في جبل الطور اتخذ قومه من بنى اسرائيل عجلا مصوغا من الذهب والفضة وعبدوه من دون الله تعالى لما كان رسخ في قلوبهم من نخامة مظاهر الوثنية الفرعونية في مصر ، وقد ذكرت هذه القصة هنا معطوفة على ماقبلها من خبر المناجاة والواح الشريعة لما بين السياقين من العلاقة والاشتراك في الزمن . قال تعالى

﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ﴾ الحلي بالضم والتشديد جمع حلي بالفتح والتخفيف فهو كثدي جمعا لثدي . وهذا الحلي استعاره نساء بنى اسرائيل من نساء المصريين قبل خروجهم من مصر فملكوه باذن الله تعالى ، والعجل ولد البقرة سواء كانت من العراب أو الجواميس فهو كالحوار لولد الناقة والمهر لولد الفرس والحمل لولد الشاة والجدي لولد العنز الخ . والجسد الجثة وبدن الانسان حقيقة ويطلق على غيره مجازا والاحمر كالذهب والزعفران والدم الجاف وقال في لسان العرب : الجسد جسم الانسان ولا يقال لغيره من الاجسام المغتذية ، ولا يقال لغير الانسان جسد من خلق الارض . والجسد البدن تقول منه تجسد كما تقول من الجسم تجسم . ابن سيده : وقد يقال للملائكة والجن جسد . غيره : وكل خلق لا يأكل ولا يشرب من نحو الملائكة والجن مما يعقل فهو جسد . وكان عجل بنى اسرائيل جسداً يصيح لا يأكل ولا يشرب ، وكذا طبيعة الجن ، قال عز وجل (فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار) « جسداً » بدل من عجل لان العجل هنا هو الجسد ، وان شئت حملته على الحذف أي ذا جسد ، وقوله (له خوار) يجوز أن تكون الهاء راجعة الى العجل وأن

تكون راجعة الى الجسد ، وجمعه أجساد . وقال بعضهم في قوله (عجلا جسداً) قال أحمر من ذهب . وقال أبو اسحق في تفسير الآية : الجسد هو الذي لا يعقل ولا يميز إنما معنى الجسد معنى الجثة فقط ، وقال في قوله (وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام) قال جسد واحد يعني على جماعة، قال ومعناه وما جعلناهم ذوي أجساد الا ليأكلوا الطعام وذلك انهم قالوا (مالهذا الرسول يأكل الطعام) فأعلموا أن الرسل أجمعين يأكلون الطعام وأنهم يموتون. المبرد وثعلب : العرب اذا جاءت بين كلامين بجحدين كان الكلام إخباراً (قالا) ومعنى الآية انما جعلناهم جسدا ليأكلوا (قالا) ومثله في الكلام : ماسمعت منك وما أقبل منك معناه انما سمعت منك لاقبل منك (قالا) وان كان الجحد في أول الكلام كان الكلام مجحودا جحداً حقيقياً (قالا) وهو كقولك : مازيد بخارج . قال الازهري : جعل الليث قول الله عز وجل (وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام) كالملائكة (قال) وهو غلط ومعناه الاخبار كما قال النحويون أي جعلناهم جسداً ليأكلوا الطعام (قال) وهذا يدل على أن ذوي الاجساد يأكلون الطعام وان الملائكة روحانيون لا يأكلون الطعام وليسوا جسداً فان ذوي الاجساد يأكلون الطعام . اهـ وقولهم معناه الاخبار أي الاثبات

والخوار صوت البقر وهو بضم أوله كامثاله من أسماء الاصوات : رغاء الابل وثغاء الغنم ويعار المعز ومواء الهر ونباح الكلب الخ

وعلم من القصة في سورة طه ان السامري هو الذي أخذ منهم ما حملوه من أوزار زينة قوم فرعون فألقاها في النار فصاغ لهم منها عجلا أي تمثالا له صورة العجل وبدنه وصوته وإنما نسب ذلك هنا اليهم لانه عمل برأي جمهورهم الذين طلبوا أن يكون لهم الهة ، قال الحافظ ابن كثير : وقد اختلف المفسرون في ذلك العجل هل صار لحما ودما له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر ؟ على قولين والله أعلم اهـ روي القول الاول عن قتادة وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك انه خار خورة واحدة ولم يثن . فمن قال انه حلت فيه الحياة علله بأن السامري رأى جبريل حين جاوز ببني اسرائيل البحر وفي رواية عند نزوله على موسى (عليهما السلام) راكبا فرسا ماوطيء بها أرضا الا حلت فيها الحياة واخضر النبات فأخذ من أثرها قبضة فنبذها في جوف

تمثال العجل فصار حيا له خوار وفسروا بهذا ماحكاه الله تعالى عنه في سورة طه وسيأتي بيانه في تفسيرها ، ولكن قال بعض هؤلاء ان خواره كان بتأثير دخول الريح في جوفه وخروجها من فيه كقول الآخرين الذين قالوا انه لم يكن حيا ، والروايات في حياته لا يصح منها شيء ولذلك وقف الحافظ ابن كثير فلم يرجح أحد القولين على الآخر ،وفي تفسير القصة من سورة طه روايات كثيرة من خرافات الاسرائيليات ، فيها ضروب من الكذب والضلالات ، سنعود اليها في تفسير سورة طه ان شاء الله وقدر لنا الحياة .

قال تعالى في بيان ضلالتهم ، وتقريعهم على جهالتهم، ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا؟ ﴾ أي ألم يروا أنه فاقد لما يعرف به الاله الحق ،وخاصة ماله من حق العبادة على الخلق ، بما يكلم به من يختاره منهم لرسالته ، ويعلمه ما يجب أن يعرفوه من صفاته وسبيل عبادته ، كما يكلم رب العالمين رسوله موسى عليه السلام ، ويهديه سبيل الشريعة التي تتزكى بها أنفسهم ، وتقوم بها مصالحهم، فعلم بهذا أن من شأن الرب الاله الحق أن يكون متكلما ، وأن يكلم عباده ويهديهم سبيل الرشاد باختصاصه من شاء منهم واعداده لسماع كلامه ،وتلقي وحيه وتبليغ أحكامه ،وفي سورة طه (أفلا يرون أن لا يرجع اليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) فالمراد بالقول هداية الوحي، والمعنى انه ليس له من صفات الرب الاله هداية الارشاد التي مرجعها صفة الكلام، ولا الضر والنفع اللذين هما متعلق صفتي القدرة والارادة . ثم قال تعالى

﴿ اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ أي اتخذوه وهم يرون انه لا يكلمهم بما فيه صلاحهم، ولا يهديهم لما فيه رشادهم ،ولا يملك دفع الضر عنهم،ولا اسداء النفع اليهم ، أي انهم لم يتخذوه عن دليل ولا شبهة دليل ، بل عن تقليد لما رأوا عليه المصريين من عبادة العجل « أبيس » من قبل، ولما رأوه من العاكفين على أصنام لهم من بعد ، وكانوا ظالمين لا نفسهم بهذا الاتخاذ الجهلي الذي يضرهم ولا ينفعهم بشيء .

﴿ ولما سقط في أيديهم ﴾ يقال : سقط في يده وأسقط في يده — بضم اولهما على البناء للمفعول — وكذا بفتح أول الثلاثي على قلة في اللغة

وشذوذ في القراءة — أي ندم، ويقولون فلان مسقوط في يده وساقط في يده أى نادم كما في الاساس ولكنه فسره في الكشاف بشدة الندم والحسرة وجعله من باب الكناية وفي اللسان : وسقط في يد الرجل - زل وأخطأ وقيل ندم ، قال الزجاج يقال للرجل النادم على ما فعل الحسر على ما فرط منه : قد سقط في يده وأسقط . . . وفي التنزيل العزيز (ولما سقط في أيديهم) قال الفارسي :ضربوا بأكفهم على أكفهم من الندم، فان صح ذلك فهو اذاً من السقوط، وقد قرىء « سقط في أيديهم » كأنه أضمر الندم أى سقط الندم في أيديهم كما تقول لمن يحصل على شيء وان كان مما لا يكون في اليد : قد حصل في يده من هذا مكروه ،فشبه ما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويرى بالعين اه زاد الواحدى في تفسيره : وخصت اليد لان مباشرة الامور بها كقوله تعالى (ذلك بما قدمت يداك)أو لان الندم يظهر أثره بعد حصوله في القلب في اليد كعضها والضرب بها على اختها ونحو ذلك فقد قال سبحانه في النادم (فأصبح يقلب كفيه * ويوم يعض الظالم على يديه) وفي تاج العروس : وفي العباب هذا نظم لم يسمع قبل القرآن ولا عرفته العرب ، والاصل فيه نزول الشيء من أعلى الى أسفل ووقوعه على الارض ثم اتسع فيه فقيل للخطأ من الكلام سقط لأنهم شبهوه بما لا يحتاج اليه فيسقط ، وذكر اليد لان الندم يحدث في القلب وأثره يظهر في اليد كقوله تعالى (فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها) ، ولان اليد هي الجارحة العظمى فربما يسند اليها مالم تباشره كقوله تعالى (ذلك بما قدمت يداك) اه

والمعنى أنهم لما اشتد ندمهم وحسرتهم على مافعلوا ﴿ ورأوا أنهم قد ضلوا ﴾ أي وعلموا أنهم قد ضلوا بعبادة العجل أو تبين لهم ضلالهم به وتحقق بما قاله وفعله موسى حتى كأنهم رأوه رأي العين ﴿ قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا ﴾ أي أقسموا إنه لا يسعهم بعد هذا الذنب إلا رحمة ربهم التي وسعت كل شيء ،قائلين لئن لم يرحمنا بقبول توبتنا والتجاوز عن جريمتنا ﴿ لنكونن من الخاسرين ﴾ لسعادة الدنيا وهي الحرية والاستقلال في أرض الموعد ولسعادة الآخرة وهي دار الكرامة والرضوان

وقد بحث بعض الغواصين على نكت البلاغة في تقديم الندم في الذكر على تبين الضلالة مع أن المعروف في العادة أن يندم الانسان على ما علم من ذنبه فقال القطب الشيرازي مامعناه موضحاً ان الانتقال من الجزم بان هذا الشيء

أو الامر حتى الى استبانة الجزم بضده أو نقيضه لايكون دفعة واحدة في الاغلب بل الاغلب أنه ينتقل من الجزم بصحته أو حقيقته الى الشك فيها ثم الى الظن بالضد أو النقيض ثم الى الجزم به ثم الى تبينه واليقين فيه الذي يعبر عنه بالرؤية ، والقوم كانوا جازمين بان مافعلوه صواب ، والندم عليه رعاوقم لهم في حال الشك فيه فيكون تبين الضلال متأخراً عن الندم اهـ

وأقول جاء في سياق القصة المفصل من سورة طه أنه لما أنكر عليهم هارون عليه السلام عبادة العجل وذكرهم بتوحيد الربوبية الدال على وجوب توحيد العبادة للرب وحده (قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى) فلما رجع موسى وأنب هارون عليه السلام (قال) فيما قاله له (ياهارون مامنعك اذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعني أفعصيت أمرى) لك (اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) ؟ فعند تصريح موسى بأنهم ضلوا ، ورؤيتهم ماكان من غضبه والقائه بالالواح حتى تكسرت وأخذه برأس أخيه هارون ولحيته وجره اليه ندموا على مافعلوا ، فان كان هذا الندم عن تقليد وطاعة لموسى لاعن علم يقيني بأن عملهم ضلال فالراجح أن يكون العلم القطعي المعبر عنه بقوله (ورأوا أنهم قد ضلوا) قد حصل بعد تحريق موسى للعجل ونسفه في اليم

فان كان من قواعد النحو أن العطف بالواو لا يقتضي الترتيب ، فمن قواعد علم المعاني أن ما لا يجب الترتيب فيه بزمان ولا رتبة أن يقدم في سرده وفي نسقه الاهم ، فان لم يكن تقديم الندم هنا لسبقه في الزمن فالاظهر أنه للمبالغة في استشعارهم استحقاق العقاب كانه يقول انهم على ندمهم وتوبتهم التي من شأنها محو الذنب وترك العقاب وعلى كونهم صاروا على علم يقيني ببطلان عبادة العجل ووجوب تخصيص الرب بالعبادة — قالوا ذلك القول الدال على أن مجموع الامرين لا يكفي لاستحقاق المغفرة إلا برحمة الله تعالى ، ومن المعلوم ان العلم بالضلال وحده لا يقتضي العفو والمغفرة إلا اذا ترتب عليه العمل بمقتضاه وهو التوبة والرجوع الى الله تعالى بالعمل فان الذين ضلوا على علم ولم يتوبوا أشد الناس عقابا - فعلم بذلك أن تقديم الندم أهم من تقديم العلم بالضلال ؛ وهذا من فضل الله الذي لم نره لاحد ، وقد علم منه وجه تقديم ذكر الرحمة على ذكر المغفرة وهو أنها سببها ، فان التوبة ومعرفة الحق لا يكفيان للمغفرة بدونها ، ولا غرو فقد ورد في الصحيحين عن أبي

هريرة قال سمعت رسول الله (ص) يقول « لن يدخل أحداً عمله الجنة » قالوا ولا أنت يارسول الله ؟ قال « ولا أنا الا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة فسددوا وقاربوا » الخ الحديث ، وفي مسلم من حديث جابر « لايدخل أحداً منكم عمله الجنة ولايجيره من النار .ولا أنا الا برحمة من الله » وأمثل الاجوبة في الجمع بين الحديث وبين الآيات الكثيرة الصريحة في دخول الجنة بالعمل ان ذلك بفضل الله ورحمته فان عمل أي عامل لايستحق عليه لذاته ذلك النعيم الكامل الدائم ، بل لايفي عمل أحد ببعض نعم الله تعالى عليه في الدنيا . وأما قولهم إن دخول الجنة بالرحمة واقتسامها بالاعمال فهو لايدفع التعارض بين الآيات والحديث فان منها (١٦ : ٣٢ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) (١)

(١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ؟ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ . قَالَ : ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي، فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

«١» وقال شيخ الاسلام ابن تيمية : وقوله صلى الله عليه وسلم « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله » لا يناقض قوله تعالى (جزاء بما كنتم تعملون) فان المنفي نفي باء المقابلة والمعاوضة كما يقال : بعت هذا بهذا ، وما أثبت أثبت بباء السبب فالعمل لا يقابل الجزاء وان كان سببا للجزاء ، ولهذا من ظن انه قام بما يجب عليه وانه لايحتاج الى مغفرة الرب تعالى وعفوه فهو ضال كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لن يدخل أحدا الجنة بعمله - قالوا ولا انت يارسول الله قال - ولا أنا الا ان يتغمدني الله برحمة منه وفضل » وروي « بمغفرته » ومن هذا أيضا الحديث الذي في السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ان الله لو عذب أهل سماواته وأهل ارضه لعذبهم غير ظالم لهم. ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم » الحديث

﴿ ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا ﴾ ذكر في أول مادة أ س ف من لسان العرب ان الاسف شدة الحزن والغضب . والاكثرون لايشترطون شدتهما قال في المصباح : أسف أسفا من باب تعب حزن وتلهف فهو أسف مثل تعب ، وأسف مثل غضب وزنا ومعنى ، ويعدى بالهمزة فيقال آسفته . وقال الراغب : الاسف الحزن والغضب معا ، وقد يقال لكل منهما على الانفراد ، وحقيقته ثوران دم القلب شهوة الانتقام فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضبا ، ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزنا ، ولذلك سئل ابن عباس عن الحزن والغضب ؟ فقال مخرجهما واحد واللفظ مختلف فمن نازع من يقوى عليه أظهره غيظا وغضبا ، ومن نازع من لايقوى عليه اظهره(١) حزنا وجزعا . وبهذا النظر قال الشاعر : * فحزن كل أخي حزن أخو الغضب *

ثم ذكر ان الاسف في الآية التي نفسرها هو الغضبان فهو اذا مترادف ، وقد فاته هنا مانعهد من تحقيقه لمدلولات الالفاظ وما أظن أن مانقله عن ابن عباس يصح فان ماذكر من المقابلة بين الغضب والحزن إنما يظهر بين الغضب والحقد ، وانما الحزن ألم النفس بفقد مانحب من مال أو أهل أو ولد . وليس من شهوة الانتقام في شيء . ومن شواهد استعمال الاسف بمعنى الحزن قوله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام (وقال ياأسفى على يوسف) ومن شواهد استعماله بمعنى الغضب قوله تعالى (فلما آسفونا انتقمنا منهم) ولا يوصف تعالى بالحزن ولا يسند اليه. وغضبه سبحانه ليس كغضب البشر ألما في النفس، ولا أثرا لغليان دم القلب، تعالى عن هذه الانفعالات والآلام البشرية، وانما هو صفة تليق به هي سبب العقاب . والجمع بين الغضبان والاسف في صفة موسى عليه السلام يدل على ان الاسف بمعنى الحزن

والمعنى أنه لما رجع موسى من الطور الى قومه غضبان على أخيه هارون اذ رأى أنه ضعف في سياسته لهم، ولم يكن ذا عزيمة في خلافته فيهم، حزينا على ماوقع

(١) كذا والمعنى يقتضي أن يقال ; أخفاه ـ أو ـ أسره

منهم من كفر الشرك، واغضاب الله عز وجل ﴿ قال بئسما خلفتموني من بعدي ﴾ أي بئس خلافة خلفتمونيها من بعد ذهابي عنكم إلى مناجاة الرب تعالى من بعد ما كان من شأني معكم ان لقنتكم التوحيد وكففتكم عن الشرك وبينت لكم فساده وبطلانه وسوء عاقبة أمره حين رأيتم القوم الذين يعكفون على أصنام لهم من تماثيل البقر – فكان الواجب عليكم أن تخلفوني باقتفاء سيرتي ولكنكم خلفتموني بضدها اذ صنعتم لكم صنما كأصنام أولئك القوم أو كأحد أصنام المصريين فعبده بعضكم، ولم يردعكم عن ذلك سائركم. فالتوبيخ عام، وفيه تعريض خاص بهارون عليه السلام لانه جعله خليفته فيهم كما تقدم

﴿ أعجلتم أمر ربكم ؟ ﴾ قال في لسان العرب : وعجله سبقه ، وأعجله استعجله . وفي التنزيل العزيز (أعجلتم أمر ربكم) أي استبقتم قال الفراء : تقول عجلت الشيء أي سبقته وأعجلته استحثثته اه وقال في الكشاف : يقال عجل عن الامر اذا تركه غير تام ، ونقيضه تم عليه ، وأعجله عنه غيره ، ويضمن معنى سبق فيعدى تعديته فيقال عجلت الامر . والمعنى أعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حافظين لعهده وما وصاكم به ، فبنيتم الامر على ان الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع اليكم فحدثتم أنفسكم بموتي فغيرتم كما غيرت الامم بعد أنبيائهم . وروي أن السامري قال لهم حين أخرج لهم العجل وقال (هذا إلهكم وإله موسى) : إن موسى لن يرجع وانه قد مات اه وقال ابن كثير وقوله (أعجلتم أمر ربكم) أي استعجلتم مجيئي اليكم وهو مقدر من الله تعالى اهـ وقد نقل الالوسي كلام الكشاف من غير عزو كعادة أكثر المؤلفين بعد سلف الامة ثم قال . وذهب يعقوب الى أن السبق معنى حقيقي له من غير تضمين . والامر واحد الاوامر ، وعن الحسن : ان المعنى أعجلتم وعد ربكم الذي وعدكم من الاربعين ؟ فلامر عليه واحد الامور اه والمراد بالاربعين ما بينه من أنها الليالي التي واعد موسى ربه كما تقدم

ثم قال ﴿ وألقى الالواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه ﴾ أي وطرح الالواح من يديه ليأخذ برأس أخيه مما كان من شدة غضبه لله تعالى وأسفه لما فعل قومه

من الشرك به ولما ظن من تقصير اخيه وأخذ بشعر رأس أخيه يجره اليه بذؤابته ، اذ كان الواجب عليه في اجتهاد موسى أن يردعهم ويكفهم عن عبادة العجل إن قدر كما فعل هو بتحريقه وإلقائه في اليم ـ وأن يتبعه الى جبل الطور إن لم يقدر كما حكى الله تعالى عنه في سورة طه (قال : ياهارون مامنعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني؟ أفعصيت أمري؟) والاجتهاد يختلف باختلاف أحوال المجتهدين فالقوي الشديد الغضب للحق بالحق كموسى عليه السلام ، يشعر بما لا يشعر به من يغلب عليه الحلم ولين العريكة كهارون عليه السلام . وقد بحث بعض المفسرين في إلقاء الالواح وما روي من تكسر بعضها هل يتضمن تقصيرا في تعظيم كلام الله تعالى ؟ وكيف يمكن أن يقع مثل ذلك من الرسول المعصوم ولو في حال الغضب الشديد ؟ بل توهم بعضهم انه يتضمن في نفسه نوع إهانة للالواح فوجب بيان المخرج منه . والمختار عندنا في الجواب عن هذه الاوهام أن إلقاء الالواح لا يقتضي إهانة لها ، كما ان إلقاء العصا لاقامة الحجة على السحرة لايتضمن مثل ذلك ، فالالقاء في نفسه لايقتضي ذلك لغة ولا عادة وانما يقع مايقع من مثل ذلك بقصد وهو ممتنع هنا قطعا — وان كان الغضب مظنة له ، فعلم بهذا انما أطال به بعضهم لا طائل تحته ولا حاجة اليه .

وما ذا كان جواب هارون عليه السلام ﴿ قال : ابن أمَّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم هنا وفي سورة طه (ابن أم) بكسر الميم على حذف ياء المتكلم للتخفيف وهي تطرح في المنادى المضاف ، وقرأها الباقون بالفتح وعللوها بزيادة التخفيف وبالتشبيه بخمسة عشر ، وقرىء في الشواذ « ابن أمي » باثبات الياء على الاصل . قال في الكشاف : قيل كان أخاه لابيه وأمه فان صح فانما أضافه الى الام اشارة الى أنهما من بطن واحد ، وذلك أدعى الى العطف والرقة وأعظم للحق الواجب ، ولانها كانت مؤمنة فاعتد بنسبها ، ولانها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها اه وهو حسن الا قوله فاعتد بنسبها فان النسب لايتوقف على الايمان . واسم أمهما (يوكابد) بنت لاوي كما في التوراة عندهم

والمعنى ياابن أمي لاتعجل بمؤاخذتي وتعنيفي فاني لم آل جهدا في الانكار على القوم والنصح لهم ولكنهم استضعفوني فلم يرعووا لنصحي ولم يمتثلوا أمري، بل قاربوا أن يقتلوني ﴿ فلا تشمت بي الاعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ أى فلا تفعل بي من المعاتبة والاهانة مايشمت بي الاعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين لانفسهم بعبادة العجل بأن تلزني بهم في قرن من الغضب والمؤاخذة فلست منهم في شيء. والظاهر انه يعني بالاعداء والظالمين فريقا واحدا وهم الذين عبدوا العجل فأنكر عليهم فوجدوا عليه وكادوا يقتلونه، وهذا دليل على أنه كان دون موسى في قوة الارادة وشدة العزيمة، وهوما اتفق عليه علماؤنا وعلماء أهل الكتاب

وماذا كان من أثر هذا الاستعطاف في قلب موسى عليه السلام ﴿ قال: رب اغفر لي ولاخي ﴾ أي اغفر لي ما أغلظت عليه به من قول وفعل، واغفر له ماعساه قصر فيه من مؤاخذة القوم، لما توقعه من الايذاء حتى القتل، ﴿ وأدخلنا في رحمتك ﴾ التي وسعت كل شيء بجعلها شاملة لنا وجعلنا مغمورين فيها. وهو أبلغ من «وارحمنا» ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ وهذا ثناء، يدل على مزيد الثقة في الرجاء، والدعاء في جملته أقوى في استعتاب هارون من الاعتذار له، وأدل على تخييب أمل الاعداء في شيء مما يثير حفيظة الشماتة، قال الزمخشري في تعليله: ليرضي أخاه ويظهر لاهل الشماتة رضاه عنه فلا تتم لهم شماتتهم، واستغفر لنفسه مما فرط منه الى أخيه، ولاخيه أن عسى فرط في حسن الخلافة، وطلب أن لايتفرقا عن رحمته ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة اه

***

برأ القرآن المجيد هارون عليه السلام من جريمة اتخاذ العجل ومن التقصير في الانكار على متخذيه وعابديه من قومه، وهذا من أهم المواضع التي هيمن بها على كتب الانبياء التي في أيدي أهل الكتاب فصحح أغلاط محرفيها، وهو يحثو التراب في أفواه الطاعنين فيه وفيمن جاء به (برأهما الله تعالى) بزعمهم أنه أخذ عن التوراة مافيه من أخبار موسى وغيره من انبياء بني اسرائيل، فانه

صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله كان أميا لم يقرأ ولم يطلع على شيء من تلك الكتب ولم يكن في بلده من يعرف من تلك الكتب شيئا ، وقد كان يقرأ على أعدى المعاندين له من قومه مثل قوله تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) وقوله (تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) ولو كان يعلم أو كانوا يعلمون شيئا من تلك الكتب لكذبه في هذا أولئك الجاحدون والمعاندون وقد تقدم الاحتجاج بهذا ، والغرض هنا إقامة حجة أخرى وهي انه لو كان (ص) نقل عن التوراة لوافقها في كل ما نقله وهو قد خالفها في مواضع بما جعله منزله جل جلاله مهيمنا ورقيبا عليها ، ومصححا لاهم ماوقع من التحريف فيها ، ومنه تبرئة هارون وغيره من الرسل عليهم السلام من الذنوب والجرائم التي عزيت اليهم فيها فجعلتهم قدوة سيئة كجعل هارون عليه السلام هو الصانع للعجل كما هو مفصل في الفصل *الثاني والثلاثين من سفر الخروج قال :*

« (١) ولما رأى الشعب ان موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لان هذا موسى الرجل الذي اصعدنا من أرض مصر لانعلم ماذا أصابه (٢) فقال لهم هارون : انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم و بناتكم وأتوني بها (٣) فنزع كل الشعب اقراط الذهب التي كانت في آذانهم واتوا بها الى هارون (٤) فأخذ ذلك من ايديهم وصوره بالازميل وصنعه عجلا مسبوكا فقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التي اصعدتك من ارض مصر (٥) فلما نظر هارون بنى مذبحا أمامه ونادى هارون وقال : غدا عيد للرب (٦) فبكروا في الغد واصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة وجلس الشعب للاكل والشرب ثم قاموا للعب (٧) فقال الرب لموسى : اذهب انزل لانه قد فسد شعبك الذي اصعدته من ارض مصر (٨) زاغوا سريعا عن الطريق الذي اوصيتهم به صنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له وقالوا : هذه آلهتك يااسرائيل التي اصعدتك من ارض مصر »

وبعد هذا ذكر أن الرب قال لموسى ان هذا الشعب صلب الرقبة وان غضبه

اشتد عليهم ليفنيهم ، وان موسى استرحمه أن لا يفعل ولا يشمت بهم المصريين وذكره وعده سبحانه لابراهيم واسحق ويعقوب بتكثير نسلهم ، ثم ذكر مسألة عودة موسى الى قومه وما فعل ثم قال

« ١٩ وكان عند ما اقترب الى المحلة انه أبصر العجل والرقص فحمي غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما في أسفل الجبل ٢٠ ثم أخذ العجل الذي صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعما وذراه على وجه الماء وسقى بني اسرائيل ٢١ وقال موسى لهارون ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطية عظيمة ٢٢ فقال هارون لا يحم غضب سيدى عليّ ، أنت تعرف الشعب انه في شر ٢٣ فقالوا لي اصنع لنا آلهة تسير امامنا » الخ

ثم ذكر طلب موسى من الرب أن يغفر لقومه وامر الرب اياهم بأن يقتل كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه — وان بني لاوي فعلوا ذلك فقتل منهم في ذلك اليوم نحو من ثلاثة آلاف رجل . وقد تقدم ذكر هذه المسألة في سورة البقرة

---

(١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

﴿ ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا ﴾ في هذه الآية وجهان أحدهما أنها كلام مستأنف لبيان ما استحقه القوم من الجزاء على اتخاذ العجل قفي به على ما كان من شأن موسى مع هارون عليهما السلام في أمرهم ، لان من سمع ذلك أو قرأه تستشرف نفسه لمعرفة هذا ـ فهو إذاً مما أوحاه الله تعالى يومئذ الى موسى (عم) والمراد بالغضب الالهي فيه ما اشترطه تعالى في قبول توبتهم من قتل أنفسهم وكان ذلك بعد عودة موسى الى مناجاته في الجبل ، والذلة ما يشعرون به من هوانهم على الناس وظنهم عند لقاء كل أحد أنه يتذكر بروٴيتهم ما كان منهم فيحتقرهم ، وقال بعضهم ان هذه الذلة خاصة بالسامري وهي

ماحكم به عليه من القطيعة واجتناب الناس بقول موسى له (اذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس) أي: لا أمس أحداً ولا يمسني أحد ،

﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾ أي ومثل هذا الجزاء في الدنيا نجزي المفترين على الله تعالى في أزمنة الانبياء أو في كل زمان إذا فضحوا بظهور افترائهم كما فضح هؤلاء ، وجعله بعض مفسري السلف خاصاً بافتراء البدع ، قال الحسن البصري ان ذل البدعة على أكتافهم وان هماجت بهم البغال وطقطقت بهم البراذين ، وهكذا روى أيوب عن أبي قلابة أنه قرأ هذه الآية (وكذلك نجزى المفترين) وقال هي والله لكل مفتر الى يوم القيامة ، وقال سفيان ابن عيينة كل صاحب بدعة ذليل . نقل ذلك ابن كثير في تفسيره ، وهو مشروط بكون افتراء الابتداع في أزمنة الرسل عليهم السلام على ماقيدناه به لان الله تعالى كفل لهم النصر ، أو في دار الاسلام والعدل التي تقام فيها السنة ، وأما البدعة في دار الكفر أو دار الظلم والبدع والفسق والظلم فهي كظلة من الدخان أوقزعة من السحاب تحدث في حندس ليلة مطبقة السحاب، حالكة الاهاب ، لاتكادتظهر ، فيكون لاصحابها احتقار يذكر ؛

والوجه الثاني ان هذا كلام معترض في القصة خاطب الله به خاتم رسله لانذار اليهود المجاورين له في المدينة ماسيكون من سوء عاقبتهم في افترائهم على الله وعداوتهم لرسوله ، وانكارهم مافي كتبهم من البشارة به ، ووصفهم باتخاذ العجل لشبههم بهم وكونهم خلفالهم في افتراء كل منهما على الله في عهد ظهور حجته على لسان رسوله. كما عيرهم في آيات أخرى بقتل النبيين بغير الحق وغير ذلك من جرائم سلفهم . وروي هذا الوجه عن عطية العوفي قال المراد سينال أولاد الذين عبدوا العجل وهم الذين كانوا على عهد رسول الله (ص) وأريد بالغضب والذلة ماأصاب بني النضير وقريظة من القتل والجلاء أو ماأصابهم من ذلك ومن ضرب الجزية عليهم اه وتوجيهنا أظهر. قال الزمخشري ويجوز ان يتعلق « في الحياة الدنيا » بالذلة وحدها ويراد سينالهم غضب في الآخرة وذلة في الحياة الدنيا (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله) اه وأقول ان لم يكن هذا هو المراد فعذاب الآخرة مقدر في الكلام دل عليه ذكر الدنيا، على ماعلم من اطراده بنصوص أخرى.

﴿ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ هذه الآية في حكم من تاب وقبلت توبته فدل على ان ماسبقها هو

حكم من لم يتب أومن لم تقبل توبته والمعنى ان الذين عملوا السيئات من الكفر والمعاصي ثم تابوا ورجعوا من بعدها الى الله تعالى بأن رجع الكافر عن كفره وتركه وآمن بالله ورسوله، ورجع العاصي عن عصيانه وأخلص الايمان وزكاه بالعمل بموجبه ان ربك أيها الرسول من بعد تلك الجرائم ،- أو من بعدما ذكر من التوبة والايمان الصحيح الباعث على العمل الصالح ، لغفور لهم أى لستور عليهم ، محاء لما كان منهم رحيم بهم أى منعم عليهم بالجنة ، هكذا صور المعنى في الكشاف ثم قال وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل ومن عداهم ، عظم جنايتهم اولا ثم اردفها تعظيم رحمته ليعلم ان الذنوب وان جلت وعظمت فان عفوه وكرمه أعظم وأجل ، ولكن لابد من حفظ الشريطة وهي وجوب التوبة والانابة ، وما وراءه طمع فارغ ، وأشعبية باردة لايلتفت اليها حازم اه

وأقول إن طمع اكثر الفساق بالمغفرة قد ذهبت بحرمة الامر والنهي من قلوبهم حتى استحل كثير منهم المحرمات ، وكانوا شرا ممن قالوا (لن تمسنا النار لا أياما معدودات) وما طمعهم بثمرة ايمان ، بل اماني حمق وجدل على أطراف اللسان ،

قال (ص) « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الاماني » رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن شداد ابن أوس بسند صحيح

---

(١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ

ثم قص تعالى علينا ما كان من أمر موسى بعد غضبه فقال :

﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الالواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ السكوت في أصل اللغة ترك الكلام فهو هنا مجاز تشبيه أو تمثيل مبنى على تصوير الغضب بشخص ذي قوة ورياسة يأمر وينهى فيطاع قال الزمخشري : هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على مافعل ويقول له قل لقومك كذا ، وألق الالواح ، وجر برأس أخيك اليك - فترك النطق بذلك وقطع الاغراء ، (قال) ولم يستحسن هذه الكلمة كل ذى طبع سليم وذوق صحيح الا لذلك ولانه من قبيل شعب البلاغة ؛ والا فما لقراءة معاوية بن قرة

« ولما سكن عن موسى الغضب » (وهي من الشواذ) لاتجد النفس عندها شيئا من تلك الهزة ، وطرفا من تلك الروعة؟ اه

والمعنى انه لما سكن غضب موسى باعتذار أخيه ولجأ الى رحمة الله وفضله يدعو ربه بان يغفر لهما عاد الى الالواح التي القاها فاخذها، وفي نسختها - أي ما نسخ وكتب منها فهي من النسخ كالخطبة من الخطاب - هدى وارشاد من الخالق سبحانه للذين يرهبون ربهم ويخشون عقابه بالفعل أو بالاستعداد - أو يرهبون مايغضب ربهم من الشرك والمعاصي

---

(١٥٤) وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ (١٥٥) وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ

﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ﴾ الاختيار صيغة تكلف من مادة الخير كالانتقاء من النقي (بالكسر) وحقيقته دهن العظام ومجازه لباب كل شيء والاصطفاء من الصفو - والانتخاب من النخب وأصله انتزاع الصقر وغيره من الجوارح قلب الطائر ثم صار يقال لكل من انتزع لب الشيء وخياره: نخبه وانتخبه وتطلق النخبة (بالضم مع سكون الخاء وفتحها) على الجيد المختار من كل شيء كما أطلقوا النخب والنخيب والمنتخب على الجبان الذي لافؤاد له والافين الذي لاراي له ، كأنه انتزع فؤاده وعقله بالفعل . والكلام معطوف على ماقبله، والمعنى: وانتخب موسى سبعين رجلامن خيار قومه للميقات الذى وقته الله تعالى له ودعام للذهاب معه الى حيث يناجي ربه من جبل الطور، فالاختيار يكون من فاعل مختار وشيء مختار منه فيتعدى للثاني بمن وكأن نكتة حذف «من» الاشارة الى كون أولئك السبعين خيار قومه كلهم لاطائفة منهم (١)

﴿ فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ﴾ أي فلما أخذتهم رجفة الجبل وصعقوا قال موسى يارب انى أتمنى لو كانت سبقت مشيئتك أن تهلكهم من قبل خروجهم معي الى هذا المكان فاهلكتهم واهلكتنى معهم حتى لا أقع في حرج شديد مع بنى اسرائيل فيقولوا قد ذهبت بخيارنا لاهلاكهم — أي واذ لم تفعل من قبل فأسألك برحمتك أن لاتفعل الآن - وهذا مفهوم التمنى فقدأراده موسى ولا يبعد أن يكون قد نطق به اذا كانت لغته لا تدل عليه كلغتنا وكان من ايجاز القرآن الاكتفاء بذكر التمني الدال عليه. واختلف المفسرون هل كان هذا بعد أن أفاق موسى من صعقة تجلي ربه للجبل عقب سؤاله الرؤية اذ كان من معه من شيوخ بني اسرائيل ينتظرونه في مكان وضعهم فيه غير مكان المناجاة كما تقدم ؟ أو كان بعد عبادة العجل ذهبوا للاعتذار وتأكيد التوبة

---

(١) والنحويون يعدون مثل هذا الحذف لحرف الجر وايصال الفعل بالمفعول ونصبه مباشرة سماعيا لا قياسيا على كثرته ومنه قول الفرزدق :

منا الذي اختير الرجال سماحة   وجودا اذا هب الرياح الزعازع

وقول الآخر

فقلت له اخترها قلوصا سمينة   ونابا علابا مثل نابك فى الحيا

اي اخترمن الابل ناقة قلوصا اي طويلة القوائم وهي اول مايركب، ونابا وهي المسنة

وطلب الرحمة . وكما اختلفوا في هذا اختلفوا في سبب أخذ الرجفة إياهم هل كان طلبهم رؤية الله تعالى جهرة كما تقدم في سورة البقرة أو سببا آخر ؟ قال الحافظ ابن كثير

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية ان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلا فاختار سبعين رجلا فوفد بهم ليدعوا ربهم وكان فيما دعوا الله أن قالو : اللهم أعطنا مالم تعطه أحداً من قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا . فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة قال موسى رب لو شئت أهلكتهم -- الآية . وقال السدي ان الله تعالى أمر موسى أن يأتيه في اناس من بني اسرائيل يعتذرون اليه من عبادة العجل ووعدهم موعدا فاختار موسى من قومه سبعين رجلا على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا لن نؤمن لك ياموسى حتى نرى الله جهرة فانك قد كلمته فأرناه فأخذتهم الصاعقة فماتوا فقام موسى يبكي ويقول يارب ماذا أقول لبني اسرائيل اذا لقيتهم وقد أهلكت خيارهم؟ (رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياي) وقال محمد بن اسحق اختار موسى من بني اسرائيل سبعين رجلا الخير فالخير وقال انطلقوا الى الله فتوبوا اليه مما صنعتم وأسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم فخرج بهم الى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لايأتيه إلا باذن منه وعلم فقال له السبعون فيما ذكر لي حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا معه للقاء ربه ياموسى اطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى اذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع لايستطيع أحد من بني آدم أن ينظر اليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى اذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل فلما فرغ اليه من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل اليهم فقالوا لموسى (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة فالتقت أرواحهم فماتوا جميعا فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب اليه ويقول (رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياي) قد سفهوا أتهلك من ورائي من بني اسرائيل اه

أقول كل ما نقل عن مفسري المأثور في هذه المسألة وامثالها مأخوذ من الاسرائيليات غير الموثوق بها إذ ليس فيه شيء مرفوع الى النبي (ص) وانما يرجع من بعدهم

بعض أقوالهم على بعض بكونه أقرب الى ظاهر نظم الآيات وأساليبها وتناسبها من غيره . وأما التوراة التي في أيدي أهل الكتاب فقد ذكرت خبر السبعين من شيوخ بني اسرائيل في سياق مناجاة موسى عليه السلام لربه كما تقدم وقد نقلنا المهم منها في ذلك ومجموع عباراتها مضطربة ففيها أن السبعين مع موسى وهارون وناداب وأبيهو « رأوا اله اسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الازرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة ولكنه لم يمد يده الى أشراف بني اسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا » (خروج ٢٤ : ١٠ و ١١) وفيها أن الرب قال لموسى اذ طلب منه رؤية مجده « لاتقدر أن ترى وجهي لان الانسان لايراني ويعيش » ثم ذكر له انه أي الرب يضعه في نقرة صخرة ويستره بيده حتى يجتاز — أي الرب - قال « ثم ارفع يدي فتنظر ورائي وأما وجهي فلا يرى » (خروج ٣٣ : ١٨ - ٢٣)

وفي سفر العدد وقائع ذكر فيها غضب الرب على بني اسرائيل لتمردهم وعنادهم واتهام اللاويين منهم لموسى وهارون بحب الرياسة والترفع عليهم وزعمهم انهم كلهم مقدسون والرب في وسطهم وفيه ان الرب اهلك منهم خلقا كثيراً وكان موسى يستغيثه ليرفع الهلاك عنهم ويرحمهم و لا أذكر أن في شيء منها ذكر عدد السبعين ولكن في بعضها ذكر شيوخ اسرائيل وفي بعضها ذكر عدد ٢٥٠ رجلا وذلك في الفصل ١٦ من سفر العدد وهاك بعضه

(٢٠) وكلم الرب موسى وهارون قائلا (٢١) افترزا من بين هذه الجماعة فاني افنيهم في لحظة (٢٢) فخرا على وجهيهما وقالا اللهم اله أرواح جميع البشر هل يخطيء رجل واحد فتسخط على كل الجماعة (٢٣) فكلم الرب موسى قائلا (٢٤) اطلعوا من حوالي مسكن قورح وداثان وابيرام (٢٥) فقام موسى وذهب الى داثان وابيرام وذهب وراءه شيوخ اسرائيل (٢٦) فكلم الجماعة قائلا اعتزلوا عن خيام هؤلاء القوم البغاة ولا تمسوا شيئاً مما لهم لئلا تهلكوا بجميع خطاياهم (٢٧) فطلعوا من حوالي مسكن قورح وداثان وابيرام وخرج داثان وابيرام ووقفا في باب خيمتيهما مع نسائهما وبنيهما واطفالهما (٢٨) فقال موسى بهذا تعلمون أن الرب قد ارسلني لاعمل كل هذه الاعمال وانها ليست من نفسي (٢٩) ان مات هؤلاء كموت كل انسان واصابتهم مصيبة كل انسان فليس الرب قد ارسلني (٣٠) ولكن ان ابتدع الرب بدعة

وفتحت الارض فاها وابتلعتهم وكل مالهم فهبطوا أحياء الى الهاوية تعلمون أن هؤلاء القوم قد ازدروا بالرب ٣١٠ » فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقت الارض التي تحتهم «٣٢» وفتحت الارض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل من كان لقورح مع كل الاموال «٣٣» فنزلوا هم وكل من كان لهم أحياء الى الهاوية وانطبقت عليهم الارض فبادوا من بين الجماعة «٣٤» وكل اسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم لانهم قالوا لعل الارض تبتلعنا «٣٥» وخرجت نار من عند الرب واكلت المئتين والخمسين رجلا الذين قربوا البخور » اه المراد منه ومبدأ هذه القصة في أول الفصل ١٦ وفي آخره انه أخذهم الوباء اذ لم يتوبوا

وما في سورة البقرة من ذكر مسألة عبادة العجل وذكر مسألة طلب بني اسرائيل لرؤية الله جهرة وأخذ الصاعقة إياهم يدل على أن هذه الواقعة غير الاولى ونقلنا هنالك عن الاستاذ الامام اختيار استقلال كل منهما دون الاخرى وقوله انها مذكورة في كتبهم فان كان يعني ما نقلناه آنفا عن سفر العدد اوما في معناه وهو مما لم يذكر فيه عدد السبعين فلعله يريد ان ما ذكر في القرآن مختصر بقدر العبرة كسنته وان السبعين هم الذين أهلكوا أولا وان لم يذكر الكاتب عددهم ثم هلك غيرهم فكان الجميع ٢٥٠

فان كانت الآية تشير الى هذه القصة فقول موسى ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ اشارة الى قورح وجماعته من اللاويين المغرورين المتمردين ، وهل هم الذين طلبوا من موسى رؤية الله تعالى جهرة لغرورهم بأنفسهم ام غيرهم ؟ وان كانت في عابدي العجل فهي دليل على ان عقلاء بني اسرئيل واصحاب الروية منهم لم يعبدوه وانما عبده السفهاء وهم الاكثرون

﴿ان هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾ « ان » نافية والفتنة الاختبار والامتحان مطلقا أو بالامور الشاقة والباء في « بها » للسببية، أي ماتلك الفعلة التي كانت سببا لاخذ الرجفة إيانا إلا محنتك وابتلاؤك الذي جعلته سببا لظهور استعداد الناس وما طويت عليه سرائرهم من ضلال وهداية ، وما يستحقون عليه من عقوبة ومثوبة، وسنتك في جريان مشيئتك في خلقك بالعدل والحق، والنظام الحكيم في الخلق، تضل بمقتضاها من تشاء من عبادك ولست بظالم لهم في تقديرك ،وتهدي من تشاء ولست بمحاب لهم في

توفيقك ، بل أمر مشيئتك دائر بين العدل والفضل، ولك الخلق والامر ،

﴿ أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾ أي أنت المتولي لامورنا، والقائم علينا بما تكتسب نفوسنا، فاغفر لنا ما تترتب عليه المؤاخذة والعقاب من مخالفة سنتك ، او التقصير فيما يجب من ذكرك وشكرك وعبادتك ، بأن تستر ذلك علينا ، وتجعله بعفوك كأنه لم يصدر عنا، وارحمنا برحمتك الخاصة ، فوق ما شملت به الخلق كلهم من رحمتك العامة ، وأنت خير الغافرين حلما وكرما وجودا ، فلا يتعاظمك ذنب ، ولا يعارض غفرانك ما يعارض غفران سواك من عجز أو ضعف أو هوى نفس - وما ذكر في المغفرة يدل على اعتبار مثله في الرحمة لدلالته عليه - أي وأنت خير الراحمين رحمة وأوسعهم فيها فضلا واحسانا ، فان رحمة جميع الراحمين من خلقك ، نفحة مفاضة على قلوبهم من رحمتك، حذف ذكر الرحمة استغناء عنه بذكر المغفرة فان ترتيب التذييل في الثناء عليه تعالى على طلب مغفرته ورحمته معا ، يقتضي أن يكون هذا الثناء بهما معا، فاكتفى بذكر الاولى لدلالتها على الثانية قطعا ، فهو من الايجاز المسمى في علم البديع بالاكتفاء ، وقد غفل عن هذا من قال من المفسرين انه اكتفى بذكر المغفرة لانها الاهم ، ولم لم يكتف بذكر الرحمة لانها أعم ، ولانها قد تستلزم المغفرة دون العكس ، فان معنى المغفرة سلبي وهو عدم المؤاخذة على الذنب ، والرحمة فوق ذلك فهي احسان الى المذنب لا يستحقه الا بعد المغفرة ولذلك يقدم ذكر المغفرة على ذكر الرحمة ، لان التخلية كما يقولون مقدمة على التحلية ، فلا يليق خلع الحلل النفيسة، إلا على الابدان النظيفة ، وقد قال موسى عليه السلام في دعائه لنفسه ولاخيه (رب اغفر لي ولاخي وادخلنا في رحمتك) الآية، وقال نوح عند توبته من سؤاله النجاة لولده الكافر (وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين)وعلمنا تعالى من دعائه في خاتمة سورة البقرة (واعف عنا واغفر لنا وارحمنا) وقلما ذكر اسم الله (الغفور) في كتابه العزيز الا مقرونا باسمه (الرحيم) ومن غير الاكثر قرنه بالشكور وبالحليم وبالودود ويقرب معناهن من معنى الرحيم، وورد قرنه بالعفو وبالعزيز لاقتضاء المقام ذلك

ودعاء موسى عليه السلام هنا لنفسه مع قومه بضمير الجمع قد اقتضاه مقام المناجاة والمعرفة الكاملة ، ومن كان أعرف بالله وأكمل استحضاراً لعظمته، كان

أشد شعوراً بالحاجة الى مغفرته ورحمته ، وان كان ما يستغفر منه تقصيراً صغيراً بالنسبة الى ذنوب الغافلين والجاهلين ، أو من باب : حسنات الابرار سيئات المقربين ، فان كان هذا الدعاء عقب طلب الرؤية ، فوجه طلبه للمغفرة والرحمة لنفسه أظهر ، لان طلبه ذاك كان ذنبا له ، صرح بالتوبة منه ، وان كان عقب طلب السبعين رؤية الله جهرة فالامر أظهر ، لان الذنب مشترك ، وان كان على اثر حادثة عبادة العجل ، فقد علم ما كان من شدته فيها على أخيه هارون عليهما السلام ، وانه طلب لكل من نفسه وأخيه المغفرة على الانفراد ، والرحمة بالاشتراك ، وان كان عقب تمرد بني اسرائيل الذي عاقبهم الله تعالى عليه باهلاك بعضهم وتهديدهم بالاستئصال ، فادخال نفسه معهم من باب الاستعطاف ، اذ لم ينقل عنه فيه شيء مما يعد من ذنوب الانبياء عليهم السلام

﴿ تخطئة من اتهم الكليم عليه السلام ، بالجرأة على ربه في هذا المقام ﴾

كنت في أول العهد بطلبي للعلم في طرابلس الشام اسمع بعض العلماء والادباء ينقلون عن بعض الصوفية أن موسى عليه السلام لم يقل لربه عز وجل (ان هي إلا فتنتك) إلا وقد كان في مقام الانس والادلال ، الذي يطلق اللسان بمثل هذا المقال ، وان هذا خير جواب مما قيل من أن هذا القول جرأة عظيمة تاب منها عليه السلام . وقال الآلوسي في تفسير الآية : والقول بأن اقدامه عليه السلام على أن يقول (ان هي الا فتنتك) جرأة عظيمة فطلب من الله غفرانها والتجاوز عنها — مما يأباه السوق ، عند أرباب الذوق ، ولا أظن ان الله تعالى عد ذلك ذنبا منه ، ليستغفره عنه ، وفي ندائه السابق ما يؤيد ذلك اهـ

وأقول لامجال للقول بالجرأة ولا بالادلال ، وما كان هذا بالذي يخطر للعربي القح ببال ، ولا للعالم الدقيق بمعاني المفردات وأساليب المقال ، وسببه كلمة « الفتنة » فقد اشتهر من عهد بعيد فيما أظن أن معناها اغراء الشر بين الناس وأراهم يتناقلون استعمال قوله تعالى (والفتنة أشد من القتل) بهذا المعنى ، وله أصل في استعمال العرب فانها تطلق على الحرب ويوصف الشيطان بالفتان . ولكن هذا وذاك من المعاني الفرعية لهذه المادة وانما معناها الاصلي الذي تفرعا هما وأمثالهما واضدادهما منه الامتحان والاختبار ولاسيما الشاق الذي يظهر به جيد الشيء أو الشخص من رديئه ، كعرض الذهب على النار : لتصفية الغش

من النضار ، ومثله الفضة بل كل ما ادخل النار يسمى مفتونا كما يقال دينار أو درهم مفتون ، ويسمى حجر الصائغ الفتانة ،وقد ورد تسمية الملكين الذين يمتحنان الناس عقب الموت بفتاني القبر ، وفسروا فتنة الممات وفتنة القبر بسؤال الملكين ، وقال تعالى (إنما أموالكم واولادكم فتنة) أي اختبار لكم يتبين بهما قدر وقوفكم عند الحق والتزامكم الكسب الحلال ، وقال تعالى (ونبلونكم بالشر والخير فتنة)

وجملة القول أن الفتن والفتون مصدري فتن معناهما الابتلاء للاختبار وظهور حقيقة حال المفتونين أو لتصفيتهم وتمحيصهم ، ومن الاول قوله تعالى لموسى في هذه الواقعة التي نحن بصدد تفسيرها على قول بعضهم (إنا قدفتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري) فقوله عليه السلام لربه (ان هي الا فتنتك) مأخوذ من قول ربه له (انا قد فتنا قومك) فلا جرأة فيها ولا ادلال ، دع ما يرد هذه الدعوى من منافاتها لموقف التوبة والاستغفار — ومن الثاني قوله تعالى له في قصته من سورة طه (وفتناك فتونا) أي صفيناك من الشوائب حتى صرت أهلا لاصطناعنا ورسالتنا . وتقدم تحقيق هذا اللفظ من قبل

﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ﴾ أى وأثبت وأوجب لنا برحمتك وفضلك حياة حسنة في هذه الدنيا من العافية وبسط الرزق، وعز الاستقلال والملك، والتوفيق للطاعة، ومثوبة حسنة في الآخرة بدخول جنتك ونيل رضوانك ،فهو كقوله تعالى فيما علمنا من دعائه (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) فان ثمرة دين الله على ألسنة جميع رسله سعادة الدارين: الدنيا والآخرة ﴿ انا هدنا اليك ﴾ في لسان العرب : هاد يهود هودا (اي من باب قال) وتهود تاب ورجع الى الحق فهو هائد ، وقوم هود — مثل حائك وحوك وبازل وبزل —.قال أعرابي * إني امرؤ من مدحه هائد * وفي التنزيل (إنا هدنا اليك أي تبنا اليك وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وابراهيم . قال ابن سيده: عداه بالى لان فيه معنى رجعنا . ابن الاعرابي: هاد — اذا رجع من خير الى شر او من شر الى خير ، وداه اذا عقل ، ويهود اسم القبيلة قال:

اولئك اولى من يهود بمدحة اذا انت يوما قلتها لم تؤنب

وقيل انما هذه القبيلة يهوذ فعربت بقلب الذال دالا اهملخصا والمعنى انا تبنا

اليك مما فرط من سفهائنا من طلب الالهة وعبادة العجل ، وتقصير خيارنا في الانكار عليهم - أو من طلب رؤيتك - أو من تمرد المغرورين على شريعتك، وكفر نعمتك - تبنا ورجعنا اليك في جماعتنا مستغفرين مسترحمين كما فعل أبونا آدم اذ تاب اليك من معصيته فتبت عليه وهديته واجتبيته، فكانت تلك سنتك في ولده - يدل على هذا المعنى فصل قوله « انا هدنا اليك » فانه في مقام التعليل والاستدلال على استحقاق التائب المنيب بالقول والفعل والاعتقاد للمغفرة وقد كان مما حكاه الله تعالى من وحيه الى موسى في سورة طه (واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) وبماذا أجابه الله تعالى ؟

﴿ قال عذابي اصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ أي قد كان من سبق رحمتي غضبي أن أجعل عذابي خاصا اصيب به من أشاء من الكفار والعصاة المجرمين وأما رحمتي فقد وسعت كل شيء في العالمين، فهي من صفاتي القديمة الازلية التي قام بها أمر العالم منذ خلقته ، والعذاب ليس من صفاتي بل من أفعالي المرتبة على صفة العدل ، ولهذا عبر عن التعذيب بالفعل المضارع وعن تعلق الرحمة بالفعل الماضي . وهذه الرحمة هي العامة المبذولة لكل مخلوق ولولاها لهلك كل كافر وعاص عقب كفره وفجوره ، (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) وهنالك رحمة خاصة يوجبها ويكتبها تعالى لبعض المؤمنين المحسنين ويبذل ماشاء منها لمن شاء بغير كتابة منه ، وما كتابته إلا فضل منه ورحمة ، وأما العذاب فلم يرد في الكتاب ولا في خبر المعصوم ان الله تعالى كتبه على نفسه ، ولكن أثبته و توعد به فكان لا بد من وقوعه، ولانه من متعلقات صفتي العدل والحكمة ، وقد أفرط قوم في النظر الى عموم الرحمة وغفلوا عن النظر في مقتضى العدل والحكمة ، والوعيد على الكفر والمعصية ، فذهب بعضهم الى عدم تعذيب احد من المؤمنين ، وآخرون الى عدم تعذيب أحد من العالمين ، ومن هؤلاء بعض غلاة التصوف الذين زعموا أن العذاب صوري لا حقيقي وانه مشتق من العذوبة وان في جهنم من هم أحب الى الله تعالى من كثير من أهل الجنة - جعلهم الله منهم - وأفرط آخرون في النظر الى مقتضى الحكمة فاوجبوا عليه تعالى تعذيب العصاة بارتكاب الكبائر لا الكفار فقط ، ولولا أن صار هذا وذاك مذهبا لسهل جمع كلمة الفريقين على الاخذ

بظواهر نصوص القرآن ، في كل صفة من صفات الرحمن، ولما قال مثل الزمخشري من جهابذة البيان ، في تفسير قوله تعالى (عذابي اصيب به من أشاء) اي من وجب عليّ في الحكمة تعذيبه ولم يكن في العفو عنه مساغ لانه مفسدة انتهى فقد فسر من يشاء تعالى تعذيبه بمن وجب عليه تعذيبه ، وجماعته يقولون ان هذا وجوب عقلي لايدخل في الامكان سواه ولا تتعلق القدرة بخلافه، وهذا المعنى ينافي المشيئة منافاة قطعية فكيف تفسر به ؟ ياليت الزمخشري لم ينتحل مذهبا ولم ينظر في خلاف المذاهب، واذا لكان كشافه حجة على جميع أصحابها ومرجعا لهم في تحرير معاني نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف اذ كان من أدق علماء هذه اللغة فهما واحسنهم بيانا لما فهم ، ومسألة الوجوب على الله تعالى نظرية فكرية لا لغوية ، والجمع بين الحكمة والرحمة لايقتضي أن يجب على الله تعالى شيء لذاته، وليس في النصوص ما يدل على هذا الوجوب إلا أن يوجبه تعالى بمشيئته ، بمعنى كتابته وجعله أمراً مقضيا ، وليس في ايجابه على نفسه بمشيئته ما في ايجاب عقول خلقه عليه من معنى استعلاء غيره عليه تعالى - أو من ابهام كونه عز وجل محكوما بما ينافي سلطانه الاختياري الذي هو فوق كل سلطان، بل لا سلطان سواه، وانما سلطان غيره به ومنه، فلو لم يكن في اختلاف التعبير الا مراعاة الادب لكفى

﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ الخ أي واذ كان الامر كذلك فسأكتب رحمتي كتبة خاصة واثبتها بمشيئتي اثباتا لايحول دونه شيء للذين يتقون الكفر والمعاصي والتمرد على رسولهم ، ويؤتون الصدقة المفروضة التي تتزكى بها أنفسهم ، وغيرها من أركان الدين ، وخص الزكاة بالذكر دون الصلاة وما دونها من الطاعات لان فتنة حب المال تقتضي بنظر العقل والاختبار بالفعل أن يكون المانعون للزكاة اكثر من التاركين لغيرها من الفرائض. وفيه اشارة الى شدة حب اليهود للدنيا وافتتانهم بجمع المال ومنع بذله في سبيل الله ، وقوله تعالى (والذين هم بآياتنا يؤمنون) معناه وسأكتبها كتبة خاصة للذين يصدقون بجميع آياتنا التي تدل على توحيدنا وصدق رسلنا تصديق إذعان، مبني على العلم والايقان ،دون التقليد للآباء وعصبيات الاقوام ، ونكتة إعادة الموصول (الذين) مع الضمير (هم) إما جعل الموصول الاول عاما لقومه

الذين دعا لهم، من استمروا على التزام التقوى واداء الزكاة منهم وجعل الثاني خاصا بمن يدركون بعثة خاتم الرسل عليه السلام ويتبعونه كما يعلم مما بعده - وإما لبيان الفصل بين مفهوم الاسلام ومفهوم الايمان والتعريض بأن الذين طلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهة والذين عبدوا العجل والذين قالوا (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) لم يكونوا امؤمنين بآيات الله العامة ولا الخاصة التي جاء بها نبيهم اذ لم يكونوا يعقلونها بل كانوا متبعين له لانقاذهم من ظلم المصريين - وبيان ان كتابة الرحمة الخاصة انما تكون لمن جمعوا بين الاسلام وهو اتباع الرسل بالفعل، والايمان الصحيح بالآيات الالهية المفيدة لليقين المانع من العودة الى الشرك بمثل عبادة العجل والمقتضى لاتباع من يأتي من الرسل بمثل هذه الآيات ، وفي هذا توطئة لما بعده ، فهو بيان لصفة من يكتب تعالى لهم الرحمة على الاطلاق ، ويدخل فيهم موسى عليه السلام ومن يصدق عليهم ماذكر من قومه وذلك يفيد استجابة دعائه بشرطه ، ويليه بيان أحق الامم بهذه الرحمة ذكر على سبيل الاستطراد المقصود بالذات على سنة القرآن ، في الانتقال من قصص الرسل الى أمة خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام ، وهو قوله عز وجل

﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الامي ﴾ فصل الاسم الموصول هنا لانه بيان مستأنف للموصول الاخير أو للموصولين اللذين قبلهما ، وهم الذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين يؤمنون بالآيات ، ولو وصله فقال (والذين يتبعون الرسول النبي الامي) الخ لكان مغايراً لها في الماصدق لا في المفهوم بأن يراد بالاخير من يدركون بعثة الرسول النبي الامي ويتبعونه بالفعل في زمنه و بعد زمنه ، ويراد بمن قبلهم من يصدق عليهم معنى صلة الموصولين في زمن موسى وما بعده الى زمن محمد عليهما السلام. ومعنى الفصل على الوجه الاخير اتحاد الموصولات الثلاثة في المفهوم والماصدق جميعا . والمعنى : ان كتابة الرحمة كتبة خاصة هي للمتصفين بما دلت عليه صلات الموصولات الثلاثة وانما هم الذين يتبعون الرسول الموصوف بأنه النبي الامي نسبة إلى الام ، والمراد به الذي لايقرأ ولا يكتب ، وكان أهل الكتاب يسمون العرب بالاميين ، ولعله كان لقبا لاهل الحجاز ومن جاورهم دون أهل اليمن. لكن ظاهر قوله تعالى في الخونة من اليهود (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين

سبيل) العموم وليس بنص فيه ، وقال تعالى (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم) ولم ينقل ان الله تعالى بعث نبيا أميا غير نبينا (ص) فهو وصف خاص لا يشارك محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فيه احد من النبيين . والامية آية من أكبر آيات نبوته فانه جاء بعد النبوة بأعلى العلوم النافعة وهي مايصلح مافسد من عقائد البشر واخلاقهم وآدابهم وأعمالهم وأحكامهم وعمل بها فكان لها من التأثير في العالم مالم يكن ولن يكون لغيره من خلق الله . وتعريف الرسول والنبي الموصوف بالامية كلاهما للعهد كما يعلم مما سنبينه من بشارات الانبياء بنبينا صلى الله عليه وسلم . والرسول في اصطلاح الشرع أخص من النبي فكل رسول نبي وما كل نبي رسول ، ولذلك جعل بعض المفسرين نكتة تقديم الرسول على النبي هنا كونه اهم وأشرف أوأنهما ذكرا هنا بمعناها اللغوي كقوله (وكان رسولا نبيا) وما اشرنا اليه من نكتة التقديم أظهر ، وهو أن النبي الامي وصف مميز للرسول الذي يجب على كل أحد اتباعه متى بعث ، وان الرسول هو المعروف الذي نزل فيه (واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) ـ الخ آيته المعروفة في سورة آل عمران (١)

والنبي في اللغة (فعيل) من مادة النبأ بمعنى الخبر المهم العظيم الشأن او بمعنى الارتفاع وعلو الشأن والاول أظهر وأكثر العرب لاتهمزه بل نقل أنه لم يهمزه الا أهل مكة ولكن النبي (ص) انكر على رجل قال له يانبيء الله. وأما في الاصطلاح فالنبي من أوحى الله اليه وأنبأه بما لم يكن يعلم بكسبه من خبر أو حكم يعلم به علما ضروريا انه من الله عز وجل ، والرسول نبي أمره الله تعالى بتبليغ شرع ودعوة دين وباقامته بالعمل ، ولا يشترط في الوحي اليه ان يكون كتابا يقرأ وينشر ، ولا شرعا جديدا يعمل به ويحكم بين الناس . بل قد يكون تابعا لشرع غيره كله كالرسل من بني اسرائيل كانوا متبعين لشريعة التوراة عملا وحكما بين الناس كما قال تعالى (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم به النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) الآية

(١) تراجع ص ٣٥١ ج ٣ من التفسير

وقد يكون ناسخا لبعضه كما نسخ عيسى عليه السلام بعض أحكام التوراة وافر اكثرها كما يدل على ذلك مثل قوله تعالى حكاية لما خاطب به بني اسرائيل (ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم)وسيرته المأثورة عن الانجليين الاربعة وغيرهم تدل على ذلك ففيها انه ماجاء لينقض الناموس (أي التوراة) و نما جاء ليتمم ، وأنه أحل لهم بعض ماحرم عليهم حتى مادل عليه عموم ترك العمل يوم السبت فخصه بغير العمل الصالح من أمور الدنيا بل نرى فرق النصاري الرسميين بعد تكوين نظام الكنيسة قد تركوا ماعدا الوصايا العشر من شريعة التوراة واستبدلوا يوم الاحد بيوم السبت فيما حرمت الوصايا من العمل فيه وخالف الاكثرون وصية النهي عن اتخاذ الصور والتماثيل ولكن لا يستطيعون أن يأتوا بدليل على هذا من قول المسيح ولا من فعله ،

وجملة القول أن الرسول أخص في عرف شرعنا من النبي ، فكل رسول نبي ولا عكس ، واذا أطلق الرسول بالمعنى الذي يعم رسل الملائكة كان من هذا الوجه أعم من النبي لان الله اصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، ولم يجعل فيهم أنبياء . فنبينا (ص) نبي رسول ، وجبريل عليه السلام رسول غير نبي ، وآدم عليه السلام نبي غير رسول كأكثر أنبياء بني اسرائيل ، وهذا على قول المحققين في نص حديث الشفاعة في الصحيحين وغيرهما الناطق بأن نوحا أول رسول أرسله الله الى أهل الارض ، وقد تقدم في الكلام على عدد الرسل من تفسير سورة الانعام جواز تسميته رسولا في عرف بعض اهل الكلام، وانهم لهذا العرف عدوه من الرسل الذين تجب معرفة رسالتهم وأول هؤلاء حديث الشفاعة تأويلات تجدها هنالك (١)

وصف الله الرسول الذي أوجب اتباعه على كل من ادركه من بني اسرائيل وغيرهم بصفات ونعوت (أولها) (أنه هو النبي الامي الكامل)

(ثانيها) — قوله تعالى — ﴿الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل﴾ ومعناه الذي يجد الذين يتبعونه من بني إسرائيل صفته ونعته مكتوبة عندهم في التوراة والانجيل ، وانما ذكر الانجيل والسياق في قوم موسى لان المخاطب به

(١) راجع ص ٦٠٢ — ٦٠٩ ج ٧ تفسير

بالقات بنو اسرائيل ، ومما هو مأثور عن المسيح عليه السلام في هذه الاناجيل: لم ابعث الا الى خراف اسرائيل الضالة . ولا يعارضه ما رووا عنه من أمره تلاميذه ان يكرزوا بالانجيل في الخليقه كلها اذ يجمع بينهما ان يراد بالخليقة ما كانوا يسمونه (اليهودية) والعبارة الاولى نص بصيغة الحصر لاتحتمل التأويل . وقال أبو السعود (الذي يجدونه مكتوبا) باسمه ونعوته الشريفة بحيث لايشكون أنه هو ولذلك عدل عن أن يقال يجدون نعته او وصفه مكتوبا عندهم ، والظرف (عندهم) لزيادة التقرير وأن شأنه عليه السلام حاضر عندهم لا يغيب عنهم اه وسيأتي بيان ذلك في فصل خاص

ثالثها ورابعها — قوله — ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ يحتمل أنه استئناف لبيان أهم ما يحتاجون اليه عند بعثته — ويحتمل أنه تفسير لما كتب. والمعروف ماتعرف العقول السليمة حسنه وترتاح القلوب الطاهرة له لنفعه وموافقته للفطرة والمصلحة بحيث لايستطيع العاقل المنصف السليم الفطرة أن يرده أو يعترض عليه اذا ورد الشرع به . والمنكر ماتنكره العقول السليمة وتنفر منه القلوب وتأباه على الوجه المذكور أيضا . وأما تفسير المعروف بما أمرت به الشريعة والمنكر بما نهت عنه فهو من قبيل تفسير الماء بالماء. وكون ماقلناه يثبت مسألة التحسين والتقبيح العقليين وفاقا للمعتزلة وخلافا للاشعرية مردود اطلاقه بأننا انما نوافق كلا منهما من وجه ونخالفه من وجه اتباعا لظواهر الكتاب والسنة وفهم السلف لهما فلا ننكر إدراك العقول لحسن الاشياء مطلقا ولا نقيد التشريع بعقولنا ولا نوجب على الله شيئا من عند أنفسنا بل نقول انه لاسلطان لشيء عليه فهو الذي يوجب على نفسه ماشاء ان شاء كما كتب على نفسه الرحمة لمن شاء وان من الشرع مالم تعرف العقول حسنه قبل شرعه ، وان كل ماشرعه تعالى يطاع بلا شرط ولا قيد .

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذا الامر والنهي مانصه : هذه صفة الرسول (ص) في الكتب المتقدمة ، وهكذا كانت حاله عليه السلام لا يأمر الا بخير ولا ينهى الاعن شر كما قال عبد الله بن مسعود اذا سمعت الله يقول (ياأيها الذين آمنوا) فارعها سمعك فانه خير تؤمر به او شر تنهى عنه . ومن أهم ذلك وأعظمه

ما بعثه الله به من الامر بعبادته وحده لاشريك له والنهي عن عبادة ما سواه كما أرسل به جميع الرسل قبله كما قال (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال الامام احمد — وذكر سنده الى أبي حميد وابي اسيد (رض) أن رسول الله (ص) قال « إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم وتلين له اشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد ، فأنا أبعدكم منه » رواه احمد (رض) باسناد جيد ولم يخرجه أحد من اصحاب الكتب

خامسها وسادسها — قوله تعالى﴿ ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾ الطيب ما تستطيبه الاذواق من الاطعمة وتستفيد منه التغذية النافعة ، ومن الاموال ما أخذ بحق وتراض في المعاملة . والخبيث من الاطعمة ماتمجه الطباع السليمة وتستقذره ذوقا كالميتة والدم المسفوح، أوتصد عنه العقول الراجحة لضرره في البدن كالخنزير الذي تتولد من اكله الدودة الوحيدة ـ أو لضرره في الدين كالذي يذبح للتقرب به الى غير الله تعالى على سبيل العبادة ، أي لا ما يذبح لتكريم الضيفان، من صغير وكبير أو امير اوسلطان. والذي يحرم ذبحه اواكله لتشريع باطل لم يأذن به الله كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي . والخبيث من الاموال ما يؤخذ بغير حق كالرياء والرشوة والغلول والسرقة والخيانة والغصب والسحت . وقد كان الله تعالى حرم على بني إسرائيل بعض الطيبات عقوبة لهم كما قال (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) الآية . وتقدم تفسيرها في سورة النساء . وحرموا هم على أنفسهم طيبات أخرى لم يحرمها الله تعالى عليهم ، وأحلوا لانفسهم أكل أموال غير الاسرائيليين بالباطل كما حكى الله تعالى عنهم بعد ذكر استحلال بعضهم أكل ما يأتمنهم عليه العرب (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) وتقدم تفسيرها في سورة آل عمران

(سابعها) — قوله تعالى ﴿ ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم﴾ الاصر الثقل الذي يأصر صاحبه أي يحبسه من الحراك لثقله ، وهو مثل لثقل

تكليفهم وصعوبته نحو اشتراط قتل الانفس في صحة توبتهم . وكذلك الاغلال مثل لما كان في شرائعهم من الاشياء الشاقة ، قالهما الزمخشري . وذكر الثاني عدة أمثلة من شدة أحكام التوراة . وقال ابن كثير : أي أنه جاء بالتيسير والسماحة كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال (ص) لاميريه معاذ وأبي موسى الاشعري لما بعثهما الى اليمن « بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا ، وتطاوعا ولا تختلفا » والحديث رواه الشيخان وغيرهما وحاصل ماتقدم ان بنى اسرائيل كانوا فيما أخذوا به من الشدة في احكام التوراة من العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية والعقوبات كالذى يحمل أثقالا يئط منها وهو مع ذلك موثق بالسلاسل والاغلال فى عنقه ويديه ورجليه . وقد بينا في مواضع أخرى حكمة أخذ بنى اسرائيل بالشدة في الاحكام وأن المسيح عليه السلام خفف عنهم بعض التخفيف في الامور المادية وشدد عليهم في الاحكام الروحية لما كان من افراطهم في الاولى وتفريطهم في الاخرى ، وكل هذا وذاك قد جعله الله تعالى تربية موقوتة لبعض عباده ليكمل استعدادهم للشريعة الوسطى العادلة السمحة الرحيمة التي بعث بها خاتم الرسل الذي أوجب اتباعه على كل من أدركه من الرسل وأقوامهم

﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ يطلق التعزير في اللغة على الرد والضرب والمنع والتأديب والتعظيم . وقال الراغب : التعزير النصرة مع التعظيم . وروي عن ابن عباس : عزروه عظموه ووقروه . ولكن ورد في سورة الفتح (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا) والاقرب الى فقه اللغة ماحققه الزمخشري في الكشاف هنا قال (وعزروه) ومنعوه حتى لايقوى عليه عدو، وأصل العزر المنع، ومنه التعزير للضرب دون الحد ، لانه منع عن معاودة القبيح ألا ترى الى تسميته الحد ، والحد هو المنع اهوجاء في لسان العرب بعد نقل الاقوال، وجعله من قبيل الاضداد : والعزر النصر بالسيف ، وعزره عزرا ، وعزره (تعزيرا) أعانه وقواه ونصره ، قال الله تعالى (لتعزروه وتوقروه) وقال تعالى (وعزرتموهم) جاء في التفسير .

لتنصروه بالسيف ومن نصر النبي (ص) بالسيف فقد نصر الله عز وجل ، وعزرتموهم عظمتوهم ، وقيل : نصرتموهم قال ابراهيم بن السري : وهذا هو الحق والله تعالى أعلم — وذلك أن العزر في اللغة الرد والمنع ، وتأويل عزرت فلانا أي أدبته انما تأويله فعلت به ما يردعه عن القبيح ، كما اذا نكلت به تأويله فعلت به ما يجب أن ينكل معه عن المعاودة . فتأويل عزرتموهم نصرتموهم بأن تردوا عنهم أعداءهم ، ولو كان التعزير هو التوقير لكان الاجود في اللغة الاستغناء به والنصرة اذا وجبت فالتعظيم داخل فيها ، لان نصرة الانبياء هي المدافعة عنهم اوالذب عن دينهم وتعظيمهم وتوقيرهم اه المراد منه

والمعنى إن الذين آمنوا — أي يؤمنون — بالرسول النبي الامي عند مبعثه أي من قوم موسى ومن كل قوم — فانه لم يقل فالذين آمنوا به منهم بل أطلق — ويعزرونه بأن يمنعوه ويحموه من كل من يعاديه مع التعظيم والاجلال ، لا كما يحمون بعض ملوكهم مع الكره والاشمئزاز ، ونصروه باللسان والسنان ، واتبعوا النور الاعظم الذي أنزل مع رسالته وهو القرآن ، أولئك هم المفلحون ، أي الفائزون بالرحمة العظمى والرضوان ، دون سواهم من أهل كل زمان ومكان . فمنهم الفائزون بدون مايفوز به هؤلاء ، كأتباع سائر الانبياء ، ومنهم الخائبون المخذولون ، أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون

﴿ فصل في بيان بشارات التوراة والانجيل وغيرهما ﴾

بنبينا صلى الله عليه وآله وسلم

اعلم انه قد سبق لنا ذكر بشارات كتب انبياء بني اسرائيل بنبينا (ص) في مواضع من هذا التفسير بعضها بالاجمال وبعضها بشيء من التفصيل وفي مواضع من المنار كما يعلم من فهارسهما ، ونريد هنا ان نفصل القول في ذلك تفصيلا كافيا لانه هو المكان المناسب له أتم المناسبة ، فنقول

كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى يتناقلون خبر بعثته (ص) فيما بينهم ويذكرون البشارات به من كتبهم حتى اذا ما بعثه الله تعالى بالهدى ودين الحق آمن به كثيرون وكان علماؤهم يصرحون بذلك كعبدالله بن سلام وأصحابه من علماء

اليهود وتميم الداري من علماء النصارى وغيرهم من الذين أسلموا في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ورضي عنهم، والروايات في هذه كثيرة، ومن أعجبها قصة سلمان الفارسي (رض) وأما الذين أبوا واستكبروا فكانوا يكتمون البشارات به في كتبهم ويؤولون ما بقي منها لمن اطلع عليه ويكتمونه عمن لم يطلع عليه، وقد أربى المتأخرون ولاسيما الافرنج منهم على المتقدمين في المكابرة والتأويل والتضليل لذلك وضح العلامة المحقق الشيخ رحمة الله الهندي هذه المسألة في كتابه (اظهار الحق) بأمور جعلها مقدمات لبشارات تلك الكتب به (ص) فرأينا ان نقتبسها بنصها ، قال رحمه الله تعالى في سياق مسالك الاستدلال على نبوته «ص» ما نصه :

﴿ المسلك السادس ﴾

أخبار الانبياء المتقدمين عليه عن نبوته عليه السلام ، ولما كان القسيسون يغلطون العوام في هذا الباب تغليطا عظيما استحسنت أن أقدم على نقل تلك الاخبار أموراً ثمانية تفيد الناظر بصيرة

﴿ الامر الاول ﴾

إن الانبياء الاسرائيلية مثل أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى عليهم السلام أخبروا عن الحوادث الآتية ، كحادثة بخت نصر ، وقورش والاسكندر وخلفائه ، وحوادث أرض أدوم ومصر ونينوى وبابل ، ويبعد كل البعد أن لايخبر أحد منهم عن خروج محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان وقت ظهوره كأصغر البقول ، ثم صار شجرة عظيمة تتأوى طيور السماء في أغصانها ، فكسر الجبابرة والاكاسرة ، و بلغ دينه شرقا وغربا وغلب الاديان ، وامتد دهراً بحيث مضى على ظهوره مدة الف ومائتين وثمانين الى هذا الحين ، ويمتد إن شاء الله الى آخر بقاء الدنيا . وظهر في أمته ألوف ألوف من العلماء الربانيين ، والحكماء المتقنين ، والاولياء ذوي الكرامات والمجاهدات ، والسلاطين العظام . وهذه الحادثة كانت أعظم الحوادث ، وما كانت أقل من حادثة أرض أدوم ونينوى وغيرها ، فكيف يجوز العقل السليم انهم أخبروا عن الحوادث الضعيفة وتركوا الاخبار عن هذه الحادثة العظيمة

﴿ الامر الثاني ﴾

إن النبي المقدم اذا أخبر عن النبي المتأخر لا يشترط في اخباره أن يخبر بالتفصيل التام بأنه يخرج من القبيلة الفلانية ، في السنة الفلانية، في البلد الفلاني، وتكون صفته كيت وكيت ، بل يكون هذا الاخبار في غالب الاوقات مجملا عند العوام ، وأما عند الخواص فقد يصير جليا بواسطة القرائن ، وقد يبقى خفيا عليهم أيضا لا يعرفون مصداقه الا بعد ادعاء النبي اللاحق ان النبي المتقدم أخبر عني وظهور مصداق ادعائه بالمعجزات ، وعلامات النبوة ، وبعد الادعاء ، وظهور صدقه يصير جليا عندهم بلا ريب ، ولذلك يعاتبون كما عاتب المسيح عليه السلام علماء اليهود بقوله (٥٢ ويل لكم أيها الناموسيون لانكم أخذتم مفتاح المعرفة مادخلتم أنتم والداخلون منعتموهم) كما هو مصرح به في الباب الحادي عشر من انجيل لوقا وعلى مذاق المسيحيين قد يبقى خفيا على الانبياء فضلا عن العلماء ، بل قد يبقى خفيا على النبي المخبر عنه على زعمهم في الباب الاول من انجيل يوحنا هكذا ١٩ (وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من اورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت ؟) ٢٠ (فاعترف ولم ينكر، واقر إني لست أنا المسيح) ٢١ (فسألوه اذا ماذا؟ أنت ايليا ؟ فقال : أنا لست ايليا ، فسألوه أنت النبي ؟ فأجاب : لا) ٢٢ (فقالوا له : من أنت لنعطي جوابا للذين أرسلونا ؟ ماذا تقول عن نفسك ؟) ٢٣ (قال : أنا صوت صارخ في البرية قوموا طريق الرب ، كما قال أشعيا النبي) ٢٤ (وكان المرسلون من الفريسيين) ٢٥ (فسألوه وقالوا له : فما بالك تعمد ان كنت لست المسيح ولا ايليا ولا النبي ؟)

والالف واللام في لفظ النبي الواقع في الآية ٢١ و ٢٥ للعهد ، والمراد النبي المعهود الذي أخبر عنه موسى عليه السلام في الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء(١) على ما صرح به العلماء المسيحية ، فالكهنة واللاويون كانوا من علماء اليهود وواقفين على كتبهم ، وعرفوا أيضا ان يحيى عليه السلام نبي ، لكنهم شكوا في انه المسيح

(١) هو سفر تثنية الاشتراع وهو الخامس والاخير من اسفار التوراة و يعبر عنه صاحب الحق بسفر الاستثناء اخذاً من بعض التراجم

عليه السلام أو ايليا عليه السلام أو النبي المعهود الذي أخبر عنه موسى عليه السلام ، فظهر منه ان علامات هؤلاء الانبياء الثلاثة لم تكن مصرحة في كتبهم بحيث لا يبقى الاشتباه للخواص (١) فضلا عن العوام ، فلذلك سألوا أولا : أنت المسيح ؟ فبعدما أنكر يحي عليه السلام عن (٢) كونه مسيحا ، سألوه : أنت ايليا ؟ فبعد ما أنكر عن (٢) كونه ايليا أيضا سألوه أنت النبي أي (المعهود) ؟ ولو كانت العلامات مصرحة لما كان للشك محل ، بل ظهر منه ان يحي عليه السلام لم يعرف نفسه انه ايليا حتى أنكر فقال : لست أنا ، وقد شهد عيسى انه ايليا في الباب الحادي عشر من انجيل متى قول (؟) عيسى عليه السلام في حق يحي عليه السلام هكذا ١٤ (وان أردتم أن تقبلوا فهذا هو ايليا المزمع أن يأتي) وفي الباب السابع عشر من انجيل متى هكذا ١٠ (وسأله تلاميذه قائلين فلماذا يقول الكتبة : إن ايليا ينبغي أن يأتي أولا) ١١ (فأجاب يسوع وقال لهم : إن ايليا يأتي أولا ويرد كل شيء) ١٢ (ولكني أقول لكم : إن ايليا قد جاء ولم يعرفوه ، بل عملوا به كل ما أرادوا ، كذلك ابن الانسان أيضا سوف يتألم منهم) ١٣ (حينئذ فهم التلاميذ انه قال لهم عن يوحنا المعمدان) وظهر من العبارة الاخيرة أن علماء اليهود لم يعرفوه بأنه ايليا وفعلوا به ما فعلوا ، وان الحواريين أيضا لم يعرفوه بأنه ايليا ، مع انهم كانوا أنبياء في زعم المسيحيين وأعظم رتبة من موسى عليه السلام ، وكانوا اعتمدوا من يحي عليه السلام ورأوه مرارا ، وكان مجيئه ضروريا قبل إلههم ومسيحهم — وفي الآية ٣٣ من الباب الاول من انجيل يوحنا قول يحي هكذا (وأنا لم أكن أعرفه لكن الذي أرسلني لاعمد بالماء ذاك قال لي : الذي ترى الروح نازلا ومستقرا عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس) ومعنى قوله (وأنا لم أكن أعرفه) على زعم القسيسين أنا لم أكن أعرفه معرفة جيدة بأنه المسيح الموعود به ، فعلم أن يحي عليه السلام ما كان يعرف عيسى عليه السلام معرفة يقينية بأنه المسيح الموعود به الى ثلاثين سنة مالم ينزل الروح القدس ، لعل كون ولادة المسيح من العذراء لم يكن من

(١) كذا والمراد بحيث لا تبقى فيها اشتباه على الخواص بل كانت مجملة لا تخلو من الخفاء والاشتباه (٢) كلمة عن زائدة اذ يقال انكر الشيء لا أنكر عنه

العلامات المختصة بالمسيح ، والا فكيف يصح هذا ؟ لكني أقطع النظر عن هذا وأقول : إن يحيي أشرف الانبياء الاسرائيلية بشهادة عيسى عليه السلام ، كما هو مصرح به في الباب الحادي عشر من انجيل متى ، وان عيسى عليه السلام إلهه وربه على زعم المسيحيين ، وكان مجيئه ضروريا قبل المسيح ، وكان كونه ايليا يقينيا ، فاذا لم يعرف هذا النبي الا شرف نفسه الى آخر العمر ، ولم يعرف إلهه وربه الى المدة المذكورة ، وكذا لم يعرف الحواريون الذين هم أفضل من موسى وسائر الانبياء الاسرائيلية مدة حياة يحيى انه ايليا فماذا رتبة العلماء والعوام عندهم في معرفة النبي اللاحق بخبر النبي المتقدم عنه وترددهم فيه ؟ وقيافا رئيس الكهنة كان نبيا على شهادة يوحنا ، كما هو مصرح به في الآية الحادية والخمسين من الباب الحادي عشر من انجيله ، وهو أفتى بقتل عيسى عليه السلام وكفره واهانته ، كما هو مصرح به في الباب السابع والعشرين من إنجيل متى . ولو كانت علامات المسيح في كتبهم مصرحة بحيث لا يبقى الاشتباه (فيها) على أحد ما كان مجال لهذا النبي المفتي بقتل إلهه وبكفره أن يفتي بقتله وكفره

ونقل متى ولوقا في الباب الثالث ومرقس ويوحنا في الباب الاول من أناجيلهم خبر اشعيا في حق يحيى عليهما السلام ، وأقر يحيي عليه السلام بأن هذا الخبر في حقه على ماصرح به يوحنا ، وهذا الخبر في الآية الثالثة من الباب الاربعين من كتاب أشعيا هكذا (صوت المنادي في البرية سهلوا طريق الرب اصلحوا في البوادي سبيلا لالهنا) ولم يذكر فيه شيء من الحالات المختصة بيحيي عليه السلام لا من صفاته ، ولا من زمان خروجه ، ولا مكان خروجه ، بحيث لايبقى الاشتباه ، ولو لم يكن ادعاء يحيى عليه السلام بأن هذا الخبر في حقه وكذا ادعاء مؤلفي العهد الجديد لما ظهر هذا للعلماء المسيحية وخواصهم فضلا عن العوام لان وصف النداء في البرية يعم أكثر الانبياء الاسرائيلية الذين جاؤا من بعد اشعيا عليه السلام ، بل يصدق على عيسى عليه السلام أيضا ، لانه كان ينادي مثل نداء يحيي عليه السلام: توبوا لانه قد اقترب ملكوت السماء وسيظهر لك في (الامر السادس) حال الاخبارات التي نقلها الانجيليون في حق عيسى عليه السلام

عن الانبياء المتقدمين عليهم السلام. ولا ندعي ان الانبياء الذين اخبروا عن محمد صلى الله عليه وسلم كان اخبار كل منهم بصفته منفصلا بحيث لا يكون فيه مجال التأويل للمعاند

قال الامام الفخر الرازي في ذيل تفسير قوله تعالى (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) : واعلم أن الاظهر في الباء في قوله (بالباطل) انها باء الاستعانة كالتي في قولك كتبت بالقلم . والمعنى (لاتلبسوا الحق) بسبب الشبهات التي توردونها على السامعين . وذلك لان النصوص الواردة في التوراة والانجيل في أمر محمد عليه السلام كانت نصوصا خفية تحتاج في معرفتها الى الاستدلال ، ثم انهم كانوا يجادلون فيها ويشوشون وجه الدلالة على المتأملين فيها بسبب القاء الشبهات ، انتهى كلامه بلفظه

وقال المحقق عبد الحكيم السيالكوتي في حاشيته على البيضاوي : هذا فصل يحتاج الى مزيد شرح ، وهو انه يجب أن يتصور ان كل نبي أتى بلفظة معرضة وإشارة مدرجة ، لا يعرفها الا الراسخون في العلم ، وذلك لحكمة إلهية . وقد قال العلماء : ماانفك كتاب منزل من السماء من تضمن ذكر النبي صلى الله عليه وسلم لكن باشارات ، ولو كان منجليا للعوام لما عوتب علماؤهم في كتمانه . ثم ازداد ذلك غموضا بنقله من لسان الى لسان من العبراني إلى السرياني ، ومن السرياني الى العربي . وقد ذكرت محصلة ألفاظ من التوراة والانجيل اذا اعتبرتها وجدتها دالة على صحة نبوته عليه السلام ، بتعريض هو عند الراسخين في العلم جلي ، وعند العامة خفي . انتهى كلامه بلفظه

﴿ الامر الثالث ﴾

ادعاء أن أهل الكتاب ما كانوا ينتظرون نبيا آخر غير المسيح وايليا ادعاء باطل لا أصل له ، بل كانوا منتظرين لغيرهما أيضا لما علمت في الامر الثاني أن علماء اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام سألوا يحيى عليه السلام أولا أنت المسيح ؟ ولما أنكر سألوه : أنت ايليا ؟ ولما أنكر سألوه : أنت النبي ؟ أي النبي المعهود الذي أخبر به موسى ، فعلم ان هذا النبي كان منتظراً مثل المسيح وايليا ، وكان مشهورا بحيث ما كان محتاجا الى ذكر الاسم ، بل الاشارة اليه كانت

كافية . وفي الباب السابع من انجيل يوحنا بعد نقل قول عيسى عليه السلام هكذا ٤٠ (فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا : هذا بالحقيقة هو النبي) ٤١ (وآخرون قالوا : هذا هو المسيح) وظهر من الكلام أيضا أن النبي المعهود عندهم كان غير المسيح ، ولذلك قابلوه بالمسيح

﴿ الامر الرابع ﴾

ادعاء ان المسيح خاتم النبيين ولا نبي بعده باطل لما عرفت في الامر الثالث انهم كانوا منتظرين للنبي المعهود الآخر الذي يكون غير المسيح وايليا عليهم السلام ، ولما لم يثبت بالبرهان مجيئه قبل المسيح فهو بعده ولانهم يعترفون بنبوة الحواريين وبولس ، بل بنبوة غيرهم أيضا . وفي الباب الحادي عشر من كتاب الاعمال هكذا ٢٧ (وفي تلك الايام انحدر الانبياء من أورشليم الى انطاكية) ٢٨ (وقام واحد منهم اسمه أغابوس وأشار بالروح أن جوعا عظيما كان عتيداً أن يصير على جميع المسكونة الذي صار في أيام كلوديوس قيصر) فهؤلاء كلهم كانوا أنبياء على تصريح انجيلهم . وأخبر واحد منهم اسمه اغابوس عن وقوع الجدب العظيم . وفي الباب الحادي والعشرين من الكتاب المذكور هكذا ١٠ (وبينما نحن مقيمون أياما كثيرة انحدر من اليهودية نبي اسمه اغابوس) ١١ (فجاء الينا وأخذ منطقة بولس وربط يدي نفسه ورجليه وقال : هذا يقوله الروح القدس الرجل الذي له هذه المنطقة ، هكذا سيربطه اليهود في أورشليم ويسلمونه الى أيدي الامم) وفي هذه العبارة أيضا تصريح بكون أغابوس نبيا ، وقد يتمسكون لاثبات هذا الادعاء بقول المسيح المنقول في الآية الخامسة عشرة من الباب السابع من انجيل متى هكذا (احترزوا من الانبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة) والتمسك به عجيب لان المسيح عليه السلام أمر بالاحتراز من الانبياء الكذبة لا الانبياء الصدقة أيضا ، ولذلك قيد بالكذبة نعم لو قال : احترزوا من كل نبي يجيء بعدي، لكان بحسب الظاهر وجه التمسك وان كان واجب التأويل عندهم لثبوت نبوة الاشخاص المذكورين . وقد ظهر الانبياء الكذبة الكثيرون في الطبقة الاولى بعد صعوده ، كما يظهر من الرسائل

الموجودة في العهد الجديد في الباب الحادي عشر من الرسالة الثانية الى أهل قورنيثوس هكذا ١٢ (ولكن ما أفعله سأفعله لاقطع فرصة الذين يريدون فرصة كي يوجدوا كما نحن أيضا فيما يفتخرون به) ١٣ (لان مثل هؤلاء رسل كذبة فعلة ماكرون ، مغيرون شكلهم الى شبه رسل المسيح) فقدسهم ينادي بأعلى نداء ان الرسل الكذبة الغدارين ظهروا في عهده ، وقد تشبهوا برسل المسيح .

وقال آدم كلارك المفسر في شرح هذا المقام : هؤلاء الاشخاص كانوا يدعون كذبا أنهم رسل المسيح ، وما كانوا رسل المسيح في نفس الامر ، وكانوا يعظون ويجتهدون ، لكن مقصودهم ما كان الا جلب المنفعة) وفي الباب الرابع من الرسالة الاولى ليوحنا هكذا (أيها الاحباء لاتصدقوا كل روح بل امتحنوا الارواح هل هي من الله ؟ لان الانبياء الكذبة كثيرون قد خرجوا الى العالم) فظهر من العبارتين أن الانبياء الكذبة قد ظهروا في عهد الحواريين . وفي الباب الثامن من كتاب الاعمال هكذا ٩ (وكان قبلا في المدينه رجل اسمه سيمون يستعمل السحر ويدهش شعب السامرة قائلا انه شيء عظيم) ١٠ (وكان الجميع يتبعونه من الصغير الى الكبير قائلين : هذا هو قوة الله العظيمة) وفي الباب الثالث عشر من الكتاب المذكور هكذا (ولما اجتازا الجزيرة الى بافوس وجدا رجلا ساحراً نبيا كذابا يهوديا اسمه باريشوع) وكذا سيظهر الدجالون الكذابون يدعي كل منهم أنه المسيح ، كما أخبر عيسى عليه السلام (وقال : لايضلكم أحد فان كثيرين سيأتون باسمي قائلين : أنا هو المسيح ويضلون كثيرين) كما هو مصرح في الباب الرابع والعشرين من انجيل متى . فمقصود المسيح عليه السلام التحذير من هؤلاء الانبياء الكذبة والمسحاء الكذبة ، لامن الانبياء الصادقين أيضا ، ولذلك قال بعد القول المذكور في الباب السابع (من ثمارهم تعرفونهم هل يجتنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا) ومحمد صلى الله عليه وسلم من الانبياء الصادقين كما تدل عليه ثماره على ما عرفت في المسالك المتقدمة ، ولا اعتبار لمطاعن المنكرين كما ستعرف في الفصل الثاني ، ولان كل شخص يعلم ان اليهود ينكرون عيسى بن مريم عليهما السلام ويكذبونه ، وليس عندهم رجل أشر منه من ابتداء العالم الى

زمان خروجه ، وكذا ألوف من الحكماء والعلماء الذين هم من أبناء صنف القسيسين وكانوا مسيحيين ثم خرجوا عن هذه الملة لاستقباحهم اياها ينكرونه ويستهزئون به وبملته وألفوا رسائل كثيرة لاثبات آرائهم واشتهرت هذه الرسائل في أكناف العالم ويزيد متبعوهم كل يوم في ديار اوربا. فكما ان انكار اليهود وهؤلاء الحكماء والعلماء في حق عيسى عليه السلام غير مقبول عندنا ، فكذا إنكار اهل التثليث في حق محمد صلى الله عليه وسلم غير مقبول عندنا

﴿ الامر الخامس ﴾

الاخبارات(١) التي نقلها المسيحيون في حق عيسى عليه السلام لاتصدق عليه على تفاسير اليهود وتأويلاتهم، ولذلك هم ينكرونه أشد الانكار ، والعلماء المسيحية لا يلتفتون في هذا الباب الى تفاسيرهم وتأويلاتهم ، ويفسرونها ويؤولونها بحيث تصدق في زعمهم على عيسى عليه السلام (ونقل هنا عبارة عن ميزان الحق بهذا المعنى ثم قال) كما ان تأويلات اليهود في الآيات المذكورة مردودة غير صحيحة، وغير لائقة عند المسيحيين ، كذلك تأويلات المسيحيين في الاخبارات التي هي في حق محمد صلى الله عليه وسلم مردودة غير مقبولة عندنا . وسترى ان الاخبارات التي ننقلها في حق محمد صلى الله عليه وسلم أظهر صدقا من الاخبارات التي نقلها الانجيليون في حق عيسى عليه السلام فلا بأس علينا إن لم نلتفت الى تأويلاتهم الفاسدة ، وكما ان اليهود ادعوا في حق بعض الاخبارات التي هي في حق عيسى عليه السلام على زعم المسيحيين انها في حق مسيحهم المنتظر ، أو في حق غيره ، أو ليست في حق أحد . والمسيحيون يدعون أنها في حق عيسى عليه السلام ولا يبالون بمخالفتهم ، فكذا نحن لانبالي بمخالفة المسيحيين في حق بعض الاخبارات التي هي في حق محمد صلى الله عليه وسلم لو قالوا إنها في حق عيسى عليه السلام . وسترى أيضا ان صدقها في حق محمد صلى الله عليه وسلم اليق من صدقها في حق عيسى عليه السلام فادعاؤنا أحق من ادعائهم

١ الاخبار جمع خبر والمؤلف يجمع هذا الجمع على اخبارات ولا حاجة الى ذلك

﴿ الامر السادس ﴾

مؤلفو العهد الجديد باعتقاد المسيحيين ذوو إلهام . وقد نقلوا الاخبارات في حق عيسى عليه السلام ، فيكون هذا النقل على زعمهم بالالهام ، فأذكر نبذاً منها بطريق الأنموذج ليقيس المخاطب حال هذه الاخبارات بالاخبارات التي أنقلها في هذا المسلك في حق محمد صلى الله عليه وسلم ، وان سلك أحد من القسيسين مسلك الاعتساف وتصدى لتأويل الاخبارات التي أنقلها في هذا لمسلك يجب عليه أن يوجه أولا الاخبارات التي نقلها مؤلفو العهد الجديد في حق عيسى عليه السلام ليظهر للمنصف اللبيب حال الاخبارات التي نقلها الجانبان ويقابلها باعتبار القوة والضعف ، وان غمض النظر عن توجيه الاخبارات العيسوية التي نقلها المؤلفون المذكورون وأول الاخبارات المحمدية التي أنقلها في هذا المسلك يكون محمولا على عجزه وتعصبه ، لانك قد علمت في الامر الثاني والخامس أن المعاند له مجال واسع للتأويل في أمثال هذه الاخبارات ، وانما اكتفيت على نبذ(١) مما نقله مؤلفو العهد الجديد ، لانه اذا ظهر ان البعض منها غلط يقينا ، والبعض منها محرف ، والبعض منها لا يصدق على عيسى عليه السلام الا بالادعاء البحت والتحكم الصرف ، ظهر ان حال الاخبارات الاخر التي نقلها المسيحيون الذين ليسوا ذوي إلهام ووحي يكون أسوأ فلا حاجة الى نقلها

﴿ الخبر الاول ﴾ ماهو المنقول في الباب الاول من إنجيل متى ؟ وقد عرفت في بيان الغلط الحسين في الفصل الثالث من الباب الاول أنه غلط (٢) على أن كون

---

١ يقال اكتفى بالشيء ولكنه ضمنه معنى اقتصر فعداه بعلى ، والتضمين سماعي عندهم

٢ ـ هذا نص الغلط الحسين الذي أشار اليه : في الباب الاول من انجيل متى (وهذا كله لكي يتم ماقيل من الرب بالنبي القائل وهو ذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا) والمراد بالنبي عند علمائهم اشعياء عليه السلام حيث قال في الآية الرابعة عشر من الباب السابع من كتابه هكذا (لأجل هذا يعطيكم الرب عينه علامة ها العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعى اسمه عمانوئيل) وأقول هو غلط لوجوه . الاول ان اللفظ الذي ترجمه الانجيلي ومترجم كتاب اشعياء « العذراء »

مريم عذراء وقت الحبل غير مسلم عند اليهود والمنكرين ، ولا يتم عليهم حجة لانها قبل ولادة عيسى عليه السلام كانت في نكاح يوسف النجار على تصريح الانجيل . واليهود المعاصرون لعيسى عليه السلام يقولون : انه ولد يوسف النجار كما هو مصرح به في الآية ٥٥ من الباب ١٣ من انجيل متى ، والآية ٤٥ من الباب الاول والآية ٤٢ من الباب السادس من انجيل يوحنا ، والى الآن يقولون هكذا ، بل أشنع منه . والعلامة الاخرى المختصة بعيسى عليه السلام غير مذكورة في هذا الخبر

هو علمة مؤنث علم والهاء فيه للتأنيث ومعناه عند علماء اليهود المرأة الشابة سواء كانت عذراء اوغير عذراء ويقولون ان هذا اللفظ وقع في الباب الثلاثين من سفر الامثال ومعناه ههنا المراة الشابة التي زوجت وفسر هذا اللفظ في كلام اشعيا بالمرأة الشابة في التراجم اليونانية الثلاثة اعني ترجمة ايكوئلا . وترجمة تهيودوشن . وترجمة سميكس . وهذه التراجم الثلاثة عندهم قديمة يقولون ان الاولى ترجمت سنة ١٢٩ والثانية سنة ١٧٥ والثالثة سنة ٢٠٠ وكانت معتبرة عند القدماء من المسيحيين سيما ترجمة تهيودوشن فعلى تفسير علماء اليهود والتراجم الثلاثة فساد كلام متى ظاهر الخ

الثاني ـ ماسمى احد عيسى عليه السلام بعمانوئيل لا ابوه ولا امه بل سمياه يسوع وكان الملك قال لابيه في الرؤيا وتدعو اسمه يسوع كما هو مصرح في انجيل متى وكان جبريل قال لامه : ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع كما هو مصرح في انجيل لوقا . ولم يدع عيسى عليه السلام في حين من الاحيان ان اسمي عمونائيل

الثالث ـ ان القصة التي وقع فيها هذا القول تأبى ان يكون مصداق هذا القول عيسى عليه السلام لانها هكذا : ان راصين ملك ارام وفاقاح ملك اسرائيل جاءا الى اورشليم لمحاربة احاز بن يوثان ملك يهوذا فخاف خوفا شديدا من اتفاقهما فاوحى الله الى اشعيا ان يقول لتسلية احاز : لا تخف فانهما لا يقدران عليك وستزول سلطنتهما . وبين علامة خراب ملكهما ان امرأة شابة تحبل وتلد ابنا وتصير ارض هذين الملكين خربة قبل ان يميز هذا الابن الخير عن الشر . وقد ثبت ان ارض فاقاح قد خربت في مدة احدى وعشرين سنة من هذا الخبر فلابد ان يتولد (*) هذا الابن قبل هذه المدة وتخرب قبل تميزه وعيسى عليه السلام تولد بعد سنة ٧٢١ من خرابها . الخ اهص ١٠٧ من اظهار الحق فكيف تكون بشارة اشعيا منطبقة على المسيح وقصتها ما سمعت

(*) يستعمل المؤلف تولد و يتولد بمعنى ولد و يولد . والوجه هنا ان يقال: فلابد ان يكون هذا الابن قد ولد قبل هذه المدة

﴿ الخبر الثاني ﴾ ما هو المنقول في الآية السادسة من الباب الثاني من انجيل متى ، وهو اشارة الى الآية الثانية من الباب الخامس من كتاب ميخا . ولا تطابق عبارة متى عبارة ميخا ، فاحداها محرفة (٢) وقد عرفت في الشاهد الثالث والعشرين من المقصد الاول من الباب الثاني أن محققيهم اختاروا تحريف عبارة ميخا، لكن ادعوا ان هذا لاجل المحافظة على الانجيل فقط و (هو) عند المخالف باطل

﴿ الخبر الثالث ﴾ ماهو المنقول في الآية الخامسة عشرة من الباب المذكور من إنجيل متى (٣)

﴿ الخبر الرابع ﴾ ماهو المنقول في الآية ١٧و١٨ من الباب المذكور ؟(٤و٥)

٢- هذا نص عبارة متي(٦ : ٢ وانت يابيت لحم يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لان منك يخرج مدبر يرعى شعبي اسرائيل . وهذا نص نبوة ميخا « ٥ : ٢ اما انت يابيت لحم افرانه وانت صغيرة ان تكوني بين الوف يهوذا فمنك يخرج الذي يكون متسلطا على اسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ ايام الازل .

٣- نص متي هكذا ٢:١٥ « وكان هناك الى وفاة هيرودس لكي يتم ماقيل من الرب بالنبي القائل من مصر دعوت ابني » والمراد بالنبي القائل هوشع عليه السلام واشار الانجيلي الى ١١ : ١ من كتابه وهو « لما كان اسرائيل غلاما احببته ومن مصر دعوت ابني » هكذا في ترجمة الاميركان الاخيرة المطبوعة سنة ١٨٧٠ وكان نص الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا كما قال الشيخ رحمة الله: ان اسرائيل منذ كان طفلا انا احببته ومن مصر دعوت اولاده . قال الشيخ رحمة الله في الشاهد ١٥ من شواهد اغلاط هذه الكتب : فهذه الآية في بيان الاحسان الذي فعله الله في عهد موسى عليه السلام ببني اسرائيل ، وحرف الانجيلي صيغة الجمع «اولاده» بالمفرد «ابني» وضمير الغائب بالمتكلم فقال ماقال، وحرف لاتباعه مترجم العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ ايضا لكن لا تخفى خيانته على من طالع هذا الباب لانه وقع في حق المدعوين بعد هذه الآية كلما دعوا ولوا وجوههم وذبحوا البعاليم وقربوا للاصنام. ولا تصدق هذه الامور على عيسى عليه السلام بل لا تصدق على اليهود الذين كانوا معاصريه ولا على الذين كانوا قبل ميلاده الى خمسمائة سنة لان اليهود كانوا تابوا من عبادة الاوثان توبة جيدة قبل ميلاده بخمسمائة وستة وثلاثين سنة بعدما اطلقوا من اسر بابل ثم لم يحوموا حولها بعد تلك التوبة كما هو مصرح في التوراة اه ص ١٠٨ ج ١ اظهار الحق

٤و٥ - في الباب الثاني من انجيل متي هكذا ١٧ حينئذ تم ماقيل بارميا النبي القائل ١٨. صوت سمع في الرامة : نوح و بكاء وعويل كثير راحيل تبكي على اولادها ولا تريد

﴿ الخبر الخامس ﴾ ما هو المنقول في الآية الثالثة والعشرين من الباب المذكور؟ وهذه الاخبار الثلاثة غلط(٦) كما عرفت في الفصل الثالث من الباب الاول

﴿ الخبر السادس ﴾ الآية التاسعة من الباب السابع والعشرين من انجيل متى(٧) وقد عرفت في الشاهد التاسع والعشرين من المقصد الثاني من الباب الثاني انه غلط على ان هذا الحال يوجد في الباب الحادي عشر من كتاب زكريا ولا مناسبة له بالقصة التي نقلها متى لان زكريا عليه السلام بعد ماذكر اسمي عصوين ورعي قطيع(فانه) يقول هكذا ـ ترجمة عربية سنة ١٨٤٤ ـ (١٢ وقالت لهم ان حسن في أعينكم فهاتوا أجري والا فكفوا. فوزنوا أجري ثلاثين من الفضة) ١٣ (وقال لي الرب ألقها الى صناع التماثيل ثمنا كريما ثمنوني به ، فأخذت الثلاثين من الفضة

ان تعزي لانهم ليسوا بموجودين . وهذا ايضا غلط وتحريف من الانجيل لان هذا المضمون وقع في الآية الخامسة عشرة من الباب الحادي والثلاثين من كتاب ارميا ومن طالع الآيات التي قبلها وبعدها علم ان هذا المضمون ليس في حادثة هيرود بل في حادثة بختنصر التي وقعت في عهد ارميا فقتل فيها الوف من بني اسرائيل واسر الوف منهم واجلوا الى بابل ولما كان فيهم كثير من آل راحيل ايضا تألم روحها في عالم البرزخ فوعد الله انه يرجع اولادها من ارض العدو الى تخومهم اه ص ١٠٩ ج ١ منه

٦ ـ الآية ٢٣ من الباب الثاني من انجيل متي هكذا « وأتى وسكن في مدينة يقال لها ناصرة لكي يتم ماقيل بالانبياء انه سيدعى الناصريا » وهذا ايضا غلط ولا يوجد في كتاب من كتب الانبياء وينكر اليهود هذا الخبر اشد الانكار وعندهم هذا زور وبهتان بل يعتقدون انه لم يقم نبي من الجليل فضلا عن ناصرة كما هو مصرح في الآية ٥٢ من الباب السابع من انجيل يوحنا ولعلماء المسيحية «ههنا» اعتذارات ضعيفة غير قابلة للالتفات اه ص ١٠٩ و ١١٠ منه

٧ ـ الآية ٩ من الباب ٢٧ من انجيل متى هكذا . وحينئذ كمل قول النبي ارميا حيث قال « فقبضوا الدراهم الثلاثين ثمن والثمن الذي ثمنه بنو اسرائيل . ولفظ ارميا غلط من الاغلاط المشهورة في انجيل متى لان هذا لا يوجد في كتاب ارميا ولا يوجد هذا المضمون في كتاب آخر من كتب العهد العتيق ايضا بهذه الالفاظ نعم توجد في الآية ١٣ من الباب ١١ من كتاب زكريا عبارة تناسب هذه العبارة التي نقلها متى لكن بين العبارتين فرق كثير يمنع ان يحكم ان متى نقل عن هذا الكتاب ومع قطع النظر عن هذا الفرق لا علاقة لعبارة كتاب زكريا عليه السلام بهذه الحادثة التي ينقلها متى منها . وفي هذا الموضع اقوال مضطربة لعلماء المسيحيين سلفا وخلفا الخ اه ص ١٨٥ منه

وألقيتها في بيت الرب الى صناع التماثيل) فظاهر كلام زكريا انه بيان حال لااخبار عن الحادثة الآتية ، وأن يكون آخذ الدراهم من الصالحين مثل زكريا عليه السلام لامن الكافرين مثل يهوذا

﴿ الخبر السابع ﴾ ما نقله مقدسهم بولس في الآية السادسة من الباب الاول من الرسالة العبرانية(٨)وقد عرفت حاله في الفصل الثالث انه غلط لايصدق على عيسى عليه السلام

﴿ والخبر الثامن ﴾ الآية الخامسة والثلاثون من الباب الثالث عشر من انجيل متى هكذا (لكى يتم ماقيل بالنبي القائل سأفتح بأمثال في وأنطق بمكتوبات منذ تأسيس العالم) وهو اشارة الى الآية الثانية من الزبور الثامن والسبعين ، لكنه ادعاء محض وتحكم بحت ، لان عبارة هذا الزبور هكذا ٢ (أفتح بالامثال في وأنطق بالذي كان قديما) ٣ (كل ماسمعناه وعرفناه وآباؤنا أخبرونا) ٤ (ولم يخفوه عن أولادهم الى الجيل الآخر إذ يخبرون بتسابيح الرب وقواته وعجائبه التي صنع) ٥ (إذ أقام الشهادة في يعقوب ووضع الناموس في اسرائيل كل الذي أوصى آباؤنا ليعرفوا به أبناءهم) ٦ (لكي ما يعلم الجيل الآخر بينهم المولودين) ٧ (فيقومون أيضا ويخبرون به أبناءهم) ٨ (لكي يجعلوا اتكالهم على الله ، ولا ينسوا أعمال الله ويلتمسوا وصاياه) ٩ (لئلا يكونوا مثل آبائهم الجيل الاعرج المتمرد الذي لم يستقم قلبه ولا آمنت بالله روحه)

وهذه الآيات صريحة في أن داود عليه السلام يريد نفسه، ولذا عبر عن نفسه بصيغة المتكلم ويروي الحالات التي سمعها من الآباء ليبلغها الى الابناء على حسب عهد الله لتبقى الرواية محفوظة . ويبين من الآية العاشرة الى الخامسة والستين حال انعامات الله والمعجزات الموسوية ، وشرارة بني اسرائيل وما لحقهم بسببها ثم قال ٦٦ (واستيقظ الرب كالنائم مثل الجبار المفيق من الخمر) ٦٧ (فضرب أعداءه في الوراء وجعلهم عاراً الى الدهر) ٦٨ (وأبعد محلة يوسف

---

٨ . الآية الـ٦ من الباب الاول من الرسالة العبرانية هكذا : وأيضا متى ادخل البكر الى العالم يقول وتسجد له كل ملائكة الله . ولم نعثر على عبارة المؤلف في تغليطها

ولم يختر سبط أفرام ٦٩ بل اختار سبط يهوذ الجبل صهيون الذي أحب ٧٠ وبني مثل وحيد القرن قدسه وأسسه في الارض الى الابد ٧١ واختارداود عبده وأخذه من مراعي الغنم ٧٢ ومن خلف المرضعات أخذه ليرعى يعقوب عبده واسرائيل ميراثه ٧٣ فرعاهم بدعة قلبه وبفهم يديه أهداهم)

وهذه الآيات الاخيرة أيضا دالة صراحة على أن هذا الزبور في حق داود عليه السلام فلا علاقة لهذا بعيسى عليه السلام

﴿ الخبر التاسع ﴾ في الباب الرابع من انجيل متى هكذا ١٤ (لكي يتم ماقيل باشعيا النبي القائل ١٥ أرض زبولون وأرض نفتاليم طريق البحر عبر الاردن جليل الامم ١٦ الشعب الجالس في ظلمة أبصر نوراً عظيما . والجالسون في كورة الموت وظلاله أشرق عليهم نور) وهو اشارة الى الآية الاولى والثانية من الباب التاسع من كتاب أشعيا وعبارته هكذا (١- في الزمان الاول استخفت أرض زبلون وأرض نفتالي ، وفي الآخر تثقلت طريق البحر عبر الاردن جليل الامم ٢ الشعب السالك في الظلمة رأى نوراً عظيما . الساكنون في بلاد ظلال الموت أشرق عليهم نور) وفرق ما بين العبارتين فاحداهما محرفة ، ومع قطع النظر عن هذا لادلالة لكلام أشعيا على ظهور شخص بل الظاهر أن أشعيا عليه السلام يخبر ان حال سكان أرض زبلون ونفتالي كان سقيما في سالف الزمان ثم صار حسنا ، كما تدل عليه صيغ الماضي أعني : استخفت ، وتثقلت ، ورأى ، وأشرق ، وان عدلنا عن الظاهر وحملناها على المجاز بمعنى المستقبل وقلنا إن رؤية النور واشراقه عليهم عبارة عن مرور الصلحاء بأرضهم ، فادعاء ان مصداق هذا الخبر عيسى عليه السلام فقط تحكم صرف ، لان كثيراً من الاولياء والصلحاء مر بتلك الارض ولاسيما أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وأولياء أمته أيضا الذين زالت ظلمة الكفر والتثليث من هذه الديار الديار بسببهم ، وظهر نور التوحيد وتصديق المسيح كما ينبغي . واكتفى خوفا من التطويل على (؟) هذا القدر . ونقلت الاخبار الاخر أيضا في (إزالة الاوهام) وغيره من مؤلفاتي وبينت وجوه ضعفها

﴿ الامر السابع ﴾

ان أهل الكتاب سلفا وخلفا عادتهم جارية بأنهم يترجمون غالبا الاسماء في تراجمهم ويوردون بدلها معانيها ، وهذا خبط عظيم ومنشأ للفساد ، وانهم يزيدون تارة شيئا بطريق التفسير في الكلام الذي هو كلام الله في زعمهم ولا يشيرون الى الامتياز ، وهذان الامران بمنزلة الامور العادية عندهم . ومن تأمل في تراجمهم المتداولة بألسنة مختلفة وجد شواهد تلك الامور كثيرة ، وأنا أورد أيضا بطريق الانموذج بعضا منها

١ ـ في الآية الرابعة عشر من الباب السادس عشر من سفر التكوين في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ هكذا (لذلك دعت اسم تلك البير بير الحي الناظرني) فترجموا اسم البئر الذي كان في العبراني بالعربي

٢ ـ وفي الآية الرابعة عشر من الباب الثاني والعشرين من سفر التكوين في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (هكذا سمى ابراهيم اسم الموضع مكان يرحم الله زائره)وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ (دعا براهيم اسم ذلك الموضع الرب يرى) فترجم المترجم الاول الاسم العبراني بمكان يرحم الله زائره ، والمترجم الثاني بالرب يرى(*)

٣ ـ وفي الاية العشرين من الباب الحادي والثلاثين من سفر التكوين في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ هكذا (فكتم يعقوب أمره عن حميه) وفي ترجمة اردو (الترجمة الاوردية) المطبوعة سنة ١٨٢٥ لفظ لابان موضع حميه فوضع مترجمو العربية لفظ الحمى موضع الاسم

٤ ـ وفي الآية العاشرة من الباب التاسع والاربعين من سفر التكوين في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ (فلا يزول القضيب من يهوذا و المدبر

(*) وفي ترجمة الاميركانيين الاخيرة رجعوا الى الاصل العبراني « يهوه يرأه » بسكون الهاء فيهما واثبات الهمزة في يرأه . ولكن قالوا في تتمة الاية « حتى انه يقال اليوم : في جبل الرب يري » وترجمة الجزويت بالعربية في الموضعين

من فخذه حتى يجيء الذي له الكل واياه تنتظر الامم) فقوله (الذي له الكل) ترجمة لفظ «شيلوه» وهذه الترجمة موافقة للترجمة اليونانية ، وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (فلا يزول القضيب من يهوذا والرسم من تحت أمره الى أن يجيء الذي هو له واليه يجتمع الشعوب) وهذا المترجم ترجم لفظ شيلوه (بالذي هو له) وهذه الترجمة موافقة للترجمة السريانية . وترجم هذا اللفظ محققهم المشهور ليكلرك بعاقبته . وفي ترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨٢٥ وقع لفظ شيلا ، وفي الترجمة اللاطينية واتكيت (الذي سيرسل) فالمترجمون ترجموا لفظ شيلوه بما ظهر وترجح عندهم، وهذا اللفظ كان بمنزلة الاسم للشخص المبشر به

٥ ـ وفي الآية الرابعة عشرة من الباب الثالث من سفر الخروج في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ (فقال الله لموسى: أهيه أشراهيه) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (قال له الازلي الذي لا يزال) فلفظ أهيه أشراهيه كان بمنزلة اسم الذات ، فترجمه المترجم الثاني بالازلي الذي لا يزال

٦ ـ وفي الآية الحادية عشرة من الباب الثامن من سفر الخروج في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ هكذا (تبقى في النهر فقط) وفي الترجمة العربية المطبوعه سنه ١٨١١ هكذا (تبقى في النيل فقط)

٧ ـ وفي الآية الخامسة عشرة من الباب السابع عشر من سفر الخروج في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ هكذا (فابتنى موسى مذبحا ودعا اسمه الرب عظمتي) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (و بنى مذبحا وسماه الله علمي) وترجمة اردو موافقة لهذه الاخيرة فأقول مع قطع النظر عن الاختلاف ان المترجمين ترجموا الاسم العبراني (*)

٨ ـ وفي الآية الثالثة والعشرين من الباب الثلاثين من سفر الخروج فى الترجمتين المذكورتين هكذا (من ميعة فائقة) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (من المسك الخالص) و بين الميعة والمسك فرق مافقسروا الاسم العبراني

---

* الاصل العبراني « يهوه نسى» وهو الذي اعتمد فى الترجمة الاميركانية الاخيرة ، ونص ترجمة الجزويت « و بنى موسى مذبحا وسماه الرب رايتي » و رايتي بمعنى علمي

بما ترجح عندهم (*

٩ ـ وفي الآية الخامسة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء (اى التثنية) في الترجمتين المذكورتين هناك (فمات هناك موسى عبد الرب) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا (فمات هناك موسى رسول الله) فهؤلاء المترجمون لو بدلوا في البشارات المحمدية لفظ رسول الله بلفظ آخر فلا استبعاد منهم

﴿ تركنا الشاهدين ١٠ و ١١ للاختصار ﴾

١٢ ـ وفي الآية الرابعة عشر من الباب الحادي عشر من انجيل متى في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ وسنة ١٨٤٤ هكذا (فان أردتم أن تقبلوه فهو ايليا المزمع أن يأتي) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ (فان أردتم أن تقبلوه فهذا هو المزمع بالاتيان) فالمترجم الاخير بدل لفظ ايليا بهذا : فأمثال هؤلاء لو بدلوا اسما من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم في البشارة فلا عجب

١٣ ـ وفي الآية الاولى من الباب الرابع من انجيل يوحنا في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ هكذا (لما علم يسوع) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٦٠ (لما علم الرب) فبدل المترجمان الاخيران لفظ يسوع الذي كان علم عيسى عليه السلام بالرب الذي هو من الالفاظ التعظيمية، فلو بدلوا اسما من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم بالالفاظ التحقيرية لاجل عادتهم وعنادهم فلا عجب (*

وهذه الشواهد تدل على ترجمة الاسماء وايراد لفظ آخر بدلها

١ ـ في الباب السابع والعشرين من انجيل متى هكذا (ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا ايلي ايلي لماذا شبقتني ؟أي الهي الهي لماذا تركتني) وفي الباب الخامس عشر من انجيل مرقس هكذا (وفي الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا الوى الوى لماذا شبقتني، الذي تفسيره الهي الهي لماذا تركتني)

* ـــ وفي ترجمة الجزويت « من آخر الاطياب من المر القاطر » الخ

* ـــ بمثل هذا بينا انه لاغرابة في ورود اسم نبينا «ص» في انجيل برنابا بلفظ محمد فانه ترجمة لاسم الفارقليط كما سيجيء

فلفظ: أي الهي الهي لماذا تركتني ، في انجيل متى ، وكذا لفظ: الذي تفسيره إلهي إلهي لماذا تركتني في انجيل مرقس ، ليسا من كلام الشخص المصلوب يقيناً ، بل الحقا بكلامه

٢ ـ في الآية السابعة عشرة من الباب الثالث من انجيل مرقس هكذا (لقبهما بوانرجس أي ابني الرعد) فلفظ أي ابني الرعد ليس من كلام عيسى عليه السلام ، بل هو الحاقي

٣ ـ في الآية الحادية والاربعين من الباب الخامس من انجيل مرقس هكذا (وقال لها طليثا قومي ، الذي تفسيره ياصبية لك أقول قومي) فهذا التفسير الحاقي ليس من كلام عيسى عليه السلام

٤ ـ في الآية الرابعة والثلاثين من الباب السابع من انجيل مرقس في الترجمة المطبوعة سنة ١٨١٦ (ونظر الى السماء وتأوه وقال : افثا يعني انفتح) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (ونظر الى السماء وتنهد وقال: افاثا ، الذي هو انفتح) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (ونظر الى السماء وتنهد وقال له: انفتح الذي هو انفتح) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هكذا (ورفع نظره نحو السماء وأن وقال له : افثا أي انفتح) ومن هذه العبارة وان لم يعلم صحة اللفظ العبراني أهو افثا أو افاثا أو انفتح لاجل اختلاف التراجم التي منشأ اختلافها عدم صحة ألفاظ أصولها ، لكنه يعلم يقيناً ان لفظ أي انفتح أو الذي هو انفتح الحاقي ليس من كلام عيسى عليه السلام

وهذه الاقوال المسيحية الاربعة التي نقلتها من الشاهد الاول الى ههنا تدل على ان المسيح عليه السلام كان يتكلم باللسان العبراني الذي كان لسان قومه ، وما كان يتكلم باليوناني ، وهو قريب القياس أيضاً لانه كان عبرانيا ابن عبرانية نشأ في قومه العبرانيين فنقل أقواله في هذه الاناجيل في اليوناني نقل بالمعنى ، وهذا أمر آخر زائد على كون أقواله مروية برواية الآحاد

٥ ـ في الآية الثامنة والثلاثين من الباب الاول من انجيل يوحنا هكذا (فقالا له : ربي ، الذي تفسيره يامعلم) فقوله: الذي تفسيره يامعلم ـ الحاقي ليس من كلامهما

٦ ـ في الآية الحادية والاربعين من الباب المذكور في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ وسنة ١٨٤٤ (قد وجدنا مسيا الذي تأويله المسيح) وفي الترجمة الفارسية

المطبوعة سنة ١٨١٦ (ما مسيح را كه ترجمة آن كرسطوس ميباشد يافتيم) وترجمة أوردو المطبوعة سنة ١٨١٤ يوافق الفارسية فيعلم من الترجمتين العربيتين ان اللفظ الذي قاله اندراوس هو مسيا وان المسيح ترجمته، ومن الترجمة الفارسية واردو (أي الترجمة الاوردية) ان لفظ الاصل هو المسيح وكرسطوس ترجمته، ويعلم من ترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨٣٩ ان لفظ الاصل خرسته، وان المسيح ترجمته. فلا يعلم من كلامهم أي لفظ كان الاصل ؟ أمسيا أم المسيح أم خرسته ؟ وهذه الالفاظ وان كان معناها واحدا لكن لا شك ان الذي قاله اندراوس هو واحد من هذه الثلاثة يقينا، واذا ذكر اللفظ والتفسير فلا بد من ذكر لفظ الاصل أولا، ثم من ذكر تفسيره، لكني أقطع النظر عن هذا وأقول: إن التفسير المشكوك فيه أيا ما كان إلحاقي ليس من كلام اندراوس

٧ - في الآية الثانية والاربعين من الباب الاول من انجيل يوحنا قول عيسى عليه السلام في حق بطرس الحواري في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا (أنت تدعى بيطرس الذي تأويله الصخرة) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ (ستسمى أنت بالصفا المفسر ببطرس) وفي الترجمة الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ (ترا بكيفاس كه ترجمة آن سنك است تداخو اهند كرد) أمطر الله حجارة على تحقيقهم وتصحيحهم لا يتميز المفسر من كلامهم عن المفسر، لكني أقطع النظر عن هذا وأقول: إن التفسير ليس من كلام المسيح عليه السلام، بل هو إلحاقي، واذا كان حال تراجمهم وحال تحقيقهم في لقب إلههم ولقب خليفته كما علمت فكيف نرجو منهم صحة بقاء لفظ محمدا وأحمدا أو لقب من ألقابه صلى الله عليه وسلم

(ثم قال بعد ايراد شواهد اخرى ما نصه):

فاذا كانت خصلة أهل الدين والديانة ما عرفت فما ظنك بغير أهل الديانة؟ بل الحق ان التحريف القصدي بالتبديل بالزيادة والنقصان من خصالهم كلهم أجمعين، فبعض الاخبار التي نقلها العلماء الاسلاف من أهل الاسلام، مثل الامام القرطبي وغيره اذا لم تجدها موافقة في بعض الالفاظ للتراجم المشهورة الآن فسببه غالبا هذا التغيير، لان هؤلاء العلماء من أهل الاسلام نقلوا عن الترجمة العربية التي كانت رائجة في عهدهم، وبعد زمانهم وقع الاصلاح في تلك الترجمة

ويحتمل أن يكون ذاك السبب اختلاف التراجم لكن الاول هو المعتمد لانا نرى ان هذه العادة جارية الى الآن في تراجمهم ورسائلهم، ألا ترى الى ميزان الحق الخ

﴿ الامر الثامن ﴾

إن بولس وان كان عند أهل التثليث فى رتبة الحواريين لكنه غير مقبول عندنا ولا نعده من المؤمنين الصادقين ، بل من المنافقين الكذابين ومعلمي الزور والرسل الخداعين الذين ظهروا بالكثرة بعد عروج المسيح كما عرفت فى الامر الرابع.وهو خرّب الدين المسيحي ، وأباح كل محرم لمعتقد به . وكان فى ابتداء الامر مؤذيا للطبقة الاولى من المسيحيين جهرا لكنه لما رأى هذا الايذاء الجهري لاينفع نفعا معتدأ به دخل على سبيل النفاق فى هذه الملة وادعى رسالة المسيح وأظهر الزهد الظاهري فعمل في هذا الحجاب ماعمل وقبله أهل التثليث لاجل زهده الظاهري ولاجل افراغ ذمتهم من جميع التكاليف الشرعية كما قبل أناس كثيرون من المسيحيين فى القرن الثاني منتش الذي كان زاهدا مرتاضا وادعى اني هو الفار قليط الموعود به فقبلوه لاجل زهده ورياضته كما سيجيء ذكره فى البشارة الثامنة عشر ورده المحققون من علماء الاسلام سلفا وخلفا

قال الامام القرطبي رحمه الله فى كتابه فى حق بولس هذا مجيبا لبعض القسيسين فى بحث مسئلة الصوم هكذا : « قلنا ذلك — أي بولس— هو الذي أفسد عليكم أديانكم، وأعمى بصائركم وأذهانكم، ذلك هو الذي غير دين المسيح الصحيح، الذي لم تسمعوا له بخبر ، ولا وقفتم منه على أثر ، هو الذي صرفكم عن القبلة، وحلل لكم كل محرم كان فى الملة، ولذلك كثرت أحكامه عندكم وتداولتموها بينكم » انتهى كلامه بلفظه .

وقال صاحب (تخجيل من حرف الانجيل) فى الباب التاسع من كتابه في بيان فضائح النصارى في حق بولس هذا هكذا « وقد سلهم بولس هذا من الدين بلطيف خداعه اذ رأى عقولهم قابلة لكل ما يلقى اليها وقد طمس هذا الخبيث رسوم التوراة » انتهى كلامه بلفظه وهكذا أقوال علمائنا الآخرين. فكلامه عندنا مردود ورسائله المنضمة بالعهد العتيق كلها واجبة الردولا نشتري

قوله بحبة خردل فلا انقل عن اقواله فى هذا المسلك شيأ ولا يكون قوله حجة علينا

واذ عرفت هذه الامور الثمانية أقول ان الاخبار الواقعة فى حق محمد صلى الله عليه وسلم توجد كثيرة الي الآن ايضا مع وقوع التحريفات في هذه الكتب ومن عرف اولا طريق أخبار النبي المتقدم عن النبي المتأخر على ماعرفت في الامر الثاني ثم نظر ثانيا بنظر الانصاف الى هذه الاخبار وقابلها بالاخبار التي نقلها الانجيليون في حق عيسى عليه السلام ـ وقد عرفت نبذا منها فيالامرالسادس ـ جزم بأن الاخبار المحمدية في غاية القوة . وانقل فى هذا المسلك عن الكتب المعتبرة عند علماء بروتستنت ثماني عشرة بشارة

(البشارة الاولى)

فى الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء (التثنيه) هكذا (١٧ فقال الرب لي نعم جميع ما قالوا ١٨ وسوف اقيم لهم نبيا مثلك من بين اخوتهم واجعل كلامي في فمه ويكلمهم بكل شيء آمره به ١٩ ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فانا اكون المنتقم من ذلك ٢٠ فاما النبي الذي يجتري بالكبرياء ويتكلم في اسمي ما لم آمره بانه يقوله ام باسم آلهة غيري فليقتل ٢١ فان اجبت وقلت في قلبك كيف استطيع ان اميز الكلام الذى لم يتكلم به الرب ٢٢ فهذه تكون لك آية ان ما قاله ذلك النبي في اسم الرب ولم يحدث فالرب لم يكن تكلم به بل ذلك النبي صوره في تعظم نفسه ولذلك لاتخشاه)

وهذه البشارة ليست بشارة بيوشع عليه السلام كما يزعم الآن احبار اليهود ولا بشارة بعيسى عليه السلام كمازعم علماء بروتستنت بل هى بشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم لعشرة أوجه

(الوجه الاول) قد عرفت فى الامر الثالث أن اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام كانوا ينتظرون نبيا آخر مبشرا به في هذا الباب وكان هذا المبشر به عندهم غير المسيح فلا يكون هذا المبشر به يوشع ولا عيسى عليهما السلام

(والوجه الثاني) انه وقع في هذه البشارة لفظ مثلك ويوشع وعيسي عليهما

السلام لا يصح ان يكونا مثل موسى عليه السلام أما أولا فلأنهما من بنى اسرائيل ولا يجوز ان يقوم أحد من بني اسرائيل مثل موسى كما تدل عليه الآية العاشرة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء (التثنية) وهى هكذا (١٠ ولم يقم بعد ذلك نبي في اسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجها لوجه» الخ وأما ثانيا فلانه لا مماثلة بين يوشع و بين موسى عليهما السلام لان موسى عليه السلام صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامر ونواهي ويوشع ليس كذلك بل هو متبع لشريعته، وكذا لا توجد المماثلة التامة بين موسى وعيسى عليهما السلام لان عيسى عليه السلام كان إلها وربا على زعم النصارى وموسى عليه السلام كان عبد الله وأن عيسى عليه السلام على زعمهم صار ملعونا لشفاعة الخلق كما صرح به بولس في الباب الثالث من رسالته الى أهل غلاطية وموسى عليه السلام ماصار ملعونا لشفاعتهم وأن عيسى عليه السلام دخل الجحيم بعد موته كما هو مصرح به في عقائد أهل التثليث وموسى عليه السلام مادخل الجحيم وان عيسى عليه السلام صلب على زعم النصاري ليكون كفارة لامته وموسى عليه السلام ماصار كفارة لامته بالصلب وأن شريعة موسى مشتملة على الحدود والتعزيرات وأحكام الغسل والطهارات والمحرمات من المأكولات والمشروبات بخلاف شريعة عيسى عليه السلام فانها فارغة عنها على مايشهد به هذا الانجيل المتداول بينهم وان موسى عليه السلام كان رئيسا مطاعا في قومه نفاذا لاوامره ونواهيه وعيسي عليه السلام لم يكن كذلك

(الوجه الثالث) انه وقع في هذه البشارة لفظ من بين اخوتهم ولا شك ان الاسباط الاثنى عشر كانوا موجودين في ذاك الوقت مع موسى عليه السلام حاضرين عنده فلو كان المقصود كون النبي المبشر به منهم لقال منهم لا «من بين اخوتهم» لان الاستعمال الحقيقي لهذا اللفظ ان لا يكون المبشر به له علاقة الصلبية والبطنية ببنى اسرائيل كما جاء لفظ الاخوة بهذا الاستعمال الحقيقي في وعد الله هاجر في حق اسمعيل عليه السلام في الآية الثانية عشر من الباب السادس عشر من سفر التكوين وعبارتها في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (وقبالة جميع اخوته ينصب المضارب) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا

(بحضرة جميع اخوته يسكن) وجاء بهذا الاستعمال ايضا في الاية الثامنة عشرة من الباب الخامس والعشرين من سفر التكوين في حق اسمعيل في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (متهى اخوته جميعهم سكن) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا (اقام بحضرة جميع اخوته) والمراد بالاخوة ههنا بنو عيسو واسحاق وغيرهم من ابناء ابراهيم عليه السلام. وفي الاية الرابعة عشرة من الباب العشرين من سفر العدد هكذا (ثم أرسل موسى رسلا من قادس الى ملك الروم قائلا : هكذا يقول أخوك اسرائيل انك قد علمت كل البلاء الذى أصابنا) وفي الباب الثاني من سفر (التثنية) هكذا (٢ وقال لي الرب ٤ ثم أوص الشعب انكم ستجوزون في تخوم اخوتكم بني عيسو الذين في ساعير وسيخشونكم ٨ فلما جزنا اخوتنا بني عيسو الذين يسكنون ساعير الخ) والمراد باخوة بني اسرائيل بنو عيسو ، ولا شك ان استعمال لفظ اخوة بني اسرائيل في بعض منهم كما جاء في بعض المواضع من التوراة استعمال مجازي ولا تترك الحقيقة ولا يصار الى المجاز مالم يمنع من الحمل على المعنى الحقيقي مانع قوي ويوشع وعيسى عليهما السلام كانا من بني اسرائيل فلا تصدق هذه البشارة عليهما

(الوجه الرابع) أنه قد وقع في هذه البشارة لفظ سوف أقيم ، ويوشع عليه السلام كان حاضراً عند موسى عليه السلام داخلا في بني اسرائيل نبيا في ذلك الوقت ، فكيف يصدق عليه هذا اللفظ

(الوجه الخامس) أنه وقع في هذه البشارة لفظ: اجعل كلامي في فمه ، وهو اشارة الى أن ذلك النبي ينزل عليه الكتاب ، والى أنه يكون أميا حافظا للكلام، وهذا لا يصدق على يوشع عليه السلام لانتفاء كلا الامرين فيه

(الوجه السادس) أنه وقع في هذه البشارة : ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به فأنا أكون المنتقم منه . فهذا الامر لما ذكر لتعظيم هذا النبي المبشر به فلا بد أن يمتاز ذلك المبشر به بهذا الامر عن غيره من الانبياء فلا يجوز أن يراد بالانتقام من المنكر العذاب الاخروي الكائن في جهنم أو المحن والعقوبات الدنيوية التي تلحق المنكرين من الغيب ، لان هذا الانتقام لا يختص بانكار

نبي دون نبي بل يعم الجميع ، فحينئذ يراد بالانتقام الانتقام التشريعي . فظهر منه ان هذا النبي يكون مأموراً من جانب الله بالانتقام من منكره فلا يصدق على عيسى عليه السلام، لان شريعته خالية عن أحكام الحدود والقصاص والتعزير والجهاد

(الوجه السابع) في الباب الثالث من كتاب الاعمال في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (١٩ فتوبوا وارجعوا كي تمحى خطاياكم ٢٠ حتى اذا تأتي أزمنة الراحة من قدام وجه الرب ويرسل المنادى به لكم وهو يسوع المسيح ٢١ الذى إياه ينبغي للسماء أن تقبله الى الزمان الذي يسترد فيه كل شيء تكلم به الله على أفواه أنبيائه القديسين منذ الدهر ٢٢ ان موسى قال : ان الرب إلهكم يقيم لكم نبيا من اخوتكم مثلي له تسمعون في كل مايكلمكم به ١٣ ويكون كل نفس لاتسمع ذلك النبي تهلك من الشعب) وفي الترجمة الفارسية . . . . .

﴿ حذفنا النص الفارسي استغناء عنه بما يذكره من مضمونه وهو قوله : ﴾

فهذه العبارة سيما بحسب التراجم الفارسية تدل صراحة على ان هذا النبي غير المسيح عليه السلام ، وان المسيح لابد أن تقبله السماء الى زمان ظهور هذا النبي ، ومن ترك التعصب الباطل من المسيحيين — وتأمل في عبارة بطرس ظهر له ان هذا القول من بطرس يكفي لابطال ادعاء علماء بروتستنت ان هذه البشارة في حق عيسى عليه السلام

وهذه الوجوه السبعة التي ذكرتها تصدق في حق محمد صلى الله عليه وسلم أكمل صدق لانه غير المسيح عليه السلام ، ويماثل موسى عليه السلام في أمور كثيرة (١) كونه عبدالله ورسوله (٢) كونه ذا والدين (٣) كونه ذا نكاح وأولاد (٤) كون شريعته مشتملة على السياسات المدنية (٥) كونه مأموراً بالجهاد (٦) اشتراط الطهارة وقت العبادة في شريعته (٧) وجوب الغسل للجنب والحائض والنفساء في شريعته (٨) اشتراط طهارة الثوب من البول والبراز فيها (٩) حرمة غير المذبوح وقرابين الاوثان فيها (١٠) كون شريعته مشتملة على العبادات البدنية والرياضات الجسمانية (١١) أمره بحد الزنا (١٢) تعيين الحدود والتعزيرات والقصاص (١٣) كونه قادراً على تنفيذها (١٤) تحريم الربا (١٥) أمره بانكار من

يدعو الى غير الله (١٦) أمره بالتوحيد الخالص (١٧) أمره الامة بأن يقولوا له عبد الله ورسوله لا ابن الله أو الله ، والعياذ بالله (١٨) موته على الفراش (١٩) كونه مدفونا كموسى (٢٠) عدم كونه ملعونا لاجل أمته

وهكذا أمور أخر تظهراذا تؤمل في شريعتهما ، ولذلك قال الله تعالى في كلامه المجيد (إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولا) وكان من اخوة بني اسرائيل لانه من بني اسماعيل وأنزل عليه الكتاب ، وكان أميا جعل كلام الله في فمه وكان ينطق بالوحي كما قال الله تعالى (وما ينطق عن الهوى * إن هو الا وحي يوحى) وكان مأموراً بالجهاد وقد انتقم الله لاجله من صناديد قريش والا كاسرة والقياصرة وغيرهم ، وظهر قبل نزول المسيح من السماء ، وكان للسماء أن تقبل المسيح عليه السلام الى ظهوره ليرد كل شيء الى أصله ، ويمحق الشرك والتثليث وعبادة الاوثان ، ولا يرتاب أحد من كثرة أهل التثليث في هذا الزمان الاخير ، لان هذا الصادق المصدوق قد أخبرنا على أتم تفصيل وأكمل وجه بحيث لا يبقى ريب ما بكثرتهم وقت قرب ظهور المهدي رضي الله عنه ، وهذا الوقت قريب ان شاء الله ، وسيظهر الامام ويظهر الحق عن قريب ويكون الدين كله لله ، جعلنا الله من أنصاره وخدامه آمين

(الوجه الثامن) انه صرح في هذه البشارة بأن النبي الذي ينسب الى الله مالم يأمره يقتل فلو لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم نبيا حقا لكان قتل ، وقد قال الله في القرآن المجيد أيضاً (ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين) وما قتل ، بل قال الله في حقه (والله يعصمك من الناس) وأوفى وعده ولم يقدر على قتله أحد حتى لقي الرفيق الاعلى صلى الله عليه وسلم ، وعيسى عليه السلام قتل وصلب على زعم أهل الكتاب . فلو كانت هذه البشارة في حقه لزم أن يكون نبيا كاذبا كما يزعمه اليهود ، والعياذ بالله

(الوجه التاسع) ان الله بين علامة النبي الكاذب (وهي) ان اخباره عن الغيب المستقبل لا يخرج صادقا ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أخبر عن الامور الكثيرة

المستقبلة كما علمت في المسلك الاول وظهر صدقه فيها (١) فيكون نبيا صادقا لا كاذبا

(الوجه العاشر) ان علماء اليهود سلموا كونه مبشراً به في التوراة لكن بعضهم أسلم وبعضهم بقي في الكفر - كما أن قيافا وكان رئيس الكهنة ونبيا على زعم يوحنا عرف أن عيسى هو المسيح الموعود به ولم يؤمن بل أفتى بكفره وقتله كما صرح به يوحنا في الباب الحادي عشر والثامن عشر من انجيله - كما روي من حديث مخيريق أنه كان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته وغلبت عليه إلفة دينه فلم يزل على ذلك حتى كان يوم (غزوة) أحد، وكان يوم السبت فقال : يامعشر اليهود والله انكم لتعلمون ان نصر محمد عليكم لحق. قالوا : فان اليوم يوم السبت؟ قال : لاسبت. ثم أخذ سلاحه وخرج حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأحد، وكان يوم السبت، وعهد الى من ورائه من قومه: ان قتلت هذا اليوم فمالي لمحمد يصنع فيه ما أراه الله تعالى، فقاتل حتى قتل، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «مخيريق خير يهودي» وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمواله، فعامة صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة منها — وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدارس(١) فقال «أخرجوا إلي أعلمكم» فقالوا: عبدالله ابن صوريا فخلا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فناشده بدينه وبما أنعم الله عليهم وأطعمهم من المن والسلوى وظللهم من الغمام «أتعلم أني رسول الله»؟ قال : اللهم نعم، وان اليهود يعرفون ما أعرف، وان صفتك ونعتك لمبين في التوراة ولكن حسدوك قال «فما يمنعك أنت»؟ قال : أكره خلاف قومي عسى أن

«١» ظهر صدق بعضها في زمنه كانتصاره على المشركين ودخوله المسجد الحرام مع المؤمنين، آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين وغلب الروم للفرس، وبعضها لاصحابه كفتح مصر وبلاد كسرى وقيصر، وقتل الفئة الباغية لعمار، ولا يزال يظهر الكثير منها عصرا بعد عصر ومن أغربها قوله «ص» «صنفان من اهل النار لم ارهما بعد: رجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، رؤسهن كأسنمة البخت المائلة لايدخلن الجنة ولا يجدن ريحها» الحديث رواه احمد ومسلم عن ابي هريرة مرفوعا. والسياط المذكورة هي الكرابيج والرءوس التي كأسنمة البخت هي التي يوضع عليها البرانيط وأشباهها (١) المدارس المدرس أي المعلم

يتبعوك ويسلموا فأسلم — وعن صفية بنت حيي رضي الله عنها: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل قباء غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر ابن أخطب مغلسين فلم يرجعا حتى كان غروب الشمس، فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا، فهششت اليهما فما التفت إلي أحد منهما مع ما بهما من الهم فسمعت عمي أبا ياسر يقول لابي: أهو هو؟ (أي المبشر به في التوراة) قال: نعم والله، قال: أتثبته وتعرفه؟ قال: نعم قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله مابقيت أبداً. — فتلك عشرة كاملة

(فان قيل) ان أخوة بني اسرائيل لاتنحصر في بني اسماعيل لان بني عيسو وبني أبناء قطورا زوجة ابراهيم عليهما السلام من اخوتهم أيضا (قلت) نعم هؤلاء أيضا من اخوة بني اسرائيل لكنهم لم يظهر أحد منهم يكون موصوفا بالامور المذكورة، ولم يكن وعد الله في حقهم أيضا بخلاف بني اسماعيل فانهم كان وعد الله في حقهم لابراهيم ولهاجر عليهما السلام مع أنه لايصح أن يكون مصداق هذا الخبر بني عيسو على ما هو مقتضى دعاء اسحق عليه السلام المصرح به في الباب السابع والعشرين من سفر التكوين.

ولعلماء بروتستنت اعتراضان نقلهما صاحب الميزان في كتابه المسمى بحل الاشكال في جواب الاستفسار (الاول) انه وقع في الآية ١٥ من الباب ١٨ من سفر الاستثناء (التثنية) هكذا (فان الرب الهك يقيم من بينك من بين اخوتك) الخ، فلفظ من بينك يدل دلالة ظاهرة على أن هذا النبي يكون من بني اسرائيل لا من بني اسماعيل (والثاني) ان عيسى عليه السلام نسب هذه البشارة الى نفسه فقال في الآية ٤٦ من الباب الخامس من انجيل يوحنا: ان موسى كتب في حقي

(أقول) آية (التثنية) على وفق التراجم الفارسية وتراجم اردو هكذا (فان الرب الهك يقيم من بينك من بين اخوتك نبيا مثلي فاسمع منه) والقسيس أيضا نقلها هكذا. والجواب ان اللفظ المذكور لاينافي مقصودنا لان محمداً عليه السلام لما هاجر الى المدينة وبها تكامل أمره فقد كان حوله بلاد اليهود كخيبر وبني قينقاع والنضير وغيرهم فقد قام من بينهم، ولانه اذا كان من اخوتهم فقد قام من بينهم، ولان قوله

من بين اخوتك بدل من قوله من بينك بدل اشتمال على رأي ابن الحاجب ومتبعيه القائلين بكفاية علاقة الملابسة غير الكلية والجزئية في تحقق هذا البدل نحو جاءني زيد أخوه، وجاءني زيد غلامه، وبدل اضراب على رأي ابن مالك، والمبدل منه على كلا التقديرين غير مقصود، ويدل على كونه غير مقصود أن موسى عليه السلام لما أعاد هذا الوعد من كلام الله في الآية الثامنة عشرة لم يوجد فيه لفظ من بينك، ونقل بطرس الحواري أيضا هذا القول ولم يوجد فيه هذا اللفظ كما علمت في الوجه السابع، وكذا نقله استفانوس أيضا ولم يوجد في نقله أيضا هذا اللفظ كما صرح به في الباب السابع من كتاب الاعمال وعبارته هكذا (هذا هو موسى الذي قال لبني اسرائيل نبيا مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من اخوتكم له تسمعون) فسقوطه في هذه المواضع دليل على كونه غير مقصود فاحتمال البدل قوي جدا،

وقال صاحب الاستفسار: إن لفظ من بينك إلحاقي زيد تحريفا ويدل عليه ثلاثة أمور (الاول) ان المخاطبين في هذا الموضوع كانوا بني اسرائيل كلهم لا البعض فقوله: من بينك خطاب لجميع القوم فصار لفظ من اخوتك لغواً محضاً لا معنى له، لكن لفظ من اخوتك جاء في الموضع الآخر أيضا فيكون صحيحاً، ولفظ من بينك إلحاقيا زيد تحريفاً (الثاني) ان موسى عليه السلام لما نقل كلام الله لاثبات قوله لم يوجد فيه هذا اللفظ ولا يجوز أن يكون ماقال موسى مخالفا لما قاله الله (والثالث) ان الحواريين كلما نقلوا هذا الكلام لم يوجد فيه لفظ من بينك. وان قلتم ان المحرف اذا حرف فلم لم يحرف الكلام كله؟ (قلت) نحن نرى في محاكم العدالة دائما ان القبالجات المحرفة يثبت تحريف الالفاظ المحرفة فيها من مواضع أخرى منها غالبا(١) وان شهود الزور يؤخذ ببعض بياناتهم. فالوجه الوجيه على ان عادة الله جارية بأنه لا يهدي كيد الخائنين وبأنه يظهر خيانة خائن الدين بمقتضى رحمته، فبمقتضى هذه العادة يصدر عن الخائن شيء ما نظهر به خيانته، على أنه لا توجد ملة يكون أهلها كلهم خائنين. فالخائنون الذين حرفوا كتب المهديين كان لهم لحاظ ما(٢) من جانب بعض المتدينين فلذلك ما بدلوا الكل انتهى

«١» لعل معنى القبالجات الوثائق والمستندات ومعنى الجملة أنها على وجود التحريف فيها يحتج ببعض عباراتها على اثبات التحريف فيها، وكنا على [illegible]

«٢» لعله اراد ان يقول: كان عليهم عيون ورقباء.

أقول هذا الجواب بالنسبة الى عادة أهل الكتاب كما عرفت في الامر السابع . وأقول في الجواب عن الاعتراض الثاني ان آية الانجيل هكذا (لانكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونني لانه هو كتب عني) وليس فيها تصريح بأن موسى عليه السلام كتب في حقه في الموضع الفلاني بل المفهوم منه ان موسى كتب في حقه (مطلقا) وهذا يصدق اذا وجد في موضع من التوراة إشارة اليه ، ونحن نسلم هذا الامر كما ستعرف في ذيل بيان البشارة الثالثة لكننا ننكر أن يكون قوله إشارة الى هذه البشارة للوجوه التي عرفتها ، وقد ادعى هذا المعترض في الفصل الثالث من الباب الثاني من الميزان ان الآية الخامسة عشرة من الباب الثالث من سفر التكوين اشارة اليه ، فهذا القدر يكفي لتصحيح قول عيسى عليه السلام ، نعم لو قال عيسى عليه السلام ان موسى عليه السلام ما أشار في أسفاره الخمسة الى نبي من الانبياء الا الي لكان لهذا التوهم مجال في هذه الحال

﴿ البشارة الثانية ﴾

الآية ٢١ من الباب ٣٢ من سفر الاستثناء (التثنية) هكذا (هم أغاروني بغير إله وأغضبوني بمعبوداتهم الباطلة وأنا أيضا أغيرهم بغير شعب وبشعب جاهل أغضبهم) والمراد بشعب جاهل العرب لأنهم كانوا في غاية الجهل والضلال وما كان عندهم علم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية ، وما كانوا يعرفون سوى عبادة الاوثان والاصنام ، وكانوا محقرين عند اليهود لكونهم من هاجر الجارية . فمقصود الآية ان بني اسرائيل أغاروني بعبادة المعبودات الباطلة فأغيرهم باصطفاء الذين هم عندهم محقرون وجاهلون . فأوفى بما وعد ، فبعث من العرب النبي صلى الله عليه وسلم فهداهم الى الصراط المستقيم كما قال الله تعالى في

الحكماء المشهورين مثل سقراط و بقراط وفيثاغورس وأفلاطون وارسطاطاليس وارشميدس وبليناس وأقليدس وجالينوس وغيرهم الذين كانوا أئمة الالهيات والرياضيات والطبيعيات وفروعها قبل عيسى عليه السلام ، وكان اليونانيون في عهده على غاية درجة الكمال في فنونهم . وكانوا واقفين على أحكام التوراة وقصصها، وعلى سائر كتب العهد العتيق أيضاً بواسطة ترجمة سبتوجنت التي ظهرت باللسان اليوناني قبل المسيح بمقدار مائتين وست وثمانين سنة ، لكنهم ما كانوا معتقدين للملة الموسوية ، وكانوا متفحصين عن الاشياء الحكمية الجديدة كما قال مقدسهم هذا في الباب الاول من الرسالة الاولى الى أهل قورنيثوس هكذا (٢٢ لان اليهود يسألون آية واليونانيين يطلبون حكمة ٢٣ ولكننا نحن نكرز بالمسيح مصلوبا لليهودعثرة ولليونانيين جهالة) فلا يجوز أن يكون المراد بالشعب الجاهل اليونانيين ، فكلام مقدسهم في الرسالة الرومية إما مؤول أو مردود — وقد عرفت في الامر الثامن ان قوله ساقط عن الاعتبار عندنا

﴿ البشارة الثالثة ﴾

في الباب الثالث والثلاثين (* من سفر (التثنية) في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (٢ وقال: جاء الرب من سينا وأشرق لنا من ساعير (١) واستعلن من جبل فاران ومعه ألوف الاطهار في يمينه سنة من نار (٢)) فمجيئه من سينا اعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام واشراقه من ساعير اعطاؤه الانجيل لعيسى عليه السلام واستعلانه من جبل فاران انزاله القرآن ، لان فاران جبل من جبال مكة ، فقد جاء في بيان حال اسماعيل عليه السلام من سفر التكوين (٢١ : ٢٠ وكان الله معه ونما وسكن في البرية وصار شابا يرمي بالسهام ٢١ وسكن برية فاران وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر) ولا شك ان اسماعيل عليه السلام

*) هذا الباب هو الاخير من سفر التثنية وفي الآية الاولى منه ان هذه البشارة قالها موسى قبل موته مباركا بها بني اسرائيل «١» في التراجم الاخيرة سعير بالكسر والمراد بها واحد وفيها زيادة وأتي من «٢» المراد بالسنة الشريعة . وترجمة الجزويت «عن يمينه قبس شريعة لهم » ربوات القدس وليس فيها الوف الاطهار

كانت سكناه بمكة ، ولا يصح أن يراد ان النار لما ظهرت من طورسيناء ظهرت من ساعير ومن فاران أيضا ، فانتشرت في هذه المواضع ، لان الله لو خلق ناراً في موضع لا يقال جاء الله من ذلك الموضع الا اذا اتبع تلك الواقعة وحي نزل في ذلك الموضع أو عقوبة أو ما أشبه ذلك . وقد اعترفوا بأن الوحي اتبع تلك (النار التي رآها موسى) في طورسيناء فكذا لا بد أن يكون في ساعير وفاران

﴿ البشارة الرابعة ﴾

في الآية العشرين من الباب السابع عشر من سفر التكوين وعد الله في حق اسماعيل عليه السلام لابراهيم عليه السلام في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (وعلى اسماعيل أستجيب لك ، هوذا أباركه وأكبره وأكثره جدا فسيلد اثنى عشر رئيسا واجعله لشعب كبير) قوله اجعله لشعب كبير يشير الى محمد صلى الله عليه وسلم لانه لم يكن في ولد اسماعيل من كان لشعب كبير غيره . وقد قال الله تعالى حاكيا دعاء ابراهيم واسماعيل في حقه عليهم السلام في كلامه المجيد أيضا (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم)

وقال الامام القرطبي في الفصل الاول من القسم الثاني من كتابه : وقد تفطن بعض النبهاء ممن نشأ على لسان اليهود وقرأ بعض كتبهم فقال : يخرج مما ذكر من عبارة التوراة في موضعين اسم محمد صلى الله عليه وسلم بالعدد على ما يستعمله اليهود فيما بينهم (الاول) قوله جدا جدا بتلك اللغة «بمادماد» وعدد هذه الحروف اثنان وتسعون ، لان الباء اثنان والميم أربعون والالف واحد والدال أربعة والميم الثانية أربعون والالف واحد والدال أربعة ، وكذلك الميم من محمد أربعون والحاء ثمانية والميم أربعون والدال أربعة (١)

(والثاني) قوله لشعب كبير بتلك اللغة «لغوي غدول» فاللام عندهم ثلاثون والغين ثلاثة ـ لانه عندهم في مقام الجيم ، إذ ليس في لغتهم جيم ولا صاد ـ والواو

«١» يؤيد هذا ما روي عن احبار اليهود المجاورين للمدينة في زمن البعثة من ظنهم ان الحروف المقطعة في اوائل بعض السور لبيان اجل الأمة الاسلامية

ستة والياء عشرة والغين أيضا ثلاثة والدال أربعة والواو ستة واللام ثلاثون فمجموع هذه أيضا اثنان وتسعون ، انتهى كلامه بتلخيص ما

وعبد السلام كان من أحبار اليهود ثم أسلم في عهد السلطان المرحوم بايزيد خان ، وصنف رسالة صغيرة سماها بالرسالة الهادية فقال فيها « ان أكثر أدلة أحبار اليهود بحرف الجمل الكبير ، وهو حرف أبجد ، فان أحبار اليهود حين بنى سليمان النبي عليه السلام بيت المقدس اجتمعوا وقالوا : يبقى هذا البناء أربعمائة وعشرة سنين ، ثم يعرض له الخراب ، لانهم حسبوا لفظة « بزأت » ثم قال : « واعترضوا على هذا الدليل بأن الباء في بمادماد ليست نفس الكلمة بل هي أداة وحرف جيء به للصلة فلو أخرج منه لاحتاج اسم محمد الى باء ثانية ويقال : ببمادماد (قلنا) من المشهور عندهم اذا اجتمع الباآن (إحدهما) أداة (والآخر) من نفس الكلمة تحذف الاداة وتبقى التي هي من نفس الكلمة ، وهذا شائع عندهم في مواضع غير معدودة فلا حاجة الى ايرادها » انتهى كلامه بلفظه

أقول: قد صرح العلماء بأن من أسمائه صلى الله عليه وسلم مادماد كما في شفاء القاضي عياض

﴿ البشارة الخامسة ﴾

جاء في ترجمات سنة ١٧٢٢ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ العربية من سفر التكوين (٤٩ : ١٠ فلا يزول القضيب من يهوذا والمدبر من فخذه حتى يجيء الذي له الكل واياه تنتظر الامم) وفي ترجمة سنة ١٨١١ (فلا يزول القضيب من يهوذا والراسم من تحت أمره الى أن يجيء الذي هو له واليه تجتمع الشعوب) ولفظ الذي له الكل أو الذي هو له ترجمة لفظ « شيلوه » وفي ترجمة هذا اللفظ اختلاف كثير فيما بينهم كما عرفت في الامر السابع أيضا . وقال عبد السلام في الرسالة الهادية هكذا (لا يزول الحاكم من يهوذا ولا راسم من بين رجليه حتى يجيء الذي له واليه تجتمع الشعوب) وفي هذه الآية دلالة على مجيء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بعد تمام حكم موسى وعيسى ، لان المراد من الحاكم هو موسى ، لانه بعد يعقوب ماجاء صاحب شريعة الى زمان موسى الا موسى ، والمراد من الراسم هو عيسى لانه بعد موسى الى زمان عيسى ماجاء صاحب شريعة الا عيسى ، وبعدهما ماجاء صاحب شريعة

الا محمد . فعلم ان المراد من قول يعقوب في آخر الايام هو نبينا محمد عليه السلام لانه في آخر الزمان بعد مضي حكم الحاكم والراسم ماجاء الا سيدنا محمد عليه السلام ويدل عليه أيضا قوله حتى يجيء الذي له أي الحكم بدلالة مساق الآية وسباقها وأما قوله (واليه تجتمع الشعوب) فهي علامة صريحة ودلالة واضحة على ان المراد منها هو سيدنا (محمد) لانه ما اجتمع الشعوب الا اليه ، وانما لم يذكر الزبور لانه لا أحكام فيه ، وداود النبي تابع لموسى ، والمراد من خبر يعقوب هو صاحب الاحكام » انتهى كلامه بلفظه

أقول : انما أراد من الحاكم موسى عليه السلام لان شريعته جبرية انتقامية ، ومن الراسم عيسى عليه السلام لان شريعته ليست بجبرية ولا انتقامية . وان أريد من القضيب السلطنة الدنيوية ، ومن المدبر الحاكم الدنيوي ـ كما يفهم من رسائل القسيسين من فرقة بروتستنت ومن بعض تراجمهم ـ فلا يصح أن يراد بشيلوه مسيح اليهود كما هو مزعومهم ، ولا عيسى عليه السلام كما هو مزعوم النصارى (أما الاول) فظاهر لان السلطنة الدنيوية والحاكم الدنيوي زالا من آل يهوذا من مدة هي أزيد من ألفي سنة من عهد بخت نصر ، ولم يسمع الى الآن حسيس مسيح اليهود (وأما الثاني) فلأنهما زالا من آل يهوذا أيضا قبل ظهور عيسى عليه السلام بمقدار ستمائة سنة من عهد بخت نصر ، وهو أجلى بني يهوذا الى بابل ، وكانوا في الجلاء ثلاثا وستين سنة لا سبعين كما يقول بعض علماء بروتستنت تغليطا للعوام — كما عرفت في الفصل الثالث من الباب الاول — ثم وقع عليهم في عهد انتيوكس ما وقع فانه عزل أونياس حبر اليهود وباع منصبه لاخيه ياسون بثلثمائة وستين وزنة ذهب يقدمها له خراجا كل سنة ، ثم عزله وباع ذلك لاخيه مينالاوس بستمائة وستين وزنة ، ثم شاع خبر موته فطلب ياسون أن يسترد لنفسه الكهنوت ، ودخل أورشليم بألوف من الجنود فقتل كل من كان يظنه عدوا له — وهذا الخبر كان كاذبا — فهجم أنتيوكس على أورشليم وامتلكها ثانية في سنة ١٧٠ قبل ميلاد المسيح وقتل من أهلها أربعين ألفا ، وباع مثل ذلك عبيداً . وفي الفصل العشرين من الجزء الثاني من مرشد الطالبين في بيان

الجدول التاريخي في الصفحة ٤٨١ من النسخة المطبوعة سنة ١٨٥٢ من الميلاد (انه نهب أورشليم وقتل ثمانين ألفاً) انتهى. وسلب ما كان في الهيكل من الامتعة النفيسة التي كانت قيمتها ثمانمائة وزنة ذهب ، وقرب خنزيرة وقوداً على المذبح للاهانة ، ثم رجع الى إنطاكية وأقام فيلبس أحد الاراذل حاكماً على اليهودية — وفي رحلته الرابعة الى مصر أرسل أبولونيوس بعشرين ألفاً من جنوده وأمرهم أن يخربوا أورشليم ويقتلوا كل من فيها من الرجال ويسبوا النساء والصبيان فانطلقوا الى هناك ، وبينما كان الناس في المدينة مجتمعين للصلاة يوم السبت هجموا عليهم على غفلة ، فقتلوا الكل الا من أفلت الى الجبال أو اختفى في المغاور ونهبوا أموال المدينة وأحرقوها ، وهدموا أسوارها وخربوا منازلها ، ثم ابتنوا لهم من بسائط ذلك الهدم قلعة حصينة على جبل اكرا ، وكانت العساكر تشرف منها على جميع نواحي الهيكل ، ومن دنا منهم يقتلونه ، ثم أرسل انتيوكس اثانيوس ليعلم اليهود طقوس عبادة الاصنام اليونانية ، ويقتل كل من لا يمتثل ذلك الامر ، فجاء أثانيوس الى أورشليم ، وساعده على ذلك بعض اليهود الكافرين ، وأبطل الذبيحة اليومية ، ونسخ كل طاعة الدين اليهودي عموماً وخصوصاً ، وأحرق كل ما وجده من نسخ كتب العهد العتيق بالفحص التام ، وكرس الهيكل للمشتري ، ونصب صورة ذلك على مذبح اليهود ، وأهلك كل من وجده مخالف أمر أنتيوكس ، ونجا متاثياس الكاهن مع أبنائه الخمسة في هذه الداهية وفروا الى وطنهم مودين في سبط دان ، فانتقم من هؤلاء الكفار انتقاما ما قدروا عليه على استطاعته كما هو مصرح به في التواريخ ، فكيف يصدق هذا الخبر على عيسى عليه السلام ؟

وان قالوا ان المراد ببقاء السلطنة والحكومة امتياز القوم كما يقول بعضهم الآن (قلنا) هذا الامر كان باقياً الى ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ، وكانوا في أقطار العرب ذوي حصون وأملاك غير مطيعين لاحد ، مثل يهود خيبر وغيرهم كما تشهد به التواريخ ، وبعد ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ضربت عليهم الذلة المسكنة ، وصاروا في كل اقليم مطيعين للغير — فلا يليق أن يكون المراد بشيلوه النبي صلى الله عليه وسلم لامسيح اليهود ولا عيسى عليه السلام

﴿ البشارة السادسة ﴾

الزبور الخامس والار بعون هكذا (١ــ فاض قلبي كلمة صالحة أنا أقول أعمالي للملك ٢ لساني قلم كاتب سريع الكتابة ٣ بهي في الحسن أفضل من بني البشر ٤ انسكبت النعمة على شفتيك لذلك باركك الله الى الدهر ٤ تقلد سيفك على فخذك أيها القوي بحسنك وجمالك ٥ استله وانجح واملك من أجل الحق والدعة والصدق وتهديك بالعجب يمينك ٦ نبلك مسنونة أيها القوي في قلب أعداء الملك، الشعوب تحتك يسقطون ٧ كرسيك ياألله الى دهر الداهرين، عصا الاستقامة عصا ملكك ٨ أحببت البر وأبغضت الاثم لذلك مسحك الله إلهك بدهن الفرح أفضل من أصحابك ٩ المر والميعة والسليخة من ثيابك، من منازلك الشريفة العاج التي أبهجتك ١٠ بنات الملوك في كرامتك ، قامت الملكة من عن يمينك مشتملة بثوب مذهب موشى ١١ اسمعي يا بنت وانظري وأنصتي بأذنيك وانسي شعبك وبنت أبيك ١٢ فيشتهي الملك حسنك لانه هو الرب إلهك وله تسجدين ١٣ بنات صور يأتينك بالهدايا ، لوجهك يصلي كل أغنياء الشعب ١٤ كل مجد ابنة الملك من داخل مشتملة بلباس الذهب الموشى ١٥ يبلغن الى الملك عذارى في أثرها قريباتها اليك يقدمن ١٦ يبلغن بفرح وابتهاج يدخلن الى هيكل الملك ١٧ ويكون بنوك عوضا من آبائك وتقيمهم رؤساء على سائر الارض ١٨ سأذكر اسمك في كل جيل وجيل من أجل ذلك تعترف لك الشعوب الى الدهر والى دهر الداهرين)

من المسلم عند أهل الكتاب أن داود عليه السلام يبشر في هذا الزبور بنبي يكون ظهوره بعد زمانه ، ولم يظهر الى هذا الحين عند اليهود نبي يكون موصوفا بالصفات المذكورة في هذا الزبور ، ويدعي علماء بروتستنت أن هذا النبي عيسى عليه السلام ، و يدعي أهل الاسلام سلفاً وخلفاً أن هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم

فأقول : انه ذكر في هذا الزبور من صفات النبي المبشر به هذه الصفات :

١ـ كونه حسناً ٢ كونه أفضل البشر ٣ كون النعمة منسكبة على شفتيه ٤ كونه مباركا الى (آخر) الدهر ٥ كونه متقلداً بالسيف ٦ كونه قويا ٧ كونه ذا حق ودعة وصدق ٨ كون هداية يمينه بالعجب ٩ كون نبله مسنونة ١٠ سقوط الشعب تحته ١١ كونه محبا للبر ومبغضاً للاثم ١٢ خدمة بنات الملوك إياه ١٣ إتيان الهدايا اليه ١٤ انقياد كل أغنياء الشعب له ١٥ كون أبنائه رؤساء الارض بدل آبائهم ١٦ كون اسمه مذكوراً جيلا بعد جيل ١٧ مدح الشعوب إياه الى دهر الداهرين

وهذه الاوصاف كلها توجد في محمد صلى الله عليه وسلم على أكمل وجه

أما الاول فلأن أبا هريرة رضي الله عنه قال : ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كأن الشمس تجري في وجهه ، واذا ضحك يتلألأ في الجدار — وعن أم معبد رضي الله عنها قالت : في بعض ماوصفته به : أجمل الناس من بعيد ، وأحلاه وأحسنهم من قريب

وأما الثاني فلان الله تعالى قال في كلامه الحكم (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) الآية . وقال أهل التفسير : أراد بقوله (ورفع بعضهم درجات) محمداً صلى الله عليه وسلم أي رفعه على سائر الانبياء من وجوه متعددة ، وقد أشبع الكلام في تفسير هذه الآية الامام الهمام الفخر الرازي في تفسيره الكبير ، وقال صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » أي لا أقول ذلك فخراً لنفسي بل تحدثاً بنعمة ربي

وأما الثالث فغير محتاج الى البيان حتى أقر بفصاحته الموافق والمخالف وقال الرواة في وصف كلامه : انه كان أصدق الناس لهجة ، فكان من الفصاحة بالمحل الافضل والموضع الاكمل

وأما الرابع فلأن الله قال (إن الله وملائكته يصلون على النبي) وألوف ألوف من الناس يصلون عليه في الصلوات الخمس (وغيرها)

وأما الخامس فظاهر ، وقد قال هو بنفسه « أنا رسول الله بالسيف »

وأما السادس : فكانت قوته الجسمانية على الكمال كما ثبت ان ركانة خلا برسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض شعاب مكة قبل أن يسلم فقال « ياركانة

ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك اليه » ؟ فقال : لو أعلم والله ما تقول حقا لاتبعتك فقال « أرأيت إن صرعتك أتعلم أن ما أقول حق » قال : نعم ، فلما بطش به صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أضجعه لايملك من أمره شيئاً ، ثم قال: يامحمد عد فصرعه أيضاً فقال: يامحمد إن ذا لعجب ! فقال صلى الله عليه وسلم« وأعجب من ذلك إن شئت اريكه إن اتقيت الله وتبعت أمري » قال : ماهو ؟ قال « أدعو لك هذه الشجرة » فدعاها فأقبلت حتى وقفت بين يديه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال لها « ارجعي مكانك » فرجع ركانة الى قومه فقال : يابني عبد مناف ما رأيت أسحر منه ثم أخبرهم بما رأى . وركانة هذا كان من الاقوياء والمصارعين المشهورين (١)

وأما شجاعته فقد قال ابن عمر رضي الله عنهما : ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال علي كرم الله وجهه : وانا كنا اذا حمي البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب الى العدو منه . ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا الى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً

وأما السابع : فلان الامانة والصدق من الصفات الجبلية له صلى الله عليه وسلم كما قال النضر بن الحارث لقريش : قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى اذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم انه ساحر ، لا والله ماهو بساحر — وسأل هرقل عن حال النبي صلى الله عليه وسلم أبا سفيان فقال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا

وأما الثامن : فلانه رمى يوم بدر ، وكذا يوم حنين وجوه الكفار بقبضة

(١) قال الحافظ في الاصابة قال ابن حبان في اسناد خبره وفي المصارعة نظر : يشير الى الحديث الذي أخرجه أبو داود والترمذي من رواية أبي الحسن العسقلاني عن جعفر بن محمد بن ركانة عن أبيه ... الحديث قال الترمذي غريب وليس اسناده بقائم اه أقول ورواه البيهقي من طريق ابن اسحق عن أبيه وعن ركانة وأخرجه هو وأبو نعيم عن ابي امامة مطولا وفيه زيادة مجيء الشجرة ، وان ركانة لم يكن يصرعه احد

تراب فلم يبق مشرك الا شغل بعينه ، فانهزموا وتمكن المسلمون منهم قتلا وأسراً فأمثال هذه من عجيب هداية يمينه

وأما التاسع : فلان كون اولاد إسماعيل أصحاب النبل في سالف الزمان ، غير محتاج الى البيان ، وكان هذا الامر مرغوبا له ، وكان يقول « ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه » ويقول « ارموا بني اسماعيل فان أباكم كان راميا » ويقول عليه السلام « من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا »

وأما العاشر : فلان الناس دخلوا أفواجا أفواجا في دين الله في مدة حياته

وأما الحادي عشر: فمشهور يعترف به المعاندون أيضا كما عرفت في المسلك الثاني

وأما الثاني عشر : فقد صارت بنات الملوك والامراء خادمة للمسلمين في الطبقة الاولى ، ومنها شهر بانو بنت يزد جرد كسرى فارس كانت تحت الامام الهمام الحسين رضي الله عنه

وأما الثالث عشر والرابع عشر : فلان النجاشي ملك الحبشة ومنذر بن ساوى ملك البحرين وملك عمان انقادوا وأسلموا ، وهرقل قيصر الروم أرسل اليه بهدية ، والمقوقس ملك القبط أرسل اليه ثلاث جوار وغلاماً أسود وبغلة شهباء وحماراً أشهب وفرساً وثيابا وغيرها

وأما الخامس عشر : فقد وصل من أبناء الامام الحسن رضي الله عنه الى الخلافة وألوف في أقاليم مختلفة من الحجاز واليمن ومصر والمغرب والشام وفارس والهند وغيرها ، وفازوا بالسلطنة والامارة العالية ، والى الآن أيضا في ديار الحجاز واليمن وفي غيرها توجد الامراء والحكام من نسله صلى الله عليه وسلم ، وسيظهر ان شاء الله المهدي رضي الله عنه من نسله ، ويكون خليفة الله في الارض ويكون الدين كله لله في عهده الشريف

وأما السادس عشر والسابع عشر: فلانه ينادي ألوف ألوف جيلا بعد جيل في الاوقات الخمسة بصوت رفيع في أقاليم مختلفة : أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله ، ويصلي عليه في الاوقات المذكورة غير المحصورين من المصلين،والقراء يحفظون منشوره ، والمفسرون يفسرون معاني فرقانه ، والوعاظ

يبلغون وعظه ، والعلماء والسلاطين يصلون الى خدمته ، و يسلمون عليه من وراء الباب و يمسحون وجوههم بتراب روضته ويرجون شفاعته

ولا يصدق هذا الخبر في حق عيسى عليه السلام كما يدعيه علماء بروتستنت ادعاء باطلا ، لانهم يشيرون الى الخبر المندرج في الباب الثالث والخمسين من كتاب أشعيا في حق عيسى عليه السلام ، وهذا نصه : ليس له منظر وجمال ، ورأيناه ولم يكن له منظر واشتهيناه مهاناً ، وآخر الرجال رجل الاوجاع مختبراً بالامراض ، وكان مكتوماً وجهه ومرذولا ولم نحسبه ونحن حسبناه كأبرص ومضروبا من الله ومخضوعا ، والرب شاء أن يسحقه(١

وهذه الاوصاف ضد الاوصاف التي في الزبور المذكور فلا يصدق عليه كونه حسناً ولا كونه قويا ، وكذا لا يصدق عليه كونه متقلداً بالسيف ، ولا كون نبله مسنونة ، ولا انقياد الاغنياء له ، ولا إرسالهم اليه الهدايا ، بل هم على زعم النصارى أخذوه وأهانوه واستهزؤا به وضربوه بالسياط ثم صلبوه ، وما كان له زوجة ولا ابن ، فلا يصدق دخول بنات الملوك في بيته ، ولا كون أبنائه بدل آبائه رؤساء الارض

﴿ فائدة ﴾ ترجمة الآية الثامنة التي نقلتها مطابقة للترجمة الفارسية للزبور التي كانت عندي ، ولتراجم اردو للزبور وموافقة لنقل مقدسهم بولس لانه نقل هذه الآية في الباب الاول من رسالته العبرانية هكذا ترجمة عربية سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ (أحببت البر وأبغضت الاثم لذلك مسحك الله إلهك بدهن الفرح أفضل من أصحابك) والتراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١ وتراجم اردو المطبوعة سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤١ مطابقة للتراجم العربية ، فالترجمة التي تكون مخالفة لما نقلت تكون غير صحيحة ، ويكفي لردها إلزاما كلام مقدسهم ، وقد عرفت في مقدمة الباب الرابع إن إطلاق لفظ الاله والرب وأمثالها جاء على العوام فضلا عن الخواص . والآية السادسة من من الزبور الثاني والثمانين هكذا (أنا قلت انكم آلهة و بنو العلي كلكم) فلا يرد

(١) ان ترجمة الامير كان الاخيرة وترجمة الجز ويت تخالف هذه الترجمة في بعض العبارات كما هو شأنهم في جميع الترجمات ولذلك وضع صاحب اظهار الحق التنبيه الآتي

ما قال صاحب مفتاح الاسرار انه وقع في الآية المذكورة هكذا (أحببت البر وأبغضت الشر من أجل ذلك ياالله مسح إلهك بدهن البهجة أفضل من رفقائك) ولا يقال لشخص غير المسيح ياالله مسيح الملك الخ ، لانا لانسلم أولا صحة ترجمته لكونها مخالفة لكلام مقدسهم (وثانياً) لو قطعنا النظر عن عدم صحتها أقول ادعاؤه صريح البطلان لان لفظ الله ههنا بالمعنى المجازي لا الحقيقي ، ويدل عليه قوله الملك ، لان الاله الحقيقي لا اله له ، فاذا كان بالمعنى المجازي يصدق في حق محمد صلى الله عليه وسلم كما يصدق في حق عيسى عليه السلام(١)

(قد حذفنا من هنا ٦ بشارات من ٧-١٢ للاختصار)

﴿ البشارة الثالثة عشرة ﴾

في الباب الثالث من انجيل متي هكذا (١ وفي تلك الايام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية ٢ قائلا : توبوا لانه قد اقترب ملكوت السموات) وفي الباب الرابع من انجيل متى هكذا (١٢ ولما سمع يسوع ان يوحنا أسلم انصرف الى الجليل . . . ١٧ من ذلك الزمن ابتدأ يسوع يكرز ويقول : توبوا لانه قد اقترب ملكوت السموات... ٢٣ وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت) الخ وفي الباب السادس من انجيل متى في بيان الصلاة التي علمها عيسى عليه السلام تلاميذه هكذا (١٠- ليأت ملكوتك) ولما أرسل الحواريين الى البلاد الاسرائيلية للدعوة والوعظ وصاهم بوصايا منها هذه الوصية أيضاً (وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين : انه قد اقترب ملكوت السموات) كما هو مصرح به في الباب العاشر من انجيل متى ، ووقع في الباب التاسع من انجيل لوقا هكذا (١ ودعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم قوة وسلطانا على جميع الشياطين وشفاء أمراض ٢ وأرسلهم ليكرزوا بملكوت الله ويشفوا المرضى) وفي الباب العاشر من انجيل لوقا هكذا (١ و بعد ذلك عين الرب سبعين آخرين أيضاً وأرسلهم) الخ (فقال لهم) الخ (٨ وأية مدينة دخلتموها وقبلوكم فكلوا مما يقدم

«١» اي من جهة العبارة فيبقى ما تقدم من المرجحات لارادة محمد «ص»

لكم ٩ واشفوا المرضى الذين فيها وقولوا لهم : قد اقترب منكم ملكوت الله ١٠ وأية مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا الى شوارعها وقولوا ١١ حتى الغبار الذي لصق بنا من مدينتكم ننفضه لكم ، ولكن اعلموا هذا أنه قد اقترب منكم ملكوت الله) — فظهر ان كلا من يحيى وعيسى والحواريين والتلاميذ السبعين بشر بملكوت السموات ، وبشر عيسى عليه السلام بالالفاظ التي بشر بها يحيى عليه السلام ، فعلم ان هذا الملكوت كما لم يظهر في عهد يحيى عليه السلام فكذلك لم يظهر في عهد عيسى عليه السلام ، ولا في عهد الحواريين والسبعين ، بل كل منهم مبشر به ومخبر عن فضله ومترج لمجيئه ، فلا يكون المراد بملكوت السموات طريقة النجاة التي ظهرت بشريعة عيسى عليه السلام ، والا لما قال عيسى عليه السلام والحواريون والسبعون :ان ملكوت السموات قد اقترب ، ولما علم التلاميذ أن يقولوا في الصلاة :وليأت ملكوتك ، لان هذه الطريقة قد ظهرت بعد ادعاء عيسى عليه السلام النبوة بشريعته ، فهو عبارة عن طريقة النجاة التي ظهرت بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهؤلاء كانوا يبشرون بهذه الطريقة الجليلة ، ولفظ ملكوت السموات بحسب الظاهر يدل على ان هذا الملكوت يكون في صورة السلطنة لا في صورة المسكنة ، وان المحاربة والجدال فيه مع المخالفين يكونان لاجله ، وان مبنى قوانينه لابد أن يكون كتابا سماويا ، وكل من هذه الامور يصدق على الشريعة المحمدية

وقول علماء المسيحية : ان المراد بهذا الملكوت شيوع الملة المسيحية في جميع العالم واحاطتها بكل الدنيا بعد نزول عيسى عليه السلام .فتأويل ضعيف خلاف الظاهر ، ويرده التمثيلات المنقولة عن عيسى عليه السلام في الباب الثالث عشر من انجيل متى مثلا قال : (٢٤ يشبه ملكوت السموات انسانا زرع زرعا جيداً في حقله ...) ثم قال : (٣١ يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها انسان وزرعها في حقله ...) ثم قال (٣٣ يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع) فشبه ملكوت السموات بانسان زارع لابنمو الزراعة وحصادها ، وكذلك شبه بحبة خردل لابصيرورتها شجرة

عظيمة ، وشبهه بخميرة لا باختمار جميع الدقيق . وكذا يرد هذا التأويل قول عيسى عليه السلام بعد بيان التمثيل المنقول في الباب الحادي والعشرين من انجيل متى هكذا (٤٣ لذلك أقول لكم : ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لامة تعمل أثماره) فان هذا القول يدل على ان المراد بملكوت السموات طريقة النجاة نفسها لاشيوعها في جميع العالم واحاطتها بكل العالم والا لامعنى لنزل الشيوع والاحاطة من قوم واعطائهما لقوم آخرين . فالحق ان المراد بهذا الملكوت هي المملكة التي أخبر عنها دانيال عليه السلام في الباب الثاني من كتابه (١) فمصداق هذا الملكوت وتلك المملكة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والله أعلم وعلمه أتم

﴿ البشارة الرابعة عشر ﴾

في الباب الثالث عشر من انجيل متى هكذا (٣١ قدم لهم مثلا آخر قائلا يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها انسان وزرعها في حقله ٣٢ وهي أصغر جميع البذور ، ولكن متى نمت فهي أكبر البقول وتصير شجرة حتى ان طيور السماء تأتي وتأوي في أغصانها) فملكوت السماء طريقة النجاة التي ظهرت بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم لانه نشأ في قوم كانوا حقراء عند العالم لكونهم من أهل البوادي غالباً ، وغير واقفين على العلوم والصناعات ، محرومين من اللذات الجسمانية ، والتكلفات الدنيوية ، ولا سيما عند اليهود لكونهم من أولاد هاجر ، فبعث الله منهم محمداً صلى الله عليه وسلم فكانت شريعته في ابتداء الامر بمنزلة حبة خردل ، أصغر الشرائع بحسب الظاهر ، لكنها لعمومها نمت في مدة قليلة وصارت أكبرها وأحاطت شرقا وغربا حتى ان الذين لم يكونوا مطيعين لشريعة من الشرائع تشبثوا بذيل شريعته

﴿ البشارة الخامسة عشر ﴾

في الباب العشرين من انجيل متى هكذا ١ (فان ملكوت السموات يشبه رجلا رب بيت خرج مع الصبح ليستأجر فعلة لكرمه) ٢ (فاتفق مع الفعلة

(١) قد بينها المؤلف في البشارة الرابعة عشرة وهي مما حذفناه للاختصار

على دينار في اليوم وأرسلهم الى كرمه ٣ ثم خرج نحو الساعة الثالثة ورأى آخرين قياما في السوق بطالين ٤ فقال لهم : اذهبوا أنتم أيضاً الى الكرم فأعطيكم ما يحق لكم فمضوا ٥ وخرج أيضا نحو الساعة السادسة والتاسعة وفعل كذلك ٦ ثم نحو الساعة الحادية عشرة خرج ووجد آخرين قياما بطالين فقال لهم : لماذا وقفتم ههنا كل النهار بطالين ٧ قالوا له : لانه لم يستأجرنا أحد. قال لهم : اذهبوا أنتم أيضا الى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم ٨ فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله : ادع الفعلة واعطهم الاجرة مبتدئاً من الآخرين الى الاولين ٩ فجاء أصحاب الساعة الحادية عشرة وأخذوا ديناراً ديناراً ١٠ فلما جاء الاولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر فأخذوا هم أيضا ديناراً ديناراً ١١ وفيما هم يأخذون تذمروا على رب البيت ١٢ قائلين : هؤلاء الآخرون عملوا ساعة وقد ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر ١٣ فأجاب وقال لواحد منهم: ياصاحب ماظلمتك أما اتفقت معي على دينار ؟ ١٤ فخذ الذي لك واذهب فاني أريد أن أعطي هذا الاخير مثلك ١٥ أوما يحل لي أن أفعل ماأريد بمالي أم عينك شريرة لاني أنا صالح ١٦ هكذا يكون الآخرون أولين ، والاولون آخرين ، لان كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون) اهفالآخرون أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهم يقدمون في الاجر وهم الآخرون الاولون كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « نحن الآخرون السابقون »(١) وقال « إن الجنة حرمت على الانبياء كلهم حتى أدخلها ، وحرمت على الامم حتى تدخلها أمتي »

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما وفي رواية زيادة « بيد انهم أوتوا الكتاب من قبلنا واوتيناه من بعدهم » الخ وقال صلى الله عليه وسلم « مثلكم ومثل اهل الكتابين كمثل رجل استاجر أجراء فقال من يعمل لي من غدوة الى نصف النهار على قيراط قيراط فعملت اليهود ، ثم قال من يعمل لي من نصف النهار الى صلاة العصر على قيراط قيراط فعملت النصارى ، ثم قال من يعمل لي من العصر الى ان تغيب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ فانتم هم ، فغضبت اليهود والنصارى فقالوا مالنا اكثر عملا وأقل عطاء ؟ قال هل نقصتكم من حقكم (وفي رواية هل ظلمتكم من حقكم شيئا) قالوا لا . قال « فذلك فضلي أوتيه من أشاء » رواه البخاري من حديث ابن عمر .

﴿ البشارة السادسة عشر ﴾

في الباب الحادي والعشرين من انجيل متى هكذا (٣٣ اسمعوا مثلا آخر كان انسان رب بيت غرس كرماً وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجا وسلمه الى كرامين وسافر ٣٤ ولما قرب وقت الأثمار أرسل عبيده الى الكرامين وسافر ليأخذ أثماره ٣٥ فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا ورجموا بعضا ٣٦ ثم أرسل أيضا عبيداً آخرين أكثر من الاولين ففعلوا بهم كذلك) ٣٧ (فأخيراً أرسل اليهم ابنه قائلا : يهابون ابني ٣٨ وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم : هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه ٣٩ فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه ٤٠ فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين ؟ ٤١ قالوا له أولئك الارديا، يهلكهم هلاكا رديا ويسلم الكرم الى كرامين آخرين يعطونه الاثمار في أوقاتها ٤٢ قال لهم يسوع : أما قرأتم قط في الكتب : الحجر الذي رفضه البناؤن هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب ؟ كان هذا وهو عجيب في أعيننا ٤٣ لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لامة تعمل أثماره ٤٤ ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه ٤٥ ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم)

أقول : إن رب بيت كناية عن الله ، والكرم كناية عن الشريعة ، واحاطته بسياج ، وحفر المعصرة فيه ، وبناء البرج ، كنايات عن المحرمات والمباحات والاوامر والنواهي ، وان الكرامين الطاغين كناية عن اليهود ، كما فهم رؤساء الكهنة والفريسيون انه تكلم عليهم ، والعبيد المرسلين كناية عن الانبياء عليهم السلام والابن كناية عن عيسى عليه السلام — وقد عرفت في الباب الرابع أنه لا بأس باطلاق هذا اللفظ عليه ، وقد قتله اليهود أيضا في زعمهم ، والحجر الذي رفضه البناؤن كناية عن محمد صلى الله عليه وسلم ، والامة التي تعمل أثماره كناية عن أمته صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو الحجر الذي كل من سقط عليه ترضض ، وكل من سقط هو عليه سحقه .

وما ادعاه علماء المسيحية بزعمهم : ان هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه السلام فغير صحيح لوجوه

(الاول) ان داود عليه السلام قال في الزبور المائة والثامن عشر هكذا ٢٢ (الحجر الذي رذله البناؤن هو صار للزاوية ٢٣ من قبل الرب كانت هذه وهي عجيبة في أعيننا) فلو كان هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه السلام ، وهو من اليهود من آل يهوذا من آل داود عليه السلام . فأي عجب في أعين اليهود عموماً الكون عيسى عليه السلام رأس الزاوية ولا سيا في عين داود عليه السلام ، خصوصا لان مزعوم المسيحيين ان داود عليه السلام يعظم عيسى عليه السلام في مزاميره تعظيما بليغاً ويعتقد الالوهية في حقه ، بخلاف آل اسماعيل، فان اليهود كانوا يحقرون أولاد إسماعيل غاية التحقير فكان كون أحد منهم رأسا للزاوية عجيبا في أعينهم

(والثاني) انه وقع في وصف هذا الحجر كل من سقط على هذا الحجر ترضض، وكل من سقط هو عليه سحقه . ولا يصدق هذا الوصف على عيسى عليه السلام لانه قال : (وان سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا ادينه ، لاني لم آت لادين العالم بل لاخلص العالم) كما هو في الباب الثاني عشر من انجيل يوحنا . وصدقه على محمد صلى الله عليه وسلم غير محتاج الى البيان ، لانه كان مأموراً بتاديب(١) الفجار الاشرار فان سقطوا عليه ترضضوا ، وان سقط هو عليهم سحقهم

(الثالث) قال النبي صلى الله عليه وسلم « مثلي ومثل الانبياء كمثل قصر احسن بنيانه وترك منه موضع لبنة فطاف بها النظار يتعجبون من حسن بنيانه الا موضع تلك اللبنة ختم بي البنيان وختم بي الرسل» (٢) ولما ثبتت نبوته بالادلة الاخرى ، كما ذكرت نبذاً منها في المسالك السابقة فلا بأس بأن استدل في هذه البشارة بقوله أيضا

(والرابع)ان المتبادر من كلام المسيح ان هذا الحجر غير الابن

(١) لو قال بتاديب او كبح او زجر الفجار لكان أظهر «٢» الحديث رواه الشيخان عن جابر وأبي هريرة قال الثاني « ان مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا (وفي رواية بنيانا) فاحسنه وأجمله الا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قانا اللبنة وأنا خاتم النبيين »

﴿ البشارة السابعة عشر ﴾

في الباب الثاني من المشاهدات هكذا (٢٦ ومن يغلب ويحفظ اعمالي الى النهاية فسأعطيه سلطانا على الامم ٢٧ فيرعاهم بقضيب من حديد كما تكسر آنية من خزف كما اخذت ايضا من عند ابي ٢٨ واعطيه كوكب الصبح ٢٩ من له اذن فليسمع ما يقول الروح بالكنايس) فهذا الغالب الذي أعطي سلطانا على الامم ويرعاهم بقضيب من حديد هو محمد صلى الله عليه وسلم ، كما قال الله في حقه (وينصرك الله نصراً عزيزاً) وقد سماه سطيح الكاهن صاحب الهراوة — روي انه ليلة ولادته صلى الله عليه وسلم انشق ايوان كسرى انوشروان ، وسقط منه اربع عشرة شرفة ، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام ، وغارت بحيرة ساوة بحيث صارت يابسة . ورأى الموبذان في نومه ان إبلا صعابا تقود خيلا عرابا فقطعت دجلة وانتشرت في بلادها، فخاف كسرى من حدوث هذه الامور ، وارسل عبد المسيح الى سطيح الكاهن الذي كان في الشام ، ولما وصل عبد المسيح اليه وجده في سكرات الموت فذكر هذه الامور عنده ؟ فأجاب سطيح : اذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ، فليست بابل للفرس مقاما ، ولا الشام لسطيح مناما ، يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات ، وكل ماهو آت آت اه ثم مات سطيح من ساعته ، ورجع عبد المسيح فأخبر أنوشروان بما قال سطيح ، قال كسرى: الى أن يملك أربعة عشر ملكا كانت أمور وأمور ، فملك منهم عشرة في أربع سنين ، وملك الباقون الى خلافة عثمان رضي الله عنه فهلك آخرهم يزدجرد في خلافته . والهراوة بكسر الهاء العصا الضخمة ، وكوكب الصبح عبارة عن القرآن ، قال الله في سورة النساء (وأنزلنا اليكم نوراً مبينا) وقال في سورة التغابن (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا)

قال صاحب صولة الضيغم بعد نقل هذه البشارة : قلت للقسيسين ويت ووليم عند المناظرة : إن صاحب هذا القضيب من حديد محمد صلى الله عليه وسلم

فاضطربا بسماع هذا الامر وقالا : إن عيسى عليه السلام حكم بهذا لكنيسة ثياتيرا فلا بد أن يكون ظهور مثل هذا الشخص هناك ، ومحمد (صلى الله عليه وسلم) ماراح هناك ، قلت : هذه الكنيسة في أية ناحية كانت ؟ فرجعا الى كتب اللغة وقالا: كانت في أرض الروم قريبة من اسـتانبول ، قلت : راح أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في خلافة الفاروق الاعظم عمر رضي الله عنه الى هذه البلاد وفتحوها وبعد الصحابة رضي الله عنهم كان المسلمون أيضا متسلطين عليها في أكثر الاوقات ثم تسلط عليها سلاطين آل عثمان أدام الله سلطنتهم من مدة مديدة ، وهم متسلطون الى هذا الحين . فهذا الخبر صريح في حق محمد صلى الله عليه وسلم انتهى كلامه

قلت : إن الفاضل عباس علي الجاجوي الهندي صنف أولا كتابا كبيراً في الرد على أهل التثليث سماه (صولة الضيغم على أعداء ابن مريم) ثم نظر هو رحمه الله ويت وولبم القسيسين في بلد كانفور من بلاد الهند وألزمهما ثم اختصر كتابه وسمى المختصر (خلاصة صولة الضيغم) ومناظرته كانت قبل أن أناظر صاحب ميزان الحق في أكبر آباد بمقدار اثنتين وعشرين سنة

﴿ البشارة الثامنة عشرة ﴾

هذه البشارة واقعة في آخر أبواب انجيل يوحنا وانا انقلها عن التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ في بلدة لندن فاقول: في الباب الرابع عشر من انجيل يوحنا هكذا (١٥ ان كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي ١٦ وانا أطلب من الاب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم الى الابد ١٧ روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله لانه ليس يراه ولا يعرفه وانتم تعرفونه لانه مقيم عندكم وهو ثابت فيكم ٢٦ والفارقليط روح القدس الذي يرسله الآب باسمي هو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كل ماقلته لكم ٣٠ والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى اذا كان تؤمنون) وفي الباب الخامس عشر من انجيل يوحنا هكذا (٢٦ فاما اذا جاء الفارقليط الذي أرسله أنا اليكم من الاب روح الحق الذي من الاب ينبثق فهو يشهد لاجلي ٢٧ وانتم تشهدون لانكم معي من الابتداء) وفي الباب السادس عشر من انجيل يوحنا هكذا (٧ لكني أقول لكم الحق انه خير لكم أن

أنطلق لأني ان لم انطلق لم يأتكم الفارقليط فاما ان انطلقت أرسلته اليكم ٨ فاذا جاء ذاك يوبخ العالم على خطية وعلى بر وعلى حكم (* ٩ أما على الخطية فلأنهم لم يؤمنوا بي ١٠ وأما على البر، فلأني منطلق الي الاب، ولستم تروني بعد ١١ وأما على الحكم فان أكون (رئيس) هذا العالم قد دين ١٢ وان لي كلاما كثيراً أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن ١٣ واذا جاء روح الحق ذاك فهو يعلمكم جميع الحق لانه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل مايسمع ويخبركم بما سيأتي ١٤ وهو يمجدني لانه يأخذ مما هو لي ويخبركم ١٥ جميع ماهو للاب فهو لي فمن أجل هذا قلت ان مما هو لي يأخذ ويخبركم)

وأنا أقدم قبل بيان وجه الاستدلال بهذه العبارات أمرين (الامر الاول) انك قد عرفت في الامر السابع أن أهل الكتاب سلفا وخلفا عادتهم أن يترجموا غالبا الاسماء (أي الاعلام) وأن عيسى عليه السلام كان يتكلم باللسان العبراني لا باليوناني فاذا لا يبقى شك في أن الانجيلي الرابع ترجم اسم المبشر به باليوناني بحسب عادتهم ثم مترجمو العربية عربوا اللفظ اليوناني بفارقليط وقد وصلت الي رسالة صغيرة بلسان اردو من رسائل القسيسين في سنة ألف ومائتين وثمان وستين من الهجرة وكانت هذه الرسائل طبعت في كلكته وكانت في تحقيق لفظ (فارقليط) وادعى مؤلفها أن مقصوده أن ينبه المسلمين على سبب وقوعهم في الغلط من لفظ فارقليط وكان ملخص كلامه أن هذا اللفظ معرب من اللفظ اليوناني « فان قلنا إن هذا اللفظ اليوناني الاصل باراكليطوس فيكون بمعنى المعزى والمعين والوكيل وان قلنا ان اللفظ الاصل بيركلوطوس يكون قريبا من معنى محمد واحمد، فمن استدل من علماء الاسلام بهذه البشارة فهم أن اللفظ الاصل بيركلوطوس ومعناه قريب من معنى محمد واحمد فادعى أن عيسى عليه السلام أخبر بمحمد أو احمد لكن الصحيح انه باراكليطوس » انتهى ملخصا من كلامه

(يقول محمد رشيد مؤلف هذا التفسير) انني أوضح هنا ما كتبه الشيخ

(* في التراجم الاخيرة كلمة دينونة موضع كلمة حكم

رحمة الله بكلمة للدكتور محمد توفيق صدقي أوردها في هذا المقام في كتابه (دين الله في كتب أنبيائه) قال رحمه الله :

هذا اللفظ (الفارقليط) يوناني ويكتب بالانكليزية هكذا (Paraclete) بارقليط أي (المعزي) ويتضمن أيضاً معنى المحاج كما قال بوست في قاموسه، وهناك لفظ آخر يكتب هكذا (Periclite) ومعناه رفيع المقام سام . جليل. مجيد. شهير . وهي كلها معان تقرب من معنى محمد واحمد ومحمود

ولا يخفى أن المسيح كان يتكلم بالعبرية فلا ندري ماذا كان اللفظ الذي نطق به عليه السلام ؟ ولا ندري إن كانت ترجمة مؤلف هذا الانجيل له بلفظ (Paraclete) صحيحة أو خطأ؟ ولا ندري إن كان هذا اللفظ(Paraclete)هو الذي ترجم به من قبل أم لا ؟ لأننا نعلم أن كثيرا من الالفاظ والعبارات وقع فيها التحريف من الكتاب سهواً أو قصدا كما اعترفوا به في جميع كتب العهدين ، (راجع الفصل الثالث) فاذا كان اللفظ الاصلي(Periclite) بيرقليط فلا يبعد أنه تحرف عمدا أو سهوا الى(Paraclete)بارقليط حتى يبعدوه عن معنى اسم النبي صلى الله عليه وسلم، ومما يسهل عليهم ذلك تشابه أحرف هذه الكلمة في اللغة اليونانية

وعلى كل حال فسواء كان هو (Paraclete)بارقليط أو(Periclite) بيرقليط ، فمعنى كل منهما ينطبق على محمد صلى الله عليه وسلم فهو معز للمؤمنين على عدم ايمان الكافرين ، وعلى عدم وجود الشر في هذا العالم بايضاح أن هذه هي إرادة الله لحكمة يعلمها هو ، ومعز أيضاً المصابين والمرضى والفقراء وغيرهم بعقيدة البعث والقيامة ، وهو صلى الله عليه وسلم كان يحاجّ الكفار والمشركين وغيرهم(اذا كان معناها المحاجّ المجادل(١) كما قال بوست) وهو شهير سام جليل مجيد اذا كان اللفظ الاصلي (بيرقليط) والعبارات الواردة في انجيل يوحنا في هذه المسألة لا تنطبق الا على محمد عليه السلام كما بين ذلك صاحب كتاب إظهار الحق ومؤلف كتاب (فتح الملك العلام في بشائر دين الاسلام) وكما أشرنا الى ذلك في

«١» ومن شواهده قوله تعالى « وجادلهم بالتي هي احسن »

صفحة ٨٢ من هذا الكتاب اه ونعود الى سياق صاحب اظهار الحق الشيخ رحمة الله ، قال رحمه الله :

وأقول : ان التفاوت بين اللفظين يسير جدا وان الحروف اليونانية كانت متشابهة ، فتبدل بيركلوطوس بىارا كلي طوس في بعض النسخ من الكاتب قريب القياس . ثم رجح أهل التثليث المذكرين هذه النسخة على النسخ الاخر ، ومن تأمل في الباب الثاني من هذا الكتاب والامر السابع من هذا المسلك السادس بنظر الانصاف اعتقد يقينا بأن مثل هذا الامر من أهل الديانة من أهل التثليث ليس ببعيد بل لا يبعد أن يكون من الحسنات

(والامر الثاني) أن البعض ادعوا قبل ظهور محمد صلى الله عليه وسلم انهم مصاديق لفظ فارقليط مثلا منتس المسيحي الذي كان فى القرن الثاني من الميلاد وكان مرتاضا شديد الارتياض وأتقى اهل عهده : ادعى في قرب سنة ١٧٧ من الميلاد في آسيا الصغرى الرسالة وقال : اني الفارقليط الذى وعد بمجيئه عيسى عليه السلام ، وتبعه اناس كثيرون في ذلك كما هو مذكور في بعض التواريخ وذكر وليم ميور حاله وحال متبعيه في القسم الثاني من الباب الثالث من تاريخه بلسان اردو المطبوع سنة ١٨٤٨ من الميلاد هكذا : ان البعض قالوا انه ادعى أنه الفارقليط يعني المعزي روح القدس ، وهو كان اتقى (؟) ومرتاضا شديدا (؟) ولأجل ذلك قبله الناس قبولا زائداً ، انتهى كلامه

فعلم أن انتظار الفارقليط كان في القرون الاولى المسيحية أيضاً ولذلك كان الناس يدعون أنهم مصاديقه ، وكان المسيحيون يقبلون دعاويهم — وقال صاحب لب التواريخ : إن اليهود والمسيحيين من معاصري محمد صلى الله عليه وسلم كانوا منتظرين لنبي ، فحصل لمحمد من هذا الامر نفع عظيم لأنه ادعى انه هو ذاك المنتظر ، انتهى ملخص كلامه — فيعلم من كلامه أيضا أن أهل الكتاب كانوا منتظرين لخروج نبي فى زمان النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الحق ، لان النجاشي ملك الحبشة لما وصل اليه كتاب محمد صلى الله عليه وسلم قال : أشهد بالله أنه النبي الذي ينتظره أهل الكتاب ، وكتب الجواب وكتب في الجواب : أشهد أنك

رسول الله صادقا ومصدقا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك — أي جعفر بن ابي طالب — وأسلمت على يديه لله رب العالمين اه وهذا النجاشي كان قبل الاسلام نصرانيا

وكتب المقوقس ملك القبط في جواب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم هكذا: الى محمد بن عبدالله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ماذكرت فيه وماتدعو اليه وقد علمت أن نبيا قد بقي وقد كنت أظن انه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك اه والمقوقس هذا وان لم يسلم لكنه أقر في كتابه: اني قد علمت أن نبيا قد بقي . وكان نصرانيا فهذان الملكان ماكانا يخافان في ذلك الوقت من محمد صلى الله عليه وسلم لاجل شوكته الدنياوية .

وجاء الجارود بن العلاء في قومه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال: والله لقد جئت بالحق ، ونطقت بالصدق ، والذي بعثك بالحق نبيا لقد وجدت وصفك في الانجيل ، وبشر بك ابن البتول ، فطول التحية لك ، والشكر لمن أكرمك ، لاأثر بعد عين ، ولا شك بعد يقين ، مد يدك فانا أشهد أن لا إله إلا الله وانك محمد رسول الله . ثم آمن قومه وهذا الجارود كان من علماء النصارى وقد أقر بانه قد بشر به ابن البتول أي عيسى عليه السلام ،فظهر أن المسيحيين أيضاً كانوا منتظرين لخروج نبي بشر به عيسى عليه السلام

فاذا علمت ذلك فاقول إن اللفظ العبرانى الذي قاله عيسى عليه السلام مفقود واللفظ اليونانى الموجود ترجمة ، لكني اترك البحث عن الاصل واتكلم على هذا اللفظ اليونانى فأقول: ان كان اللفظ اليونانى الاصل بيركلوطوس ، فالامر ظاهر وتكون بشارة المسيح في حق محمد صلى الله عليه وسلم بلفظه وقريب من محمد واحمد وهذا وان كان قريب القياس بالنظر الى عاداتهم لكنى أترك هذا الاحتمال لانه لا يتم عليهم الزاما وأقول ان كان اللفظ اليوناني الاصل باراكليطوس كما يدعون فهذا لاينافي الاستدلال أيضاً لان معناه المعزي والمعين والوكيل على مابين صاحب الرسالة أو الشافع كما يوجد في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وهذه المعانى كلها تصدق على محمد صلى الله عليه وسلم

وأنا أبين الآن أولا أن المراد بالفارقليط النبي المبشر به أعنى محمدا صلى الله

عليه وسلم لا الروح النازل على تلاميذ عيسى عليه السلام يوم الدار الذي جاء ذكره في الباب الثاني من كتاب الاعمال ، واذكر ثانيا شبهات علماء المسيحية وأجيب عنها فاقول : أما الاول فيدل عليه أمور

(١) إن عيسى عليه السلام قال أولا (إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي) ثم أخبر عن الفارقليط فمقصوده عليه السلام أن يعتقد السامعون بان مايلقي عليهم بعد ضروري واجب الرعاية فلو كان الفار قليط عبارة عن الروح النازل يوم الدار لما كانت الحاجة الى هذه الفقرة لانه ما كان مظنونا أن يستبعد الحواريون نزول الروح عليهم مرة أخرى لانهم كانوا مستفيضين منه من قبل أيضاً بل لامجال للاستبعاد أيضاً لانه اذا نزل على قلب أحد وحل فيه يظهر أثره لامحالة ظهورا بينا فلا يتصور انكار المتأثر منه وليس ظهوره عندهم في صورة يكون فيه مظنة يكون الاستبعاد(١) فهو عبارة عن النبي المبشر به لحقيقة الامر أن المسيح عليه السلام لما علم بالتجربة وبنور النبوة أن الكثيرين من امته ينكرون النبي المبشر به عند ظهوره أكده أولا بهذه الفقرة ثم اخبر عن مجيئه

(٢) إن هذا الروح متحد بالاب مطلقا وبالابن نظرا الى لاهوته اتحادا حقيقيا فلا يصدق في حقه (فار قليط آخر) بخلاف النبي المبشر به فانه يصدق هذا القول في حقه بلا تكلف

(٣) ان الوكالة والشفاعة من خواص النبوة لامن خواص هذا الروح المتحد بالله فلا يصدقان على الروح ويصدقان علي النبي المبشر به بلا تكلف

(٤) ان عيسى عليه السلام قال (هو يذكركم كل ماقلته لكم) ولم يثبت في رسالة من رسائل العهد الجديد أن الحواريين كانوا قد نسوا ماقاله عيسى عليه السلام وهذا الروح النازل يوم الدار ذكرهم إياه

(٥) ان عيسى عليه السلام قال (والآن قد قلت لكم قبل أن يكون (أن يوجد) حتى اذا كان — اي وجد وبعث — تؤمنون) وهذا يدل على أن المراد

«١» هذه العبارة لانهم لركاكتها وفسادها وأقرب ما يفهم منها بالقرينة انه ليس ظهوره عندهم في صورة المظنة يقتضي الاستبعاد

به ليس الروح لأنك قد عرفت في الامر الاول انه ما كان عدم الايمان مظنونا منهم وقت نزوله بل لامجال للاستبعاد أيضاً ، فلا حاجة الى هذا القول ، وليس من شأن الحكيم العاقل أن يتكلم بكلام فضول ، فضلا عن شأن النبي العظيم الشأن ، فلو أردنا به النبي المبشر به يكون هذا الكلام في محله ، وفي غاية الاستحسان لأجل التأكيد مرة ثانية

(٦) إن عيسى عليه السلام قال (هو يشهد لاجلي)وهذا الروح ماشهد لاجله بين ايدي أحد لان تلاميذه الذين نزل عليهم ما كانوا محتاجين الى الشهادة لأنهم كانوا يعرفون المسيح حق المعرفة قبل نزوله أيضاً فلا فائدة للشهادة بين أيديهم والمنكرون هم الذين كانوا محتاجين للشهادة فهذا الروح ماشهد بين أيديهم بخلاف محمد صلى الله عليه وسلم فانه شهد لاجل المسيح عليه السلام وصدقه وبرأه عن ادعاء الالوهية الذي هو أشد أنواع الكفر والضلال و برأ أمه عن تهمة الزنا وجاء ذكر براءتهما في القرآن في مواضع متعددة وفي الاحاديث في مواضع غير محصورة

(٧) ان عيسى عليه السلام (قال وانتم تشهدون لانكم معي من الابتداء (وهذه الآية في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ هكذا) وتشهدون انتم أيضاً لانكم كنتم معي من الابتداء) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هكذا (وتشهدون أنتم أيضاً لانكم معي من الابتداء)فيوجد في هذه التراجم الثلاث لفظ أيضا وكذا يوجد في التراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١ وفي ترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨١٤ ترجمة لفظ أيضا فلفظ أيضاً سقط من التراجم التى نقلت عنها عبارة يوحنا سهوا أو قصدا فهذا القول يدل دلالة ظاهرة على أن شهادة الحواريين غير شهادة الفارقليط فلو كان المراد به الروح النازل يوم الدار لم توجد مغايرة بين الشهادتين لان الروح المذكور لم يشهد شهادة مستقلة غير شهادة الحواريين بل شهادة الحواريين هي شهادته بعينها لان هذا الروح مع كونه إلها متحداً بالله اتحادا حقيقيا بريا من النزول والحلول والاستقرار والشكل التى هي من عوارض الجسم والجسمانيات نزل مثل ريح عاصفة وظهر في أشكال ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم يوم الدار فكان حالهم كحال من عليه أثر الجن، فكما أن قول الجن يكون قوله في تلك

الحالة فكذلك كانت شهادة الروح هي شهادة الحواريين فلا يصح هذا القول بخلاف ماإذا كان المراد به النبي المبشر به فان شهادته غير شهادة الحواريين

(٨) إن عيسى عليه السلام قال ان لم انطلق لم يأتكم الفارقليط فاما ان انطلقت أرسلته اليكم) فعلق مجيئه بذهابه وهذا الروح عندهم نزل على الحواريين في حضوره لما أرسلهم الى البلاد الاسرائيلية فنزوله ليس بمشروط بذهابه فلا يكون مراداً بالفارقليط بل المراد به شخص لم يستفض منه أحد من الحواريين قبل زمان صعوده وكان مجيئه موقوفا على ذهاب عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم كان كذلك لانه جاء بعد ذهاب عيسى عليه السلام وكان مجيئه موقوفا على ذهاب عيسى عليه السلام لان وجود رسولين ذوي شريعتين مستقلتين في زمان واحد غير جائز بخلاف ماإذا كان الآخر متبعا لشريعة الأول أو يكون كل من الرسل متبعا لشريعة واحدة لانه يجوز في هذه الصورة وجود اثنين أو أكثر في زمان واحد ومكان واحد كما ثبت وجودهم ما بين زمان موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام

(٩) ان عيسى عليه السلام قال (يوبخ العالم) فهذا القول بمنزلة النص الجلي لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه وبخ العالم سيما اليهود على عدم ايمانهم بعيسى عليه السلام توبيخا لا يشك فيه الا معاند بحت، وسيكون ابنه الرشيد محمد المهدي رفيقا لعيسى عليه السلام في زمان قتل الدجال الاعور ومتابعيه، بخلاف الروح النازل يوم الدار فان توبيخه لا يصح على أصول أحد وما كان التوبيخ منصب الحواريين بعد نزوله أيضا لانهم كانوا يدعون الى الملة بالترغيب والوعظ وماقال رانكين في كتابه المسمى بدافع البهتان الذي هو بلسان اردو في رده على خلاصة (صولة الضيغم) إن لفظ التوبيخ لا يوجد في الانجيل ولا في ترجمة من تراجم الانجيل وهذا المستدل أورد هذا اللفظ ليصدق على محمد صدقا بينا لاجل أن محمداً صلى الله عليه وسلم وبخ وهدد كثيراً إلا أن مثل هذا التغليط ليس من شأن المؤمنين والخائفين من الله انتهى كلامه فمردود وهذا القسيس اما جاهل غالط أو مغالط ليس له ايمان ولا خوف من الله، لان هذا اللفظ يوجد في التراجم العربية المذكورة التي نقلت عنها عبارة يوحنا وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٧١ في رومية العظمى وعبارة الترجمة العربية

المطبوعة في بيروت سنة ١٨٦٠ هكذا (ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية الخ وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥ وفي التراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١ يوجد لفظ الالزام. ولفظ التبكيت والالزام أيضا قريبان من التوبيخ لكن لاشكاية منه لان مثل هذا الامر من عادات علماء بروتستنت ولذلك ترى أن مترجمي الفارسية واردو تركوا لفظ فارقليط لشهرته عند المسلمين في حق محمد صلى الله عليه وسلم ومترجم ترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨٣٩ فاق أسلافه هؤلاء أيضا حيث ارجع الى الروح ضمائر المؤنث ليحصل الاشتباه للعوام أن مصداق هذا اللفظ (أي مدلوله) مؤنث وليس بمذكر

(١٠) قال عيسى عليه السلام (أما على الخطية فلانهم لم يؤمنوا بي) وهذا يدل على أن الفارقليط يكون ظاهرا على منكري عيسى عليه السلام موبخا لهم على عدم الايمان به والروح النازل يوم الدار ما كان ظاهراً على الناس موبخا لهم

(١١) قال عيسى عليه السلام (إن لي كلاما كثيراً أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن) وهذا ينافي إرادة الروح النازل يوم الدار لانه مازاد حكما على أحكام عيسى عليه السلام فانه على زعم أهل التثليث كان أمر الحواريين بعقيدة التثليث وبدعوة أهل العالم كله فاي أمر حصل لهم أزيد من أقواله التي قالها الى زمان صعوده. نعم إنهم بعد نزول هذا الروح أسقطوا جميع أحكام التوراة التي هي ماعدا بعض الاحكام العشرة المذكورة في الباب العشرين من سفر الخروج وحللوا جميع المحرمات وهذا الامر لا يجوز في شأنه أن يقال إنهم ما كانوا يستطيعون حمله لانهم استطاعوا حمل سقوط حكم تعظيم السبت الذي هو أعظم أحكام التوراة وكان اليهود ينكرون كون عيسى عليه السلام مسيحا موعودا به لاجل عدم مراعاته هذا الحكم فقبول سقوط جميع الاحكام كان أهون عندهم ، نعم قبول زيادة الاحكام لاجل ضعف الايمان وضعف القوة الى زمان صعوده كما يعترف به علماء بروتستنت كان خارجا عن استطاعتهم فظهر أن المراد بالفارقليط نبي تزاد في شريعته أحكام ويثقل حملها على المكلفين الضعفاء وهو محمد صلى الله عليه وسلم

بالنسبة الى الشريعة العيسوية (*

(١٢) إن عيسى عليه السلام قال : ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع ،وهذا يدل على ان الفارقليط يكون بحيث يكذبه بنو اسرائيل، فاحتاج عيسى عليه السلام أن يقرر حال صدقه فقال هذا القول ، ولا مجال لمظنة التكذيب في حق الروح النازل يوم الدار ، على ان هذا الروح عندهم عين الله ، فلا معنى لقوله : بل يتكلم بما يسمع، فمصداقه محمد صلى الله عليه وسلم فانه كان في حقه مظانة التكذيب ، وليس هو عين الله ، وكان يتكلم بما يوحى اليه كما قال الله تعالى(وما ينطق عن الهوى*إن هو الا وحي يوحى)وقال (إن أتبع الا ما يوحى إلي)

(١٣) ان عيسى عليه السلام قال : انه يأخذ مما هو لي ، وهذا لا يصدق على الروح لأنه عند أهل التثليث قديم وغير مخلوق ، وقادر مطلق ، ليس له كمال منتظر ، بل كل كمال من كمالاته حاصل له بالفعل ، فلا بد أن يكون الموعود به من الجنس الذي يكون له كمال منتظر . ولما كان هذا الكلام موهماً أن يكون هذا النبي متبعاً لشريعته دفعه بقوله فيما بعد (جميع ما للاب فهو لي فلأجل هذا قلت مما هو لي يأخذ) يعني ان كل شيء يحصل للفارقليط من الله فكأنه يحصل مني — كما اشتهر : من كان لله كان الله له — فلأجل هذا قلت : ان مما هو لي يأخذ

وأما الثاني أعني الشبهات التي توردها علماء بروتستنت فخمسة

(الشبهة الاولى) جاء في هذه العبارة تفسير الفارقليط بروح القدس، وروح الحق ، وهما عبارتان عن الاقنوم الثالث ، فكيف يصح أن يراد بالفارقليط محمد صلى الله عليه وسلم ؟

أقول في الجواب : ان صاحب ميزان الحق يدعي في تأليفاته كون ألفاظ روح الله ، وروح القدس، وروح الحق ، وروح الصدق ، وروح فم الله ، بمعنى واحد . قال في الفصل الاول من الباب الثاني من مفتاح الاسرار في الصفحة ٥٣

---

*) الاظهر المختار عندنا ان اهل عصر عيسى عليه السلام لم يكونوا يستطيعون حمل شريعة خاتم النبيين «ص» لفقد الاستعداد لها وهو استقلال الفكر والحكم والارادة التى حباها الله تعالى للامة العربية في زمن البعثة المحمدية

من النسخة الفارسية المطبوعة سنة ١٨٥٠ : ان لفظ روح الله ، ولفظ روح القدس في التوراة والانجيل بمعنى واحد انتهى . فادعى ان هذين اللفظين يستعملان بمعنى واحد في العهدين — وقال في حل الاشكال ، في جواب كشف الاستار : من له المام ما بالتوراة والانجيل فهو يعرف ان ألفاظ روح القدس وروح الحق وروح فم الله وغيرها بمعنى روح الله ، فلذلك مارأيت اثباته ضروريا انتهى

فاذا عرفت هذا القول فنحن نقطع النظر عن صحة ادعائه وعدم صحته ههنا ونسلم ترادف هذه الالفاظ على زعمه، لكنا ننكر أن استعمالها في كل موضع من مواضع العهدين بمعنى الاقنوم الثالث ، ونقول قولا مطابقا لقوله من له شعور ما بكتب العهدين يعرف ان هذه الالفاظ تستعمل في غير الاقنوم الثالث كثيراً ففي الآية الرابعة عشرة من الباب السابع والثلاثين من كتاب حزقيال قول الله تعالى في خطاب ألوف من الناس الذين أحياهم بمعجزة حزقيال عليه السلام هكذا : (فأجعل فيكم روحي) ففي هذا القول روح الله بمعنى النفس الناطقة الانسانية لا بمعنى الاقنوم الثالث الذي هو عين الله على زعمهم — وفي الباب الرابع من الرسالة الاولى ليوحنا هكذا ترجمة عربية سنة ١٧٦٠ (١ أيها الاحباء لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الارواح هل هي من الله ؟ لأن الانبياء الكذبة كثيرون قد خرجوا الى العالم ٢ بهذا تعرفون روح الله: كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله... ٦ نحن من الله فمن يعرف الله يسمع لنا ، ومن ليس من الله لا يسمع لنا من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال) وهذه الجملة الواقعة في الآية الثانية (بهذا تعرفون روح الله) وفي التراجم العربية الاخر سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ هكذا (وبهذا يعرف روح الله) وفي ترجمة سنة ١٨٢٥ (فانكم تميزون روح الله) ولفظ روح الله في الآية الثانية ، ولفظ روح في الآية السادسة بمعنى الواعظ الحق لا بمعنى الاقنوم الثالث . ولذلك ترجم مترجم ترجمة أردو المطبوعة سنة ١٨٤٥ لفظ كل روح بكل واعظ ، ولفظ الارواح بالواعظين في الآية الاولى ، ولفظ روح في الآية الثانية بالواعظ من جانب الله . ولفظ روح الحق في الآية السادسة بالواعظ الصادق . وترجم لفظ روح

الضلال بالواعظ المضل ، وليس المراد بروح الله وروح الحق الاقنوم الثالث الذي هو عين الله على زعمهم ، وهو ظاهر . فتفسير الفارقليط بروح القدس وروح الحق لايضرنا لأنهما بمعنى الواعظ الحق ، كما ان لفظ روح الحق روح الله بهذا المعنى في الرسالة الاولى ليوحنا ، فيصح اطلاقهما على محمد صلى الله عليه وسلم بلا ريب

(الشبهة الثانية) ان المخاطبين بضمير «كم» الحواريون ، فلا بد أن يظهر الفارقليط في عهدهم ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يظهر في عهدهم

(أقول) هذا أيضاً ليس بشيء ، لأن منشأه ان الحاضرين وقت الخطاب لابد أن يكونوا مرادين بضمير الخطاب ، وهو ليس بضروري في كل موضع . ألا ترى أن قول عيسى عليه السلام في الآية الرابعة والستين من الباب السادس والعشرين من انجيل متى في خطاب رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع هكذا : (وأيضا أقول لكم من الآن تبصرون ابن الانسان جالسا عن يمين القوة وآتيا على سحاب السماء) وهؤلاء المخاطبون قد ماتوا ، ومضت على موتهم مدة هي أزيد من ألف وثمانمائة سنة ، وما رأوه آتيا على سحاب السماء ، فكما ان المراد بالمخاطبين ههنا الموجودون من قومهم وقت نزوله من السماء ، فكذلك فيما نحن فيه المراد الذين يوجدون وقت ظهور الفارقليط

(الشبهة الثالثة) إنه وقع في حق الفارقليط ان العالم لايراه ولا يعرفه وأنتم تعرفونه ، وهو لا يصدق على محمد صلى الله عليه وسلم ، لان الناس رأوه وعرفوه

أقول : هذا أيضا ليس بشيء ، وهم أحوج الناس تأويلا في هذا القول بالنسبة الينا ، لان روح القدس عين الله عندهم ، والعالم يعرف الله أكثر من معرفة محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا بد أن نقول : ان المراد بالمعرفة المعرفة الحقيقية الكاملة . ففي صورة التأويل لااشتباه في صدق هذا القول على محمد صلى الله عليه وسلم ، ويكون المقصود ان العالم لايعرفه معرفة حقيقية كاملة ، وأنتم تعرفونه معرفة حقيقية كاملة . والمراد بالرؤية المعرفة ، ولهذا لم يعد عيسى عليه السلام لفظ الرؤية بعد لفظ أنتم ، بل قال . وأنتم تعرفونه ، ولو حملنا الرؤية على الرؤية البصرية يكون نفي الرؤية محمولا على ماهو المراد في قول الانجيلي الاول في الباب

الثالث عشر من انجيله ، وأنقل عبارته عن الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥ (١٣ فلذلك أضرب لهم الامثال لانهم ينظرون ولا يبصرون ، ويسمعون ولا يستمعون ولا يفهمون ١٤ وقد كمل فيهم تنبأ أشعيا حيث قال : انكم تستمعون سمعاً ولا تفهمون ، وتنظرون نظرا ولا تبصرون) فلا اشكال أيضا

وأمثال هذين الامرين وان كانت معاني مجازية لكنها بمنزلة الحقيقة العرفية ووقعت في كلام عيسى عليه السلام كثيراً في الآية السابعة والعشرين من الباب الحادي عشر من انجيل متى هكذا (وليس أحد يعرف الابن الا الاب ولا أحد يعرف الاب الا الابن ، ومن أراد الابن أن يعلن له) وفي الآية الثامنة والعشرين من الباب السابع من انجيل يوحنا هكذا (الذي أرسلني حق الذي أنتم لستم تعرفونه) وفي الباب الثامن من انجيل يوحنا هكذا (١٩ لستم تعرفونني أنا ولا أبي لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضا ٥٥ ولستم تعرفونه أي الله الخ) وفي الآية الخامسة والعشرين من الباب السابع عشر من انجيل يوحنا هكذا (أيها الاب ان العالم لم يعرفك ، أما أنا فعرفتك) وفي الباب الرابع عشر من انجيل يوحنا هكذا (٧ لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم ابي أيضا ، ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه ٨ قال له : فيلبس ياسيد أرنا الاب وكفانا ٩ قال له يسوع : أنا معكم زمانًا هذه مدته ولم تعرفني يافيلبس الذي رآني فقد رأي الاب ، فكيف تقول أنت أرنا الاب ؟) فالمراد بالمعرفة في هذه الاقوال المعرفة الكاملة ، و بالرؤية المعرفة ، والا لاتصح هذه الاقوال يقيناً ، لان العوام من الناس كانوا يعرفون عيسى عليه السلام فضلا عن رؤساء اليهود والكهنة والمشايخ والحواريين ، ورؤية الله بالبصر في هذا العالم ممتنعة عند أهل التثليث أيضا

(الشبهة الرابعة) أنه وقع في حق الفارقليط (أنه مقيم عندكم وثابت فيكم) ويظهر من هذا القول ان الفارقليط كان في وقت الخطاب مقيما عند الحواريين وثابتاً فيهم ، فكيف يصدق على محمد صلى الله عليه وسلم

أقول : إن هذا القول في التراجم الاخرى هكذا في الترجمة العربية سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥ (لانه مستقر معكم وسيكون فيكم) والتراجم الفارسية المطبوعة سنة

١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١ وترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨١٤ وسنة ١٨٣٩ كلها مطابقة لهاتين الترجمتين ، وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هكذا: (ماكث معكم ويكون فيكم) فظهر ان المراد بقوله ثابت فيكم الثبوت الاستقبالي يقينا فلا اعتراض به بوجه من الوجوه ، وبقي قوله : مقيم عندكم

فأقول : لا يصح حمل هذا القول على معنى هو مقيم عندكم الآن لانه لا ينافي قوله (أنا أطلب من الاب فيعطيكم فارقليط آخر) وقوله (قد قلت لكم قبل أن يكون حتى اذا كان تؤمنون . وقوله : ان لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط) واذا أول نقول : انه بمعنى الاستقبال كما ان القول الذي بعده بمعنى الاستقبال ومعناه يكون مقيما عندكم في الاستقبال ، فلا خدشة في صدقه على محمد صلى الله عليه وسلم. والتعبير عن الاستقبال بالحال بل بالماضي في الامور المتيقنة كثير في العهدين — ألا ترى أن حزقيال عليه السلام أخبر أولا عن خروج يأجوج ومأجوج في الزمان المستقبل واهلاكهم حين وصولهم الى جبال اسرائيل . ثم قال في الآية الثامنة من الباب التاسع والثلاثين من كتابه هكذا (ها هو جاء وصار يقول الرب الاله هذا هو اليوم الذي قلت عنه) فانظروا الى قوله هاهو جاء وصار — وهذا القول في الترجمة الفارسية المطبوعة سنة ١٨٣٩ هكذا (اينك رسيد وبوقوع پيوست) فعبر عن الحال المستقبل بالماضي لكونه يقيناً لاشك فيه ، وقد مضت مدة أزيد من الفين وأربعمائة وخمسين سنة ، ولم يظهر خروجهم — وفي الآية الخامسة والعشرين من الباب الخامس من انجيل يوحنا هكذا (الحق الحق أقول لكم أنه تأتي ساعة ، وهي الآن حين يسمع الاموات صوت ابن الله والسامعون يحيون) فانظروا الى قوله وهي الآن ، وقد مضت مدة أزيد من الف وثمانمائة ولم تجيء هذه الساعة ، وهي الى الآن مجهولة لا يعرف أحد متى تجيء

(الشبهة الخامسة) في الباب الاول من كتاب الاعمال هكذا (٤ وفيما هو مجتمع معهم أوصاهم أن لا يبرحوا من اورشليم ، بل ينتظروا موعد الاب الذي سمعتموه مني ٥ لان يوحنا عمد بالماء ، وأما أنتم فستتعمدون بالروح القدس ليس هذه الايام بكثير) وهذا يدل على ان الفارقليط هو الروح النازل يوم الدار ، لان المراد بوعد الاب هو الفارقليط

أقول : الادعاء بأن المراد بموعد الاب هو الفارقليط ادعاء محض ، بل هو غلط لثلاثة عشر وجهاً ، وقد عرفتها ، بل الحق ان الاخبار عن الفارقليط شيء والوعد بانزال الروح عليهم مرة أخرى شيء آخر . وقد وفى الله بالوعد ن ، وقد عبرعن الوعدالاول بمجيء الفارقليط ، وههنا بموعد الاب ، غاية الامر أن يوحنا نقل بشارة الفارقليط ، ولم ينقلها الانجيليون الباقون — ولوقا نقل موعد نزول الروح الذي نزل يوم الدار ، ولم ينقله يوحنا . ولا بأس فيه فانهم قد يتفقون في نقل الاقوال الخسيسة ، كركوب عيسى عليه السلام على الحمار وقت الذهاب الى اورشليم ، اتفق على نقله الاربعة ،وقد يتخالفون في نقل الاحوال العظيمة ، ألا ترى أن لوقا انفرد بذكر احياء ابن الارملة من الاموات في نايين ، وبذكر ارسال عيسى عليه السلام سبعين تلميذاً ، وبذكر ابراء عشرة برص ، ولم يذكر هذه الحالات أحد من الانجيليين ، مع أنها من الحالات العظيمة ؛ وان يوحنا انفرد بذكر وليمة العرس في قانا الجليل ، وظهر من يسوع فيه معجزة تحويل الماء خمراً وهذه المعجزة أول معجزاته ، وسبب ظهور مجده وايمان التلاميذ به ، وبذكر ابراء السقيم في بيت صيدا في اورشليم ، وهذه أيضاً معجزة عظيمة ، والمريض كان مريضاً من ثمان وثلاثين سنة ، وبذكر قصة امرأة أخذت في زنا ، وبذكر ابراء الاكمه ، وهذا أيضاً من أعظم معجزاته ، وهي مصرحة بهما في الباب التاسع وبذكر احياء العازار من بين الاموات ، ولم يذكرها أحد من الانجيليين ، مع أنها حالات عظيمة ، وهكذا حال متى ومرقس ، فانهما انفردا بذكر بعض المعجزات والحالات التي لم يذكرها غيرهما . وإذ طال البحث في هذا المسلك فلنقتصر على هذا القدر من البشارات التي نقلتها عن كتبهم المعتبرة عندهم في زماننا . اه

﴿ بشارة انجيل برنابا ﴾

ذكر الشيخ رحمة الله بعد هذا أنه لم يعن بايراد البشارات من الكتب التي يعدها أهل الكتاب غير قانونية الا بشارة انجيل برنابا ، وقد نقلها عن مقدمة ترجمة القسيس سايل الانكليزي للقرآن المجيد ، وهذه ترجمتها :

(اعلم يابرنابا أن الذنب وان كان صغيراً يجزي الله عليه لان الله غير راض

عن الذنب ، ولما اكتسب امي وتلاميذي لاجل الدنيا سخط الله لاجل هذا الامر وأراد باقتضاء عدله أن يجزيهم في هذا العالم على هذه العقيدة غير اللائقة ليحصل لهم النجاة من عذاب جهنم ولا يكون لهم اذية هنك واني وان كنت بريا لكن بعض الناس لما قالوا في حقي أنه الله وابن الله كره الله هذا القول ، واقتضت مشيئته أن لاتضحك الشياطين يوم القيامة مني ولا يستهزؤن بي ، فاراد بمقتضى لطفه ورحمته أن يكون الضحك والاستهزاء في الدنيا بسبب موت يهوذا ، ويظن كل شخص اني صلبت لكن هذه الاهانة والاستهزاء تبقيان الى أن يجيء محمد رسول الله فاذا جاء في الدنيا ينبه كل مؤمن على هذا الغلط وترتفع هذه الشبهة من قلوب الناس) ترجمة كلامه

أقول هذه البشارة عظيمة وان اعترضوا بأن هذا الانجيل رده مجالس علمائنا السلف (١) أقول لا اعتبار لردهم وقبولهم كما علمت بما لامزيد عليه في الباب الاول وهذا الانجيل من الاناجيل القديمة ويوجد ذكره في كتب القرن الثاني والثالث فعلى هذا كتب هذا الانجيل قبل ظهور محمد صلى الله عليه وسلم بمئتي (٢) سنة ولا يقدر أحد أن يخبر بغير الالهام بمثل هذا الامر قبل وقوعه بمئتي سنة فلا بد أن يكون هذا قول عيسى عليه السلام وان قالوا إن أحداً من المسلمين حرف هذا الانجيل بعد ظهور محمد صلى الله عليه وسلم قلت هذا الاحتمال بعيد جداً لان المسلمين ماالتفتوا الى هذه الاناجيل الاربعة أيضا فكيف الى انجيل برنابا ويبعد أن يؤثر تحريف أحد من المسلمين في انجيل برنابا تأثيراً تتغير به النسخ الموجودة عند المسيحيين أيضا وهم يزعمون أن علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين أسلموا نقلوا عن كتب العهدين البشارات المحمدية وحرفوها فعلى زعمهم أقول إن

---

(١) يعني مجامع الاساقفة (٢) ههنا غلط ظاهر لا ندري سببه فقد كان ظهور النبي « ص » في أوائل القرن السابع للمسيح فاذا كان قد ذكر انجيل برنابا في القرن الثاني يكون قبل ظهور النبي « ص » بخمسة قرون على ان برنابا كتبه في القرن الاول كما أمره المسيح عليه السلام وان لم يرد له ذكر قبل ذلك التاريخ. وأما النسخ التي وقعت في ايدي علماء اوربة فاقدمها عهداً يتراوح تاريخه بين منتصف القرن الخامس عشر ومنتصف القرن السادس عشر ، ولكنه لم يشتهر الا في اوائل القرن الثامن عشر

هؤلاء العلماء الكبار حرفوا على زعمهم ولم يؤثر تحريفهم في كتبهم التي كانت موجودة عندهم في مواضع هذه البشارات فكيف أثر تحريف بعض المسلمين في انجيل برنابا في النسخ التي كانت عندهم؟فهذا الاحتمال واه ضعيف جداً، واجب الرد اه

وقد ختم الشيخ (رحمة الله) رحمه الله تعالى هذه البشارات بتنبيه ذكر فيه القارىء بما بينه مفصلا من اختلاف النصارى في ترجمة كتبهم والتغيير فيها زمناً بعد زمن لئلا يظن من اطلع على ما أورده ورآه مخالفاً لغير الترجمات التي نقل عنها أنه هو المخطىء فيما نقله، وهذا مشهور لايستطيعون إنكاره

بعد هذا أقول: ان الشيخ رحمه الله لم ير انجيل برنابا وانما نقل هذه البشارة من مقدمة سايل المستشرق الانكليزي لترجمته للقرآن المجيد، وسايل هذا قد اطلع على احدى النسختين اللتين وجدتا من هذا الانجيل في أول القرن الثامن عشر، وهي النسخة الاسبانية وقد فقدت، إذ كان المتعصبون من النصارى يتلفون كل ما عثروا عليه من هذا الانجيل وغيره من الاناجيل التي تعدها الكنيسة غير قانونية. وأما النسخة الاخرى فهي باللغة الايطالية القديمة وكانت في خزانة كتب (الفاتيكان) فسرقها منها راهب اسمه (مرينو) في أواخر القرن السادس عشر، ويظن أنها هي النسخة الموجودة الآن في خزانة كتب بلاط (فينا). وقد ترجمت هذه النسخة بالانكليزية في هذا العصر فسعينا الى ترجمتها بالعربية سنة ١٣٢٥ وطبعناها طبعاً دقيقاً في مطبعة المنار، واننا ننقل عنها هنا نص بعض بشاراته بنبينا (ص) غير البشارة التي نقلها الشيخ رحمة الله إذ هي متعددة

جاء في الفصل الثاني والسبعين من هذا الانجيل ان المسيح عليه السلام أخبر الحواريين أنه سينصرف عن هذا العالم ثم قال:

(٧ فبكى حينئذ الرسل قائلين: يامعلم لماذا تتركنا، لأن الاحرى بنا أن نموت من أن تتركنا ٨ أجاب يسوع: لاتضطرب قلوبكم ولا تخافوا (١) ٩ لأني لست أنا الذي خلقكم، بل الله الذي خلقكم يحميكم ١٠ أما من خصوصي فاني قد أتيت لأهيىء الطريق لرسول الله الذي سيأتي بخلاص للعالم ١١

---

(١) يو ١٤ : ٢٧

ولكن احذروا أن تغشوا لأنه سيأتي أنبياء كذبة (١) كثيرون يأخذون كلامي وينجسون إنجيلي

١٢ حينئذ قال اندراوس : يامعلم اذكر لنا علامة لنعرفه

(١٣ أجاب يسوع : انه لايأتي في زمنكم بل يأتي بعدكم بمدة سنين حينما يبطل إنجيلي ، ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً ١٤ في ذلك الوقت يرحم الله العالم فيرسل رسوله الذي تستقر على رأسه غمامة بيضاء ، يعرفه أحد مختاري الله وهو سيظهره للعالم ١٥ وسيأتي بقوة عظيمة على الفجار ويبيد عبادة الاصنام من العالم ١٦ واني أسر بذلك ، لانه بواسطته سيعلن ويمجد الله ويظهر صدقي ١٧ وسينتقم من الذين سيقولون اني أكبر من انسان ١٨ الحق أقول لكم : إن القمر سيعطيه رقاداً في صباه ومتى كبر هو أخذه كفيه ١٩ فليحذر العالم أن ينبذه لأنه سيفتك بعبدة الاصنام ٢٠ فان موسى عبد الله قتل أكثر من ذلك كثيراً ، ولم يبق يشوع على المدن التي أحرقوها وقتلوا الاطفال ٢١ لأن القرحة المزمنة يستعمل لها الكي)

(٢٢ وسيجيء بحق أجلي من سائر الانبياء وسيوبخ من لايحسن السلوك في العالم ٢٣ وسيحيي طرباً أبراج مدينة آبائنا بعضها بعضاً ٢٤ فمتى شوهد سقوط عبادة الاصنام الى الارض ، واعترف بأني بشر كسائر البشر . فالحق أقول لكم: ان نبي الله حينئذ يأتي)

وجاء في الفصل السادس والتسعين من محاورة بين المسيح ورئيس كهنة اليهود : ان الكاهن سأله عن نفسه فأجاب بذكر اسمه واسم أمه ، وبأنه بشر ميت ثم قال الانجيل ما نصه :

(٣ أجاب الكاهن : انه مكتوب في كتاب موسى ان إلهنا سيرسل لنا مسيّا الذي سيأتي ليخبرنا بما يريد الله ، وسيأتي للعالم برحمة الله ٤ لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق هل أنت مسيا الله الذي ننتظره ؟)

(٥ أجاب يسوع : حقا ان الله وعد هكذا ولكني لست هو ، لأنه خلق

---

(١) مت ٢٤ : ١١

قبلي وسيأتي بعدي (١)

(٦ أجاب الكاهن : اننا نعتقد من كلامك وآياتك على كل حال انك نبي وقدوس الله ٧ لذلك أرجوك باسم اليهودية كلها واسرائيل أن تفيدنا حبا في الله بأية كيفية سيأتي مسيا؟

(٨ أجاب يسوع : لعمر الله الذي تقف بحضرته نفسي(٢)اني لست مسيا الذي تنتظره كل قبائل الارض كما وعد الله أبانا ابراهيم (٣) قائلا : بنسلك أبارك كل قبائل الارض ٩ ولكن عند مايأخذني الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى لهذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأني الله وابن الله ١٠ فيتنجس بسبب هذا كلامي وتعليمي حتى لايكاد يبقى ثلاثون مؤمنا ١١ حينئذ يرحم الله العالم ، ويرسل رسوله الذي خلق كل الاشياء لأجله ١٢ الذي سيأتي من الجنوب بقوة وسيبيد الاصنام وعبدة الاصنام ١٣ وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر ١٤ وسيأتي برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به ١٥ وسيكون من يؤمن بكلامه مباركا)

ثم قال في الفصل ٩٧ مانصه :

(١ومع أني لست مستحقا أن أحل سير حذائه قد نلت نعمة ورحمة من الله لاراه (٢ فأجاب حينئذ الكاهن مع الوالي والملك قائلين لا تزعج نفسك يايسوع قدوس الله لأن هذه الفتنة لاتحدث في زمننا مرة أخرى لاننا سنكتب الى مجلس الشيوخ الروماني المقدس باصدار أمر ملكي أن لا أحد يدعوك فيما بعد الله أو ابن الله)
٤ فقال حينئذ يسوع: ان كلامكم لا يعزيني لانه يأتي ظلام حيث ترجون النور ٥ ولكن تعزيتي هي في مجيء الرسول الذي سيبيد كل رأي كاذب فيّ وسيمتد دينه ويعم العالم بأسره لانه هكذا وعد الله أبانا ابراهيم ٦ وان ما يعزيني هو أن لانهاية لدينه لان الله سيحفظه صحيحا

(١) انجيل يوحنا ١: ١٥ «٢» تكرر هذا القسم في هذا الانجيل وهو بمعنى قول نبينا «ص» «والذي نفس محمد بيده» «٣» تك ٢٢:١٨

(٧ أجاب الكاهن : أيأتي رسل آخرون بعد مجيء رسول الله ؟)

(٨ فأجاب يسوع : لايأتي بعده أنبياء صادقون مرسلون من الله ٩ ولكن يأتي عدد غفير من الانبياء الكذبة وهو ما يحزنني ١٠ لان الشيطان سيثيرهم بحكم الله العادل فيتسترون بدعوى انجيلي

(١١ أجاب هيدروس: كيف ان مجيء هؤلاء الكافرين يكون بحكم الله العادل ؟

(١٢ أجاب يسوع : من العدل أن من لايؤمن بالحق لخلاصه يؤمن بالكذب لعنته ١٣ لذلك أقول لكم : ان العالم كان يمتهن الانبياء الصادقين دائما وأحب الكاذبين كما يشاهد في أيام ميشع وأرميا (١) لان الشبيه يحب شبيهه

(١٣ فقال الكاهن حينئذ : ماذا يسمى مسيا؟ وما هي العلامة التي تعلن مجيئه ؟

(١٤ أجاب يسوع : ان اسم مسيا عجيب ، لان الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها في بهاء سماوي ١٥ قال الله : اصبر يامحمد لاني لاجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجماً غفيراً من الخلائق التي أهبها لك ، حتى ان من يباركك يكون مباركا ، ومن يلعنك يكون ملعونًا ١٦ ومتى أرسلتك الى العالم أجعلك رسولي للخلاص وتكون كلمتك صادقة ، حتى ان السماء والارض تهنان ، ولكن ايمانك لايهن أبداً ١٧ ان اسمه المبارك محمد

(١٨ حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين : ياألله أرسل لنا رسولك ، يامحمد تعال سريعاً لخلاص العالم !) اه

وأما البشارة التي نقلها الشيخ رحمة الله في إظهار الحق فهي من الفصل العشرين بعد المئتين ، وليس بعده غير فصلين من هذا الأنجيل ، وترجمتها قريبة من الترجمة الاخيرة للأنجيل كله .

﴿ تنبيه ﴾

لقد كان من مواضع ارتياب الباحثين من علماء أوربة في هذا الانجيل ذكره لخاتم النبيين (ص) باسمه العلم عند المسلمين (محمد) وقد ذهب بعضهم الى أن بعض

(١) في ار ٢٦ : ١٨

المسلمين قد دسوا فيه ذلك ، وقوى شبهتهم ما وجد من التعليقات العربية على حواشي النسخة الطليانية الموجودة منه الى هذا العهد

وقد فندنا هذه الشبهة في مقدمتنا لطبعة هذا الانجيل العربية بما بيناه من استحالة صدور هذه الحواشي عن مسلم ، فانها على فساد لغتها وعجمتها مخالفة لما يعرفه كل مسلم عربياً كان أو عجميا لأنه من أذكار الدين ككلمة سبحان الله فهي تذكر في هذه الحواشي بتقديم المضاف اليه على المضاف هكذا «الله سبحان» وبعد أن أوردنا في المقدمة أمثلة أخرى كهذه قلنا :

« ولذلك أمثلة أخرى ، أضف اليها عدم اطلاع المسلمين في الاندلس وغيرها على هذا الانجيل كما حققه الدكتور مرجليوث المستشرق الانكليزي مؤيداً تحقيقه بخلو كتب المسلمين الذين ردوا على النصارى من ذكره ، وناهيك بابن حزم الاندلسي وابن تيمية المشرقي فقد كانا أوسع علماء المسلمين في الغرب والشرق اطلاعا كما يعلم من كتبهما ولم يذكرا في ردهما على النصارى هذا الانجيل

« بقي أمر يستنكره الباحثون في هذا الانجيل بحثاً علمياً لادينيا أشد الاستنكار وهو تصريحه باسم « النبي محمد » عليه الصلاة والسلام قائلين : لا يعقل أن يكون ذلك كتب قبل ظهور الاسلام ، إذ المعهود في البشارات أن تكون بالكنايات والاشارات ، والعريقون في الدين لا يرون مثل ذلك مستنكراً في خبر الوحي . وقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحالة انكليزي أنه رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخة من الانجيل مكتوبة بالقلم الحميري قبل بعثة النبي (ص) وفيها يقول المسيح (ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد) وذلك موافق لنص القرآن بالحرف ، ولكن لم ينقل عن أحد من المسلمين أنه رأى شيئاً من هذه الاناجيل التي فيها هذه البشارات الصريحة ، فيظهر أن في مكتبة الفاتيكان من بقايا تلك الاناجيل والكتب التي كانت ممنوعة في القرون الاولى مالو ظهر لأزال كل شبهة عن انجيل برنابا وغيره

« على أنه لا يبعد أن يكون مترجم برنابا باللغة الايطالية قد ذكر اسم « محمد » ترجمة ، وان يكون قد ذكر في الاصل الذي ترجم هو عنه بلفظ يفيد معناه كلفظ

البارقليط ، ومثل هذا التساهل معهود عند المسيحيين في الترجمة كما بينه الشيخ رحمة الله بالشواهد الكثيرة من كتبهم في الامر السابع من المسلك السادس من الباب السادس من كتابه إظهار الحق، وزاده بعد ذلك بيانًا في البشارة الثامنة عشرة » اه

وإني أزيد مثالا على ماسبق من اختلاف ترجمة الاعلام والالقاب والصفات في كتب أهل الكتاب يقرب لفهم القارىء هذه المسألة وهو ماجاء في نبوة النبي حجي من البشارة بنبينا صلى الله عليه وسلم قال :

بشارة النبي حجي بمحمد (ص)

« ٢ : ٦ هكذا قال رب الجنود : هي مرة بعد قليل فأزلزل السموات والارض والبحر واليابسة ٧ وأزلزل كل الامم ، ويأتي مشتهى كل الامم فأملأ هذا البيت مجداً ، قال رب الجنود ٨ لي الفضة ولي الذهب يقول رب الجنود ٩ مجد هذا البيت الاخير يكون أعظم من مجد الاول ، قال رب الجنود ١٠ وفي هذا المكان أعطي السلام ، يقول رب الجنود »

أقول قبل كل شيء : إن اسم أو لقب « مشتهى الامم » هو في الاصل العبراني عند اليهود « حمدوت » ومعناه الذي يحمد فهو صيغة مبالغة من الحمد كالكوت من الملك. فحمدوت الامم هو الذي تحمده الامم، وهو معنى محمد ومحمود، فالاول اسم فاعل من حمده بالتشديد اذا حمده كثيراً، ومن تحمده الامم يكون محموداً حمداً كثيراً أي محمدا . والثاني اسم مفعول من حمد الثلاثي، ومحمود من أسمائه صلى الله عليه وآله وسلم

فهل بعد هذا يبعد أن يكون لفظ الفارقليط اليوناني مترجماً من لفظ حمدوت العبراني ، ونسخ الأنجيل العبرانية التي نقلت ألفاظ المسيح عليه السلام بحروفها قد فقدت ولا ندري سبب فقدها ؟ بل نحن معاشر المسلمين نتهم مجامع الاساقفة التي تحكمت في الاناجيل القديمة ، فعدت بعضها قانونيا وبعضها غير قانوني ، وصاروا يتلفون ما هو غير قانوني ؛ بل نحن لانعتقد بتنصر القيصر قسطنطين الاول ولا نعتقد اخلاصه فيه ، بل نعتقد أن ذلك كان عملا سياسيا منه، وانه استعان بالمجامع على تحويل النصرانية عن صراط التوحيد الى وثنية القدماء من اليونانيين

وأساتذتهم من قدماء المصريين، الذين دانوا بعقيدة التثليث قبل المسيح بألوف من السنين . ولو بقيت نسخ تلك الاناجيل لكان لأهل العلم الاستقلالي في الغرب والشرق من التحقيق فيها مالم يكن لأولئك الاساقفة الذين قبلوا منها ما وافق اعتقادهم وردوا مالم يوافقه ، كأن عقائدهم التقليدية المتأثرة بنصرانية قسطنطين السياسية بعد ثلاث قرون خلت للمسيح هي الاصل ، والاناجيل المأثورة هي الفرع، تعرض على تلك التقاليد فيقبل منها ما وافقها ويرد ماخالفها ؟

وها نحن أولاء نرى إنجيل برنابا أرقى من هذه الاناجيل الاربعة في العلم الالهي والثناء على الخالق عز وجل ، وفي علوم الاخلاق والآداب والفضائل ، فان كان بعض الباحثين كالدكتور خليل سعاده الذي ترجم لنا هذا الانجيل يعلل هذا بموافقته لفلسفة ارسطو التي كانت رائجة في قرون المسيحية الاولى — فان بعض علماء أوربة الباحثين المستقلين قد طعن بمثل هذه الشبهة في شريعة موسى وفي آداب الاناجيل الاربعة فقالوا : إن التوراة مستمدة من شرائع المصريين الذين نشأ موسى في حجر فرعونهم — ثم قال بعضهم : إنها مستمدة من شريعة حمورابي التي هي أصل شرائع البابليين وكانت كتابة التوراة الحاضرة بعد السبي البابلي ، وفيها ألوف من الكلمات البابلية — وقالوا : إن الآداب المسيحية مستمدة من كتب اليونان والرومان في الفلسفة العملية الاخلاق . . .

ونحن مع أهل الكتاب لا نعتد بهذه الشبهات ، ولكننا نقيم الحجة عليهم بها في مثل المقام الذي نحن فيه وأمثاله مما لامحل لبسطه هنا

ثم ان بقية بشارة حجي لا نصدق على غير نبينا صلى الله عليه وسلم محمد الامم فهو الذي زلزل رب الجنود ببعثته العالم ، ونصره بالجنود و بالحجة جميعاً ، وكان مجد دين الله به أعظم من مجده بموسى وسائر أنبياء قومه وفرضت شريعة الزكاة وخمس الغنائم تنفق في سبيل الله فكانت الفضة والذهب لله — وفي النسخة السبعينية للعهد القديم : إن الآية التاسعة من هذه البشارة « إن المجد القديم لهذا البيت أعظم من المجد الذي كان للهيكل الاول » وهذه العبارة أظهر في المراد من ترجمة النصارى التي نقلنا عنها ، وحسبنا هذا من البشارات الكثيرة ، ومن

يهدي الله فهو المهتدي ، ومن يضلل فلا هادي له ، ونحمده تعالى ان جعلنا من أمة خاتم رسله والدعاة الى ملته وصلى الله عليه وآله وسلم تسليما

(١٥٧) قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

ذكرت رسالة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم في الآية التي قبل هذه من قصة موسى عليه السلام استطراداً بحسب نظم الكلام، ولكنها هي المقصودة بالذات من القصة ومن سائر قصص الرسل عليهم السلام ، ولما كان ذكرها في سياق القصة لدعوة أهل الكتاب إلى الاسلام وإقامة الحجة عليهم بذكره (ص) في كتبهم والبشارة برسالته على ألسنة أنبيائهم ، وبيان ما يكون لهم من الفلاح والفوز بالايمان به (ص) واتباعه ناسب أن يقفى على ذلك ببيان عموم بعثته (ص) ودعوة الناس كافة الى الايمان بالله تعالى وبه ، فقال عز وجل مخاطبا له صلواته وسلامه عليه:

﴿ قل يأيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً ﴾ هذا خطاب عام لجميع البشر من العرب والعجم وجهه اليهم محمد بن عبد الله النبي العربي الهاشمي بأمر الله تعالى ينبئهم به أنه رسول الله تعالى اليهم كافة، لا إلى قومه العرب خاصة كما زعمت العيسوية من اليهود، فهو كقوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) وقوله (وأوحي إلى هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ) أي وأنذر به كل من بلغه من الثقلين ، فمن قال انه يؤمن برسالته الى العرب خاصة لا يعتد بايمانه لانه مكذب لهذه النصوص العامة القطعية مما جاء به . وما في معناها كقوله تعالى (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) وقوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وهو يشمل عقلاء الجن . وفي هذا المعنى أحاديث صحيحة ناطقة باختصاصه صلى الله عليه وسلم بالرسالة العامة كحديث جابر في الصحيحين وغيرهما قال رسول الله (ص) « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الانبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الارض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة

فليصل ؛ وأحلت لي الغنائم ولم تحل لاحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت الى الناس عامة » وفي رواية كافة . ورواه آخرون عن غيره بألفاظ أخرى . ولما كانت الشفاعة على إطلاقها غير خاصة به (ص) ذهب الجمهور الي أن الخاص به الشفاعة العظمى لجميع الخلق بفصل القضاء فيهم ومحاسبتهم ليعلم مستقر كل منهم ، وفي أحاديث الصحيحين وغيرهما أن أهل الموقف يرسلون الوفود الى آدم فنوح فابراهيم فموسى فعيسى عليهم السلام يطلبون منهم الشفاعة عند الله تعالى بفصل القضاء ، فيعترف كل منهم بأن هذا ليس من شأنه ويقول « لست هناكم » ويطلب النجاة لنفسه ويحيلهم على من بعده ، حتى اذا أحالهم عيسى على محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين أجابهم الى طلبهم وقال « أنا لها » وفي رواية « أنا صاحبكم » فيشفع في فصل القضاء بين الخلق فتقبل شفاعته . وقيل إن المراد غير هذه الشفاعة وقيل ما يعمها وغيرها ، والروايات في الشفاعة متداخلة مضطربة ، ولسنا بصدد تحقيق القول فيها

ثم وصف الله عز وجل نفسه في هذا المقام بتوحيد الربوبية وتوحيد

الالاهية وبالاحياء والاماتة فقال ﴿ الذي له ملك السموات والارض لا إله إلا هو يحيي ويميت ﴾ والمراد بملك السموات والارض التصرف والتدبير في العالم كله لما جرى عليه عرف البشر من أن السموات هي العوالم التي تعلو هذه الارض التي يعيشون فيها وصاحب الملك والتصرف والتدبير فيهما هو ربهما رب العالمين ، وهو واحد ، ولو كان لغيره تصرف لتعارض مع تصرفه وفسد النظام العام ، فان وحدة النظام في جملة المخلوقات وعدم التفاوت والتعارض فيها دليل على وحدة مصدرها وتدبيرها ، واذا كان رب الخلائق واحداً وجب أن يكون هو المعبود وحده ، لا إله الا هو ، والتوحيد بقسميه : توحيد الربوبية بالايمان وتوحيد الالوهية بالايمان والعمل اي عبادة الله وحده — هما أصل الدين وأساسه ، والركن الاول لعقائده ، وقد اقترن برسالة الرسول (ص) وهي الركن الثاني ، وأما وصفه تعالى بالاحياء والاماتة وهو بعض تصرف الرب في خلقه فيتضمن عقيدة البعث بعد الموت التي هي الركن الثالث من أركان الايمان ، فقد أدمجت في دعوى الرسالة أركان الدين الثلاثة — وهو من ايجاز القرآن الغريب — وبنى على ذلك الدعوة الى الايمان على طريقة التفريع على هذا

الاصل بل الاصول ، وذلك قوله عز من قائل

﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبي الامي ﴾ أي فآمنوا يأيها الناس من جميع الامم بالله الواحد في ربوبيته وألوهيته الذي يحيى كل ماتحله الحياة في العالم ، ويميت كل مايعرض له الموت بعد الحياة،وهذا امر يتجدد كل يوم فتشاهدونه ومثله البعث العام بعد الموت العام وخراب هذا العالم ،وآمنوا برسوله المطلق الممتاز بانه النبي الامي الذي بعثه في الاميين (العرب) رسولا الى الخلق أجمعين، يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ويطهرهم من خرافات الشرك والرذائل والجهل والتفرق والتعادي بعصبيات الاجناس واللغات والاوطان ليكونوا بهدايته أمة واحدة يتحقق بها الاخاء البشري العام ، وقد بشر به الانبياء الكرام عليهم السلام ،لانه المتم المكمل لما بعثوا به من هداية الاقوام ، وأميته (ص) من أعظم معجزاته ، وأية آية على صحة دعوى الرسالة أقوى وأظهر من تعليم الامي الذي لم يتعلم شيئا لجميع الامم ؛ مافيه صلاحهم وفلاحهم من العلوم والحكم ؟

﴿ الذي يؤمن بالله وكلماته ﴾ أي يؤمن بما يدعوكم الى الايمان به من توحيد الله تعالى وكلماته التشريعية التي أنزلها لهداية خلقه ، وهي مظهر علمه وحكمته ورحمته، وكلماته التكوينية التي هي مظهر إرادته وقدرته وحكمته . وبعد أمرهم بالايمان أمرهم بالاسلام فقال ﴿ واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ أي واتبعوه بالاذعان الفعلي لكل ما جاءكم به من أمر الدين فعلا وتركا ، رجاء اهتدائكم بالايمان وباتباعه لما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة ، فثمرة الايمان والاسلام اهتداء صاحبهما ووصوله بالفعل لسعادة الدارين كما فصلناه في غير هذا الموضع، ودليله الفعلي في الدنيا انه ما آمن قوم بنبي الا وكانوا بعد الايمان به خيرا مما كانوا قبله من هناء المعيشة والعزة والكرامة في دنياهم ، وأظهر التواريخ وأقربها عهدا تاريخ الامة المحمدية ، ومن العجائب أن يصل بهم الجهل بعد ذلك الى ترك هذه الهداية التي نالوا بها الملك العظيم والعز والسؤدد والغنى والحضارة، وأعجب منه أن يزول المعلول بزوال علته وهم لا يشعرون به فيعودوا اليه ، وأعجب من هذين أن يصل بهم الجهل الى أن يعتقد كثير منهم في هذا العصر أن هداية الاسلام التي سعدوا بها أمس شقوا بتركها هي سبب هذا الشقاء الاخير لا تركها

﴿ فصل في معنى اتباع الرسول وموضوعه ولوازمه ﴾

قوله تعالى هنا (واتبعوه) أعم من قوله في الآية التي قبلها (واتبعوا النور الذي أنزل معه) فتلك في اتباع القرآن خاصة وهذه تشمل اتباعه صلى الله عليه وسلم فيما شرعه من الاحكام من تلقاء نفسه، على القول بأن الله تعالى أعطاه ذلك واذن له به، واتباعه فى اجتهاده واستنباطه من القرآن اذا كان تشريعاً — كتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أوخالتها كالجمع بين الاختين المنصوص في القرآن — ولا يدخل فيه اتباعه فيما كان من أمور العادات كحديث « كلوا الزيت وادهنوا به فانه طيب مبارك » رواه أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة والحاكم وصححه ورواه غيرهما بألفاظ أخرى وأسانيده ضعيفة ، وحديث « كلوا البلح بالتمر » الخ رواه النسائي وابن ماجه والحاكم عن عائشة وصححوه ، فان هذا من أمور العادات التي لا قربة فيها ولا حقوق تقتضي التشريع، بخلاف حديث « كلوا لحوم الاضاحي وادخروا » رواه احمد والحاكم عن ابي سعيد وقتادة بن النعمان وسنده صحيح. فان الاضاحي من النسك ، والاكل منها سنة فأمر المضحي به للندب ، وادخارها جائز له، ولولا الامر به لظن تحريمه أو كراهته لعلاقة الاضاحي بالعيد فهي ضيافة الله تعالى للمؤمنين في أيام العيد . فالتشريع إما عبادة أمرنا بالتقرب الى الله تعالى بها وجوبا أو ندبا ، واما مفسدة نهينا عنها اتقاء لضررها في الدين كدعاء غير الله فيما ليس من الاسباب التي يتعاون عليها الناس وكأكل المذبوح لغير الله وتعظيم غير الله بما شرع تعظيم الله به من الذبح له والحلف باسمه — أو لضررها في العقل أو الجسم أو المال أو العرض أو المصلحة العامة — وإما حقوق مادية أومعنوية أمرنا بأدائها الى أهلها كالمواريث والنفقات ومعاشرة الازواج بالمعروف، أو أمرنا بالتزامها لضبط المعاملات كالوفاء بالعقود ، وبادخال حكم الاستحباب وحكم كراهة التنزيه في التشريع تتسع أحكامه في أمور العادات كما يعلم مما يأتي

ليس من التشريع الذي يجب فيه امتثال الامر واجتناب النهى مالا يتعلق به حق لله تعالى ولا لخلقه لاجلب مصلحة ولا دفع مفسدة كالعادات والصناعات والزراعة والعلوم والفنون المبنية على التجارب والبحث وما يرد فيها من أمر ونهي يسميه العلماء ارشادا لا تشريعاً الا ما ترتب على النهى عنه وعيد كلبس

الحرير ، وقد ظن بعض الصحابة (رض) أن انكار النبي (ص) لبعض الامور الدنيوية المبنية على التجارب للتشريع كتلقيح النخل فامتنعوا عنه فاشاص (خرج ثمره شيصاً أي رديئاً أو يابساً) فراجعوه في ذلك فأخبرهم أنه قال ما قال عن ظن ورأي لا عن تشريع وقال لهم « أنتم أعلم بأمر دنياكم » والحديث معروف في صحيح مسلم وحكمته تنبيه الناس الى أن مثل هذه الامور الدنيوية والمعاشية كالزراعة والصناعة لا يتعلق بها لذاتها تشريع خاص بل هي متروكة الى معارف الناس وتجاربهم

وكانوا يراجعونه أيضاً فيما يشتبه عليهم أهو من رأيه (ص) واجتهاده الدنيوي أو بأمر من الله تعالى وان لم يكن تشريعاً كسؤاله عن الموضع الذي اختاره للنزول فيه يوم بدر ، قال له الحباب بن المنذر (رض) : أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا متقدم عنه ولا متأخر ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فلما أجابه بانه رأي لا وحي وان المعول فيه على المصلحة ومكايد الحرب أشار بغيره فوافقه (ص)

واذا اشتبه على بعض الصحابة بعض هذه المسائل فغيرهم أولى بأن يعرض لهم الاشتباه في كثير منها ، وكان النبي (ص) يبين لاولئك الحق فيما اشتبهوا فيه ، ومن ذا يبين ذلك من بعده ؟ ولو لم يتخذ الناس اجتهاد العلماء من بعده دينا يوجبون اتباعه لهان الامر ، ولكن اتخاذه دينا قد كثرت به التكاليف ، ووقع المسلمون به في حرج عظيم فى الازمنة التي ضعف فيها الاتباع ، فثقلت على الطباع ، فصاروا يتركون ما ثقل عليهم منها ، وجرأهم ذلك على ترك المشروع القطعي الذي لا حرج ولا عسر فيه ، ثم جرهم ذلك الى ترك بعضهم للدين كله ودعوة غيرهم الى ذلك ، والجامدون من مقلدة الفقه المتشددين في إلزام الامة التدين باجتهاد الفقهاء لا يشعرون بهذه العاقبة السوءى ولا يبالون إذا أشعرهم المصلحون

مثال ما شدد به بعضهم من ذلك صبغ الشيب بالسواد هو من الامور العادية المتعلقة بالزينة المباحة اذ لا تعبد فيه ولا حقوق لله ولا للناس ، إلا ما قد يعرض فيه وفي مثله كالزي من كون فعله أو تركه صار خاصا بالكفار وفعله بعض المسلمين تشبها بهم أو صار بفعله له مشابها لهم بحيث يعد منهم ، وفي ذلك ضرر معنوي وسياسي معروف عند الباحثين في سنن الاجتماع من كون المتشبه بقوم تقوى عظمتهم في نفسه من حيث تضعف فيها رابطته بقومه وأهل ملته ، وقد ورد في صبغ الشيب أخبار وآثار يدل بعضها على استحبابه عادة لا عبادة ولو بالسواد ، وفهم بعض

العلماء منها استحبابه شرعا ، وفهم آخرون من بعض آخر كراهته بالسواد ، بل قال المشددون منهم بتحريمه فصار المقلد وذلهم ينكرون على فاعله ويعدونه عاصيا لله تعالى ، مخالفوا هدي السلف في المسألة وفي القاعدة العامة وهي عدم الانكار في المسائل الاجتهادية التي وقع فيها الخلاف

فمن الاخبار في المسألة ماور في الصحيح أن أبا قحافة والد أبي بكر الصديق (رض) جاء أو أتي به يوم فتح مكة ورأسه ولحيته كالثغامه (١) بياضا فقال رسول الله (ص) «غيروا هذا بشيء واجتنبوا السواد» فاستدل الشافعية بهذا الحديث على تحريم الصبغ بالسواد مع أن الحديث في واقعة عين تتعلق بامر عادي فلاهي من مسائل الحرام والحلال ولا من المسائل التى يعتبر فيها العموم كما هو مقرر في الاصول، وهي مع ذلك معارضة باطلاق الامر بصبغ الشيب الموجه للامة وهو قوله (ص) « ان اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم» رواه الشيخان واصحاب السنن الاربعة — وبقوله (ص) « ان احسن ماغيرتم به هذا الشيب الحناء والكتم » وظاهره تغييره بهما معا والا لقال أو الكتم، ويؤيده ما صح عن أبي بكر الصديق (رض) انه كان يخضب بالحناء والكتم معا ، وقد حقق العلامـة ابن الاثير أن الخضاب بهما معا يكون اسود وقال بعضهم انه اسود يضرب الى الحمرة أي ليس حالكا ، والجمع بين القولين أنه يكون شديد السواد اذا كان قويا مشبعا ويضرب الى الحمرة اذا كان خفيفا وهو اسود على كل حال

وذكر بعض العلماء أن سبب امر النبي (ص) باجتناب السواد في تغيير شيب أبي قحافة انه لم يستحسنه لشيخ بلغ من الكبر عتيا وكان شعر رأسه ولحيته كالثغامة في شدة بياضه كله ، ومن رجع الى ذوق البشر العام ادرك أن السواد لا يليق بمثله ويؤيده ماذكره الحافظ في الفتح عن ابن شهاب الزهري انه قال : كنا نخضب بالسواد اذ كان الوجه جديداً فلما نفض الوجه والاسنان تركناه اهـ ولمثل هذه الخصوصيات قال الاصوليون أن وقائع الاعيان لاعموم لها

وذكر الحافظ في الفتح أيضا ان الذين أجازوا الصبغ بالسواد تمسكوا بالامر المطلق بتغييره مخالفة للاعاجم (وقال) وقد رخص فيه طائفة من السلف منهم سعد بن أبي وقاص وعقبة بن عامر والحسن والحسين وجرير وغير واحد (أي من الصحابة) أقول وقد نقل النووي في شرح الحديثين من صحيح مسلم عن

«١» الثغام بالفتح نبت له نور أبيض شديد البياض واحدته ثغامة

القاضي عياض بعد جزمه هو بأن الاصح المختار عند الشافعية تحريم السواد ما نصه:

«وقال القاضي اختلف السلف من الصحابة والتابعين في الخضاب وفي جنسه فقال بعضهم ترك الخضاب أفضل ورووا حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم في النهي عن تغيير الشيب ولانه صلى الله عليه وسلم لم يغير شيبه، روي هذا عن عمرو وعلي وأبي وآخرين رضي الله عنهم وقال آخرون الخضاب أفضل وخضب جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم للاحاديث التى ذكرها مسلم وغيره، ثم اختلف هؤلاء فكان أكثرهم يخضب بالصفرة منهم ابن عمرو وأبو هريرة وآخرون وروى ذلك عن على وخضب جماعة منهم بالحناء والكتم وبعضهم بالزعفران وخضب جماعة بالسواد روي ذلك عن عثمان والحسن والحسين ابني علي وعقبة بن عامر وابن سيرين وأبى بردة وآخرين (قال القاضي) قال الطبراني(١) الصواب أن الآثار المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم بتغيير الشيب وبالنهي عنه كلها صحيحة وليس فيها تناقض بل الامر بالتغيير لمن شيبه كشيب أبى قحافة والنهى لمن له شمط فقط (قال) واختلاف السلف في فعل الامرين بحسب اختلاف احوالهم في ذلك مع أن الامر والنهى في ذلك ليس للوجوب بالاجماع، ولهذا لم ينكر بعضهم على بعض خلافه في ذلك (قال) ولا يجوز أن يقال فيهما ناسخ ومنسوخ (قال القاضي) وقال غيره هو على حالين فمن كان في موضع عادة أهله الصبغ أو تركه فخروجه عن العادة شهرة ومكروه والثاني انه يختلف باختلاف نظافة الشيب فمن كانت شيبته تكون نقية أحسن منها مصبوغة فالترك أولى ومن كانت شيبته تستبشع فالصبغ أولى (قال النووي) هذا ما نقله القاضي والاصح الاوفق للسنة ماقدمناه عن مذهبنا والله أعلم اهـ

أقول إن هـذا الاصرار من النووي رحمه الله تعالى على تصحيح مذهب أصحابه وجعله أوفق للسنة من غريب تعصبه لهم بعد العلم بعمل بعض علماء الصحابة والتابعين بخلافه وسائر ما نقله عن القاضي وغيره في المسألة، ومنه قول الامام الطبري من أن الامر في هذه المسألة ـ وكذا أمثالها ـ ليس للوجوب والنهى ليس للتحريم لانها من أمور العادات والزينة والتجمل بين الناس، وما نقله عنه وعن غيره من كونها تختلف باختلاف السن وباختلاف العادة والاحوال بين الناس ويعتبر فيها الذوق في الزينة هو الصواب كما قال الطبري، وأي مدخل للتحريم في مثل هذا ولا محرم في الشريعة السمحة الا ما كان ضارا؟

«١» كذا في الاصل، والذي اذكره ان قائل هذا هو الامام الطبري لا الحافظ الطبراني

وقد سبق لنا تفصيل لهذه المسألة وأمثالها كسنن الفطرة في فتاوى المنار ، ومنه أن حديث ابن عباس عند أبي داود « يكون قوم في آخر الزمان يخضبون بالسواد كحواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة » ضعيف متنا وسنداً بل قال ابن الجوزي انه موضوع و يؤيده أن من آيات الوضع في متنه الوعيد بالحرمان من رائحة الجنة على أمر من العادات ولا يحرم من الجنة الا الكافر بالمعنى الاخص دع مخالفته لحديث الصحيحين ، وفي سنده عبدالكريم غير منسوب والظاهر انه ابن أبي المخارق وهو ضعيف ، فان قيل يحتمل أنه الجزري الذي روى عنه الشيخان قلنا التصحيح لا يثبت بالاحتمال ولا سيا في أمر مخالف لاصول الشرع كهذا الوعيد وان ابن حبان منع من الاحتجاج بما ينفرد به عبدالكريم الجزري كهذا الحديث

وما نقله القاضي عن الذين اختاروا عدم تغيير الشيب من أن النبي (ص) لم يغير شيبته غير صحيح بل ثبت في الصحيح أنه خضب رواه البخاري وغيره عن ابن عمر وأم سلمة وله باب في شمائل الترمذي فيراجع مع شروحه . وفي الاصول أن أفعاله (ص) لا تدل من حيث هي على وجوب ولا ندب شرعي وانما تدل على الاباحة لانه لا يفعل الحرام ، وعدم فعله لعادة من عادات الناس أولى بأن لا يدل على حرمتها ولا كراهتها دينا . وقد صح انه نبه الامة الى أن بعض أعماله في بعض العبادات لم يقصد بها التشريع كموقفه في عرفات والمزدلفة لئلا يلتزموها تدينا فيكونوا قد شرعوا من الدين مالم يأذن به الله . على أن من توخى اتباعه عليه صلوات الله وسلامه في العادات حبا فيه وتذكراً لحياته الشريفة بدون أن يعتقد أن ذلك من الدين أو يوهم الناس ذلك أو يتحمل ضرراً لا يباح التعرض له شرعا ومن غير أن يكون سبب شهرة مذمومة شرعا — فجدير بأن يكون اتباعه هذا مزيد كمال في ايمانه من حيث انه بتحري ذلك يزيد تذكره للنبي (ص) وحبه له ، وقد انفرد من الصحابة ابن عمر (رضي الله عنهما) بتتبع أعماله وعاداته وتقلبه في سفره ولا سيما سفر حجة الوداع وتحري اتباعه في ذلك كله ولم يكن سائر الصحابة يفعلون ذلك لئلا يعده الناس تشريعا فيكون جناية على الدين فالزيادة فيه كالنقص منه وهي تتضمن تكذيب قوله تعالى (أكملت لكم دينكم)

وجوب تبليغ دعوة الاسلام ورسالة محمد لجميع البشر

ومما يدخل في أحكام رسالته (ص) للناس كافة أن الله تعالى لا يقبل ايمان أحد بلغته دعوته على وجهها الصحيح الا بالايمان به واتباعه ، وأنه يجب على

أمته أي أمة الاجابة وهم الذين اهتدوا بما جاء به من الايمان والاسلام ، أن يبلغوا دعوته لجميع الناس من جميع الامم ، على الوجه الذي يحرك إلى النظر ، ويجب أن يكون القائمون بذلك منهم جماعات تتعاون عليه اذ لا يغني الافراد غناء الجماعات ، سواء أكانت الدعوة الى أصل الايمان الاجمالي الذي هو بدء الدعوة — أم الى الشرائع التفصيلية والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويشمل ذلك كله قوله تعالى (٤ : ١٠٤ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وقد ذكرنا في تفسيرها ما بسطه شيخنا الاستاذ الامام من كون الراجح المختار أن قوله تعالى (ولتكن منكم أمة) تجريد كقول القائل : ليكن لي منك صديق . أي لتكن صديقا لي ، وأنه يجب على جميع المسلمين أن يكونوا دعاة الى الخير الاعظم الذي هداهم الله اليه ، ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، كل على قدر حاله واستطاعته كما كان المسلمون في الصدر الاول ، وانه مع ذلك يجب أن يتألف للدعوة جماعات تعد لها عدتها وان هذا متعين على الوجه الآخر في الآية وهو جعل منكم للتبعيض الخ (راجع ص ٢٧ ـ ٤٥ ج ٤ تفسير وكذا ص ٢٨ منه)

وتبليغ الدعوة الى الاسلام على الوجه الذي تقوم به الحجة يختلف باختلاف الزمان والمكان والافراد والاقوام ، فقد كان مشركو العرب في عصر البعثة يؤمنون بأن الله تعالى هو رب العالمين وخالق الخلق ومدبر أموره وانما كانوا يشركون بعبادته غيره من الملائكة والجن والاصنام زاعمين أنهم يقربونهم اليه زلفى ويشفعون لهم عنده فيقضي لهم حاجهم من جلب خير ودفع ضر بوساطتهم ، وكانوا ينكرون البعث والحياة بعد هذه الحياة الدنيا وينكرون الرسالة والوحي من الله لبعض البشر ، فكان النبي (ص) يدعوهم أولا الى التوحيد الذي هو عنوان الاسلام وباب الدخول فيه لانه الركن الاعظم ، ثم انه كان يقيم لهم الحجج والبراهين على توحيد الالوهية وهو افراد الله وحده بالعبادة وعلى حقية الرسالة والبعث والجزاء مع دفع ما عندهم من الشبهات على ذلك كما تراه مفصلا في سورة الانعام التي هي أجمع سورة في القرآن لذلك وكذا في غيرها من السور المكية . ويلي ذلك دعوتهم الى اصول الشريعة وقواعدها الكلية في الآداب والفضائل والحلال والحرام ثم الى الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد

وأما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فكانوا يؤمنون بالله وبالوحي

والرسل والبعث والجزاء ، ولكن دخلت على أكثرهم الوثنية القديمة بجميع أصولها وفروعها ولا سيما النصارى الذين أقاموا عقيدتهم على أساس التثليث المعروف عن قدماء المصريين والهنود وغيرهم من الوثنيين ، وكان اليهود يزعمون ان النبوة والرسالة محصورة في بني اسرائيل لا يمكن ان يبعث الله رسولا من غيرهم ، وكانت التوراة قد فقدت في غزو البابليين لهم . ثم كتب بعضهم لهم توراة بعد عدة قرون هي عبارة عن تاريخ ديني مشتمل على قصص الانبياء الى عهد موسى وهارون وعلى ماتذكر الكاتب من شريعة التوراة مع تحريف وأغلاط كثيرة ، وكان الانجيل الذي جاء به عيسى عليه السلام من وعظ وتعليم وبشارة قد ادعاه كثيرون فظهر في العصر الاول بعده زهاء سبعين انجيلا اختار الجمهور الذي جمع شمله الملك قسطنطين الوثني الذي تنصر سياسة أربعة منها فيها كثير من الخلاف والتعارض ، وذلك بعد المسيح بثلاثة قرون. وفشا فيهم منذ عهد هذا الملك الوثني المتنصر عبادة السيدة مريم عليها السلام وغيرها من الصالحين حتى صارت الكنائس النصرانية كهياكل الاوثان مملوءة بالصور والتماثيل المعبودة — فكانت دعوة النبي (ص) إياهم الى الاسلام وحججه عليهم التي أنزلها الله عليه في القرآن تختلف من بعض الوجوه عن دعوة المشركين الاصليين كما تراه مبسوطا في السور الطول الاربع الاولى البقرة وآل عمران والنساء والمائدة — ففي الجزء الاول من البقرة من القرآن : يوجه أكثر الكلام الى اليهود وذكرت فيه النصارى بالعرض — وأوائل سورة آل عمران نزلت في حجاج نصارى نجران . وفي أواخر النساء كلام في أهل الكتاب أكثره في النصارى —وجل سورة المائدة في أهل الكتاب عامة والنصارى خاصة

وأما هذا العصر فقد كثرت فيه الملاحدة والمعطلة، وتجددت للكفار على اختلاف فرقهم شبهات جديدة يتوكؤن فيها على مسائل من العلوم العصرية لم تكن معروفة عند الاقدمين،وحدثت للناس آراء ومذاهب في الحياة فيها الحسن والقبيح ، والنافع والضار، بل منها ماقد يفضي الى فساد العالم وتقويض دعائم العمران. ومثار ذلك كله ذيوع التعاليم المادية وفوضى الآداب وتدهور الاخلاق وتغلب الرذائل على الفضائل، وقد ظهر هذا الفساد في أفظع صورة في حرب المدنية الكبرى وماولدته من تفاقم شره

المستعمرين وشرهم ومظالمهم في الشرق ، وانتشار البلشفية ومفاسدها في البلاد الروسية وغيرها، وبث دعوتها في العالم — فصار من الواجب مراعاة ذلك في الدعوة الى الدين والاحتجاج له ورد الشبه التي توجه اليه . وقد ذكرت في تفسير آية سورة آل عمران المشار اليها آنفا (ي ٤ : ١٠٤) حاجة الداعي الى الاسلام في هذا الزمان الى أحد عشر علما منها السياسة ولغات الاقوام الذين توجه اليهم الدعوة وأشرت هنالك الى مقالة كنت كتبتها قبل ذلك في المنار في الدعوة وطريقها وآدابها

اللغة العربية لغة الاسلام

ومما يدخل في بحث اتباعه صلوات الله وسلامه عليه تعلم لغته التي هي لغة الكتاب الالـهي الذي أوحاه الله تعالى اليه وأمر جميع من اتبعه ودان بدينه أن يتعبده به وان يتلوه في الصلاة وغير الصلاة مع التدبر والتأمل في معانيه، وذلك يتوقف على اتقان لغته وهي العربية . فالمسلمون يبلغون الدعوة لكل قوم بلغتهم حتى اذا ما هدى الله من شاء منهم ودخل في الاسلام علموه أحكامه ولغته ، كذلك كان يفعل الخلفاء الفاتحون في خير القرون وما بعدها الى ان تغلبت الاعاجم على العرب وسلبوهم الملك فوقفت الدعوة الى الاسلام وضعف العلم بالعربية الى أن قضى عليها الترك وحرمتها حكومتهم عليهم في هذا الزمان ، انقطع كل صلة لهم بدين القرآن ، وقد فصلنا هذه المباحث في مجلة المنار تفصيلا

ومما نشرناه في هذا الموضوع مقال في لغة الاسلام نشرناه أولا في بعض الجرائد اليومية وفيه تصريح للامام الشافعي رضي الله عنه بوجوب تعلم اللغة العربية على جميع المسلمين في رسالته في أصول الفقه ، ذلك بأنه بين ان القرآن كله نزل بلسان العرب ليس فيه شيء إلا بلسانهم ثم قال ما نصه: « فان قال قائل : ما الحجة في ان كتاب الله محض بلسان العرب لا يخلطه فيه غيره؟ فالحجة فيه كتاب الله ، قال تبارك وتعالى (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم)

« فان قال قائل: فان الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يرسلون الى قومهم خاصة ، وان محمداً صلى الله عليه وسلم بعث الى الناس كافة ، (قيل) فقد يحتمل أن يكون بعث بلسان قومه خاصة ويكون على الناس كافة أن يتعلموا

لسانه ، أو ما يطيقونه منه . ويحتمل أن يكون بعث بألسنتهم (١) ؟ فان قال قائل: فهل من دليل على انه بعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم ؟؟

قال الشافعي رحمه الله تعالى : فالدلالة على ذلك بينة من كتاب الله عزوجل في غير موضع ، فاذا كانت الالسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض فلابد أن يكون بعضهم تبعا لبعض ، وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع ، وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز - والله تعالى أعلم - أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد ، بل كل لسان تبع للسانه وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه ، وقد بين الله تعالى ذلك في غير آية من كتابه . قال الله عز ذكره (وانه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الامين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين) وقال (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) وقال (وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها) وقال تعالى (حم والكتاب المبين * انا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون)

قال الشافعي رحمه الله تعالى : فأقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها ، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه جل وعز كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه فقال تبارك وتعالى (ولقد نعلم أنهم يقولون : انما يعلمه بشر . لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) وقال (ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ؟ أأعجمي وعربي ؟)

« قال الشافعي رحمه الله تعالى : وعرفنا قدر نعمه بما خصنا به من مكانه فقال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ....) الآية ، وقال (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم) الآية . وكان مما عرف الله تعالى نبيه عليه السلام من انعامه ان قال (وانه لذكر لك ولقومك) فخص قومه بالذكر معه بكتابه وقال (وانذر عشيرتك الاقربين) وقال (لتنذر أم القرى ومن حولها) وأم القرى مكة

«١» اي يحتمل ذلك عقلا وان قام الدليل على مقابله فعلا

وهي بلده وبلد قومه ، فجعلهم في كتابه خاصة ، وأدخلهم مع المنذرين عامة ، وقضى أن ينذروا بلسانهم العربي لسان قومه منهم خاصة

«فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله تعالى وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك ، وما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته ، وأنزل به آخر كتبه ، كان خيراً له ، كما عليه أن يتعلم الصلاة والذكر فيها ويأتي البيت وما أمر باتيانه ويتوجه لما وجه له ، ويكون تبعا فيما افترض عليه وندب اليه لا متبوعا

«قال الشافعي رحمه الله : وانما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيرهم لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب وكثرة وجوهه ، وجماع معانيه وتفرقها : ومن علمها انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها ، فكان تنبيه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة نصيحة للمسلمين . والنصيحة لهم فرض لا ينبغي تركه ، أو إدراك نافلة خير لا يدعها الا من سفه نفسه ، وترك موضع حظه ، فكان يجمع مع النصيحة لهم قياما بايضاح حق ، وكان القيام بالحق ونصيحة المسلمين طاعة لله ، وطاعة الله جامعة للخير » اه ثم ذيلنا هذا النقل بما نذكر هنا ملخصه ببعض تصرف وهو :

هذا ما قاله الامام الشافعي في رسالة الاصول الشهيرة المطبوعة بمصر بنصها ، ولا تحسبن ان هذا مذهب له خالفه فيه غيره من ائمة المسلمين ، كلا انه اجماع لا اختلاف فيه ، وقد اشتهرت رسالته هذه في جميع أقطار الاسلام اذ كانت هي أول ما كتب في أصول الفقه ، وقد خالفه بعض المجتهدين في بعض مسائل الاصول دون هذه المسألة فلم يخالفه ولم يناقشه أحد فيها ، ولا فيما أورده من الادلة عليها ، وأوضح الأدلة على هذا إجماع المسلمين سلفاً وخلفا على التعبد بتلاوة القرآن العربي وأذكار الصلاة والحج وغيرهما بالعربية ، لم يشذ عن هذا سني ولا شيعي ولا أباضي ولا خارجي ولا معتزلي

نعم ان المسلمين قد قصروا في دراسة هذه اللغة بعد ضعف الخلافة الاسلامية وتغلب الاعاجم فعطلوا بذلك بعض ما أمرهم الله تعالى به من تدبر القرآن والعبرة والاتعاظ

بآياته وفهمَ عقائده وفقه أحكامه ، ولكن روي قول شاذ عن الامام أبي حنيفة رحمه الله تعالى بجواز أداء بعض أذكار الصلاة والتلاوة فيها بغير العربية لمن تعذر عليه تعلم ما يجب منهما أي من الافراد لضعف في نطقه رفهمه، وقد صح عنه أيضا أنه رجع عن هذا القول ، على انه مقيد بالضرورة الشخصية ، ولم يقل هو ولا غيره باطلاق ذلك وانه يسع أي شعب أعجمي أن يستغني في دينه عن لغة كتابه وسنته ، والدليل على هذا أن جميع مقلديه من الاعاجم لا يزالون يقرؤن القرآن وأذكار الصلاة والحج وغيرها بالعربية وكذلك خطبة صلاة الجمعة والعيدين الا ماشذت به الحكومة الكمالية التركية فأمرت الخطباء بأن يخطبوا بالتركية تمهيداً للصلاة بها الخارقة الاسلام وقد بلغنا أن جماعة المصلين من الترك لما سمعوا خطبة الجمعة بالتركية نكروها ونفروا منها واتخذوا خطباءها سخريا لان للعربية سلطانا على أرواحهم يخشعون لها وان لم يفهموا كل عباراتها ولأنهم اعتادوا أن يسمعوها بنغم خاص وأداء خاص لا تقبله اللغة التركية كالعربية

وليست عبادات الاسلام وحدها هي التي تتوقف على العربية بل معرفة أحكام المعاملات تتوقف عليها أيضا فان أحكام الشريعة بجميع أنواعها حتى المدنية والسياسية متوقفة على الاجتهاد المعبر عنه في عرف هذا العصر بالتشريع ، وقد أجمع علماء الاصول من جميع المذاهب الاسلامية على توقف الاجتهاد في الشرع واستنباط الاحكام على معرفة اللغة العربيـة معرفة تمكن صاحبها من فهم أحـكام القرآن والسنـة ، وقد وضحنا هذه المسألة وبينا وجه الحاجة اليها في هذا العصر في كتاب (الخلافة ــ أو الامامة العظمى) فتراجع فيه

وجملة القول ان إقامة دين الاسلام متوقفة على لغة كتابه المنزل، وسنة نبيه المرسل ، سواء في ذلك هدايته الروحية ، ورابطته الاجتماعية ، وحكومته العادلة المدنية، وان المسلمين لم يكونوا في عصر من العصور أحوج الى الوحدة المفروضة عليهم المتوقفة على هذه اللغة منهم في هذا العصر الذي تمزقوا فيه كل ممزق، فأصبحوا أكلة لنهمي الاستعمار ومستعبدي الامم والشعوب ، وصدق فيهم قول النبي (ص) «يوشك أن تـداعى عليكم الامم كما تداعى الأكلة الى قصعتها » الحديث

بحث ترجمة القرآن

سيقول بعض الجاهلين لحقيقة الاسلام وكونه دينا روحانيا مدنيا سياسيا ، وبعض أولي العصبية الجنسية الجاهلية : ان مقتضى ما ذكرت أنه لا يمكن إقامة دين الاسلام كما يجب إلا باللغة العربية ، فلماذا لا يجوز على شعوب المسلمين ماجاز على شعوب النصارى مثلا من ترجمة كتبهم المقدسة بلغاتهم المختلفة مع بقائهم على دين النصرانية وملة المسيح عليه السلام ؟

ونقول (أولا) ان المسألة عندنا مسألة نقل واتباع لا مسألة رأي ، وقد علمت أن أئمتنا مجمعون على ماذكرنا (وثانيا) اننا نحن المسلمين لا نعتقد أن النصاري على ملة المسيح عليه السلام ولا يصح أن نزيد على ذكر اعتقادنا هذا في صحيفة عمومية(١) (وثالثا) إن ترجمة القرآن المعجز للبشر ترجمة تؤدي معانيه تأدية تامة كما أنزلها الله تعالى ويبقى بها معجزاً وآية — متعذرة ، وقد بيناها هذا بالايضاح في مجلتنا (المنار) ولا محل له هنا ؛ (ورابعا) إذا فرضنا أن ترجمة الكتاب والسنة لا تخل بفهم أصول الدين وفروعه ونشر يعه أفلا تخل بما هو موضوع هذا المقال من وجوب وحدتهم وتعارفهم وتعاونهم — وتوقف ذلك على لغة واحدة ضروري — فاذا لم تكن لغة جميع أفراد شعوبهم فلتكن مما يتقنه طوائف رجال الدين ودعاة الوحدة والاتفاق منهم ؟ بلى بلى اهـ

﴿ تفصيل القول في ترجمة القرآن ﴾

كتبنا فى فاتحة المجلد ٢٦ من المنار مقالا فى مسألة ترجمة القرآن نذكر هنا منه مايلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

الر ، تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * (سورة يوسف ١٢ ١ و ٢)

---

(١) المراد بها جريدة الاهرام التي نشرنا فيها هذا المقال

وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا * (سورة طه ٢٠ : ١١٣)

ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا و بشرى للمحسنين * (الاحقاف ٢٦ : ١٢)

ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون * قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون * (سورة الزمر ٣٩:٢٦و٢٧)

حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * (سورة فصلت ٤١ : ١ — ٣)

حم * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم * (الزخرف ٤٣ : ١ ـ ٤)

وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر ام القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير (سورة الشورى ٤٢:٧)

وانه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الامين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين * وانه لفي زبر الاولين * أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل * ولو نزلناه على بعض الاعجمين * فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين (سورة الشعراء ٢٦ : ١٩٢ ـ ١٩٩)

قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى و بشرى للمسلمين * ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين * (سورة النحل ١٦ : ١٠٢و١٠٣)

ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي ؟ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، اولئك ينادون من مكان بعيد * (سورة فصلت ٤١ . ٤٤)

و كذلك أنزلناه حكما عربيا ، ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا واق * (سورة الرعد ١٣ : ٣٧)

﴿ أما بعد ﴾ فهذه آيات محكمات هن أم الكتاب في هذا الباب ، تجاوزن جمع القلة

الى جم الكثرة وعدون اشارات الايجاز وحدود المساواة الى باحة لاطناب ، ينطقن بنصوص صريحة لاتحتمل التأويل ، ولاتقبل التبديل ولاالتحويل ، بأن الله تبارك وتعالى هو الذي أنزل هذا الكتاب الذي جعله آخر كتبه ، على خاتم أنبيائه ورسله ، قرآنا عربيا ، وانه هو الذي جعله قرآنا عربيا ، وانه هو الذي أوحاه قرآنا عربيا ، وانه هو الذي فصل آياته قرآنا عربيا ، وان الروح الامين ، نزل به على قلب خاتم النبيين ، بلسان عربي مبين ، وانه ضرب فيه للناس من كل مثل ، والمراد بالناس أمة الدعوة من جميع الملل والنحل ، حال كونه قرآنا عربيا غير ذي عوج ، وانه أمر خاتم رسله أن ينذر به (أم القرى) ومن حولها من جميع الورى ، وانه على إنزاله اياه قرآنا عربيا للانذار والذكرى ، والوعيد والبشرى ، لعلهم يعقلون ولعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا ، أنزله حكما عربيا ، وأمر من أنزله عليه أن يحكم بين جميع الناس بما أراه الله فيه من الحق والعدل ، الذي جعله فيه حقا مشاعا لاهوادة فيه ولامحاباة لقرابة ولا فضل ، فقال (إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولاتكن للخائنين خصيما) اقرأ الآيات (من سورة النساء ٤ : ١٠٤ – ١١٤) بطولها ، وراجع سبب نزولها ، فعلم من هذه الآيات المحكمة أن القرآن هداية دينية عربية ، وانه حكومة دينية مدنية عربية ، عربية اللسان ، عامة لجميع شعوب نوع الانسان ،

وصلوات الله وتحياته المباركة الطيبة على محمد النبي العربي الامين ، الذي جعله سيد ولد آدم وفضله على جميع النبيين والمرسلين ، باكمال دينه بلسانه وعلى لسانه وإرساله لجميع العالمين ، وجعل هداية رسالته باقية الى يوم الدين ، بقوله عمت رحمته (وماأرسلناك الارحمة للعالمين * ٢١ : ١٠٦) وقوله تبارك اسمه (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً * ٢٥ : ١) وقوله تعالى جده (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيراً ، ولكن أكثر الناس لايعلمون * ٣٤ : ٣٨) وقوله جل جلاله (ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما * ٣٣ : ٤٠) وقوله عم نواله فيما أنزله عليه في حجة الوداع يوم الحج الاكبر (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا * ٥ : ٤)

وقد بلغ صلوات الله وسلامه عليه دعوة ربه كما أمر ، فبدأ بأم القرى ثم بما حولها من

جزيرة العرب وشعوب العجم ، باللسان العربي الذي قضى الله أن يوحد به ألسنة جميع الامم ، فيجعلهم أمة واحدة بالعقائد والعبادات والآداب والشرع واللغة ، ليكونوا بنعمته إخوانا لا امتار بينهم للعداوات التي تفرق بين الناس بعصبيات الأنساب والاقوام والاوطان والألسنة ، فكتب (ص) كتبه إلى قيصر الروم وكسرى الفرس ومقوقس مصر بلغة الاسلام العربية ككتبه الى ملوك العرب وأمرائهم ، وبلغ أصحابه ما أمر الله به أمته من تعميم الدعوة ، وبشرهم بأن نورها سينتشر ما بين المشرق والمغرب ، فصدع الصحابة والتابعون لهديهم ، وجميع دول الاسلام من بعدهم ، بما أمر وا به من نشر هذا الدين بلغته ، في كلا قسمي شريعته ، عبادته وحكومته ،

فكان الاسلام ينتشر في شعوب الاعاجم من قارات الارض الثلاث (آسية وافريقية وأوربة) بلغته العربية ، فيقبل الداخلون فيه على تعلم هذه اللغة بباعث العقيدة ، وضرورة اقامة الفريضة ، ولاسيما فريضة الصلاة التي هي عماد الدين ، وأعظم أركانه بعد التصريح بالشهادتين ، اللتين هما عنوان الدخول فيه ، على انهما من أعمال الصلاة أيضا ، فكان تعلم العربية من ضروريات الاسلام ، عند جميع تلك الشعوب والاقوام ، بالاجماع العلمي العملي ، التعبدي والسياسي ، لما كان من تقصير دولة الترك العثمانيين ، بعدم جعل العربية لغة رسمية للدواوين ، كسلفهم من السلجوقيين والبويهيين ، حتى بعد تنحلهم للخلافة الاسلامية ، ورفع ألويتهم على مهد الاسلام من البلاد الحجازية ، فآل ذلك الى التعارض والتعادي بين العصبية التركية اللغوية ورابطة الاسلام ، فالتفرق والتقاتل بين الترك والعرب فإلغاء الخلافة العثمانية فإسقاط دولة آل عثمان ، وتأليف جمهورية تركية العصبية والتربية والتعليم ، أوربية العادات والتقنين والتشريع ، وإبطال ما كان في الدولة من المصالح الاسلامية ، كمشيخة الاسلام والاوقاف والمدارس الدينية والمحاكم الشرعية وصرحوا بأن حكومتهم هذه مدنية غربية لادينية وأنهم فصلوا بين الدين والدولة فصلا باتا كما فعلت الشعوب الافرنجية ، على أنهم لما وضعوا قانون هذه الجمهورية قبل التجرؤ على كل ما ذكر ، وضعوا في مواده ان الدين الرسمي للدولة هو الاسلام مراعاة للشعب التركي المسلم ، كما وضعوا فيه مواد أخرى تنافي الاسلام من استقلال المجلس الوطني المنتخب بالتشريع بلا قيد ولا شرط ، ومن إباحة الردة واستحلال ما حرم الشرع ، يظهر أثر

ذلك بالقول والفعل ، كالطعن الصريح في الدين والاستهزاء به حتى في الصحف العامة وكإباحة الزنا والسكر للمسلمين والمسلمات ، وبروز النساء التركيات في معاهد الفسق ومحافل الرقص كاسيات عاريات، مائلات مميلات ، الى غير ذلك من منافيات الدين ،

ولكن هذا كله لم يرو غليل العصبية اللغوية التورانية، ولم يذهب بحقدها على الرابطة الاسلامية ، وآدابها الدينية العربية ، بل كان من كيدها لها السعي لازالة كل ماهو عربي من نفس الشعب التركي ولسانه، وعقله ووجدانه ، ليسهل عليهم سله من الاسلام، بمعونة التربية الجديدة والتعليم العام، بل عمدوا الى هذه الشجرة الطيبة الثابت أصلها ، الراسخ في أرض الحق والعدل والفضل عرقها ، الممتد في أعالي السماء فرعها ، التي تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ، عمدوا اليها لاجتثاث أصلها واقتلاع جذرها بعد ماكان من التحاء عودها ، وامتلاخ أملودها ، وخضد شوكتها وعضد خصلتها، بعد أن نعموا بضعة قرون بثمرتها، وإنما تلك الشجرة الطيبة هي القرآن الكريم الحكيم المجيد العربي المبين، هي الزيتونة المباركة الموصوفة بأنها لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، فاذا مسته نار الايمان بحرارتها اشتعل نوراً على نور (يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم)

وانما أعني بقطع هذه الشجرة المباركة من أرض الشعب التركي محاولة حرمانه منه ، ذلك بأنهم ترجموا القرآن بالتركية لا ليفهمه الترك ، فان تفاسيره بلغتهم كثيرة وكان من مقاصدهم ابطال المدارس الدينية ابطال دراستها (أي التفاسير حتى التركية) وحظر مدارسة كتب السنة وكتب الفقه ونحوها، لأنها مشحونة بآيات القرآن العربية، وبالاحاديث النبوية العربية ، وبآثار السلف الصالح العربية ، وبالحكم والامثال وشواهد اللغة العربية ، وهم يريدون محو كل ماهو عربي من اللغة التركية ، ومن أنفس الامة التركية ، حتى انهم ألفوا جمعية خاصة له عبروا عنه « بتطهير اللغة التركية » من اللغة العربية ، واقترح بعضهم كتابة لغتهم بالحروف اللاتينية ، واذا طال أمد نفوذ الملاحدة في هذا الشعب الاسلامي الكريم فانهم سينفذون هذا الاقتراح قطعاً كما نفذوا غيره حتى استبدال قرآن تركي يلفقه بعض ملاحدة التورانيين، بالقرآن الذي نزل به الروح الامين ، على قلب خاتم النبيين ، بلسان عربي مبين ،

المتعبد بألفاظه العربيــة باجماع المسلمين ، والمعجز ببلاغته العربية لجميع العالمين ، وكونه حجة الله تعالى عليهم الى يوم الدين

***

أرأيت أيها القاريء هذا الخطب العظيم ؟ أرأيت هذا البلاء المبين ؟ أرأيت هذه الجرأة على رب العالمين ؟ أرأيت هذه الصدمة لدين الله القويم ؟ أرأيت هذا الشنآن والاحتقار لاجماع المسلمين ؟ ورفض ماجروا عليه مدة ثلاثة عشر قرنا ونصف ؟ ثم أرأيت بعد هذا كله ماكان من تأثير ذلك في مصر أعرق بلاد الاسلام في الفنون العربية ، والعلوم الاسلامية ،

لقد كان من تأثير ذلك ماهو أقوي البراهين ، على فوضى العلم والدين ، واختلال المنطق وفساد التعليم ، والجهل الفاضح بضروريات الاسلام وشؤون المسلمين ، لقد كان أثر ذلك الجدال والمراء ، وتعارض الآراء والاهواء، وتسويد الصحائف المنشرة ، بمثل ماشوهوها به في مسألة الخـلافة ، وقد كا ، يجب أن تكون مسألة القرآن أبعد عن أهواء الخلاف ، للنصوص الكثيرة الصريحة فيها ، وإجماع السلف والخلف بالعلم والعمل عليها ، وعدم شذود أصحاب المذاهب والفرق حتى المبتدعة عنها ، فقد كثر الخلاف والتفرق في الدين ، وتعددت الاحزاب والشيع في المسلمين ، على ماورد في النهي عن ذلك والوعيد عليه في الآيات الصريحة ، والاحاديث الصحيحة ، وارتد بعض الفرق عن الديــن ، بضروب من فاسد التأويل ، وسخافات من أباطيل التحريف ، كما فعل زنادقة الباطنية وغيرهم ، قبل أن يقووا و يصرحوا بكفرهم ، ولم تقم فرقة تنتمي الى الاسلام بترجمة القرآن ولا ضلت طائفة بترجمة أذكار الصلاة والاذان ، لاجل الاستغناء بها في التعبد لله ، عن اللفظ المنزل من عندالله ، وانما قصارى ماوقع من الخلاف فيما حول ذلك من فروع المسألة ، ومن تصوير الفقهاء للوقائع النادرة ، انه اذا أسلم أعجمي مثلا واردنا تعليمه الصلاة فلم يستطع لسانه أن ينطق بألفاظ الفاتحة فهل يصلي بمعانيها من لغته ، أم يستبدل بها بعض الاذكار العربية المأثورة موقتاً ريثما يتعلم القرآن كما ورد في بعض الاحاديث ، أم يصلي بترجمة الفاتحة بلغته ؟ نقل القول الاخير عن أبي

حنيفة وحده مع مخالفة جميع أصحابه له ، ونقل عنه أنه رجع عنه الى الاجماع ، ومايتقل عن أحد من المسلمين أنه عمل به ﴿ على انه لاحجة في عمل أحدولا في قوله غير المعصوم ﴾ فكان هذا الاجماع العام المطلق مما يؤيد حفظ الله تعالى القرآن، وأراد ملاحدة الترك أن يبطلوه في هذا الزمان (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواهم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون * (سورة الصف ٦١ : ٩ و١٠)

منشأ فكرة ترجمة القرآن وسببها

لقد كان ضعف الخلافة القرشية بجهل الخلفاء وترفهم وفسقهم سبباً لتفرق المسلمين فتخاذلهم فضعفهم ، إذ كان سبباً لتأسيس عدة دول اسلامية تتنازع السلطة — ولضعف اللغة العربية وترك الأعاجم لها ، فاضطرارهم إلى ترجمة بعض الكتب الدينية وتدريس العربية منها بالترجمة فالشعور بالحاجة إلى ترجمة القرآن نفسه بلغاتهم لأجل فهمه بالاجمال ، ثم بالحاجة الى ترجمته بسائر اللغات لأجل الدعوة بترجمته الى الاسلام ، ولما انفردت دولة الترك والعثمانيين دون سائر دول الاعاجم الاسلامية بجعل لغتهم رسمية لها ، ثم بادعاء منصب الخلافة لسلطانها، اقتضى ذلك تعمد هذه الدولة لاضعاف الامة العربية ولمعاداتها، ولتفضيل لغة أبناء جنسهم، على لغة كتاب ربهم وسنة رسولهم، ثم لتفضيل رابطة جنسهم ولغتهم على رابطة دينهم، ثم للاستغناء عن هذه بتلك ومن ثم صارت جامعة اللغة والقومية معارضة للجامعة الاسلامية وسببا لمعاداتها . ثم تجدد لدعاة العصبية الجنسية التركية سبب آخر لترجمة القرآن وهو التمهيد به الى المروق من الاسلام ، ولم يفعل هذا الا الترك الذين نالوا بالاسلام دون غيره مانالوا من العز والملك الكبير

إن ملاحدة الترك ودعاة العصبية الجنسية منهم قد بثوا في قومهم فكرة الاستغناء عن القرآن المنزل من الله تعالى باللسان العربي بترجمته باللسان التركي قبل عهد الحرية الدستورية بسنين . وقد أنكرنا هذا عليهم قولا وكتابة ، وأول من سمعنا منه هذا الرأي محمد عبيد الله افندي الذي صار بعد الدستور مبعوثا

وأنشأ في الاستانة جريدة عربية باللغة العربيــة لأجل خداع العرب وإضلالهم . سمعت هذا الرأي الفاسد منه في مصر ورددت عليه فيه . ثم سمعته في الأستانة من غيره أيضاً وأنكرته عليهم ، وقد ذكرته في مواضع من مجلد المنار الثالث عشر

(منها) قولنا في (الفتوى ٢٠ ص ٣٤٣ ج ٥ م ١٣ الذى صدر في سلخ جمادى الأولى سنة ١٣٢٧) في سياق تخطئة محمد عبيد الله افندي في ادعائه أن الاسلام نشر بالاكراه عليه بالسيف .

« ليست هذه المسألة هي التي شذ فيها وحدها هذا الرجل ، فان له شذوذاً في مسائل أخرى دينيــة وتاريخية كادعائه أن نبوة النبي (ص) ما تمت ولا تتم الا بترجمة القرآن الى جميع اللغات ، وكادعائه أن غير العرب من المسلمين يمكنهم الاستغناء في دينهم عن معرفة اللغة العربية ، وعن القرآن العربي المنزل من عند الله تعالى آية للعالمين ، معجزاً للبشر على ممر السنين ، بترجمتــه الى التركية والفارسية وغيرهما من اللغات وإن كان المترجم يترجم حسب فهمه ، فيختلف مع غيره ، فيكون لكل أهل لغة قرآن ، وإن كانت الترجمة لا يمكن أن يتحقق فيها الاعجاز كالقرآن المنزل من عند الله تعالى ، ولا يصح التعبد بتلاوتها ، ولا يتحقق فيها غير ذلك من خصائص القرآن ، وقد سبق لي مناظرة معه في هذه المسألة بمصر منذ سنين اه

ومنها — ما ذكرته في (ج ٧ منه ص ٥٤٩) في سياق سـمر مع طلعت بك (باشا) ناظر الداخلية بداره في الآستانة: ذكر لي فيه أن هذا الرجل سينشىء جريدة عربيــة لأجل التآلف بين العرب والترك ، فذكرت له أنه يخشى أن يكون تأثيرها زيادة الشقاق لما هو معروف به من كراهة العرب ، وزعمه إمكان استغناء الترك عن لغتهم وعن قرآنهم العربي بترجمته بالتركية الخ وكذلك كان

ومنها — قولنا في مناجاة لله تعالى (في ص ٤ ٣٠ منه) : اللهم إنك تعلم أن من هؤلاء (أي المفسدين) من يفوّق سهام كيده ومكره للأمة العربية التي شرفتها وفضلتها بخاتم أنبيائك ورسلك ، وخير كتبك المنزلة لهـداية خلقك ، وخاطبت سلفها الصالح بقولك الحق (كنتم خير أمة أخرجت للناس) الخ

« اللهم إنهم حسدوها أن جعلت كتابك عربيا مبيناً ، فهم يريدون ترجمته ليكون عرضة لتحريف المجرمين ، واختلاف المتفقين ، اللهم إنك أنزلته لتجمعهم عليه ، وهم يحاولون ترجمته لكل شعب من المسلمين ليتفرقوا فيه ، اللهم إنه حبلك المتين الذي أمرتنا أن نعتصم به ، ولا نتفرق عنه بقولك (٣ : ١٠٣ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وهو بيناتك التي قلت فيها (٣ : ١٠٥ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات)

« اللهم إنهم يزعمون أن رسالة خاتم رسلك ما تمت الى الآن ، وأنها لا تتم إلا بترجمة القرآن ، وأنت قلت وقولك الحق (٥ : ٣ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً)

ومنها — قولنا في آخر الفتوى ٣٢ منه (ص ٥٠١) في سياق الدعوة الى الاهتداء بالكتاب والسنة : ولا يتم هذا الاهتداء الا بالعناية باللغة العربية ، ولا شيء أضر على الاسلام في هذا العصر ممن يدعو الى ترجمة القرآن الى اللغات المختلفة ، ليستغني المسلمون بالترجمة عن القرآن المنزل من عند الله تعالى بلسان عربي مبين . فالغاية من هذه المفسدة اذا وقعت (لاسمح الله) أن يكون الأعاجم من المسلمين عرضة لترك الدين . وسنوضح ذلك ان شاء الله تعالى اه

وقد راجت دعوة ملاحدة الترك الى الاستغناء عن كتاب الله المنزل بعد قبض ملاحدة جمعية الاتحاد والترقي على أعنة الدولة العثمانية تمهيداً منهم لما نفذه أندادهم الكماليون من بعدهم من نبذ الدولة التركية لأحكام الاسلام ، وسعيها لسل الشعب التركي منه أيضاً

وقد كان مما نشر الاتحاديون من الكتب الممهدة لهذا السبيل كتاب (قوم جديد) الذي انتقدناه ونشرنا ترجمة بعض مسائله في المجلد السابع عشر من المنار (سنة ١٣٣٥) والمراد بكلمة قوم جديد انشاء شعب تركي غير مسلم . ومما قلناه في آخر مقال طويل منه (ص ١٦٠ ج ٢ م ١٧) عنوانه (مفاسد المتفرنجين في أمر الاجتماع والدين) مانصه :

« يرى هؤلاء العاملون أنه ليس في طريقهم عقبة تحول دون بلوغ المقصد

بالسرعة التي يبغون من وراء هذا العمل الا حاجة الترك الى اللغة العربية لأجل الدين . ويرون أن هذا الدين ولغته مما يعيق تكوين أمة تركية محضة على الطراز الافرنجي الفرنسي ، فاجتهدوا في ازالة هذا المانع بمزيلين

(أحدهما) ترجمة القرآن بالتركية ودعوة الترك الى الاستغناء عن القرآن العربي بما سموه القرآن التركي . واذا استغنوا عن القرآن يستغنون بالأولى عن غيره من كتب الحديث والتفسير والفقه وسائر العلوم والفنون العربية

(الثاني) نشر الكتب والرسائل التي تجعل الجنسية التركية أعلى وأسمى في النفوس من رابطة الدين تمهيداً للثانية بالاولى . . .

(وذكرنا من هذه الكتب كتاب قوم جديد ، وأشرنا الى بعض مفاسده)

ثم نشرنا نموذجا من كتاب (قوم جديد) هذا في (ص ٥٣٩ — ٥٤٤ منه) أوله قوله في (ص ١٤ منه) : يجب تعطيل جميع المساجد والتكايا الموجودة في الآستانة ما عدا الجوامع التي بناها السلاطين [1] وتخصيص نفقاتها بالشؤون الحربية والعسكرية ، كما ورد في الآيات الكريمة والأعمال النبوية (؟) ويليه قوله في ص ١٥ بفرضية ترجمة القرآن

ومنه ماذكره من صفات من سماهم (قوم عتيق) من تمسكهم بالصوم والصلاة والحج والزكاة ، والعمل بكتب فقه الائمة الأربعة التي وصفها بأنها مملوءة بالنفاق والشقاق ، وزعم أن العمل بها غير جائز — ثم قال في صفات (قوم جديد) مانصه:

« وأما القوم الجديد فانهم لا يبالون بمثل هذه الخرافات القديمة ، بل استخرجوا من الأحكام القرآنية والحديثية الأركان الدينية الآتية (١) العقل (٢) كلمة الشهادة (٣) الأخلاق الحسنة (٤) الجهاد مالا وبدنًا والحرب (٥) السعي لاعداد لوازم الحرب . . . الخ . ثم بسطنا هذه المسائل من وسائل ومقاصد في المجلد التاسع عشر . وقد صدّق كل ما قلناه وارتأيناه من مقاصد ملاحدة الترك ما فعلته الحكومة الكمالية من الغاء الأحكام الشرعية كلها ، وجعل جميع سياستها وأحكامها حتى الشخصية مدنية أوربية ، والغاء المحاكم

(١) استثناها لانه ليس عندهم من آثار العمران التركية سواها لا لانها مساجد

الشرعية ، والأوقاف الاسلامية، والمدارس الدينية - د ٤- إلغاء ما عمل باسم الدين من المبتدعات كتكايا أصحاب الطرق مقلدة المتصوفة الخ : صدقوا بالفعل كل ماقلناه من مقاصدهم ، وكان بعض المسلمين الجاهلين بحال الدولة التركية وتأثير التفرنج فيها ينكرون علينا ما نقوله عن علم وخبرة وغيرة على الاسلام ظنا منهم أنه إضعاف للدولة حامية الاسلام ، وانما كان حرصاً على تقوية الدولة بالاسلام وتقوية الاسلام بالدولة، لأننا نعلم مالا يعلمون من إفضاء هذه الضلالات والعصبية الجنسية الى اضاعة هؤلاء المتعصبين المفتونين للاسلام وللدولة معاً - وكذلك كان

وقد كان بعض الترك الروسيين استفتانا في مسألة الترجمة قبل أن نعلم بهذا الغرض الفاسد فأفتيناه فيها لذاتها اذ لم يكن يخطر ببالنا ان أحداً من المسلمين يتوسل بذلك الى اخراج شعب اسلامي من الاسلام - وهذا نص السؤال والجواب:

﴿ فتوى المنار في حظر ترجمة القرآن ﴾

نشرت في ص ٢٦٨ - ٢٧٤ م ١١ ج ٤ منه المؤرخ ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٣٢٦

(س ١) من الشيخ أحسن شاه افندي احمد (من روسيا)

حضرة الاستاذ السيد محمد رشيد رضا

نرجو أن تعيروا جانب الالتفات لهذه المسألة المهمة :

ذكر الفاضل أحمد مدحت افندي من علماء الترك العثمانيين في كتابه « بشائر صدق نبوت » ماترجمته :

إن ترجمة القرآن مسألة مهمة عند المسلمين وجميع المباحثات التي دارت بشأن ترجمة هذا الكتاب المجيد لم ترس على نتيجة ، وذلك لوجوه (الأول) أن ترجمته بالتمام غير ممكنة لاعجازه من جهة البلاغة (والوجه الثاني) أن فيه كثيراً من الكلمات لايوجد لها مقابل في اللغة التي يترجم اليها ، فيضطر المترجم إلى الاتيان بما يدل عليها مع شيء من التغيير . ثم اذا نقلت هذه الترجمة الى لغة أخرى يحدث فيها شيء من التغيير أيضاً وهلم جرّاً ، فيخشى من هذا أن يفتح طريق لتحريف القرآن وتغييره (الوجه الثالث) أن كلمات الكتب السماوية

يستخرج منها بعض إشارات وأحكام بطريق الحساب،فابدالها بالترجمة يسد هذا الطريق ، مثال ذلك أن سعدي جلبي كتب في حاشيته على البيضاوي عند تفسير سورة الفاتحة أنه اذا أخرجت الحروف المكررة من سورة الفاتحة التي هي أول القرآن وسورة الناس التي هي آخر سورة تكون الحروف الباقية ثلاثة وعشرين قال: وفي ذلك اشارة الى مدة سني النبوة المحمدية — فاذا ترجم القرآن لا يبقى في الترجمة مثل هذه الفوائد التي هي من جملة معجزاته انتهى «من بشائر صدق نبوت»

أما أدباؤنا معشر الترك الروسيين ، فانهم مصرون على ترجمته ويقولون : لامعنى للقول بأنه لاتجوز ترجمة القرآن الا ايجاب بقائه غير مفهوم ، فلذا يذهبون الى وجوب ترجمته ، وهو الآن يترجم في مدينة قزان ، وتطبع ترجمته تدريجاً ، وكذلك تشبث بترجمته الى اللسان التركي زين العابدين حاجي الباكوي أحد فدائية القفقاز ، فنرجو من حضرة الاستاذ التدبر في هذه المسألة

حرره الامام الحقير أحسن شاء أحمد

الكاتب الديني السماوي

(جواب المنار له) إن من تقصير المسلمين في نشر دينهم أن لا يبينوا معاني القرآن لأهل كل لغة بلغتهم ، ولو بترجمة بعضه[1] لأجل دعوة من ليس من أهله اليه ، وإرشاد من يدخل فيه عند الحاجة بقدر الحاجة . وإن من زلزال المسلمين في دينهم أن يتفرقوا الى أمم تكون رابطة كل أمة منها جنسية نسبية أو لغوية أو قانونية ، ويهجروا القرآن المنزل من الله تعالى على خاتم رسله ، المعجز بأسلوبه وبلاغته وهدايته ، المتعبد بتلاوته ، اكتفاء بأفراد من كل جنس يترجمونه لهم بلغتهم بحسب ما يفهم المترجم

هذا الزلزال أثر من آثار جهاد أوربا السياسي والمدني للمسلمين . زين لنا أن نتفرق ونقسم إلى أجناس ، ظانا كل جنس منا أن في ذلك حياته ، وما ذلك إلا موت للجميع . ولا نطيل في هذه المسألة هنا ، ولكننا نذكر شيئا مما يخطر في البال من مفاسد هجر المسلمين للقرآن المنزل (بلسان عربي مبين) ـ استغناء

«١» بالترجمة هنا المعنوية التفسيرية لا اللفظية الحرفية

عنه بترجمة أعجمية يغنيهم عنها تفسيره بلغتهم ، مع المحافظة على نصه المتواتر ، المحفوظ من التحريف والتبديل – مع مراعاة الاختصار فنقول :

(١) إن ترجمة القرآن ترجمة حرفية تطابق الأصل متعذرة كما يعلم من المسائل الآتية . والترجمة المعنوية عبارة عن فهم المترجم للقرآن ، أو فهم من عساه يعتمد هو على فهمه من المفسرين ، وحينئذ لا تكون هذه الترجمة هي القرآن ، وإنما هي فهم رجل للقرآن يخطىء في فهمه ويصيب ، ولا يحصل بذلك المقصود المراد من الترجمة بالمعنى الذي ننكره

(٢) إن القرآن هو أساس الدين الاسلامي ، بل هو الدين كله ، إذ السنة ليست ديناً الا من حيث انها مبينة له . فالذين يأخذون بترجمته يكون دينهم ما فهمه مترجم القرآن لهم ، لا نفس القرآن المنزل من الله تعالى على رسوله محمد (ص) والاجتهاد بالقياس انما هو فرع عن النص ، والترجمة ليست نصاً من الشارع ، والاجماع عند الجمهور لا بد أن يكون له مستند والترجمة ليست مستنداً . فعلى هذا لا يسلم لمن يجعلون ترجمة القرآن قرآنا شيء من أصول الاسلام

(٣) ان القرآن منع التقليد في الدين وشنع على المقلدين فأخذ الدين من ترجمة القرآن هو تقليد لمترجمه ، فهو اذاً خروج عن هداية القرآن لا اتباع لها

(٤) يلزم من هذا حرمان المقتصرين على هذه الترجمة مما وصف الله به المؤمنين في قوله (١٢ : ١٠٨ قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) وأمثالها من الآيات التي تجعل من مزايا المسلم استعمال عقله وفهمه فيما أنزل الله[1]

(٥) كما يلزم حرمانهم من هذه الصفات العالية يلزم منع الاجتهاد والاستنباط من عبارة المترجم ، لأن الاجتهاد فيها مما لا يقول به مسلم

(٦) ان من يعرف لغة القرآن وما يحتاج اليه في فهمه كالسنة النبوية وتاريخ الجيل الأول الذي ظهر فيه الاسلام يكون مأجوراً بالعمل بما يفهمه من القرآن

(١) أعني كقوله تعالى في أول سورة الاعراف (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون) والمنزل الينا من ربنا هو القرآن العربي كما صرحت به الآيات . فاتباع الترجمة مخالف لكل من الامر والنهي في هذه الآية

وان أخطأ في فهمه، لأنه بذل جهده في الاهتداء بما أنزله الله هداية له. كما يعلم ذلك من معاملة النبي (ص) لأصحابه فيما فهموه من كيفية التيمم، اذ عذر المختلفين في فهمها والعمل بها، ومثله معاملته لهم فيما فهموه من نهيه عن صلاة العصر الا في قريظة، ولذلك شواهد أخرى ولا أخال مسلماً يجعل لعبارة مترجم القرآن هذه المزية

(٧) ان القرآن ينبوع للهداية والمعارف الالهية لاتخلق جدته، ولا تفنأ تتجدد هدايته، وتفيض للقارىء على حسب استعداده حكمته، فربما ظهر المتأخر من حكمه وأسراره مالم يظهر لمن قبله، تصديقاً لعموم حديث «فرُبَّ مبلغ أوعى من سامع» وترجمته تبطل هذه المزية، إذ تقيد القارىء بالمعنى الذي صوره المترجم بحسب فهمه. مثال ذلك أن المترجم قد يجعل قوله تعالى(١٥: ٢٢ وأرسلنا الرياح لواقح) من المجاز بالاستعارة أي أن اتصال الريح بالسحاب وحدوث المطر عقب ذلك يشبه تلقيح الذكر للانثى وحدوث الولد بعد ذلك كما فهم بعض المفسرين. فاذا هو جرى على ذلك بأن فرضنا أنه لايوجد في اللغة التي يترجم بها لفظ يقوم مقام (لوافح) العربي في احتمال حقيقته ومجازه اذا أطلق فان القارئين يتقيدون بهذا الفهم، ويمتنع عليهم أن يفهموا من العبارة ماهي حقيقة فيه، وهو كون الرياح لواقح بالفعل. إذ هي تحمل مادة اللقاح من ذكور الشجر الى إناثه، فان لم ينطبق هذا المثال على القاعدة لتيسر ترجمة الآية ترجمة حرفية، فان هناك أمثلة أخرى، وحسبنا ان يكون هذا موضحاً. والترجمة تقف بنا عند حدّ من الفهم يعوزنا معه الترقي المطلوب

(٨) ذكر الغزالي في كتاب «إلجام العوام عن علم الكلام» أن ترجمة آيات الصفات الالهية غير جائزة، واستدل على ذلك بما هو واضح جداً. وقد ذكرنا عبارته في تفسير (٣: ٦ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنَّ أمُّ الكتاب وأخر متشابهات) وبين أن الخطأ في ذلك مدرجة للكفر [1]

(٩) ذكر الغزالي في الاستدلال على ما تقدم أن من الألفاظ العربية مالا يوجد لها فارسية تطابقها — أي ومثل الفارسية التركية وغيرها — فما الذي

(١) راجع ص٧٢٨ م٩ او ٢١٤ من الجزء الثالث من التفسير

يفعله المترجم في مثل هذه الألفاظ ، وهو إن شرحها بحسب فهمه ربما يوقع قارىء ترجمته في اعتقاد مالم يرده القرآن ،

(١٠) قد ذكر في ذلك أيضاً : أن من الألفاظ العربية مالها فارسية تطابقها « لكن ما جرت عادة الفرس باستعارتها للمعاني التي جرت عادة العرب باستعارتها لها » فاذا أطلق المترجم اللفظ الفارسي يكون هنا مؤديا للمعنى الحقيقي للفظ العربي . وربما كان مراد الله هو المعنى المجازي ، ومثل الفرس غيرهم من الأعاجم . وهذا المقام من مزلات الأقدام اذا كان الكلام عن الله عزّ وجل وصفاته وأفعاله

(١١) ذكر أيضاً في هذا المقام : أن من هذه الألفاظ ما يكون مشتركا في العربية ، ولا يكون في العجمية كذلك . فقد يختار المترجم غير المراد لله من من معنيي المشترك ، ولا يخفى مافيه ، وقد مرّ نظيره آنفاً

(١٢) من المقرر عند العلماء أنه اذا ظهر دليل قطعي على امتناع ظاهر آية من آيات القرآن فانه يجب تأويلها حتى تتفق مع ذلك الدليل . والفرق بين تأويل ألفاظ القرآن وتأويل ألفاظ ترجمته لا يخفى على عاقل لا سيا في الآيات المتشابهة والألفاظ المشتركة

(١٣) ان لنظم القرآن وأسلوبه تأثيراً خاصا في نفس السامع لا يمكن أن ينقل بالترجمة ، واذا فات يفوت بفوته خير كثير ، فيا طالما كان جاذبا إلى الاسلام ، حتى قال أحد فلاسفة أوربا وهو فرنسي نسيت اسمه : ان محمداً كان يقرأ القرآن بحال مؤثرة تجذب السامع الى الايمان به ، فكان تأثيره أشد من تأثير ما ينقل عن غيره من الانبياء من المعجزات . وحضر الدكتور فارس افندي نمر مرة الاحتفال السنوي لمدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية بالقاهرة ، فافتتح الاحتفال تلميذ بقراءة آيات من القرآن ، فقال لي الدكتور فارس افندي ان لهذه القراءة تأثيراً عميقاً في النفس . ثم لما كتب خبر الاحتفال في جريدته (المقطم) كتب ذلك . فاذا كان لتلاوة القرآن هذا التأثير حتى في نفس غير المؤمن به ، فكيف نحرم منها المسلمين بترجمة القرآن لهم

(١٤) اذا ترجم القرآن التركي والفارسي والهندي والصيني الخ ، فلا بد أن يكون بين هذه التراجم من الخلاف مثل مابين تراجم كتب العهد العتيق والعهد الجديد عند النصارى [1] وقد رأينا مااستخرجه لهم صاحب إظهار الحق من الخلافات التي كنا نقرأها ونحمد الله تعالى ان حفظ كتابنا من مثلها ، فكيف نختارها بعد ذلك لأنفسنا؛

(١٥) ان القرآن هو الآية الكبرى على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل هو الآية الباقية من آيات النبيين . وانما يظهر كونه آية باقية محفوظة من التغيير والتبديل ، والتحريف والتصحيف، بالنص الذي نقلناه عمن جاء به من عندالله والترجمة ليست كذلك

هذا ماتراءى لنا من الوجوه المانعة من ترجمته للمسلمين ليكون لهم قرآن أعجمي بدل القرآن العربي ، واذا كان بعض هذه الوجوه مما يمكن ادخاله في البعض — وانما ذكر هكذا لزيادة الايضاح — فان هناك وجوها أخرى يمكن استنباطها لمن تأمل وفكر في وقت صفاء الذهن وصحة البدن ، بل منها ماتركناه مع تذكره

وأما دعوى القائلين بوجوب ترجمته أن عدم جواز الترجمة يستلزم ايجاب بقائه غير مفهوم فهي ممنوعة ، فاننا نقول إن فهمه سهل ، ولكن ليس لأحد أن يجعل فهمه حجة على غيره فكيف يجعله دينًا لشعب برمته . وإن لاهتداء المسلم الأعجمي بالقرآن درجتين — درجة دنيا خاصة بالعوام الذين لايتيسر لهم طلب العلم فيحفظون الفاتحة وبعض السور القصيرة لأجل قراءتها في الصلاة ويترجم لهم تفسيرها ، وتقرأ امامهم في مجالس الوعظ بعض الآيات ويذكر لهم تفسيرها ، بلغتهم كما جرى عليه كثير من الاعاجم حتى ببلاد الصين — ودرجة عليا للمشتغلين بالعلم وهؤلاء يجب أن يتقنوا لغته ويستقلوا بفهمه مستعينين بكلام المفسرين غير مقلدين لأحد منهم

ان الأعاجم الذين دخلوا في الاسلام على أيدي الصحابة الكرام قد فهموا أن للاسلام لغة خاصة به لابد أن تكون عامة بين أهله ليفهموا كتابه الذي

(١) بل يكون الخلاف عندنا أشد لعجز جميع البشر عن ترجمة القرآن دون التوراة والانجيل

يدينون به ويهتدون بهديه ، ويعبدون الله بتلاوته ، ولتتحقق بينهم الوحدة المشار اليها بقوله فيه (٢١ : ٩٢ ان هذه أمتكم أمة واحدة) ويكونوا جديرين بأن يعتصموا به وهو حبل الله فلا يتفرقوا ، ولتكمل فيهم اخوة الاسلام التي حتمها عليهم بقوله (٤٩ : ١٠ انما المؤمنون اخوة) ولذلك انتشرت اللغة العربية في البلاد التي فتحها الصحابة بسرعة غريبة مع عدم وجود مدارس ولا كتب ولا أساتذة للتعليم ، واستمرت الحال على ذلك في زمن الامويين في الشرق والغرب وفي أول مدة العباسيين حتى صارت العربية لغة الملايين من الاوربيين والبربر والقبط والروم والفرس وغيرهم في ممالك تمتد من القاموس المحيط للغربي (الاتلانتيك) الى بلاد الهند ، فهل كان هذا إلا خيراً عظيماً تآخت فيه شعوب كثيرة ، وتعاونت على مدنية كانت زينة للأرض ، وضياء ونوراً لأهلها ؟

ثم هفا المأمون في الشرق هفوة سياسية حركت العصبية الجنسية في الفرس فأنشؤا يتراجعون الى لغتهم ويعودون الى جنسيتهم ، وجاء الاتراك ففعلوا بالعصبية الجنسية مافعلوا ، فسقط مقام الخلافة وتمزق شمل الاسلام بقوة ملوك الطوائف . ولكن لم تصل الفتنة بالناس الى ايجاد قرآن أعجمي للأعاجم وابقاء القرآن العربي المنزل خاصاً بالعرب ، بل بقي الدين والعلم عربيين وراء إمامهما الذي هو القرآن .

فالواجب على دعاة الاصلاح في الاسلام الآن أن يجتهدوا في إعادة الوحدة الاسلامية الى ماكانت عليه في الصدر الاول خير قرون الاسلام ، وأن يستعينوا على ذلك بالطرق الصناعية فى التعليم ، فيجعلوا تعلم العربية اجبارياً في جميع مدارس المسلمين ، ويحيوا العلم بالاسلام بطريقة استقلالية لا يتقيدون فيها بآراء المؤلفين فى القرون الماضية المخالفة لطبيعة هذا العصر فى أحوالها المدنية والسياسية . ولكننا نرى بعض المفتونين منا بسياسة أوربا يعاونونها على تقطيع بقية ماترك الزمان من الروابط الاسلامية بتقوية العصبيات الجنسية حتى صار بعضهم يحاول إغناء بعض شعوبهم عن القرآن المنزل ! : ألا إنها فتنة فى الأرض وفساد كبير وقى الله المسلمين شره . فهذا ماأقوله الآن في ترجمة القرآن للمسلمين دون

تفسيره لهم بلغتهم مع بقائه إماماً لهم ،ودون ترجمته لدعوة غيرهم به إلى الاسلام مع أن المترجم بين المعنى الذي يفهمه هو . انتهت الفتوى

وملخص هذه الفتوى أن ترجمة القرآن ترجمة حرفية متعذرة ويترتب عليه مفاسد كثيرة فهو محظور لا يبيحه الاسلام لأنه جناية عليه وعلى أهله . ولا يجوز أن تسمى الترجمة قرآنا ولا كتاب الله ولا ان يسند شيء منها اليه تعالى فيقال قال الله كذا لان كتاب الله وقرآنه عربي بالنص القطعي والاجماع الشرعي من سلف أهل الملة كلهم وخلفها لا الاجماع الاصولي المختلف فيه ، ولانها ليس لها شيء من خصائص القرآن اللفظية ولا المعنوية كالاعجاز ، وهي لابد أن تكون مخالفة له في المعنى كمخالفتها في اللفظ فاسنادها اليه تعالى كذب عليه وكفر بكتابه . بل أجمع المسلمون على أنه لا يجوز إبدال لفظ من ألفاظ المصحف بلفظ آخر يرادفه من اللغة العربية ككلمتي شك وريب في قوله تعالى(ذلك الكتاب لاريب فيه) وأما الترجمة المعنوية التي هي عبارة عن تفسير ما يحتاج الى تفسيره منه بلغة اخرى فغير محرم وإنما تتبع فيه المصلحة الشرعية بقدرها

﴿ أقوال الفقهاء في المسألة

﴿ ترجمة القرآن وقراءته وكتابته بغير اللغة العربية ﴾(*)

المعوّل عليه عند الأئمة وسائر العلماء أنه لا يجوز كتابة القرآن ولا قراءته ولا ترجمته بغير العربية مطلقاً ، الا فيما نقل عن أبي حنيفة وصاحبيه من جواز قراءة القرآن بالفارسية في خصوص الصلاة ، واليك بعض النصوص في ذلك :

قال شيخ الاسلام ابو الحسن المرغيناني الحنفي في التجنيس : ويمنع من كتابة القرآن بالفارسية بالاجماع ، لأنه يؤدي الى الاخلال بحفظ القرآن ، لأنا أمرنا بحفظ اللفظ والمعنى فانه دلالة على النبوة ،ولأنه يؤدي الى التهاون بأمر القرآن اه

وقال في معراج الدراية : من تعمد قراءة القرآن أو كتابته بالفارسية فهو

(*) نقلنا هذا الفصل من رسالة للاستاذ الشيخ محمد حسنين العدوي أحد كبار علماء الازهر

مجنون أو زنديق ، والمجنون يداوى ، والزنديق يقتل ، وروي ذلك عن أبي بكر محمد بن الفضل البخاري اه

وفى الدراية : ان القرآن اسم للنظم والمعنى جميعاً بالاجماع ، وقد أنزل حجة على النبوة ، وعلماً على الهدى ، والهدى بمعناه ، والحجة بنظمه . وكما ان الاخلال بالمعنى يسقط حكم القراءة ، كذلك الاخلال بالنظم ، ولأن حفظ القرآن واجب في الجملة ليكون حجة على الحكم ، ولا قراءة تجب الا فى الصلاة ، فعلم أنها متعلقة بعين ما أنزل ليقع الحفظ بها اه

وروي عن الامام أبي حنيفة كما فى الهداية وغيرها : جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة مطلقاً ، وعن الصاحبين : اذا كان لايحسن العربية، أما اذا كان يحسنها فلا يجوز ، وتفسد صلاته اذا قرأ بغير العربية

وروى أبو بكر الرازي : رجوع الامام الى قولهما وعليه الاعتماد — وقال الامام الزاهدي فى الجامع الصغير : ان ما نقل عن أبي حنيفة وصاحبيه من أن القراءة بالفارسية تفسد الصلاة لمن قدر على العربية ، أما عند العجز فلا فساد (محله) اذا قرأ بالفارسية كل لفظ بما هو فى معناه من غير أن يزيد فيه شيئاً . أما اذا قرأ على سبيل التفسير فتفسد صلاته بالاجماع اه

وهو تقييد حسن ، لانه حينئذ يكون متكلماً بكلام غير القرآن من كلام الناس وهو مفسد للصلاة

وأصل الاختلاف فى ذلك كما بدائع الصنائع وأحكام القرآن لحجة الاسلام الجصاص قوله تعالى (فاقرؤا ماتيسر من القرآن) حيث أمر بالقراءة ، والأمر للوجوب ، ولا موضع لوجوب القراءة غير الصلاة ، فوجب أن يكون المراد القراءة فى الصلاة ، فذهب الصاحبان الى أنه اذا قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية ، فقد قرأ ما ليس بقرآن ، فقد خرج عن عهدة الأمر ، لأن الفارسي ليس قرآناً ، والقرآن هو المنزل بلغة العرب ، قال تعالى (إنا أنزلناه قرآناً عربياً) وأيضاً فالقرآن هو المعجز ، والاعجاز من جهة اللفظ يزول بزوال النظم العربي ، فلا يكون الفارسي قرآناً لانعدام الاعجاز ، ولهذا لم تحرم قراءته على

الجنب والحائض ، غير أنه اذا كان لايحسن العربية ، فقد عجز عن مراعاة لفظه فيجب عليه مراعاة معناه ليكون التكايف بحسب الامكان اه — والمراد مطلق المعنى ، وإلا فمعنى النظم المعجز لا تؤديه الترجمة كما هو ظاهر

ولا يعنينا الآن بيان وجه استدلال الامام بالآية على ماذهب اليه بعد أن صح رجوعه الى قول الصاحبين

فظهر أن قول الثلاثة بجواز قراءة القرآن بغير العربية في الصلاة لمن لايحسنها ليس مبناه أن الترجمة تصير قرآناً عند العجز عن أدائه بالعربية ، فيفرض عليه ذلك في هذه الحالة ، بل المفروض عليه حينئذ تعلم العربي ، لأنه القرآن المأمور به في الصلاة ، وانما هو مبني على الاكتفاء بالمعنى في حقه لعجزه ، ولأنه الميسور له من معنى القرآن الذي هو مجموع النظم والمعنى المأمور به في الصلاة . ولما كان أداء المفروض موقوفا على النظم العربي ، وليس ذلك ميسوراً له أتى بالترجمة بدلا عنه لتقوم مقامه في أداء المعنى المفروض ، مع أنها ليست قرآناً ، لأن القرآن هو كلام الله ، المنزل بلغة العرب ، والترجمة ليست كذلك — وفي الدراية : قراءة غير العربي تسمى قرآناً مجازاً . ألا ترى أنه يصح نفي القرآن عنه فيقال : ليس بقرآن وإنما هو ترجمته ، وإنما جوزناه للعاجز اذا لم يخل بالمعنى ، لأنه قرآن من وجه باعتبار اشتماله على المعنى ، فالاتيان به أولى من الترك مطلقاً ، إذ التكايف بحسب الوسع اه

وظاهر أن مسألة القراءة في الصلاة شيء ، ومسألة ترجمة القرآن وقراءته بغير اللغة العربية مطلقاً شيء آخر . والكلام في الثاني دون الأول ، ولا يلزم من جواز الأول على فرض تسليمه جواز الثاني ، حتى ينسب الى الامام وصاحبيه القول بجواز ترجمة القرآن وقراءته خارج الصلاة ، وكتابته بغير اللغة العربية ، وكيف ذلك وقد أجمعت كتبهم على أن الخلاف في خصوص الصلاة . وأصله أن الأمر بالقراءة إنما هو في الصلاة دون غيرها كما أطبقوا على أنه المراد في قوله تعالى (فاقرؤا ماتيسر من القرآن) والقرآن المعروف هو اللفظ المنزل بلغة العرب خاصة

وفي شرح أصول البزدوي للامام عبد العزيز بن احمد البخاري الحنفي :

والقرآن إسم للنظم والمعنى جميعاً في قول عامة العلماء ، وهو الصحيح من قول أبي حنيفة ، إلا أنه لم يجعل النظم ركناً لازماً في جواز الصلاة خاصة ، وإنما هو لازم فيما سواه من الأحكام الأخرى ، كوجوب الاعتقاد ، وحرمة كتابة المصحف بالفارسية ، وحرمة المداومة والاعتياد على القراءة بها اهـ

وقد نقل أن الامام رجع عن هذا القول في الصلاة أيضاً الى القول بعدم جواز الصلاة بالفارسية مطلقاً ، فيكون النظم ركناً لازماً عنده فى كل حالة كما ذكره العلامة الألوسي في تفسيره عند قوله (وإنه لفي زبر الأولين) بناء على عود الضمير الى القرآن باعتبار معناه . وفي رواية عنه تخصيص الجواز بالفارسية لأنها أشرف اللغات بعد العربية . وفي أخرى إنها إنما تجوز بالفارسية في الصلاة للعاجز عن العربية ، وقد صح رجوعه عن القول بجواز القراءة بغير العربية مطلقاً جمع من الثقات المحققين لضعف الاستدلال بهذه الآية عليه كما لايخفى ، فان الظاهر عود الضمير في الآية على القرآن بتقدير مضاف أي وإن ذكر القرآن لفي الكتب المتقدمة . وهذا كما يقال إن فلاناً في دفتر الأمير اهـ ملخصاً

ومن هذا يعلم مافي استدلال بعضهم بقول الامام على جواز ترجمة القرآن بأي لغة خارج الصلاة وداخلها للقادر والعاجز ، لأنه على رواية التخصيص بالفارسية لا تجوز بغيرها مطلقاً ، وعلى رواية رجوعه الى قول صاحبيه لا تجوز خارج الصلاة مطلقاً ، ولا للقادر في الصلاة ، وعلى رواية الثقات عنه : لا تجوز مطلقاً بغير العربية في الصلاة وغيرها للقادر والعاجز . والمعول عليه رأيه الأخير الذي صح رجوعه اليه كما هو رأي الجماعة ، فكيف يصح الاستدلال بقوله على جواز ترجمة القرآن مطلقاً ؟ اهـ (ص ٣١ ــ ٣٦)

ثم قال في فصل آخر (ص ٣٩)

«ومذهب الشافعية عدم جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة مطلقا سواء كان يحسن العربية أو لا يحسنها ، وفي فتاوى شيخ الاسلام ابن حجر[1] من أئمة

(١) يريد أحمد ابن حجر الهيتمي الفقيه ولم يلقب بشيخ الاسلام وإنما لقب به سميه الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني وهو شافعي أيضا

الشافعية ـ وقد سئل هل تحرم كتابة القرآن بالعجمية كقراءته ؟ فأجاب بقوله: قضية مافي المجموع عن الأصحاب التحريم . ووجهه بما لايخرج عما قدمناه فراجعه ،

«وقال الامام الزركشي من أئمة الشافعية رحمه الله: الأقرب المنع من كتابة القرآن بالفارسية كما تحرم قراءته بغير لغة العرب ، وفي شرح العباب ان كتابة القرآن العظيم بالعجمي تصرف في اللفظ المعجز الذي حصل به التحدي بما لم يرد بل بما يوهم عدم الاعجاز بل بالركاكة لأن الألفاظ العجمية فيها تقديم المضاف اليه على المضاف ، وذلك مما يخل بالنظم ويشوش الفهم، وقد صرحوا بأن الترتيب مناط الاعجاز. وهو ظاهر في حرمة تقديم آية على آية يعني أو كلمة على كلمة كما يحرم ذلك قراءة اهـ

«بل نصوا على أن في ترتيب حروف الكلمات القرآنية ومراعاة التناسب فيما بينها من الصفات من وجوه الاعجاز مالا يقدر أحد من البشر على الاتيان بمثله فضلا عما في ترتيب الكلمات والجمل من اللطائف والاسرار ممالا يحوم حول بيانه لسان أو دركه جنان

« ومع اتفاقهم على عدم جواز كتابة القرآن بغير العربية اختلفوا فما إذا كتب بغيرها : هل يحرم مسه وحمله للحائض والجنب؟ ذهب الجمهور الى الجواز لانه ليس بقرآن ونقل العلامة الشوبري عن الشافعية أن القرآن إذا كتب بغير العربية يحرم مسه وحمله للحائض والجنب إذ لايخرج بذلك عن كونه قرآنا والا لم تحرم كتابته اهـ ولعل المراد به أنه لم يخرج بذلك عن كونه متضمنا معنى القرآن بقدر ما تسعه أوضاع اللغة المكتوب بها وان خرج عن نظمه وأسلوبه، وأعطاؤها حكم القرآن حملا ومسا عندهم انما هو احترام لهذا القدر وإلحاق لنقوش الرسم العجمي بالرسم المخطوط العربي مع مراعاة جانب المعنى في الجملة

«ولم يلاحظ مثل ذلك في التفسير مع أن نظم القرآن موجود فيه متخلل بين سطوره لم يطرأ عليه تغيير ولا تبديل نظراً إلى أن المجموع المركب من القرآن وغيره لا يطلق عليه اسم القرآن ولا ترجمته بل يسمى تفسيراً فقط ، والغالب أن تكون ألفاظه أكثر من ألفاظ القرآن فروعي جانبه في الحكم كما روعي في التسمية.

والكتابة بغير العربية وان لم يكن نظم القرآن موجوداً فيها بذاته ولا هي دالة عليه بهيئته ولكن لوضع نقشه مكان النقش الدال عليه واقامته مقامه نزل منزلته

«والحاصل ان الرسوم الكتابية لما كانت كلها من وضع البشر لافرق بين عربي وغيره أعطيت حكما واحداً حملا ومسا بخلاف الألفاظ فان نظم القرآن من وضع الله تعالى وماعداه من صنع البشر، فلذلك لم ينزَّل غير النظم المعجز منزلته قراءة وتعبداً ، ونزل الرسم غير العربي منزلة العربي حملا ومساً عند هذه الطائفة

«ومذهب الحنابلة ان الصلاة تفسد بالقراءة بالفارسية ونحوها عند العجز وعدمه وهو يدل على منع قراءة القرآن وكتابته بغير العربية مطلقا

«ومذهب المالكية انه لاتجوز قراءة القرآن وكتابته بغير العربية ولذلك أوجبوا تعلم الفاتحة على من لايحسن قراءتها في الصلاة بالعربية ان أمكن وإلا ائتم بمن يحسنها فان لم يمكن فالمختار سقوطها وسقوط القيام لها وقيل يجب قيامه بقدر ماتيسر من الذكر

«إذا علمت هذا فالمعول عليه عند جميع الأئمة انه لاتجوز كتابة القرآن ولا قراءته بغير العربية لعاجز أو قادر لافي الصلاة ولاخارجها إلا ماتقدم عن السادة الحنفية في خصوص الصلاة للعاجز عن العربية وقد علمت مافيه وتصحيح الثقات رجوع الامام عنه

«ومن ذلك تعلم مافي قول صاحب الكافي من علماء الحنفية (ان اعتاد القراءة بالفارسية أو أراد أن يكتب مصحفا بها يمنع وان فعل في آية أو آيتين لا فان كتب القرآن وتفسير كل حرف وترجمته جاز) اه

«فانه ان أراد بالترجمة الترجمة الحرفية للقرآن فقد علمت انها لاتجوز مطلقا ذكر معها تفسير أو لم يذكر لأنها تحريف وتغيير للنظم لايدفعه اقتران التفسير به وان أراد الترجمة التفسيرية فهذه جائزة مطلقا بالشرط الذي بيناه وليست ترجمة القرآن ، على أن نصوص الفقهاء من الحنفية وغيرهم تخالفه

ولذلك أفتى صاحب الفضيلة الاستاذ شيخ الجامع الازهر بمنع ترجمة القرآن ووجوب مصادرة المصحف المشتمل على الترجمة الحرفيسة وان كان معها ترجمة

تفسيرية (١)

«وما يتوهم من جواز الترجمة الحرفية أخذا من ظاهر قوله تعالى (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) فليس بصحيح لان المعنى كما ذكره الالوسي وغيره أن المشرك اذا طلب الامان بعد انقضاء الاجل المضروب يؤمَّن حتى يتدبر الامر ويتعظ بما يدعى اليه من هدي الاسلام فان كان من العرب تتلى عليه آيات الله وكلامه لانه من أعرف الناس بدلالتها وأعلمهم ببراعة أسلوبها وبلاغة نظمها، وكثير منهم كانوا اذا سمعوا القرآن خروا له سجدا وهم صاغرون، وآمنوا به وهم لاعجازه مذعنون، وان كان من غير العرب الذين لا يعرفون اللغة العربية يبين له ما يرشده للحق ويهديه الى الصراط المستقيم لا بخصوص كلام الله تعالى

واقتصر في الآية على ذكر السماع لأنها مسوقة لبيان حال مشركي العرب وهم من أهل اللسن والبلاغة وان كان لفظها يتناولهم وغيرهم من المشركين والمراد حتى ينصاعوا اطاعة الله ورسوله

«وقد علمت مما سلف حكم ترجمة كتبه صلى الله عليه وسلم وأن بعثها الى الكفار مشتملة على بعض الآيات القرآنية لا ينهض دليلا على جواز الترجمة الحرفية للقرآن الكريم لجواز أن يكون ترجمة ما وقع فيها من نحو الآية والآيتين ترجمة تفسيرية لا حرفية ولو سلم أنها حرفية فهي لم تذكر في الكتب على أنها من نظم القرآن ولا قصد بها تلاوته بل سيقت للدعوة الى حكمها ضمن كتبه عليه السلام اهـ

(١) يعني الترجمة الانكليزية الحديثة لبعض الهنود المطبوعة مع المصحف الشريف فقد جاءت نسخ منها الى مصر، فسالت الحكومة مشيخة الازهر عنها فأفتى شيخ الازهر بما ذكر فمنعت الحكومة ادخال الترجمة الى الديار المصرية . وسبق مثل هذا في بيروت فقد أرسل اليها بعض النسخ من هذه المصاحف المطبوعة مع الترجمة الانكليزية فارسلتها ادارة الجرك الى مفتي بيروت حسب النظام المتبع فأفتى بمنعها فمنعت

﴿ شبهات من اباح ترجمة القرآن في هذا الزمان ﴾

قد كان مما نشكو من فوضى العلم والدين في هذا الزمان أن بعض الناس كتبوا مقالات في الجرائد خالفوا فيها جماعة المسلمين منذ ظهر الاسلام الى اليوم فزعموا أن ترجمة القرآن مباحة ، وجاؤا بشبهات يحتجون بها على رأيهم ، بعضها آراء لهم ، وبعضها أقوال من الكتب لم يفهموها ، فهي لا تدل على زعمهم ، ولو دلت عليها لم تكن حجة ، لا نها كآرائهم ، وما كان لأحد أن ينقض برأيه بناء رفع سمكه القرآن ، وأجمعت عليه الأمة قولا وعملا

(الشبهة الاولى) ما استدل به بعض الحنفية لامامهم على قوله الذي كان خطر له ، ثم رجع عنه لظهور بطلانه ، كما أنه لم يتابعه عليه أصحابه ، ولا عمل به أحد من أتباعه . أعني ماسبقت الاشارة اليه مرارا من جواز قراءة العاجز عن النطق بالعربية لما يعجز عنه من القرآن في الصلاة بالفارسية، أعني بما استدل له به قوله تعالى في سورة الشعراء (وإنه لفي زبر الأولين) قال الزمخشري في كشافه في تفسيرها وإن القرآن ـ يعني ذكره ـ مثبت في سائر الكتب السماوية . وقيل : إن معانيه فيها ، وبه يحتج لأبي حنيفة في جواز القراءة بالفارسية في الصلاة حيث قيل : (وإنه لفي زبر الاولين) لكون معانيه فيها اه . ونقله عنه آخرون كصاحب التفسيرات الأحمدية ، وصاحب فتح البيان ، ونقله عنهم في هذه الأيام بعض الأزهريين في الجرائد عند مادار الجدال في حكم ترجمة القرآن باللغات الأعجمية، وادّعى أن الزمخشري فهم هذا من الآية

ونقول في رد هذه الشبهة (أولا) إن الزمخشري لم يفهم هذا من الآية ، بل فهم غيره ، ونقله بصيغة التمريض والتضعيف «قيل» وانما الذي فهمه واعتمده ماقبله ، ولعله لولا عادة المنتمين الى مذهب مجتهد لحكاية كل مايؤيد قوله من قوي وضعيف لم ينقله ولو بصيغة التمريض، وله كثير من النقول الضعيفة التي لا يحمل تبعتها لاشارته الى ضعفها

(ثانياً) ان سبب اشارته الى ضعفههو أن تفسير المعاني بما ذكروه ظاهر البطلان لايمكن أن يريدهالامام أبوحنيفة، ولامن دونهفيعلم اللغة والدين: أعني أن تكون معانيه هي مدلول كلمة القرآن كله أو بعضه ، بأن تكون سورة الفاتحةالواجبة في الصلاة - وهي موضوع مسألة أبي حنيفة قبل كل شيء — موجودة في التوراة بهذا النظم والترتيب ، ولكن بألفاظ عبرانية ، اذ لو كان الأمر كذلك لكان القرآن ترجمة للتوراة ، وصح أن يقال: إنه هو التوراة ، ولا نطيل في بيان وجوهفساد هذا القول وبطلانه ، وما كان يترتبعليه لوكان مراداً من الاباطيل كاحتجاج اليهود وغيرهم على النبي (ص) بأنه لم يأت بكتاب جديد من عند الله بل بترجمة بعض التوراة

(ثالثا) ان فرضنا أن هذا مراد في بعض القرآن كقصة موسى التي في سورة الشعراء أو مطلقاً دون الفاتحة ومثل قصةبدروأحد، وأن من قرأ قصةموسى في سورة الشعراء يصح أن يقول : قرأت التوراة مترجمة بالعربية فانهذاعلى كونه — ليس بصحيح أيضاً على حقيقته — لايدل على جواز ترجمة القرآن كله كما أن الذي يقرأ القصة في سفر الخروج من التوراة لا يصح ان يقول : قرأت القرآن — الذي هو موضوع الخلاف . وانما قصارى مايدل عليه أن تجوز قراءة عبارة التوراة الموافقة للقرآن في الصلاة، وأن يقاس عليها جواز ترجمتها بالفارسية مثلا ، ولم يقل بالأصل أبو حنيفة ولا غيره من علماء المسلمين حتى يصح قياسهم عليه . وههنا مجال واسع للتجهيل والسخرية بمن ينهوكون مثل هذا التهوك الذي نحن بصدده ، وينشرونه على الناس في مسألة عظيمة كهذه نتركه عفواً عنهم

(رابعاً) اتفق السلف والخلف من علماء التفسير على أن الكلام في الآية مقدر فيه مضاف قبل ضمير القرآن ومضاف قبل زُبر الأولين — كما قال ابن جزير — والمعنى وانذكره أو خبره اودليل صدقه مثلا — لثابت في بعض زُبر الأولين . ولهم في الضمير قولان (أحدهما) أنه القرآن — وهو المتبادر من السياق قبله — والثاني أنه النبي (ص) كما قال (يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل)

(خامساً) ان الذي يوجد من معاني القرآن في كتب الرسل الأولين قسمان (أحدهما) عام يوجد فيها كلها ، وهو أصول الدين الالهي المطلق من الايمان بالله تعالى وعبادته وحده ، والايمان باليوم الآخر ، والعمل الصالح، وما يقابل ذلك من الزجر عن الشرك والمعاصي والرذائل — ويصح حمل الآية عليه على حد قوله تعالى (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً) الخ (والثاني) خاص وهو الأقرب الى السياق سابقه ولاحقه وهو أن المراد مافي هذه السورة وأمثالها من قصة موسى وكذا غيره من الرسل عليهم السلام التي كانت مجهولة عند النبي (ص) وقومه وأهل بلده خاصة ، ولذلك قال بعدها (أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل) كما قال عقب قصة موسى في سورة القصص مخاطباً لرسوله (ص) محتجاً على صدق ماجاء به (وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الأمر) الآيات

فهل يصح لذي علم أو فهم أن يقول في الآية إنها تدل على جواز ترجمة القرآن بالفارسية أو غيرها ، وإن الترجمة مع هذا تسمى قرآناً ، وكلام الله ، ويتعبد بها ، خلافاً لنصوص القرآن القطعية ، ولاجماع الأمة منذ وجد الاسلام ، إلى اليوم ؟ ؟ لك أن تقول : إن فوضى العلم والدين يصح معها ماهو أبعد من هذا عن العلم والفهم ، كما صح لعالم أزهري أن يقول: إن الزمخشري رجح القول الذى رأيت أنه حكاه حكاية بصيغة التضعيف ، وأنه ليس في سياق الآية ولا في قواعد اللغة مايمنع هذا التفسير . وقد علمت قطعاً أن سياق الآية والمتبادر من اللغة يمنع ذلك !!!

﴿الشبهة الثانية﴾ قول هذا الأزهري « وإن رجعنا الى قول الفقهاء لأن الجواز وعدمه من مباحثهم رأينا الامام الشافعي روي عنه في الأم أن للأعجمي أن ينطق بالقرآن مترجما الى غير العربية في الصلاة ، وأن ماينطق به اذا أراد القراءة به صحت صلاته ، وعند ماينطق به قراءة وقرآناً . وأنه يجوز وجود جماعة تصلي في مسجد يقرأ الامام في تلك الصلاة بلسان أعجمي ، ويقرأ المؤتمون به بلسان أعجمي، كذلك أم القرآن وغيرها من السور ماداموا لا يحسنون العربية »اه

ياللعجب ! وياللفوضى ! آلامام الشافعي يجيز للأعجمي أن يقرأ القرآن في

الصلاة مترجما الى غير العربية ويسمي الترجمة قرآنا ؟ آلامام الشافعي يجوز إقامة صلاة الجماعة العامة في المسجد بامام يقرأ بلسان أعجمي ، وجماعة يقرؤن بلسان أعجمي ، سواء في ذلك أمّ القرآن وغيرها من السور ؟ وماذا بقي ؟ اذا كان الشافعي يجيز قراءة القرآن في الصلاة باللسان الأعجمي للامام وللجماعة وللأفراد بمثل هذا الاطلاق الذي حكاه هذا العالم الأزهري عن الأمّ ، فما معنى ذلك البيان المفصل الذي أورده في رسالته في الأصول في إثبات كون القرآن عربيًا ، وأنه يجب على كل مسلم أن يتعلم العربية ليقرأه بها في الصلاة كما أنزله الله الخ ؟ ؟

(والجواب) عن هذه الشبهة أن صاحبها تقوّل على الشافعي ما لم يقل ، على أنه كان قد نقل بعض عبارته بتصرف ، ثم فسرها بما نقلناه عنه ، فقصر في النقل ، وأخطأ في الفهم ، ولا نتهمه بتعمّد التقوّل على الامام الشافعي ، وهذا نصّ عبارة الأمّ :

« فان أمَّ أعجمي أو لحّان فأفصح بأمّ القرآن ، أو لحن لحنًا لايحيل معنى شيء منها أجزأته وأجزأتهم ، وإن لحن فيها لحنًا يحيل معنى شيء منها لم تجز من خلفه صلاتهم ، وأجزأته اذا لم يحسن غيره ، كما يجزيه أن يصلي بلا قراءة اذا لم يحسن القراءة . ومثل هذا إن لفظ منها بشيء بالأعجمية وهو لايحسن غيره أجزأته صلاته ، ولم تجز من خلفه ، قرؤا معه أو لم يقرؤا ، وإذا ائتموا به فان أقاما معًا أمَّ القران أو نطق أحدهما بالأعجمية أو لسان أعجمي في شيء من القرآن غيرها أجزأته ومن خلفه صلاتهم اذا كان أراد القراءة لما نطق به من عجمة ولحن . فان أراد به كلاما غير القراءة فسدت صلاته ، فان ائتموا به فسدت صلاتهم » اهـ

ذكرت هذه الأحكام في الام في فصل عنوانه (إمامة الأعجمي) والأعجمي كالأعجم من في لسانه لكنة وفهاهة ، سواء كان عربيا أو عجميا ، وضده ، فصيح الجيد النطق كما في المصباح وغيره . وحكم الأعجمي أنه يغتفر له ماذكر آنفًا من اللحن في الصلاة منفردًا وإماما أو منفردا فقط ، كما يغتفر ترك القراءة فيها مطلقا لمن لايحسنها . وقوله الأخير الذي لم يفهمه الناقل فكان محل الشبهة وهو « واذا ائتموا به » الخ ، معناه أن الأعجمي الذي لا يحسن القراءة اذا أمّ مثله

فأقاما معاً أمّ القران أي أحسن كل من الامام والمأموم قراءة الفاتحة ، أو لحنا جميعاً في غير الفاتحة ، أو نطق أحدهما بالأعجمية أو لسان أعجمي في شيء من القرآن غير الفاتحة كانت صلاة كل منهما صحيحة ، لأن اللحن والعجمة والرطانة الأعجمية في غير الفاتحة لا تبطل الامامة ولا الصلاة إذ ركن القراءة في الصلاة هو الفاتحة ، وما عداه من القران فهو مستحب لافرض ولا واجب — وليس عند الشافعي في الصلاة واجب غير فرض — والمفروض أن ما ذكر من النطق بالأعجمية أو باللسان الأعجمي في غير الفاتحة سببه العجز عن القراءة الفصيحة لا التلاعب ولا قصد غير القراءة ، والا بطلت صلاتهما .

ولا يدخل في هذا الباب شيء من تعمد ترجمة القرآن والاستغناء بالعجمي المترجم به عن القرآن العربي المنزل من عند الله تعالى ، وتسميته قرانا . كيف وقد صرح الشافعي في الرسالة بوجوب قراءة القران في الصلاة وغيرها بالعربية كما أنزله الله تعالى ، وبوجوب أداء سائر الأذكار المأمور بها بالعربية أيضاً . وبوجوب تعلم العربية على كل مسلم لذلك . وهذا نص عبارته (كما في ص ٩ من الطبعة الأميرية التي مع كتاب الأم له) :

« فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب مابلغه جهده ، حتى يشهد به أن لاإله الا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله تعالى ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك » الخ

هذا نص الشافعي بعد أن أطال في كون كل ما في القرآن عربي ، وكتب مذهبه متفقة في المسألة كسائر كتب المسلمين وأتباعه أشدّهم فيها ـ أليس من العجيب مع هذا أن يتجرأ عالم أزهري فيعزو الى رواية الأم عن الشافعي ما يأتي على إطلاقه

(١) إن للأعجمي أن ينطق بالقرآن مترجماً الى غير العربية في الصلاة

(٢) وإن ما ينطق به اذا أراد القراءة به صحت صلاته وعدّ ما ينطق قراءة وقرآنا

(٣ و ٤) وانه يجوز وجود جماعة تصلي في مسجد يقرأ الامام في تلك الصلاة

بلسان أعجمي أمّ القرآن وغيرها من السور ماداموا لايحسنون العربية

أين ذكر الشافعي الترجمة وأباحها الاعجمي ؟ اللهم هذا افتراء عليه

أين أجاز الشافعي إقامة الجماعة في مسجد يقرأ إمامه فيها الفاتحة وغيرها بلسان أعجمي الخ ؟ وعبارته المنقولة عنه آنفاً صريحة في كون عجز الاعجمي عن الافصاح ولو ببعض الفاتحة عذراً له دون من يصلي خلفه ، فانهم لاتصح صلاتهم معه . وعدم الافصاح بالالفاظ العربية شيء والترجمة بلسان عجمي شيء آخر

وجملة القول أن عبارة الامام الشافعي في هذا المقام خاصة بمن لايحسن النطق بالقرآن ، وما يعذر به وما لا يعذر به هو ومن يأتم به . ومثل هذا العجز معهود في كل زمان نسمعه بآذاننا ممن يتعلمون لغة غير لغتهم ولا يتقنونها من العرب أو العجم ، فهم يحرفون ويلحنون ويخلطون ألفاظا من اللغة التي يجيدونها باللغة التي لايجيدونها بغير اختيار . ونعيد القول ونؤكده بأن تعمد ترجمة القرآن والقراءة به لا تدخل في شيء من كلام الامام ، ولم تخطر ببال أحد من أتباعه في مذهبه عندما شرحوا كلامه ، وفصلوا أحكامه ، ولا تخطر ببال أي قارىء له يفهم مايقرأ

﴿ الشبهة الثالثة ﴾ ان الدلائل على وجوب فهم القرآن في الصلاة وتدبره فيها وفي خارجها صريحة والآيات الواردة فيها محكمة ، ولا يتم اداء هذا الواجب إلا بترجمة القرآن بلغات جميع الشعوب العجمية التي تدين بالاسلام . وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب

والجواب عن هذه الشبهة من وجهين (أحدهما) ان الفهم والتدبر وما يراد بهما من الخشوع والاعتبار إنما يتم بتعلم المسلمين للغة الكتاب الالهي لا بتحويل الكتاب الالهي إلى لغاتهم كلها كما فصله الامام الشافعي في رسالة الأصول وأقره جميع المسلمين لسبق الاجماع وجريان العمل على ذلك في الصدر الأول . ويؤكده ان ترجمة القران ترجمة صحيحة تؤدي مافيه من المعاني والتأثير كما أراد الله تعالى متعذرة ومستلزمة لتغيير كلام الله ، وهذا من دليل وسند للاجماع على تحريمها فتعين أن يكون المسلمون تابعين لما أنزل الله تعالى دون أن يكون ماأنزله تعالى تابعاً للغاتهم . ولا يعقل أن يؤثر المؤمن بالله وبكتابه ورسوله لغة قومه على لغة

كتاب الله ورسوله ، ولهذا كان قدماء العجم من المسلمين يزاحمون العرب بالمناكب في تلقي العربية من اعراب البادية وفي جميع علومها وفنونها وآدابها كعلوم الشريعة نفسها ، وذلك ان إيمانهم كان برهانيا وجدانيا ، وما أحدث التنافس بين لغة الدين الذي عليه مدار سعادة الدارين ولغة الآباء من العجم الا بعض زنادقة الفرس الاولين وملاحدة الترك المتاخرين . وأما قدماء مسلمي الترك الذين أعرضوا عن العربية وفنونها فكانت آفتهم الجهل فالخوف من عودة السلطان والسيادة الى العرب — وهذا هو الذي أعدهم لقبول دسائس الافرنج بالدعوة الى عصبية الجنس واللغة التي قوضت سلطنتهم (امبراطوريتهم) العظمى بجهلهم

﴿ ثانيهما ﴾ ان ما لابد منه من التلاوة في الصلاة وهو الفاتحة وبعض الآيات أو السور القصيرة يمكن أن يفسر لكل مسلم يحفظه تفسيراً يتمكن به من فهم معناه والاعتبار به ، فهو لا يتوقف على ترجمته وتسميتها كلام الله كذبا على الله وخلافا لنص كتاب الله واجماع المسلمين — فضلا عن ترجمة جميع القرآن كذلك

﴿ الشبهة الرابعة ﴾ مسألة تبليغ الدعوة إلى الاسلام . وقد بينا بطلانها من قبل ، ونزيدها هنا بيانا فنقول :

لئن كان اطلاع بعض الأفراد من أعاجم الشرق والغرب على ترجمة القرآن سبباً لاسلامهم فعلته أنهم عرفوا منها أصول الاسلام ومقاصده كلها أو بعضها ، وذلك كاف لتفضيله على غيره من الأديان كلها ، ولم يكن سببه ترجمته كتأثير أصله المعجز للبشر ، في إقناع العقول ، وهداية القلوب ، الذي كان سبب اهتداء العرب ، وقلب طباعهم ، وجمع كلمتهم ، وارتفاع رايتهم ، وخضوع الامم والشعوب لهم . ولو بلغت هذه الأصول والمقاصد للأعاجم بلغاتهم بأسلوب آخر بأن يذكر كل أصل في فصل خاص مع الشواهد عليه من القرآن والسنة ، ببيان معاني نصوصهما بالتفسير ، وإقامة الأدلة عليه من النقل والعقل — لكان يكون ذلك أقرب الى الاقناع ، وأشد تأثيراً في هداية المستعد للاسلام . فان هذه هي الطريقة المثلى للدعوة ، وهي التي جرى عليها مسلمو خير القرون ، وشهد لهم بذلك أصدق الشهود ، وأبعدها عن الجرح والطعن — وهي

سيرتهم الفضلى في فتوحهم ، وعدلهم المطلق في أحكامهم ، وصلاحهم وإصلاحهم في أعمالهم ، وبذلك انتشر الاسلام في الشرق والغرب ، وساد أهله الأمم والشعوب بسرعة لم يعرف لها نظير في التاريخ

فاسلام الأمة العربية كان بتأثير هداية القرآن وهدي النبي صلى الله عليه وسلم وجهاده به ، كما قال تعالى (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم * نهدي به من نشاء من عبادنا * ويهدي به كثيراً * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) وقال لنبيه (وجاهدهم به جهاداً كبيراً) وقد كان كل ما كان من اضطهاد رؤساء قومه المعاندين له(ص) لأجل صدّه عن تبليغ القرآن للعرب، لجزمهم بما يكون من جذبهم به الى اتباعه كما قال لهم عمه أبو لهب في أول العهد بتبليغهم الدعوة : خذوا على يديه ، قبل أن تجتمع العرب عليه . ولم يكن(ص) يطلب منهم ثم من كل من كان يعرض نفسه عليهم في الموسم الا حمايته ليبلغ دعوة ربه . ولما أسلم من أسلم من الا نصار في موسم الحج سرّاً ، ونشروا الدعوة في عاصمتهم يثرب ، وصار لهم قوة يحمونه بها من قريش ، هاجر اليهم . فما زالت قريش تقاتله إلى أن رضي منهم بعد استكمال قوته أن يصالحهم في الحديبية بالشروط التي يرضونها مع كراهة أصحابه كلهم لها فى مقابلة الشرط الوحيد الذي كان هو أهم المهمات عنده عليه صلوات الله وسلامه ، وهو حرية الاختلاط والاجتماع بينه وبين سائر العرب ، لعلمه بأن سماعهم للقرآن ولا سيما منه كاف لاسلام السواد الأعظم منهم ،وكذلك كان

وكذلك ما فعل خلفاؤه وأصحابه الهادون المهديون من العجائب في نشر الاسلام وفتح الاقطار ، ، وثل عروش أعظم دول الأرض قوة وعظمة ونظاماً وتشريعاً وحضارة ، وتبديل ممالكهم وشعوبها بذلك كله ما هو خير منه — مافعلوا ذلك كله إلا بتأثير القرآن

وأما انتشار الاسلام في الأعاجم فقد كان بتبليغ الصحابة ثم من تبعهم فى هديهم من العرب فالعجم للدعوة ، وكان برهانهم عليها من أحوالهم الصالحة وسيرتهم الحسنى أقوى تأثيراً في تلك الشعوب من أقوالهم التي كانت تنقل اليها بالترجمة ، ولم ينتشر الاسلام في شعب منها بترجمة القرآن بلغته ، وقراءتهم

لترجمته ، وإنما كانت درجة الهدى والعلم والعمل ترتفع فيهم بقدر تدبرهم له بعد تعلم لغته ، فكان من متقني لغة القرآن من الموالي كبار الأئمة المجتهدين من أهل الحديث وأهل الرأي ، وجهابذة علوم اللغة وفنونها ، و أفراد العباد ، ونوابغ الأدباء ، وفحولة الشعراء

وقد كان إيمانهم الصحيح بتلك الدعوة المثلى هو الذي حملهم على طلب لغة الدين (العربية) من غير إلزام حاكم ، ولا نظام تعليم اجباري تؤسس له المدارس

وقد ترجم القرآن في هذه القرون الاخيرة بأشهر لغات الشعوب الكبيرة من غربية وشرقية فكانت ترجمته مثار الشبهات وسبباً للمطاعن ، أكثر مما كانت سبباً للاهتداء الى الاسلام ،

(فان قيل) إن مثار الشبهات لم يكن من الترجمة بل من الخطأ فيها ، وذلك يتلافى بالترجمة الصحيحة التي ندعو اليها ، وإن سبب الطعن لم يكن إلا سوء قصد من أعداء الاسلام من دعاة النصرانية أو الملاحدة وهؤلاء يطعنون في القرآن العربي المنزل أيضا

(قلت) إني على علمي بهذا أقول إن الترجمة أكبر عون على الأمرين فان الذي يطعن في القرآن المنزل إما أن يكون ضعيفاً في اللغة العربية أو حاذقا لها راسخاً فيها — فالأول شبيه بمن يحاول فهم القرآن من الترجمة أكثر مايؤتى من جهله باللغة ، وأما الثاني فهو يتكلف الطعن تكلفاً يكابر به وجدانه ، ويغالب ذوقه وبيانه ، فيجيء طعنه ضعيفاً سخيفاً ، ويكون الرد عليه سهل المسلك ، واضح المنهج ، وقلما يكون الدفاع عن الترجمة كذلك وإن كانت صحيحة ، ولن تكون صحيحة إلا في بعض الجمل أو الآيات القصيرة . دون السور والآيات الطويلة . بل بعض المفردات تتعذر ترجمتها بمفردات من اللغات الأخري تؤدي المراد منها . وانه ليوجد في كل لغة من هذه المفردات التي لا يوجد لها مرادف في لغة أخرى . وفي كلام بعض العارفين باللغة العربية وغيرها من اللغات المشهورة مايدل على أن العربية اغناهن بهذه المفردات ، دع مالها من الخصائص في فنون المجاز والكنايات .

تعذر ترجمة القرآن

قد تكرر في كلامنا الجزم بتعذر ترجمة القرآن والمسلم الصحيح الاسلام لايحتاج إلى دليل على هذا لأنه يؤمن بأن القران معجز للبشر باسلوبه ونظمه العربي المنزل، كما أنه معجز بهدايته وإصلاحه للبشر، وقد تحدى النبي (ص) العرب بهذا الاعجاز وتحدى المسلمون بهمن بعدهم فثبت عجز الجيع عن الاتيان بمثله، وصدق قوله عز وجل (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (١٧ : ٨٩) والترجمة لاتكون صحيحة إلا اذا كانت مثل الأصل، فالآية نص قطعي على عجز الأنس والجن عن الاتيان بمثله ولو كان بعضهم عونًا ومساعداً لبعض فكيف يمكن أن يأتي بمثله فرد أو جماعة ؟

وإن الذين يريدون ترجمته من الترك لصرف قومهم بها عن الكتاب المنزل من عندالله ليسوا بمؤمنين به فتقوم عليهم هذه الحجة، وإن كثيراً من المسلمين المقلدين الذين يجهلون كثيراً من أصول الاسلام وفروعه لينخدعون بشبهات القائلين بترجمة الكلام الالهي باللغات المختلفة ولا يدرون أنه غير ممكن ولا أنه غير جائز، واذ قد بينا للفريقين عدم جوازه وما يترتب عليهامن المفاسد بالادلة المقنعة وجب ان نبين لهم الدلائل على عدم إمكانها من جهة اللغة، ولا نقتصر على بيانها من جهة الشرع فقط

وقد علم أننا نعني بالترجمة حقيقة معناها والمراد منها الذي هو محل النزاع وهو التعبير عن الآيات العربية بما يؤدي معانيها وتأثيرها من لغة أخرى

وإن توفية هذا الموضوع حقه يقتضي تأليف كتاب مستقل ولكننا نكتفي بقليل من الشواهد تغني عن الكثير ونبدأ بالمفردات ونثني بالجمل ثم نعززهما بكلمة في الأساليب

أما المفردات فاما حقيقة وإما مجاز وإما كناية وكل منها إما لغوي سبق به استعمال العرب وإما شرعي أو مما انفرد به التنزيل، ومنها المشترك الذي وضع لعدة معان في اللغة تعرف المرادمنها بالقرائن . ومن علماء اللغة والأصول من أثبت

أن اللفظ قد يستعمل في حقيقته ومجازه والمشترك في معنييه أو معانيه اذا لم يمنع من ذلك مانع ، وقدجرى على هذا الجمع شيخ المفسرين الامام محمد بن جرير الطبري في تفسيره وتبعناه فيه . ثم إن هذه المفردات تنقسم الى أسماء وأفعال وحروف معان وكل منها أقسام لكل منها مواقع في الاستعمال

ومن المعلوم بالقطع لدى العارفين باللغات المتعددة أنه لا يمكن أن تتفق لغتان من لغات العالم في جميع مفرداتها ، ولا في طرق دلالتها، واذا فرض اتفاق لغتين في حقيقة لفظ واحد ومجازه وكنايته بحيث يترجم أحدهما بالآخر معها يكن المراد منه للمتكلم فلن يمكن مثل هذا في الأوضاع الجديدة الشرعية والعرفية كالالفاظ الموضوعة في القرآن لصفات الله تعالى وغير ذلك من عالم الغيب أو لبعض العبادات . ولذلك ذهب بعض علماء اللغات وعلماء الاجتماع الى استحالة قيام لغة مقام أخرى في آدابها ومعارفها ومعانيها العقلية والشعرية

مثال ذلك الأسماء الموضوعة ليوم القيامة وهي كثيرة وكل لفظ منها له معنى تدل عليه مادته العربية وهذا المعنى مراد لتحققه في ذلك اليوم كالواقعة والقارعة والطامة والصاخة والحاقة والغاشية الخ وقد أقمت الحجة على طبيب تركي في القسطنطينية بهذه الألفاظ إذ زعم انه يترجم القرآن المجيد — وهو لا يحسن التعبير عن مراده باللغة العربية كما يجب — قلت له : لكم أن تفسروه بالتركية كما فعل بعض علمائكم من قبل . وأما الترجمة فهي مما يتعذر على أهل اللغات التي هي أغنى من لغتكم وأوسع وان أتقنوا العربية ... ثم سألته كيف تترجم هذه المفردات الموضوعة ليوم القيامة ؟ قال انه يترجمها بيوم القيامة . قلت اذاً تفوت المعاني الاشتقاقية المقصودة بالذات من هذه الاسماء وهي بيان صفات ذلك اليوم مبدأو غاية وما يقع فيه ، ومافيها من الوعظ والنذر المؤثرة في الخوف والرجاء ، والرادعة عن المعاصي . وإذا ترجمت بمعناها الاشتقاقي لم يفهم منها أن المراد بها صفة يوم القيامة ، فان القارعة اسم فاعل يوصف به في الحقيقة امرأة تقرع أحداً بالمقرعة ، وفي المجاز داهية تقرع القلوب بأهوالها ، والقرع في أصل اللغة ضرب شيء على شيء — كما قال الراغب — وأخص منها (الصاخة) وهي الضربة ذات الصوت

الشديد الذي يصخّ المسامع أي يقرعها حتى يصمها أو يكاد ، أو الذي يضطرها الى الاصاخة والاصغاء

وإذا أنت فسرت الكلمة بيوم القيامة ، ووصفته بالقارعة في سورتها ، وبالصاخة في سورة (عبس وتولى) تكون قد انفلتّ من «أرق الترجمة إلى سعة التفسير ، وحينئذ قد تكون عرضة لغلط في التفسير يضيع به شيء من مراد الله تعالى من هذه الألفاظ . وإذا كان قد وقع في هذا بعض المفسرين بالعربية ، فالمترجم بلغة غير العربية أولى بالغلط ، فان بعض المفسرين قال : إن المراد بالقارعة الداهية التي تقرع القلوب . وهذا التفسير مردود بدلالة القرآن نفسه ، فان الله تعالى يقول في شرح هذا القرع : (إذا وقعتِ الواقِعة * ليس لوقعتها كاذبة * خافضةٌ رافعة * اذا رُجَّتِ الأرضُ رجا * وبُسَّتِ الجبالُ بسّاً * فكانت هباء منبثاً (٥٦ : ١ ـ ٧) فهذا عين المراد من قوله تعالى (القارعة ما القارعة ؟ وما أدراك ما القارعة ؟ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش)

ويوضح هذا من نظريات الهيئة الفلكية ما ذهب اليه بعض الفلكيين من أن خراب هذا العالم لا يتصوَّر الا بدنوّ بعض النجوم ذوات الأذناب من الارض وصدمه أو قرعه لها قرعة شديدة على نسبة قوة الجذب ، تبس به الجبال أي تتفتت حتى تكون هباء منبثا في الفضاء ، وحينئذ يبطل نظام الجاذبية العامة ، فتتناثر الكواكب وتتصادم كما قال تعالى في وصف ذلك اليوم (واذا الكواكب انتثرت) فانطباق الآيات المختلفة الواردة في وصف يوم القيامة من السور المتفرقة على على هذه النظرية الفلكية التي لم تكن في عصر التنزيل معروفة للعرب ولا لغيرهم من علماء الفلك على الطريق القديم ، قد تعد في هذا العصر من معجزات القرآن وعجائبه ، وفاقا لما ورد في وصفه من الأثر (ولا تنتهي عجائبه) ولكنه لا يظهر من ترجمة القرآن الحرفية ، فيكون قصورها وعدم موافقتها للاصل من طرق متعددة

فلما سمع مني ذلك الطبيب التركي المغرور هذا الشرح بهت ولم يحر جوابا ـ على أننا رأينا في الصحف ان الذين شرعوا يترجمون القرآن في هذه الأيام قد فسروا (يوم الدين) في الفاتحة بيوم القيامة ، والدين الجزاء على الأعمال ،

وذكره مقصود بالذات ، وله من التأثير ماليس ليوم القيامة ، فانه يذكر التالي للفاتحة في الصلاة وغيرها بأن الله سيحاسبه على أعماله ويجزيه بها « ان خيراً فخير ، وان شراً فشر »

واذكر من مفردات الافعال دلالة صيغها من نحو التكلف والتكثير والمشاركة والمطاوعة الخ ومن مفردات حروف المعاني والأدوات الفروق في العطف ونكت وضع بعضها في موضع الآخر كقوله في سورة الانعام(قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين (٦ : ١١) وقوله في سورة العنكبوت (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق (٢٩: ٢٠) فعطف النظر في الأول بثم المفيدة للتراخي وفي الثاني بالفاء المفيدة للتعقيب . فهل يوجد في سائر اللغات مثل هذا العطف الذي تقتضيه المعاني كما بيناه في تفسير الآية الاولى مع مقارنات أخرى (ص ٣٢١ ج ٧ تفسير) وله نظائر أخرى في تفسيرنا

واذكر من معاني الأدوات ماحققه الامام عبد القاهر الجرجاني من الفرق بين الحصر بانما والحصر بحرفي النفي والاثبات كقولك : ماهو إلا كذا. وهو أن موضوع « إنما » على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما نزل هذه المنزلة ، وأن الخبر بالنفي والاثبات يكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه وقد ذكرنا هذه القاعدة بالأمثلة في تفسير قوله تعالى من سورة الانعام (قل لا أجد فيما أوحي إليَّ محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقاً أُهلَّ لغير الله به ٦ : ١٤٥) وبينا سبب حصر هذا المعنى بانما في سورتي النحل والبقرة وان الجمع بينهما هو أن آية الأنعام هي أول مانزل في هذا الحصر فكان لما ينكره المشركون ويجهله المسلمون ، وان آيتي النحل والبقرة نزلتا بعد ذلك فكانت في معنى صار معروفا . فهل يوجد مثل الفرق في الأدوات في اللغة التركية وغيرها ؟ وهل يفهم المترجمون هذه الدقائق في الكتاب الالهي فيراعونها في ترجمتهم ان كانت لغتهم تساعدهم على ذلك ؟

ومن هذا الباب الفرق بين إن وإذا الشرطيتين ذكرني به قولي الآن « إن

كانت لغتهم تساعدهم على ذلك » وهو ان الأصل في شرط إن يكون مما يجهله المخاطب أو ينكره أو يشك فيه أو ماينزل هذه المنزلة ، وان شرط اذا بخلافه كما هو مقرر في علمي المعاني والنحو بأمثلته .

وأما الجمل فأكتفي منها بايراد شاهد واحدوهي الجملة المقيدة بالحال والفرق فيها بين الحال المفردة وجملة الحال ويترتب على ذلك أحكام شرعية كما بيناه في تفسير قوله تعالى من سورة النساء (ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا ـ ٤:٤٣) فقوله تعالى (وأنتم سكارى) جملة حالية مقيدة للنهي وقوله (جنباً) حال مفردة مقيدة له أيضاً ، ولكن الأولى تفيد النهي عن السكر قبل الصلاة لئلا يأتي وقت الصلاة في حال السكر فيضطر السكران إلى ترك الصلاة أو إلى أدائها وهو سكران وهو المنهي عنه في الآية . وأما الثانية فلاتدل على ترك أسباب الجنابة قبل وقت الصلاة ولا في وقتها إلا أن يعلم انه لا يتمكن من فعل الطهارة وأداء الصلاة قبل ذهاب الوقت . ومثاله ماقاله الفقهاء في النذر وهو ان من قال : لله عليّ أن أعتكف صائما وجب عليه أن يصوم لأجل الاعتكاف ولا يجزئه أن يعتكف في رمضان ، ومن قال : لله عليّ أن أعتكف وأنا صائم لايلزمه صوم لأجل الاعتكاف بل يجزئه أن يعتكف في رمضان . ويراجع وجه كل منهما في تفسير الآية (ص ١١٥ ج ٥ تفسير) فهل يفهم مترجم القرآن بالتركية مثل هذه الدقائق ؟ وهل تساعده لغته على مراعاتها ان كان يفهمها ، أم يحتاج الى شرح وتفسير لبيانها فيكون مفسراً لامترجماً ؟

هذا شاهد من شواهد دقة التعبير في الأحكام الشرعية العملية . وأما دقة التعبير، وبلاغته في الوصف المفيد للموعظة والتأثير ، فمن عجائب شواهده وصف الظالمين يوم القيامة في قوله تعالى من سورة ابراهيم (انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد اليهم طرفهم * وأفئدتهم هواء (٤٢و٤٣)

شخوص الأبصار عبارة عن ارتفاعها وكون أجفانها مفتوحة ساكنة لا تطرف و(مهطعين) من أهطع البعير اذا صوّب عنقه ومد بصره ، وقيل الاهطاع أن تقبل ببصرك على المرئي تديم النظر اليه لاتلتفت الى غيره ويأتي بمعنى الاسراع . و (مقنعي

رءوسهم) من أقنع البعير رأسه الى الحوض ليشرب اذا رفعه، وقيل انه يكون رفعاً وخفضاً فهو من أسماء الاضداد ، وقوله (لا يرتد اليهم طرفهم) معناه ان لهم في شخوص الأبصار وإهطاعها مع امتداد الاعناق وتصويبها إلى ما تنظر إليه شغلا شاغلا لها ان ترجع اليهم فتكون طوع ارادتهم يوجهونها حيث شاؤا ، بل هم في هول وكرب لامشيئة ولا سلطان لهم معهما على أبصارهم، بل عيونهم ممدودة مفتوحة لا تطرف ولا تتحرك ولا تتوجه الى شيء اخر بتصويب ولا تصعيد . ثم بين علة هذا وسببه في النفس فقال (وأفئدتهم هواء) أي خلاء خاوية من العقل فاقدة للقوة والارادة .

لعمر الحق اذا تصور من يفهم هذا الوصف حق الفهم قوماهذه حالهم في ذلك اليوم حتى كأنه يراهم ، ليأخذن الرعب بمخنقه ، وليستحوذن الذعر على شعوره وادراكه ، ولا سيما اذا كان من العرب الخلص أو الاعراب الاقحاح ،

واذكر من الكنايات مثل الرفث وافضاء الزوج الى الزوج وقوله تعالى (فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً) وقوله تعالى (أولامستم النساء) وقوله (نساؤكم حرث لكم) وقوله (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) فاذا فرضنا أن في اللغة التركية وغيرها لفظاً بمعنى التغشي الدال على الستر ولفظاً بمعنى الحرث وهو الزرع لأن معانيها كالمس والملامسة مشتركة بين الشعوب فهل تستعمل هذه الالفاظ وما في معناها في لغاتهم كناية عن الوظيفة الزوجية السرية كما تستعمل في العربية؟

وأما أسلوب القرآن فالكلام فيه هو البحر الخضم ، والقاموس المحيط الأعظم ، فانه أظهر وجوه الاعجاز اللفظية ، وذلك أنه يمزج فنون الكلام ، وينظم مقاصد الهداية والارشاد ، على اختلاف أنواعها ، وتباين موضوعاتها ، مزجا متلائما، ونظما متناسباً متناسقا ، موافقاً للذوق السليم، مطابقاً لنكت البلاغة .فالعقائد الالهية ، والدلائل العلمية والعقليـة ، والأخبار الغيبية ، والسنن الكونية والاجتماعيـة ، والمواعظ الأخلاقية والأدبية ، وأحكام العبادات والمعاملات القضائية والسياسية، وقصص الانبياء ، ووصف الأرض والسماء ، وما فيهما من جمـادات وأحياء ، وما بينهما من هواء وهباء ، تراه كله في السورة الواحدة ، وترى الكثير منه في آية واحدة ، بعبارة بديعة مؤثرة ، ينتقل فيها العقل من فائدة إلى فائدة ، وينقلب

فيها القلب من موعظة إلى موعظة، مع منتهى الاحكام والمناسبة، بحيث لا تمل تلاوته، ولا تفتأ تتجدد هدايته ، حتى إن بعض الأدباء وأهل الذوق في اللغة العربية من غير المسلمين يترددون في ليالي رمضان على بيوت معارفهم من المسلمين ، ليسمعوا القرآن ، ويمتعوا قلوبهم وأذواقهم بسماع ترتيله ، بذلك النظم الذي ليس بشعر ولا سجع ، ولا كلام مرسل ، بل هو نظم خاص قابل للأداء بالنغمات المختلفة المؤثرة ، على تفاوت آياته وفواصله في الطول والقصر ، فالآية قد تكون كلمة مفردة أو كلمتين ، وجملة أو جملتين، أو جملا قليلة أو كثيرة، وكلها مخالفة لسائر أساليب الكلام العربي المنثور والمنظوم ، ولكل نوع منها تأثير غريب في ترتيلها وتجويدها ، بالأصوات الملائمة لمعانيها

صليت الفجر مرة في أهل بيتي بسورة القمر ، وتلوتها بصوت خاشع صادع مناسب لزواجرها ونذرها ، فقالت لي الوالدة : إن هذه النذر تقصم الظهر ، وصارت تسميها سورة النذر . وقالت مثل هذا القول مرة أخرى في سورة (ق) فهل يُتصوَّر مثل هذا التأثير للترجمة التركية أو غيرها من لغات الأعاجم في أنفس اهلها كما يؤثر فى أنفسهم مادون القرآن من كلام بلغائهم ؟ كلا

نموذج من ترجمة تركية

إنني بعد كتابة ماذكر تذكرت أن عند بعض معارفي ترجمة تركية للقرآن فاستعرتها منه فاذا هي ترجمة جميل بن سعيد — وسيأتي ذكرها واذا فيها من النقص والحذف والخطأ فوق ماكنت أظن ، ويظن أنه أخذها من الترجمة الفرنسية لانه هو لا يعرف العربية ، وهذه جرأة قبيحة لا تصدر عن رجل يؤمن بالله وكتابه ورسوله ، وتدل على سوء نية هؤلاء الناس في الترجمة وكون غرضهم منها العبث بدين الاسلام وتنفير الترك منه ، وفتح أبواب الطعن لهم فيه .وقد راجعنا فيها ما ذكرنا من أسماء يوم القيامة فوجدناه يذكر الفاظها العربية ويفسرها بيوم القيامة . وأما كنايات الوقاع فحذف منها قوله تعالى (فلما تغشاها) واكتفى بكلمة بما يدل على الحمل

وترجم الملامسة بما معناه واذا وجدتم بالمناسبات الجنسية مع النساء فتنظفوا.

وفيه ما فيه . وأما الحرث فترجمه بكلمة « تارلا » وهي الارض المعدة لزرع الحبوب دون المشجرة ومن المعلوم أن الكناية تجامع الحقيقة فاحلال الرفث الى النساء فى ليالي رمضان يدل بمفهومه على حظر الرفث بالقول على الصائم وهو المعنى الحقيقي للكلمة كما يدل على تحريم الفعل المكنى عنه. والترجمة التركية لا تفيد الدلالتين

وترجم قوله تعالى (لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى) الخ بما معناه : لا تصلوا في حال سكركم بل انتظروا أن تجيئوا الى حال يمكنكم أن تفهموا فيها ماتقولون ـ ولا تعبدوا في حال كونكم جنبا بل انتظروا الغسل . وهذه ترجمة تفسيرية باطلة من وجوه كما يرى القاريء وليس فيها تفريق بين الحالين ولا بين الحكمين.

وأما قوله تعالى في الظالمين (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار، مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وافئدتهم هواء) فقد ترجمه بما معناه الحرفي: يمهلهم الله الى يوم يعطفون فيه أنظارهم الى السماء بصورة كاملة ، وستبقى قلوبهم فارغة ، وأنظارهم ثابتة ، وهم يسرعون بعجلة رفعت رءوسهم اه فزاد على الاصل توجيه النظر الى السماء وقوله بصورة كاملة أراد به تفسير شخوص البصر وهو لا يؤدي معناه ولا يصور ذلك الوصف البليغ المؤثر للابصار الشاخصة ، والرءوس المقنعة ، والاعناق المهطعة ، بل لم يذكر الرءوس والاعناق البتة . واذا كان بهذه الدركة من العجز مع استعانته بالالفاظ العربية فكيف تكون ترجمتهم لكتاب الله تعالى اذا حاولوا أن تكون تركية خالصة خالية من الالفاظ العربية كما يطلب غلاة غواتهم ؟

هذا وان في هذه الترجمة من الغلط وتحريف المعاني والزيادة والنقصان مالا يعقل له المطلع عليه سبباً الا تعمد الاضلال لأن الجهل وحده لا يهبط بهذا المترجم إلى هذا الدرك الأسفل مع ادعائه الوقوف عند حدود التعبير عن مدلول اللفظ العربي بلفظ تركي كوظيفة مترجمي المحاكم القضائية

فمن التحريف المخل الدال على سوء النية ترجمة قوله تعالى (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة) (سورة يونس آية ٨٧) اتفق مفسرو السلف والخلف على ان معنى اتخاذ بيوتهم قبلة أن يصلوا فيها

فكأنه قال اجعلوها مساجد ، وهو الصحيح - أو ان يوجهوها إلى القبلة - قيل هي الكعبة وقيل بيت المقدس. إلا ماذكره بعضهم من احتمال جعلها متقابلة متقاربة ولكن المترجم التركي ترجمها بقوله

« قومكز ايجون مصرده خانه‌لر إنشا ايديكز . وبوتلريني قبله طرفنه توجيه ايديكز » أي أنشئوا في مصر بيوتا لقومكم ووجهوا أصنامها لجهة القبلة (؟؟) فما قول العالم الاسلامي في ترجمة للقرآن تعلم الترك ان الله تعالى أجاز لبني اسرائيل اتخاذ الاصنام . والعياذ بالله تعالى .

وليس هذا هو الغلط الوحيد في ترجمة هذه الآية الكريمة بل هو الأفحش وفيها أيضاً أنه ترجم تبوّأ البيوت بانشاء البيوت وهو غلط وانما معناه سكناها

ومن الحذف والاسقاط انه أسقط من ترجمة سورة البقرة قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء (١ : ٢٨) وأسقط ذكر المن والسلوى من الاية ٥٤ منها - وأسقط وصف القرآن بالقيم من أول سورة الكهف والأمر بالسجود والاقتراب من آخر سورة العلق ... وغير ذلك مما يشق إحصاؤه

نعم قد بلغنا ان رئيس الأمور الدينية فى الجمهورية التركية قد أعلن ان هذه الترجمة مملوءة بالأغلاط فلا يجوز الاعتماد عليها . ولكن هذه الحكومة لم تجمع نسخها وتمنع استعمالها وطبعها فهي منتشرة . وبلغنا انها ألفت لجنة لترجمة القرآن أي مسلم يعتمد عليها وعلى لجنتها في عمل يعده المسلمون العارفون بالاسلام جناية عليه وهدماً له ؟

صفة ترجمات القرآن التركية

وقد نشرت جريدة الأخبار المصرية رسالة لمراسلها من الاستانة [1] في هذا الموضوع جاء فيها بعد الموافقة على ترجمة الترك للقرآن وتحبيذها مانصه :

« كان أول مترجم للقرآن الكريم زكي افندي مغامز ، وهو مسيحي سوري وقد اطلعنا على ترجمته صدفة قبل طبعها ، فأبدينا رأينا في الحال ، وكنا السبب في عدم طبعها ، ثم قام على أثر ذلك الشيخ محسن فاني (هو حسين كاظم بك)

(١) هو عمر رضا افندي المصري من محرري الجرائد التركية

أحد أعلام تركيا في الأدب والفضل ، وتصدى لترجمة القرآن الكريم مع جماعة من زملائه ، وقد رأيناه لايؤدي المعاني حقها ، لايؤديها في أحسن صورة يمكن أن تؤدى بها في اللغة التركية ، ولذلك فاننا[١] انتقدناه مراراً

ثم قام بعدهما جميل سعيد بك حفيد كمال باشا ناظر المعارف الأسبق ، فترجم القرآن . لقد كان المنتظر أن تكون الترجمة الثانية أحسن وأكمل من الاولى، انما لم يتحقق ذلك الأمل ، ولذلك فاننا[٢] قد انتقدنا جميل بك أمرّ انتقاد ، ولم نترك له أي منفذ للتخلص ، وقد أراد حضرته أن يجيبنا على انتقاداتنا بتخفيف أهمية أخطائه فلم يفلح في ذلك ، بل كان جوابه أعدل شاهد على أنه غير كفء للعمل الذي أراد أن يقوم به . والأدهى من ذلك أننا عند انتقادنا له ظننا أنه ترجم القرآن من لغة من لغات أوربا ، لا من أصله العربي ، واستدللنا على ذلك ببعض الدلائل ، فلم يستطع أن يجيبنا على ذلك ببنت شفة ، ولذلك فاننا [٣] في مقالتنا الثانية شددنا عليه الحملة لآخر درجة ، وقلنا له : أنه فضح الشعب التركي باقتراف هذه الجريرة المدهشة ، لأن الشعب التركي شعب مسلم منذ عشرات القرون ، شعب يخدم المدنية الاسلامية ، ويتولى زعامه الأمم الاسلامية منذ قرون ، شعب يفهم القرآن الكريم من أصله العربي منذ قرون ، شعب أنجب المئات من العلماء الذين فسروا القرآن ، وتبحروا في جميع العلوم المستفادة منه . فعار أن يقرأ ترجمة القرآن في هذا القرن من لغة مبشر متعصب!

وقد أخرجنا لذلك المترجم كثيراً من اخطائه التي لم يستطع أن يرد عليها .

وعدا هذا فان رياسة الامور الدينيـة فى أنقره لم تتأخر مطلقاً فى القيام بواجبها ، بل أنها عند انتشار كل ترجمة من هذه التراجم حذرت الناس منها ونبهتهم إلى مافيها من التحريفات . وبذلك قضت على تلك الكتب بما تستحقها اه المراد منه

(١) هذا التعبير أي تأخير الفاء وجعل ماقبلها متعلقا بما بعدها مما فشا في الجرائد وهو خطأ صوابه هنا : فلذلك انتقدناه الخ (٢) و (٣) تراجع الحاشية السابقة

وجاء في جريدة الاهرام في ٢٩ رمضان سنة ١٣٤٢ مانصه :

ترجمة القرآن بالتركية

أقدم فريق من الترك أخيراً على تنفيذ الفكرة التي طالما تمنوا تنفيذها ، وهي أن يترجموا القرآن بالتركية ، ويستغنوا به عن النظم العربي المبين ، فشرع مصطفى افندي العينتابي وزير الحقانية السابق ، والشيخ محسن فاني ، ومصطفى بك ، وسيف الدين بك في نشر الترجمة التركيـة بأقلامهم . وقد أنشأت مجلة (سبيل الرشاد) التركية مقالة علمية جليلة في انتقاد هذه الترجمة ، وبيان مواطن الخلل فيها ، وقدمت لذلك نموذجا من الغلطات الموجودة في ترجمة (سورة الفاتحة) فقط ، فبلغت ست غلطات لايجوز التسامح في واحدة منها . فمن ذلك خطأهم في وضع لفظ يدل على المعنى المندمج في حرف (أل) من (الحمد) وحشوهم لفظا زائداً في ترجمة (الرحمن الرحيم) وتقول المجلة التركية إنهم قطعوا بذلك نظم الكلمات القدسـية ، بل سحقوا مافيها من الدرر ، وترجموا وغيروا لفظ (يوم الدين) بلفظ (يوم القيامة) وقد أبانت المجلة التركية الفروق العظيمة بين اللفظين وزادوا في الفاتحة نداء « ياألله » مرتين بلا لزوم . وبذلك حوّلوا بلاغة القرآن وإعجازه الى شكل غير لطيف ، وترجموا كلمة (إهدنا) بلفظ « أرنا » قالت المجلة : وبذلك نحوا نحو مذهب المعتزلة ، ولا ندري أقصدوا ذلك أم هي رمية من غير رام ؟ وحرفوا نظم (صراط الذين أنعمت عليهم) فجعلوا « الصراط » في الترجمة مفـعول الانعام ، وهو مفعول الهداية ، فجاءت ترجمتهم هـكذا :

« الصراط الذي أنعمته على غير المغضوب عليهم ولا الضالين »

قالت مجلة (سبيل الرشاد) : والحق أن جرأة أناس هذا مبلغ علمهـم بلغة القرآن ، على أن يترجموا القرآن لمما يدعو الى الأسف ، وإنه لاثم عظيم ، قالت: ورجاؤنا اليهم أن يستغفروا الله ممـا ارتكبوا من الاثم العظيم ، وأن يتوبوا اليه، ويتحوّلوا عن هذا العمل السقيم الذي حاولوه اه

ونقول بلغنا انهم لم يتوبوا وانهم مأمورون بذلك من حكومة انقره وان ترجمتهم ستكون الرسمية والله أعلم

قد علم مما تقدم أن كل ترجمة حاولها الترك قاصرة عن أداء معاني القرآن الظاهرة التي يفهمها كل قارئ يسهل التعبير عنها بكل لغة ، دع ما أشرنا اليه من المعاني الدقيقة ، والاوصاف الممتازة في البلاغة ، وأسماء الله تعالى وصفاته وعالم الغيب ، والتعبير عنها بالمفردات والجمل والاساليب الخاصة باللغة العربية دون لغات العجم ولا سيما التركية الفقيرة ، وهذا يفتح أبوابا واسعة للشبهات والمطاعن فيه ويسد أبوابا واسعة لضروب من التفسير والتأويل الدافعة لها، وضروب من المعارف هي من أعظم الآيات البينات له. وقد علمنا ان الترك حظروا تعليم اللغة العربية وفنونها والعلوم الشرعية في بلادهم . فعلى هذا لا يجد قارىء ترجمتهم التركية للقرآن في الاجيال الآتية مرجعا لتفسير هذه الترجمة إذا هو استشكل أو طعن له أحد في شيء منها

وأضرب لذلك من المثل قوله تعالى (والتين والزيتون) الذي سأل عنه مصطفى كمال باشا بعض علمائهم فأجابه بأن الجواب لا يمكن بيانه فى أقل من نصف ساعة ، فهزأ به الباشا ، وأراد أن يجعله مثلا فى الجهل ، وهو أجدر بهذا الوصف فى هذا المقام لتوهمه أنه يكفي فى الجواب أن يذكر له مرادف التين بالتركية وهو « إنجير » وذلك العالم يعذر اذا اعتقد أن هذا الرجل الكبير فى مقامه وفى معارفه العسكرية لا يعقل أن يسأل عن تفسير بعض المفردات العربية بما يقابلها فى التركية . واعتقد أنه انما يريد بالسؤال معنى إقسام الله تعالى ببعض الشجر والبقاع والبلاد وحكمته، كما اذا سأل هذا الفقيه من الباشا عما يسميه رجال الحرب « خط الرجعة » مثلا فانه لا يمكن أن يريد بذلك تفسير كلمة خط وكلمة الرجعة لغة

ولعل ذلك العالم كان يعتقد أن الباشا لم يسأل هذا السؤال الا وهو منكر لورود القسم بالتين والزيتون كما يؤخذ من كلام له كثر نقله عنه ، وهو احتقار التعاليم والنظم التي وضعت فى صدر الاسلام ، وزعمه أنها وضعت لقوم منحطين فى الحضارة والفنون، فلا يليق اتباعها في هذا العصر الذي ارتقت فيه الصناعات والفنون والمعارف المادية ، واستباح المترفون فيه الرذائل باسم المدنية، فأراد أن يزيل من فكره هذه الشبهات الجهلية، ويبين له معنى صيغة القسم عند العرب وهو تاكيد الكلام، وحكمة ما فى القرآن من الاقسام بالمخلوقات، كالتذكير بما فيها من الآيات ، ومناسبة

كل قسم منه لما أقسم به عليه لتوكيده، كالاقسام بالنجم على هداية النبي (ص) ورشاده، لأن كلا منهما يهتدى به، ثم الانتقال من ذلك الى ماورد في التفسير المأثور مناسبا لذلك. ولا بأس ببيان ذلك وان طال الاستطراد إزالة لشبهة مصطفى كمال باشا وأمثاله لئلا يكون تأخيراً للبيان عن وقت الحاجة فنقول:

إن الجمع في قوله تعالى (والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين) بين نوعين من الشجر وموقعين من بقاع الأرض لم يكن الا لمناسبة جامعة بينهما كما هو المعهود فى التنزيل، وفيما دونه من كلام البلغاء أيضاً. ولما كان من المعلوم قطعاً أن طور سينين (أي سيناء) مهبط الوحي على موسى عليه الصلاة والسلام ومظهر نبوته — وأن البلد الأمين (مكة) مهبط الوحي على محمد عليه الصلاة والسلام ومظهر نبوته — ترجح أن يكون المراد بالتين والزيتون الكنايه عن مطهرين من مظاهر النبوة والدين، كما يكنى بالاهرام أو أبي الهول عن حضارة الفراعنة، وبشجر الارز عن جبل لبنان مثلا

واذا رجعنا للتفسير المأثور عن السلف في ذلك نرى فيه عن ترجمان القرآن وحبر الأمة ابن عباس (رض) قولين (أحدهما) مارواه عنه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفاسيرهم وهو أن المراد بالتين مسجد نوح (عليه السلام) الذي بناه باعلى الجودي - أي حيث استوت سفينته بعد الطوفان - والزيتون بيت المقدس وطور سينين مسجد الطور والبلد الأمين مكة (ثانيهما) مارواه عنه الأخير من أن المراد بالتين والزيتون المسجد الحرام والمسجد الاقصى حيث أسرى بالنبى (ص) الخ: ويقوي الاول تعدد رواته وموافقة التاريخ له كما بينه شيخنا الاستاذ الامام من وجه آخر في تفسير السورة من جزء عم فانه قال بعد حكاية أشهر أقوال المفسرين ما نصه:

«وقال قليل من المفسرين إن الاقسام هو بالنوعين لذاتهما التين والزيتون قالوا لكثرة فوائدهما. ولكن تبقى المناسبة بينهما وبين طور سينين والبلد الامين وحكمة جمعهما معهما في نسق واحد غير مفهومة، ولهذا رجح أنهما موضعان، وقد يرجح أنهما النوعان من الشجر ولكن لا لفوائدهما كما ذكروا، بل لما يذكران به من الحوادث العظيمة التي لها الآثار الباقية في أحوال البشر. قال صاحب هذا القول

إن الله تعالى أراد أن يذكرنا بأربعة فصول من كتاب الانسان الطويل من أول نشأته الى يوم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، فالتين إشارة الى عهد الانسان الاول فانه كان يستظل في تلك الجنة التي كان فيها بورق التين ، وعند مابدت له ولزوجته سوآتهما طفقا يخصفان عليهما من ورق التين . والزيتون اشارة إلى عهد نوح عليه السلام وذريته وذلك لأنه بعد أن فسد البشر وأهلك الله من أهلك منه بالطوفان ونجى نوحا في سفينته واستقرت السفينة نظر نوح الى ماحوله فرأى المياه لاتزال تغطي وجه الأرض فارسل بعض الطيور لعله يأتي اليه بخبر انكشاف الماء عن بعض الارض فغاب ولم يأت بخبر فارسل طيراً آخر فرجع اليه يحمل ورقة من شجر الزيتون فاستبشر وسرّ وعرف أن غضب الله قد سكن ، وقد أذن للأرض أن تعمر. ثم كان منه ومن أولاده تجديد القبائل البشرية العظيمة في الارض التي محي عمرانها بالطوفان، فعبر عن ذلك الزمن بزمن الزيتون. والاقسام هنا بالزيتون للتذكير بتلك الحادثة وهي من أكبر مايذكر به من الحوادث . وطورسينين اشارة الى عهد الشريعة الموسوية وظهور نور التوحيد في العالم بعد ماتدنست جوانب الارض بالوثنية ، وقد استمر الانبياء بعد موسى يدعون قومهم الى التمسك بتلك الشريعة الى أن كان آخرهم عيسى صلى الله عليه وسلم جاء مخلصاً لروحها مما عرض عليه من البدع ، ثم طال الأمد على قومه فأصابهم ماأصاب من قبلهم من الاختلاف في الدين، وحجب نوره بالبدع واخفاء معناه بالتأويل، واحداث ماليس منه بسبيل ، فمنّ الله على البشر ببداية تاريخ ينسخ جميع تلك التواريخ ويفصل بين ماسبق من أطوار الانسانية وبين مايلحق ،وهو عهد ظهور النور المحمدي من مكة المكرمة واليه أشار بذكر البلد الأمين وعلى هذا القول الذي فصلنا بيانه يتناسب القسم والمقسم عليه كما سترى» اه المرادمنه

ومن هذا الشرح تعلم أن ذلك العالم التركي على علم لا يشاركه مصطفى كمال باشا في شيء منه، وانه مصيب في تقدير زمن الجواب بنصف ساعة كما تعلم ان الترجمة التركية لن تكون الا قاصرة عن احتمال مثل هذا التفسير ، وانها تمهيد للاضلال والتكفير سبحان الله ! انشك في كون مراد ملاحدة الترك بترجمة القرآن التوسل بها

إلى الطعن فيه والتشكيك في كونه كلام الله عز وجل، واقامة الشبهات على بطلان دين الاسلام، وترك المسلم منهم في ظلمات لا يبصر فيها بصيصاً من النور يهتدي به إلى الدفاع عن دينه ؟ أنشك في هذا بعد اقدامهم على ابطال التشريع الاسلامي من حكومتهم حتى في الأحكام الشخصية من زواج وطلاق وارث تفضيلا للتشريع الأوربي عليه على اختلافه، وابطال التعليم الاسلامي من بلادهم واضطهاد علماء الدين حتى في ملابسهم، فقد أكرهوهم على لبس الزي الخاص بغير المسلمين كغيرهم، ولم يبالوا بمراعاة وجدان أحد ولا اعتقاده في ان ذلك معصية لله تعالى بل هو آية الردة عن دينه — فعلوا هذا والسواد الأعظم من الشعب التركي يدين الله بالاسلام وجدانا وتسليما يحمله على الفضائل ويزعه عن الرذائل، وللعلماء الدين احترام عنده ؛ ثم لم يستطع أحد منهم أن يدافع عن دين الشعب بكلمة مع كون مادة القانون الأساسي للجمهورية التركية الناطقة بأن دين الدولة هو الاسلام لما تنسخ كما نسخت أحكام الاسلام نفسها ؛ ذلك بأن من عارض الحكومة في عمل من أعمالها هذه يساق الى محكمة خاصة تسمى محكمة الاستقلال مفوضة بأن تحكم بالقتل للدفاع عن هذه الحكومة اللادينية من غير استناد الى شرع منزل ولا قانون مدون. ويكون حكمها نهائيا لا استئناف له ولا مراجعة فيه . وقد قتل كثير من العلماء والأتقياء للمعارضة في وضع القلنسوة الافرنجية (البرنيطة) موضع العمامة واستبدالها بها ؟

هذا ما يجري اليوم فماذا يكون في الغد إذا لم يجد المسلم التركي بين يديه في بلاده من كتب دينه الا ترجمة للقرآن بالصفة التي عرفت أغلاطها وقصورها ؟ نعم ان هؤلاء الملاحدة أنفسهم سيفسرونها له بما يزيده بعداً عن الاسلام ويعده للكفر به وعداوته وعداوة أهله، ان طال أمر استبدادهم فيه

لا تقل وما يمنع بقية أهل الدين منهم أن يفسروها له بالتركية تفسيراً يصحح الاغلاط ويدفع الشبهات ؟ فان الذين منعوا ما علمت يمنعون هذا أيضا وينشرون تفاسير ملاحدتهم المؤيدة لغرضهم وهم يستمدونها من خصوم الاسلام كدعاة النصرانية، وشياطين السياسة الاوربية وملاحدة المادية دع ما عليه عليهم الجهل أو الكفر أذكر مثالا واحداً من ذلك قوله تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)

بلغني من عالم عربي أقام في الآستانة سنين كثيرة يخالط علماءها عن عالم تركي أعرفه وكنت أعده من أفضل علمائها الجامعين بين العلم والتدين ومعرفة حال العصر، أنه يشتغل بترجمة القرآن، وأنه يقول بقول الباطنية الأولين : في هذه الآية وهو أن العبادة من صلاة وصيام لم تفرض إلا على من لم يصلوا في العلم إلى درجة اليقين، ومن وصل إلى هذه الدرجة ترتفع عنه العبادة بنص هذه الآية من القرآن . ويكفي هذا التأويل لابطال جميع عبادات الاسلام . فان اليقين أمر يمكن لكل أحد أن يدعيه، ويمكن اضلال جماهير الناس بالوصول اليه، وفي التحكم فيما يطلب اليقين فيه

ونقول في إبطال هذه الضلالة (أولا): إنها طعن صريح في النبي الأعظم صلوات الله وسلامه عليه بأنه لم يكن على يقين في دينه وعلمه بالله عز وجل، فان الخطاب له (ص) في الآية، وهو المعني به أولا وبالذات وان كان الحكم عاما . وذلك بالتبع لما قبله من الامتنان عليه بايتائه السبع المثاني والقرآن العظيم، وأمره بالتبليغ والصدع به وتهوين أمر المشركين عليه، وإنبائه بكفايته تعالى أمر المستهزئين منهم. بعد هذا قال (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون* فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين* واعبد ربك حتى يأتيك اليقين* (خاتمة سورة الحجر ١٥: ٩٤ ـ ٩٩) وقد ورد في التفسير المأثور أن المراد باليقين الموت، وان المعنى واعبد ربك مادمت حياً . ونقلوا شواهد له من الاستعمال . وفسروا به قوله تعالى حكاية عن أهل النار (وكنا نكذب بيوم الدين* حتى أتانا اليقين *(سورة المدثر ٧٤: ٤٦و٤٧)

(ثانيا) إن أصل اليقين شرط في صحة الايمان والايمان الصحيح شرط في صحة العبادة، فاليقين في الاسلام مبدأ لا غاية، والحنفية الذين تلقى هذا التركي الدين على مذهبهم : ان الايمان لا يقبل الزيادة ولا النقصان، لان التصديق اذا لم يكن يقينا لا يكون إيمانا، وليس فوق اليقين غاية تكون هي الزيادة . وفي هذا البحث نظر ليس هذا محله

(ثالثا) ان اليقين الذي ينتهي اليه تصديق الانسان في الدين أو غيره لا يصح التعبير عنه بالاتيان ونحوه كالمجيء لانه يكون في نفسه وعقله، وانما يعبر

به عما يرد على الانسان من الخارج بذاته أو بأسبابه كالموت والعلم الخبري ، أو المنتزع من المعلوم الخارجي ، دون نتيجة القياس العقلي . فقوله تعالى (حتى يأتيك اليقين) كقوله (ويأتيه الموت من كل مكان) وقوله (من قبل أن يأتي أحدكم الموت) وقوله (حتى اذا جاء أحدكم الموت)

ونكتفي بهذا القدر من الاستطراد للدفع عن القرآن في تفسيره فهو أفضل مايدافع به عنه ، بل هو من مقاصد التفسير لا من الاستطراد الأجنبي عنه . وما ضعف اهتداء الناس بالقرآن الا بخلو تفسيره من تطبيق عقائده وأحكامه على أحوال الناس ودفع الشبهات التي تصدهم عنه

(١٥٨) وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ

بين تعالى في الاستطراد الخاص بنبوة خاتم الرسل صلوات الله عليه وسلامه كتابة رحمته للذين يتبعونه من قوم موسى وعيسى عليهما السلام ، وقال في متبعيه (أولئك هم المفلحون) أي دون غيرهم من الذين كفروا به ولم يتبعوا النور الذي أنزل معه بعد بعثته وبلوغ دعوته ، وذلك لاينافي كون المتبعين لموسى حق الاتباع قبل بعثته (ص) على هدى وحق وعدل وأنهم من المفلحين ، فان ما أفادته جملة (أولئك هم المفلحون) من الحصر اضافي لاحقيقي كما أشرنا اليه آنفا وبيناه في تفسير تلك الآية . ولذلك بين سبحانه في هذه الآية حال خواص أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا متبعين له حق الاتباع ، عاطفا إياهم على المهتدين باتباع خاتم النبيين (ص) فقال :

﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ أي ومن قوم موسى (أيضا) جماعة عظيمة يهدون الناس بالحق الذي جاءهم به من عند الله تعالى ويعدلون به دون غيره اذا حكموا بين الناس ، لايتبعون فيه الهوى ، ولا يأكلون السحت والرشى ، فالظاهر المتبادر أن هؤلاء ممن كانوا في عصره وبعد عصره حتى بعدما كان من ضياع أصل التوراة ثم وجود النسخة المحرفة بعد السبي ، فان الامم العظيمة لاتخلو من أهل

الحق والعدل . وهذا من بيان القرآن للحقائق ، وعدله في الحكم على الامم ، كقوله (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا مادمت عليه قائما) الآية (٣ : ٧٥) وقيل في وجه التناسب والاتصال إنه ذكر هؤلاء من قومه في مقابل متخذي العجل للدلالة على أنهم كانوا بعض قومه لا كلهم ، وهو جائز على بعد يقدر بقدر بعد هذه الآية عن قصة العجل ، وما قلناه أظهر

(فان قيل) إن قوله « يهدون ويعدلون » للحال المفيد للاستمرار.(قلنا) إن أمثاله مما حكي فيه حال الغابرين وحدهم بصيغة المضارع كثير ، ووجهه ان التعبير لتصوير الماضي في صورة الحاضر ، وما هنا يشمل أهل الحق من قوم موسى الى زمن نزول هذه السورة ممن لم تكن بلغتهم دعوة النبي الامي خاتم النبيين (ص) وهم الذين كانوا كلما بلغت أحدا منهم الدعوة قبلها وأسلم وقد ورد في وصفهم آيات صريحة وحمل بعضهم هذه الآية التي نفسرها عليهم وحدهم

قالوا : ان المراد بهؤلاء الأمة من آمن بالنبي (ص) من علماء اهل الكتاب كعبد الله بن سلام واضرابه . ونقول انه نزل في هؤلاء آيات صريحة كقوله في آخر سورة آل عمران (وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما انزل اليكم وما انزل اليهم) الآية (٣:١٩٩) وهذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها ليست صريحة في هذا بل السياق ينافيه لأنها جاءت بعد بيان حال الذين يؤمنون به (ص) فالمتبادر فيها أنها في خواص قوم موسى في عهد موسى و بعد عهده ومنهم النبيون والربانيون والقضاة العادلون كما يعلم بالقطع من آيات اخرى . فالآيات في الخيار من أهل الكتاب ثلاثة أنواع (١) الصريحة في الذين ادركوا النبي (ص) وآمنوا قبل ايمانهم أو بعده كقوله تعالى في سورة البقرة (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به (١٢١) وقوله في سورة القصص (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * الى قوله — أولئك يؤتون أجرهم مرتين) الآيات (٢٨:٥٢-٥٥) ومثلهن في سور الانعام والرعد والاسراء والقصص والعنكبوت الخ

(٢) الصريحة في الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام واستقاموا معه ثم في

عهد من بعده من انبيائهم الى عهد البعثة العامة قبل بلوغ دعوتها كالآية التي نحن بصدد تفسيرها (٣) المحتملة للقسمين كقوله تعالى (من اهل الكتاب امة قائمة يتلون آيات الله) الخ ٣ : ١١٣ — ١١٥) فراجع تفسيرهن (في ص ٧٠ — ٨٣ ج ٤ تفسير)

وفي تفسير الامة هنا خرافات اسرائيلية ذكر بعضها ابن جرير عن ابن جريج انه قال بلغني كذا وذكر أن سبطا من بني اسرائيل ساروا في نفق من الارض فخرجوا من وراء الصين الخ وذكر عن ابن عباس مايؤيد هذا بدون سند . وابن جريج على سعة علمه وروايته وعبادته شر المدلسين تدليسا لأنه لا يدلس عن ثقة وأئمة الجرح والتعديل لا يعتدون بشيء يرويه بغير تحديث، ونقل هذه الخرافة كثيرون وزادوا فيها ماعزوه الى غيره أيضا وبحثوا فيها مباحث ، ولا يستحق شيء من ذلك أن يحكى

---

(١٥٩) وَقَطَّعْنَٰهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ، كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

هذا سياق آخر من أخبار قوم موسى عليه السلام عطف على ماقبله لمشاركته إياه في كل مايقصد به من العظات والعبر . قال تعالى :

﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما ﴾ أي وفرقنا قوم موسى الذين كان منهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، ومنهم الظالمون والفاسقون — كما سيأتي بعد بضع آيات — قطعناهم فجعلناهم اثنتي عشرة قطعة أي فرقة تسمى أسباطا أي أمما وجماعات يمتاز كل منها بنظام خاص في معيشته وبعض شؤونه ، كما يأتي قريبا في مشارب مائهم . والمشهور من معنى السبط بكسر السين أنه ولد الولد

مطلقاً ، وقد يخص بولد البنت . وأسباط بني إسرائيل سلائل أولاده العشرة — أي ماعدا لاوي — وسلائل ولدي ابنه يوسف وهما (افرايم ومنسي) وأما سلالة لاوي فنيطت بها خدمة الدين في جميع الأسباط ولم تجعل سبطا مستقلا . وقد تقدم تفصيل ذلك[1] فالأسباط بيان للفرق والقطع التي هي أقسام بني إسرائيل ليعلم أنها سميت بذلك ، كما سميت الفرق في العرب بالقبائل ، والأمم بيان للمراد من معنى الأسباط الاصطلاحي . والأمة الجماعة التي تؤلف بين أفرادها رابطة أو مصلحة واحدة أو نظام واحد ، وتقدم بيان ذلك أيضاً

﴿ وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً ﴾ تقدم في سورة البقرة مثل هذا مع تفسيره وهو (واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً) فأفاد ماهنا ان قومه استسقوه ، وماهنالك انه استسقى ربه لقومه. وكلاهما قد حصل. والاستسقاء طلب الماء للسقيا ، وتعريف الحجر في هاتين السورتين المكية (الأعراف) والمدنية (البقرة) لتعظيم جرمه ، وقد عبر عنه في التوراة بالصخر — أو تعظيم شأنه ، أو كليهما ، وكلاهما عظيم ، وقد يكون للعهد كما تدل عليه عبارة التوراة اذ عينت مكانه من جبل حوريب . والانبجاس والانفجار واحد ، يقال: بجسه أي فتحه فانبجس وبجّسه (بالتشديد) فتبجس ، كما يقال: فجره (كنصره) اذا شقه فانفجر ، وفجره (بالتشديد) فتفجر — وزعم الطبرسي أن الانبجاس خروج الماء بقلة ، والانفجار خروجه بكثرة ، وأنه عبر بهما لافادة أنه خرج أولا قليلا ثم كثر . وأدق منه قول الراغب : الانبجاس أكثر مايقال فيما يخرج من شيء ضيق ، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع ، فاستعمل حيث ضاق المخرج اللفظان — أي وهو حجر موسى — وقال (وفجرنا خلالهما نهراً * وفجرنا الأرض عيونا) ولم يقل بجسنا اه

أقول : ولكن رواة اللغة فسروا أحدهما بالآخر ، وذكروا من الشواهد عليه

(١) راجع ص ٨٦ ج ٦ تفسير

ما يدل على الكثرة . قال في اللسان : البجس انشقاق في قربة أو حجر أو أرض ينبع منه الماء، فان لم ينبع فليس بانبجاس وأنشد * وكيفَ غرْبَيْ دالج تبجساً *[1] والسحاب يتبجس بالمطر ، والانبجاس عام ، والنبوع للعين خاصة ، وبجست الماء فانبجس أي فجرته فانفجر ، وبجس نفسه يبجس ، يتعدى ولا يتعدى ، وسحاب بُجّس، وتبجس أي تفجر اه وفي الأساس : انبجس الماء من السحاب والعين : انفجر ، وتبجس : تفجر الخ . . . وسحائب بُجس وبجسها الله . قال ابن مقبل :

له قائد دُهْمُ الرباب وخلفه روايا يبجسن الغمام الكنهورا [2]

وحاصل المعنى : وأوحينا الى موسى حين استسقاه قومه فاستسقى ربه لهم (كما في آية البقرة) بأن اضرب بعصاك الحجر فضربه فنبعت منه عقب ضربه اياه اثنتا عشرة عيناً من الماء بعدد أسباطهم ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ أي قد عرف أناس كل سبط المكان الذي يشربون منه ، اذ خصّ كل منهم بعين لا يأخذ الماء الا منها لما في ذلك من النظام ، واتقاء ضرر الزحام . وفي أول سفر العدد من التوراة : ان عدد الرجال الصالحين للحرب من بني اسرائيل كان يزيد على ستمائة الف من ابن عشرين فما فوقه فعلى هذا يكون عدد الجميع رجالا ونساء وأطفالا لا يقل عن ألفي ألف (مليونين) . وللمؤرخ النقادة الحكيم ابن خلدون تشكيك معروف فيما قاله المؤرخون تبعا للتوراة في كثرة هذا العدد من وجوه كثيرة فصلها في أول مقدمة تاريخه ، ولكن لا يمكن الشك في أنهم كانوا ألوفا كثيرة أو عشرات الألوف ، فاذا لم يكن لهم في سيناء موارد للماء غير تلك العيون التي انفجرت من صخر في جبل (حوريب) متصل به، فلابدّ أن تكون مساحة ذلك الصخر واسعة جداً ، وأن يكون السهل أمامه أفيح ليسع الألوف من الأسباط يردون

«١» أي وكفت وسالت كوكيف دلوي ماتح من البئر وهو الدالج. فالوكيف مصدر كالوكف والوكوف «٢» الرباب السحاب، والكنهور كسفرجل السحاب المتراكم والروايا الابل التي تحمل الماء . والكلام في وصف سحاب ماطر يقول ان له قائدا من السحائب السود ، وخلفه سحائب ثقال من حمل الماء كالروايا يبجسن أي يفجرن الغمام المتراكم بالوابل المدرار

ويصدرون . وقد اختلف علماء أهل الكتاب في مدلول لفظ (حوريب) الذي أمر الله موسي أن يذهب الى صخر فيه فيجده - أي الرب - عنده أو عليه، وأن يضرب به بعصاه فينفجر منه الماء: هل هو جبل سيناء نفسه أم بين اللفظين عموم وخصوص — ويزعم بعضهم أن الصخر المذكور في الوادي الذي يسمى (وادي اللجاء) ويعين بعض الرهبان مكانه . ولا يعنينا شيء مما ذكر الا أننا نجزم بأن ما في كتب التفسير عندنا من صفة ذلك الحجر وحجمه وشكله ككونه كرأس الشاة أو اكبر وكونه يوضع في الجوالق أو يحمل على ثور اوحمار - كل ذلك من الخرافات الاسرائيلية التي كانوا يتلقونها بالقبول ايها اغرب. وقد نقل ابن كثير على احتراسه كثيرا منها

وفي عرائس المجالس عن وهب بن منبه ان موسى كان يقرع لهم أقرب حجر فتنفجر منه عيون ... فقالوا ان فقد موسى عصاه متنا عطشا فأوحى الله اليه بأن يكلم الحجارة فتطيعه ، فقالوا كيف بنا اذا مضينا الى الارض التي ليس فيها حجارة ؟ فأمر الله موسى أن يحمل معه حجرا فحيثما نزل ألقاه ! الخ وهذا من الخرافات التى اختلقها وهب ليس لها أصل عند اليهود ولا عند المسلمين . ولولا جنون الرواة بكل مايقال عن بني اسرائيل لما قبلوا من مثله ان يشرب مئات الالوف أو الملايين من حجر صغير يحمل كما قبلوا من مزاعمه ان راس الرجل من قوم هود عليه السلام كان كالقبة العظيمة !! وقد عدوه مع امثال هذه الخرافات ثقة في الرواية (!)

﴿ وظللنا عليهم الغمام ﴾ الغمام السحاب أو الابيض أو الرقيق منه أي وسخرنا لهم الغمام يلقي عليهم ظله فيقيهم لفح حرارة الشمس من حيث لا يحرمون فائدة نورها وحرها المعتدل ، وتسمى السحابة ظلة بالضم ككل ما أظلك من فوق . ولولا كثرة السحاب في التيه لأحرقتهم الشمس اذ لم يكن هنالك شجر يستظلون به

﴿ وأنزلنا عليهم المنّ والسلوى ﴾ المن مادة بيضاء تنزل من السماء (الجوّ) كالطل حلوة الطعم تشبه العسل ، واذا جفت تكون كالصمغ ، وقد كثر نزوله على بني اسرائيل فى التيه وهو موصوف في التوراة بأن طعمه كطعم قطائف بالزيت ومنظره

كمنظر المقل، وعبرعنه فيها بخبز السماء . وقد كان يقوم مقام الخبز . ويقول كثير من المفسرين إنه هو المعروف عند الأطباء بالترنجبين . وقال(الدكتور بوست) في قاموس الكتاب المقدس :لا يجوز أن يشتبه بين هذا المن والمن الطبي الذي هو عصير منعقد من شجرة الدردار ولاهو أيضاً ـ المن الذي يتكون من شجرة الطرفاء وعلل ذلك بقوله(١) إن الاسرائيليين لم يروه قبل رحلتهم (٢) لا يوجد المنّ العربي الا تحت الطرفاء وفي أول الصيف فقط (٣) يمكن حفظه مدة طويلة ولا يدود (٤) لايمكن طحنه أو دقه (٥) يتكوّن المن كل يوم من أيام الأسبوع مدة الفصل اه . وفي قوله نظر لاحاجة الى شرحه ، وهو يريد به إثبات ما قاله من أن هذا المن كان «عجيبة» أي معجزة أو كرامة لموسى عليه السلام . ونحن لاننكر ما آتى الله كليمه من الآيات البينات والحجج على قومه لاصلاحهم . وقد كان أفسدهم استعباد المصريين لهم ويكفي أن تكون المعجزة في نزولها بتلك الكثرة التي كانت تكفي تلك الألوف وتقوم عندهم مقام الخبز كما اعترف به هو في (السلوى)فقد وافق غيره في أنها هي طير السمان المعروف وقال : إنها كانت تهاجر من أفريقية (ولا سيما مصر) فتصل الى سيناء تعبة فتقع على الارض أو تسفّ فتؤخذ باليد . وقيل طير تشبه السمان ولكنها أكبر منها .

﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ هنا قول مقدّر يكثر مثله في التنزيل وكلام العرب أي وقلنا لهم — أو أنزلنا ما ذكر عليهم قائلين: كلوا من طيبات مارزقناكم ، فوضع هذا الوصف للمن والسلوى موضع الضمير لتعظيم شأن المنة بهما . واسناد الرزق الى ضمير جمع العظمة تأكيد للتنبيه والتذكير بما يجب من شكره تعالى على ذلك. ويقدر مثل هذا في آية البقرة المدنية ، وإن كانت خطابا لبني إسرائيل المجاورين للنبي (ص) في المدينة ولمن بلغه من غيرهم ، فان الخطاب لهم هنالك إنما كان بما وقع لأجدادهم فهو بمعنى الحكاية في آية الأعراف إلا أن الكلام هنا كان موجهاً أولا الى المشركين لأن السورة مكية ، ولذلك اتحد عجز الآية في السورتين وهو:

﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي وما ظلمونا بكفرهم بهذه النعم ولكن كان دأبهم ظلم أنفسهم دون ربهم الذي لا يناله تأثير أحد بظلم ولا غيره وكانوا يجنون على أنفسهم بكفر النعم والجحود وغيرهما آناً بعد آن وجيلا بعد جيل ، كما هو مبين في القرآن بالاجمال وفي التوراة بالتفصيل . فتقديم أنفسهم على يظلمون المفيد لقصر ظلمهم عليها انما هو لبيان أن كفرهم بنعمه تعالى يضرهم ولا يضره تعالى كما في الحديث القدسي الطويل الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعا « ياعبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا . (ومنه) « ياعبادى انكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني » ولا يدخل في معنى القصر انهم لا يظلمون الناس فانه لم يكن معهم أحد فى التيه فينفي عنهم ظلمه ولما اتصلوا بالناس بعد الخروج منه وكان منهم العادلون ومنهم الظالمون ومن ظلم نفسه كان لغيره أظلم .وان كان ظلمه لنفسه مما يجهل انه ظلم لها لأنه يتجلى له في صورة المنفعة . وانما تكون عاقبته المضرة ، وهكذا شأن جميع الظالمين والمجرمين . ينوون بظلمهم واجرامهم نفع أنفسهم جهالة منهم . ولا يزال طوائف من بني اسرائيل يقدمون على ضروب من ظلم الناس يقصدون بها نفع أنفسهم وقومهم ، وهي تنذر بخطار كبير ، وشر مستطير ، كالفتنة التي أثاروها فى بلاد الروسية بتعاليم الاشتراكية المسرفة المعبر عنها بالبلشفية، ومحاولة انتزاع فلسطين من الأمة العربية ، وهذا مما يدخل فى مضمون التمادي والاستمرار على الظلم المعبر عنه بجملة (كانوا أنفسهم يظلمون)اذ هي تفيد أن هذا صار دأبا وعادة لهم

(١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ

تقدم مثل هاتين الآيتين في سورة البقرة وبين ما هنا وماهنالك فروق في التعبير نبينها هنا فنقول

(١و٢) قال تعالى هنا ﴿ واذ قيل لهم ﴾ لأن القصة خطاب وجه أولا إلى أهل مكة ، فالحكاية فيه عن بني اسرائل حكاية عن غائب والأصل أن يذكر ضميره فيه ولذلك قال «لهم» وفي سورة البقرة « واذ قلنا» والمعنى واحد إذ المعلوم أن القائل هو الله تعالى ، وقد روعي هنالك السياق في خطاب بني اسرائيل إذ قبلها «واذفرقنا بكم البحر ... واذواعدنا موسى ... » فناسب أن يقول «واذقلنا» ولم يقل فيها « لكم » كما قال هنا « لهم » لأن القول كان لأجداد المخاطبين من ألوف السنين لالهم أنفسهم، ولم يقل «لهم» أيضا لأن السياق لم يكن حكاية عن غائب مجهول يحتاج إلى تعيينه ، بل هو تذكير الخلف بما تقوم به عليهم الحجة من شؤون السلف ، لأنهم وارثوا أخلاقهم وغرائزهم وعاداتهم ، فهو اذن مشترك بين الخلف الحاضر ، والسلف الغابر ، وزيادة « لهم » تلصقه بالغائب وحده فتكون حكايته لبني اسرائيل كحكايته لعرب مكة وغيرهم ، فتأمل

(٣) قال ههنا ﴿ اسكنوا هذه القرية ﴾ وفي سورة البقرة « ادخلوا » والفائدة ههنا أتم لأن السكنى تستلزم الدخول ولا عكس . وتظهر فائدة اختلاف التعبير في الفعلين بما يليهما من العطف عليهما وهو

(٤و٥) قال ههنا ﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ وفي سورة البقرة « فكلوا منها حيث شئتم رغداً » فعطف الأمر بالأكل هنالك بالفاء لأن بدءه يكون عقب الدخول كأكل الفواكه والثمرات التي كانت توجد في كل ناحية من القرية ـ والسكنى أمر ممتد يكون الأكل في أثنائه لاعقبه، بل لايقال عقب السكني الا فيمن يترك هذه السكني، ولذلك عطف عليه هنا بالواو التي تفيد الجمع بين الأمرين مطلقاً بلا ملاحظة ترتيب ولا تعقيب . وقد وصف، هنالك الأكل بالرغد وهو الواسع الهنيء والتبشير به يناسب حال الدخول ، إذ الأمر لدى الداخل مجهول .

(٦) قال ههنا ﴿ وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً ﴾ وقدم هنالك ماأخر

هنا وأخر ماقدمه أي في الذكر ، وهو لا يدل على طلب ترتيب بين الامرين لأن العطف فيه بالواو الدالة على طلب الأمرين مطلقاً ، ولكن لو كان التعبير في الموضعين واحداً لفهم منه أن المقدم في الذكر أرجح أو أهم ولو في الجملة كما هي القاعدة في التقديم لذاته . فكان الاختلاف دالا على عدم الفرق بين تقديم هذا وتأخير ذلك وبين عكسه . لأن المراد منهما لا يقتضي ترتيباً بين مادلت عليه كلمة (حطة) وهو الدعاء بأن تحط عنهم أوزارهم وخطاياهم كقولك اللهم غفراً[1] وبين دخول باب القرية في حال التلبس بالتواضع والخشوع لله تعالى وتنكيس الرءوس شكراً لجلاله على نواله ، كما فعل النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة فاتحاً

(٧) قال هنا ﴿ نغفر لكم خطيئاتكم ﴾ قرأ نافع وابن عامر ويعقوب (تغفر) بالتاء والفاء المفتوحة ورفع (خطيئاتكم) وهو يناسب (واذ قيل لهم) وقرأ الجمهور نغفر بالنون وكسر الفاء ونصب « خطيئاتكم » بكسر تائها وهو يناسب مابعده وهو كون « سنزيد » للمتكلم المعظم . والمعنى فيهما واحد، لأن المخاطب الذي يغفر الذنوب واحد . وقرأ ابن عامر (خطيئتكم) بالافراد .وهو بمعنى الجمع لأنه مضاف فيفيد العموم ، ولعل فيه إشارة إلى خطيئة خاصة مشتركة . وقرأ ابو عمرو (خطاياكم) وبها قرأ الجمهور في آية البقرة ، مع اختلافهم في فعل المغفرة كما هنا . وكتابة الكلمتين في المصحف الامام تحتمل كل ما ذكر في الكلمتين ، وفائدة الاختلاف لفظية وهي التوسع في القراءة ، وقال القطب الشيرازي ان فائدة الاختلاف بين قراءتي الافراد والجمع للخطيئة أن هذه الذنوب تغفر لهم اذا فعلوا ماأمروا به من قول وفعل سواء كانت قليلة كواحدة أو كثيرة

(٨) قال هنا ﴿ سنزيد المحسنين ﴾ بدون واو على الاستئناف البياني وهو جواب سؤال كأنه قيل : وماذا بعد المغفرة ؟ أي سنزيد المحسنين في عملهم جزاء حسناً على

(١) قالوا رفعت كلمة حطة مع كونها في موضع النصب بمعنى حط عنا خطايانا حطة ـ للدلالة على معنى الثبات والاستقرار .والتقدير حاجتنا حطة، وهو أحسن من تقدير مسألتنا حطة كما قدروا، أي حاجتنا أن تحط عنا ذنوبنا حطا خاصا او تاما فان كلمة حطة بكسر الحاء تدل على هيئة الحط ونوعه

احسانهم . وفى سورة البقرة (وسنزيد) بالعطف ، والمعنى واحد . وقد يكون طرح الواو أدل على كون هـذه الزيادة تفضل محض ليس مشاركا المغفرة فيما جعل سبباً لها من الخضوع والسجود والاستغفار والدعاء بحط الأوزار

(٩) قال ههنا ﴿ فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم ﴾ وفيه زيادة (منهم) على مثله من سورة البقرة وسببها ما تقدم نظيره فى قوله تعالى (واذ قيل لهم) الخ من الحاجة إلى ذكر ضمير المحكي عنهم لربط الكلام ، وهذه الحاجة منتفية فى سورة البقرة كما علمت من الفرق السابع آنفاً ، وليس لزيادة البيان كما قيل ، بل هو الأصل ههنا ولا حاجة اليه هنالك وإن كان حكاية عن الغائبين ، لأنه لم يخرج عن سياق مخاطبة خلفهم الحاضرين .

وأما معنى تبديلهم قولا غير الذي قيل لهم فقد تقدم بيانه فى تفسير آية البقرة ، وملخصه أنهم عصوا بالقول والفعل . وخالفوا الأمر مخالفة تامة لا تحتمل الاجتهاد ولا التأول ، فلم يراعوا ظاهر مدلول لفظه ، ولا فحواه والمقصد منه ، حتى كأن المطلوب منهم غير الذى قيل لهم ، ولو قال فبدلوا قولا بقول ، أو فبدلوا ما قيل لهم ، لم يدل على هذا المعنى كله .

ولا ثقة لنا بشيء مما روي فى هذا التبديل من ألفاظ عبرانية ولا عربية ، فكله من الاسرائيليات الوضعية ، كما قاله الاستاذ الامام هنالك . وإن خرج بعضه في الصحيح والسنن موقوفا ومرفوعاً كحديث أبي هريرة المرفوع في الصحيحين وغيرهما « قيل لبني اسرائيل (ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة) فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا: حطة ، حبة في شعرة » وفي رواية شعيرة . رواه البخاري فى تفسير السورتين من طريق همام بن منبه أخي وهب وهما صاحبا الغرائب في الاسرائيليات . ولم يصرح أبو هريرة بسماع هذا من النبي (ص) فيحتمل أنه سمعه من كعب الأحبار إذ ثبت أنه روى عنه ، وهذا مدرك عدم اعتماد الاستاذ رحمه الله تعالى على مثل هذا من الإسرائيليات وان صح سنده ولكن قلما يوجد في الصحيح المرفوع شيء يقتضي الطعن في سندها

(١٠ — ١٢) قال ههنا ﴿ فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾

وقال هنالك (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) فالاختلاف فى ثلاثة مواضع (أولها) بين الارسال والانزال وهو لفظي إذ الارسال من فوق عين الانزال (ثانيها) بين المضمر «عليهم» والمظهر (على الذين ظلموا) والمراد منهما أن ذلك الرجز عذاب كان خاصاً بالذين ظلموا الاعاما فحسن أن يقول في آية الأعراف «عليهم» لتصريحه بسببية الظلم بعده ولو قال «فأرسلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون» لكان تكرار التعليل بالظلم منافياً للبلاغة، وهذا التكرار منتف فى آية البقرة لان التعليل فيها بالفسق لا الظلم (ثالثها) بين يظلمون ويفسقون وفائدته بيان أنهم كانوا جامعين بين الظلم الذي هو نقص للحق أو ايذاء للنفس او للغير، و بين الفسق الذي هو الخروج عن الطاعة ولو فى غير الظلم للنفس أو للناس . وحسن أن تكون هذه الزيادة في آية البقرة لأنها نزلت آخراً . والرجز العذاب الذي تضطرب له القلوب أو يضطرب له الناس في شؤونهم ومعايشهم كما تقدم تحقيقه في تفسير الآية (١٣٣) من هذه السورة وذكرنا فيها قول المفسرين إن الرجز الذي أرسله الله على الظالمين في قصة دخول القرية هو الطاعون وأنه جائز ولكن لم يثبت بنقل صحيح ، وقد عزاه بعض المفسرين الى وهب بن منبه

إن الله تعالى أنزل القرآن هدى وموعظة ، وجعل قصص الرسل فيه عبرة وتذكرة ، لا تاريخ شعوب ومدائن ، ولا تحقيق وقائع ومواقع . والعبرة في هذه القصة أن نتقي الظلم والفسق . ونعلم أن الله يعاقب الأمم على ذنوبها في الدنيا قبل الآخرة ، وأنه قد عاقب بني اسرائيل بظلمهم ، ولم يحل دون عقابه ما كان لهم من المزايا والفضائل ، وكثرة وجود الأنبياء فيهم . ومنه السياق الآتي

---

(١٦٢) وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ

مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ، قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
(١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ
وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ
(١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ

هذه الآيات تفصيل لقوله تعالى في سورة البقرة (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت) إلى آخر الآيتين وقد تقدم تفسيرها ، ولا أعلم للقصة ذكراً من كتب اليهود المقدسة ولكنها كانت معروفة عندهم ، ولولا ذلك لبهتوا النبي (ص) في المدينة عند مانزل عليه (ولقد علمتم) أو لما آمن من آمن به من علمائهم إذا كانوا لا يعلمون ماحكى لهم عن الله تعالى انهم يعلمونه مؤكدا بلام القسم ، واذا قال غير المسلم المؤمن : انه اطّلع على القصة في بعض كتبهم المقدسة أو التاريخية غير المقدسة أو سمعه من بعضهم ـ قلنا أولا : ان آيات سورة الاعراف هذه نزلت بمكة في أوائل الاسلام ، ولم يكن النبي (ص) لقي أحدا من اليهود ـ ومن المعلوم قطعاً انه كان أُمّيّاً لم يقرأ الكتب كما قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، اذاً لارتاب المبطلون) الخ . وثانياً : انه (ص) لم يكن يصدقهم بعد معاشرتهم في المدينة بكل ما يحكون عن كتبهم بل كذبهم عن الله تعالى في كثير منها ، ولم يكن يصدقهم في كل مايقولونه غير منقول عن كتبهم بالأولى : وهاك تفسير الآيات بمدلول ألفاظها ، ولا نعتمد على شيء من الروايات فيها

﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ﴾ الخطاب للرسول (ص) والسؤال فيه للتقرير المتضمن للتقريع ، والادلال بعلم ماضيهم . والمعنى واسأل بني اسرائيل عن أهل المدينة التي كانت حاضرة البحر أي قريبة منه ، راكبة لشاطئه ﴿ إذ يعدون في السبت ﴾ أي اسأل عن حالهم في الوقت الذي كانوا يعتدون في السبت ، ويتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فيه ﴿ إذ تأتيهم حيتانهم ﴾ أي سمكهم — ولا يزال أهل الحجاز يسمون السمكة حوتاً

كبيرة كانت أو صغيرة ، وأهل سورية يخصون السمكة الكبيرة باسم الحوت — وقد أضيفت الحيتان اليهم لما كان من ابتلائهم بها ، واحتيالهم على صيدها ، وكانت تأتيهم ﴿ يوم سبتهم ﴾ أي تعظيمهم للسبت ، فهو مصدر سبتت اليهود تسبت إذا عظمت السبت بترك العمل فيه وتخصيصه للعبادة ﴿ شرعا ﴾ أي ظاهرة على وجه الماء كما روي عن ابن عباس ، وفي رواية أخرى عنه ظاهرة من كل مكان — وهي جمع شارع ، كالركع السجد جمع الراكع والساجد ، من شرع عليه إذا دنا وأشرف ﴿ ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ﴾ أي ولا تأتيهم يوم لا يعظمون السبت فعلا وتركا . قيل : إنها اعتادت أن لا يتعرض أحد لصيدها يوم السبت ، فأمنت وصارت تظهر فيه ، وتخفى في الأيام التي لا يسبتون فيها لما اعتادت من اصطيادها فيها ، فلما رأوا ظهورها وكثرتها في يوم السبت أغراهم ذلك بالاحتيال على صيدها ففعلوا

﴿ كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ أي مثل هذا البلاء بظهور السمك لهم نبلوهم أي نختبرهم أو نعاملهم معاملة المختبر لحال من يريد إظهار كنه حاله ليترتب الجزاء على عمله بسبب فسقهم المستمر عن أمر ربهم ، واعتدائهم حدود شرعه

﴿ وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديداً ﴾ أي واسألهم عن حال أهل تلك القرية في الوقت الذي قالت أمة وجماعة منهم كيت وكيت تدل هذه الآية على أن الذين كانوا يعدون في السبت بعض أهل القرية لا كلهم وأن أهلها كانوا ثلاث فرق : فرقة العادين التي أشير اليها في الآية الأولى ، وفرقة الواعظين الذين نهوا العادين عن العدوان ، ووعظوهم ليكفوا عنه وهي التي أشير اليها في هذه الآية . وفرقة اللائمين للواعظين التي قالت لهم : لم تعظون قوماً قضى الله عليهم بالهلكة أو العذاب الشديد ، فهو اما مهلكهم بالاستئصال ، أو بعذاب شديد دون الاستئصال ، أو المعنى مهلكهم في الدنيا ومعذبهم في الآخرة — وأياما كان المراد فأو هنا هي المانعة للخلو من وقوع أحد الجزاءين ، لا المانعة لجمعهما ، فهي لا تنفي اجتماعهما . وفي الآية من الايجاز البليغ مالا يوجد نظيره في غير القرآن

﴿ قالوا : معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون ﴾ أي قال الواعظون للائمين : نعظهم وعظ عذر نعتذر به الى ربكم عن السكوت على المنكر وقد أمرنا بالتناهي عنه ، ورجاء في انتفاعهم بالموعظة ، وحملها لهم على اتقاء الاعتداء الذي اقترفوه. أي فنحن لم نيأس من رجوعهم الى الحق يأسكم

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ أي فلما نسي العادون المذنبون ، ما ذكرهم ووعظهم به اخوانهم المتقون ، بأن تركوه وأعرضوا عنه حتى صار كالمنسيّ في كونه لا تأثير له ﴿ أنجينا الذين ينهون عن السوء ﴾ أي عن العمل الذي تسوء عاقبته أي أنجيناهم من العقاب الذي استحقه فاعلو السوء بظلمهم ﴿ وأخذنا الذين ظلموا ﴾ وحدهم ﴿ بعذاب بئيس ﴾ أي شديد من البأس وهو الشدة ، أو البؤس وهو المكروه أو الفقر ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ أي بسبب فسقهم المستمر ، لا بظلمهم في الاعتداء في السبت فقط . وذلك أن وصفهم بأنهم ظلموا تعليل لأخذهم بعذاب بئيس، على قاعدة كون بناء الحكم أو الجزاء على المشتق يدل على أن المشتق منه علة له ، ولكن الله تعالى لا يؤاخذ كل ظالم في الدنيا بكل ظلم يقع منه ولو كان قليلا في الصفة أو العدد ـ وان شئت قلت في الكيف أو الكم ـ بدليل قوله (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة) وقوله (ويعفو عن كثير) وانما يؤاخذ الأمم والشعوب في الدنيا قبل الآخرة بالظلم والذنوب التي يظهر أثرها فيها بالاصرار والاستمرار عليها ، وهو ما أفاده هنا في هؤلاء اليهود قوله تعالى (بما كانوا يفسقون) وانما يكون العقاب على بعض الذنوب دون بعض في الدنيا خاصا بالأفراد أو الجماعات الصغيرة من المذنبين كأهل هذه القرية الذين كانوا بعض اهل قرية من امة كبيرة ، واما الأمم الكبيرة فهي التي تصدق عليها سنن الله في عقاب الأمم إذا غلب عليهم الفسق والظلم كقوله تعالى(واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) الا ان يقال ان الفاسقين من أهل تلك القرية كانوا أقل من الفريقين الآخرين . وقد عاقب الله بني اسرائيل كافة بتنكيل البابليين ثم النصارى بهم وسلبهم ملكهم ، عند ما عم فسقهم ، ولم يدفع

ذلك عنهم وجود بعض الصالحين فيهم ، اذ لم يكونوا يخلون منهم .

والآية ناطقة بهلاك الظالمين الفاسقين ، ونجاة الصالحين الذين نهوهم عن عمل السوء وارتكاب المنكر ، وسكتت عن الفرقة التي أنكرت على الواعظين وعظهم وانكارهم ، فقيل : انها لم تنج ، لأنها لم تنه عن المنكر بل أنكرت على الذين نهوا ، وقيل : بل نجت ، لأنها كانت منكرة للمنكر مستقبحة له ، ولذلك لم تفعله ، وانما لم تنه عنه ليأسها من فائدة النهي، وجزمها بأن القوم قد استحقوا عقاب الله باصرارهم فلا يفيدهم الوعظ ، وروي هذا عن ابن عباس كما روي عنه أنه كان متردداً في هذه الفرقة حتى أقنعه تلميذه عكرمة بنجاتها . وقد رجح الزمخشري وغيره هذا قال :

(فان قلت) الامة الذين قالوا : لم تعظون؟من أي الفريقين هم ؟ أمن فريق الناجين أم المعذبين (قلت) من فريق الناجين ، لأنهم من فريق الناهين ، وما قالوا ماقالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه ، حيث لم يروا فيه غرضاً صحيحاً لعلمهم بحال القوم ، وإذا علم الناهي حال المنهي وأن النهي لايؤثر فيه ، سقط عنه النهي ، وربما وجب الترك لدخوله في باب العبث . ألا ترى أنك لو ذهبت الى المكاسين القاعدين على المآصر ، والجلادين المرتبين للتعذيب ، لتعظهم وتكفهم عما هم فيه ، كان ذلك عبثاً منك، ولم يكن إلا سبباً للتلهي بك . وأما الآخرون فانما لم يعرضوا عنه إما لأن يأسهم لم يستحكم كما استحكم يأس الأولين ، ولم يخبروهم كما خبروهم، أو لفرط حصرهم ،وجدّهم في أمرهم ، كما وصف الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام في قوله (فلعلك باخع نفسك) اهـ

أقول : ان ماذكره من سقوط النهي عن المنكر أو وجوب تركه في حالة اليأس من تأثيره مرجوح ولا سيما اذا أخذ على اطلاقه ، وانما هو شأن اضعف الايمان في حديث « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن أبي سعيد الخدري (رض) وانما تكون هذه الحالة أضعف الايمان عند عدم استطاعة ماقبلها ، فان استطاع النهي وسكت عنه لم يكن له عذر مطلقا، ولذلك اختلف في هؤلاء الساكتين .

المحتملة حالهم للعذر وعدمه ، واليأس قلما ينشأ إلا من ضعف في النفس او الايمان ، وكأين من مكاس وجلاد ومدمن خمر تاب وأناب ، والمحققون لم يجعلوا احتمال الأذى ولا يقينه موجباً لترك النهي عن المنكر ولا لتفضيله على الفعل بل قالوا في هذه الحالة بالجواز ، واستدلوا على تفضيل النهي بحديث « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » رواه أحمد والنسائي وابن ماجه وغيرهم

وفى بئيس عدة قراآت أخرى بين متواترة وشاذة ، تتخرج على الخلاف فى أصل صيغته ، وعلى لغات العرب فى التصرف في المهموز : فقرأها ابو بكر على خلاف عنه بيئس بوزن ضيغم — وابن عامر بكسر الباء وسكون الهمزة بناء على انه اصله بئس بوزن حذِر فنقلت حركة الهمزة الى الفاء للتخفيف ككبد فى كبد ، ونافع بيس على قلب الهمزة ياء كذئب وذيب ، او على انه فعل الذم وصف به فجعل اسما . ومن الشواذ بيّس كريس على قلب الهمزة ياء وادغامها ، وبيس كهين على تخفيف المشددة ، وبائس بوزن فاعل

﴿ فلما عتوْا عما نهوا عنه ﴾ أي فلما عتوا عن أمر ربهم عتو إباء واستكبار عن ترك مانهاهم عنه الواعظون ﴿ قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ هذا القول للتكوين أي تعلقت إرادتنا بأن يكونوا قردة خاسئين أي صاغرين أذلاء فكانوا كذلك

قيل : إن هذا بيان وتفصيل للعذاب البئيس في الآية السابقة ، وقيل : هو عذاب آخر ، وإن الله عاقبهم أولا بالبؤس والشقاء في المعيشة ، لأن من الناس من لا يربيه ويهذبه الا الشدة والبؤس ، كما إن منهم من يربيه ويهذبه الرخاء والنعمة ، وبكل يبتلي الله عباده ويمتحنهم كما قال (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) وقال في بني اسرائيل (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) ولكن هؤلاء القوم لم يزدهم البؤس والسوء إلا عتواً وإصراراً على الفسق والظلم فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ، ومسخهم مسخ خلق وبدن فكانوا قردة بالفعل ، أو مسخ خلق ونفس ، فكانوا كالقردة في طيشها وشرها ، وإفسادها لما تصل اليه أيديها . والاول قول الجمهور والثاني قول مجاهد قال : مسخت قلوبهم فلم يفقهوا الفهم الحق

(وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيمة من يسومهم سوء العذاب ، إن ربك لسريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم(١٦٧) وقطعنهم في الأرض أمما ، منهم الصلحون ومنهم دون ذلك ، وبلونهم بالحسنت والسيئات لعلهم يرجعون(١٦٨) فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ، ألم يؤخذ عليهم ميثق الكتب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا مافيه ، والدار الآخرة خير للذين يتقون ، أفلا تعقلون (١٦٩) والذين يمسكون بالكتب وأقاموا الصلوة إنا لا نضيع أجر المصلحين (١٧٠) وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون (١٧١)

هذه الآيات خاتمة قصة بني اسرائيل في هذه السورة ، وما سيأتي من نبأ الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها مثل عام ليس فيه مايدل على أنه كان منهم كما روي عن بعض المفسرين فهو لا يدخل في قصتهم ، ومناسبة هذه لما قبلها مباشرة أنها بيان لجريان سنة الله العامة في عقاب الأمم وانطباقها على اليهود عامة ، بعد بيان عقابه تعالى لطائفة منهم قال عز وجل :

﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ تأذن صيغة تفعل من الايذان ، وهو الاعلام الذي يبلغ فيدرك بالآذان ، ويتضمن هنا تأكيد القسم ، ومعنى العهد المكتوب الملتزم ، بدليل مجيء لام القسم ونون التوكيد في جوابه . والمعنى : واذكر أيها الرسول الخاتم العام إذ أعلم ربك هؤلاء القوم المرة بعد المرة أنه قد قضى في علمه وكتب على نفسه ، وفاقا لما أقام عليه نظام الاجتماع البشري من سننه ليبعثن ويسلطن عليهم الى يوم القيامة من

يسومهم سوء العذاب ، أي يريده ويوقعه بهم، عقابا على ظلمهم وفسقهم وفسادهم، وهو مجاز من سوم الشيء ، كما يقال سامه خسفاً . وسوء العذاب مايسوء صاحبه ويذله ، وهو هنا سلب الملك ، وإخضاع القهر

ومصداق هذا وتفصيله على ما قرّرنا قوله تعالى في أول سورة الاسراء (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلُنّ عُلوًّا كبيراً — الى قوله — وليتبروا ماعلوْا تتبيراً) ثم قال (عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا) الآية أي وإن عدتم بعد عقاب المرة الآخرة الى الافساد ، عدنا إلى التعذيب والاذلال ، وقد عادوا فسلط الله عليهم النصارى فسلبوا ملكهم الذي أقاموه بعد نجاتهم من السبي البابلي ، وقهروهم واستذلوهم ، ثم جاء الاسلام فعاداه منهم الذين كانوا هربوا من الذل والنكال ولجؤا إلى بلاد العرب فعاشوا فيها أعزاء آمنين ، ولم يفوا للنبي (ص) بما عاهدهم عليه فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم ، بل غدروا به وكادوا له ، ونصروا المشركين عليه ، فسلطه الله عليهم فقاتلهم فنصره عليهم ، فأجلى بعضهم ، وقتل بعضاً ، وأجلى عمر من بقي منهم ، ثم فتح عمر سورية بعضها بالصلح كبيت المقدس ، وبعضها عنوة ، فصار اليهود من سيادة الروم الجائرة القاهرة فيها الى سلطة الاسلام العادلة ، ولكنهم ظلوا أذلة بفقد الملك والاستقلال . وقد بينا حقيقة حالهم ، وما يحاولونه من استعادة ملكهم في هذا الزمان في غير هذا الموضع من هذا التفسير ، وفي مواضع من المنار

﴿ إن ربك لسريع العقاب ﴾ للأمم التي تفسق عن أمره وتفسد في الأرض فلا يتخلف عقابه عنها كما يتخلف عن بعض الأفراد (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها — فحق عليها القول — فدمرناها تدميراً) أي أمرناهم بالحق والعدل ، والرحمة والفضل ، فعصوا وفسقوا عن الأمر ، وأفسدوا وظلموا في الأرض ، فحق عليهم القول ، بمقتضى سنته تعالى في الخلق، فحل بهم الهلاك على الفور

﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ لمن تاب عقب الذنب، وأصلح ما كان أفسد في

الارض ، قبل أن يحق عليه القول (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) وهذا كما قال في اليهود بعد ذكر إفسادهم مرتين (عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا) وقلما ذكر الله عذاب الفاسقين المفسدين ، الا وقرنه بذكر المغفرة والرحمة للتائبين المحسنين ، حتى لا ييأس صالح مصلح من رحمته بذنب عمله بجهالة ، ولا يأمن مفسد من عقابه اغترارا بكرمه وعفوه وهو مصر على ذنبه،

ثم بين تعالى كيف كان بدء إذلال اليهود بازالة وحدتهم، وتمزيق جامعتهم فقال ﴿ وقطعناهم في الأرض أمما ﴾ أي وفرقناهم في الأرض حال كونهم أمما بالتقدير، أو صيرناهم أمما متقطعة ، بعد أن كانوا أمة متحدة ﴿ منهم الصالحون﴾ كالذين نهوا الذين اعتدوا في السبت عن ظلمهم ، والذين كانوا يؤمنون بأنبياء الله تعالى فيهم من بعد موسى الى عهد عيسى عليهم السلام ، والذين آمنوا بمحمد خاتم النبيين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ﴿ومنهم دون ذلك﴾ ومنهم ناس دون وصف الصلاح لم يبلغوه ، وهم درجات أودركات، منهم الغلاة في الكفر والفسق ، كالذين كانوا يقتلون النبيين بغير حق ، ومنهم السماعون للكذب الأكالون للسحت ، الى غير ذلك مما هو شأن الأمم الفاسدة في كل عصر ، تفسد بالتدريج لا دفعة واحدة كما نراه في أمتنا الاسلامية

﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ أي امتحناهم ، وبلونا سرائرهم واستعدادهم ، بالنعم التي تحسن ، وتقر بها الأعين ، وبالنقم التي تسوء صاحبها ، وربما حسنت بالصبر والانابة عواقبها ، رجاء أن يرجعوا عن ذنبهم ، وينيبوا الى ربهم ، فيعود برحمته وفضله عليهم

﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ أي فخلف من بعد أولئك الذين كان فيهم الصالح والطالح ، والبر والفاجر : خلف سوء وبدل شر ، قيل : إن الخلف بسكون اللام يغلب في الأشرار ، وإنما يقال في الأخيار خلف بالتحريك كسلف ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ الذي هو التوراة عنهم ، وقامت الحجة به عليهم ،

فماذا كان شأنهم ؟ الجواب ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ أي يأخذون عرض هذا الشيء الأدنى ، أي هذا الحطام الحقير من متاع الدنيا ، والمراد به ما كانوا يأكلونه من السحت والرشى ، والاتجار بالدين والمحاباة في الحكم والفتوى ﴿ ويقولون سيغفر لنا ﴾ أي سيغفر الله لنا ، ولا يؤاخذنا بما أذنبنا ، فاننا شعبه الخاص ، وسلائل أنبيائه ، ونحن أبناؤه وأحباؤه ، وما هذه الاقوال الا أماني ، وغرور وأوهام ، قال ابن كثير ، وقال مجاهد : هم النصارى ، وقد يكون أعم من ذلك اه وكل من القولين ينافيه مقتضى السياق ، فأوائل النصارى كانوا صالحين ، وسابق الكلام ولاحقه في اليهود وحدهم ﴿ وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ أي يقولون ذلك والحال أنهم مصرون على ذنبهم إن يأتهم عرض آخر مثل الذي أخذوه أولا بالباطل يأخذوه لا يتعففون عنه وإنما وعد الله في كتبه بالمغفرة للتائبين الذين يتركون الذنوب ندما وخوفا من الله ورجاء فيه ، ويصلحون ما كانوا أفسدوا ، كما تكرر في القرآن ، ومنه في سياق قصة موسى مع بني اسرائيل خطاباً لهم من سورة طه (واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى)

وقد ردَّ الله تعالى عليهم زعمهم بقوله ﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله الا الحق ﴾ الاستفهام للتقرير ، أي قد أخذ عهد الله وميثاقه في كتابه بأن لا يقولوا عليه غير الحق الذي بينه فيه ، فما بالهم يجزمون بأن الله سيغفر لهم مع اصرارهم على ذنوبهم على خلاف ما في الكتاب ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾ أي من تحريم أكل أموال الناس بالباطل والكذب على الله كقولهم إنه سيغفر لهم وغير ذلك ، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في العمل بكتابه كما في آخر سفر تثنية الاشتراع.

﴿ والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ؟ ﴾ أي والدار الآخرة وما أعدَّه الله فيها للذين يتقون الرذائل والمعاصي خير من الحطام الفاني من عرض

الدنيا بالرشوة والسحت وغير ذلك ، أفلا يعقلون ذلك وهو ظاهر جليّ لا يخفى على عقل لم يطمسه الطمع الباطل ، في الحطام العاجل ، فترجحون الخير على الشر ، والنعيم العظيم الدائم ، على المتاع الحقير الزائل ، وقد عُلم من الآية ان الطمع في متاع الدنيا هو الذي استحوذ على بني اسرائيل فأفسد عليهم أمرهم ، ولا يزال هذا التماني فيها أخص صفاتهم ،

وقد سرى شيء كثير من هذا الفساد إلى المسلمين ، حتى رجال الدين الذين ورثوا الكتاب الكريم ، والقرآن الحكيم ، ودرسوا مافيه ، غلب على أكثرهم الطمع في حطام الدنيا القليل ، وعرضها الدنيء ، والغرور بالنسبة إلى الاسلام والتحلي بلقبه ، والتعلل بأماني المغفرة مع الاصرار على الذنب والاتكال على المكفرات والشفاعات ، وهم يقرءون مافي الكتاب من النهي عن الأماني والأوهام ، ومن نوط الجزاء بالأعمال ، والمغفرة بالتوبة والاصلاح ، وكون الشفاعة لاتقع إلا باذن الله لمن رضي عنه كقوله (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) ولن يرضى الله عن فاسق ولا منافق (فان ترضوا عنهم فان الله لايرضى عن القوم الفاسقين) بل ماقص الله علينا مثل هذه الآيات من أخبار بني اسرائيل إلا لنعتبر بأحوالهم ، ونتقي الذنوب التي أخذهم بها ، ولكننا مع هذا كله اتبعنا سننهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، الا اننا نحمد الله ان هذا الاتباع فينا غير عام ، وانه لايزال فينا طائفة ظاهرة على الحق يطعن فيها الجماهير الذين صار الاسلام فيهم غريباً ، وقد شرحنا ذلك مرارا بل صرحت الآيات بالتحذير من اتباع أهل الكتاب في أمانيهم وفي فسقهم كقوله تعالى (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به) الخ وقوله (ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)

قرأ (تعقلون) بالتاء نافع وابن عامر وابن ذكوان وأبو جعفر وسهل ويعقوب وحفص فقيل إن الخطاب به لليهود المحكي عنهم بطريق الالتفات ، وقيل بل هو خطاب لهذه الأمة لتعتبر بحالهم ، وتجتنب ما كان سبباً لسوء مآلهم من الاصرار

على سوء أعمالهم ، وقرأ الآخرون (يعقلون) على الأصل في الحكاية عن الغائبين ، ولو صح ما قيل من أن هذه الآيات نزلت وحدها في المدينة لصح أن يقال ان الخطاب موجه الى اليهود المجاورين لها ، لأنهم آخر ذلك الخلف ، الذي نزل فيه هذا الوصف في ذلك الوقت

﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة انا لانضيع أجر المصلحين ﴾ قرأ الجمهور يمسكون بتشديد السين من مسك تمسيكا بمعنى تمسك تمسكا ، ومثله قدم بمعنى تقدم ، ومنه (لاتقدموا بين يدي الله ورسوله) وقرأ أبو بكر وحماد يمسكون بالتخفيف من الامساك . — أي والذين يستمسكون بعروة الكتاب الوثقى ويعتصمون بحبله في جميع أحوالهم وأوقاتهم ، وأقاموا الصلاة التي هي عماد الدين في أوقاتها ﴿ انا لانضيع أجر المصلحين ﴾ انا لانضيع أجرهم لأنهم هم المصلحون . والله لا يضيع أجر المصلحين ، فهو خبر قرن بالدليل ، ومثله قوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لانضيع أجر من أحسن عملا)

﴿ واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ﴾ لعل حكمة ختم قصة بني سرائيل بهذه الآية هنا للتذكير ببدء حالهم في انزال الكتاب عليهم في إثر بيان عاقبة أمرهم في مخالفته والخروج عنه ، فان في تلك الفاتحة اشارة الى هذه الخاتمة ، وذلك عند ما أخذ عليهم الميثاق ليأخذن بالشريعة بقوة وعزم فانه رفع فوقهم الطور وأوقع في قلوبهم الرعب من خوف وقوعه بهم ، فلاغرو اذا آل أمرهم الى ترك العمل به بعد طول الامد وقساوة القلوب ، والانس بالذنوب ، وقد تقدم في معنى هذه الآية آيتان من سورة البقرة وأشير اليه في سورة النساء . وذكرنا آية الاعراف هذه في سياق تفسير آية البقرة الأولى . والمعنى واذكر أيها الرسول النبي الأمي إذ نتقنا فوق هؤلاء الجبل جبل الطور أي رفعناه كما عبر به في الآيات الأخرى وهو المروي عن ابن عباس — أو زلزلناه وهو مرفوع فوقهم مظلل لهم — كما يقال نتق السقاء اذا هزه ونفضه ليخرج منه الزبدة . قال الجمهور انه اقتلعه وجعله فوقهم (فان قيل) لو كان الأمر كذلك لكان ظلة بالفعل

لا كالظلة ، فان الظلة كل ماأظلك من فوقك ، ويصدق رفع الجبل فوقهم كالظلة بوجودهم في سفحه واستظلالهم به (قلنا) أنه وإن صح هذا التأويل فان رفع الجبل على الوجه الاول إنما كان لاخافتهم لا لأظلالهم وأما ظنهم أنه واقع بهم فانما جاء من زلزلته واضطرابه ، على أن الله تعالى قادر على قلعه وجعله فوقهم وكم رأوا من آياته ماهو أدل على قدرته تعالى من ذلك

﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ وقلنا لهم في تلك الحالة : خذوا ماأعطيناكم من أحكام الشريعة بقوة عزيمة وعزم على احتمال مشاقه ﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ أي واذكروا ما فيه من الاحكام أوامرها ونواهيها ، أو اعملوا به لئلا تنسوه — فان ذلك يعدكم للتقوى ويجعلها مرجوة لكم ، فان الجدّ وقوة العزم في اقامة الدين يهذب النفس ويزكيها ، والتهاون والاغماض فيه بدسيها ويغويها (قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها)

وإذ أَخذَ رَبُّكَ من بني ءَادَمَ منْ ظُهورِهِمْ ذُرِّيَّتَهمْ وأَشهَدَهُمْ على أنفسهم ألستُ بربكمْ ؟ قالوا : بلى شَهدنا أن تقولوا يومَ القيـٰمةِ إنا كنا عَن هذا غـٰفلين (١٧٢) أو تقولوا إنما أشركَ ءاباؤنا من قبلُ وكنا ذُرِّيَّةً مِن بعدِهم ، أفتهلِكُنا بما فعلَ المبطلونَ (١٧٣) وكذٰلِكَ نفصِّلُ الآيـٰتِ ولعلهم يَرجعون (١٧٤)

هذه الآيات بدء سياق جديد في شؤون البشر العامة المتعلقة بهداية الله لهم بما أودع في فطرتهم وركب في عقولهم من الاستعداد للايمان به وتوحيده وشكره ، في إثر بيان هدايته لهم بارسال الرسل وانزال الكتب في قصة بني إسرائيل ، فالمناسبة بين هذا وما قبله ظاهرة ولذلك عطف عليه عطف جملة على جملة ، او سياق على سياق ، قال تعالى

﴿ واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾ الظهور جمع ظهر وهو العمود الفقري لهيكل الانسان الذي هو قوام بنيته ، ومركز النخاع الشوكي

الذي عليه مدار حياته ، فيصح أن يعبر به عن جملة وجوده الجسدي الحيواني ، والذرية سلالة الانسان من الذكور والاناث . قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب (ذرياتهم) بالجمع والباقون بالافراد ومعناهما واحد فان المفرد المضاف يفيد العموم ، ورسمها في المصحف الامام واحد ، وقوله (من ظهورهم) بدل من بني آدم بمعناه والجمهور على انه بدل البعض من الكل ، وهو الظاهر اذا لم يرد بهذا البعض ذلك الكل ، وقال أبو البقاء هو بدل اشتمال

والمعنى واذكر أيها الرسول في إثر ذكر أخذ ميثاق الوحي على بني إسرائيل خاصة ، ماأخذه الله من ميثاق الفطرة والعقل على البشر عامة ، اذ استخرج من بني آدم ذريتهم بطنا بعد بطن ، فخلقهم على فطرة الاسلام ، وأودع في أنفسهم غريزه الايمان ، وجعل من مدارك عقولهم الضرورية ان كل فعل لابد له من فاعل ، وكل حادث لابد له من محدث ، وان فوق كل العوالم الممكنة القائمة على سنة الأسباب والمسببات ، والعلل والمعلولات ، سلطانا أعلى على جميع الكائنات ، هو الاول والآخر ، هو المستحق للعبادة وحده ، — وقد بسطنا

هذه المسألة — وهذا معنى قوله تعالى ﴿ وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟

قالوا بلى شهدنا ﴾ أي أشهد كل واحد من هذه الذرية المتسلسلة على نفسه بما أودعه في غريزته واستعداد عقله قائلا قول إرادة وتكوين ، لاقول وحي وتلقين ، ألست بربكم ؟ فقالوا كذلك بلغة الاستعداد واسان الحال ، لابلسان المقال : بلى أنت ربنا والمستحق وحده لعبادتنا . فهو من قبيل قوله تعالى بعد ذكر خلق السماء (فقال لها وللارض اءتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين) وهذا النوع من التعبير والبيان يسمى في عرف علماء البلاغة بالتمثيل، وهو أعلى أساليب البلاغة وشواهده في القرآن وكلام البلغاء كثيرة .

بيّن سبحانه سبب هذا الاشهاد وعلته فقال :

﴿ أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ أى فعلنا هذا منعا لاعتذاركم أو احتجاجكم يوم القيامة بأن تقولوا إذا أنتم اشركتم به : انا كنا

غافلين عن هذا التوحيد للربوبية وما يستلزمه من توحيد الالهية بعبادة الرب وحده والمراد انه تعالى لايقبل منهم الاعتذار بالجهل

﴿ أو تقولوا : انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ﴾ جاهلين ببطلان شركهم ، فلم يسعنا الا الاقتداء بهم ﴿ أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ باختراع الشرك فتجعل عذابنا كعذابهم ، مع عذرنا بتحسين الظن بهم ، والمراد أن الله تعالى لا يقبل منهم الاعتذار بتقليد آباءهم وأجدادهم ، كما أنه لم يقبل منهم الاعتذار بالجهل ، بعد ما أقام عليهم من حجة الفطرة والعقل

﴿ وكذلك نفصل الآيات لعلهم يرجعون ﴾ أي ومثل هذا التفصيل البليغ نفصل لبني آدم الآيات والدلائل ليستعملوا عقولهم ، ولعلهم يرجعون بها عن جهلهم وتقليدهم والايات تدل على انمن لم تبلغه بعثةرسول لايعذر يوم القيامة . بالشرك بالله تعالى ولا بفعل الفواحش والمنكرات التي تنفر منهاالفطرة السليمة ، وتدرك ضررها وفسادها العقول المستقلة ، وانما يعذرون بمخالفة هداية الرسل فيما شأنه أن لايعرف الا منهم . وهو أكثر العبادات التفصيلية

هذا مايتبادر الى الفهم من الايات لذاتها ولكن ورد في أخذ الذرية من بني آدم واشهادهم على أنفسهم أحاديث وآثار لايمكن أن تعرف إلا من خبر الوحي . وقد كانت موضوع بحث ومناقشة بين علماء المعقول والمنقول فنورد أمثل ماقالوه فيها قال الامام ابن كثير فى تفسيره لهذه الاية : —

«يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم ، وأنه لاإله إلا هو ، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة » وفي رواية « على هذه الملة فأبواه يُهوّدانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» . وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم « يقول الله : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم » وقال الامام ابو جعفر بن جرير رحمه الله : حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرني السري بن يحيى أن الحسن بن ابي الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بني سعد قال: غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع غزوات قال : فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتد عليه ثم قال : «مابال أقوام يتناولون الذرية »؟ فقال رجل: يارسول الله أليسوا أبناء المشركين؟ فقال « إن خياركم أبناء المشركين ، ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة ، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها ، فأبواها يهوّدانها وينصرانها » قال الحسن : والله لقد قال الله في كتابه (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم) الآية ، وقد رواه الامام احمد عن اسماعيل بن علية عن يونس بن عبيد عن الحسن البصري به ، وأخرجه النسائي في سننه من حديث هشيم بن يونس ابن عبيد عن الحسن قال : حدثني الأسود بن سريع فذكره ، ولم يذكر قول الحسن البصري واستحضاره الآية عند ذلك .

وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام ، وتمييزهم الى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال . وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم ، قال الامام احمد : حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن ابي عمران الجوني عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الارض من شيء أكنت مفتديا به ؟ قال : فيقول نعم فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي » أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة به

﴿ حديث آخر ﴾ قال الامام احمد : حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير - يعني - ابن حازم - عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم فتلا قال: ألست

بربكم ؟قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا ـ الى قوله ـ المبطلون » وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من سننه عن محمد بن عبد الرحيم عن صاعقة عن حسين بن محمد المروزي به ، ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث حسين بن محمد به ، الا أن ابن ابي خاتم جعله موقوفا ، وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره عن جرير بن حازم عن كلثوم بن جبير به وقال : صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبير هكذا قال ، وقد رواه عبد الوارث عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فوقفه ، وكذا رواه اسماعيل بن علية ووكيع عن ربيعة بن كلثوم عن جبير عن أبيه به ، وكذا رواه عطاء بن السائب وحبيب بن ابي ثابت وعلي بن بذيمة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله ، وكذا رواه العوفي وعلي بن ابي طلحة عن ابن عباس فهذا أكثر وأثبت والله أعلم

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع حدثنا ابي عن ابي هلال عن ابي حمزة الضبعي عن ابن عباس قال : أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر وهو في أذيّ من الماء . وقال أيضاً : حدثنا علي بن سهل حدثنا ضمرة بن ربيعة حدثنا ابومسعود عن جويبر: مات ابن الضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام قال : فقال ياجابر اذا أنت وضعت ابني في لحده فأبرز وجهه وحل عنه عقده ، فان ابني مجلس ومسئول ، ففعلت الذي به أمر ، فلما فرغت قلت يرحمك الله عمَّ يسأل ابنك ؟ من يسأله اياه ؟ قال : يُسأل عن الميثاق الذي أقرَّ به في صلب آدم ، قلت : يا أبا القاسم وما هذا الميثاق الذي أقرَّ به في صلب آدم ؟ قال : حدثني ابن عباس أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها الى يوم القيامة ، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وتكفل لهم بالأرزاق ثم أعادهم في صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقر به لم ينفعه الميثاق الأول ، ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول، على الفطرة . فهذه الطرق كلها مما تقوي وقف هذا على ابن عباس والله أعلم

﴿ حديث آخر ﴾ قال ابن جرير : حدثنا عبد الرحمن بن الوليد حدثنا احمد ابن ابي ظبية عن سفيان بن سعيد عن الأجلح عن الضحاك عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم) قال « أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين » احمد بن ابي ظبية هذا هو ابو محمد الجرجاني قاضي قومس ، كان أحد الزهاد ، أخرج له النسائي في سننه وقال : ابو حاتم الرازي يكتب حديثه ، وقال ابن عدي : حدث بأحاديث كثيرة غرائب . وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن حمزة بن مهدي عن سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قوله ، وكذا رواه جرير عن منصور به وهذا أصح والله أعلم

﴿ حديث آخر ﴾ قال الامام احمد : حدثنا روح هو ابن عبادة حدثنا مالك وحدثنا اسحق بن مالك عن زيد بن أبي أنيسة أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد ابن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى) الآية فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال « إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون » فقال : يارسول الله ففيم العمل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار » وهكذا رواه ابو داود عن القعنبي والنسائي عن قتيبة ، والترمذي عن اسحق بن موسى عن معن ، وابن ابي حاتم عن يونس ابن عبد الأعلى عن ابن وهب ، وابن جرير من حديث روح بن عبادة وسعيد ابن عبد الحميد بن جعفر ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه من رواية ابي مصعب

الزبيري كلهم عن الامام مالك بن أنس به قال الترمذي : وهذا حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع عمر ، وكذا قاله ابو حاتم وأبو زرعة ، زاد ابو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة ، وهذا الذى قاله ابو حاتم رواه ابو داود في سننه عن محمد ابن مصفى عن بقيـة عن عمرو بن جعثم القرشي عن زيد بن أبي انيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن مسلم بن يسار الجهني عن نعيم بن ربيعة قال : كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم) فذكره . وقال الحافظ الدارقطني : وقد تابع عمرو بن جعثم بن زيد بن سنان ابو فروة الرهاوي ، وقولهما أولى بالصواب من قول مالك والله أعلم (قلت) الظاهر أن الامام مالكا إنما أسقط ذكر نعيم بن ربيعة عمداً لما جهل حال نعيم ولم يعرفه ، فانه غير معروف إلا في هذا الحديث ، ولذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم ، ولهذا يرسل كثيراً من المرفوعات ، ويقطع كثيراً من الموصولات والله أعلم

﴿ حديث آخر ﴾ قال الترمذي عند تفسيرهذه الآية : حدثنا عبد بن حميد حدثنا ابو نعيم حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن ابي صالح عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريتـه إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور ثم عرضهم على آدم فقال : أى رب من هؤلاء ؟ قال: هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص عينيه قال : أى رب من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود قال : رب وكم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة قال : أى رب قد وهبت له من عمري أربعين سنة فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال : أولم يبق من عمري أربعون سنة ؟ قال أولم تعطها ابنك داود قال: فجحد آدم فجحدت ذريته ، ونسي آدم فنسيت ذريته وخطىء آدم فخطئت ذريتـه » ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وقد روي من غير وجه عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليـه وسلم ، ورواه الحاكم في مستدركه من حديث ابي نعيم الفضل بن دكين به وقال : صحيح على

شرط مسلم ولم يخرجاه ، ورواه ابن ابي حاتم في تفسيره من حديث عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم عن أبيه أنه حدثه عن عطاء بن يسار عن ابي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر نحو ماتقدم الى أن قال « ثم عرضهم على آدم فقال : يا آدم هؤلاء ذريتك ، واذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام فقال آدم : يارب لم فعلت هذا بذريتي ؟ قال : كي تذكر نعمتي وقال آدم: يارب من هؤلاء الذين أراهم أظهر الناس نوراً ؟ قال: هؤلاء الانبياء يا آدم من ذريتك » ثم ذكر قصة داود كنحو ماتقدم

﴿ حديث آخر ﴾ قال عبد الرحمن بن قتادة النضري عن أبيه عن هشام بن حكيم رضي الله عنه أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ابتدأ الاعمال أم قد قضى القضاء قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض بهم في كفيه ثم قال هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار ، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة ، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار » رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عنه

﴿ حديث آخر ﴾ روى جعفر بن الزبير — وهو ضعيف — عن القاسم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله الخلق وقضى القضية أخذ أهل اليمين بيمينه ، وأهل الشمال بشماله ، فقال يا أصحاب اليمين فقالوا لبيك وسعديك قال ألست بربكم قالوا بلى ثم خلط بينهم ، فقال قائل له يارب لم خلطت بينهم قال لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون أن يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، ثم ردهم في صلب آدم » رواه ابن مردويه

﴿ أثر آخر ﴾ قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبيّ بن كعب في قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم) الآيات قال فجمعهم له يومئذ جميعاً ماهو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم في صورهم ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم (ألست بربكم قالوا بلى) الآية قال فاني أشهد عليكم السموات السبع والارضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا اعلموا أنه لا إله غيري ،

ولا رب غيري ، ولا تشركوا بي شيئا ، واني سأرسل لكم رسلا لينذروكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتبي ، قالوا نشهد أنك ربنا وإلهنا لارب لناغيرك فأقروا له يومئذ بالطاعة ورفع أباهم آدم فنظر اليهم فرأى فيهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال يارب لو سويت بين عبادك قال اني أحببت ان أشكر ورأى فيهم الانبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة فهو الذي يقول تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) الآية وهو الذي يقول (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله) الآية . ومن ذلك قال (هذا نذير من النذر الأولى) ومن ذلك قال (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) الاية رواه عبد الله بن الامام احمد في مسند أبيه ورواه ابن ابي حاتم وابن جرير وابن مردويه في تفاسيرهم من رواية أبي جعفر الرازي به . وروي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدي وغير واحد من السلف سياقات توافق هذه الأحاديث اكتفينا بايرادها عن التطويل في تلك الآثار كلها وبالله المستعان

فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار ، وأما الاشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس — وفي حديث عبدالله بن عمرو وقد بينا أنهما موقوفان لامرفوعان كماتقدم ، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف إن المراد بهذا الاشهاد انما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي ومن رواية الحسن البصري عن الاسود بن سريع وقد فسر الحسن الاية بذلك قالوا : ولهذا قال (واذ أخذ ربك من بني آدم) ولم يقل من آدم (من ظهورهم)ولم يقل من ظهر ذرياتهم أي جعل نسلهم جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، كقوله تعالى (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض) وقال (ويجعلكم خلفاء الأرض) وقال (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) ثم قال وأشهدهم على أنفسهم (ألست بربكم؟ قالوا بلى) أي أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالا وقالا والشهادة تارة تكون بالقول كقوله (قالوا شهدنا على أنفسنا) الاية . وتارة تكون حالا كقوله تعالى (ماكان للمشركين

أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) أي حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك كقوله تعالى (وإنه على ذلك لشهيد) كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال كقوله (وآتاكم من كل ماسألتموه) قالوا ومما يدل على أن الاشهاد حجة عليهم في الاشراك ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه ، فان قيل اخبار الرسول صلى الله عليه وسلم به كاف في وجوده ، فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ماجاءتهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الاقرار بالتوحيد ، ولهذا قال (أن يقولوا) أي لئلا يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أي عن التوحيد غافلين ، أو يقولوا انما أشرك آباؤنا الاية » اه كلام ابن كثير

وقد بسط العلامة ابن القيم هذه المسألة في كتاب الروح في سياق البحث في خلق الارواح قبل الاجساد — فذكر الروايات المرفوعة والموقوفة والاثار فيها وما قيل من الجرح والتعديل في أسانيدها ثم قال : —

وههنا أربع مقامات (أحدها) ان الله سبحانه استخرج صورهم وأمثالهم ، فميز شقيهم وسعيدهم ومعافاهم من مبتلاهم (والثاني) ان الله سبحانه أقام عليهم الحجة حينئذ وأشهدهم بربوبيته واستشهد عليهم ملائكته (الثالث) ان هذا هو تفسير قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم (الرابع) انه أقر تلك الأرواح كلها بعد إخراجها بمكان وفرغ من خلقها وانما يتجدد كل وقت إرسال جملة منها بعد جملة إلى أبدانها

(فأما المقام الأول) فالآثار متظاهرة به مرفوعة وموقوفة (وأما المقام الثاني) فانما أخذه من أخذه من المفسرين من الآية وظنوا انه تفسيرها ، وهذا قول جمهور المفسرين من أهل الأثر . قال أبو اسحاق: جائز أن يكون الله سبحانه جعل لأمثال الذر التي أخرجها فهما تعقل به كما قال (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) وقد سخر مع داود الجبال تسبح معه والطير . وقال ابن الانباري: مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية ان الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب

أولاده وهم في صور الذر ، فأخذ عليهم الميثاق انه خالقهم وانهم مصنوعون ، فاعترفوا بذلك وقبلوا ، وذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بهاماعرض عليهم كاجعل للجبل عقلاحين خوطب ، وكما فعل ذلك بالبعير لماسجد، والنخلةحتى سمعت وانقادت حين دعيت

وقال الجرجاني : ليس بين قول النبي صلى الله عليه وسلم « ان الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته » وبين الاية اختلاف بحمد الله لأنه عز وجل إذا أخذهم من ظهر آدم فقد أخذهم من ظهور ذريته لأن ذرية آدم ذرية لذريته بعضهم من بعض . وقوله تعالى (ان تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) أي عن الميثاق المأخوذ عليهم ، فاذا قالوا ذلك كانت الملائكة شهوداً عليهم بأخذ الميثاق قال : وفي هذا دليل على التفسير الذي جاءت به الرواية من أن الله تعالى قال للملائكة :اشهدوافقالوا شهدنا . قال : وزعم بعض أهل العلم أن الميثاق نما أُخذ على الارواح دون الاجساد ، ان الارواح هي التي تعقل وتفهم ولهاالثواب وعليها العقاب ، والاجساد اموات لاتعقل ولا تفهم . قال : وكان اسحق بن راهويه يذهب الى هذا المعنى ، وذكر انه قول أبي هريرة . قال اسحق : وأجمع أهل العلم انها الأرواح قبل الاجساد استنطقهم وأشهدهم ، قال الجرجاني : واحتجوا بقوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوافي سبيل الله أمواتا بل أحياء) والاجساد قدبليت وضلت في الارض ،والارواح ترزق وتفرح ، وهي التي تلذ وتألم ،وتفرح وتحزن وتعرف وتنكر ، وبيان ذلك في الاحلام موجود ، ان الانسان يصبح وأثر لذة الفرح وألم الحزن باق في نفسه مما تلاقي الروح دون الجسد

قال : وحاصل الفائدة في هذا الفصل انه سبحانه قد أثبت الحجة على كل منفوس ممن يبلغ وممن لم يبلغ بالميثاق الذي اخذه عليهم ، وزاد على من بلغ منهم الحجة بالايات والدلائل التي نصبها في نفسه وفي العالم وبالرسل المنفذة اليهم مبشرين ومنذرين ، وبالمواعظ بالمثلات المنقولة اليهم اخبارها ، غير انه عز وجل لا يطالب أحداً منهم من الطاعة الا بقدر مالزمه من الحجة وركب فيهم من القدرة وآتاهم من الادلة ، وبيّن سبحانه ماهو عامل في البالغين الذين ادركوا الأمر

والنهي وحجب عنا علم ماقدره في غير البالغين ، الا انا نعلم انه عدل لايجور في حكمه ، وحكيم لاتفاوت في صنعـه ، وقادر لايسأل عما يفعل ، له الخلق والامر ، تبارك الله رب العالمين

﴿ فصل ﴾

ونازع هؤلاء غيرهم في كون هذا معنى الاية وقالوا معنى قوله (واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم) أي أخرجهم وأنشأهم بعد أن كانوا نطفاً في أصلاب الاباء إلى الدنيا على ترتيبهم في الوجود وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم بما أظهر لهم من آياته وبراهينه التي تضطرهم إلى أن يعلموا أنه خالقهم فليس من أحد الا وفيه من صنعة ربه مايشهد على أنه باريه ونافذ الحكم فيه ، فلما عرفوا ذلك ودعاهم كل مايرون ويشاهدون إلى التصـديق به كانوا بمنزلة الشاهدين والمشهدين على أنفسهم بصحته كما قال في غيرهذا الموضع (شاهدين على أنفسهم بالكفر) يريد هم بمنزلة الشاهدين وإن لم يقولوا نحن كفرة وكما تقول قد شهدت جوارحي بقولك تريد قد عرفته فكأن جوارحي لو استشهدت وفي وسعها أن تنطق لشهدت، ومن هذا اعلامه وتبيينه أيضاً (شهد الله أنه لاإله إلا هو) يريد أعلم وبين فأشبه ذلك شهادة من شهد عند الحكام وغيرهم،هذا كلام ابن الانباري وزاد الجرجاني بيانا لهذا القول فقال حاكيًا عن أصحابه إن الله لما خلق الخلق ونفذ علمه فيهم بما هو كائن ومالم يكن بعد مما هو كائن كالكائن إذ علمه بكونه مانع من غير كونه تابع في مجاز العربية أن يوضع ماهو منتظر بعد مما لم يقع بعد موقع الواقع لسبق علمه بوقوعه كما قال عز وجل في مواضع من القرآن كقوله (ونادى أصحاب النار ونادى أصحاب الجنة — ونادى أصحاب الاعراف) قال فيكون تأويل قوله (وإذ أخذ ربك) وإذ يأخذ ربك وكذلك قوله (وأشهدهم على أنفسهم) أي ويشهدهم بما ركبه فيهم من العـقل الذي يكون به الفهم ، ويجب به الثواب والعقاب وكل من ولد وبلغ الحنث ، وعقل الضر والنفع ، وفهم الوعد والوعيد والثواب والعقاب صار كأن الله تعالى أخذ عليه الميثاق في التوحيد بما ركب فيه من

العقل ، وأراه من الايات والدلائل على حدوثه ، وأنه لايجوز أن يكون قدخلق نفسه واذا لم يجز ذلك فلا بد له من خالق هو غيره ليس كمثله ، وليس من مخلوق يبلغ هذا المبلغ ولم يقدح فيه مانم من فهم إلا اذا حزبه أمر يفزع إلى الله عز وجل حين يرفع رأسه إلى السماء ويشير اليها بأصبعه علماً منه بأن خالقه تعالى فوقه واذا كان العقل الذي منه الفهم والافهام مؤدياً إلى معرفة ماذكرنا ودالا عليه فكل من بلغ هذا المبلغ فقد أخذ عليه العهد والميثاق إذ جعل فيه السبب والادلة الذين بهما يؤخذ العهد والميثاق ، وجائز أن يقال له قد أقر وأذعن وأسلم كما قال الله عز وجل (ولله يسجد من في السموات والارض طوعا وكرهاً)قال واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم « رفع القلم عن ثلاثة عن الصبي حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يفيق ، وعن النائم حتى ينتبه »

وقوله عزوجل(إنا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها)ثم قال (وحملها الانسان) الامانة هن عهد وميثاق فامتناع السموات والارض والجبال من حمل الامانة خلوها من العقل الذي يكون به الفهم والافهام وحمل الانسان إياها لمكان العقل فيه قال وللعرب فيها ضروب نظم فمنها قوله

ضمن القنان لفقعس بثبأتها ان القنان لفقعس لايأتلي

والقنان جبل فذكر انه قد ضمن لفقعس وضمانه لهم أنهم كانوا اذا حزبهم أمر من هزيمة أو خوف لجأوا اليه فجعل ذلك كالضمان لهم ومنه قول النابغة

كاجارف الجولان هلل ربه وجوران منها خاشع متضائل

وأجارف الجولان جبالها وجوران الارض التي الى جانبها وقال هذا القائل ان في قوله تعالى (ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا انما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) دليلا على هذا التأويل لانه عز وجل أعلم أن هذا الأخذ للعهد عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين . والغفلة ههنا لاتخلو من أحد وجهين أما أن تكون عن يوم القيامة أو عن أخذ الميثاق فاما يوم القيامة فلم يذكر سبحانه في كتابه انه أخذ

عليهم عهداً وميثاقا بمعرفة البعث والحساب وانما ذكر معرفته فقط وأما أخذ الميثاق فالاطفال والاسقاط ان كان هذا العهد مأخوذاً عليهم كما قال المخالف فهم لم يبلغوا بعد ماأخذ هذا الميثاق عليهم مبلغا يكون منهم غفلة عنه فيجحدونه وينكرونه فمتى تكون هذه الغفلة منهم وهو عز وجل لايؤاخذهم بما لم يكن منهم وذكر مالايجوز ولا يكون محال وقوله تعالى (أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكناذرية من بعدهم) فلا يخلو هذا الشرك الذي يؤاخذون به أنفسهم ان يكون منهم أومن آبائهم فان كان منهم فلا يجوز أن يكون ذلك الا بعد البلوغ وثبوت الحجة عليهم اذ الطفل لايكون منه شرك ولا غيره وان كان من غيرهم فالامة مجمعة على أن لاتزر وازرة وزر أخرى كما قال عز وجل في الكتاب وليس هذا بمخالف لما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «إن الله مسح ظهر آدم وأخرج منه ذريته فأخذ عليهم العهد » لانه صلى الله عليه وآله وسلم اقتص قول الله عزوجل فجاء مثل نظمه فوضع الماضي من اللفظ موضع المستقبل ، قال وهذا شبيه بقصة قوله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به) فجعل سبحانه ماأنزل على الانبياء من الكتاب والحكمة ميثاقا أخذه من أممهم بعدهم يدل على ذلك قوله تعالى (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) ثم قال للامم (أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) فجعل سبحانه بلوغ الامم كتابه المنزل على انبيائهم حجة عليهم كأخذ الميثاق عليهم وجعل معرفتهم به اقراراً منهم : قلت . وشبيه به أيضا قوله تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به اذ قلتم سمعنا واطعنا) فهذا ميثاقه الذي أخذه عليهم بعد ارسال رسله اليهم بالايمان به وتصديقه ، ونظيره قوله تعالى (والذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق وقوله تعالى (ألم أعهد اليكم يابني آدم أن لاتعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم) فهذا عهده اليهم على ألسنة رسله ومثله قوله تعالى لبني اسرائيل (وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم) ومثله (واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه)

وقوله تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظاً) فهذا ميثاق اخذه منهم بعد بعثهم كما أخذ من أممهم بعد انذارهم وهذا الميثاق الذي لعن سبحانه من نقضه وعاقبه بقوله تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية) فانما عاقبهم بنقضهم الميثاق الذي أخذه عليهم على ألسنة رسله وقد صرح به في قوله تعالى (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون) ولما كانت هذه الآية ونظيرها في سورة مدنية خاطب بالتذكير بهذ الميثاق فيها أهل الكتاب فانه ميثاق أخذه عليهم بالايمان به وبرسله ولما كانت هذه آية الاعراف في سورة مكية ذكر فيها الميثاق والاشهاد العام لجميع المكلفين ممن أقروا بربوبيته ووحدانيته وبطلان الشرك وهو ميثاق وإشهاد تقوم به عليهم الحجة وينقطع به العذر وتحل به العقوبة ويستحق بمخالفته الاهلاك فلا بد أن يكونوا ذاكرين له عارفين به وذلك بما فطرهم عليه من الاقرار بربوبيته وانه ربهم وفاطرهم وانهم مخلوقون مربوبون ثم أرسل اليهم رسله يذكرونهم بما في فطرهم وعقولهم ويعرفونهم حقه عليهم وأمره ونهيه ووعده ووعيده ونظم الآية انما يدل على هذا من وجوه متعددة (أحدها) انه قال واذ أخذ ربك من بني آدم ولم يقل آدم وبنو آدم (الثاني) انه قال من ظهورهم ولم يقل ظهره ، وهذا بدل بعض من كل أو بدل اشتمال وهو أحسن (والثالث) انه قال ذرياتهم ولم يقل ذريته (الرابع) انه قال وأشهدهم على أنفسهم أي جعلهم شاهدين على أنفسهم فلا بد أن يكون الشاهد ذاكرا لما شهد به وهو انما يذكر شهادته بعد خروجه الى هذه الدار لا يذكر شهادة قبلها (الخامس) انه سبحانه أخبر أن حكمة هذا الاشهاد إقامة الحجة عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة (انا كنا عن هذا غافلين) والحجة انما قامت عليهم بالرسل والفطرة التي فطروا عليها كما قال تعالى رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (السادس) تذكيرهم بذلك لئلا يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين معلوم انهم غافلون بالاخراج لهم من صلب آدم كلهم واشهادهم

جميعا ذلك الوقت فهذا لايذكره أحد منهم (السابع) قوله تعالى (أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) فذكر حكمتين في هذا التعريف والاشهاد (إحـداهما) أن لايدعوا الغفلة (والثانية) أن لايدعوا التقليـد فالغافل لاشعور له والمقلد متبع في تقليده لغيره (الثامن) قوله (تعالى أفتهلكنا بما فعل المبطلون) أي لو عذبهم بجحودهم وشركهم لقالوا ذلك وهو سبحانه انما يهلكهم لمخالفة رسله وتكذيبهم فلو أهلكهم بتقليد ابائهم في شركهم من غير إقامة الحجة عليهم بالرسل لأهلكهم بما فعل المبطلون او أهلكهم مع غفلتهم عن معرفة بطلان ماكانوا عليه وقد أخبر سبحانه انه لم يكن ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ، وانما يهلكهم بعد الاعذار والانذار (التاسع) انه سبحانه أشهد كل واحد على نفسه انه ربه وخالقه واحتج عليهم بهذا الاشهاد في غير موضع من كتابه كقوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله فانى يؤفكون) أي فكيف يصرفون عن التوحيد بعد هذا الاقرار منهم أن الله ربهم وخالقهم وهذا كثير في القرآن فهذه هي الحجة التي اشهدهم على أنفسهم بمضمونها وذكرتهم بها رسله بقوله تعالى (أفي الله شك فاطر السموات والارض) فالله تعالى انما ذكرهم على ألسنة رسله بهـذا الاقرار والمعرفة ولم يذكرهم قط باقرار سابق على إيجادهم ولا أقام به عليهم حجة (العاشر) انه جعل هذا آية وهي الدلالة الواضحة البينة المستلزمة لمدلولها بحيث لايتخلف عنها المدلول وهـذا شأن آيات الرب تعالى فانها أدلة معينة على مطلوب معين مستلزمة للعلم به فقال تعالى (وكذلك نفصل الآيات) أي مثل هذا التفصيل والتبيين نفصل الآيات (لعلهم يرجعون) من الشرك الى التوحيد ومن الكفر الى الايمان وهـذه الآيات التي فصلها هي التي بينها في كتابه من أنواع مخلوقاته وهي آيات أفقية ونفسية، آيات في نفوسهم وذواتهم وخلقهم وآيات في الاقطار والنواحي مما يحدثه الرب تبارك وتعالى مما يدل على وجوده ووحدانيته وصدق رسله وعلى المعاد والقيامة ومن ابينها ما أشهد به كل واحـد على نفسه من انه

ربه وخالقه ومبدعه وانه مربوب مخلوق مصنوع حادث بعد ان لم يكن ، ومحال أن يكون حدث بلا محدث أو يكون هو المحدث لنفسه فلا بد له من موجد أوجده ليس كمثله شيء ، وهذا الاقرار والمشاهدة فطرة فطروا عليها ليست بمكتسبة وهذه الآية وهي قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم) مطابقة لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم «كل مولود يولد على الفطرة » ولقوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون. منيبين اليه) ومن المفسرين من لم يذكر الا هذا القول فقط كالزمخشري ومنهم من لم يذكر الا القول الأول فقط ومنهم من حكى القولين كابن الجوزي والواحدي والماوردي وغيرهم . قال الحسن بن يحيي الجرجاني : فان اعترض معترض في هذا الفصل بحديث يروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال «ان الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته وأخذ عليهم العهد ثم ردهم في ظهره » وقال ان هذا مانع من جواز التأويل الذي ذهبت اليه لامتناع ردهم في الظهر ان كان أخذ الميثاق عليهم بعد البلوغ وتمام العقل . قيل له . إن معنى ثم ردهم في ظهره ثم يردهم في ظهره كما قلنا إن معنى أخذ ربك يأخذ ربك فيكون معناه ثم يردهم في ظهره بوفاتهم لانهم اذا ماتوا ردوا الى الارض للدفن وآدم خلق منها ورد فيها فاذا ردوا فيها فقد ردوا في آدم وفي ظهره إذ كان آدم خلق منها وفيها رد بعض الشيء من الشيء وفيما ذهبتم اليه من تأويل هذا الحديث على ظاهره تفاوت بينه وبين ماجاء به القرآن في هذا المعنى إلا أن يرد تأويله الى ماذكرنا لانه عز وجل قال (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم) ولم يذكر آدم في القصة انما هو ههنا مضاف اليه لتعريف ذريته انهم أولاده وفي الحديث انه مسح ظهره فلا يمكن رد ماجاء في القرآن وما جاء في الحديث الى الاتفاق إلا بالتأويل الذي ذكرناه قال الجرجاني وأنا أقول: ونحن الى ماروي في الآية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما ذهب اليه أهل العلم من السلف الصالح أميل وله أقبل وبه آنس والله ولي التوفيق لما هو أولى وأهدى

على أن بعض أصحابنا من أهل السنة قد ذكر في الرد على هذا القائل معنى يحتمل ويسوغ في النظم الجاري ومجاز العربية بسهولة وإمكان من غير تعسف ولا استكراه وهو أن يكون قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بني آدم) مبتدأ خبره من الله عز وجل عما كان منه في أخذ العهد عليهم وإذ يقتضي جوابا بجعل جوابه قوله تعالى (قالوا بلى) وانقطع هذا الخبر بتمام قصته ثم ابتدأ عز وجل خبراً آخر بذكر مايقوله المشركون يوم القيامة فقال : شهدنا يعني نشهد قال الحطيئة .

شهد الحطيئة حين يلقي ربه ان الوليد أحق بالعذر

بمعنى يشهد الحطيئة يقول تعالى نشهد انكم ستقولون يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أي عما هم فيه من الحساب والمناقشة والمؤاخذة بالكفر ، ثم أضاف اليه خبراً آخر فقال (أو تقولوا) بمعنى وأن تقولوا لأن أو بمعنى واو النسق مثل قوله تعالى (ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً) فتأويله ونشهد أن تقولوا يوم القيامة (انما أشرك اباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) اي انهم أشركوا وحملونا على مذهبهم في الشرك في صبانا فجرينا على مذاهبهم واقتدينا بهم فلا ذنب لنا إذ كنا مقتدين بهم ، والذنب في ذلك لهم (قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) يدل على ذلك قولهم (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) أي حملهم إيانا على الشرك فتكون القصة الأولى خبراً عن جميع المخلوقين بأخذ الميثاق عليهم . والقصة الثانية خبراً عما يقول المشركون يوم القيامة من الاعتذار ، وقال فيما ادعاه المخالف إنه تفاوت فيما بين الكتاب والخبر لاختلاف ألفاظهما فيهما قولا يجب قبوله بالنظائر والعبر التي تأيد بها مخالفته فقال : إن الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله مسح ظهر آدم أفاد زيادة خبر كان في القصة التي ذكر الله تعالى في الكتاب بعضها ولم يذكر كلها ، ولو أخبر صلى الله عليه وسلم بسوى هذه الزيادة التي أخبر بها ، فما عسى أن يكون قد كان في ذلك الوقت الذي أخذ فيه العهد مما لم يضمنه الله كتابه لما كان في ذلك خلاف ولا تفاوت ، بل كان زيادة في الفائدة وكذلك الالفاظ اذا اختلفت في ذاتها وكان مرجعها إلى أمر واحد لم يوجب ذلك تناقضاً كما قال عز وجل في كتابه في خلق آدم فذكر

مرة انه خلق من تراب ، ومرة انه خلق من حمأ مسنون ، ومرة من طين لازب ومرة من صلصال كالفخار . فهذه الالفاظ مختلفة ومعانيها أيضاًفي الاحوال مختلفة لأن الصلصال غير الحمأة ، والحمأة غير التراب إلا أن مرجعها كلها في الأصل إلى جوهر واحد وهو التراب ومن التراب تدرجت هذا الاحوال فقوله سبحانه وتعالى (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم) وقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله مسح ظهر آدم فاستخرج منه ذريته » معنى واحد في الأصل إلا أن قوله صلى الله عليه وسلم « مسح ظهر آدم » زيادة في الخبر عن الله عز وجل ومسحه عز وجل ظهر آدم واستخراج ذريته منه مسح لظهور ذريته واستخراج ذرياتهم من ظهورهم كما ذكر تعالى لانا قد علمنا أن جميع ذرية آدم لم يكونوا من صلبه ، لكن لما كان الطبق الاول من صلبه ، ثم الثاني من صلب الأول ، ثم الثالث من صلب الثاني جاز أن ينسب ذلك كله إلى ظهر آدم لأنهم فرعه وهو أصلهم ، وكما جاز أن يكون ماذكر الله عز وجل انه استخرجه من ظهور ذرية آدم من ظهر آدم جاز أن يكون ماذكر صلى الله عليه وسلم انه استخرجه من ظهر آدم من ظهور ذريته إذ الأصل والفرع شيء واحد . وفيه أيضاً انه عز وجل لما أضاف الذرية إلى آدم في الخبر احتمل أن يكون الخبر عن الذرية وعن آدم كما قال عز وجل (فظلت أعناقهم لها خاضعين) والخبر في الظاهر عن الاعناق والنعت للاسماء المكنية فيها وهو مضاف اليها كما كان آدم مضافا اليه هناك ، وليسا جميعاً بالمقصودين في الظاهر بالخبر ، ولا يحتمل أن يكون قوله (خاضعين للأعناق) لأن وجه جمعها خاضعات ومنه قول الشاعر

وتشرق بالقول الذي قدأذعته * كما شرقت صدر القناة من الدم

فالصدرمذكر وقوله شرقت أنث لاضافة الصدر الى القناة

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءاتَيْنَـٰهُ ءايَـٰتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَيهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَل

الكلب إن تحمل عليه يلهثْ أوْ تترُكه يلهثْ ذٰلك مثلُ القوْم الَّذين كذَّبوا بآيتنا فاقصُص القصص لعلهُمْ يتفكرُون (١٧٦) سآء مثلا القوم الذين كذبوا بآيٰتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ١٧٧)

هذا مثل ضربه الله تعالى للمكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله (ص) على ما أيدها به من الآيات العقلية والكونية ، وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالما بها حافظا لقواعدها وأحكامها ، قادراً على بيانها والجدل بها ، ولكنه لم يؤت العمل مع العلم ، بل كان عمله مخالفاً لعلمه تمام المخالفة ، فسلبها لأن العلم الذي لايعمل به لايلبث أن يزول فأشبه الحية التي تنسلخ من جلدها وتخرج منه وتتركه على الأرض (ويسمى هـذا الجلد المسلاخ) أو كان في التباين بين علمه وعمله كالمنسلخ من العلم التارك له كالثوب الخلق يلقيه صاحبه والثعبان يتجرد من جلده حتى لاتبقى له به صلة على حد قول الشاعر :

خلقوا وما خلقوا لمكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا وما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

فحاصل معنى المثل أن المكذبين بآيات الله تعالى المنزلة على رسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه على إيضاحها بالحجج والدلائل كالعالم الذي حرم ثمرة الانتفاع من علمه لأن كلا منهما لم ينظر في الآيات نظر تأمل واعتبار واخلاص

وهاك تفسير الآيات بمايدل عليه نظمها العربي، ويتلوه ماوردمن الروايات فيها

ونظرة فيه ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منهـا ﴾ التلاوة القراءة والقاء الكلام الذى يعاد ويكرر للاعتبار به، والضمير في عليهم للناس المخاطبين بالدعوة وأولهم كفار مكة.والسورة مكية، وقيل لليهود لأن المثل تابع لقصة موسى في السورة ، والنبأ الخبر الذي له شأن ، وهذا الذى آتاه الله آياته من مبهمات القرآن لم يبين الله ولا رسوله في حديث صحيح عنه اسمه ولا جنسه ولا وطنه لأن هذه الاشياء لادخل لها فيما أنزل الله تعالى الآيات لبيانه . وانسلاخه منها

تجرده وانسلاله منها وتركه إياها بحيث لايلتفت اليها لاهتداء ولا اعتبار ولا عمل والتعبير بالانسلاخ المستعمل عند العرب في خروج الحيات والثعابين أحياناً من جلودها يدل على أنه كان متمكنا منها ظاهراً لا باطنا

﴿ فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ اي فترتب على انسلاخه منها باختياره ان لحقه الشيطان فأدركه وتمكن من الوسوسة له إذ لم يبق لديه من نور العلم والبصيرة مايحول دون قبول وسوسته ، وأعقب ذلك أن صار من الغاوين أي الفاسدين المفسدين

﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ أي ولو أردنا أن نرفعه بتلك الآيات الى درجات الكمال والعرفان ، التي تقرن فيها العلوم بالاعمال ، (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) — لفعلنا بأن نخلق له الهداية خلقا ، ونحمله عليها طوعا أو كرها ، فان ذلك لايعجزنا ، وإنما هو مخالف لسنتنا ،

﴿ ولكنه أخلد إلى الارض واتبع هواه ﴾ أي ولكنه اختار لنفسه التسفل المنافي لتلك الرفعة بأن أخلد ومال الى الأرض وزينتها وجعل كل حظه من حياته التمتع بما فيها من اللذائذ الجسدية ، فلم يرفع الى العالم العلوي رأساً ، ولم يوجه الى الحياة الروحية الخالدة عزما ، واتبع هواه في ذلك فلم يراع فيه الاهتداء بشيء مما آتيناه من آياتنا ، وقد مضت سنتنا في خلق نوع الانسان بان يكون مختاراً في عمله ، المستعد له في أصل فطرته ، ليكون الجزاء عليه بحسبه ، وأن نبتليه ونمتحنه بما خلقنا في هذه الارض من الزينة والمستلذات (إنا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) ونولي كل انسان منهم ماتولى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا * أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة اكبر درجات واكبر تفضيلا)

وقد مضت سنتنا أيضا بان اتباع الانسان لهواه بتحريه وتشهيه ما تميل اليه نفسه في كل عمل من أعماله دون ما فيه المصلحة والفائدة له من حيث هو جسد

وروح) يضله عن سبيل الله الموصلة الى سعادة الدنيا والآخرة ، ويتعسف به في سبل الشيطان المردية المهلكة قال تعالى لخليفته داود عليه السلام (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) وقال تعالى في أول ماأوحاه الى كليمه موسى عليه السلام بعد ذكر الساعة (فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) وقال جل جلاله لخاتم أنبيائه عليه صلواته وسلامه (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟) والآيات في ذم الهوى والنهي عنه كثيرة وحسبك منها قوله (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن)

وحاصل معنى الشرط والاستدراك ان من شأن من أوتي آيات الله تعالى ان ترتقي نفسه ، وترتفع فى مراقي الكمال درجته ، لما فيها من الهداية والارشاد والذكرى ، وانما يكون ذلك لمن أخذ هذه الآيات وتلقاها بهذه النية (وانما لكل امرىء مانوى) وأما من لم ينو ذلك ولم تتوجه اليه نفسه وانما تلقى الآيات الالهية اتفاقا بغير قصد ، أو بنية كسب المال والجاه ، ووجد مع ذلك في نفسه مايصرفه عن الاهتداء بها فلن يستفيد منها ، واسرع به أن ينسلخ منها ، فهو يقول لو شئنا لرفعناه بها لانها في نفسها هدى ونور ، ولكن تعارض المقتضي والمانع وهو إخلاده الى الارض واتباع هواه

قالوا فلان عالم فاضل فاكرموه مثلما يقتضي
فقلت لما لم يكن عاملا تعارض المانع والمقتضي

(فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) اللهث بالفتح واللهاث بالضم التنفس الشديد مع اخراج اللسان ، ويكون لغير الكلب من شدة التعب والاعياء أو العطش ، واما الكلب فيلهث في كل حال سواء أصابه ذلك أم لا ، وسواء حملت عليه تهدده بالضرب أم تركته وادعا آمنا ، وهذا الرجل صفته كصفة الكلب في حالته هذه وهي أخس أحواله واقبحها ، والمراد والله أعلم انه كان من إخلاده الى الأرض واتباع هواه في أسوإ حال ، خلافا لما كان يبغي من نعمة العيش وراحة البال ، فهو في هم دائم مما شأنه أن يهتم به ، وما شأنه أن لا يهتم به من صغائر الأمور وخسائس الشهوات ، كدأب عباد الاهواء

وصغار الهمم ، تراهم كاللاهث من الأعياء والتعب وان كان ما يعنون به ويحملون همه حقيراً لايتعب ولايعيي ولاترى أحداً منهم راضيا بماأصابه من شهواته وأهوائه ، بل يزيدطمعا وتعبا كلما أصاب سعة وقضى أربا

فما قضى احد منها لبانته ولاانتهى ارب الا الى ارب

﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي ذلك الأمر البعيد الشأو في الغرابة هو مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من الجاحدين المستكبرين ، والمقلدين الجاهلين ، كذبوا لظنهم أن الايمان بها يسلبهم مايفخرون به من العزة والعظمة باتباعهم لغيرهم ، ويحط من قدر آبائهم وأجدادهم الذين قلدوهم في ضلالهم ، ويحول دون تمتعهم بما يشتهون من لذاتهم ، فلهذا الظن الباطل لم ينظروا في الآيات نظر تفكر واستقلال ، وتبصر واستدلال ، بل نظروا اليها - لافيها - من جهة واحدة وهي أن اتباعها يحط من أقدارهم ، ويعد اعترافا بضلال سلفهم الذين يفخرون بهم ، ويحرمهم التمتع بحظوظهم وأهوائهم

فكان مثلهم مثل الذي أوتي الآيات فانسلخ منها ، وذلك لا يعيب الآيات وانما يعيب أهل الاهواء الذين حرمهم سوء اختيارهم الانتفاع بها ، وكأين من انسان حرم الانتفاع بمواهبه الفطرية بعدم استعماله إياها فيما يرفعه درجات في العلم والعمل ، وكأي من انسان استعمل حواسه في الضر ، وعقله وذكاءه في الشر ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ أي فاقصص أيها الرسول قصص ذلك الرجل المشابهة حاله لحال هؤلاء المكذبين بما جئت به من الآيات البينات في مبدإ أمره وغايته ، ومعناه وصورته ، رجاء أن يتفكروا فيه فيحملهم سوء حالهم وقبح مثلهم ، على التفكر والتأمل ، فاذا هم تفكروا في ذلك تفكروا في المخرج منه ، ونظروا في الآيات ، وما فيها من البينات ، بعين العقل والبصيرة ، لا بعين الهوى والعداوة ، ولا طريق لهدايتهم غير هذه . والآية تدل على تعظيم شأن ضرب الامثال في تأثير الكلام وكونه أقوى من سوق الدلائل والحجج المجردة ، ويدل على تعظيم شأن التفكر ،

وكونه مبدأ العلم وطريق الحق ، ولذلك حث الله عليه في مواضع من كتابه وبين أن الآيات والدلائل انما تساق إلى المتفكرين لأنهم هم الذين يعقلونها وينتفعون بها

وقد تكرر قوله تعالى (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) في عدة سور من القرآن.وقد قال تعالى ضاربا مثلا للحياة الدنيا والغرور بها يناسب سياقنا هذا (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) وقد قال بعض علماء الغرب: إن الفارق الحقيقي بين الانسان المدنى، والانسان الوحشي هو التفكر اه فبقدر التفكر في آيات الله تعالى المنزلة على رسوله وآياته في الانفس والآفاق ، وسننه وحكمه في البشر وسائر المخلوقات ، يكون ارتقاء الناس في العلوم والاعمال ، من دينية ودنيوية

﴿ ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ أي ساء مثل أولئك القوم الذين كذبوا بآياتنا في الامثال ، وقبحت صفتهم في الصفات ، وما كانوا بما اختاروه لأنفسهم من الاعراض عن التفكر في الآيات ، ومن النظر اليها نظر العدو الشانيء يظلمون أحداً وانما يظلمون أنفسهم وحدها بحرمانها من الاهتداء بها ، وبما يعقب ذلك من حرمان سعادة الدنيا والآخرة

هذا مافهمته من معنى الآيات كتبته (بمكة المكرمة)وليس عندي شيء من كتب التفسير أستعين به على الفهم ، وكنت قرأت تفسيرها فى بعض الكتب ولكن لم يبق منه في ذهني إلا تنازع الاشعرية والمعتزلة في تفسير (ولو شئنا لرفعناه بها) هل يدل على مشيئة الله تعالى لضلال الرجل أم لا ، ولا شك في أن الله يفعل مايشاء ،وأن كل شيء يقع بمشيئته ، ولكن مشيئته تجري في العالم بمقتضى سننه وتقديره ــ وإلا ماورد في الروايات المأثورة من قصة الرجل الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها، وأن أكثرها على أنه من بني اسرائيل وأن اسمه (بلعام) واسم

أبيه (باعورا) وهذا مما تلقاه أولئك المفسرون من الاسرائيليات وصار ينقله بعضهم عن بعض لثقتهم بالراوى لكونه ممن اغتروا بصلاحهم ككعب الاحبار ووهب بن منبه . وهاك خلاصة تلك الروايات : منقولة عن الدر المنثور للحافظ السيوطي

قال رحمه الله تعالى

قوله تعالى (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) الآية أخرج الفريابي وعبد الرزاق وعبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه عن عبدالله بن مسعود (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال هو رجل من بني اسرائيل يقال له بلعم بن أبر ، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : هو بلعم بن باعوراء وفي لفظ بلعام بن عامر الذي أوتي الاسم كان في بني اسرائيل

وأخرج ابن المنذر وابن ابي حاتم عن ابن عباس في قوله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا) الآية ، قال : رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعم تعلم اسم الله الاكبر ، فلما نزل بهم موسى أتاه بنو عمه وقومه فقالوا : إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وانه ان يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه ، قال اني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه مضت دنياي وآخرتي فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخ مما كان فيه وفي قوله (إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) قال : ان حمل الحكمة لم يحملها ، وإن ترك لم يهتد لخير كالكلب ان كان رابضاً لهث وإن طرد لهث

وأخرج ابن ابي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه) الآية ، قال هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن ، وكانت له امرأة له منها ولد ، فقالت اجعل لي منها واحدة ، قال : فلك واحدة فما الذي تريدين ؟ قالت ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني اسرائيل ، فدعا الله فجعلها أجمل امرأة في بني اسرائيل ، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت

عنه وأرادت شيئاً آخر فدعا الله أن يجعلها كلبة فصارت كلبة ، فذهبت دعوتان فجاء بنوها فقالوا : ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها فادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليه ، فدعا الله فعادت كما كانت، فذهبت الدعوات الثلاث وسميت البسوس

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال ، هو رجل يدعى بلعم من أهل اليمن آتاه الله آياته فتركها،وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبوالشيخ والطبراني وابن مردويه عن عبدالله بن عمرو (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال هو أمية بن أبي الصلت الثقفي ، وفي لفظ نزلت في صاحبكم أمية بن أبي الصلت ،وأخرج ابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال : قدمت الفارعة أخت أمية بن أبي الصلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فقال لها « هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً » قالت نعم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم« يافارعة ان مثل أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها »

وأخرج ابن عساكر عن ابن شهاب قال : قال أمية بن أبي الصلت

ألا رسول لنا منا يخبرنا * مابعد غايتنا من رأس مجرانا

قال : ثم خرج أمية إلى البحرين وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقام أمية بالبحرين ثماني سنين ، ثم قدم فلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة من أصحابه فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ عليه بسم الله الرحمن الرحيم (يس والقرآن الحكيم) حتى فرغ منها ،وثب أمية يجر رجليه فتبعته قريش تقول: ماتقول ياأمية ؟ قال : أشهد انه على الحق ، قالوا فهل تتبعه ؟ قال : حتى انظر في أمره ، ثم خرج أمية إلى الشام وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم ، فلما أخبر بقتلى بدر ترك الاسلام ورجع إلى الطائف فمات بها ، قال ففيه أنزل الله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها)

وأخرج عبد بن حميد وابن ابي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن نافع ابن عاصم بن عروة بن مسعود قال : اني لفي حلقة فيها عبدالله بن عمرو فقرأ

رجل من القوم الآية التي في الاعراف (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) فقال أتدرون من هو؟ فقال بعضهم هو صيفي بن الراهب ، وقال بعضهم هو بلعم رجل من بني اسرائيل ، فقال لا ، فقالوا من هو ؟ قال أمية بن أبي الصلت

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن الشعبي في هذه الآية (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال : قال ابن عباس هو رجل من بني اسرائيل يقال له بلعم بن باعورا ، وكانت الانصار تقول هو ابن الراهب الذي بني له مسجد الشقاق ، وكانت ثقيف تقول هو أمية بن أبي الصلت . وأخرج بن أبي حاتم عن ابن عباس قال : هو صيفي بن الراهب . وأخرج ابن جرير عن مجاهد في الآية قال : هو نبي في بني اسرائيل يعنى بلعم أوتي النبوة فرشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم على ماهم عليه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (فانسلخ منها) قال نزع منه العلم وفي قوله (ولو شئنا لرفعناه بها)قال لرفعه الله بعلمه .وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مالك بن دينار قال : بعث نبي الله موسى بلعام بن باعورا إلى ملك مدين يدعوهم إلى الله وكان مجاب الدعوة وكان من علماء بني اسرائيل فكان موسى يقدمه في الشدائد فأقطعه وأرضاه فترك دين موسى وتبع دينه فأنزل الله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) . وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب في قوله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا) قال كان يعلم اسم الله الاعظم الذي اذا دعى به أجاب

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فأبى أن يقبله وتركه (ولو شئنا لرفعناه بها)، قال لو شئنا لرفعناه بايتائه الهدى فلم يكن للشيطان عليه سبيل ، ولكن الله يبتلي من يشاء من عباده ، (ولكنه أخلد إلى الارض واتبع هواه) قال أبى أن يصحب الهدى فمثله (كمثل الكلب)الآية ، قال هذا مثل الكافر ميت الفؤاد كما أميت فؤاد الكلب

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله (واتل عليهم نبأ الذي آ

آياتنا فانسلخ منها) قال أناس من اليهود والنصارى والحنفاء ممن أعطاهم الله من آياته وكتابه فانسلخ منها فجعله مثل الكلب

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (ولو شئنا لرفعناه بها) قال لدفعنا عنه بها ، ولكنه أخلد إلى الارض ، قال سكن (إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث) إن تطرده بدابتك ورجليك وهو مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يعمل به . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (ولكنه أخلد إلى الارض) قال ركن ، نزع . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن فى قوله (إن تحمل عليه) قال : إن تسعَ عليه . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله إن تحمل عليه يلهث قال الكلب منقطع الفؤاد لافؤاد له مثل الذي يترك الهدى ، لافؤاد له انما فؤاده منقطع كان ضالا قبل او بعد

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن المعتمر قال : سئل أبو المعتمر عن هذه الآية (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) فحدث عن سيار أنه كان رجلا يقال له بلعام وكان قد أوتي النبوة وكان مجاب الدعوة ، ثم إن موسى أقبل فى بني اسرائيل يريد الارض التي فيها بلعام فرعب الناس منه رعباً شديداً فأتوا بلعام فقالوا : ادع الله على هذا الرجل ، قال حتى أؤامر ربي فآمر فى الدعاء عليهم فقيل له لا تدع عليهم ، فان فيهم عبادي ، وفيهم نبيهم . فقال لقومه : قد آمرت فى الدعاء عليهم وإني قد نهيت ، قال فأهدوا اليه هدية فقبلها ، ثم راجعوه فقالوا : ادع الله عليهم ، فقال حتى أؤامر فآمر فلم يحار اليه شيء ، فقال قد آمرت فلم يحار إليَّ شيء ، فقالوا : لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرة الاولى فأخذ يدعو عليهم فاذا دعا جرى على لسانه الدعاء على قومه ، فاذا أرسل أن يفتح على قومه جرى على لسانه أن يفتح على موسى وجيشه فقالوا ماتراك إلا تدعو علينا قال : مايجرى على لساني الا هكذا ، ولو دعوت عليهم مااستجيب لي ، ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاكهم ان الله يبغض الزناء وإن هم وقعوا بالزنا هلكوا فأخرجوا النساء فانهم قوم مسافرون فعسى أن يزنوا فيهلكوا

فأخرجوا النساء تستقبلهم فوقعوا بالزنا فسلط الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفا . وأخرج أبو الشيخ عن معبد بن جبير فى قوله (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال : كان اسمه بلعم وكان يحسن اسما من أسماء الله فغزاهم موسى فى سبعين ألفا فجاءه قومه ، فقالوا : ادع الله عليهم ، وكانوا إذا غزاهم أحد أتوه فدعا عليهم فهلكوا ، وكان لا يدعو حتى ينام فينظر ما يؤمر به فى منامه فنام ، فقيل له ادع الله لهم ولا تدع عليهم ، فاستيقظ فأبى أن يدعو عليهم ، فقال لهم زينوا لهم النساء فانهم اذا رأوهن لم يصبروا حتى يصيبوا من الذنوب فتدالو عليهم اه

ذلك ما لخصه السيوطي عن رواة التفسير المأثور ، وكله مما انخدع به بعض الصحابة والتابعين من الاسرائيليات ان صحت الروايات عنهم ، وبعضها قوي السند . وقد أورد الحافظ ابن عساكر في تاريخه جل هذه الروايات وزاد عليها وانتقد بعضها وذكر ان من رواتها كعب الاحبار ووهب بن منبه ومما عزاه إلى رواية وهب وفيه مخالفة لغيره ان قصة بلعام كانت في قتال فرعون من الفراعنة لأمة موسى بعد وفاته وان بلعام من أنبياء بني اسرائيل ، وذكر عنه رواية أخرى وقال بعد سياق طويل للقصة لا حاجة إلى نقله ما نصه :

« وحكيت هذه القصة عن كعب وفيها ان معسكر موسى عليه السلام كان بأرض كنعان من الشام بين أريحا وبين الأردن وجبل البلقاء والتيه فيما بين هذه المواضع ، ثم ساق القصة على نمط ما تقدم إلا أن فيها بدل « اندلع لسانه » وجاءته لمعة فأخذت بصره فعمي .

« وحكي عن وهب انه قال ان بلعام أخذ أسيراً فأتي به الى موسى فقتله (قال) وهكذا كانت سنتهم انهم يقتلون الاسرى (قال) فقوله تعالى (فانسلخ منها) يقول الاسم الاعظم الذي أعطاه الله عز وجل إياه .

وروى محمد بن اسحق عن الزهري عن سعيد بن المسيب ان رسول الله (ص) قال « كان مثل بلعم بن باعورا في بني اسرائيل كمثل أمية بن أبي الصلت في هذه الامة » (قال ابن عساكر) قلت والحديث موقوف على ابن المسيب ، فتأمل (؟؟)

(قال) « وأقول في الاصحاح الثاني والعشرين من سفر العدد من التوراة ذكر بلعام

وقصته مطولة وهي أشبه برواية وهب غير ان الذين دوّنوا التوراة الموجودة اليوم برؤا بلعام فقالوا انه ذهب الى منزله ولم يدع على بني اسرائيل ولم يصبهٌ شيء ، فان كانت الآيات نزلت في حكاية بلعام فيكون القرآن قد أظهر ما كتمه التوراتيون وأظهر ما خبأوه ويكون هذا من جملة المعجزات الدالة على ان القرآن من عند الله تعالى وان كانت في غيره فالله أعلم بمن نزلت . على ان الصحيح ان الآيات شاملة لكل من كانت هذه صفته من كل من آتاه الله الآيات التي هي الحجج التي جاء بها الانبياء ثم انه انسلخ منها — الى أن قال — والصواب في تفسير هذه الآية انه لايخص منه شيء إذا كان لا دلالة على خصوصه من خبر ولا عقل » اه المراد من كلام ابن عساكر

أقول ان هذا الحافظ كان مطلعاً على التوراة التي في أيدى أهل الكتاب وهي عين التي بين أيدينا منها إلا ما في اختلاف الترجمات القديمة والحديثة من الفروق وهي وان كان فيها اختلاف في المعاني فلن يصل الى الحد الذي في روايات وهب وكعب وغيرهما من رواة الاسرائيليات الكاذبة . وابن عساكر يرجح قول وهب على ما في التوراة لأنه ثقة عنده في الرواية ويعد روايته دليلا على معجزة للقرآن ، ولو ذكر القرآن ان الرجل الذي آتاه الله آياته هو بلعام هذا أو لو صح هذا في خبر مسند متصل عن النبي (ص) لكان صحيحاً ، ولكن يجب أن نعلم من أين جاء وهب بهذه القصة وهو لم يكن الا روايا لما عند أهل الكتاب وما قاله مخالف لما عندهم ؟

وقصة بلعام مفصلة في الفصول ٢٢ — ٢٤ من سفر العدد وفيها أنها وقعت في « عربات موآب من عبر أردن أريحا » من أرض مدين كما نقول (أو مديان كما يقولون) وان بالاق بن صفور (بكسر الصاد المهملة وتشديد الفاء) ملك الموآبيين طلب من بلعام بن بعور أن يلعن بني اسرائيل لينصره الله عليهم ووعده بمال كثير فأوحى الله الى بلعام أن لا يفعل فلم يفعل ،

وفي قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست ان بلعام هذا من قرية فثور من بين النهرين قال « وكان نبيا مشهوراً في جيله والظاهر انه كان موحداً يعبد

الله(!!) وليس ذلك بعجيب لانه من وطن ابراهيم الخليل حيث يظن ان جرثومة تلك العبادة كانت لم تزل معروفة عند أهل تلك البلاد مابين النهرين فى أيام ذلك الرجل ، وقد ذاع صيت هذا النبي بين أهل ذلك الزمان فعلا شأنه وصارت الناس تقصده من جميع انحاء البلاد ليتنبأ لهم عن أمور مختصة بهم أو ليباركهم ويبارك مقتنياتهم وما أشبه » ثم ذكر حكاية ملك موآب معه ، فعلى ذلك يكون بلعام عراقياً لا اسرائيلياً ولا موآبياً

وذكر البستاني فى دائرة المعارف العربية ملخص قصة بلعام ثم قال: وبعض مفسري الكتاب المقدس المدققين ذهب الى ان قصة بلعام المدرجة فى سفر العدد من الاصحاح ٢٢ — ٢٤ دخيلة الخ فتأمل

وجملة القول أن هذه الروايات الاسرائيلية لا يعتد بشيء منها ، ولا قيمة لأسانيدها الان من ينتهي اليه السند قد اغتر ببعض ملفقي الاسرائيليات حتماً، وقد رأينا شيخ المفسرين ابن جرير لم يعتد بها . ونرجو ـ وقد راجعنا أشهر ما لدينا من كتب التفسير ـ أن يكون ما بينا بمعنى الآيات أصحها وأكبرها فائدة

وأكبر وجوه العبرة فيها ما نراه من حال علماء الدنيا اللابسين لباس علماء الدين الذين هم أظهر مظاهر المثل في الانسلاخ من آيات الله والاخلاد الى الارض واتباع أهوائهم وتفانيهم في إرضاء الحكام وان كانوا مرتدين، والعوام وان كانوا مبتدعة خرافيين ، وهم فتنة للنابتة العصرية تصدهم عن الاسلام، وللعوام في الثبات على الخرافات والاوهام ، ومنها عبادة القبور بدعاء موتاها فيما لا يطلب الا من الله تعالى والطواف بها والنذر لها وغير ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

---

(١٧٨) مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٧٩) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ

لَا يَسْمَعُونَ بِهَا . أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ

هاتان الآيتان مقررتان لمضمون المثل في الآيات قبلها ، وهو أن أسباب الهدى والضلال إنما ينتهي كل نوع منها بالمرء المستعد الى كل من الغايتين، والعرضة اسلوك كل من النجديين ، بتقدير الله والسير على سننه في استعمال مواهبه وهداياته الفطرية من العقل والحواس في أحد السبيلين ، (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) وقد أجمل تعالى هذا المعنى في الآية الاولى وفصله في الثانية بإيجاز بديع فقال ﴿ من يهد الله فهو المهتدي ﴾ أي من يوفقه الله سبحانه وتعالى لسلوك سبيل الهدى باستعمال عقله وحواسه بمقتضى سنة الفطرة وارشاد الدين فهو المهتدي الشاكر لنعمه تعالى الفائز بسعادة الدنيا والآخرة ﴿ ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ﴾ أي ومن يخذله بالحرمان من هذا التوفيق فيتبع هواه وشيطانه في ترك استعمال عقله وحواسه في فقه آياته تعالى وشكر نعمه فهو الضالّ الكفور الخاسر لسعادة الدنيا والآخرة — لانه يخسر بذلك مواهب نفسه التي كان بها إنساناً مستعداً للسعادة فتفوته هذه السعادة فوتاً إضافياً في الدنيا وحقيقياً في الآخرة

وفي الآية من محاسن البديع الاحتباك وهو حذف الفوز والفلاح من الجملة الاولى للعلم به من إثبات نظيره ومقابله وهو الخسران في الجملة الثانية، وحذف الضال من الجملة الثانية لاثبات مقابله وهو المهتدي فى الجملة الاولى . وأفرد المهتدي في الاولى مراعاة للفظ (من) وجمع الخاسرين في الثانية مراعاة لمعناها فانها من صيغ العموم . وحكمة افراد الاول الاشارة به الى أن الحق المراد من الهداية الالهية نوع واحد وهو الايمان المثمر للعمل الصالح وحكمة جمع الثاني الاشارة إلى تعدد أنواع الضلال كما تقدم بيانه مفصلا في تفسير قوله تعالى من سورة الانعام (٦: ١٥٣ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)

ـو تفسير قوله تعالى من سورة البقرة (٢:٢٥٧ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور) الآية (١)

ثم فصل تعالى ما في هذه الآية من الاجمال بقوله ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾

(الذرء) فسروه بالخلق ، وذرأنا خلقنا كما قال ابن عباس وغيره وهو تفسير مراد ولكل مادة معنى خاص وقد تقدم معنى مادة خلق وسنعيده. وقال الراغب : الذرء اظهار الله تعالى ما أبدأه يقال ذرأ الله الخلق أي أوجد أشخاصهم وذكر هذه الآية وغيرها وقال : وقرىء تذرؤه الرياح . وفي اللسان بعد تفسير الذرء بالخلق والاستشهاد بالآية : وقال عز وجل (خلق لكم من أنفسكم أزواجا ومن الانعام أزواجا يذرؤكم فيه)قال أبو اسحاق : المعنى يذرؤكم به أي يكثركم بجعله منكم ومن الانعام أزواجاً .. ثم قال « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق وذرأ وبرأ » وكأن الذرء مختص بخلق الذرية . وفي حديث عمر (رض) كتب الى خالد : واني لأظنكم آل المغيرة ذرء النار — يعني خلقها الذين خلقوا لها ، ويروى ذرو النار ، يعني الذين يفرقون فيها، من ذرت الريح التراب اذا فرقته اه المراد منه . وفي الاساس: ذرأنا الارض وذروناها ، وذرأ الله الخلق وبرأ الخ

فاذا تأملت مع هذه الاقوال استعمال القرآن لهذا الحرف في النبات والحيوان والانسان خاصة علمت ان الذرء في أصل اللغة بمعنى بث الاشياء وبذرها وتفريقها وتكثيرها وان اسنادها الى الله تعالى بمعنى خلق ذلك أي ايجاده ، كما ان أصل معنى الخلق التقدير ويسند إلى الله تعالى بمعنى ايجاد الاشياء بتقدير ونظام لا جزافا ، ولهذا عطف الذرء والبرء على الخلق في حديث الدعاء المتقدم

(والجن)الاحياء العاقلة المكلفة الخفية غير المدركة بحواس البشر ،ولعل تقديمهم هنا فى الذكر على الانس أنهم اكثر أهل جهنم لانهم أجدر وأعرق في الصفات الآتية التي هي سبب استحقاقها ، وكون خلق أصل نوعهم وأوله من

(١) آية الانعام في ص ١٩٤ ج ٨ تفسير وآية البقرة ص ٤٠ ج ٣

مارج من نار لايقتضي عدم تألمهم من النار كماقديتوهم ، فان بين حقيقة نوع البشر وحقيقة الطين الذي خلق أبوهم منه بونا عظيما يقاس عليه الجن

(والقلوب) جمع قلب وهو يطلق في اللغة العربية على المضغة الصنوبرية الشكل التى في الجانب الأيسر من جسد الانسان اذا كان موضوع الكلام جسد الانسان ويطلق عند الكلام في نفس الانسان وإدراكه وعلمه وشعوره وتأثير ذلك في أعماله على الصفة النفسية واللطيفة الروحية التي هي محل الحكم في انواع المدركات ،والشعور الوجداني للمؤلمات والملائمات ، أعني أنه يطلق بمعنى العقل وبمعنى الوجدان الروحي ، الذي يعبر عنه في عرف هذا العصر بالضمير وهو تعبير صحيح .واشتقاق العقل من عقل البعير لمنعه من السير ، وفي معنى القلب اللب الذي هو جوهر الشيء ويكثر في التنزيل . ومنه النهية وجمعها نهى ومنه قوله تعالى فى سورة طه (٢٠ :١٢٨ ان فى ذلك لآيات لأولي النهى)

ومن استعماله فى معنى العقل قوله تعالى في سورة الحج (٢٢ : ٤٦ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أوآذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) وهي بمعنى الآية التي نفسرها وحذف منها — أو أعين يبصرون بها - استغناء عنه بدلالة مابعده عليه ، والآيات المبصرة بالأعين في السياحة في الارض أكثر من المسموعة ، ومن استعماله في معنى الوجدان النفسي قوله تعالى في سورة الزمر (٣٩ : ٤٥ واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة) وقوله فى سورة آل عمران والانفال (٣ : ٥١ و ٨ : ١٢ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) وقوله في النازعات (٧٩ : ٨ قلوب يومئذ واجفة) فالاشمئزاز والرعب والوجيف شعور وجداني لا حكم عقلي، وقد يستعمل في المعنيين معاً والاقرب ان منه فقه القلوب هنا فان الفقه لايحصل الا بنوع من الادراك يصحبه وجدان يبعث على العمل كما يعلم مما نذكره في تحقيق معناه وقد يتعارض مقتضى العقل والوجدان كوجدان اللذة والالم والحب والبغض التي تحمل على أعمال مخالفة لحكم العقل في المنافع والمضار

وسبب استعمال القلب بمعنى الوجدان الحسي والمعنوى وهو الضمير مايشعر

به المرء من انقباض أو انشراح عند الخوف والاشمئزاز أو السرور والابتهاج ، ولذلك قال النبي (ص) لوابصة حين جاء يسأله عن البر والاثم وقد علم (ص) ذلك قبل السؤال « استفت قلبك ، البر ما اطمأنت اليه النفس واطمأن اليه القلب والاثم ماحاك في النفس وتردد في الصدر ، وان أفتاك الناس وأفتوك » رواه الامام أحمد والدارمي باسناد حسن ومسلم مختصراً . ثم توسعوا في استعماله فاستعملوه بمعنى الادراك العقلي المؤثر في النفس لا لمطلق التصور والتصديق . فهو لا ينافي كون مركزهما الدماغ ، على ان الاستعمالات اللغوية ، لا يجب أن توافق الحقائق العلمية ،

(والفقه) قد فسروه بالعلم بالشيء والفهم له ـ وكذا بالفطنة كما في جل المعاجم أوكلها ، وقالوا فقه (كعلم وفهم وزنا ومعنى) وقالوا فقه (ككرم وضخم) فقاهة أي صار الفقه وصفاً وسجية له ، وقال الراغب الفقه هو التوصل بعلم شاهد إلى علم غائب . قال السيوطي بعد نقله فهو أخص من العلم .

وقال ابن الأثير في النهاية إن اشتقاقه من الشق والفتح . أي هذا معناه الأصلي فهو كالفقء بالهمزة وهي تتعاقب مع الهاء لاتحاد مخرجهما ، وذكر الحكيم الترمذي هذا واستدل به على أن الفقه بالشيء هو معرفة باطنه والوصول إلى اعماقه ، فمن لا يعرف من الأمور الا ظواهرها لا يسمى فقيها . وذكر أصحاب المعاجم أن اسم الفقه غلب على علم فروع الشريعة ، أي من العبادات والمعاملات وهو اصطلاح حادث لا يفسر به ماورد في الكتاب والسنة من هذه المادة والتحقيق أنهم لم يكونوا يسمون كل من يعرف هذه الفروع فقيها كما ترى من عبارة الغزالي الآتية ولغيره ماهو أوضح منها ، فقد اشترطوا فيه معرفتها بدلائلها .

وذكر الغزالي في (بيان ما بدل من ألفاظ العلوم) أن لفظ الفقه تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقوف على دقائق عللها ...(قال) ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقاً على علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ، ومفسدات الأعمال ، وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع الى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب ويدلك عليه قوله تعالى (ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم) ومايحصل

به الانذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والاجارة ، فذلك لايحصل به إنذار ولا تخويف ، بل التجرد له على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه ، كما نشاهد الآن من المتجردين له . وقال تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها) وأراد به معاني الايمان دون الفتوى اهـ وروي عن أبي حنيفة تفسيره بمعرفة النفس مالها وما عليها

وأقول ذكرت هذه المادة في عشرين موضعاً من القران تسعة عشر منها تدل على أن المراد به نوع خاص من دقة الفهم ، والتعمق في العلم الذي يترتب عليه الانتفاع به ، وأظهره نفي الفقه عن الكفار والمنافقين ، لأنهم لم يدركوا كنه المراد مما نفي فقهه عنهم ، ففاتتهم المنفعة من الفهم الدقيق والعلم المتمكن من النفس ومنه قول قوم نوح لنبيهم (ماننفقه كثيراً مما تقول) وان تراءى لغير الفقيه أنه ليس منه ، فانهم كانوا يفهمون كل ما يقول فهما سطحياً ساذجاً لانه يكلمهم بلغتهم ، ولكن لم يكونوا يبلغون مافي أعماق بعض الحكم والمواعظ من الغايات البعيدة لعدم تصديقهم اياه ، وعدم احترامهم له ، ولأنه مخالف لتقاليدهم وأهوائهم الصادة لهم عن التفكير فيه والاعتبار به . وأما الموضع العشرون فهو قوله تعالى حكاية عن نبيه موسى (واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) وهو لا ينافي ماذكر لان فصاحة لسان الداعية الى الدين والواعظ المنذر تعين على تدبر ما يقول وفقهه

اذا تمهد هذا فقوله تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها) معناه نقسم أننا قد خلقنا وبثثنا في العالم كثيراً من الجن والانس لأجل سكنى جهنم والمقام فيها ، أي كما ذرأنا للجنة مثل ذلك ، وهو مقتضى استعداد الفريقين (فمنهم شقي وسعيد * فريق في الجنة وفريق في السعير) وبماذا كان هؤلاء معدين لجهنم دون الجنة وماصفاتهم المؤهلة لذلك ؟

(الجواب) : ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها الخ أي لايفقهون بقلوبهم ماتصلح وتتزكى به أنفسهم من توحيد الله المطهر لها من الخرافات والاوهام ، ومن المهانة والصغار ، فان من يعبد الله تعالى وحده عن ايمان ومعرفة تعلو نفسه ، وتسمو بمعرفة ربه رب

العالمين ، ومدبر الكون بتقديره وسننه ، فلا تذل نفسه بدعاء غيره ، والخوف منه ،والرجاء فيه ، والاتكال عليه ، بل يطلب كل مايحتاج اليه من ربه وحده،فان كان مما أقدر الله تعالى عليه خلقه باعلامهم باسبابه وتمكينهم منها طلبه بسببه ،مراعيا في طلبه ماعلمه من مقادير الخلق وسننه ، وذلك عين الطلب من الله تعالى ولاسيما في نظر العالم بما ذكر ، وان لم يكن كذلك توجه الى الله وحده لهدايته إلى العلم بما لا يعلم من سببه ، واقداره على مالا يقدر عليه من وسائله، أو تسخير من شاء من خلقه لمساعدته عليه ، أو إيصاله اليه ، ممن أعطاهم من أسبابه مالم يعطه ، كالاطباء لمداواة الامراض ، وأقوياء الابدان لرفع الاثقال،والعلماء الراسخين لبيان الحقيقة وحل الاشكال ، ولا يتوجه مثل هـذا العارف الموحد في طلب شيء الى غير ما يعرف البشر من الاسباب المطردة ، والوسائل المعقولة المجربة ، كالرقى والنشرات، والتناجيس والطلسمات ، والعزائم والتبخيرات [1] ولا كرامات الصالحين من الأحياء والاموات ، دع التقرب اليهم بما يعد من العبادات ، كالدعاء الذي هو

(١) الرقى بالضم جمع رقية (كغرف جمع غرفة) وهي ما يقرأ على الملدوغ أو المريض ليبرأ أو يخف ألمه ، ومنه ما يفيد ولا سيما أصحاب الامزجة العصبية الذين يؤثر فيهم الوهم والاعتقاد وهي جائزة لذلك إذا كان المقروء حقا كالقرآن وذكر الله ومحرمة اذا كان فيه شيء منكر أو مجهول. ولما كان الانتفاع بالرقيه غير مطرد جعل النبي (ص) الاسترقاء مانعا من دخول الجنة بغير حساب ومنافيا للتوكل على الله تعالى ، بخلاف التداوي. والنشرة ما يكتب للمريض ويحرق او يشرب ماؤه بعد أن يذاب ليشفى وقد حرمها الفقهاء بالمجهول والتناجيس ما يعلق على الاطفال وغيرهم من عظم وخرز وغير ذلك لمنع تأثير العين وإلمام الشياطين ، والطلسمات جمع طلسم بكسر الطاء وتشديد اللام والاشهر بفتح فكسر وجمعه طلاسم وهو خرافة يكتبون لها أرقاما في أشكال هندسية للتأثير الخارق للعادة . والعزائم أقسام يقسم بها على الجن لتخرج من المصروع أو لتحمل على عمل آخر ويحرقون في أثناء تلاوتها البخور ، وكل هذا من أعمال السحر القديمة خلط بها سحرة المسلمين ومشعوذوهم أسماء الله تعالى . قال ابن حجر الهيتمي بعد الجزم بتحريم العزائم المقروءة والمكتوبة ان كان فيها اسم لا يعرف معناه. وكذلك الرقية قال مانصه : وما عدا ذلك من التبخيرات والتدخينات ونحوها مما اعتاد السحرة الفجرة — الحرام الصرف بل الكبيرة بل الكفر بتفصيله المشهور عندنا ، ومطلقا عند مالك وغيره اهـ

مخ العبادة والركن الاعظم فيها كما ورد في الحديث والله تعالى يقول (فلا تدعوا مع الله أحدا - ويقول - بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إن شاء وتنسون ما تشركون) ويقول (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين - ويقول - أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه - ويقول - فلا تخشوهم واخشوني) الخ ويقول (وعلى الله فتوكلوا - ويقول - وعلى الله فليتوكل المتوكلون)

ذلك بأن لهم قلوبًا لا يفقهون بها أن ترك الشرور والمنكرات، والحرص على أعمال الخيرات ، وان شئت فقل — واجتناب الرذائل ، والتحلي بالفضائل — مناط سعادة الدنيا ، وبها مع الايمان بالله واليوم الآخر يتم الاستعداد لسعادة الآخرة ، وأنها لا يمكن أخذ الناس بها فعلا وتركا ، وسراً وجهرا ، الا بالتربية الدينية الصحيحة، ولذلك نرى أعلمهم بصفات النفس البشرية وأخلاقها ، وقوانين التربية الصورية وآدابها ، يجنون على أجسادهم وأنفسهم بالاسراف في الشهوات، والاحتيال على كثرة المقتنيات ، والتعالي على الاقران واللذات، فيجترحون فواحش الزنا واللواط ، ويقترفون جريمتي الرشوة والقمار ، ويستحلون منكرات الحسد والاستكبار ،ومنهم اكثر الخونة أعوان الاجانب على استعباد أمتهم، وامتلاك أوطانهم

ذلك بأن لهم قلوبا لا يفقهون بها معنى الحياة الروحية ، واللذات المعنوية ، والسعادة الابدية ، (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)

ذلك بأن لهم قلوبا لا يفقهون بها معني الآيات الالهية في الانفس والافاق ، ولا آياته التي يؤيد بها رسله من علميات وكونيات ، وأظهر آياته العلمية الباقية الى آخر الزمان ، ما أودعه منها في كتابه القرآن المنزل على رسوله الامي (ص) كالعلوم الآلهية والتشريعية والادبية والاجتماعية، وأخبار الغيب الماضية والآتية، فهم ينظرون في ظواهر هذه الآيات ، ويتكلفون لها غرائب التأويلات، ولذلك قال تعالى في موضوع الآيات (٦ : ٦٦ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض . أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) [1] وقال (٦ : ٩٨ وهو الذي أنشأ كم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد

---

(١) راجع تفسيرها في ص ٤٩٠ ج ٧ تفسير وتطبيقها على حالهم فى الحرب العظمى

فصلنـا الآيات لقوم يفقهون) وقال في عدم فقههم للقرآن (٦ : ٢٦ ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا . وان يروا كل آية لايؤمنوا بها حتى اذا جاؤك يجادلونك يقول الذين كفروا : إن هذا إلا أساطير الاولين) وهذه الاية جمعت حرمانهم لهداية القلوب والاسماع والابصار فهي شاهد لكل ماجاء في الاية التي نحن بصدد تفسيرها ، ومثلها في سورتي الاسراء (١٧ : ٤٥ و ٤٦) والكهف (١٨ : ٥٥) ولكن الشاهد فيهما على نفي هداية القلوب والاسماع فقط إذ هو المناسب الموضوع

ذلك بأن لهم قلوبا لا يفقهون بها أسباب النصر على الاعـداء من روحية وعقلية ، واجتماعيـة وآلية ، التي نصر الله بها المؤمنين على الكافرين في عهد الرسول (ص) ثم في عهد الخلفاء الراشدين والمدنيين في الاسلام ، وجعل العشرة منهم أهلا لغلب المائة في طور القوة ، والمائة أهلا لغلب المائتين في طور الضعف ، وعلل ذلك بأن الكفار قوم لايفقهون (الانفال ٨ : ٦٦) وقال في سورة الحشر (٥٩ : ١٣ لأنتم أشد رهبة في صـدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لايفقهون) فمن آيات الدين في المؤمن أن يكون أفقه من الكافر بنظم الحرب وأسباب النصر الصورية والمعنوية وأكمل اتصافا بها ، وتمتعاً بثمرها . فأين هذا الايمان ، من مسلمي هذا الزمان ؟

ذلك بأن لهم قلوبا لايفقهون بها سنن الله تعالى في الاجتماع ، وتأثير العقائد الدينية في جمع الكلمة وقوة الجماعات ، ولا سيما في عهد النبوة وزمن المعجزات ، ولا يفقهون بها إدالة الله لاهل الحق من أهل الباطل ، بل يحكمون في ذلك بمـا يبدو لعقولهم القاصرة من الظواهر ، دون ماوراءها من الفقه الباطن ، كما حكاه الله تعالى عن المنافقين في آخر سورة التوبة من كونهـم لايزدادون بنزول سور القرآن إلا رجساً أي خبثاً ونفاقا ، وكونهم يفتنون ويمتحنون مراراً ، ولا يفيدهم ذلك توبة ولا ادكاراً ، حتى اذا ماأنزلت سورة فروا من سماعها فراراً ، لايخافون أن يراهم الله ولكن يخافون أن يراهم المؤمنون (واذا ماأنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) وما حكاه تعالى عنهم في سورتهم من قصر نظرهم وظلمة بصيرتهـم . إذ توهموا

أنهم يقنعون المؤمنين من الانصار بترك الانفاق على اخوانهم المهاجرين ، وأن ذلك كاف في انفضاضهم من حول الرسول (ص) (هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . ولله خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لايفقهون) أي لايفقهون سر كفاية الله تعالى رسوله والمؤمنين وكفالته لهم ، ولا يفقهون أن سبب انفاق الانصار الابرار رضوان الله تعالى عليهم هو الايمان الصادق الذي هو أقوى البواعث على بذل المال والنفس في سبيل الله تعالى ابتغاء مرضاته فلا يؤثر فيه قولهم : لاتنفقوا على من عند رسول الله — إلا احتقارهم لهم على نفاقهم ، وثباتهم هم على إنفاقهم ، — لا يفقهون هذا ولا ذاك لأنهم محرومون من وجدان الايمان ، وايثار ماعند الله تعالى على جميع ما في هذه الدار الفانية من متاع .

وجملة القول أن نفي الفقاهة عن قلوب المخلوقين لجهنم يشمل كل ماذكرنا وما في معناه من أمور الدين وأمور الدنيا من حيث علاقتها بالدين وتكميل النفس . ومن العبرة فيه أن الذين يدعون الايمان في هذا الزمان لهم قلوب لا يفقهون بها ماذكر ، ولا يعلمون ان من فقهه فهو المخلوق للجنة كما يؤخذ من الحكم على أن من لم يفقهه مخلوق لجهنم ، بل صار كثير ممن لايوصفون بايمان ولا اسلام يفقهون من سنن الله تعالى المشار إلى بعضها في القرآن مالا يفهمون كاسباب النصر في الحرب ولذلك نراهم ينصرون فيها على هؤلاء . والله تعالى يقول للمؤمنين (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ويقول فيهم (وكان حقًا علينا نصر المؤمنين) وليس المعنى أنه ينصرهم بخوارق العادات ، بل أنهم بمقتضى الايمان هم الذين يفقهون أسباب النصر المادية والمعنوية، وفقاهة الأمر تقتضي العمل بموجبه، والآيات حجة على المسلمين الجغرافيين بأنهم غير مؤمنين ، وأن لدى أعدائهم من العلم واخلاق الايمان أكثر مما عندهم، وإن لم يبلغوا بها مرتبة الايمان الاسلامي الكامل . ثم إنهم بعد ذلك يعدون جهلهم وخذلانهم حجة على الاسلام، ويزعمون أنه هو سبب حرمانهم النصر والترقي في معارج العمران ، — (ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) حقيقة

الاسلام ، ولا يدرون ماالكتاب وما الايمان ، فالقرآن حجة عليهم وهم أجهل وأضل من أن يكونوا حجة على القرآن .

وقوله تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بهـا) أبلغ من أن يقال : ليس لهم قلوب يفقهون بها . لأن اثبات خلق القلوب لهم، هو موضع قيام الحجة عليهم، والتعبير الآخر يصدق بأمرين : بعدم وجود القلوب لهم بالمرة ، وبوجودقلوب لايفقهون بها ، وفي الحالة الاولى لاتقوم عليهم حجة لانهم لم يؤتوا آلة التكليف وهوالعقل والوجدان . فلا تكون العبارة نصاً في قيام الحجة لاحتمالها عدم التكليف . وانما قال (لا يفقهون بها) ولم يقل « لا تفـقه » لبيان أنهم هم المؤاخذون بعـدم توجيه إرادتهم لفقه الامور واكتناه الحقائق،ويقال مثل هذا وما قبله فيما بعده وهو :

﴿ ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بهـا ﴾ ومعنى الجملتين يفهم اجمالا مما فسرنا به فقه القلوب تفصيلا ، أي ولهم أبصار وأسماع لا يوجهونها إلى التأمل والتفكر فيما يرون من آيات الله في خلقـه ، وفيما يسمعون من آيات الله المنزلة على رسـله ، ومن أخبار التاريخ الدالة على سننه تعالى في خلقه ، فيهتـدوا بكل منـها الى ما فيـه سعادتهم في دنياهم وآخرتهـم . وأما التفصيل فيؤخـذ من آيات القرآن الكثيرة المرشـدة إلى النظر في آياته تعالى في الانفس والآفاق وفي تدبر القرآن ، وكذا الاستفادة مما يروى ويؤثر من تاريخ البشر ، فان الآذان قد خلقت للانسان ليستفيد من كل مايسمع ، لامن القرآن فقط ، كما أن الابصار خلقت له ليستفيد من كل مايبصر ، وانمـا يكون ذلك على كماله بتوجيه ارادته إلى استعمال كل منهما فيما خلق له . قال تعالى في آخر سورة ألم السجدة (أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ؟ إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ؟ * أولم يروا أنا نسوق المـاء إلى الارض الجرُز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون) فهذان مثالان للآيات البصرية والسمعية وأمثالها كثير ، ولكن أكثر الذين يسمون أنفسهم أهل القرآن لا يفقهون شيئاً منها ، وليس الفقه عندهم الا تقليد علماء فروع الاحكام العملية فيما كتبوه منها ، وقد يكون في حكايتها دون العمل بها ، ! !

وفي معنى ماهنا من صفات أهل جهنم قوله تعالى فى الذين علم الله رسوخهم في الكفر وثباتهم عليه من سورة البقرة(٢ : ٦ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة)فقد بين بضرب من التشبيه البليغ عدم انتفاعهم بمواهب القلوب والاسماع والابصار التي هي آلات العلم والعرفان، وطرق الهدى والايمان . وقوله فى المنافقين بتشبيه ابلغ (٢ : ١٧ صم بكم عمي فهم لا يرجعون)ومثله المثل (٢ :١٦٦ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمي فهم لا يعقلون) وقوله فيهم من سورة النحل (١٦ : ١٠٨ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون) وقوله في سورة الجاثيــة (٤٥ : ٢٢ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله؟ أفلا تذكرون ؟) وقوله في سورة الاحقاف بعد ذكر هلاك عاد (٤٦ : ٢٥) ولقــد مكناهم فيما ان مكنا كم فيــه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله) وقوله تعالى في سورة الانفال (٨:١٩ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنــه وأنتم تسمعون (٢٠) ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون (٢١) ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون (٢٢) ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) أي ولو أسمعهم سماع تفقه واعتبار والحال انه قد علم أنهم لا خير فيهم — لتولوا عن الاستجابة له وهم معرضون .

كرر الرب الحكيم بيان هذه الحقيقة بأساليب مختلفة في البلاغة كالتشبيه والتمثيل والاحتجاج، وبيان السنن الاجتماعية لأجل التأثير والتذكير والانذار، لمن لم يفقد استعداد الهداية من الكافرين ، ولأجل العظة والذكرى للمؤمنين ، كما ترى في آيات الانفال ، ومع هذا التكرار البالغ حد الاعجاز في البلاغة نرى أكثر المسلمين أشد إهمالا من غيرهم لاستعمال أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم في النظر في آيات الله في الأنفس والآفاق، لانهم من أجهل الشعوب بالعلوم التى تعرف بها آياته تعالى في أعضاء الانسان ومشــاعره وقواه العقلية وانفعالاته النفسـية ،

وآياته في الجماد والنبات والحيوان ، والهواء والماء والبخار، والغازات التي تتركب منها هذه المواد وغيرها، وسنن النور والكهرباء ، والهيئة الفلكية، ومن أصاب منهم حظًا من هذه العلوم فانما أخذه عن الافرنج أو تلاميذهم المتفرنجين فكان مقلداً فيه لهم لامستقلا ، ولم يتجاوز طريقتهم في البحث عن منافع هذه الاشياء لأجل الانتفاع بها في هذه الحياة الدنيا ، من غير ملاحظة كونها آيات دالة على أن لها ربا خالقا مدبراً عليما حكيما، مريداً قديراً رحيما، يجب أن يعبد وحده ، وأن يخشى ويحب فوق كل أحد ، وأن تكون معرفته والزلفى عنده ورجاء لقائه في الآخرة منتهى كل غاية من الحياة ، ولوقصد أولئك العلماء هذا من العلم لأصابوه فان الأمور بمقاصدها و « انما الاعمال بالنيات » ولكنهم غفلوا عنه، لتعلق ارادتهم بمادونه، ولهذا كان علمهم على سعته ناقصاً أقبح نقص، وكان الانتفاع به مشوبا بضرر عظيم باستعمال ما هداهم اليه العلم من خواص الاشياء في الحرب وآلات القتال ، التي تدمر العمران وتسحق الالوف الكثيرة من البشر في وقت قصير — وبهذا يصدق على هؤلاء العلماء الذين استعملوا عقولهم وأبصارهم وأسماعهم في استنباط حقائق العلوم ونفعها المادي العاجل ما يصدق على الذين أهملوا استعمالها ، وآثروا الجهل على العلم بها ، من قوله عز وجل :

﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الصفات السلبية كالأنعام من إبل وبقر وغنم في كونهم لا حظ لهم من عقولهم ومشاعرهم إلا استعمالها فيما يتعلق بمعيشتهم في هذه الحياة الدنيا ، بل هم أضل سبيلا من الانعام لأن هذه لاتجني على أنفسها بتجاوز سنن الفطرة وحدود الحاجة الطبيعية في أكلها وشربها ونزوانها، بل تقف فيه عند قدر الحاجة التي تحفظ بها الحياة الشخصية والنوعية ، وأما عبيد الشهوات من الناس فهم يسرفون في كل ذلك اسرافا يتولد منه أمراض كثيرة يقل فيهم من يسلم منها كلها ، ومن الناس من يجاهد هذه الشهوات جهاداً يفرط فيه بحقوق البدن فلا يعطيه الغذاء الكافي، ويقصر في حقوق الزوجية، أو يقطع على نفسه طريقها بالرهبانية، فيجني على شخصه وعلى نوعه بالتفريط كما يجني عليهما عبيد اللذات بالافراط ، دع الجناية على الاخلاق

والآداب وعلى الامم والشعوب، وهداية الاسلام تحظر هذا وذاك وتوجب الأكل من الطيبات والزواج بشرطه وتحرم الاسراف في كل شيء. فلو اهتدى الناس بالقرآن في فقه أسرار الخلق ومنافعه لجمعوا بها بين ارتقائهم في معاشهم، واستعدادهم لمعادهم، واتقوا هذا الاسراف في الشهوات والتنازع عليها الذي أفسد مدنية الافرنج بما يشكو منه جميع حكمائهم ويجزمون بأنه لابد أن يقضي عليهم.

﴿ أولئك هم الغافلون ﴾ أي أولئك الموصوفون بكل ما ذكر هم الغافلون التامو الغفلة عما فيه صلاحهم وسعادتهم في الحياتين الدنيا والآخرة جميعاً أو خيرهما وأكملهما وأدومهما وهي الثانية، فهم طبقات على درجات في الغفلة، الغافلون عن أنفسهم، الغافلون عن استعمال عقولهم ومشاعرهم في أفضل ما خلقت لأجله من معرفة الله تعالى، الغافلون عن آيات الله في الانفس والآفاق التي تهدي الى معرفة العبد نفسه وربه، الغافلون عن ضروريات حياتهم الشخصية، وحياتهم القومية، وحياتهم الملية، الذين يعدون كالانعام من وجه آخر غير الذي تقدم من مجافاة سنن الفطرة، وهو حقارتهم ومهانتهم الشخصية والقومية بين الامم والدول وتسخير غيرهم لهم كما يسخر الأنعام في سبيل معيشته

فالقسم الاول من الغافلين هم الذين قال الله تعالى فيهم في أوائل سورة يونس بعد التذكير بخلق السموات والارض واستوائه على عرشه وتدبيره أمر العالم، وكونه يبديء الخلق ثم يعيده ـ والاعادة في العادة أهون من البدء ـ والتذكير بآياته في جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وتقديره منازل ليعلم منها عدد السنين والحساب ـ وآياته في اختلاف الليل والنهار وخلق السموات والارض ـ قال بعد ذلك ـ (١٠ : ٦ إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون (٧) أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) فهذا نص في ان النار مأوى الغافلين عن هذه الآيات أي عن دلالتها على وجود خالقها ومدبر النظام فيها وكون إعادة خلق البشر وغيرهم في طور آخر لايتعاصى على قدرته، وهو من مقتضى علمه وحكمته، وعن كون معرفته تعالى أعلى أنواع المعرفة، وكون التنعم الروحاني بلقائه عز وجل في دار الكرامة أسمى أنواع النعيم. وان كان هؤلاء الغافلون عما ذكر من أكبر

العلماء بسنن الله تعالى وحكمه في خلق العالم العلوي والعالم السفلي ، بل حجة الله على هؤلاء العلماء أبلغ وأظهر لأنهم لو فطنوا لدلالتها على ما ذكر وفقهوه كما يجب لكانوا أسعد في هذه الحياة الدنيا وأبعد عن شرورها ومفاسدها مما هم عليه الآن، ولاستعدوا بذلك لسعادة الآخرة أكمل استعداد

كذلك يصدق عليهم قوله تعالى في أول سورة الروم (٣٠ : ٦ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) فانظر إلى بلاغة القرآن فى اعادة ضمير (هم) وهو للتأكيد الذي اقتضاه وصفهم بالعلم الذي من شأن صاحبه عدم الغفلة

تلك الصفات هي صفات من خلقوا لسكنى الجحيم ، وما يقابلها فهو صفات أهل دار النعيم، فأهل النار بنص كتاب الله تعالى هم الأغبياء الجاهلون الغافلون، الذين لا يستعملون عقولهم فى فقه حقائق الامور ، ولا يستعملون اسماعهم وأبصارهم في استنباط المعارف واستفادة العلوم ، ومعرفة آيات الله الكونية ، وفقه آياته التنزيلية ، وهما سبب كمال الايمان ، والباعث النفسي على كمل الاسلام والاحسان ، ولن ترى في كتب التفاسير الكثيرة من نبه قراء كتاب الله تعالى الى هذه المعاني الهادية الى سبيله وصراطه المستقيم، على أن أكثر المسلمين قد اتخذوا كتاب الله مهجورا ، فاذا سألت أشهرهم بعلم التفسير عن معنى هذه الآية قال لك ان الله تعالى خلق للنار خلقاً هم على الكفر والمعاصي مجبورون ، « لهم قلوب ليس من شأنها أن يفهموا بها شيئاً مما من شأنه أن يفهم ، فيدخل فيه ما يليق بالمقام من الحق ودلائله دخولا أوليًا – ولهم أعين لا يبصرون بها شيئا من المبصرات فيندرج فيه الشواهد التكوينية الدالة على الحق اندراجا أوليا – ولهم آذان لا يسمعون بها شيئا من المسموعات فيتناول الآيات التنزيلية على طرز ماسلف » اه ملخصاً من روح المعاني، وما زاد عليه فيه فكلام في الاعراب ونكت التعبير وتحقيق لمعنى الجبر عند بعض المتكلمين وهو زبدة ما في كتب التفسير. وأهل النار عندهم من يسمونهم كافرين ، وأهل الجنة من يسمونهم مسلمين ، وان كانوا يجهلون حقائق هذه الامور، ويصرون على الفجور ، اتكالا على شفاعة أهل القبور ، الذين يدعونهم مع الله أو من دون الله لمهمات الامور ، ويذبحون لهم النسائك وينذرون لهم النذور ،

وهي عبادات لغير الله يخرجون بها من حظيرة الايمان ، والاحتجاج بالآية على الجبر غفلة وجهل ، بل هي كسائر الآيات الدالة على نوط الجزاء بالعمل ، ومعناها ان هؤلاء المكلفين من الجن والانس قد تركوا استعمال عقولهم ومشاعرهم الباطنة والظاهرة في علم الهدى الذي يترتب عليه الاعمال المزكية للنفس فكانوا بذلك أهل جهنم ، وليس فيها انه تعالى ذرأهم لجهنم لذواتهم فان ذوات الجنسين كلها متشابهة ، ولم يقل انه خلقهم عاجزين عن استعمال تلك القوى فى أسباب الهدى بل قال انهم هم لم يستعملوها فى ذلك (وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقا لاصحاب السعير) ولكن الجدل فى المذاهب هو الذي أوهم ونحمد الله تعالى أن هدانا الى تفسير الآية بالشواهد الكثيرة من القرآن ، وسنن الله تعالى في الانسان والاكوان ، وهو مالم نطلع على مثله ولا ما يحوم حوله لانسان . والتحدث بنعمة الله ، مما أمر به الله ، فالحمد لله ثم الحمد لله

---

(١٨٠) وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَٰئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

بين الله تعالى لنا في الآية السابقة حال المخلوقين لجهنم في عدم استعمال عقولهم ومشاعرهم في الاعتبار بآيات الله والتفقه في تزكية أنفسهم بالعلم الصحيح الذي يترتب عليه العمل الصالح ، وأن ذلك الاهمال أعقبهم الغفلة التامة عن أنفسهم ومافيه صلاحها من ذكر الله تعالى وشكره والثناء عليه بما هو أهله من صفات الكمال ـ وقفى على ذلك في هذه الآية بدواء هذه الغفلة وأقرب الوسائل للمخرج منها إلى ضدها فقال :

﴿ ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ الاسماء جمع اسم وهو اللفظ الدال على الذات فقط أو على الذات مع صفة من صفاتها سواء كان مشتقا كالرحمن الرحيم الخالق الرازق أو مصدراً كالرب والسلام والعدل. والحسنى جمع الاحسن، والمعنى

ولله دون غيره جميع الاسماء الدالة على أحسن المعاني وأكمل الصفات، فادعوه أي سموه واذكروه ونادوه بها لمجرد الثناء وعند السؤال وطلب الحاجات ، فمن الذكر لمحض الثناء آية الكرسي ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ الخ وآخر سورة الحشر ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له مافي السموات والارض وهو العزيز الحكيم ﴾ وقد ورد في السنة الدعاء بهذه الآيات وأن يقول قبلها « أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم — ثلاث مرات » رواه الترمذي والدارمي وابن السني من حديث معقل بن يسار

وللذكر المحض فوائد كثيرة في تغذية الايمان ومراقبة الله تعالى وحبه والخشوع له والرغبة فيما عنده واحتقار مصائب الدنيا وقلة المبالاة والتألم لما يفوت المؤمن من نعيمها ، ولذلك ورد في الحديث الصحيح « من نزل به غم أو كرب أو أمر مهم فليقل : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات والارض ورب العرش الكريم » رواه الشيخان والترمذي والنسائي

ومن الذكر بصيغة النداء مارواه الترمذي أنه (ص) سمع رجلا وهو يقول (ياذا الجلال والاكرام) فقال « قد استجيب لك فسل » وروى الحاكم في المستدرك من حديث أنس (رض) قال قال رسول الله (ص) لفاطمة « مايمنعك أن تسمعي ماأوصيك به ؟ أن تقولي اذا أصبحت واذا أمسيت : ياحي ياقيوم برحمتك استغيث، أصلح شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين » وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين وأقره الحافظ الذهبي على ذلك .

والادعية باسماء الله تعالى نداء أو غير نداء كثيرة تراجع في كتاب الاذكار للنووي ، وكتاب الحصن الحصين لابن الجزري وغيرهما من كتب السنة .

وأسماء الله كثيرة وكلها حسنى بدلالة كل منها على منتهى كمال معناه وتفضيله على مايطلق منها على المخلوقين كالرحيم والحكيم والحفيظ والعليم

وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين وغيرهما قال قال رسول الله (ص)

« إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة » هذا لفظ البخاري في كتاب الشروط وكتاب التوحيد ومسلم في الذكر (قال مسلم) وزاد همام عن أبي هريرة عن النبي (ص) « إنه وتر يحب الوتر » وفي الرواية الاخرى له « إن لله تسعة وتسعين اسما من حفظها دخل الجنة وإن الله وتر يحب الوتر » (قال) وفي رواية ابن أبي عمر «من أحصاها» اه ورواه البخاري في كتاب الدعوات بلفظ « لله تعالى تسعة وتسعون اسما مائة الا واحدة من حفظها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر » وقوله إلا واحدة بالتأنيث وجهه ابن مالك بأنه أنث باعتبار التسمية أو الصفة أو الكلمة

ورواه الترمذي والحاكم من طريق الوليد بن مسلم وسردا فيه الاسماء التسعة والتسعين ورواه غيرهما أيضاً من طريقه وفي سرد الاسماء اختلاف في الروايات وقد اختلف المحدثون في سرد الاسماء هل هو مرفوع أو مدرج في الحديث من بعض الرواة ، والراجح أنه مدرج لا مرفوع ، ولم يخرجه الشيخان لتفرد الوليد به والاختلاف عليه فيه وتدليسه واحتمال الادراج كما قال الحافظ في الفتح ، وروي من طريق أخرى أضعف من هذه. وهذا سرد الاسماء في أمثل الطرق عن الوليد من جامع الترمذي كما قال الحافظ :

هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن ، الرحيم الملك القدوس السلام ، المؤمن المهيمن ، العزيز الجبار المتكبر ، الخالق الباري ، المصور ، الغفار القهار ، الوهاب الرزاق ، الفتاح العليم ، القابض الباسط ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، السميع البصير ، الحكم العدل ، اللطيف الخبير ، الحليم العظيم ، الغفور الشكور ، العلي الكبير ، الحفيظ المقيت ، الحسيب الجليل ، الكريم الرقيب المجيب ، الواسع الحكيم ، الودود المجيد ، الباعث الشهيد ، الحق الوكيل ، القوي المتين ، الولي الحميد ، المحصي المبدئ المعيد ، المحيي المميت ، الحي القيوم ، الواجد الماجد ، الواحد الصمد ، القادر المقتدر ، المقدم المؤخر ، الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، الوالي المتعالي ، البر التواب ، المنتقم العفو الرؤف ، مالك الملك ، ذو الجلال

والاكرام ، المقسط الجامع ، الغني المغني المانع ، الضار النافع ، النور الهادي ، البديع الوارث ، الرشيد الصبور »

أورد هذه الاسماء الحافظ ابن حجر في الفتح وذكر اختلاف الروايات فيها وانكار بعض كبار العلماء لرفعها كابن حزم والداودي والقاضي أبي بكر بن العربي، والاقوال في حصرها ومأخذها ثم قال :

«وإذا تقرر رجحان أن سرد الاسماء ليس مرفوعا فقد اعتنى جماعة بتتبعها من القرآن من غير تقييد بعدد فروينا في كتاب المائتين لابي عثمان الصابوني بسنده الى محمد بن يحيى الذهلي أنه استخرج الاسماء من القرآن ، وكذا أخرج أبو نعيم عن الطبراني عن أحمد بن عمر ، والخلال عن ابن أبي عمر ، وحدثنا محمد بن جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين : سألت أبا جعفر بن محمد الصادق عن الاسماء الحسنى فقال هي في القرآن ، وروينا في فوائد تمام من طريق أبي الطاهر بن السرح عن حبان بن نافع عن سفيان بن عيينة الحديث ، يعني حديث« إن لله تسعة وتسعين اسما » قال فوعدنا سفيان أن يخرجها لنا من القرآن فابطأ ، فاتينا أبا زيد فاخرجها لنا فعرضناها على سفيان فنظر فيها أربع مرات وقال · نعم هي هذه

« وهذا سياق ما ذكره جعفر وأبو زيد قالا: في الفاتحة خمسة : الله، رب، الرحمن الرحيم مالك ، وفي البقرة : محيط ، قدير ، عليم ، حكيم ، علي ، عظيم ، تواب ، بصير ، ولي ، واسع ، كاف ، رؤف ، بديع ، شاكر ، واحد ، سميع ، قابض ، باسط ، حي ، قيوم ، غني ، حميد ، غفور ، حليم . وزاد جعفر: إله قريب مجيب ، عزيز نصير ، قوي شديد، سريع، خبير ، قال وفي آل عمران :وهاب ، قائم ، زاد جعفر الصادق : باعث منعم متفضل ، وفي النساء : رقيب حسيب شهيد مقيت وكيل ، زاد جعفر علي كبير. وزاد سفيان :عفو. وفي الانعام: فاطر قاهر ، زاد جعفر: مميت غفور برهان : وزاد سفيان: لطيف خبير قادر ، وفي الأعراف: محي مميت. وفي الأنفال : نعم المولى ونعم النصير ، وفي هود : حفيظ مجيد ودود ، فعال لما يريد ، زاد سفيان قريب مجيب، وفي الرعد : كبير متعال، وفي ابراهيم: منان، زاد جعفر : صادق وارث ، وفي الحجر : خلاق ، وفي مريم: صادق وارث، زاد

جعفر : فرد ، وفي طه عند جعفر وحده : غفار ، وفي المؤمنين : كريم ، وفي النور: حق مبين ، زاد سفيان : نور ، وفي الفرقان : هاد ، وفي : سبأ فتاح وفي الزمر : عالم ، عند جعفر وحده وفي المؤمن : غافر قابل ذو الطول ، زاد سفيان: شديد، وزاد جعفر : رفيع ، وفي الذاريات : رزاق ذو القوة المتين ، بالتاء ، وفي الطور : بر ، وفي اقتربت: مقتدر. زاد جعفر: مليك ، وفي الرحمن، ذوالجلال والاكرام: زاد جعفر (رب المشرقين ورب المغربين) باق معين ، وفي الحديد : أول آخر ظاهر باطن وفي الحشر: قدوس سلام مؤمن مهيمن عزيز جبار متكبر خالق بارىء مصور ، زاد جعفر ، ملك ، وفي البروج : مبدىء معيد ، وفي الفجر : وتر . عند جعفر وحده ، وفي الاخلاص : أحد صمد . هذا آخر مارويناه عن جعفر وأبي زيد وتقرير سفيان من تتبع الاسماء من القرآن وفيها اختلاف شديد وتكرار وعدة أسماء لم ترد بلفظ الاسم وهي صادق منعم متفضل منان مبـديء معيد باعث قابض برهان معين مميت باق

«ووقفت في كتاب المقصد الاسني لابي عبد الله محمد بن ابراهيم الزاهد أنه تتبع الاسماء من القرآن فتأملته فوجدته كرر أسماء وذكر مما لم أره فيه بصيغة الاسم: الصادق والكاشف والعلام ، وذكر من المضاف الفالق من قوله (فالق الحب والنوى) وكان يلزمه أن يذكر القابل من قوله قابل التوب

«وقد تتبعت مابقي من الاسماء مما ورد في القرآن بصيغة الاسم مما لم يذكر في رواية الترمذي وهي الرب الاله المحيط ، القدير الكافي ، الشاكر الشديد ، القائم الحاكم ، الفاطر الغافر القاهر ، المولى النصير ، الغالب الخالق ، الرفيع المليك ، الكفيل الخلاق ـ الاكرم الاعلى، المبين ـ بالموحدة ، الحفي ـ بالحاء المهملة والفاء ـ القريب، الاحد الحافظ. فهذه سبعة وعشرون اسما إذا انضمت إلى الاسماء التي وقعت في رواية الترمذي مما وقعت في القرآن بصيغة الاسم تكمل بها التسعة والتسعون وكلها في القرآن لكن بعضها باضافة كالشديد (من شديد العقاب) والرفيع من (رفيع الدرجات والقائم من قوله (قائم على كل نفس بما كسبت) والفاطر من (فاطر السموات) والقاهر من (وهو القاهر فوق عباده) والمولى والنصير من (نعم المولى ونعم النصير) والعالم من (عالم

الغيب) والخالق من قوله (خالق كل شيء) والغافر من(غافر الذنب) والغالب من (والله غالب على أمره) والرفيع من (رفيع الدرجات) والحافظ من قوله (فالله خير حافظا) ومن قوله (وإناله لحافظون) وقد وقع نحوذلك من الاسماء التي في رواية الترمذي وهي المحيي من قوله (لمحيي الموتى) والمالك من قوله(مالك الملك) والنور من قوله (نور السموات والارض) والبديع من قوله(بديع السموات والارض) والجامع من قوله (جامع الناس) والحكم من قوله (أفغير الله أبتغي حكما) والوارث من قوله (ونحن الوارثون) والاسماء التي تقابل هذه مما وقع في رواية الترمذي مما لم تقع في القرآن بصيغة الاسم وهي سبعة وعشرون اسما : القابض الباسط، الخافض الرافع، المعز المذل ، العدل الجليل ، الباعث المحصي ، المبدىء المعيد المميت ، الواجد الماجد ، المقدم المؤخر ، الوالي ذو الجلال والاكرام ، المقسط المغني ، المانع الضار ، النافع الباقي ، الرشيد الصبور .

«فاذا اقتصر من رواية الترمذى على ماعدا هذه الاسماء وأبدلت بالسبعة والعشرين التى ذكرتها خرج من ذلك تسعة وتسعون اسما وكلها في القرآن واردة بصيغة الاسم ومواضعها كلها ظاهرة من القرآن إلا قوله « الحفيّ » فانه في سورة مريم في قول ابراهيم (سأستغفر لك ربي انه كان بي حفيا) وقل من نبه على ذلك

«ولا يبقى بعد ذلك إلا النظر في الاسماء المشتقة من صفة واحدة مثل ، القدير والمقتدر والقادر ، والغفور والغفار والغافر ،والعلي والاعلى والمتعال،والملك والمليك والمالك،والكريم والاكرم، والقاهر والقهار،والخالق والخلاق،والشاكر والشكور، والعالم والعليم ، فإما أن يقال لايمنع ذلك من عدها فان فيها التغاير في الجملة فان بعضها يزيد بخصوصية على الآخر ليست فيه ، وقد وقع الاتفاق على أن الرحمن الرحيم اسمان مع كونهما مشتقين من صفة واحدة، ولو منع من عد ذلك للزم أن لا يعد مايشترك الاسمان فيه مثلا من حيث المعنى مثل الخالق البارىء المصور لكنها عدت لانها ولو اشتركت في معنى الايجاد والاختراع فهي مغايرة من جهة أخرى وهي أن الخالق يفيد القدرة

على الايجاد [١] والبارىء يفيد الموجد لجوهر المخلوق، والمصور يفيد خالق الصورة في تلك الذات المخلوقة ، واذا كان ذلك لايمنع المغايرة لم يمتنع عدها اسماء مع ورودها والعلم عند الله تعالى وهذا سردها لتحفظ ولو كان في ذلك اعادة لكنه يغتفر لهذا القصد : الله الرحمن الرحيم ، الملك القدوس ، السلام المؤمن ، المهيمن العزيز ، الجبار المتكبر ، الخالق الباريء المصور ، الغفار القهار ، التواب الوهاب ، الخلاق الرزاق الفتاح ، العليم الحليم العظيم ، الواسع الحكيم ، الحي القيوم ، السميع البصير ، اللطيف الخبير ، العلي الكبير ، المحيط القدير ، المولى النصير ، الكريم الرقيب ، القريب المجيب ، الوكيل الحسيب ، الحفيظ المقيت ، الودود المجيد ، الوارث الشهيد ، الولي الحميد ، الحق المبين ، القوي المتين ، الغني المالك الشديد ، القادر المقتدر ، القاهر الكافي ، الشاكر المستعان ، الفاطر البديع الغافر ، الاول الآخر ، الظاهر الباطن ، الكفيل الغالب ، الحكم العالم الرفيع ، الحافظ المنتقم ، القائم المحيي ، الجامع المليك المتعالي ، النور الهادي ، الغفور الشكور ، العفو الرؤف ، الا كرم الاعلى ، البر الحفي ، الرب الاله ، الواحد الاحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .»

ثم قال الحافظ : وقد اختلف في هذا العدد هل المراد به حصر الاسماء الحسنى في هذه العدة أو أنها أكثر من ذلك ، ولكن اختصت هذه لأن من أحصاها دخل الجنة ، فذهب الجمهور إلى الثاني ، ونقل النووي اتفاق العلماء عليه ، فقال ليس في الحديث حصر أسماء الله تعالى ، وليس معناه انه ليس له اسم غير هذه التسعة والتسعين ، وانما مقصود الحديث ان هذه الاسماء من أحصاها دخل الجنة ، فالمراد الاخبار عن دخول الجنة باحصائها لا الاخبار بحصر الاسماء ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم في حديث ابن مسعود الذي أخرجه احمد وصححه ابن حبان « اسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، او أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك » وعند مالك عن كعب

(١) أصل معنى الخلق التقدير ، فالاولى أن يقال ان الخالق هو الموجد للاشياء بتقدير ونظام لاجزافا .

الاحبار في دعاء « واسألك باسمائك الحسنى ماعلمت منها ومالم اعلم » واورد الطبري عن قتادة نحوه من حديث عائشة انها دعت بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم بنحو ذلك ، وسيأتي في الكلام على الاسم الاعظم . وقال الخطابي : في هذا الحديث اثبات هذه الاسماء المخصوصة بهذا العدد ، وليس فيه منع ماعداها من الزيادة ، وانما التخصيص لكونها أكثر الاسماء وأبينها معاني . وخبر المبتدا في الحديث هو قوله من أحصاها لاقوله لله وهو كقولك لزيد ألف درهم اعدها للصدقة ، ولعمرو مائة ثوب من زاره ألبسه إياها . وقال القرطبي : في المبهم نحو ذلك ، ونقل ابن بطال عن القاضي ابي بكر بن الطيب قال : ليس في الحديث دليل على انه ليس لله من الاسماء إلا هذه العدة ، وانما معنى الحديث ان من أحصاها دخل الجنة . ويدل على عدم الحصر ان أكثرها صفات وصفات الله لاتتناهى ، وقيل ان المراد الدعاء بهذه الاسماء لأن الحديث مبني على قوله (ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها) فذكر النبي صلى الله عليه وسلم أنها تسعة وتسعون فيدعى بها ولا يدعى بغيرها حكاه ابن بطال عن المهلب . وفيه نظر لأنه ثبت في أخبار صحيحة الدعاء بكثير من الاسماء التي لم ترد في القرآن كما في حديث ابن عباس في قيام الليل «أنت المقدم وانت المؤخر» وغير ذلك . وقال الفخر الرازي لما كانت الاسماء من الصفات وهي اما ثبوتية حقيقية كالحي ، أو اضافية كالعظيم واما سلبية كالقدوس ، واما من حقيقية واضافية كالقدير ، أو من سلبية اضافية كالاول والآخر ، واما من حقيقية واضافية وسلبية كالملك والسلوب غير متناهية لأنه عالم بلا نهاية قادر على مالا نهاية له ، فلا يمتنع أن يكون له من(١) ذلك اسم فيلزم أن لانهاية لأسمائه ، وحكى القاضي ابو بكر بن العربي عن بعضهم أن لله ألف اسم . قال ابن العربي : وهذا قليل فيها ، ونقل الفخر الرازي عن بعضهم أن لله أربعة آلاف اسم استأثر بعلم ألف منها واعلم الملائكة بالبقية ، والانبياء بألفين منها ، وسائر الناس بألف . وهذه دعوى تحتاج إلى دليل (٢) واستدل بعضهم بهذا القول لأنه ثبت فى نفس حديث الباب انه وتر يحب الوتر .الرواية

(١) المقام يقتضي أن يقول من كل ذلك (٢) وكذا ماقبلها

التي سردت فيها الاسماء لم يعد فيها الوتر ، فدل على أن له اسماء أخر غير التسعة والتسعين ، وتعقبه من ذهب إلى الحصر في التسعة والتسعين كابن حزم بان الخبر الوارد لم يثبت رفعه ، وإنما هو مدرج كما تقدمت الاشارة اليه ، واستدل أيضاً على عدم الحصر بأنه مفهوم عدد وهو ضعيف وابن حزم ممن ذهب إلى الحصر فى العدد المذكور وهو لايقول بالمفهوم أصلا ، ولكنه احتج بالتأكيد فى قوله صلى الله عليه وسلم إلا واحداً قال : لأنه لو جاز أن يكون له اسم زائد على العدد المذكور لزم أن يكون له مائة اسم فيبطل قوله مائة إلا واحد ، وهذا الذي قاله ليس بحجة علي ماتقدم لأن الحصر المذكور عندهم باعتبار الوعد الحاصل لمن أحصاها ، فمن ادعى أن الوعد وقع لمن أحصى زائداً علي ذلك خطأ ، ولا يلزم من ذلك أن لايكون هناك اسم زائد ، واحتج بقوله تعالى (ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى اسمائه) وقد قال أهل التفسير من الالحاد فى اسمائه تسميته بما لم يرد فى الكتاب او السنة الصحيحة ، وقد ذكر منها فى آخر سورة الحشر عدة وختم ذلك بان قال له الاسماء الحسنى ، قال وما يتخيل من الزيادة فى العدد المذكورة لعله مكرر معنى وإن تغاير لفظاً ، كالغافر والغفار والغفور مثلا فيكون المعدود من ذلك واحداً فقط ، فاذا أعتبرت ذلك وجمعت الاسماء الواردة نصا فى القرآن وفى الصحيح من الحديث لم تزد علي العدد المذكور ، وقال غيره : المراد بالاسماء الحسنى فى قوله تعالى (ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها) ماجاء فى الحديث « ان لله تسعة وتسعين اسما » فان ثبت الخبر الوارد فى تعيينها وجب المصير اليه وإلا فليتبع من الكتاب العزيز والسنة الصحيحة ، فان التعريف فى الاسماء للعهد فلا بد من المعهود ، فانه أمر بالدعاء بها ونهى عن الدعاء بغيرها فلا بد من وجود المأمور به (قلت) والحوالة على الكتاب العزيز اقرب وقد حصل بحمد الله تتبعها كما قدمته ، وبقي أن يعمد الى ماتكرر لفظاً ومعنى من القرآن فيقتصر عليه ويتتبع من الاحاديث الصحيحة تكملة العدة المذكورة فهو نمط آخر من التتبع عسى الله ان يعين عليه بحوله وقوته آمين . اه (فتح) والمتبادر من الحديث أنه جملتان فالاسماء الشرعية في الاسلام ٩٩ وكان الحافظ اجدر العلماء بما رجاه في آخر كلامه

﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾ أي ادعوه بها أيها المؤمنون واتركوا واهملوا بلا مبالاة جميع الذين يلحدون في أسمائه بالميل بألفاظها أو معانيها عن منهج الحق الوسط ، إلى بنيات الطريق ومتفرق السبل ، من تحريف أو تأويل ، أو تشبيه أو تعطيل ، أو شرك أو تكذيب ، أو زيادة أو نقصان ، أو ماينافي وصفها بالحسنى وهو منتهى الكمال ، ذروا هؤلاء الملحدين ولا تبالوا بهم ، وكأن قائلا يقول ولماذا نذرهم في خوضهم يعمهون ؟ فأجاب تعالى ﴿ سيجزون ماكانوا يعملون ﴾ أي سيلقون جزاء عملهم عن قريب بعضهم في الدنيا قبل الآخرة ، وإنما يعمهم جميعهم عقاب الآخرة ، إلا من تاب منهم قبل الموت

وإننا نفصل هذا التفسير الاجمالي بعض التفصيل لفظاً ومعنى فنقول

« ذروا » أمر لم يرد في اللغة استعمال ماضيه ولا مصدره وهو بمعنى الترك والاهمال فهو بوزن : ودع الشيء يدعه ودعا ، ومعناه . إلا أن هذا قد استعمل ماضيه ومصدره قليلا ، وذاك لم يستعمل منه إلا المضارع « يذر » والامر « ذر » وتعدد ذكرهما في التنزيل . وزعم الراغب في مفرداته أن معناه قذف الشيء لقلة الاعتداد به ، وأورد من الشواهد عليه من القرآن ماهو ظاهر فيه ، وأشار إلى شاهد واحد يخالفه في الظاهر ووعد ببيان دخوله في موضع آخر ولعله يعني تفسيره للقرآن ، وهو قوله تعالى (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا) ولم يقل ويتركون ويخلفون ولعله أجاب عنه بأن المراد ويتركون أزواجا هن عرضة للاهمال وعدم الانفاق عليهن فليوصوا لهن وإلا كانوا هم المهملين لهن والقاذفين بهن في بيداء الاهمال والحاجة . ويرد عليه أيضاً قوله تعالى حكاية عن المخلفين في سورة الفتح (ذرونا نتبعكم) وكل ماعداه من استعمال القرآن لهذه الكلمة يظهر فيه معنى الترك لعدم المبالاة والاهتمام لا القذف كما عبر به ، ومنه قوله تعالى في ناقة صالح حكاية عن (فذروها تأكل في أرض الله) وأظهر منه قوله تعالى (ماكان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه * أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض * رب لاتذر على الارض * ويذرون وراءهم يوما ثقيلا * وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم * وتذرون الآخرة *

ثم ذرهم في خوضهم يلعبون * فذرهم وما يفترون * فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون) الخ

وأما الالحاد فمعناه العام الميل والازورار عن الوسط حساً أو معنى ، والاول الاصل فيه كأمثاله ، ومنه لحد القبر الميت وهو مايحفر في جانب القبر من جهة القبلة مائلا عن وسطه ويسوى ببناء ونحوه ويوضع فيه الميت ، ويقابله الضريح أو الشق وهو وضعه في وسط القبر (واللحد أفضل في الشرع) يقال لحد القبر وألحده ، ولحد الميت وألحد : أي جعل له لحدا . ومن كلامهم ألحد السهم الهدف :أي مال في أحد جانبيه ولم يصب وسطه ، ولما كان « خيار الامور أوساطها » كان الانحراف عن الوسط مذموماً ، ومنه أخذ التعبير عن الكفر والتعطيل والشك في الله تعالى بالالحاد وسمي ذووه الملاحدة والملحدون .

قال الراغب : اللحد حفرة مائلة عن الوسط وقد لحد القبر حفره وألحده وقد لحدت الميت وألحدته : جعلته في اللحد ، ويسمى اللحد ملحداً وهو اسم موضع من ألحدته . ولحد بلسانه إلى كذا مال ، قال تعالى (لسان الذي يَلحدون اليه) من لحد وقرىء (يُلحدون) من ألحد [١] وألحد فلان : مال عن الحق ، والالحاد ضربان : إلحاد إلى الشرك بالله ، وإلحاد إلى الشرك بالاسباب [٢] فالاول ينافي الايمان ويبطله ، والثاني يوهن عراه ولا يبطله . ومن هذا النحو قوله (ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) وقوله (الذين يلحدون في أسمائه) والالحاد في أسمائه على وجهين : أحدهما أن يوصف بما لا يصح وصفه به ، والثاني أن يتأول أوصافه على ما لا يليق به اه

(١) الآية رد على بعض كفار قريش الذين قالوا ان النبي (ص) يعلمه بشر يعنون روميا كان بمكة يصنع السيوف ، ورأوه (ص) يقف عنده يتأمل صنعته . قال تعالى (لسان الذين يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) فاستعمال الالحاد فيه على القاعدة لانهم ما لوا فيه إلى الباطل (٢) هو النظر الى الاسباب مع الغفلة عن كونها من خلق الله وتسخيره ويخشى أن ينسى الانسان ذلك أو يعتقد انها مؤثرة بذاتها لا بفعله تعالى وهو شرك جلي ، والظاهر ان الراغب أراد بهذا النوع المعاصي كالظلم في الحرم من قولهم : المعاصي بريد الكفر

أقول قرأ حمزة (تلحدون) بفتح الياء هنا وفي قوله تعالى في فصلت (إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا) من لحد والباقون بضمها من ألحد ومعناهما واحد كما علمت ، وأخطأ من زعم أن الاول لا يكاد يسمع .

وفي التفسير المأثور عن ابن عباس (رض) الالحاد التكذيب وقال في تفسيره هنا : اشتقوا العزى من العزيز واللات من الله . وعن الاعمش أنه قرأ « يلحدون » بفتح الياء من اللحد وفسره بقوله: يدخلون فيها ما ليس منها. وعن قتادة في تفسيره روايتان احداهما يشركون، والثانية : يكذبون في أسمائه. وملخص هذه الروايات أن من الالحاد في أسمائه تعالى التكذيب بها وانكار معانيها وتحريفها بالتأويل ونحوه ، وتسميته تعالى بما لم يسم به نفسه ، وبما لا يليق بكماله وجلاله ، واشراك غيره به فيها — وهذا قسمان اشراك في التسمية ، وهو يقصر على الاسماء الدالة على معنى الالوهية والربوبية وخصائصهما ، وإشراك في المعاني وهي قسمان : معان خاصة بالالوهية والربوبية ، ومعان غير خاصة في نفسها ، وانما الخاص به تعالى كمالها ، وهو معنى كونها الحسنى كما يدل عليه تقديم الخبر في قوله « ولله الأسماء الحسنى » أي له وحده دون غيره كما تقدم — فالالحاد في أسمائه الحسنى أقسام

(١) التغيير فيها لوضعها لغيره مما عبد من دونه كما ورد في « اللات والعزى » وتقدم قريباً ، قيل و « مناة » من اسمه تعالى المنان فان صح كان دليلا على أن العرب كانت قبل الاسلام تطلق هذا الاسم على الله تعالى وهو ليس في القرآن ولا في رواية الترمذي لأسمائه تعالى ، ولكن ورد في بعض الاحاديث واما لفظ « اللات » فالظاهر أنه أنثوا به اسم الجلالة « والعزى » مؤنث الاعز كالفضلى مؤنث الافضل والحسنى مؤنث الاحسن .

(٢) تسميته تعالى بما لم يسم به نفسه في كتابه أو ما صح من حديث رسوله (ص) قال بعضهم أو أجمع عليه المسلمون فانه كما قيل لا بدّ له من مستند منها ومنه « واجب الوجود والواجب » ـ لكن يحتاج هذا إلي قرينة لأن استعماله في كل واجب عقلي وكل واجب شرعي هو الاكثر — (قال) « والقديم، والصانع، وقيل هما مسموعان » وأقول إن الواجب وواجب الوجود والصانع من اصطلاح المتكلمين

لا يثبت كونها من اسماء الله تعالى بالاجماع الذي قالوا إنه لا بد له مستند من الكتاب أو السنة عند أهله ، والصانع مأخذ من قوله تعالى في سورة النمل (صنع الله الذي أتقن كل شيء) عند من يقول بجواز مثله وهو ضعيف ، ويقتضي أن يكون من أسمائه المتقن أيضاً . والتحقيق أن باب الاخبار عنه تعالى بأفعاله أوسع من باب اطلاق الاسماء عليه ، فان الاسم في الاصل مادل على الذات ولا يعتبر فيه اتصاف المسمى بمعنى الاسم إن كان له معنى غير العلمية كزيد وحارث وفضل ، وما أطلق لأجل معناه فقط يسمى وصفاً ونعتاً كالحارث يوصف به من يحرث الارض ، والظالم لمن يجور في فعله أو حكمه ، وقد يقصد بالاسم العلم الوصف مع العلمية من باب التفاؤل او المدح فان لمح عند الاطلاق أدخلوا عليه الالف واللام فقالوا الحارث والفضل والا فلا وهذا سماعي لا قياسي في العربية . ومنه أسماء الله المنقولة عن اسم فاعل كالخالق والرازق والمؤمن والمهيمن أو صفة مشبهة كالرحمن الرحيم ، أو مصدر كالسلام والعدل فكلها يراعى فيها المعنى الوصفي فتسمى صفات والدلالة على الذات المتصفة بمدلوله الوصفي فتسمى أسماء

ويقتصر فيها كلها على التوقيف وليس منه الواجب والصانع والموجود ولكن يجوز الاخبار بهذه الصفات عنه تعالى فيقال ان الله موجود وواجب وهو صانع كل شيء والمتقن لكل ماخلقه ، ولا يقال في الدعاء والنداء ياواجب أو ياصانع اغفر لي مثلا ، بهذا القدر يصحح كلام المتكلمين ، ولا يجوز أن يشتق له تعالى أسماء من كل ماأخبر به عن نفسه ولو بصيغة اسم الفاعل فلم يقل أحد باطلاق اسم الزارع عليه تعالى من قوله « أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون » ولا الماكر من قوله (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) ولا المخادع أو الخادع من (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) ولكن عد وامنها بعض الصفات المضافة كما تقدم في الشديد والرفيع والقائم والفاطر ، والفرق بين الفريقين ان هذه ذكرت في سياق الثناء على الله تعالى وأما تلك فذكرت في سياق الاحتجاج او من باب المشاكلة واسم الصفة لابد ان يدل على الكمال بمجرد إطلاقه وليس هذا منه

وقد اتفق أهل الحق على أن أسماءه وصفاته تعالى توقيفية ونصوا على اثبات

كل ماورد في الكتاب والاحاديث الصحيحة دعاء ووصفاً له ، وإخباراً عنه ، وعلى منع كل مادل على منعه ، ومنه كل مايسمى إلحاداً في أسمائه ، وكل ماأوهم نقصاً أو كان منافياً للكمال ولوصف الحسنى . وقد منع جمهور أهل السنة كل مالم يأذن به الشارع مطلقاً ، وجوز المعتزلة ماصح معناه ودل الدليل على اتصافه به ولم يوهم اطلاقه نقصاً ، والفلاسفة اوسع حرية في هذا الاطلاق ومنه قول ابن سينا:

مدبر الكل انت القصد والغرض وأنت عن كل ماقد فاتنا عوض
من كان في قلبه مثقال خردلة سوى جلالك فاعلم انه مرض

وقد عدّوا عليه من اساءة الأدب قوله لخالقه : فاعلم

ذكر ذلك السفاريني في شرح عقيدته الخلاف بين اهل السنة والمعتزلة ثم قال: ومال اليه ـ أي قول المعتزلة بالجواز ـ بعض الاشاعرة كالقاضي أبي بكر الباقلاني وتوقف أمام الحرمين الجويني، وفصل الغزالي فجوز اطلاق الصفة وهي مادل على معنى زائد على الذات ومنع اطلاق الاسم وهو مادل على نفس الذات، واحتج للقول المعتمد «انها توقيفية » بأنه لايجوز أن يسمي النبي (ص) بما ليس من أسمائه فالباري أولى . وتعلق المعتزلة بأن أهل كل لغة يسمونه سبحانه باسم مختص بلغتهم كقولهم (خداي) وشاع من غير نكير ، ورد بأنه لو ثبت لكان كافياً في الاذن الشرعي

ونقل الالوسي في تفسيره سياق السفاريني الى احتجاج المعتزلة بعدم انكار أحد من المسلمين على اطلاق الفرس (خدا) وزاد عليه اسم (تكري) وهو تركي وكافه نون في النطق وقال إنهم ادعوا أن هذا اجماع ، وانه لو ثبت لكان كافياً في الاذن الشرعي

وأقول ان لفظي خدا وتكري هما الاسم العلم لرب العالمين وخالق الخلق ، وذلك من قبيل الترجمة لاسم الجلالة (الله) وليس اطلاق اسم جديد عليه فيحتاج الى نص أودليل شرعي ، ومثله ترجمة مايمكن ترجمته من الاسماء والصفات وهو المشترك في اللغات ولاسيما الراقية منها كالفارسية فهو جائز بخلاف ترجمة مالا يوجد له مرادف في غير العربية، كالرحمن والقيوم — كما نعتقد — ومنع الغزالي في كتاب إلجام العوام ترجمة صفات الله في الكلام على المتشابهات منها لما فيها من

خطر مخالفة مراده تعالى وقال ان بعضها لا مرادف له في غير العربية ولبعضها مرادف في الحقيقة دون المجاز كاليد فهي تطلق في العربية على الجارحة من أعضاء الانسان ولها عدة معان مجازية كالنعمة والقدرة والتصرف مثلا وقد أضيفت اليه تعالى في مواضع قد تختلف معانيها كقوله تعالى (يد الله فوق أيديهم * بيده الملك * بيدك الخير * لما خلقت بيدى * بل يداه مبسوطتان) فلا يمكن وضع كلمة ترجمة يد بالفارسية لتفسير هذه الآيات كلها . اه بالمعنى ، وقد أوردت لفظه في تفسير الآيات المتشابهات من اول سورة آل عمران

ثم إن الالوسي نقل موافقة القاضي الباقلاني للمعتزلة وذكر أن إمام الحرمين اعترضه بانه قول بالقياس وهو حجة في العمليات دون العلميات والاسماء والصفات منها (قال) وروى بعضهم عنه التوقف . ثم ذكر قول الغزالى المتقدم وذكر أنه احتج له باباحة الصدق واستحبابه ، والصفة لتضمنها النسبة الخبرية راجعة اليه وهي لا تتوقف الا على تحقيق معناها ، بخلاف الاسم فانه لا يتضمن النسبة الخبرية وانه ليس الا للابوين أو من يجري مجراهما . (قال الالوسي) وأجيب بان ذلك حيث لا مانع من استعمال اللفظ الدال على تلك النسبة — والخطر قائم — وأين التراب من رب الارباب ؟ اه

وأقول مثال ماذكروه وصفه تعالى بالعقل بناء على أنه هو الكمال في غرائز البشر ولم يرد به الشرع . ويدل على منعه من جهة النظر أيضاً أن معنى العقل في اللغة العربية يدخل فيه مادلت عليه مادته وهي عقل البعير اي ربط ذراعه ووظيفه وشدهما بالعقال (وهو بالكسر الحبل الذى يعقل به البعير وغيره) لمنعه من المشي وذلك أن عقل الانسان من شأنه أن يعقله أي يمنعه مما لا ينبغي له ، وهذا المعنى لا يليق بالبارىء سبحانه وتعالى . فقاعدة الغزالي في الصفات تقتضي تحكيم رأي كل أحد في وصف خالقه بما يراه هو حسنا أو كمالا . وقد يكون في رأي غيره ممن هم أعلم منه غير حسن ولا كمل ، وهذا ظاهر عقلا لا نقلا فالحق أن لا يطلق عليه المؤمنون من الصفات الا ماأذن به في كتابه أو على لسان رسوله (ص)

(٣) ترك تسميته بما سمي به نفسه أو وصفه بما وصفها به ومثله أسناد ماأسنده

تعالى إلى نفسه من الافعال — بناء على أن ذلك لايليق به تعالى أو أنه يوهم نقصاً في حقه عز وجل ، كأن هؤلاء الملحدين أعلم منه تباركت اسماؤه وجلت صفاته وأعلم من رسوله صلواته عليه وسلامه بما يليق به وما لايليق ، وبما يوهم نقص التشبيه أو غير التشبيه ، كامتناع بعض المبتدعة من ذكر بعض الآيات والاحاديث في صفات الله تعالى التي زعموا وجوب تأويلها في عقائدهم ودروسهم وعدم ذكرها في مجالسهم الا مقرونة بالتأويل وادعاء أن معناها غير مراد . وقد غلا بعض الاشعرية في القرون الوسطى فى التأويل غلو الجهمية والمعتزلة أو أشد ، حتى إن منهم من أغروا السلاطين بسجن شيخ الاسلام ابن تيمية لذكره هذه الآيات والاحاديث فى كتبه ودروسه كصفة علو الله تعالى على خلقه ومنها اسم العلي والمتعال ، ومنها آيات الاستواء على العرش وأحاديث النزول من السماء ، وانتهى بهم الأمر إلى أن يطلبوا منه التوبة من ذكر هذه الآيات والأحاديث للعامة وان يتعهد بذلك كتابة (!) وهذا من أعاجيب تعصب المذاهب والغرور في تحكيم العقل أي الآراء النظرية في النصوص . وان ادعاء أن بعض كلام الله وحديث رسوله مما يجب كتمانه واستبدال نظريات بعض المتأخرين أمثالهم به لمطعن كبير في الدين ، وفي سلف الأمة الصالحين . وهذا النوع من الالحاد هو غير التأويل للاسماء والصفات وهو القسم الآتي من الالحاد فيها

(٤) تحريف أسمائه وصفاته تعالى عما وضعت له بضروب من التأويل ، تقتضي التشبيه اوالتعطيل ، فالمشبهة ذهبت إلى جعل الرب القدوس الذي ليس كمثله شيء كرجل من خلقه زاعمة انه وصف نفسه بصفات يدل مجموعها على ذلك كالسمع والبصر والكلام والوجه واليد والرجل والضحك والرضا والغضب . والجهمية ذهبت إلى تأويل جميع صفات الله تعالى حتى جعلته كالعدم . وأهل السنة والجماعة الذين قال الله تعالى فيهم (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) هم الذين جمعوا بين العقل والنقل في تنزيه الله تعالى عن مشابهة خلقه في ذاته وصفاته وأفعاله وبين وصفه بما وصف به نفسه وتسميته بما سمى به نفسه وإسناد ما أسنده الى نفسه من الأفعال كالاستواء على العرش والعلو على الخلق وغير ذلك . أثبتوا

له كل ذلك مع كمال التنزيه فقالوا : ان له رحمة ليست كرحمة المخلوق وغضباً لايشبه غضب المخلوق واستواء على عرشه ليس كاستواء الملوك المخلوقين على عروشهم ، وانه تعالى علمنا بما بيّن لنا من أسمائه وصفاته وأفعاله كل ما أوجب علينا أن نعلمه من عظمته وكماله وجلاله وجماله وأفعاله، ولا يمكن بيان ذلك لنا الا بالألفاظ التي نستعملها في شؤون أنفسنا ، وعلمنا مع ذلك انه ليس كمثله شيء ، فعصمنا بهذا التنزيه ، أن يضلنا الاشتراك اللفظي فنقع في التشبيه ،

(٥) اشراك غيره فيما هو خاص به من أسمائه باللفظ كاسم الجلالة (الله) والرحمن، ورب العالمين ــ وما في معناه من الاضافات كرب السماء والأرض ، والسموات والأرض ، أو رب الكعبة ، أو رب البيت - اذا أريد به الكعبة . قال تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت) وأما اذا أضيف لفظ رب الى بيت آخر من بيوت الناس في كلام يعينه فلا بأس ، كأن تقول وأنت في بيت أحد الناس وقد حضرت الصلاة : الامامة حق رب البيت ، أو ليؤمنا رب البيت . أو تقول لمن أراد أن يجلس في كرسي صاحب البيت أو على الحشية الخاصة به : هذه تكرمة رب البيت وقد نهينا عن الجلوس عليها بدون إذنه . وقالوا ان كلمة الرب معرفة خاصة به تعالى ويترجح هذا القول حيث لاقرينة تصرف اللفظ الى غيره

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في شرحه لحديث « لله تسعة وتسعون اسما » من الفتح بحث انعقاد اليمين بجميع هذه الاسماء عند الحنفية والمالكية وابن حزم مطلقاً ثم قال : والمعروف عند الشافعية والحنابلة وغيرهم من العلماء ان الأسماء ثلاثة أقسام (احدها) ما يختص بالله (تعالى) كالجلالة والرحمن ورب العالمين فهذا ينعقد اليمين به اذا اطلق ولو نوى به غيره (ثانيها) مايطلق عليه وعلى غيره ولكن الغالب اطلاقه عليه وان يقيد في حق غيره بضرب من التقييد كالجبار والحق والرب ونحوها ، فالحلف به يمين ، فان نوى به غير الله فليس بيمين (ثالثها) مايطلق فى حق الله وحق غيره على حد سواء كالحي والمؤمن فان نوى به غير الله او اطلق فليس بيمين ، وان نوى الله تعالى فوجهان صحح النووي انه يمين ، وكذا فى المحرر ، وخالف في الشرحين فصحح انه ليس بيمين ، واختلف الحنابلة فقال

القاضي ابو يعلى ليس بيمين ، وقال المجد ابن تيمية في المحرر انها يمين اه

(٦) اشراك غيره تعالى في معاني اسمائه الخاصة مع تغيير اللفظ كاطلاق لفظ (الوسيلة) على بعض الصالحين بمعنى انه يدعى من دون الله أو مع الله سبحانه لقضاء الحاجات ، ورفع الكربات ، وكفاية المهمات ، من غير طريق الأسباب والعادات ، كطلب ذلك من الأموات ، فلفظ الوسيلة هنا بمعنى (الاله) اذ معناه المعبود ، والدعاء مخ العبادة وأعظم اركانها كما بينا مراراً ، او (الرب) المدبر للأمر على الاطلاق — فهذا الحاد في معاني اسماء الله تعالى لا في الفاظها

(٧) اشراك غيره في كمال اسمائه التام الذي وصفت لأجله بالحسنى ، كمن يزعم او يعتقد ان لغيره تعالى رحمة كرحمته ورأفة او غير ذلك من معاني اسمائه كالمجيب مثلا ، قال تعالى (واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداعي اذا دعان) وقال تعالى حكاية عن رسوله صالح عليه السلام (ان ربي قريب مجيب) وان بعض الذين يدعون غير الله تعالى من الموتى يعتقدون انهم اقرب وأسرع في اجابتهم من الله تعالى فيجمعون بذلك بين الشركين : شرك دعاء غير الله مع اعتقاد اجابته للدعاء — والله يقول (٢٧: ٢٣ أمَّن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض؟ أإله مع الله ؟) أي لا يجيب المضطر ... الا الله فهو الاله المستحق للعبادة وحده والكفر به بتفضيل غيره عليه سبحانه في سرعة الاجابة . وقد سمعت امرأة مصرية تدعو وتستغيث في امرا همها : يامتبولي ! يا متبولي ... ! فقلت لها بعد ان هدأ روعها لماذا تدعين المتبولي ولا تدعين الله تعالى ؟ قالت : المتبولي مايستناش ـ اي لايمهل ولا يتأخر في إجابة من دعاه واستغاث به ـ ، وذكرت حكاية متناقلة بين أمثالها وهي : ان رجلا كان قد سرق سمكة فسيخ وأكلها ، فحلفه صاحبها يمينًا بالمتبولي فحلف به فقيأه الفسيخة ، ولمثل هذه الحكايات يتجرأ أمثال هؤلاء على الحلف بالله تعالى كذبا ولا يتجرؤن على الحلف بمعتقديهم وهذا نوع آخر من تفضيلهم اياهم على رب العالمين، وهو من إلحاد الشرك الصريح ويزعمون معه انهم من المسلمين ، ويتأول لهم علماء الجمود المضلين ، وينبزون من انكر عليهم بلقب وهابيين ، ويمقتون هذا اللقب وان صار بمعنى الموحدين:

(١٨١) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ
(١٨٢) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ
(١٨٣) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا؟ مَا بِصَاحِبِهِمْ
مِنْ جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٥) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ
اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ؟ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ؟ (١٨٦) مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا
هَادِيَ لَهُ ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

بعد الانتهاء من قصة موسى مع قومه التي ختمت بها قصص الرسل من هذه السورة بين الله تعالى لنا في بضع آيات منها شيئا من شؤون البشر العامة في الايمان والشرك والهدى والضلال ، ومالفساد الفطرة واهمال مواهبها من العقل والحواس من سوء المآل ، وارشدنا في آخرها الى مايصلح فساد الفطرة من دعائه باسمائه الحسنى ، والى ما للالحاد فيها من سوء الجزاء في العقبى . ثم قفى على هذه البضع الآيات ببضع آيات أخرى في شأن الامة المحمدية بدأها بوصف أمة الاجابة ، وثنى بذكر المكذبين من أمة الدعوة ، وثلث بتفنيد ماعرض لهم من الشبهة ، فالارشاد الى التفكر الموصل الى فقه الامور وما في حقائقها من العبرة ، وإلى النظر الهادي الى مآخذ البرهان والحجة ، لمعرفة صدق الرسول وما في القرآن من الهداية والعلم والحكمة ، فالموعظة الحسنة المؤثرة في النفس المستعدة بالتذكير بقرب الأجل ، والاحتياط للقاء الله عز وجل ، وختمها ببيان عدم الطمع في هداية من قضت سنة الله بضلاله ، وتركه يعمه في طغيانه . قال تعالى

﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس) وكلتاهما تفصيل لاجمال قوله تعالى (من يهد الله فهو المهتدي) الخ بدأه ببيان حال من أضلهم وهم الذين أهملوا

استعمال قلوبهم وأبصارهم واسماعهم في فقه آيات الله ، وأنهم كثيرون ، ولكنه ماسماهم امة ، لانهم لاتجمعهم في الضلال جامعة ، ولان الباطل كثير وسبله متفرقة. ثم ذكر هنا حال من هداهم الله تعالى وهو أنهم أمة أي جماعة كبيرة ، مؤلفة من شعوب وقبائل كثيرة ، يهدون بالحق وبه دون غيره يعدلون ، فسبيلهم واحدة لان الحق واحد لايتعدد ، وهؤلاء هم أمة محمد ، صلى الله عليه وآله وسلم

وقد تقدم تفسير هذا التركيب في قوله تعالى من هذه السورة (٧ : ١٥٨ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) فليراجع فهو قريب [١] فهاتان الآيتان متقابلتان لقرب الشبه بين أمة موسى وأمة محمد عليهما الصلاة والسلام كقرب الشبه بينهما وقد تقدم بيانه أيضاً [٢] وانما قال (وممن خلقنا) ألخ لمناسبة قوله في مقابله (ولقد ذرأنا) أي خلقنا ، فهنالك يقول ذرأنا لجهنم من صفتهم كذا ، وهنا يقول وممن خلقنا أي للجنة أمة صفتهم كذا وكذا .

اخرج ابن جرير وابن المنذر وابو الشيخ عن ابن جريج في قوله تعالى (وممن خلقنا امة يهدون بالحق) قال ذكر لنا أن النبي (ص) قال « هذه امتي ، بالحق يحكمون ويقضون ، ويأخذون ويعطون » واخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فيها قال : بلغنا ان نبي الله (ص) كان يقول اذا قرأها « هذه لكم وقد اعطي القوم بين ايديكم مثلها : (ومن قوم موسى امة يهدون بالحق وبه يعدلون) » واخرج ابو الشيخ عن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه قال : لتفترقن هذه الامة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار الافرقة : يقول الله (وممن خلقنا امة يهدون بالحق وبه يعدلون) فهذه هي التى تنجو من هذه الامة . اه ومعلوم ان الشق الاول من هذا الاثر مرفوع الى النبي (ص) فذكره علي رضي الله عنه ليفسر به الفرقة الناجية . وقد فسرها النبي (ص) في بعض الروايات بأنها هي التي تستقيم على ماكان عليه (ص) هو وأصحابه ، ومعنى التفسيرين واحد في مآلها والمراد منه امة الاجابة لدعوته (ص)

ثم ذكر حال المكذبين من أمة الدعوة فقال

---

(١) راجع ص ٣٦٣ ج ٩ تفسير (٢) راجع ص ٣٧ منه

﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ الاستدراج مأخوذ من الدرج مصدر درج أو من الدرجة وهي المرقاة ، يقال درج الكتابَ والثوب وأدرجه اذا طواه ويعبر بالدرج وهو المصدر عن المدروج أي المطوي ، ويقال درج فلان بمعنى مات ، وهذه آثار قوم درجوا أي انقرضوا ، جعله الراغب مجازاً بالاستعارة ، ولكن الزمخشري ذكره في حقيقة الاساس وقال واستدرجه : رقاه من درجة إلى درجة ، وقيل استدعى هلكته من درج اذا مات . وقال الراغب في سنستدرجهم من الآية : قيل معناه سنطويهم طي الكتاب عبارة عن إغفالهم نحو (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) وقيل معناه سنأخذهم درجة بعد درجة وذلك إدناؤهم من الشيء شيئا فشيئا كالمراقي والمنازل في ارتقائها ونزولها اه

أقول والمراد على هذا أنهم يسترسلون في غيهم وضلالهم ، من حيث لا يدرون شيئا من عاقبة أمرهم ، لجهلهم سنن الله تعالى في المنازعة بين الحق والباطل ، والمصارعة بين الضار والنافع ، وكون الحق يدمغ الباطل ، وما ينفع الناس يصرع ما يضرهم ، كما قال تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق) وقوله تعالى (فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض)

وأما المعنى على القول الاول فهو انذارهم بهذه العاقبة وهو أن الله تعالى سيأخذهم بالعقاب وينصر رسوله عليهم ولكن بالتدريج وكذلك كان

والجمع بين معنيي الاستدراج جائز هنا لظهوره فيمن نزل فيهم أولا وبالذات وهم كفار قريش الجاحدون والمبالغون في عداوة النبي (ص) فقد كانوا مغترين بكثرتهم وثروتهم لا يعتدون به ولا بغيره ممن آمن به أولا وأكثرهم من الضعفاء الفقراء فما زالوا يتدرجون في عداوتهم له وقتالهم اياه حتى أظهره الله تعالى عليهم في غزوة بدر فلم يعتبروا ، ثم زادهم غرورا ظهورهم في آخر معركة أحد وقال قائدهم أبو سفيان : يوم بيوم بدر — الى أن كان الفتح الاعظم فهذا كله استدراج بمعنى التنقل في مدارج الغرور وبمعنى أخذ الله إياهم واظهار رسوله (ص) ومن اتبعه عليهم من حيث لا يعلمون سنته تعالى في هذا ولا ذاك .

وقد فسر السدي الاستدراج بالمعنى الثاني فجعله خاصا بأخذهم في غزوة بدر

وفسر بعض المتقدمين الاستدراج بمعناه العام في اللغة كاغترار العصاة بالنعم التى تنسيهم التوبة وتلهيهم عن شكر المنعم . واقتصارهم عليه غفلة عن سبب النزول ومن أنزل فيهم . فهو كقوله تعالى في سورة القلم (٦٨ : ٤٤ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) وقفى عليها بمثل ماهنا — والسورتان مكيتان — وهو قوله تعالى :

﴿ وأملي لهم ان كيدي متين ﴾ الاملاء الامداد في الزمن والامهال والتأخير مشتق من الملوة والملاوة وهي الطائفة الطويلة من الزمن ، والملوان الليل والنهار قال الراغب وحقيقته تكررهما وامتدادهما ، يقال أملى له اذا أمهله طويلا . وأملى للبعير اذا أرخى له الزمام ووسع له في القيد ليتسع له المرعى . (واهجرني مليا) أي زمنا طويلا . والملا بالقصر المفازة الواسعة الممتدة ، وأما الاملاء للكاتب بمعنى تلقينه مايكتب فأصله أملل . فهو ليس من هذه المادة

والكيد كالمكر هو التدبير الذي يقصد به غير ظاهره بحيث ينخدع المكيد له بمظهره فلا يفطن له حتى ينتهي الي مايسوءه من مخبره وغايته ، وأكثره احتيال مذموم ، ومنه المحمود الذي يقصد به المصلحة ككيد يوسف لاخذ أخيه الشقيق من اخوته لأبيه برضاهم ومقتضى شريعتهم ، ولذلك اسند وأضيف الى الله عز وجل في مثل هذين الموضعين . والجمهور على أن اضافة الكيد والمكر أو إسنادهما اليه تعالى في القرآن من باب المشاكلة أو متأول بمعنى العقاب والجزاء ، ومابيناه أدق ، والمتين القوي الشديد

ومعنى الآية وأمهل هؤلاء المكذبين المستدرجين في العمر وأمد لهم في أسباب المعيشة والقدرة على الحرب بمقتضى سنتي في نظام الاجتماع للبشر كيداً لهم ومكراً بهم ، لاحباً فيهم ونصراً لهم ، (٢٣ : ٥٥ فذرهم في غمرتهم حتى حين ٥٦ أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين ٥٧ نسارع لهم في الخيرات؟ بل لا يشعرون) وان تسأل عن كيدي فهو قوي متين : قال النبي (ص) فيما رواه الشيخان وغيرهما من حديث أبي موسى « إن الله تعالى ليملي للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته » فمعنى هذا الاملاء أن سنة الله تعالى في الامم والافراد قد مضت بأن يكون عقابهم بمقتضى الاسباب التي قام بها نظام الخلق ، فالمخذول اذا بغى وظلم ولم ينزل به العقاب الالهي عقب ظلمه يزداد

بغيا وظلما ولا يحسب للعواقب حسابا فيسترسل في ظلمه الى أن تحيق به عاقبة ذلك بأخذ الحكام له أو بتورطه في مهلكة أخرى ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى

وقد نقلنا في أوائل هذا التفسير عن شيخنا الاستاذ الامام أن عذاب الامم في الدنيا مطرد ، وأما عذاب الافراد فقد يتخلف ويرجأ إلى الآخرة .وحققنا في مواضع أخرى أن عقاب الامم وبعض عقاب الافراد أثر طبيعي لذنوبهم فالامم والشعوب الباغية الظالمة لابد أن يزول سلطانها وتدول دولتها ، والسكير والزناء لا يسلمان من الامراض التي سببها السكر والزنا. والمقامر قلما يموت الافقيراً معدما الخ

وقد سردنا الشواهد في مواضع أخرى على عقاب الامم من الآيات التي صدقتها شواهد التاريخ الماضي والحاضر وستصدقها في المستقبل ، وما كانت الحرب الاخيرة العظمى الا بعض عقاب الله تعالى للذين صلوا نارها ببغيهم وفسوقهم ، وسيرون ما هو شر منها اذا لم يرجعوا عن غيهم

بعد هذا أرشدهم الى المخرج من اكبر شبهة لهم على الرسالة فقال عز وجل

﴿ أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ﴾ الجنة بالكسر النوع الخاص من الجنون فهو اسم هيئة ، واسم للجن أيضاً ولا يصح هنا الا بتقدير مضاف ، أي من مس جنة ـ وقد حكى الله تعالى عن قوم نوح أول رسله الى قوم مشركين انهم اتهموه بالجنون فقالوا بعد قولهم انه بشر مثلهم يريد أن يتفضل عليهم (٢٣:٢٥ ان هو الارجل به جنة فتربصوا به حتى حين) وفي سورة القمر عنهم(٥٣:٩ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر) وفي سورة الشعراء حكاية عن فرعون لعنه الله في موسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم (٢٦ : ٢٦ قال إن رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون) وقال تعالى عنه في سورة الذاريات(٥١ . ٣٩) فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون) ثم بين تعالى في هذه السورة أن جميع الكفار كانوا يقولون هذا القول في رسلهم فقال(٥٢) كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الاقالوا ساحر أو مجنون (٥٣) أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون)

وفي معنى آية الاعراف في خاتم النبيين والمرسلين عدة آيات (منها) قوله تعالى في كفار مكة من سورة المؤمنين (٢٣:٦٩) أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت

آباءهم الاولين؟ (٧٠) ام لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ؟ (٧١) أم يقولون به جنة ؟ بل جاءهم بالحق واكثرهم للحق كارهون) ومثله في سورة سبأ (٣٤: ٧) وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبؤكم اذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ؟ (٨) أفترى على الله كذبا أم به جنة ؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد) ثم قال فيها (٤٦) قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا : مابصاحبكم من جنة ، ان هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) وهذه شبيهة بآية الاعراف . وفي أول سورة الحجر (١٥ : ٦) وقالوا ياأيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون (٧) لو ماتأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين) وفي سورة الصافات (٣٧ : ٣٥) ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) وفي سورة الطور من الرد عليهم (٥٢ : ٢٧) فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) ومثله (٦٨ : ١) ن والقلم وما يسطرون (٢) ما أنت بنعمة ربك بمجنون) وفي آخرها (٥١) ويقولون انه لمجنون (٥٢) وما هو الا ذكر للعالمين)

وفي سورة التكوير بعد وصف ملك الوحي (٨١ : ٢٢ وماصاحبكم بمجنون)

روى أبناء حميد وجرير والمنذر وأبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال ذكر لنا أن نبي الله (ص) قام على الصفا فدعا قريشاً فخذاً فخذاً : يابني فلان يابني فلان يحذرهم بأس الله ووقائع الله إلى الصباح حتى قال قائلهم : ان صاحبكم هذا لمجنون : بات يهوّت (أي يصيح) حتى أصبح . فأنزل الله (أو لم يتفكروا مابصاحبهم من جنة)

قد علمنا بما سبق أن جميع الكفار كانوا يرمون رسلهم بالجنون لانهم ادعوا أن الله تعالى خصهم برسالته ووحيه على كونهم بشراً كغيرهم لا يمتازون على سائر الناس بما يفوق أفق الانسانية كما علم من نشأتهم ومعيشتهم ، ولانهم ادعوا مالا يعهد له عندهم نظير ، وليس مما تصل اليه عقولهم بالتفكير ، وهو أن الناس يبعثون بعد الموت والبلى خلقاً جديداً ، ولأن كلا منهم كان يدعي أن الناس مخطئون وهو المصيب ، وضالون وهو المهتدي ، وخاسرون وهو المفلح ، إلا من اتبعه منهم — ولأنهم نهوا عن عبادة الآلهة وأنكروا أنها بالدعاء والتعظيم والنذور ولها تقرب

المتوسلين بها الى الله زلفى وتشفع لهم عنده ، وأثبتوا ان الشفاعة لله وحده لا يشفع أحد عنده إلا باذنه ، من رضي له لمن رضي عنه ، فلا استقلال لهؤلاء الآلهة بالشفاعة عنده لمن توسل بهم - وشرعوا أنه لا يدعى مع الله أحد من ملك كريم ، ولا صالح عظيم ، فضلا عن صورهم وتماثيلهم المذكرة بهم ، وقبورهم المشرفة برفاتهم ، مع أن المذنب العاصي لا يليق به في رأي المشركين أن يدعو الله تعالى بغير واسطة ولا وسيلة لتدنسه بالذنوب فيحتاج الى من يقربه اليه من أولئك الطاهرين ، وشبهتهم أن الملوك العظام في الدنيا لا يدخل أحد عليهم الا باذن وزرائهم وحجابهم . ومن الغريب أن هذه الشبهة الشركية لا تزال متسلسلة في جميع المشركين ، حتى من أشرك من أهل الكتاب والمسلمين ، الذين خالفوا نصوص الكتب الالهية وسنة الرسل الى أعمال الوثنيين ؟ ولا يرون بأساً في تشبيه رب العالمين وأرحم الراحمين ، بالملوك الظالمين المستبدين ،

وأما معنى الآية فالاستفهام فيه للانكار والتوبيخ وهو داخل على فعل حذف للعلم به من سياق القول كما تقدم في أمثاله والتقدير : أكذبوا الرسول ولم يتفكروا في حاله من أول نشأته ، وفي حقيقة دعوته ، ودلائل رسالته ، وآيات وحدانية ربه ، وقدرته على إعادة الخلق كما بدأهم وحكمته في ذلك — فان حذف معمول التفكر يؤذن بعموم ما يدل عليه المقام مما تقتضيه الحال كما هي القاعدة المعروفة في علم المعاني —

ألا فليتفكروا فالمقام مقام تفكر وتأمل ، انهم ان تفكروا أوشك أن يعرفوا الحق ، وما الحق ؟ (ما بصاحبهم من جنة) جملة مستأنفة لبيان الحق في أمر الرسول نفيا واثباتا فهي نافية لما رموه به من الجنون كقوله تعالى (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) وقوله (وما صاحبكم بمجنون) ومثلها آية سبأ (ثم تتفكروا : ما بصاحبكم من جنة) ولذلك ختمتا بنفي كل صفة عنه في موضوع رسالته الا كونه منذراً مبلغاً عن ربه فقال هنا ﴿ ان هو الا نذير مبين ﴾ الانذار تعليم وارشاد مقترن بالتخويف من مخالفته أي ليس بمجنون : ليس الا منذراً ناصحاً ، ومبلغا عن الله مبينا ، ينذركم ما يحل بكم من عذاب الدنيا والآخرة اذا لم تستجيبوا له ، وقد دعاكم لما يحييكم في الدنيا بجمع كلمتكم ، واصلاح أفرادكم ومجتمعكم ، والسيادة على غيركم ، ويحييكم في الآخرة بلقاء ربكم . وقال هنالك (ان هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد)

وقد عبر عنه في هاتين الآيتين وفي آية التكوير بالصاحب لهم لتذكيرهم بأنه يعرفونه من أول نشأته الى أن تجاوز الاربعين من عمره ، فما عليهم إلا أن يتفكروا حق التفكر في سيرته الشريفة المعقولة ليعلموا أن الشذوذ ومجافاة المعقول ليس من دأبه ولا مما عهد عنه ، وكذلك الكذب كما قال بعض زعمائهم من أهل مكة : إن محمداً لم يكذب قط على أحد من الناس أفيكذب على الله ؟ وقد قال تعالى في أولئك الزعماء (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)

وقد بينا في تفسيرنا هذا شبهة المشركين على الرسل بكونهم بشراً مع الرد عليها (١) كذلك شبهاتهم على البعث مع الرد عليها (٢)

ولو تفكر مشركوا مكة في نشأة النبي « ص » وأخلاقه وآدابه وما جربوا من أمانته وصدقه من صبوته الى أن اكتهل ، ثم تفكروا فيما قام يدعوهم اليه من توحيد الله بعبادته وحده ومن كون حكمته في خلقه السموات والارض بالحق تقتضي تنزهه عن العبث (ومنه) أن يكون هذا الانسان السميع البصير العاقل البحاث عن حقائق الاشياء من ماض وحاضر وآت ، ينتهي وجوده بالعدم المحض الذي هو في نفسه محال ، ثم لو تفكروا في سوء حالهم الدينية (كعبادة الأصنام) والأدبية والمدنية والاجتماعية وما دعاهم اليه من اصلاحها كلها - لعلموا ان هذا الاصلاح الديني والادبي والاجتماعي والسياسي لا يثمر إلا السيادة والسعادة ، وانه لا يمكن أن يكون مصدره جنون من دعا اليه ، بل اذا كان فيه شيء غير معقول فهو انه لا يمكن أن يكون هذا العلم العالي والاصلاح الكامل من رأي محمد بن عبد الله الأمي الناشيء بين الأميين — ولا أن تكون هذه البلاغة المعجزة للبشر في أسلوب القرآن ونظمه من كسب محمد الذي بلغ الأربعين ولم ينظم قصيدة ولا ارتجل خطبة — وأن هذه الحجج البالغة على كل ما يدعو اليه القرآن، والبراهين العقلية والعلمية الكونية لا يتأتى أن تأتي فجأة من ذي عزلة لم يناظر ولم يفاخر ولم يجادل أحداً فيما مضى من عمره كمحمد بن عبد الله - فاذا تفكروا في هذا كله جزموا بأن هذا كله وحي من الله تعالى

(١) راجع ص ٣٠٩ و ٣١٥ من ج ٧ تفسير وص ٢٧٨ و ٤٩٥ ج ٨ منه
(٢) راجع ص ٣٥٧ ج ٧ تفسير وص ٢٨٣ و ٤٧٠ - ٤٨١ ج ٨ منه

ألقاه في روعه، ونزل من لدنه على روحه، وعلموا ان استبعادهم لذلك جهل منهم، فالله تعالى القادر على كل شيء يختص برحمته من يشاء. لهذا حثهم على التفكر في هذا المقام من هذه السورة وغيرها وذكر بعدها كونه نذيراً مبيناً، ونذيراً بين يدي عذاب شديد.

ثم انه دعاهم بعد هذا الى النظر والاستدلال العقلي فقال

﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء وان عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ﴾

الملكوت الملك العظيم كما تدل عليه صيغة (فعلوت) والمراد بملكوت السموات والارض مجموع العالم لأن الاستدلال به على قدرة الله تعالى وصفاته ووحدانيته أظهر ، فان العالم في جملته لا يمكن أن يكون قديما أزليا ولا نزاع بين علماء الكون في إمكانه ولا في حدوث كل شيء منه وانما يختلفون في مصدره وبم وجد. وهو لا يمكن أن يكون من عدم محض لأن العدم المحض لا حقيقة له في الخارج بل هو أمر فرضي فلا يعقل أن يصدر عنه وجود — ولا يمكن أن يكون بعضه قد أوجد البعض الآخر وهذا بديهي ولذلك لم يقل به أحد ، فلا بد اذاً من أن يكون صادراً عن وجود آخر غيره وهو الله واجب الوجود . ثم إن هذا النظام العام في الملكوت الاعظم يدل على أن مصدره واحد وتدبيره راجع الى علم عليم واحد وحكمة حكيم واحد ، سبحانه وتعالى (أم خلقوا من غير شيء؟ أم هم الخالقون؟ أم خلقوا السموات والارض؟ بل لا يوقنون)

ومعنى الآية أكذبوا الرسول المشهور بالامانة والصدق ، وقالوا : إنه لمجنون . وهو المعروف عندهم بالروية والعقل ، حتى جعلوا تحكيمه في تنازعهم على رفع الحجر الاسود هو الحكم الفصل – ولم ينظروا نظر تأمل واستدلال في مجموع ملكوت السموات والأرض على عظمته ، والنظام العامّ الذي قام بجملته ، وما خلق الله من شيء في كل منهما وإن دق وصغر ، وخفي واستتر ، ففي كل شيء من خلقه له آية تدل على علمه وقدرته ، ومشيئته وحكمته ، وفضله ورحمته ، وكونه لم يخلق شيئاً عبثاً ، ولا يترك الناس سدى ، تدل على ذلك بوجود ذلك الشيء بعد ان لم يكن ، وبترجيح كل وصف من أوصافه على ما يقابله ، وبما فيها من فائدة ومنفعة ، فكيف بالملكوت

الاعظم في جملته ، والنظام البديع الذي قام هو به؟ أكذبوا وقالوا ما قالوا ولم ينظروا في العالم الأكبر ، ولا في ذرات العالم الأصغر ، نظر تأمل واعتبار ، وتفكر واستدلال ، ولا فيما عسى أن يكون عليه الشأن من اقتراب أجلهم ، وقدومهم على الله تعالى بسوء عملهم ، فأجل الافراد مهما يطل فهو قصير ، ومهما يبعد أملهم فيه فهو في الحق الواقع قريب ، ولو نظروا في الملكوت أو في شيء ما منه ، واعتبروا بخلق الله تعالى إياه ، لاهتدوا بد لائله الى تصديق الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، ولو نظروا في توقع قرب أجلهم لاحتاطوا لأنفسهم ورأوا أن من العقل والروية أن يقبلوا إنذاره (ص) لهم ، لأن خيريته لهم في الدنيا ظاهرة لم يكونوا ينكرونها ، وأما خيريته في الآخرة فهي أعظم اذا صدق ما يقرره من أمر البعث والجزاء وهو صدق وحق ، وإن صح إنكارهم له — وما هو بصحيح — فلا ضرر عليهم من الاحتياط له ، كما قال الشاعر :

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تُبعثُ الاموات قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكما

فالمجنون اذاً من يترك ما فيه سعادة الدنيا باعترافه ، وسعادة الآخرة ولو على احتمال لا ضرر في تخلفه ، لا من يدعو الى السعادتين ، أو الى شيئين يجزمون بأن أحدهما نافع قطعاً والآخر إما نافع وإما غير ضار . هذا ما دعاهم اليه صاحبهم بكتاب ربهم مؤيداً بالبراهين العقلية والعلمية ، لعلهم يعقلون ويعلمون ،

﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ وردت هذه الآية بنصها في آخر سورة المرسلات (٧٧) التي أقيمت فيها الدلائل على البعث والجزاء وتهديد المكذبين بالويل والهلاك بعد تقرير كل نوع منها . وورد في الآية الخامسة من سورة الجاثية (٤٥) بعد التذكير بآيات الله للمؤمنين وآياته لقوم يوقنون وآياته لقوم يعقلون قوله : (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟) والحديث في الجميع كلام الله الذي هو القرآن ، يدل عليه هنا قوله تعالى في رسوله (إن هو إلا نذير مبين) وفي آية المرسلات القرينة في تهديد المكذبين له . وفي آية الجاثية افتتاح السورة بذكر الكتاب فيكون معناها فبأي حديث بعد كتاب

الله المذكور في الآية الاولى وآياته المشار اليها بعدها يؤمنون ؟

والمراد ان محمداً رسول الله (ص) نذير مبين عن الله تعالى وانما أنذر الناس بهذا الحديث أي القرآن كما أمره أن يقول (٦ : ١٩ وأوحي اليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) وهو أكمل كتب الله بيانا، وأقواها برهانا، وأقهرها سلطانا، فمن لم يؤمن به فلا مطمع في ايمانه بغيره، ومن لم يُرو ظماه الماء النقاخ المبرد فأي شيء يرويه ؟ ومن لم يبصر في نور النهار ففي أي نور يبصر ؟ ثم قال تعالى

﴿ من يضلل الله فلا هادي له ﴾ هذا استئناف بياني مقرر لجملة هذا السياق، ومعنى الجملة المراد أن الله تعالى قد جعل هذا القرآن أعظم أسباب الهداية وانما جعله هدى للمتقين، لا للجاحدين المعاندين، وجعل الرسول المبلغ له أكمل الرسل وأقواهم برهانا في حاله وعقله وأخلاقه وكونه أميا — فمن فقد الاستعداد للايمان والهدى بهذا الكتاب على ظهور آياته وقوة بيناته، وبهذا الرسول المتحدي به — فهو الذي أضله الله، أي قضت سنته في نظام خلق الانسان، وارتباط المسببات في أعماله بالأسباب، بأن يكون ضالا راسخاً في الضلال، واذا كان ضلاله بمقتضى سنن الله، فمن يهديه من بعد الله؟ ولا قدرة لأحد من خلقه على تغيير سننه ولا تبديلها

﴿ ويذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ أي وهو تعالى يترك هؤلاء الضالين في طغيانهم كالشيء اللقا الذى لا يبالى به حالة كونهم يعمهون فيه أي يترددون تردد الحيرة والغمة لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، وفي هذا بيان لسبب ضلالهم من كسبهم، وهو الطغيان أي تجاوز الحد في الباطل والشر من الكفر والظلم والفجور الذي ينتهي بالعمه وهو التردد في الحيرة، والارتكاس في الغمة . وقد روعي في إفراد الضمير أولا لفظ « من يضلل » وفي جمعه آخراً معناها وهو الجمع، ونظائره كثيرة

وقد علم مما قررناه أن اسناد الاضلال الى الله تعالى ليس معناه انه أجبرهم على الضلال إجباراً، وأعجزهم بقدرته عن الهدى فكان ضلالهم اضطراراً لا اختياراً، بل معناه أنهم مارسوا الكفر والضلال وأسرفوا فيهما حتى وصلوا الى حد العمه في الطغيان، ففقدوا بهذه الاعمال الاختيارية مايضادها من الهدى والايمان

وقرأ حمزة والكسائي يذرهم باسكان الراء فقيل هو للتخفيف وقيل للاعراب بالعطف على جواب الشرط وقرأه بعض القراء بالنون على الالتفات

﴿ تحقيق معنى الفكر والتفكر والنظر العقلي ﴾

من تحقيق المباحث اللفظية في الآيات كلمتا التفكر والنظر العقلي وقد عبرهنا بالتفكر في موضوع استبانة كون النبي (ص) ليس بمجنون كما زعم بعض غواتهم، وبالنظر في جملة الملكوت وجزئياته في موضوع الايمان بما جاءهم به الرسول من كتاب الله تعالى، فنبين ذلك بما تظهر به نكتة الفرق بين التعبيرين، ويتجلى تفسير الآيتين :

الفكر بالكسر عبارة عن التأمل في المعاني وتدبرها وهو اسم من فكر يفكر فكرا (من باب ضرب) وفكر بالتشديد وتفكر : ومثله الفكرة والفكرى. وفسروه أيضاً باعمال الخاطر وإجالته في الأمور ، وقال الراغب: الفكرة مطرقة للعلم الى المعلوم ، والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظر العقل . . . . ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب ولهذا روي « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله » إذ كان منزها أن يوصف بصورة . ثم أورد الشواهد من الآيات ومنها آية الاعراف هذه . ثم نقل عن بعض الادباء أن الفكر مقلوب عن الفرك لكنه يستعمل في المعاني وهو فرك الامور وبحثها طلباً للوصول الى حقيقتها اه

وقال علماء المنطق الفكر ترتيب أمور معلومة للتوصل إلى مجهول تصوري أو تصديقي ، وهو ينافي الحكم على ظواهر الأشياء أو فيها بادي الرأي من غير تمحيص ولا تقدير . واستعمال القرآن للتفكر والتفكير يدل على أنهما في العقليات المحضة أو في العقليات التي مبادئها حسيات، فالانسان يفكر فيما ينبغي أن يقوله في المواقف التي تميز الاقوال ، وفيما ينبغي أن يفعله حيث تنتقد الافعال ، ويفكر في أقوال الناس وأفعالهم ، ويفكر في الأمور الاجتماعية والأدبية والدينية والسياسية، ويفكر أيضا في المبصرات كالمسموعات والمعقولات ، وأكثر ما استعمله التنزيل في آيات الله ودلائل وجوده ووحدانيته وحكمته ورحمته

وأما النظر فقد قال الراغب في تعريفه : هو تقليب البصر أو البصيرة في ادراك الشيء ورؤيته ، وقد يراد به التأمل والفحص وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص وهو الروية، يقال نظرت فلم تنظر أي لم تتأمل ولم تترو . وقوله تعالى

(قل انظروا ماذا في السموات والارض) أي تأملوا. واستعمال النظر في البصر أكثر عند العامة، وفي البصيرة أكثر عند الخاصة. اه وقد اختلف علماء المعقول من المناطقة والمتكلمين في الفكر والنظر هل هما مترادفان أو أحدهما أخص من الآخر ولهم كلام طويل في ذلك أكثره اصطلاحي غير مقيد باستعمال اللغة.

واستعمال القرآن يدل على أن النظر العقلي مبدأ من مبادىء الفكر والتفكير، كما أن مبدأه هو النظر الحسي في الغالب كقوله تعالى (أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت؟ الخ وقوله (افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها) الخ ومنه النظر في عاقبة الامم برؤية آثارها في عدة آيات والشواهد على ذلك في التنزيل معروفة فلا نطيل في سردها. والآيات التي نحن بصدد تفسيرها جمعت بين المبدإ الحسي وهو ملكوت السموات والارض والمبدإ الفكري وهو اقتراب الاجل، وهما وما في معناهما يدلان على بناء الدين الاسلامي على قاعدتي النظر العقلي والتفكر اللذين يمتاز بهما الافراد والامم بعضها على بعض والله أعلم وأحكم

---

(١٨٧) يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا؟ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ. ثَقُلَتْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً. يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنها ارشاد الى النظر والتفكر في أمر الساعة التي ينتهي بها أجل جميع الناس، في إثر الارشاد الى النظر والتفكر في اقتراب أجل من كانوا فى عصر التنزيل وعهد نزول هذه السورة منهم، وبعبارة أخرى انها كلام فى الساعة العامة، بعد الكلام في الساعة الخاصة. قال تعالى:

﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ الساعة في اللغة جزء قليل غير معين من الزمان، وتسمى ساعة زمانية، ومنه قوله تعالى في أوائل هذه السورة (٣٣

لا يستأخرون عنه ساعة) وفي اصطلاح الفلكيين جزء من ٢٤ جزءاً متساوية من اليوم والليلة وهي تنقسم إلى ٦٠ دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية ـ وقد صار هذا التقسيم عرفا عاما في جميع البلاد الحضرية يضبط بآلة تسمى الساعة وكان معروفا عند العرب وثبت في الحديث « يوم الجمعة اثنتا عشرة ساعة » يعني نهارها .

وفي لسان العرب : الساعة جزء من أجزاء الليل والنهار والجمع ساعات وساع وجاءنا بعد سَوْع من الليل وبعد سُواع . أي بعد هدء منه ـ أو بعد ساعة. والساعة الوقت الحاضر . وقوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون) يعني بالساعة الوقت الذي تقوم فيه القيامة فلذلك ترك أن يعرف أي ساعة هي . فان سميت القيامة ساعة فعلى هذا . والساعة القيامة . وقال الزجاج اسم للوقت الذي تصعق فيه العباد والوقت الذي يبعثون فيه وتقوم فيه القيامة ، سميت ساعة لأنها تفجأ الناس فى ساعة فيموت الخلق كلهم عند الصيحة الأولى التي ذكرها الله عز وجل فقال (إن كانت إلا صيحة واحدة فاذا هم خامدون)

ثم ذكر أنه تكرر ذكرها في القرآن والحديث وانها تطلق في الاصل بمعنيين وهما ماذكرنا أولا من الساعة الزمانية والساعة الفلكية ، وقال في المعنى الأول : يقال جلست عندك ساعة من النهار أي وقتاً قليلا منه ثم استعير لاسم يوم القيامة . قال الزجاج : معنى الساعة في كل القرآن الوقت الذي تقوم فيه القيامة ـ يريد أنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم ، فلقلة الوقت الذي تقوم فيه سماها ساعة اه

أقول الصواب أنها استعملت في القرآن منكرة بمعنى الساعة الزمانية ومعرفة بالالف واللام العهدية بمعنى الساعة الشرعية، وهيْ ساعة خراب هذا العالم وموت أهل الارض، وجمع بينهما في قوله تعالى (٣٠ : ٥٤ و ٥٥ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون: مالبثوا غير ساعة) وقيل ان هذا القول هو وجه تسميتها بالساعة

والغالب في استعمال القرآن التعبير بيوم القيامة عن يوم البعث والحشر الذي يكون بعد الموت الذي يكون فيه الحساب ومايتلوه من الجزاء ـ والتعبير بالساعة عن الوقت الذي يموت فيه الاحياء في هذا العالم ويضطرب نظامه ويخرب بما يكون فيه من الاهوال يتلو بعضها بعضا ، فالساعة هي المبدأ والقيامة هي الغاية ففي الاولى

الموت والهلاك، وفي الآخرة البعث والجزاء . وبعض التعبيرات في كل منهما يحتمل حلوله محل الآخر في الغالب، وفي المعنى المشترك الذي يعم المبدأ والغاية. وحمل بعض المفسرين الآيات على القيامة الصغرى لكل فرد وهي ساعة موته ، وزاد بعضهم القيامة الوسطى وهي هلاك الجيل أو القرن، وفسروا بهحديث « اذا وسد الامر إلى غير أهله فانتظر الساعة » رواه البخاري من حديث أبي هريرة . وقد يراد بالساعة هنا ساعة زوال الدولة لان هـذا من شؤونها واستدلوا عليه بحديث « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته » رواه الديلمي عن أنس مرفوعا . وفي حديث عائشة من صحيح مسلم : كان الاعراب يسألون رسول الله (ص) عن الساعة فنظر الى أحدث انسان منهم فقال « إن يعش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم » ومثله من حديث أنس عنـده أيضاً وهو أصرح من حديث أبي هريرة لاضافة الساعة اليهم . قال الداوودي هذا الجواب من معاريض الكلام فانه لو قال لهم : لا أدري ــ ابتداء مع ماهم فيه من الجفاء وقبل تمكن الايمان في قلوبهم ــ لارتابوا فعدل الى اعلامهم بالوقت الذي ينقرضون هم فيه. وقال الكرماني ان هذا الجواب من الاسلوب الحكيم ، أي دعوا السؤال عن وقت القيامة الكبرى فانها لا يعلمها الا الله ، واسألوا عن الوقت الذي يقع فيه انقراض عصركم فهو أولى لكم لان معرفتكم تبعثكم على ملازمة العمل الصالح قبل فوته لأن أحدكم لا يدري من الذي يسبق الآخر اه وقال ابن الجوزي كان النبي (ص) يتكلم بأشياء على سبيل القياس وهو دليل معمول به فكأنه لما نزلت عليه الآيات في قرب الساعة كقوله تعالى (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وقوله (وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب) حمل ذلك على انها لا تزيد على مضي قرن واحد، ومن ثم قال في الدجال « إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه » فجوز خروج الدجال في حياته . قال وفيه وجه آخر — وذكر مثـل ماتقدم عن الداوودي ورجحه الحافظ في الفتح .

ومما اختلفوا في تفسير الساعة فيه بالوجوه الثلاثة المذكورة قوله تعالى (٦ :٣١ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على مافرطنا فيها) وقوله تعالى (٦ : ٤٠ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير

الله تدعون إن كنتم صادقين ؟) وراجع تفسيرهما في الجزء السابع .

وحيث يذكر قيام الساعة كآيات سورة الروم الثلاث (١٠ و ١٢ و ٥٣) وآية سورة غافر (٤٠: ٤٦ ويوم تقوم الساعة: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) فالمتبادر منه غايتها يوم البعث والحساب والجزاء - وحيث يذكر التكذيب بها أو المماراة فيها فالمراد المعنى العام لكل ما وعد الله به وأوعد من أمر مبدئها وغايتها

وحيث يذكر اقتراب الساعة أو مجيئها وإثباتها ولاسيما اذا قرن ببغتة فالمتبادر منه مبدأ القيامة وخراب العالم الذي نعيش فيه ومن هذا القبيل السؤال عنها فان السؤال يكون عن أول الأمر المنتظر في الغالب ومنه آية الاعراف التي نحن بصدد تفسيرها .

فقوله تعالى ﴿ أيان مرساها ﴾ معناه يسألونك أيها الرسول عن الساعة قائلين أيان مرساها أي متى إرساؤها وحصولها واستقرارها - أو يسألونك عنها من حيث زمن مجيئها وثبوتها بالوقوع والحصول . فأيان ظرف زمان ، ومرساها مصدر معناه إرساؤها يقال رسا الشيء يرسو ثبت ، وأرساه غيره ، ومنه ارساء السفينة وإيقافها بالمرساة التي تلقى في البحر فتمنعها من الجريان ، قال تعالى (باسم الله مجراها ومرساها) وقال (والجبال أرساها) .

وفي السؤال عن زمن وقوعها بحرف الارساء الدال على استقرار ما شأنه الحركة والجريان أو الميدان والاضطراب نكتة دقيقة هي في أعلى درج البلاغة . وهو أن قيام الساعة عبارة عن انتهاء أمر هذا العالم وانقضاء عمر هذه الارض التي تدور بمن فيها من العوالم المتحركة المضطربة ، فعبر بارسائها عن منتهى أمرها ووقوف سيرها ، والساعة زمن وهو أمر مقدر ، لا جسم سائر أو مسير ، وما يقع فيها ويعبر بها عنه فهو حركة اضطراب وزلزال ، لا رسوّ ولا إرساء ، وهو أمر مستقبل لا حاصل ، ومتوقع لا واقع ، وقوله تعالى (٥٢: ٦ ان عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع) معناه انه سيقع حتما ، ولذلك علق به بيان ما يقع فيه بقوله (٨ يوم تمور السماء موراً ٩ وتسير الجبال سيراً ١٠ ويل يومئذ للمكذبين) فلم يبق لأرسائها معنى الا ارساء حركة هذا العالم فيها . وانه لتعبير بليغ ، لم يعهد له في كلام

البلغاء نظير ، ولم أر أحدا نبه لهذا . وذكر الساعة أولا والاستفهام عن زمن وقوعها ثانياً على قاعدة تقديم الاهم وهو المقصود بالذات .

قيل ان المراد بالسائلين هنا اليهود سألوه عنها امتحانا قالوا إن كان نبياً فانه لايعين لها زمنا لان الله تعالى لم يطلع على ذلك أحداً من رسله ، وقيل قريش. ويرجحه أن السورة مكية ولم يكن في مكة أحد من اليهود ، وصيغة يسألونك المتبادر منها الحال لا الاستقبال البعيد . وفي آية الأحزاب(٣٣ : ٦٣ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا) وهذه مدنية .

قال ابن كثير بعد ترجيح كون السائلين من قريش: وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها وتكذيبا بوجودها كما قال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) وقال تعالى(٤٢ : ١٦ يستعجل بها الذين لايؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق*الا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد) وقوله (أيان مرساها) قال علي بن طلحه عن ابن عباس : منتهاها . أي متى محطها وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة اه

﴿ قل إنما علمها عند ربي ﴾ قل أيها النذير ان علم الساعة عند ربي وحده ليس عندي ولا عند غيري من الخلق شيء منه ـ وهذا مايدل عليه لفظ « انما » من الحصر كما قال تعالى في الآية التي فسر بها النبي ﷺ مفاتح الغيب(٣١ : ٣٤ ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافي الارحام) أي عنده لا عند أحد سواه ـ ومثله قوله تعالى (٤١ : ٤٦ اليه يرد علم الساعة وماتخرج من ثمرات من أكمامها) الآية أي يرد اليه وحده لا الى غيره. وأشبه الآيات الدالة على استئثار علم الله تعالى بالساعة بآية الاعراف آيتان آية الاحزاب (٣٣ : ٦٣) وذكرناها آنفا ـ وآية أواخر النازعات ومابعدها: (٧٩ : ٤٢ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ٤٣ فيم أنت من ذكراها ٤٤ الى ربك منتهاها ٤٥ انما أنت منذر من يخشاها ٤٦ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الاعشية أوضحاها) أي الى ربك وحده من دونك ودون سائر خلقه منتهى أمر الساعة الذي يسألونك عنه ، وانما أنت منذر لاهل الايمان الذين يخشونها ويستعدون لها لاتعدو وظيفة الانذار والتعليم والارشاد .

فهذه الآيات كآية الاعراف سؤالا وجوابا فالسؤال عن الساعة من حيث ارساؤها ومنتهى أمرها، والجواب رد ذلك الى الرب مضافا الى ضمير رسوله فما أخبره به في قوله (الى ربك منتهاها) هو ماأمره أن يجيب به في قوله (قل انما علمها عند ربي) وفيه ايذان بأن ماهو من شأن الرب، لايكون للعبد ، فهو تعالى قد رباه ليكون منذراً ومبشراً، لا للاخبار عن الغيوب باعيانها وأوقاتها، والانذار إنما يناط بالإعلام بالساعة وأهوالها، والنار وسلاسلها وأغلالها ، ولاتتم الفائدة منه الا بابهام وقتها، ليخشى أهل كل زمن اتيانها فيه . والاعلام بوقت اتيانها وتحديد تاريخها ينافي هذه الفائدة بل فيه مفاسد أخرى ، فلو قال الرسول للناس ان الساعة تأتي بعد ألفي سنة من يومنا هذا، مثلا ـ وألفا سنة في تاريخ العالم وآلاف السنين تعد أجلا قريبا ـ لرأى المكذبين يستهزؤن بهذا الخبر ويلحون في تكذيبه ، والمرتابين يزدادون ارتيابا ، حتى إذا ما قرب الاجل وقع المؤمنون في رعب عظيم ينغص عليهم حياتهم ، ويوقع الشلل في أعضائهم، والتشنج في أعصابهم، حتى لايستطيعون عملا، ولا يسيغون طعاما ولا شرابا ، ومنهم من يخرج من ماله وما يملكه ، من حيث يكون الكافرون آمنين، يسخرون من المؤمنين ، وقد وقع فى أوربة أن أخبر بعض رجال الكنيسة الذين كان يقلدهم الجمهور بان القيامة تقوم في سنة كذا فهلعت القلوب واختلت الاعمال، وأهمل أمر العيال، ووقف المصدقون مايملكون على الكنائس والاديار، ولم تهدأ الانفس ويثوب اليها رشدها الا بعد ظهور كذب النبأ بمجيء أجله دون وقوعه، فالحكمة البالغة اذاً في ابهام أمر الساعة العامة للعالم، وكذا الساعة الخاصة بأفراد الناس، أو بالأمم والاجيال، وجعلها من الغيب الذي استأثر الله تعالى به، على ماسنذكر في إيضاحه ، فلذلك قال بعد حصر أمرها في علمه .

﴿ لايجليها لوقتها إلا هو ﴾ هذا جواب عن طلب معرفة الوقت الذي يكون ارساؤها فيه، يقال جلا لي الامر وانجلى ، وجلاه فلان تجلية بمعنى كشفه وأظهره أتم الاظهار . واللام الداخلة على وقتها تسمى لام التوقيت كقولهم : وكتب هذا الكتاب لغرة المحرم أو لعشر مضين أو بقين من صفر . والمعنى لايكشف حجاب الخفاء عنها ولا يظهرها في وقتها المحدود عند الرب تعالى إلا هو ، فلا

وساطة بينه وبين عباده في اظهارها ولا الاعلام بميقاتها، وانما وساطة الرسل (عليهم السلام) في الانذار بها

وقفى على هذا الايئاس من علم أمرها والانباء بوقت وقوعها بقوله في تعظيم شأنها وسر إخفاء وقتها ﴿ثقلت في السموات والارض﴾ أي ثقل وقعها وعظم أمرها في السموات والارض على أهلها من الملائكة والانس والجن، لأن الله تعالى نبأهم بأهوالها، ولم يشعرهم بميقاتها، فهم يتوقعون أمراً عظيما لا يدرون متى يفجؤهم وقوعه.

روي عن قتادة في تفسير الجملة أنه قال: ثقل علمها على أهل السموات والارض أنهم لا يعلمون . وقال السدي : خفيت في السموات والارض فلا يعلم قيامها ملك مقرب ولا نبي مرسل . فهذان القولان تفسير لثقلها بفقد العلم بها فان المجهول ثقيل على النفس ولا سيما اذا كان عظيما ، وروي عن معمر وابن جريج أن ثقلها يكون يوم مجيئها (اذا الشمس كورت – و – اذا السماء انفطرت، واذا الكواكب انتثرت، – و – اذا رجت الارض رجا * وبست الجبال بساً * فكانت هباء منبثاً) وغير ذلك مما وصفه الله تعالى من أمر قيامها. وعن ابن عباس في ثقلها : ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة . ولكل رواية وجه صحيح ، والمتبادر من الجملة ما ذكرناه أولا وهو يتفق مع جملة هذه الروايات .

﴿ لا تأتيكم إلا بغتة ﴾ أي فجأة على حين غفلة ، من غير توقع ولا انتظار، ولا اشعار ولا انذار . وقد تكرر هذا القول في التنزيل ، وجاء في حديث أبي هريرة من الصحيحين واللفظ للبخاري « ولتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته[1] فلا يطعمه ، ولتقومنّ الساعة وهو يُليط حوضه فلا يسقي فيه[2] ولتقومنّ الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها » والمعنى أنها تبغت الناس وهم منهمكون في أمور معايشهم المعتادة . وأبلغ من هذا قوله تعالى في أول سورة الحج (٢٢:١ – ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ٢ يوم

«١» اللقحة الناقة ذات الدر «٢» يليط حوضه بالضم من ألاط : طلا حجارته بالطين أو غيره كالجص ليمسك الماء ويحفظه والثلاثي منه لاطه يلوطه

ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد)

فيجب على المؤمنين أن يخافوا ذلك اليوم ، وأن يحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى في أعمالهم فيلتزموا فيها الحق، ويتحروا الخير، ويتقوا الشرور والمعاصي، ولا يجعلوا حظهم من أمر الساعة الجدال ، والقيل والقال . وإننا نرى بعض المتأخرين قد شغلوا المسلمين عن ذلك ببحث افتجره بعض الغلاة وهو أن النبي ﷺ لم يبق طول عمره لا يعلم متى تقوم الساعة كما تدل عليه آيات القرآن الكثيرة بل أعلمه الله تعالى به ، بل زعم أنه أطلعه على كل ما في علمه ، فصار علمه كعلم ربه — أي صار نداً وشريكاً لله تعالى في صفة العلم المحيط بالغيوب التي لا نهاية لها ، ومن أصول التوحيد انه تعالى لا شريك له في ذاته ولا في صفة من صفاته ، والرسول عبد لله لا يعلم من الغيب إلا ما أوحاه الله تعالى إليه لأداء وظيفة التبليغ. وستزداد علما ببطلان هذا الغلو خاصة في تفسير الآية التالية . ولكن الغلاة يرون من التقصير في مدح النبي ﷺ وتعظيمه أن تكون صفاته دون صفات ربه وإلهه وخالق الخلق أجمعين . فكذبوا كلام الله تعالى وشبهوا به بعض عبيده إرضاء لغلوهم ، ومثل هذا الغلو لم يعرف عن أحد من سلف هذه الامة ، ولو أراد الله تعالى أن يعلم رسوله ﷺ بوقت قيام الساعة بعد كل ما أنزله عليه في اخفائها واستئثاره بعلمها لما أكده كل هذا التأكيد في هذه السورة وغيرها كقوله عز وجل :

﴿ يسألونك كأنك حفي عنها ﴾ الخ . يسألونك هذا السؤال كأنك حفي مبالغ في سؤال ربك عنها — أو يسألونك عنها كأنك حفي بهم — فعنها متعلق بيسألونك وجملة « كأنك حفي » معترضة . قال في مجاز الاساس : أحفى في السؤال : ألحف ... وهو حفي عن الامر : بليغ في السؤال عنه ، (كأنك حفي عنها) وقال الاعشى :

فان تسألي عني فيارب سائل حفي عن الاعشى به حيث أصعدا

واستحفيته عن كذا : استخبرته على وجه المبالغة . وتحفى بي فلان ، وحفي بي

حفاوة، اذا تلطف بك وبالغ في اكرامك اه . أقول ومنه قوله تعالى حكاية عن خليله ابراهيم عليه وعلى نبينا وآلها الصلاة والسلام (إنه كان بي حفياً)

وفي تفسير ابن كثير :عن العوفي عن ابن عباس (يسألونك كأنك حفي عنها) يقول : كأن بينك وبينهم مودة كأنك صديق لهم. قال ابن عباس : لما سأل الناس النبي ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم، فأوحى الله اليه انما علمها عنده استأثر به فلم يطلع عليه ملكا مقربا ولا رسولا . وقال قتادة : قالت قريش لمحمد ﷺ إن بيننا وبينك قرابة فأسر الينا متى الساعة؟ فقال الله عز وجل (يسألونك كانك حفي عنها) وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وأبي مالك والسدي ، هذا قول والصحيح عن مجاهد من رواية ابن أبي نجيح وغيره (يسألونك كأنك حفي عنها) قال: استحفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها. وكذا قال الضحاك عن ابن عباس (يسألونك كأنك حفي عنها) يقول كأنك عالم بها ، لست تعلمها ، قل انما علمها عند الله . وقال معمر عن بعضهم (كأنك حفي عنها) كأنك عالم بها ، وقد أخفى الله علمها عن خلقه، وقرأ (إن الله عنده علم الساعة) الآية. (قال ابن كثير) وهذا القول أرجح في المعنى من الاول والله أعلم ، ولهذا قال

﴿ قل انما علمها عند الله ﴾ هذا تكرار للجواب في إثر تكرار السؤال للمبالغة في التأكيد والايئاس من العلم بوقت مجيئها ، وتخطئة من يسألون عنه ، وقد ذكر هنا اسم الجلالة للاشعار بأنه مما استأثر بعلمه لذاته، كما أشعر ماقبله بأنه من شؤون ربوبيته ، وكل منهما مما يستحيل على خلقه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ اختصاص علمها به تعالى ولا حكمة ذلك، ولا أدب السؤال، ولا غير ذلك مما يتعلق بهذا المقام، وانما يعلم ذلك القليلون وهم المؤمنون بما جاء من أخبارها في كتاب الله تعالى وبالسماع من رسوله ﷺ كالذين حضروا تمثل جبريل عليه السلام بصفة رجل وسؤاله للنبي ﷺ عن الايمان والاسلام والاحسان ثم عن الساعة . وقول النبي ﷺ له عند السؤال الاخير « ما المسؤل عنها بأعلم من السائل » يعني اننا سواء في هذا الامر لا يعلم أحد منا متى تقوم الساعة

﴿ فصل فيما ورد في قرب الساعة واشراطها وماقيل في عمر الدنيا ﴾

انما ورد في بعض الاحاديث من قرب قيام الساعة حق مقتبس من القرآن كآية الاحزاب التي ذكرت قريبا ومثلها آية الشورى (٤٢: ١٧ وما يدريك لعل الساعة قريب) وفي معناهما قوله تعالى في سياق الرد على منكري البعث والاعادة (١٧:٥١ ويقولون متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريبا) وفي التعبير عن قربه بلعل وعسى ما يناسب عدم إطلاع الله لرسوله على وقته . ولا شك ان قرب ذلك اليوم الذي مقداره من مبدئه الى غايته خمسون الف سنة مناسب له، ولما تقدم من عمر الدنيا وما بقي منه ـ فالقرب والبعد من الامور النسبية والمراد قربها بالنسبة إلى مامضى من عمر الدنيا ولا يعلمه إلا الله تعالى

وماجاء في الآثار من أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة مأخوذ من الاسرائيليات التي كان يبثها زنادقة اليهود والفرس في المسلمين حتى رووه مرفوعا، وقد اغتر بها من لا ينظرون في نقد الروايات إلا من جهة أسانيدها حتى استنبط بعضهم منها ما بقي من عمر الدنيا . وللجلال السيوطي في هذا رسالة في ذلك قد هدمها عليه الزمان ، كما هدم أمثالها من التخرصات والاوهام ، وما بث في الاسرائيليات من الكيد للاسلام.

قال السيد الآلوسي في إثر تفسير الآية : « وانما أخفى سبحانه أمر الساعة لاقتضاء الحكمة التشريعية ذلك ، فانه أدعى إلى الطاعة ، وأزجر عن المعصية ، كما أن اخفاء الاجل الخاص للانسان كذلك . ولو قيل بأن الحكمة التكوينية تقتضي ذلك أيضاً لم يبعد . وظاهر الآيات (١) أنه عليه الصلاة والسلام لم يعلم وقت قيامها . نعم علم عليه الصلاة والسلام قربها على الاجمال ، وأخبر ﷺ به ، فقد أخرج الترمذي وصححه عن أنس مرفوعا « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى (٢) وفي الصحيحين عن ابن عمر مرفوعا أيضاً « انما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الامم من صلاة العصر إلى غروب الشمس » وجاء في غير ما أثر أن عمر الدنيا سبعة

(١) الصواب ان نصوص الآيات قطعية في ذلك (٢) الحديث رواه الشيخان أيضا وكأنه غفل عنه

آلاف سنة ، وأنه عليه الصلاة والسلام بعث في أواخر الالف السادسة ، ومعظم الملة في الالف السابعة .

« وأخرج الجلال السيوطي عدة أحاديث في أن عمر الدنيا سبعة الاف سنة وذكر أن مدة هذه الامة تزيد على ألف سنة ولا تبلغ الزيادة خمسمائة سنة ، واستدل على ذلك بأخبار وآثار ذكرها في رسالته المسماة (بالكشف ، عن مجاوزة هذه الأمة الألف) وسمى بعضهم لذلك هذه الالف الثانية بالمخضرمة لان نصفها دنيا ، ونصفها الآخر أخرى ، واذا لم يظهر المهدي على رأس المائة التي نحن فيها ينهدم جميع مابناه فيها كما لايخفى ، وكأني بك نراه منهدما اه

أقول نقلت هذا لأن كثيراً من الناس يرجعون إلى هذا التفسير في مثل هذا البحث فاحببت أن يعرف رأيه في المسألة من لم يطلع عليه ، وقد مضت المائة التي كان فيها مؤلفه برأسها وذنبها وهي المائة الثالثة عشرة من الهجرة ثم مضى زهاء نصف المائة التي بعدها وهي الرابعة عشرة إذ نكتب هذا البحث في سنة ١٣٤٥ ولم يظهر المهدي فانهدم ولله الحمد ما بناه السيوطي عفا الله تعالى عنه من الأوهام التي جمعها كحاطب ليل ، ولم يعرج في مباحثها على ما كتبه أستاذه الاكبر الحافظ ابن حجر في نقد رواياتها . ونحن نوردهنا ما كتبه الحافظ في شرحه لحديث « بعثت أنا والساعة كهاتين » من شرحه للبخاري ، ثم نقفي عليه بما يقتضيه المقام

بدأ الحافظ شرحه لمعنى الحديث باقوال محققي العلماء في معنى التشبيه بالاصبعين هل المراد به قرب أحداهما من الاخرى أم التفاوت الذي بينهما في الطول ؟ وما المراد به ؟ والارجح المختار عندنا من هذه الاقوال أنه ليس بينه ﷺ وبين الساعة نبي آخر فهي تليه . ثم قال « ولامعارضة بين هذا و بين قوله تعالي (إن الله عنده علم الساعة) ونحو ذلك لان علم قربها لايستلزم علم وقت مجيئها معينا ، وقيل معنى الحديث ليس بيني وبين القيامة شيء هي التي تليني كما تلي السبابه الوسطى. وعلى هذا فلا تنافي بين مادل عليه الحديث و بين قوله تعالى عن الساعة (لايعلمها إلا هو) اه

وأقول إن جملة (لايعلمها إلاهو) قد وردت في قوله تعالى من سورة الانعام (٦: ٢٩ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) لافي الساعة ولكن ورد في الصحيح تفسير

مفاتح الغيب بآية آخر سورة لقمان (٣١ : ٣٤ ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث) ألخ فعبارته صحيحة المعنى لا اللفظ ولعله أراد ذلك . ثم قال رحمه الله وأثابه :

« وقال القاضي عياض : حاول بعضهم في تأويله أن نسبة مابين الأصبعين كنسبة مابقي من الدنيا بالنسبة إلى مامضى وأن جملتها سبعة آلاف سنة واستند الى أخبار لا تصح ، وذكر ماأخرجه أبو داود في تأخير هذه الامة نصف يوم وفسره بخمسمائة سنة ، فيؤخذ من ذلك أن الذي بقي نصف سبع وهو قريب مما بين السبابة والوسطى في الطول (قال) وقد ظهر عدم صحة ذلك لوقوع خلافه ومجاوزة هذا المقدار ، ولو كان هذا ثابتاً لم يقع خلافه

« قلت : قد انضاف إلى ذلك منذ عهد عياض إلى هذا الحين ثلاثمائة سنة[1] وقال ابن العربي[2] قيل الوسطى تزيد على السبابة نصف سبعها وكذا الباقي من الدنيا من البعثة الى قيام الساعة ؟ قال وهذا بعيد ولا يعلم مقدار الدنيا فكيف يتحصل لنا نصف سبع أمد مجهول فالصواب الاعراض عن ذلك

« قلت : السابق الى ذلك أبو جعفر بن جرير الطبري فانه أورد في مقدمة تاريخه عن ابن عباس قال الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة وقد مضى ستة آلاف ومائة سنة ، وأورده من طريق يحيي بن يعقوب عن حماد بن أبي سليمان عن سعيد بن جبير عنه ويحيى هو أبو طالب القاضي الانصاري ، قال البخاري منكر الحديث. وشيخه هو فقيه الكوفة وفيه مقال ، ثم أورد الطبري عن كعب الاحبار قال الدنيا ستة آلاف سنة ، وعن وهب بن منبه مثله ، اراد أن الذي مضى منها خمسة آلاف وستمائة سنة ثم زيفهما ورجح ماجاء عن ابن عباس انها سبعة آلاف. ثم أورد حديث ابن عمر الذي في الصحيحين مرفوعا «ماأجلكم في أجل من كان قبلكم إلا من صلاة العصر الى مغرب الشمس » ومن طريق مغيرة بن حكيم عن ابن عمر بلفظ « مابقي لامتي من الدنيا الا كمقدار اذا صليت العصر » ومن طريق

«١» كان عياض في القرن السادس وابن حجر في القرن التاسع وقد تم كتابه فتح الباري سنة ٨٤٢ وكانت وفاة عياض سنة ٥٤٤ ووفاته هو ٨٥٢ رحمهما الله تعالى ورحمنا «٢» هو القاضي أبو بكر المفسر الفقيه المالكي لا ابن عربي الحاتمي الصوفي

مجاهد عن ابن عمر كنا عند النبي ﷺ والشمس على قعيقعان مرتفعة بعد العصر فقال « ما أعماركم في أعمار من مضى الا كما بقي من هذا النهار مما مضى منه » وهو عند أحمد بسند حسن ثم أورد حديث أنس: خطبنا رسول الله ﷺ يوما وقد كادت الشمس تغيب فذكر نحو الحديث الاول عن ابن عمر ومن حديث أبي سعيد بمعناه قال عند غروب الشمس « إن مثل ما بقي من الدنيا فيما مضى منها كبقية يومكم هذا فيما مضى منه » وحديث أبي سعيد أخرجه أيضاً وفيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف وحديث أنس أخرجه أيضاً وفيه موسى بن خلف[1] ثم جمع بينهما بما حاصله أنه حمل قوله « بعد صلاة العصر » على ما اذا صليت في وسط من وقتها .

« قلت : وهو بعيد من لفظ أنس وأبي سعيد . وحديث ابن عمر صحيح متفق عليه فالصواب الاعتماد عليه وله محملان أحدهما أن المراد بالتشبيه التقريب ولا يراد حقيقة المقدار فبه يجتمع مع حديث أنس وأبي سعيد على تقدير ثبوتهما والثاني أن يحمل على ظاهره فيقدم حديث ابن عمر لصحته ويكون فيه دلالة على أن مدة هذه الأمة قدر خمس النهار تقريبا . ثم أيد الطبري كلامه بحديث الباب وبحديث أبي ثعلبة الذي أخرجه أبوداود وصححه الحاكم ولفظه « والله لا تعجز هذه الامة من نصف يوم » ورواته ثقات ولكن رجح البخاري وقفه . وعند أبي داود أيضا من حديث سعد بن أبي وقاص بلفظ « إني لارجو أن لا تعجز أمتي عند ربهم أن يؤخرهم نصف يوم » قيل لسعد : كم نصف يوم؟ قال خمسمائة سنة ، ورواته موثقون الا أن فيها انقطاعا ، قال الطبري ونصف اليوم خمسمائة سنة أخذا من قوله تعالى (وإن يوما عند ربك كالف سنة) فاذا انضم الى قول ابن عباس إن الدنيا سبعة آلاف سنة توافقت الاخبار فيكون الماضي الى وقت الحديث المذكور ستة آلاف سنة وخمسمائة سنة تقريبا ، وقد أورد السهيلي كلام الطبري وأيده بما وقع عنده في حديث المستورد وأكد بحديث ابن زمل رفعه « الدنيا سبعة آلاف سنة بعثت في آخرها

« قلت وهذا الحديث إنما هو عن ابن زمل وسنده ضعيف جداً أخرجه ابن السكن في الصحابة وقال إسناده مجهول وليس بمعروف في الصحابة وابن قتيبة

« ١ » لم يقل الحافظ فيه شيئا وقد وثقه بعضهم وضعفه ابن معين وقال ابن حبان أكثر من المناكر

في غريب الحديث وذكره في الصحابة أيضا ابن منده وغيره وسماه بعضهم عبدالله وبعضهم الضحاك ، وقد أورده ابن الجوزي في الموضوعات ، وقال ابن الاثير ألفاظه مصنوعة . ثم بين السهيلي أنه ليس في حديث نصف يوم ماينفي الزيادة على الخمسمائة قال وقد جاء بيان ذلك فيما رواه جعفر بن عبدالواحد بلفظ «إن أحسنت أمتي فبقاؤها يوم من أيام الآخرة ـ وذلك الف سنة ـ وان أساءت فنصف يوم» قال وليس في قوله «بعثت أنا والساعة كهاتين» مايقطع به على صحة التأويل الماضي بل قد قيل في تأويله أنه ليس بينه وبين الساعة نبي مع التقريب لمجيئها ثم جوز أن يكون في عدد الحروف التي في أوائل السور مع حذف المكرر مايوافق حديث ابن زمل وذكر أن عدتها تسعمائة وثلاثة .

« قلت : وهومبني على طريقة المغاربة في عد الحروف وأما المشارقة فينقص العدد عندهم مائتين وعشرة ، فان السين عند المغاربة بثلثمائة والصاد بستين وأما المشارقه فالسين عندهم ستون والصاد تسعون فيكون المقدار عندهم ستمائة وثلاثة وتسعين وقد مضت وزيادة عليها مائة وخمس وأربعون سنة فالحمل على ذلك من هذه الحيثية باطل ، وقد ثبت عن ابن عباس الزجر عن عد أبي جاد والاشارة إلى أن ذلك من جملة السحر وليس ذلك ببعيد فانه لا أصل له في الشريعة وقد قال القاضي أبو بكر بن العربي وهو من مشايخ السهيلي في فوائد رحلته مانصه : ومن الباطل الحروف المقطعة في أوائل السور وقد تحصل لي فيها عشرون قولا وأزيد ولا أعرف أحداً يحكم عليها بعلم، ولا يصل فيها الى فهم، الا أني اقول ـ فذكر ماملخصه ـ انه لولا ان العرب كانوا يعرفون ان لها مدلولا متداولا بينهم لكانوا اول من انكر ذلك على النبي ﷺ بل تلا عليهم (ص وحم فصلت) وغيرهما فلم ينكروا ذلك بل صرحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة مع تشوفهم الى عثرة ، وحرصهم على زلة ، فدل على انه كان امراً معروفا بينهم لا انكار فيه(*)

«*» نقول لو كان لها مدلولا متداولا لعرف ونقل ويكفي في سبب سكوت العرب عن انكارها علمهم أنها ذكرت لفائدة كالتنبيه واستصغاء السمع وتوجيه الذهن لما يذكر بعدها كما شرحناه في أول تفسير هذه السورة . وأما عدد أبي جاد فليس بلغوي ولا شرعي بل هو اصطلاح يهودي

« قلت : وأما عد الحروف بخصوصه فانما جاء عن بعض اليهود كما حكاه ابن اسحق في السيرة النبوية عن ابي ياسر بن اخطب وغيره أنهم حملوا الحروف التي في أوائل السور على هذا الحساب واستقصروا المدة أول مانزل « الم والر » فانه نزل بعدذلك (المص وطسم) وغير ذلك قالوا ألبست علينا الامر . وعلى تقدير أن يكون ذلك مراداً فليحمل على جميع الحروف الواردة ولا يحذف المكرر فانه مامن حرف منها الا وله سر يخصه ، أو يقتصر على حذف المكرر من اسماء السور ولو تكررت الحروف فيها فان السور التي ابتدئت بذلك تسع وعشرون سورة وعدد حروف الجميع ثمانية وسبعون حرفا . وهي الم ستة حم ستة الر خمسة طسم اثنتان المص المر كهيعص طه طس يس ق ن فاذا حـذف ماكرر من السور وهي خمس من : الم وخمس من حم وأربع من الر وواحدة من طسم بقي أربع عشرة سورة عدد حروفها ثمانية وثلاثون حرفا فاذا حسب عددها بالجمل المغربي بلغت ألفين وستمائة وأربعـة وعشرين وأما بالجمل المشرقي فتبلغ ألفاً وسبعمائة وأربعة وخمسين . ولم أذكر ذلك ليعتمد عليـه إلا لابين أن الذي جنح اليه السهيلي لاينبغي الاعتماد عليه لشدة التخالف فيه

«وفي الجملة فأقوى مايعتمد في ذلك مادل عليه حديث ابن عمر الذي أشرت اليه قبل ، وقد أخرج معمر في الجامع عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال معمر وبلغني عن عكرمة في قوله تعالى (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) قال الدنيا من أولها إلى آخرها يوم مقداره خمسين ألف سنة لايدري كم مضى ولا كم بقي إلا الله تعالى ، وقد حمل بعض شراح المصابيح حديث « لن تعجز هذه الامة أن يؤخرها نصف يوم » على حال يوم القيامة وزيفه الطيبي فأصاب

وأما زيادة جعفر فهي موضوعة لأنها لاتعرف الامن جهته وهو مشهور بوضع الحديث وقد كذبه الائمة مع أنه لم يسق سنده بذلك فالعجب من السهيلي كيف سكت عنه مع معرفته بحاله والله المستعان .أهـ سياق الحافظ ابن حجر كله

﴿ يقول محمد رشيد ﴾ أما زيادة جعفر أي ابن عبد الواحد على حديث ابن زمل في عمر الدنيا فهو ماذكره من حديث اليوم ونصف اليوم في عمر هذه الامة

فهو موضوع جمع السيوطي بينه وبين حديث ابن زمل المجهول الذي حكم ابن الجوزي بوضعه ومزجها بسائر الروايات في المسألة ولا يصح منها شيء يؤيد مراده فكأن رسالته كلها مستنبطة من الخبرين الموضوعين أي المكذوبين على رسول الله (ص) فتأمل هداك الله تعالى ما يفعل الغرور بظواهر الروايات حتى في أنفس المشتغلين بالحديث كالسيوطي الذي عد من الحفاظ وأنكر ذلك زميله السخاوي وكلاهما من تلاميذ الحافظ ابن حجر

وقد علم مما ذكره الحافظ هنا أن بطلي الاسرائيليات وينبوعي الخرافات كعب الاحبار ووهب بن منبه قد بثا في هذه الامة خرافة تحديد عمر الدنيا وليس أصله من مخترعاتهما فهو موجود في كتب اليهود حتى فيما يسمونه التوراة ولكنه فيها سبعة آلاف فجعلاه ستة آلاف غشا للمسلمين ، وما يدرينا أن كل تلك الروايات أو الموقوفة منها ترجع اليهما ، فان الصحابة (رض) لم يكونوا يذكرون ما يسمع بعضهم من بعض ومن التابعين على سبيل الرواية والنقل بل يذكرونه بالمناسبات من غير عزو غالبا ، وكثير من التابعين كذلك بل أكثر ماروي عن أبي هريرة من الاحاديث المرفوعة لم يسمعه منه (ص) ولذلك روي أكثره عنه بالعنعنة أو بقوله قال رسول الله ﷺ وأقله بلفظ سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا ، وقد روى عن بعض الصحابة وعن بعض التابعين، وثبت أنه روى عن كعب الاحبار. ومن هنا نجزم بأن موقوفات الصحابة التي لا مجال فيها للاجتهاد والرأي لا يكون لها قوة المرفوع كما قال المحدثون الا اذا كانت ليست من قبيل الاسرائيليات

وقد تكلم في مسألة قرب الساعة بعد السيوطي كثيرون ولبعضهم فيها مصنفات كبهجة الناظرين والاشاعة ومنهم العلامة السفاريني في كتبه والسيد ابن الامير اليمني والسيد أبو الطيب صديق حسن خان في كتبه ومنها كتاب (الاذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة) وكان معاصراً للسيد محمود الآلوسي صاحب تفسير (روح المعاني) وقد نقل عن ابن الامير وعن الحافظ ابن حجر . وقد لخص ابن الامير كلام ابن جرير وما أورده عليه ابن حجر ، ثم أورد خلاصة كلام السيوطي وزده وذكر أن الحق الواقع يخالفه ـ وهو ما أشار اليه الآلوسي بعده اشارة ـ وهاك ما نقله

عنه صاحب الاذاعة السيد أبو الطيب صديق حسن خان المعاصر للآلوسي في هذا عقب مانقله من تعقيب الحافظ على ابن جرير قال :

(قلت) لما تقارب انخرام القرن التاسع ذكر الحافظ السيوطي أنه وصل اليه رجل في سنة ثمان وتسعين وثمانمائة في شهر ربيع الاول ومعه ورقة حاصل مافيها الاعتماد على حديث أنه لا يلبث النبي ﷺ في قبره ألف سنة وأنه أفتى بعض العلماء اعتماداً على هذا الحديث بأن في المائة العاشرة خروج المهدي والدجال ونزول عيسى وسائر الآيات من أشراط الساعة ، ثم قال السيوطي : على أن هذا الحديث باطل، وأطال الكلام في صدر رسالته التي سماها (الكشف في مجاوزة هذه الامة الالف) ثم ذكر أن الذي دلت عليه الآثار أن هذه الامة تزيد مدة بقائها في الدنيا على ألف سنة ، وأنها لاتبلغ الزيادة خمسمائة سنة ، ثم اعتمد ماذكره ابن جرير أن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، قال وذلك لانه ورد من طرق أن مدة الدنيا من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة سبعة آلاف سنة ، وأن النبي ﷺ بعث في آخر الالف السادس وساق ماقدمناه من أدلة ابن جرير ، بل قال وصحح ابن جرير هذا الاصل وعقده بابا انتهى

«قال السيد الامير (قلت) وما كان للسيوطي أن يعرض عن تعقبات الحافظ ابن حجر ، بل كان يتعين عليه ذكرها واقرارها أو ردها ، فان تركه لها يوهم الناظر في كلامه وسكوته على تصحيح ابن جرير ليس كذلك كما عرفت [1]

«ثم استند السيوطي في جزمه ببقاء الامة بعد الالف أقل من خمسمائة سنة إلى آثار ذكرها منها ماأخرجه ابن أبي شيبة عن ابن عمر رضي الله عنه قال : يبقى الناس بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة، وإلى أنه يلبث عيسى عليه السلام أربعين سنة بعد قتله الدجال ثم يستخلف رجل من تميم يبقى ثلاث سنين وإلى أنه يبقى الناس بعد ارسال الله ريحاً تقبض روح كل مؤمن مائة سنة لا يعرفون

«١» لابد أن يكون قد سقط من هذا النقل شيء والمعنى ان هذا الترك والسكوت يوهم الناظر فيهما أن نقد الحافظ الكلام ابن جرير في غير محله والامر ليس كذلك

دينًا من الاديان ، وإلى أن بين النفختين أربعين عاما ، وإلى أنه ينزل عيسى على رأس مائة سنة، فهذه مائةسنة وثلاث وستون سنة ، ونحن الآن في القرن الثاني عشر ويضاف اليـه مائتان وثلاث وستون سنة فيكون الجميع ١٤٦٠ وعلى قوله إنه لا يبلغ خمسمائة سنة بعد الالف يكون منتهى بقاء الامة بعد الالف ٤٦٣ سنة ويتخرج منـه أن خروج الدجال أعاذنا الله من فتنته قبل انخرام هذه المائة التي نحن فيها وهي المائة الثانية عشرة من الهجرة النبوية انتهى وقد توفي ابن الامير سنة ١١٨٢

قال صاحب الاذاعة : « أقول : وقد مضى الى الآن على الالف نحو من ثلاثمائة سنة ولم يظهر المهدي ولم ينزل عيسى ولم يخرج الدجال فدل على أن هذا الحساب ليس بصحيح

« ثم قال السيد العلامة (قلت) وقد أخرج مسلم والحاكم عن ابن عمر مرفوعا « يخرج الدجال فيمكث في أمتي أربعين » انتهى ، هكذا لم يتميز العدد بشيء لا بالايام ، ولا بالشهور ، ولا بالسنين ، فلو كانت سنين لكان ظهوره من رأس ستين من هذا القرن ، إلا أنه قد ثبت عند أحمـد وابن خزيمة وأبي يعلى والحاكم تعيين الاربعين بليلة فهي أربعون يوما، وقال « يوم منها كالسنة ، ويوم كالشهر ، ويوم كالجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم » وعلى هذا يكون خروجه في سنة تسع وتسعين من هذا القرن الذي نحن فيه ، وانما قلنا ذلك ليتم نزول عيسى في رأسها ويبقى عيسى من القرن الثالث عشر أربعين سنة وخليفته ثلاث سنين ، ثم تطلع الشمس من مغربها ويبقى الناس مائة وعشرين بعد طلوعها ، ويحتمل أن المائة التي يبقى الناس فيها لا يعرفون دينا هي من هذه المائة والعشرين . هذا خلاصة كلام السيوطي في رسالة الكشف وفيه ماعرفت ، واستدل على ماذكره بآثار عن السلف كأنه يقول انها لاتقال من قبل الرأي فلها حكم الرفع

(ثم قال) « واذا أحطت علمًا بجميع ماسقناه علمت بأن القول بتعيين مدة الدنيا من أولها إلى آخرها بأنه سبعة آلاف سنة لم يثبت فيه نص يعتمد عليه وغاية مافيـه آثار عن السلف وإن كانت لاتقال إلا عن توقيف فلعلها مأخوذة عن أهل الكتاب وفي أسانيدها مقال وقد علم تغييرهم لما لديهم عن الله تعالى وعن رسوله وأهـل

الكتاب هم القائلون (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) ونقل عنهم المفسرون أنهم قالوا إن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وأنهم يعذبون بكل ألف عام يوماً من هذه الايام ، فانه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والواحدي عن ابن عباس أن يهوداً كانوا يقولون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وانما نعذب بكل ألف سنة يوماً واحداً من أيام الدنيا فى النار ، وانما هي سبعة أيام ثم ينقطع العذاب فأنزل الله تعالى (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة — إلى قوله تعالى — هم فيها خالدون) انتهى وأكذبهم الله فيما قالوه

« ولعل هذ الذي نقله عن السلف من الآثار التى سقناها وساقها ابن جرير والسيوطي فى رسالة الكشف مأخوذة من أهل الكتاب إذ لم يثبت بنص نبوي عنه ﷺ بأن مدة الدنيا كذا على أن تلك الآثار القاضية بأن مدتها سبعة آلاف سنة معارضة لما أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد وعكرمة فى قوله تعالى (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) قالا هي الدنيا أولها إلى آخرها يوم مقداره خمسون ألف سنة يوم القيامة انتهى . فهذه الآثار متعارضة كما ترى ، وانما ثبت عنه ﷺ أن بعثته من أي قيام الساعة انتهى كلام السيد العلامة محمد بن اسماعيل الامير رحمه الله

(قال صاحب الاذاعة) « وقد قال الشيخ مرعي في بهجة الناظرين بعد ذكر قول السيوطي في رسالة الكشف ما نصه : وهذا مردود لان كل من يتكلم بشيء من ذلك فهو ظن وحسبان لا يقوم عليه برهان انتهى .

« وقال فى الاشاعة[1] بعد ذكر قول السيوطي : الذي فهم من الاحاديث أن المهدي يمكث في الارض أربعين سنة وأن عيسى يمكث بعد الدجال أربعين سنة كما رواه الحاكم عن ابن مسعود فانه ظاهر في الاربعين بعد الدجال وان بعد عيسى يتولى أمراء منهم القحطاني يتولى احدى وعشرين سنة وليفرض لبقيتهم الى طلوع الشمس من المغرب عشرون سنة ايضا ان لم يكن اكثر فهذه مائة وعشرون سنة ومر ان الدجال يمكث اربعين فان لم تكن سنين فلا اقل من مقدار سنتين لان أيامه طوال ، وان بعد طلوع الشمس من مغربها يمكث الناس مائة وعشرين سنة

(١) صاحب الاشاعة السيد محمد البرزنجي المدني

وفي رواية أن الشرار بعد الخيار عشرون ومائة سنة وورد أيضا ان المؤمنين يتمتعون بعد طلوعها اربعين سنة ثم يسرع فيهم الموت فهذه ثلثمائة وعشرون سنة وقد مضى بعد الالف قريب من ثمانين ، فهذه اربعمائة والى تمام هذه المائة تبلغ اربعمائة وثلاثين. وقدمر عن السيوطي انها لا تبلغ خمسمائة بل أخذ بعضهم من قوله تعالى (فهل ينظرون إلا الساعة ان تاتيهم بغتة) وقوله (لا تأتيكم الا بغتة) ان الساعة تقوم سنة ١٤٠٧ فان عدد حروف بغتة ١٤٠٧ والعلم عند الله ، فيحتمل خروج المهدي على رأس هذه المائة ويحتمل ان يتأخر للمائة الثانية ، ولا يفوتها قطعا ، واذا تأخر فلا بد ان يبعث الله على راس هذه المائة من يجدد للامة أمر دينها كما ورد في حديث مشهور. وهذه كلها مظنونات وردبها آحاد الاخبار بعضها صحاح وبعضها حسان وبعضها ضعاف مع شواهد وبعضها بغير شواهد ، وغاية ما ثبت بالاخبار الصحيحة الكثيرة الشهيرة التي بلغت التواتر المعنوي وجود الآيات العظام التي أولها خروج المهدي وأنه يأتي في آخر الزمان من ولد فاطمة يملأ الارض عدلا كما ملئت جوراً وأنه يقاتل الروم في الملحمة ويفتح القسطنطينية ويخرج الدجال في زمنه وينزل عيسى ويصلي خلفه ، وما سوى ذلك كله أمور مظنونة أو مشكوكة والله أعلم انتهى

(أقول) قد علمت من هذه النقول أنه ليس في عمر الدنيا حديث مرفوع صحيح ولا حسن وأن الروايات فيه إما ضعيفة وإما موضوعة ، وأن الراجح أن كل ما ورد فيها من مرفوع وموقوف ومن الآثار فهو من الاسرائيليات التي بثها في الامة كعب الاحبار ووهب بن منبه وأمثالها ، ولو فطن الحافظ ابن حجر لدسائسهما وخطإ من عدلهما من رجال الجرح والتعديل لخفاء تلبيسهما عليهم لكان تحقيقه لهذا البحث أتم وأكمل

وقد أشار الى ذلك حكيم الاسلام الاجتماعي ابن خلدون في مقدمته عند الكلام في ابتداء الدول والامم وما بقي من الدنيا قال « فكان المعتمد في ذلك في صدر الاسلام آثار منقولة عن الصحابة وخصوصاً مسلمة بني اسرائيل مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وأمثالها . وربما اقتبسوا بعض ذلك من ظواهر مأثورة وتأويلات محتملة » ثم ذكر مباحث السهيلي في كلام الطبري وغير ذلك مما يغني عنه ماتقدم وذكر أيضاً كلام الصوفية في ذلك وظهور كذب الجميع

وكذلك الامام أبو محمد علي بن حزم (المتوفى سنة ٤٥٦) لم يعبأ بشيء من هذه الروايات في هذه المسألة على طول باعه وسعة حفظه للآثار وقد سبق القاضي عياضاً والقاضي أبا بكر ابن العربي وابن خلدون في رفضه لماقيل في عمر الدنيا وعجبت كيف غفل الحافظ عن إيراد ماقاله في هذه المسألة على سعة اطلاعه . قال بعد ذكر ماكان يقول اليهود والنصارى في بدء الخليقة مانصه

« وأما نحن — يعني المسلمين — فلا نقطع على علم عدد معروف عندنا ، ومن ادعى في ذلك سبعة آلاف سنة أو أكثر أو أقل فقد قال مالم يأت قط عن رسول الله (ص) فيه لفظة تصح ، بل صح عنه (ص) خلافه ، بل نقطع على أن للدنيا أمداً لا يعلمه إلا الله تعالى . قال الله سبحانه (ماأشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) وقال رسول الله (ص) « ماأنتم في الامم قبلكم إلا كالشعرة البيضاء في الثور الاسود ، أو الشعرة السوداء في الثور الابيض » وهذه نسبة من تدبرها وعرف مقدار عدد أهل الاسلام ونسبة ما بأيديهم من معمور الارض وأنه الاكثر — علم أن للدنيا أمداً لا يعلمه إلا الله . وكذلك قوله عليه السلام « بعثت أنا والساعة كهاتين » وضم أصبعيه المقدستين السبابة والوسطى ، وقد جاء النص بأن الساعة لا يعلم متى تكون إلا الله تعالى لا أحد سواه — فصح أنه (ص) انما عنى شدة القرب لا فضل الوسطى على السبابة إذ لو أراد ذلك لاخذت نسبة مابين الاصبعين ونسب من طول الاصبع — فكان يعلم بذلك متى تقوم الساعة وهذا باطل ، وأيضاً فكان تكون نسبته (ص) إيانا إلى من قبلنا بأننا كالشعرة في الثور كذبا ، ومعاذ الله من ذلك فصح أنه (ص) انما أراد شدة القرب . وله ﷺ منذ بعث أربعمائة عام ونيف ، والله تعالى أعلم بما بقي للدنيا « فاذا كان هذا العدد العظيم لا نسبة له عند ماسلف لقلته وتفاهته بالاضافة إلى ما مضى فهو الذي قاله (ص) من أننا فيمن مضى كالشعرة في الثور أو الرقة في ذراع الحمار اه كلام ابن حزم

وأقول هذا كلام الائمة المحققين فالذين حاولوا تحديد عمر الدنيا ومعرفة وقت قيام الساعة ارضاء لشهوة الاتيان بما يهم جميع الناس لم يشعروا بأنهم يحاولون تكذيب آيات القرآن الكثيرة الناطقة بأن الساعة من علم الغيب الذي استأثر الله

تعالى به وأنها تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون - أي على غير انتظار من أحد منهم ولا أدنى علم

وهذا البلاء كله من دسائس رواة الاسرائيليات وتلبيسهم على المسلمين باظهار الاسلام والصلاح والتقوى ، ومن وضع بعض الاصطلاحات العلمية في غير موضعها ككون كثرة الروايات الضعيفة يقوي بعضها بعضاً فان هذا انما يصح في المسائل التي لا يحتمل إرجاعها إلى مصدر واحد يعنى بنشرها والدعوة اليها كمسألة المهدي المنتظر الذي هو أساس مذهب سياسي كسي ثوب الدين ، ألم تر أن رواياته لا تخلو أسانيدها من شيعي، وان الزنادقة كانوا يبثون الدعوة إلى ذلك تمهيداً لسلب سلطان العرب واعادة ملك الفرس ؟ وككون كلام الصحابي فيما لا مجال للرأي والاجتهاد فيه له حكم الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ ويجب تقييد هذا فيما لا يحتمل أن يكون من الاسرائيليات وهو ما أشار اليه العلامة المجتهد محمد بن اسماعيل الامير في موضوعنا هذا كما رأيت آنفاً .

هذا وإن لمتقدمي أمم الحضارة الاولين من الهنود والصينيين وغيرهم أقوالا في عمر الدنيا وتاريخ البشر الماضي تذكر فيه الارقام بألوف السنين وألوف الالوف وقد بني بعضه على روايات مأثورة عن قدمائهم وبعضه على اصطلاحات فلكية وأوهام تنجيمية لا تفيد علماً صحيحاً .

وأما علماء الكون في هذا العصر فلهم منهج في عمر الارض الماضي ومنهج آخر في تاريخ البشر وآثارهم في القرون الخالية : منهجان علميان مبنيان على ماعرف بالحفر من طبقات الارض وما كشف من آثار أعمال البشر ومن عظام موتاهم ورفاتهم ،وهم يجزمون أن عمر الدنيا الماضي يعد بالوف الالوف من السنين وقد وجدت آثار للبشر فيها منذ مئات الالوف منها ، وذلك ينقض ما في سفر التكوين في المسألتين ، ولكنه لا ينقض من القرآن كلمة ولا حرفا (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) وكذلك أحاديث الرسول القطعية أو الصحيحة الصريحة القريبة من القطعية ، التي لا شبهة فيها للدسائس الاسرائيلية ، ولا للمكايد الفارسية المجوسية . واننا نتمم هذا البحث بفصل وجيز في اشراط الساعة وأماراتها لأننا ألمنا في هذا الفصل بذكر أهمها ، وفيها من الشبهات ما في مسألة عمر الدنيا وقيام الساعة التي هي أماراتها فنقول :

اشراط الساعة وأماراتها

إن للساعة اشراطا ثبتت في الكتاب والسنة قال تعالى (٤٧ : ٢٠ فهل ينظرون الاالساعة أن تأتيهم بغتة فقدجاء اشراطها ؟ فانَّى لهم اذا جاءتهم ذكراهم) الاشراط جمع شرط بفتحتين كاسباب جمع سبب وهي العلامات والامارات الدالة على قربها وأعظمها بعثة خاتم النبيين ، بآخر هداية الوحي الآلهي للناس أجمعين، لأن بعثته ﷺ قدكمل بها الدين، كما قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) وبكماله تكمل الحياة البشرية الروحية ، ويتلوها كمال الحياة الحياة البشرية المادية ، وما بعد الكمال الا الزوال ، لان البقاء في هذا العالم محال ، وقد ورد أن نبينا ﷺ نبي الساعة وتقدم حديث الصحيحين « بعثت أنا والساعة كهاتين »وقدوردت أحاديث أخرى في أشراط الساعة يدل بعضها على أن الشهوات المادية تتنازع مع الهداية الروحية، فيكون لها الغلب زمناً ثم تنتصر الهداية الروحية زمنا قصيراً ، ثم يغلب الضلال والشر والفجور والكفر ، حتى تقوم الساعة على شرار الخلق ، ولكن في هذه الاحاديث اختلافا وتعارضاً وما ينافي حكمة الله تعالى في اخفائها وعدم اطلاع الخلق على وقتها وبعضها ظاهر في قرب قيام ساعة دولة العرب أو دولة الاسلام

ومن الاحاديث الصحيحة الواردة في إقبال الدنيا وسعتها من أمارات الساعة حديث جبريل الذي رواه مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب (رض) وفيه أن جبريل عليه السلام لما جاء في صفة رجل غريب وسأل النبي ﷺ عن الاسلام والايمان والاحسان ليعلم الصحابة (رض) كيف يسألون عن دينهم - ثم سأله عن الساعة قال فاخبرني عن الساعة ؟ قال ﷺ « ماالمسئول عنها بأعلم من السائل » قال فأخبرني عن أمارتها قال « أن تلد الامة ربتها ، وان ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان » وروى هذا السؤال وحده ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وغيرهم من حديث أبي هريرة قال : كان النبي ﷺ يوما بارزا للناس فأتاه رجل فقال يارسول الله متى الساعة ؟ فقال « ما المسئول عنها باعلم من السائل ولكن سأحدثك عن اشراطها : اذا ولدت الأمة ربتها فذاك من اشراطها ، واذا كانت

الحفاة العراة رعاء الشاء رءوس الناس فذلك من أشراطها ، وإذا تطاول رعاء الغنم في البنيان فذلك من اشراطها » قيل معنى ولادة الامة ربتها كثرة السراري وأولاد السبايا ـ وكان لهذا طور عظيم في الفتوحات الاسلامية ـ وقيل معناه أن الملوك والامراء يكونون من أولاد السراري لا من أولاد بنات البيوتات العريقة في حسن التربية وعلو الاخلاق ، والمراد بصيرورة رعاء (بالهمزة) أي رعاة الغنم وأهل البداوة من أصحاب الثروة والبذخ والقصور العالية أن يكون من هذه الطبقة رؤساء للناس كما في حديث أبي هريرة وهذا قد ظهر أيضاً في أمتنا وفي غيرها من الامم ، وصار بعض تسوّد هذه الطبقة وأمثالهم في هذا العصر معدوداً في مناقبه بعد فساد تربية كثير من أسر الاشراف والنبلاء واستعلائهم على الناس بالباطل ، وكان هذا من أمارات زوال الدولة العربية أو الاسلامية فهو يظهر في علامات الساعة الخاصة لا العامة

وأجمع الاحاديث الصحيحة السند فيما يكون قبل الساعة ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة ، وروى هو وغيره ما ذكر فيه في أحاديث أخرى مفصلة وهذا نصه عن أبي هريرة مرفوعا (*)

« لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتها واحدة (١) وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول

(*) في هذا الحديث أحد عشر شرطا أوردها البيهقي في البعث في سبعة أحاديث أدمج في الثالث منها قبض العلم وكثرة الزلازل وتقارب الزمان وكثر الهرج فأول كل حديث منها « لا تقوم الساعة حتى » يكون كذا ـ فاذا عددت « حتى » في هذا الحديث وجدتها سبعا ـ ولذلك قال : اخرج البخاري هذه الاحاديث السبعة عن ابي اليمان عن شعيب الخ واستشكل الحافظ في الفتح عدها سبعا ذهولا منه عن إدماج ٤ اشراط في حديث واحد . ومعنى كلام البيهقي ان ماهنا سبعة أحاديث متفرقة جمعها البخاري في واحد

(١) المراد بالفئتين فئة علي الامام الحق وفئة معاوية الباغية ـ وهذا أول اشراط قيام ساعة الدولة العربية او الاسلامية المقيدة بالشورى ونصوص الكتاب والسنة

الله (٢) وحتى يقبض العلم (٣) وتكثر الزلازل (٤) ويتقارب الزمان (٥) وتظهر

(٢) من هؤلاء الدجالين في المتأخرين الباب والبهاء الايرانيان ـ على أن الثاني ادعى الالوهية ـ ومسيح الهند القادياني الدجال واتباعه لايزالون يدعون النبوة . وفي حديث ثوبان الجزم بعدد الثلاثين مع زيادة « وانا خاتم النبيين لا نبي بعدي » قال الحافظ اخرجه ابو داود والترمذي وصححه ابن حبان وهو طرف من حديث اخرجه مسلم ولم يسق جميعه . وذكر روايات اخرى منها حديث عبدالله بن عمرو عند احمد وابي يعلى وفيه زيادة: قلت ما آياتهم قال « يأتونكم بسنة لم تكونوا عليها يغيرون بها سنتكم فاذا رأيتموهم فاجتنبوهم »

(٣) حديث قبض العلم مفصل في حديث عبدالله بن عمرو في الصحيحين مرفوعا « ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالم ـ وفي رواية : لم يبق عالما ـ اتخذ الناس رءوساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا واضلوا » والمراد علم الدين والهداية لا علوم الدنيا والغواية .

(٤) في حديث سلمة بن نفيل عند احمد « وبين يدى الساعة سنوات الزلازل » فيظهر منه انها تكثر قبيل الساعة بسنوات قليلة عما يعهد الناس في كل زمان ، والا فهي دائما كثيرة في مجموع الارض . وللساعة نفسها زلزلة عظيمة تتقدم الصاخة التى هي الطامة الكبرى . اقرأ (٢٢ : ١ إن زلزلة الساعة شيء عظيم) الخ و (٩٩ : ١ اذا زلزلت الارض زلزالها) الخ

(٥) ذكر تقارب الزمان واقترابه في عدة أحاديث في الصحاح وغيرها مجملا وأخرج الترمذي من حديث أنس وأحمد من حديث أبي هريرة مرفوعاً «لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون السنة كشهر والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم كاحتراق السعفة » وقد اختلفوا في معني ذلك هل هو حسي أو معنوي ؟ وهل المراد الزمان نفسه أو أهله ؟ فقيل إن المراد به استلذاذ العيش ووفرة النعيم حتى لا يشعر الناس بالزمان كما قال الشاعر * وعمر النسر معكم بعض يوم * وقيل المراد به نزع البركة منه وقيل تقارب أهله في قلة الدين الخ ماقالوا ، ويرى بعض أهل هذا الزمان ان المراد قد يكون ماهو حاصل من تقارب المواصلات وقطع المسافات البعيدة في الزمن القصير برا وبحرا وجوا ـ وهذا أظهر من كل ماقالوه ،

الفتن (٦) ويكثر الهرج وهو القتل (٧) وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم

وأليق بكونه إخباراً عن غيب لامجال للرأي فيه ولا يعرف الا بوحي من الله تعالى وما قالوه يختلف باختلاف الناس في كل زمان ، فترى مثل القاضي عياض والنووي يرجحان ان معنى الحديث نزع البركة من الزمان ويوافقهما على ذلك الحافظ ابن حجر فيقولون ان الانتفاع باليوم قد صار بمقدار الانتفاع بالساعة . وهو وهم ظاهر ، ونحن نقول ان بعض مايعمل الآن في ساعة واحدة لم يكن يمكن عمله في يوم وما يعمل في يوم واحد كان يحتاج فيه الى اسبوع الخ ولو كانت البواخر والقطارات الحديدية والطيارات في عصر الذين كانوا يرحلون من قطر الى قطر لتلقي الحديث لتيسر لمثل البخاري ان يتلقى في سنة واحدة ماتلقاه في سنين أو في عمره كله

(٦ـ٧) ظهور الفتن وكثرة القتل قد وقع في كل عصر في البلاد الاسلامية وغيرها ، فلا يمكن عدها من العلامات التي تكون بين يدي الساعة الاان اريد بها ساعة ملك الامة العربية او الاسلامية فالامر حينئذ يكون ظاهرا ويكون المراد به ما فصل في أحاديث أخرى كاعتداء الترك وقتالهم للعرب وسلبهم لملكهم واخراجهم من عراقهم وفي ذلك عدة أحاديث في الصحاح والسنن والمسانيد ومن أصرحها حديث معاوية عند ابي يعلى مرفوعا « ان الترك تجلي العرب حتى تلحقها بمنابت الشيح » يعني بوادي جزيرة العرب ـ وحديث «ان بني قنطوراء أول من يسلب امتي ملكهم» رواه الطبراني عنه أيضا قال الحافظ : وكأنه يريد بقوله امتي أمة النسب لاأمة الدعوة — يعني العرب والله أعلم اه وورد ان من اشراط الساعة فتح القسطنطينية وهو في الصحاح قال شيخ شيوخنا العلامة الشيخ محمود نشابه معناه أن العرب يفتحونها من أشقياء الترك ولم يكن الشيخ من أهل السياسة ولا كان في زمنه شيء من التعادي بينهم وبين العرب ، دع مافعلته الحكومة التركية في هذا الزمان ، من ترك شريعة الاسلام ، وكان مسلمو الترك يحملون الاحاديث على فتح السلطان محمد لها ولكنها صريحة في أن فتحها يتلوه في عهده ظهور الدجال

واذا حمل الهرج وكثرة القتل على ماحدث في هذا الزمان من الفتن ومن كثرة القتل بما استحدث من آلات الحرب النارية بحيث يقتل في يوم واحد مالم يكن يمكن حدوثه في سنة أو سنين قبلها لكان ابلغ في الاخبار بالغيب فقد هلك في الحرب الاوربية الاخيرة زهاء عشرة آلاف الف (١٠ ملايين) في أربع سنين ولم يقع مثل ذلك في عدة قرون قبل هذه الآلات الحديثة

ربّ المال من يقبل صدقته(٨) وحتى يتطاول الناس في البنيان(٩) وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : ياليتني مكانه (١٠) وحتى تطلع الشمس من مغربها فاذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين (لاينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيراً) (١١) ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته الى فيه فلا يطعمها » وتقدم تفسير هذه الجمل الاخيرة

وفي الاحاديث اشراط وأمارات أخرى بعضها صار عاديا وبعضها غريب ويقول علماؤنا ان منه ماوقع ، وباقيه يتوقع ، وفيها تعارض وتناقض ومشكلات حار العلماء في الجمع بينها واني أتكلم عنه كلاما إجماليًا عاما ، وأبسط الكلام في أهمها بسطا خاصا ، ولاسيا أحاديث الدجال والمهدي ، فألق له السمع ووجه اليه النظر ، فهو يجلي العبرة لمن اعتبر .

---

(٨) كثرة المال فسرت بما حدث للمسلمين من الثروة في الفتوحات من عهد الصحابة ويصح تخصيص كثرته بهم إذا كان المراد بالساعة ساعتهم فان كثرة المال كانت سبباً للترف الذى كان سبباً لزوال ملكهم كغيرهم . وإذا أريد بالساعة العامة فيمكن أن يكون المراد مانرى مقدماته من كثرة الثروة العامة في العالم

(٩) التطاول في البنيان تقدم ذكره في حديث جبريل وهو مما حصل منذ قرون كثيرة ويقال فيه ماقلناه فيما قبله ، وقد وصل التطاول فيه الآن الى ان صارت المباني تناطح السحاب، ولا يمكن الصعود اليها إلا بالمعارج والمصاعد الكهربائية فاذا كانت في مصر لاتزيد على بضع طبقات ففي اميركا قد صار البناء الواحد مؤلفا من عشرات من الطبقات فهذا هو التطاول الذى لم يعهد له نظير من قبل

(١٠) تمني الموت حصل ويحصل في أوقات الضيق والبلاء من كل زمان ولا يكون من اشراط الساعة العامة الا إذا صار عاما فهو بهذا المعنى من الاشراط المستقبلة

(١١) طلوع الشمس من مغربها هو أعظم الاشراط الكبرى بين يدى الساعة وقد تقدم تفصيل القول فيه في تفسير الآية ١٥٩ من اواخر سورة الانعام فيراجع .

﴿ نظرة في أشراط الساعة وتفاسيمها ومشكلاتها ﴾

أعلم أيها المسلم الذي يحب أن يكون على بصيرة من دينه ان في روايات الفتن واشراط الساعة من المشكلات والتعارض ماينبغي لك أن تعرفه ولو إجمالا حتى لاتكون مقلداً لمن يظنون أن كل مايعتمده أصحاب النقل حق، ولا لمن يظنون أن كل مايقوله أصحاب النظريات العقلية حق ، فان الله تعالى يقول (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) الآية ، وقال لخاتم رسله ﷺ (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) وانني أبين فيه مايطمئن به قلب القانع بالاجمال ، ويفتح باب التحقيق لطالب التفصيل ، فأقول :

ان العلماء جعلوا ماروي من اشراط الساعة وأماراتها ثلاثة أقسام : ماوقع بالفعل منذ قرون خلت الى زمن كل من تكلم في ذلك منهم وقد عدوه عدا ،— وما وقع بعضه وهو لايزال في ازدياد كالفتن والفسوق وكثرة الزنا وكثرة الدجالين وكثرة النساء وتشبههن بالرجال والكفر والشرك حتى في بلاد العرب. وما سيقع بين يدي الساعة من العلامات الصغرى والكبرى ـ ومن الأولى قتال اليهود وفتح بيت المقدس والقسطنطينية

وتنقسم باعتبار آخر الى ماعهد ويعهد مثله في كل الامم من الفتن والقتال وسعة الدنيا وضيقها ، وقيام الدول وسقوطها ، والفسق من زنا ولواط وسكر، الخ والاوبئة والزلازل، وهذا لا يشعر جماهير الناس بأن له علاقة ما بقيام الساعة الكبرى، والى ماهو غريب غير مألوف كظهور يأجوج ومأجوج والدجال والمهدي والمسيح وطلوع الشمس من مغربها ، وأما الزلازل والخسوف وظهور النجوم ذوات الاذناب أو الاذيال ، فقد صارت من الامور المعتادة المعروفة بين الناس

وباعتبار ثالث الى ماهو علامة على قيام ساعة الجيل أو الدولة كذهاب الامانة وتوسيد الأمر الى غير أهله ، وما هو آية على قرب الساعة العامة الكبرى ،

ويرد من الاشكال على ماذكر أن ماورد من الاشراط الصغرى المعتاد مثلها التي تقع عادة بالتدريج لايذكر بقيام الساعة ولا تحصل به الفائدة التي من أجلها

أخبر الشارع بقرب قيام الساعة — وأن ما ورد من الاشراط الكبرى الخارقة للعادة يضع العالم به في مأمن من قيام الساعة قبل وقوعها كلها فهو مانع من حصول تلك الفائدة ، فالمسلمون المنتظرون لها يعلمون أن لها اشراطا تقع بالتدريج فهم آمنون من مجيئها بغتة في كل زمن ، وانما ينتظرون قبلها ظهور الدجال والمهدي والمسيح عليه السلام ويأجوج ومأجوج ، وهذا الاعتقاد لا يفيد الناس موعظة ولا خشية ، ولا استعداداً لذلك اليوم أو لتلك الساعة ، فما فائدة العلم به اذاً ؟ وهل من الحكمة أن تكون فائدتها محصورة في وقوع الرعب في قلوب الذين يشاهدون هذه الآيات الكبرى ولا سيما آخر آية منها ؟ وكيف يتفق هذا وما ورد من كون كل رسول كان يخوف قومه وينذرهم الساعة والدجال قبلها ؟ وكيف وقع هذا منهم ولم يصدقه الواقع ومثله لا يكون بمحض الرأي ؟ وهل كان نبينا (ص) يريد بالإخبار بها تأمين الناس من قيام الساعة مدة قرون كثيرة الى أن تظهر هذه الاشراط ؟ أم كان يتوقع ظهورها بعده في قرنه أو فيما يقرب منه كغيره من الرسل بدليل ماورد من تجويزه ظهور الدجال في زمنه ، وتصديقه ماحكاه تميم الداري من خبر الجساسة وكون الدجال محبوسا في جزيرة ؟

الاشكال والاشتباه في روايات الدجال

قد تقدم ماقاله ابن الجوزي من كونه (ص) كان يقدر في هذه المسائل تقديراً ، اذ لم يوح الله تعالى اليه أخبارها تفصيلا ، وعد من ذلك ماورد في احتمال ظهور الدجال في زمنه

وقال النووي في شرح أحاديث ابن صياد من صحيح مسلم :قال العلماء وقصته مشكلة وأمره مشتبه :.. وظاهر الأحاديث أن النبي عليه السلام لم يوح إليه بأنه المسيح الدجال ولا غيره ، وانما أوحي إليه بصفات الدجال وكان في ابن صياد قرائن محتملة ، فلذلك كان النبي عليه السلام لا يقطع بأنه الدجال ولا غيره ولهذا قال لعمر « إن يكن هو فلن تستطيع قتله » اه ولا بأس ببيان ماأشار اليه النووي من الاشكال والاشتباه بشيء من التفصيل

ان أحاديث الدجال مشكلة من وجوه (أحدها) ما ذكرناه آنفاً من منافاتها لحكمة إنذار القرآن الناس بقرب قيام الساعة وإتيانها بغتة

(ثانيها) ماذكر فيها من الخوارق التي تضاهي أكبر الآيات التي أيد الله بها أولي العزم من المرسلين أو تفوقها ، وتعد شبهة عليها كما قال بعض علماء الكلام وعدّ بعض المحدثين ذلك من بدعتهم ، ومن المعلوم ان الله ما آتاهم هذه الآيات إلا لهداية خلقه ، التي هي مقتضى سبق رحمته لغضبه، فكيف يؤتي الدجال أكبر الخوارق لفتنة السواد الأعظم من عباده ؟ فان من تلك الروايات انه يظهر على الارض كلها في أربعين يوما إلا مكة والمدينة ، وقد روى أبو نعيم في الحلية عن حسان ابن عطية من ثقات التابعين أنه لا ينجو من فتنة الدجال الا اثنا عشر الف رجل وسبعة آلاف امرأة . قال الحافظ في الفتح وهذا لا يقال من قبل الرأي فيحتمل أن يكون مرفوعا أرسله ، ويحتمل أن يكون أخذه عن بعض أهل الكتاب اه وهو الصحيح المختار عندي

(ثالثها) وهو من متعلقات ماقبله أن ماعزي اليه من الخوارق مخالف لسنن الله تعالى في خلقه وقد ثبت بنصوص القرآن القطعية انه لا تبديل لسننه تعالى ولا تحويل . وهذه الروايات المضطربة المتعارضة لا تصلح لتخصيص هذه النصوص القطعية ولا لمعارضتها

(رابعها) اشتمال بعض هذه الاحاديث على مخالفة بعض القطعيات الاخرى من الدين كتخلف أخبار الرسل أو كونها عبثا وإقرارهم على الباطل وهو محال في حقهم

(خامسها) انها متعارضة تعارضا كثيراً يوجب تساقطها كما ترى فيما يلي

فمن ذلك التعارض أن بعضها يصرح بانه ﷺ كان يرى من المحتمل ظهور الدجال في زمنه وانه يكفي المسلمين حينئذ شره، وبعضها يصرح بأنه يخرج بعد فتح المسلمين لبلاد الروم والقسطنطينية (ومنه) انه كان يشك في ابن صياد من يهود المدينة هل هو الدجال أم لا ؟ وأنه وصف (ص) الدجال بصفات لا تنطبق على ابن صياد كما قال ابن صياد نفسه لسعيد الخدري (رض)

ومن التعارض أيضاً أنه يصرح في بعض الروايات بأنه يكون معه (أي الدجال) جبل أوجبال من خبز ونهر أو أنهار من ماء وعسل، كما رواه أحمد والبيهقي في البعث عن رجل من الانصار وعن جابر بن عبد الله بسند رجاله ثقات مع

مارواه الشيخان واللفظ للبخاري من حديث المغيرة بن شعبة قال : ما سأل أحد النبي ﷺ عن الدجال ماسألته وإنه قال لي «مايضرك منه؟» قلت لأنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء. قال « بل هو أهون على الله من ذلك» وفي رواية مسلم يقولون ان معه جبال خبز ولحم ونهر من ماء .وقد أولوا هذا لتصحيح ذلك، ويتأمل قول جابر: يقولون إن معه كذا وكذا ، ولم يقل إنك قلت هذا.

ومن التعارض أيضاً ماورد من اختلاف الروايات في المكان الذي يخرج منه ، ففي بعض الروايات انه يخرج من قبل المشرق على الابهام . وفي حديث النواس بن سمعان عند مسلم انه يخرج من خلة بين الشام والعراق ، وفي رواية أخرى لمسلم انه يخرج من أصبهان ، وفي حديث الجساسة عنده انه محبوس بدير أو قصر في جزيرة في بحر الشام — أي البحر المتوسط وهو في الشمال — أو بحر اليمن وهو في الجنوب وانه يخرج منها ، وروى أحمد والحاكم انه يخرج من خراسان .

وقد حاول شراح الصحيحين وغيرهم الجمع بين الروايات المتعارضة في كل مسألة فجاؤا بأجوبة متكلفة ردها المحققون كلها أو أكثرها ، وفيها من المشكلات غير ما أشرنا اليه ولاسيما الروايات في ابن صياد وما كان من حلف عمر بن الخطاب (رض) عند النبي ﷺ انه هو الدجال وإقراره ﷺ إياه على ذلك ومتابعة جابر بن عبدالله إياه على هذا الحلف كما في الصحيحين عنه

وقد أجاب بعضهم عن الأخير بأن هذا التقرير قد نقضه التصريح منه ﷺ لعمر بخلافه حين قال له دعني أضرب عنقه فقال «ان يكن هو فلن تسلط عليه » الخ الحديث وهو في الصحيح ،وقد رد الحافظ ابن حجر بعض تأويلات الحافظ البيهقي في مولد ابن صياد وصفاته وفي إقرار النبي ﷺ لعمر على حلفه ، وعده قصة تميم الداري مرجحة لكونه غير ابن صياد ، وكون عمر كان يحلف حلفه قبل سماعه لهذه القصة — لهذا أخص هذا الحديث بشيء من التفصيل فأقول ان فيه عدة مباحث

(١) كان تميم الداري من عرب فلسطين(سورية) وقد وصف بأنه كان راهب زمانه وقد جاء هو وأخوه نعيم المدينة في آخر عهد النبي ﷺ سنة تسع من الهجرة وأسلما وحدث هو النبي ﷺ بحكاية الجساسة الغريبة ، وذكروا انه كان

بعد إسلامه من العباد ومن القصاصين ولم يذكر لأحد شبهة فيه بل عدوا من مناقبه ان النبي (ص) روى عنه ، وستعلم مافيه ، فهذه مقدمة

(٢) راوية الحديث عنه في صحيح مسلم بطوله ومشكلاته هي فاطمة بنت قيس من المهاجرات وقالت ان النبي ﷺ جمع الناس في المسجد رجالا ونساء وحدثهم على المنبر بما سمعه من تميم من هذه الحكاية . وقد رواه عنها الشعبي وحده ، وهو على جلالته قد روى عن كثير من الصحابة الذين لم يرهم ولم يسمع منهم ، ولكن المحدثين أثنوا على مراسيله على انه صرح بالسماع منها ، وسيأتي من رواه غيرها وغيره

(٣) من علل هذا الحديث اذاً انه من الاحاديث التي تتوفر الدواعي على نقلها بالتواتر لغرابة موضوعه ولاهتمام النبي ﷺ به وجمعه الناس له وتحديثه به على المنبر واستشهاده بقول تميم على ما كان حدثهم به قبل إسلامه ، ولسماع جمهور الصحابة له منه ﷺ فمن غير المعقول ان لا يروى إلا آحاديا ويؤيده امتناع البخارى عن إخراجه في صحيحه لشدة تحريه وقد أجاب الحافظ في الفتح عند شرح حديث جابر في ابن صياد من كتاب الاعتصام عن هذا الاعلال بقوله: ولشدة التباس الامر في ذلك — أي الاختلاف بينه وبين حديث ابن صياد ـ سلك البخاري مسلك الترجيح فاقتصر على حديث جابر عن عمر في ابن صياد ولم يخرج حديث فاطمة بنت قيس في قصة تميم ، وقد توهم بعضهم انه غريب فرد وليس كذلك فقد رواه مع فاطمة بنت قيس أبو هريرة وعائشة وجابر ـ أما أبو هريرة فأخرجه أحمد من رواية عامر الشعبي عن المحرز بن أبي هريرة عن أبيه بطوله ، وأخرجه أبوداود مختصراً وابن ماجه عقب رواية الشعبي عن فاطمة قال الشعبي فلقيت المحرز فذكره ، وأخرجه ابو يعلى من وجه آخر عن ابي هريرة ... واما حديث عائشة فهو في الرواية المذكورة عن الشعبي قال ثم لقيت القاسم بن محمد فقال اشهد على عائشة حدثتني كما حدثتك فاطمة بنت قيس ، واما حديث جابر فأخرجه أبوداود بسند حسن من رواية أبي سلمة عن جابر وذكر لفظه

اقول ان ماذكره الحافظ لاينفي كون الحديث من الآحاد والمقام مقام التواتر لما ذكرناه من أسباب توفر الدواعي ، ولاينفي ايضاً كونه غريبا ايضاً وإن لم يكن فرداً فقد انحصرت الاسانيد لروايته في الشعبي وفي فاطمة بنت قيس. واما مارواه

أبوداودمن طريق الوليد بن عبدالله بن جميع عن ابن أبي سلمة عن جابر فهو على كونه ليس من الصحيح مختصر وليس فيه اسناد الحكاية الى تميم الداري بل لايزيد لفظ المرفوع فيه عن هذه الجملة « بينما أناس يسيرون في البحر فنفد طعامهم فرفعت لهم جزيرة فخرجوا يريدون الخبز فلقيتهم الجساسة » قال أبو الوليد بن عبد الله فقلت لأبي سلمة وما الجساسة ؟ قال امرأة تجر شعر جلدها ورأسها قالت في هذا القصر ـ فذكر الحديث ـ وسأل عن نخل بيسان وعن عين زغر ، قال هو المسيح . فقال لي ابن ابي سلمة ان في هذا الحديث شيئاً ماحفظته ، قال شهد جابر انه هو ابن صائد وفي نسخة ـ ابن صياد ـ فقلت انه قد مات قال وان مات . قلت فانه قد اسلم قال وإن اسلم . قلت فانه قد دخل المدينة قال وان دخل المدينة اهـ سياق ابي داود بحروفه

اقول وهو لايقوي تلك الروايات وليس فيه شيء من مشكلاتها المعنوية وغرائبها بل قواه الحافظ بها فجعله حسناً لأجلها وهو يعلم ان الوليد بن عبد الله ابن جميع (بالتصغير) الزهري روايةعن ابي سلمة ضعيف وان روى عنه مسلم فقد قال هو نفسه (اي الحافظ) في تهذيب التهذيب فيما زاده على اصله ان ابن حبان ذكره في الضعفاء وقال انه ينفرد عن الاثبات بمالا يشبه حديث الثقات فلما فحش ذلك منه بطل الاحتجاج به ، وذكر عن الحاكم انه لو لم يخرج له مسلم لكان اولى اهـ في رواية ابي داود عن فاطمة مخالفة لرواية مسلم من وجه آخر لا غرض لنا في ذكره إذ لانريد استقصاء كل مافي هذه الاحاديث من التعارض والخلاف.

(٤و٥) من الاشكال المعنوي في هذه الحكاية أن تميما وأصحابه الثلاثين كانوا من عرب الشام والمتبادر أنهم ركبوا سفينتهم من بعض ثغورهم في البحر المتوسط وقد ذكرت فاطمة بنت قيس أن النبي ﷺ قال بعد أن سرد للناس الحكاية « فانه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم به عنه —أي الدجال —وعن المدينة ومكة . ألا إنه في بحر الشام أوبحر اليمن — لا بل من قبل المشرق . ماهو من قبل المشرق ، ماهو من قبل المشرق ، ماهو؟ وأومأ بيده إلى المشرق» قالت فحفظت هذا من حديث رسول الله (ص) اهـ

فان صح الحديث رواية فهذا التردد من النبي (ص) في مكان الجزيرة التي ذكرها تميم الداري في أي البحرين هي؟ ثم اضرابه عنهما وجزمه بأنه في جهة المشرق الخ إشكال آخر في متنه ينظر إلى اختلاف الروايات الأخرى في مكان الدجال بعين ، وينظر إلى اختلاف الروايات في ابن صياد بالعين الاخرى ، وينظر بالعينين كلتيهما إلى سبب هذا التردد ومنافاته لأن يكون كلامه صلوات الله وسلامه عليه في أمر الدجال عن وحي من الله تعالى وسأتكلم في سببه في هذا البحث على تقدير صحة الرواية

ثم أين هذه الجزيرة التي رفأ اليها تميم وأصحابه في سفينتهم ؟ إنها في بحر الشام أو بحر اليمن كما في اللفظ المرفوع — إن صح الحديث — أي الجهة المقابلة لسواحل سورية من البحر المتوسط ، أو الجهة المجاورة لشواطيء اليمن من البحر الاحمر ، وكل من البحرين قد مسحه البحارة في هذه الازمنة مسحاً ، وجابوا سطحهما طولا وعرضاً ، وقاسوا مياههما عمقاً عمقا ، وعرفوا جزائرهما فرداً فرداً ، فلو كان في أحدهما جزيرة فيها دير أو قصر حبس فيه الدجال وله جساسة فيهـا تقابل الناس وتنقل اليه الاخبار، لعرف ذلك كله كل الناس، وما قاله شارح المشارق من تنقل الدجال في البحرين أو من الجانب الشامي إلى الجانب اليمني بناء على زعمه أن البحر واحد — وما قاله الحافظ من انتقاله إلى اصفهان ليخرج منها مع سبعين ألفاً من يهودها — كلاهما من الدعاوي التي لا أصل لها من النقل، ولا من المقبول في نظر العقل، وانما يستنبطونها للجمع بين الروايات المتعارضة التي يعز عليهم أن يرجعوها إلى قاعدتهم « تعارضت فتساقطت » حتى إن الحافظ رضي لنفسه في هذا الجمع أن يقر قول من قال إن ابن صياد شيطان تبدى في صورة الدجال في تلك المدة إلى أن ذهب إلى اصفهان ألخ وهو يحفظ تلك الروايات الكثيرة في ولادته بالمدينة ونشوئه فيها ، ثم اسلامه وحجه ثم موته فيها، على انه يحفظ بعض الروايات المضعفة لهذا

(٦) في الالفاظ المرفوعة من حكاية الجساسة أن النبي (ص) لم يقر تميما على كل ماحكاه ، بل على بعضه وهو قوله « فانه أعجبني من حديث تميم انه وافق الذي كنت أحدثكم به عنه (أي عن الدجال) وعن المدينة ومكة » أي أنه لا يدخلهما . وقوله بعده « ألا انه في بحر الشام أو اليمن ، لا بل من قبل المشرق » الخ ما تقدم

آنفاً، وترجيح جميع العلماء روايات جهة المشرق دليل على أنه ليس في بحر الشام ولا بحر اليمن لأن الشام في جهة الشمال من المدينة واليمن في جهة الجنوب منها فلا شيء منهما بمشرق . قال الطيبي : لما تيقن عليه السلام بالوحي أنه من قبل المشرق نفي الاولين » وظاهر العبارة يدل على أن النبي ﷺ صدق تميما في أول الأمر ولذلك قال « ألا إنه في بحر الشام او بحر اليمن » بالتأكيد بإن والبدء باداة الاستفتاح « ألا » ثم كوشف في موقفه بأنه ليس في هذا ولا ذاك، بل في جهة المشرق

(٧) ههنا يجيء اشكل آخر وهو أن نفي النبي ﷺ لبعض قول تميم يبطل الثقة به كله ، ويحصر عجبه ﷺ في شيء واحد منه لا يعرف بالرأي وهو موافقته لما سبق إخباره به ﷺ من ظهور الدجال وكونه لا يدخل مكة ولا المدينة. وإن بقي الاعجاب بما ذكرنه في محله، وقد يتفصون من هذا بأن الدجال كان قبل اسلام تميم وحديثه قد خرج من تلك الجزيرة التي رآه فيها فذهب إلى اصبهان أو غيرها من المشرق، ويرده ان ما نقله عنه تميم صريح فيما ينافي ذلك وهو أن وثاقه الشديد انما يحل عند الاذن له في الخروج وأنه صار قريباً بعد ظهور العلامات التي ذكرها قال : اني أنا المسيح واني أوشك ان يؤذن لي في الخروج فأخرج فأسير في الارض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرمتان علي الخ فعطفه الخروج على الاذن بالفاء والسير على الخروج بالفاء نص في أنهما على التعقيب لا فاصل بين هذه ولا تلك ، والاقرب إلى الخروج من كل هذه المشكلات أن تكون الرواية مصنوعة .

(٨) ننتقل من هذا المبحث إلى مبحث قوي الصلة به وهو اذا لم نعد ما فيه من نفي النبي ﷺ لما أثبته تميم من وجود الدجال في أحد البحرين وفاقا للعلامة الطيبي الشهير — فهل يجب أن تكون حكايته ﷺ لما حدثه به تميم تصديقاً له؟ وهل كان (ص) معصوما من تصديق كل كاذب في خبر فيعد تصديقه لحكاية تميم دليلا على صدقه فيها ؟ ويعد ما يرد عليها من إشكل ولرداً على حديث له حكم المرفوع ؟ وفي معناه إقراره ﷺ لعمر على حلفه بأن ابن صياد هو الدجال كما تقدم إن ماقالوه في العصمة لا يدخل فيه هذا فالمجمع عليه هو العصمه في التبليغ عن

الله تعالى وعن تعمد عصيانه بعد النبوة . قال السفاريني في شرح عقيدته. قال ابن حمدان في نهاية المبتدئين وأنهم معصومون فيما يؤدون عن الله تعالى و ليسوا معصومين في غير ذلك. وقال ابن عقيل في الارشاد : إنهم عليهم السلام لم يعصموا في الافعال ، بل في نفس الاداء . قال ولا يجوز عليهم الكذب في الاقوال فيما يؤدونه عن الله تعالى. وقال الحافظ العراقي : النبي ﷺ معصوم من تعمد الذنب بعد النبوة بالاجماع ، ولا يعتد بخلاف بعض الخوارج والحشوية الذين نقل عنهم تجويز ذلك ألخ اه ملخصاً وتصديق الكاذب لا يعد ذنباً . وقد ثبت أنه ﷺ كان يصدق بعض ما يفتريه المنافقون حتى يخبره الله بما كان من المصلحة اخباره به منه كما وقع في غزوة تبوك وغيرها وصدق بعض أزواجه في القصة المشار اليها في سورة التحريم حتى أخبره تعالى به وبأن من أسر اليها الحديث أفشته وذلك قوله تعالى (قالت من انبأك هذا ؟ قال نبأني العليم الخبير) وتردد في حديث أهل الافك وضاق صدره به زمنا حتى نزلت عليه آيات البراءة المكذبة لهم في سورة النور . فعلى هذا لا يكون ذكره ﷺ لقصة تميم في حكم المرفوع الذي يقوله هو ﷺ كما أن ما يقوله ﷺ برأيه وظنه لا يدخل في عموم ما هو معصوم منه وهو تعمد الكذب كما قال ﷺ في مسألة تلقيح النخل « انما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فاني لن أكذب على الله » وقال فيها أيضا « إنما أنا بشر اذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، واذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما أنا بشر » رواهما مسلم في صحيحه

وقال المحقق ابن دقيق العيد في مسألة تقريره ﷺ من أوائل شرح الالمام : إذا أخبر في حضرة النبي ﷺ عن أمر ليس فيه حكم شرعي فهل يكون سكوته ﷺ دليلا على مطابقة ما في الواقع كما وقع لعمر في حلفه على ان ابن صياد هو الدجال فلم ينكر عليه ، فهل يدل عدم انكاره على ان ابن صياد هو الدجال كما فهمه جابر حتى صار يحلف عليه ويستند إلى حلف عمر ، أو لا يدل ؟ فيه نظر ، والاقرب عندي انه لا يدل لان مأخذ المسألة ومناطها هو العصمة من التقرير على

باطل وذلك يتوقف على تحقق البطلان ولا يكفي فيه عدم تحقق الصحة الخ نقله عنه الحافظ في الفتح ملخصا

(٩) إن في روايات هذه الحكاية اختلافات أخرى كقوله في أطولها عن تميم «انه ركب سفينة بحرية مع ثلاثين رجلا من لخم وجذام فلعب بهم الموج شهراً في البحر ثم أرفؤا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس فجلسوا في أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة» وقوله في رواية أخرى «حدثني تميم الداري أن أناسا من قومه كانوا في البحر في سفينة لهم فانكسرت بهم فركب بعضهم على لوح من ألواح السفينة فخرجوا إلى سفينــة في البحر» وفي رواية «إن بني عم تميم الداري ركبوا في البحر» وفي رواية «انه ركب البحر فتاهت به سفينة فسقط إلى جزيرة فخرج اليها يلتمس المـاء فلقي انسانا يجر شعره» وهــذه الروايات كلهـا في صحيح مسلم والاختلافات فيها متعددة كما ترى، وفي سأر الروايات ما يزيد على ذلك

وجملة القول في حديث الجساسة أن ما فيه من العلل والاختلاف والاشكال من عدة وجوه يدل على أنه مصنوع، وأنه على تقدير صحته ليس له كله حكم المرفوع، وكذا يقال في سائر أحاديث الدجال المشكلة التي انتقدها الحافظ في الفتح من جهة صناعة علم أصول الحديث وتعارض المتون أو مخالفتهـا للواقع وعد من علل بعضها احتمال كونها من الاسرائيليات. فقد ذكر ما أخرجه نعيم بن حماد شيخ البخاري في كتاب الفتن من طريق جبير بن نفير وشريح بن عبيــد وعمرو بن الاسود وكثير بن مرة قالوا جميعاً: الدجال ليس هو بانسان وانمـا هو شيطان موثق بسبعين حلقة في بعض جزائر اليمن لا يعلم من أوثقه: سليمان النبي أو غيره؟ فاذا آن ظهوره فك الله عنه كل عام حلقة، فاذا برز أتته أتان عرض ما بين أذنيها أربعون ذراعا فيضع على ظهرها منبراً من نحاس ويقعد عليــه ويتبعه قبائل الجن يخرجون له خزائن الارض»

قال الحافظ بعد ايراد هذا: (قلت) ولا يمكن معه كون ابن صياد هو الدجال ولعل هؤلاء مع كونهم ثقات تلقوا ذلك من بعض كتب أهل الكتاب. وأخرج نعيم أيضاً من طريق (كعب الاحبار) أن الدجال تلده أمه بقوص من أرض

مصر (قال) وبين مولده ومخرجه ثلاثون سنة (قال) ولم ينزل خبره في التوراة والانجيل وانما هو في بعض كتب الانبياء اه وأخلق بهذا الخبر أن يكون باطلا فان الحديث الصحيح أن كل نبي قبل نبينا أنذر قومه الدجال ، وكونه يولد قبل مخرجه بالمدة المذكورة مخالف لكونه ابن صياد ولكونه موثقا في جزيرة من جزائر البحر أه المراد من قول الحافظ وهو في شرح كتاب الاعتصام من الفتح

ومنه يعلم أن الحافظ لم يسلم من ضرب بعض هذه الروايات المضطربة المتعارضة المتنافرة ببعض ، وبأنه يعد احتمال الاخذ عن أهل الكتاب علة صحيحة لرد روايات الثقات ولو فيما لامجال للعقل ولا للرأي فيه خلافا لما زعمه الزرقاني وتمسك به بعض أنصار الخرافات فعدوه مما له حكم المرفوع .

ومنه يعلم أيضاً أن يد بطل هذه الاسرائيليات الاكبر كعب الاحبار قد لعبت لعبها في مسألة الدجال (في كل وادأثر من ثعلبة) وقول كعب إن ماذكره من ولادة الدجال بقوص في كتب بعض الانبياء كذب وافتراء.

وهناك روايات أخرى عنه منها ما نقله الحافظ في شرح كتاب الفتن عن نعيم ابن حماد في كتابه المذكور عنه قال (أي كعب) يتوجه الدجال فينزل عند باب دمشق الشرقي ثم يلتمس فلا يُقدر عليه ، ثم يرى عند المياه التي عند نهر الكسوة ثم يطلب فلا يدرى أين يتوجه ، ثم يظهر بالمشرق فيعطى الخلافة ، ثم يظهر السحر ، ثم يدعو النبوة فتتفرق الناس عنه فيأتي النهر فيأمره أن يسيل فيسيل ثم يأمره أن يرجع فيرجع ، ثم يامره أن ييبس فييبس ، ويامر جبل طور وجبل زيتا أن ينتطحا فينتطحا ، ويامر الريح أن تثير سحابا من البحر فتمطر الارض ويخوض البحر في كل يوم ثلاث خوضات فلا يبلغ حقويه ، وإحدى يديه أطول من الاخرى فيمد الطويلة في البحر فتبلغ قعره فيخرج من الحيتان مايريد اه

الد بمثل هذه الخرافات كان كعب الاحبار يغش المسلمين ليفسد عليهم دينهم فهمه جائزتهم ،وخدع به الناس لاظهاره التقوى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

والاقرب عندي ان أخبار الدجال قالوا انها متواترة يعنون التواتر المعنوي وهو ان لها اصلا ر شيء من رواياتها . ويدل القدر المشترك منها على ان النبي ﷺ

كشف له وتمثل له ظهور دجال في آخر الزمان يظهر للناس خوارق كثيرة وغرائب يفتتن بها خلق كثير، وأنه من اليهود ، وان المسلمين يقاتلونه ويقاتلون اليهود في هذه البلاد المقدسة وينتصرون عليهم ، وقد كشف له ذلك مجملا غير مفصل ولا يوحى به عن الله تعالى - كما كشف له غير ذلك من الفتن - فذكره فتناقله الرواة . بالمعنى فاخطأ كثير منهم، وتعمد الذين كانوا يبثون الاسرائيليات الدس في رواياته . ولا يبعد أن يقوم طلاب الملك من اليهود الصهيونيين بتدبير فتنة في هذا المعنى يستعينون عليها بخوارق العلوم والفنون العصرية كالكهرباء والكيمياء وغير ذلك والله أعلم

التعارض والاشكالات في أحاديث المهدي

وأما التعارض في أحاديث المهدي فهو أقوى واظهر ، والجمع بين الروايات فيه اعسر ، والمنكرون لها اكثر ، والشبهة فيها اظهر ، ولذلك لم يعتد الشيخان بشيء من رواياتها في صحيحيهما . وقد كانت اكبر مثارات الفساد والفتن في الشعوب الاسلامية . إذ تصدى كثير من محبي الملك والسلطان ،ومن ادعياء الولاية وأولياء الشيطان ، لدعوي المهدوية في الشرق والغرب ، وتأييد دعواهم بالقتال والحرب ، وبالبدع والافساد في الأرض ، حتى خرج ألوف الالوف عن هداية السنة النبوية ، ومرق بعضهم من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية

وقد كان من حق تصديق الجماهير من المتأخرين بخروج مهدي يجدد الاسلام، وينشر العدل في جميع الانام ، أن يحملهم على الاستعداد لظهوره بتأليف عصبة قوية تنهض بزعامته، وتساعده على إقامة أركان إمامته، ولكنهم لم يفعلوا، بل تركوا مايجب لحماية البيضة ، وحفظ سلطان الملة بجمع كلمة الامة ، وباعداد مااستطاعوا من حول وقوة ، فاتكلوا وتواكلوا ، وتنازعوا وتخاذلوا ، ولم يعظهم ما نزع من ملكهم ، وماسلب من مجدهم ، اتكالا على قرب ظهور المهدي، كأنه هو المعيد المبدي ، فهو الذي سيرد اليهم ملكهم ، ويجدد لهم مجدهم ، ويعيد لهم عدل شرعهم ، وينتقم لهم من أعدائهم ، ولكنه يفعل ذلك بالكرامات ، ومايؤيد به من خوارق العادات ، لا بالبواريد أو البندقيات الصارخات، ولا بالمدافع الصاخات. ولا بالدبابات المدمرات،

ولا بأساطيل البحار السابحات والغواصات، ولا أساطيل المناطيد والطيارات ، ولا بالغازات الخانقات ، وقد كانت الحرب بين خاتم النبيين والمشركين سجالا، وكان المؤمنون ينفرون معه خفافا وثقالا ، فهل يكون المهدي أهدى منه أعمالا ، وأحسن حالا ومآلا ؟ كلا

وقد جاءهم النذير ، ابن خلدون الشهير ، فصاح فيهم ان لله تعالى سننًا في الامم والدول والعمران ، مطردة في كل زمان ومكان، كما ثبت في مصحف القرآن، وصحف الاكوان ، ومنها أن الدول لاتقوم إلا بعصبية ، وإن الاعاجم قد سلبوا العصبية من قريش والعترة النبوية، فان صحت أخبار هذا المهدي فلن يظهر إلا بعد تجديد عصبية هاشمية علوية، ولو سمعوا وعقلوا، لسعوا وعملوا، ولكان استعدادهم لظهور المهدي بالاهتداء بسنن الله تعالى رحمة لهم، تجاه ماكان في أخباره من الفتن والنقم فيهم ، وربما أغناهم عن بعض مايرجون من زعامته إن لم يغنهم عنه كله .

كانت اليهود اغترت مثلنا بظواهر ما في كتب أنبيائهم من الانباء بظهور مسيح فيهم يعيد لهم مافقدوا من ملك داود وسليمان ، فاتكلوا على مافهم أحبارهم منها بمحض التقليد الاصم الذي لايسمع ، الاعمى الذي لايبصر ، ومضت القرون في إثر القرون وهم لايزدادون إلا تفرقا وضعفا ، فلما عرفت أجيالهم الاخيرة سنن الله تعالى في العمران ، طفقوا يستعدون لاستعادة ذلك الملك والسلطان، بالسعي الى انشاء وطن يهودي خاص بهم يقيمون فيه قواعد العمران، بارشاد العلوم والفنون العصرية ، التي يتعلمونها بما يحيون من لغتهم العبرانية ،وقد أنشأوا لذلك مصرفا ماليًا خاصا، وما زالوا يجمعون لاجله الاعانات بالألوف وألوف الألوف من الدنانير ، حتى انهم استمالوا لمساعدتهم في هذا العهد، أقوى دول الارض،

هذا — والمسلمون لايزالون يتكلون على ظهور المهدي ويزعم دهماؤهم انه سينقض لهم سنن الله تعالى أو يبدلها تبديلا، وهم يتلون قوله تعالى(٣٥ : ٤٣ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) فاذا كان من أشراط الساعة آيات ، وكان زمنها زمن خوارق عادات، فهل يضرهم أن تأتيهم وهم على هدى من ربهم، واقامة لشرعهم، وعزة وسلطان في أرضهم؟

على انهم أنشؤا في العصور الاولى عصبيات لاجل المهدي ولكنها جاهلية ، بل أنشؤا المهدي المنتظر (عج) نفسه لأجل تلك العصبيات الفارسية المجوسية ، التي كانت تسعى لازالة ملك الامة العربية ، وافساد دينهم الذي أعطاهم الملك والقوة ، ولأجل ذلك كثر الاختلاف في اسم المهدي ونسبه وصفاته وأعماله ، وكان لكعب الأحبار ، جولة واسعة فى تلفيق تلك الاخبار ،

الاختلاف والاضطراب في أحاديث المهدي

(منها) أن أشهر الروايات في اسمه واسم أبيه عند أهل السنة أنه محمد بن عبدالله وفي رواية : أحمد بن عبدالله ، والشيعة الامامية متفقون على انه محمد بن الحسن العسكري وهما الحادي عشر والثاني عشر من أئمتهم المعصومين ، ويلقبونه بالحجة والقائم والمنتظر ، ويقولون انه دخل السرداب في دار أبيه في مدينة (سر من رأى) التي تسمى الآن « سامرا» سنة ٢٦٥ وله من العمر تسع سنين ، وانه لا يزال في السرداب حيا ، وقد رفع اليه بعض علمائهم المتأخرون أسئلة شرعية في رقاع كانوا يلقونها ، وزعموا أنهم كانوا يجدون فتاواه مدونة فيها ! ! ومسائل هذه الرقاع عندهم أصح المسائل والأحكام !! وهم كلما ذكروه يقرنون اسمه بحرفي العين والجيم هكذا (عج) وهما مقتطفتان من جملة عجل الله خلاصه

وزعمت الكيسانية أن المهدي هو محمد بن الحنفية وانه حي مقيم بجبل رضوى بين أسدين يحفظانه وعنده عينان نضاختان يفيضان ماء وعسلا ومعه أربعون من أصحابه . فقولهم فيه كقول الامامية في المهدي ابن الحسن العسكري. ورضوى بفتح الراء جبل جهينة من أرض الحجاز على مسيرة يوم من ينبع وسبع مراحل من المدينة المنورة . ويقال إن السنوسية يعتقدون أن شيخهم المهدي السنوسي هو الامام المنتظر. ومنهم من يقول إنه اختفى ، وقد بلغنا أنهم كانوا اذا سئلوا عن موته يقولون : الحي يموت . ولا يقولون انه قد مات.

وروي عن كعب الأخبار انه قال : انما سمي بالمهدي لانه يهدي الى أمر خفي وسيخرج التوراة والانجيل من أرض يقال لها انطاكية ، وفي رواية أخرى عنه انما سمي بالمهدي لانه يهدى الى أسفار التوراة فيستخرجها من جبال الشام ويدعو

اليها اليهود فيسلم على تلك الكتب جماعة كثيرة . رواهما ابو نعيم في كتاب الفتن - وروي مثل ذلك عن أبي عمرو الداني، وانما هو مأخوذ من تضليلات كعب الاحبار

والمشهور في نسبه أنه علوي فاطمي من ولد الحسن ، وفي بعض الروايات من ولد الحسين وهو يوافق قول الشيعة الامامية وهنالك عدة أحاديث مصرحة بأنه من ولد العباس (منها) مارواه الرافعي عن ابن عباس أنه (ص) قال للعباس « ألا أبشرك ياعم ؟ ان من ذريتك الأصفياء ، ومن عترتك الخلفاء ، ومنك المهدي في آخر الزمان ، به ينشر الله الهدى ويطفيء نيران الضلالة ، إن الله فتح بنا هذا الأمر وبذريتك يختم » ومن حديث ابن عساكر عنه مرفوعاً أيضا « اللهم انصر العباس وولد العباس (ثلاثا) يا عم أما علمت أن المهدي من ولدك موفقاً مرضياً » قال ابن حجر رجاله ثقات ، وفي معناهما أحاديث أخرى لابي هريرة وأم سلمة وعلي وفي حديثه التصريح بأن المراد بالمهدي ثالث خلفاء بني العباس

وفي معناه حديث أبي هريرة المعروف عندهم بحديث الرايات وذكره ابن خلدون من حديث ابن مسعود مرفوعاً «إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ، وإن أهل بيتي سيلقون من بعدي بلاء وتشريداً وتطريداً حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود » الخ وهو من طريق يزيد بن أبي زياد وهو من شيعة الكوفة ضعفه الأكثرون وروى له مسلم مقرونا بغيره وقال شعبة فيه : كان رفاعاً ، أي يرفع الى النبي ﷺ الاحاديث التي لا تعرف مرفوعة ، وصرحوا بضعف حديثه هذا .وهنالك أحاديث أخرى في نسبة المهدي الى العباس. وعن ابن عباس عند البيهقي وأبي نعيم والخطيب البغدادي روايات في التصريح بأن المهدي المنتظر هو العباسي وذكر قبله السفاح والمنصور . وأهل الرواية يتكلفون الجمع بين هذه الروايات وما يعارضها باحتمال أن يكون لكل من العباس والحسن والحسين فيه ولادة بعضها من جهة الأب وبعضها من جهة الأم ، قاله ابن حجر في القول المختصر وتبعه الشوكاني وغيره ، ولكن ألفاظ الاحاديث لاتتفق مع هذا الجمع ، على انه لم يرد في أم المهدى شيء من هذه الروايات على كثرتها

وسبب هذا الاختلاف أن الشيعة كانوا يسعون لجعل الخلافة في آل الرسول ﷺ

من ذرية علي سلام الله ورضوانه عليهم ويضعون الأحاديث تمهيداً لذلك، ففطن لهذا الأمر العباسيون فاستمالوا بعضهم، ورأى أبو مسلم الخراساني وعصبيته أن آل علي يغلب عليهم الزهد، وأن بني العباس كبني أمية في الطمع في الملك، فعمل لهم توسلا بهم إلى تحويل عصبية الخلافة إلى الفرس، تمهيداً لاعادة الملك والمجوسية، وحينئذ وضعت أحاديث المهدي مشيرة الى العباسيين مصرحة بشارتهم (السواد) وأشهرها حديث ثوبان المرفوع في سنن ابن ماجه « يقتتل عند كنزكم هذا ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا تصير الى واحد منهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونهم قتلا لم يقتله قوم — ثم ذكر شيئا لا أحفظه — فاذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج فانه خليفة الله المهدي » قال السندي في حاشيته على ابن ماجه : وفي الزوائد هذا اسناد صحيح رجاله ثقات ورواه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح على شرط الشيخين اه فهو مثال لأصح ما رووه في المهدي ولكن في إسناده عبد الرزاق بن همام الصنعاني الشهير وهو معروف بالتشيع وعمي في آخر عمره فخلط وكان من مشايخه عمه وهب بن منبه وناهيك به — وفي سنده الى ثوبان أبو قلابة وسفيان الثوري وهما مدلسان وقد عنعنا في هـذا الحديث ولم يقولا انهما سمعاه . فاذا أضفت إلى هذا طعن الطاعنين في عبد الرزاق ومنهم ابن عدي القائل انه حدث بأحاديث في الفضائل لم يوافقه عليها أحد، وما هو أعظم من ذلك من رمي بعضهم إياه بالكذب على مكانته من هذا الفن — واذا تذكرت مع هذا ان أحاديث الفتن والساعة عامة، وأحاديث المهدي خاصة، وانها كانت مهب رياح الأهواء والبدع، وميدان فرسان الأحزاب والشيع، — تبين لك أين تضع هذه الرواية منها

ولما انقضى أمر بني العباس وكانت الأحاديث قد دونت لم يسع القائلين بظهور المهدي إلا أن يقولوا ان الرايات السود المروية فيها غير رايات بني العباس على ان خصومهم كانوا قد رووا في معارضتها روايات ناطقة بأن رايات المهدي تكون صفرا، وروايات في أن ظهوره من المغرب لا من المشرق

قال محمد بن الصامت قلت للحسين بن علي رضي الله عنهما : أما من علامة بين يدي هذا الامر ؟ — يعني ظهور المهدي — قال بلى . قلت وما هي ؟ قال هلاك بني

العباس وخروج السفياني والخسف بالبيداء . قلت جعلني الله فداك أخاف أن يطول هذا الامر . فقال : انما هو كنظام سلك يتبع بعضه بعضاً . ورووا عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وكرم وجهه قال : تكون في الشام رجفة يهلك فيها أكثر من مئة الف يجعلها الله رحمة للمؤمنين ، وعذابا على المنافقين ، فان كان كذلك فانظروا إلى أصحاب البراذين الشهب والرايات الصفر تقبل من المغرب حتى تحل بالشام ، وذلك عند الجوع الاكبر ، والموت الأحمر ، فاذا كان ذلك فانظروا خسف قرية من قرى دمشق يقال لها (حرستا) فاذا كان ذلك خرج ابن آكلة الأكباد من الوادي اليابس حتى يستوي على منبر دمشق ، فاذا كان ذلك كله فانظروا خروج المهدي. انتهى الأثر المروي عن أمير المؤمنين ، ونحن نعلم ان ابن آكلة الاكباد لقب معاوية لأن أمه أخرجت قلب حمزة سيد الشهداء رضوان الله عليه يوم قتل في أحد فمضغته . وكانت هذه الرواية قد وضعت فيما يظهر بعد أمير المؤمنين للتبشير بانتقام المهدي من معاوية ، ثم حملوها على السفياني التي كثرت الروايات في خروجه قبل المهدي وقالوا انه من ولد خالد بن يزيد ابن أبي سفيان ، وانه أحد الخوارج الذين يتقدمونه بل شرهم ، والآخرون هم الملقبون بالأبقع والأصهب والأعرج والكندي والجرهمي والقحطاني ، ولفارس ميدان الخرافات الاسرائيلية كعب الأحبار تفصيلات لخروج هؤلاء هي كالتفسير للأثر العلوي الموضوع تراجع في فوائد الفكر للشيخ مرعى وعقائد السفاريني وغيرها

فهذا انموذج من تعارض الروايات وتهافتها في المهدي ولو ذكرنا ما في كتب الشيعة والمتصوفة في ذلك لجئنا بالعجب العجاب . وتمحيص القول فيها لا يتم إلا بسفر مستقل .

خلاصة القول في اشراط الساعة

وجملة القول في أحاديث الفتن وأشراط الساعة وأماراتها وسبب الاختلاف والتعارض فيها يختصر في المسائل الآتية

(١) ان النبي ﷺ لم يكن يعلم الغيب كما يأتي في الآية التالية بل هو معلوم من الدين بالضرورة وانما أعلمه الله تعالى ببعض الغيوب بما أنزله عليه في كتابه وهو قسمان ، صريح كاخبار الملائكة والساعة والجنة والنار ، ومستنبط من بيان سنن الله تعالى المنصوصة فيه كقوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم

خاصة) وقوله (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) فكان يفهم منها ﷺ مالا يفهم غيره من الصحابة فمن دونهم علما وفهما كما روي عن الزبير (رض) من عدة طرق في آية (واتقوا فتنة) انهم قرءوها على عهد رسول الله ﷺ ولم يكونوا يعلمون أنها تقع منهم حيث وقعت في فتنة قتل عثمان وفي يوم الجمل ، والروايات عن الزبير أوردها الحافظ في أول شرح كتاب الفتن من البخاري

(٢) ان الله تعالى أعلمه ببعض ما يقع في المستقبل بغير القرآن من الوحي كسؤاله لربه أن لا يجعل بأس أمته بينها فلم يعطه ذلك وأعلمه أن سنته في خلقه لا تتبدل أي وأن هذا منها راجع تفسيرنا لقوله تعالى (٦ : ٦٥ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) إلخ ولم يكن ﷺ يعلم أن ذلك من سنته تعالى قبل إعلامه له .

(٣) انه كان يتمثل له ﷺ بعض أمور المستقبل كانه يراه كما تمثلت له الجنة والنار في عرض الحائط ، وكما تمثل له في أثناء حفر الخندق ما يفتح الله لاصحابه من الممالك وكما تمثلت له الفتن وهو مشرف على أطم من آطام المدينة فقال كما في الصحيحين «هل ترون ماأرى ؟ قالوا لا ، قال «فانى لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر» وظهر هذا في فتنة قتل عثمان (رض) ومثله حديث الفتن من قبل المشرق وكشفه هذا حق وهو مايسميه أهل الكتاب نبوءات وقد ظهر منه شيء كثير كالشمس

(٤) إنه ﷺ لم يكن يخبر أصحابه بكل مايطلعه الله عليه من ذلك بل بما كان يرى المصلحة في إخبارهم به موعظة وتحذيراً ، وكان يخص بعض أصحابه ببعضها كما روي في مناقب حذيفة (رض) وما كان كل من سمع منه شيئاً منها يفهم مراده كله واذا كانوا لم يفهموا تأويل بعض آيات القرآن في سنن الله العامة حق الفهم التفصيلي كما تقدم آنفا عن الزبير (رض) واذا كان منهم من لم يفهم بعض آيات الاحكام الظاهرة كقوله تعالى (حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر) فلأن يخفى عليهم تأويل ماخص به بعض الافراد وهو مما لم يؤمر بتبليغه للناس كافة ـ لأنه ليس من أصول الدين ولا من فروعه ـ أولى ـ وخفاء ذلك على من

بعدهم أولى الا من يقع تأويله في عهدهم كوصفه (ص) النساء المتهتكات في هذا العصر بالكاسيات العاريات الخ

(٥) لاشك في أن اكثر الاحاديث قد روي بالمعنى كما هو معلوم واتفق عليه العلماء، ويدل عليه اختلاف رواة الصحاح في ألفاظ الحديث الواحد حتى المختصر منها، ومادخل على بعض الاحاديث من المدرجات وهي مايدرج في اللفظ المرفوع من كلام الرواة، فعلى هذا كان يروي كل أحد مافهمه، وربما وقع في فهمه الخطأ لان هذه أمور غيبية، وربما فسر بعض مافهمه بألفاظ يزيدها، واذا كان النبي ﷺ لم يطلعه الله تعالى على كل ماأطلعه عليه من هذه المغيبات بالتفصيل، وكان يجتهد في بعضها ويقدر ويأخذ بالقرائن كما قال النووي وابن الجوزي في تجويزه ﷺ أن يكون ابن صياد اليهودي المعاصر له هو الدجال المنتظر ـ وكذا تجويزه ان يظهر في زمنه وهو حي ـ فهل من الغرابة أن يقع الخلط والتعارض فيما يروى عنه بالمعنى بقدر فهم الرواة؟

(٦) ان العابثين بالاسلام ومحاولي افساد المسلمين وازالة ملكهم من زنادقة اليهود والفرس وغيرهم من أهل الابتداع وأهل العصبيات العلوية والاموية والعباسية قد وضعوا أحاديث كثيرة افتروها، وزادوا في بعض الآثار المروية دسائس دسوها، وراج كثير منها باظهار رواتها للصلاح والتقوى، ولم يعرف بعض الأحاديث الموضوعة إلا باعتراف من تاب الى الله من واضعيها، ولقد كان الاستاذ الامام يقول إن الاسلام الصحيح هو ما كان عليه أهل الصدر الأول قبل ظهور الفتن، ولم يكن يثق الا بأقل القليل مما روي في الصحاح من أحاديث الفتن

(٧) إن بعض الصحابة والتابعين كانوا يروون عن كل مسلم وما كل مسلم مؤمن صادق، وما كانوا يفرقون في الاداء بين ماسمعوه من النبي ﷺ أو من غيره وما بلغهم عنه بمثل سمعت وحدثني وأخبرني، ومثل: عن النبي ﷺ انه قال أو قال رسول الله ﷺ كما فعل المحدثون من بعد عند وضع مصطلح الحديث، وقد ثبت أن الصحابة (ض) كان يروي بعضهم عن بعض وعن التابعين حتى عن كعب الاحبار وأمثاله، والقاعدة عند أهل السنة أن جميع الصحابة عدول فلا يخل جهل اسم راو منهم بصحة السند، وهي قاعدة أغلبية لامطردة فقد كان في عهد النبي

ﷺ منافقون قال تعالى (٩ : ١٠٢) وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة، مردوا على النفاق ، لاتعلمهم نحن نعلمهم) مردوا عليه احكموه وصقلوه أو صُقلوا فيه حتى لم يعد يظهر في سيماهم وفحوى كلامهم كالذين قال الله فيهم منهم (٤٧ : ٣١) ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول)

ولكن البلية في الرواية عن مثل كعب الاحبار . وممن روى عنه أبو هريرة وابن عباس ومعظم التفسير المأثور مأخوذ عنه وعن تلاميذه، ومنهم المدلسون كقتادة وكذا غيره من كبار المفسرين كابن جريج ،

فكل حديث مشكل المتن أو مضطرب الرواية ، أو مخالف لسنن الله تعالى في الخلق ، أو لأصول الدين أو نصوصه القطعية ، او للحسيات وأمثالها من القضايا اليقينيه ، فهو مظنة لماذكرنا في هذه التنبيهات . وسبق لنا بيان أكثرها في الكلام على حديث طلوع الشمس من مغربها في تفسير ٦ : ١٨٥ من أواخر سورة الانعام (ص ٢٠٩ ج ٨ تفسير) فمن صدق رواية مماذكر ولم يجد فيها إشكالا فالاصل فيها الصدق، ومن ارتاب في كل شيء منها أو أورد عليه بعض المرتابين أو المشككين إشكالا في متونها ، فليحمله على ماذكرنا من عدم الثقة بالرواية لاحتمال كونها من دسائس الاسرائيليات، أو خطأ الرواية بالمعنى ، أو غير ذلك مما أشرنا اليه ، وإذا لم يكن شيء منها ثابتا بالتواتر القطعي فلايصح أن يجعل شبهة على صدق الرسول ﷺ المعلوم بالقطع ولا على غير ذلك من القطعيات . ولعل الله تعالى يبارك لنا في العمر ويوفقنا لصرف معظمه في خدمة الكتاب والسنة فنضع لاحاديث الفتن وآيات الساعة مصنفا خاصاً بها، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو على كل شيء قدير .

---

(١٨٨) قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ ، وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

هذه الآية من أعظم أصول الدين وقواعد عقائده ببيانها لحقيقة الرسالة

والفصل بينها وبين الربوبية والالوهية ، وهدمها لقواعد الشرك ومباني الوثنية من أساسها . ومناسبتها لما قبلها أن الله تعالى أمر خاتم رسله فيما قبلها أن يجيب السائلين له عن الساعة بأن علمها عند الله تعالى وحده وأمرها بيده وحده — وأمره في هذه أن يبين للناس أن كل الامور بيد الله تعالى وحده، وأن علم الغيب كله عنده ، وأن ينفي كلا منهما عن نفسه ﷺ وذلك أن الذين كانوا يسألونه (ص) عن الساعة من المسلمين كانوا يظنون أن منصب الرسالة قد يقتضي علم الساعة وغيرها من علم الغيب وربما كان يظن بعض حديثي العهد بالاسلام أن الرسول قد يقدر على مالا يصل اليه كسب البشر من جلب النفع ومنع الضرعن نفسه وعمن يحب أو يشاء ، أو منع النفع وإحداث الضر بمن يكره أو بمن يشاء . فأمره الله تعالى أن يبين للناس أن منصب الرسالة لا يقتضي ذلك ، وأنما وظيفة الرسول التعليم والارشاد ، لا الخلق والايجاد ، وأنه لا يعلم من الغيب إلا ما يتعلق بذلك مما علمه الله بوحيه ، وأنه فيما عدا تبليغ الوحي عن الله تعالى بشر كسائر الناس (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ) قال عز وجل :

﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ﴾ أي قل أيها الرسول للناس فيما تبلغه من أمر دينهم إنني لا أملك لنفسي —أي ولا لغيري بالاولى — جلب نفع ما في وقت ما ، ولا دفع ضرر ما في وقت ما ، فوقوع كلمتي النفع والضر نكرتين منفيتين يفيد العموم حسب القاعدة المعروفة ، ونفي عموم الفعل يقتضي نفي عموم الاوقات له. ولكن هذا العموم مشكل بما هو معلوم بالضرورة من تمكن كل انسان سليم الاعضاء من نفع نفسه وغيره في بعض الامور الكسبية ودفع بعض الضرر عنهما ، ولذلك حرمت الشريعة الضرر والضرار

ويجاب عن هذا الاشكال من وجهين (أحدهما) أن الرسول ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً مستقلا بقدرته وإنما يملك ما يملكه من ذلك بتمليك الرب

الخالق جلت قدرته وهو المراد بالاستثناء أي لا أملك منهما ﴿ إلا ماشاء الله ﴾ من نفع أقدرني على جلبه وضر اقدرني على منعه وسخر لي أسبابهما، أو الا وقت

مشيئته سبحانه أن يمكنني من ذلك · فالمعنى المراد على هذا هو بيان عجز المخلوق الذاتي وكون كل شيء أوتيه فهو بمشيئة الله تعالى لا يستقل العبد بشيء منه استقلالا مطلقا ولا هو يملكه بذاته لذاته ، بل بمشيئة الله تعالى، فالاستثناء على هذا متصل بما قبله مخصص لعمومه مقيد لاطلاقه

(الثاني) أنه ﷺ لا يملك بمقتضى منصب الرسالة نفعاً ولا ضراً لنفسه بمنطوق الجملة ولا لغيره بمفهومها الاولى مما يعجز عنه غيره بمقتضى بشريته وما أقدره الله تعالى عليه بمقتضى سنته في عالم الاسباب والمسببات ، كما أنه لا يملك شيئاً من علم الغيب الذي هو شأن الخالق دون المخلوق كما يأتي بيانه في تفسير الجملة التالية. والاستثناء على هـذا منفصل عما قبله مؤكد لعمومه ، أي لكن ماشاء الله تعالى من ذلك كان، فهو كقوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى * إلا ماشاء الله) وقوله حكاية عن خليله ابراهيم عليه السلام (ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً) وقوله في خطاب كليمه موسى عليه السلام (إني لا يخاف لدي المرسلون * إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعـد سوء) الآية .

وهذا الوجه هو المختار عندنا لأن الناس قد فتنوا منذ قوم نوح بمن اصطفاهم الله ووفقهم لطاعته وولايته من الانبياء ومن دون الانبياء من الصالحين فجعلوهم شركاء لله تعالى فيما يرجوه عباده من نفع يسوقه اليهم، وما يخشونه من شر يمسهم فيدعونه ليكشفه عنهم ، وصاروا يدعونهم كما يدعونه لذلك إما استقلالا ، وإما إشراكا ، إذ منهم من يظن أنه تعالى قد أعطاهم القدرة على التصرف في خلقه بما هو فوق الاسباب التي منحها الله تعالى لسائر الناس فصاروا يستقلون بالنفع والضر منحا ومنعاً، وإيجابا وسلباً ، ومنهم من يعتقد أن التصرف الغيبي الاعلى الذي هو فوق الاسباب الكسبية الممنوحة للبشر خاص بربهم لا يقدر عليه غيره ولكنهم يظنون مع هذا أن هؤلاء الانبياء والاولياء عند الله تعالى كوزراء الملوك وحجابهم وبطانتهم، وسطاء بينهم وبين من لم يصل إلى رتبتهم، فالملك المستبد بسلطانه يعطي هذا ويعفو عن ذنب هذا بوساطة هؤلاء الوزراء والحجاب المقربين عنده ، وكذلك رب العالمين يعطي ويمنع ويغفر ويرحم وينتقم بوساطة أنبيائه وأوليائه بزعمهم، فهم شفعاء للناس عنده تعالى

يقربونهم اليه زلفى كما حكاه التنزيل عن المشركين، وبيناه في مواضع من هذا التفسير [١]
وفي مثل هـذا التشبيه الوثني وتمثيل تصرف الرب العظيم الغني عن عباده بتصرف الملوك المستبدين الجاهلين الذين يحتاجون إلى وزرائهم وبطانتهم في حمله على ماينبغي له فيهم ـ قال الله تعالى (فلا تضربوا لله الامثال) وبين في هـذه الآية وأمثالهـا أن رسل الله تعالى وهم صفوة خلقه لا يشاركون الله تعـالى في صفة من صفاته ، ولا تأثير لاحد منهم في علمه ولا في مشيئته ، لانها كاملة أزلية لا يطرأ عليها تغير ، وأن الرسالة التي اختصهم الله تعـالى بها لا يدخل في معناها إقدارهم على النفع والضر بسلطان فوق الاسباب المسخرة لسائر البشر ولا منحهم علم الغيب وإنما هي تبليغ وحي الله تعـالى وبيانه للناس بالقول والفعل والحكم

ودليلنا على اختيار هذا الوجه أن مدار العبودية على توجه العباد إلى المعبود فيما يرجون من نفع ويخافون من ضر ، فاستعمل اللفظان في التنزيل في بيان أن الرب المستحق للعبادة هو من يملك الضر والنفع غير خاضع ولا مقيد بالاسباب العادية كقوله تعالى (٥ : ٧٩ قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً) وقوله في عجل بني اسرائيل (٢٠ : ٨٩ أفلا يرون ألاّ يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرّاً ولا نفعاً) وقوله (٤٨ : ١١ قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً ؟) وقوله (١٣ : ١٧ قل من رب السموات والارض ؟ قل الله ، قل أفاتخذتم من دون الله أولياء لايملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ؟) وقوله (٢٥ : ٣ واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً) الآية

فلما كان ملك الضر والنفع بهذا الاطلاق خاصاً برب العباد وخالقهم ، وكان طلب النفع أو كشف الضر عبادة لايجوز أن يوجه إلى غيره من عباده مهما يكن فضله تعالى عظيما عليهم ـ أمر الله رسوله ﷺ أن يصرح بالبلاغ عنه أنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً ، وقد تكرر هذا الأمر له في القرآن مبالغة في تقريره وتوكيده فقال تعالى في سورة يونس (١٠ : ٤٩ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ماشاء

(١) يراجع لفظ الشفاعة والشفعاء في فهارس أجزاء التفسير كلها

الله) الآية ، وقال في سورة الجن (٧٢ : ٢٠ قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً) وهذه الآية أبلغ وأشمل مما في معناها بما فيها من إيجاز واحتباك بحذف ما يقابل الضر والرشد المذكورين وهما ضدهما بدلا لتهما عليهما والتقدير : لاأملك لكم ضراً ولانفعاً ، ولا رشداً ولاغواية — فهذه الآيات بمعنى ما هنا تؤيد اختيارنا

ثم أمره تعالى أن ينفي عن نفسه علم الغيب مستدلا عليه بانتفاء اظهر منافعه القريبة فقال

﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ﴾ الخير مايرغب الناس فيه من المنافع المادية والمعنوية كالمال والعلم، والسوء مايرغبون عنه مما يسوءهم ويضرهم ،ويراد بهما هنا الجنس الذي يصدق ببعض أفراده وهو الخير الذي يمكن تداركه وتحصيله، والسوء الذي يمكن الاستعداد لدفعه بعلم مايأتي به الغد . والجملة استدلال على نفي علم النبي ﷺ الغيب كأنه يقول لاأملك لنفسي نفعاًولا ضراً ولا أعلم الغيب ، ولو كنت أعلم الغيب ـ وأقربه مايقع في مستقبل أيامي في الدنيا ـ لاستكثرت من الخير كالمال وأعمال البر التي تتوقف على معرفة مايكون في المستقبل من عسرة وغلاء مثلا وتغير الاحوال،ولما مسني السوء الذي يمكن الاحتياط لدفعه بعلم الغيب كشدة الحاجة مثلا ، ومن امثلته في العبادة قوله ﷺ في حجة الوداع « لواستقبلت من أمري مااستدبرت ماأهديت ولولاان معي الهدي لأحللت» رواه الشيخان وغيرهما ـ يعني لو انه علم ﷺ مايحصل من انفراده دون أصحابه بسوقه الهدي إلى الحرم من مشقة فسخهم الحج إلى عمرة دونه إذ لا يباح الفسخ والتحلل بالعمرة لمن معه الهدي لما ساق الهدي ليوافق الجمهور في تمتعهم بالعمرة إلى الحج . ومن أمثلته في الادارة وسياسة الحرب ماعاتبه الله تعالى عليه من الإعراض عن الاعمى والتصدي للاغنياء ومن أخذ الفداء من أسرى بدر ، ومن الاذن بتخلف المنافقين في غزوة تبوك سنة العسرة ، ولم أر أحداً نبه على هذا النوع من المفسرين .

وفيه وجه آخر انه مستأنف غير معطوف على ماقبله ،ومعناه وما مسني الجنون كما زعم الجاهلون ، فيكون حاصل معنى الآية نفي رفعه إلى رتبة الربوبية الذي افتتن بمثله الغلاة ، ونفي وضعه في ادنى مرتبة البشرية الذي زعمته الغواة العتاة .

وبيان حقيقة امره ، وما رفع الله تعالى من قدره ، بجعله فوق جميع البشر بوحيه ، ووساطته بينه وبين خلقه ، لكن في التبليغ والارشاد ، لا في الخلق والايجاد ، ولا في تدبير أمور العباد ، فان هذا شأن الربوبية ، وانما هو صلوات الله عليه وسلامه في أعلى مقام العبودية ،

ومن نكت البلاغة في القرآن بتقديم اللفظ على ما يقابله في آية وتأخيره في أخرى تقديم النفع على الضر في هذه الآية وتأخيره وتقديم الضر عليه في آية سورة يونس المذكورة آنفا . والفرق المحسن لذلك ان آية الاعراف جاءت بعد السؤال عن الساعة أيان مرساها؟ وأكبر فوائد العلم بالساعة وهو من علم الغيب الاستعداد لها بالعمل الصالح واتقاء أسباب العقاب فيها، فاقتضى ذلك البدء بنفي ملك النفع لنفسه بمثل هذا الاستعداد وتأخير ملك الضر المراد به ملك دفعه واتقاء وقوعه ، وأن يستدل على ذلك بما ذكر من انه لو كان يعلم الغيب حتى فيما دون الساعة زمنا وعظم شأن لاستكثر من الخير الذي يتعلق بالاستعداد للمستقبل واتقى أسباب ما يمسه من السوء فيه كالامثلة التي ذكرناها

وأما آية سورة يونس فقد وردت في سياق تماري الكفار فيما أوعدهم الله من العقاب على التكذيب بما جاءهم به رسوله من البينات والهدى واستعجالهم إياه تهكما ومبالغة في الجحود، فناسب أن يذكر في جوابهم أنه لا يملك لنفسه ولا لهم ضراً كتعجيل العذاب الذي يكذبون به ولا نفعاً كالنصر الذي يترتب على تعجيل العذاب لهم في الدنيا ، فقد أمره الله تعالى ان يبلغهم ان أمر عذابهم تعجيلا أو تأخيرا لله تعالى وحده كما أمره أن ينفي عن نفسه القدرة على ما اقترحوه من الآيات ، ومن ذلك ماذكره تعالى من مقترحاتهم في سورة الاسراء من تفجير ينبوع في مكة وايجاد جنة تتفجر الأنهار خلالها تفجيرا - أو إسقاط السماء عليهم كسفا (وهو من العذاب) الخ ومن أمره تعالى لرسوله ﷺ أن يجيبهم عن ذلك بقوله (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا) وقال تعالى في هذه السورة ايضا (ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم ، وما أرسلناك عليهم وكيلا) أي موكلا بأمر ثوابهم وعقابهم منفذا له ، وقال تعالى في سورة الرعد (وإما نرينك بعض

الذي نعدهم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب)

وهاك ماورد في التفسير المأثور في الآية نقلا عن تفسير الحافظ ابن كثير قال :

«أمره الله تعالى أن يفوض الامور اليه وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا ما أطلعه الله عليه كما قال تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً) الآية ، وقوله (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) قال عبد الرزاق عن الثوري عن منصور عن مجاهد (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) قال لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملا صالحاً ، وكذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد وقال مثله ابن جريج ، وفيه نظر لأن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ديمة ، وفي رواية كان اذا عمل عملا أثبته فجميع عمله كان على منوال واحد ، كأنه ينظر إلى الله عز وجل في جميع أحواله ، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك والله أعلم

«والاحسن في هذا مارواه الضحاك عن ابن عباس (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) أي من المال ، وفي رواية لعلمت اذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه ولا يصيبني الفقر . وقال ابن جرير وقال آخرون: معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة ، ولوقت الغلاء من الرخص . وقال عبد الله بن زيد بن أسلم (ومامسني السوء) قال لاجتنبت مايكون من الشر قبل أن يكون واتقيته . » إه وما قلناه أعم وأصح

هذا وإننا قد بينا في تفسير (٦ : ٥٠ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ، إن أتبع إلا مايوحى إليّ) أن الغيب قسمان حقيقي لا يعلمه إلا الله تعالى وإضافي يعلمه بعض الخلق دون بعض ، وأن هذه الآية تنفي قدرة الرسول على التصرف في خلق الله تعالى بما هو فوق كسب البشر ، وتنفي عنه علم الغيب بهذا المعنى ، إلا ماأعلمه الله تعالى به بوحيه لتعلقه بوظيفة الرسالة كالملائكة والحساب والثواب والعقاب — وأن مايطلع الله عليه الرسل من ذلك لا يكون من علمهم الكسبي ، بل يدخل في معني الاجماع على أن النبوة غير مكتسبة .

وأوردنا هنالك قوله تعالى في ذلك من سورة الجن(٧٢ : ٢٦ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول — إلى قوله — ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) الآية . واستطردنا إلى تفنيد مايدعيه بعض مشايخ طرق الصوفية أو يدعى لهم من علم الغيب والتصرف في ملك الله أحياءً وأمواتاً بما أغنى عن اعادته هنا [1] ثم أطلنا البحث في علم الغيب في تفسير (٦ : ٥٩ وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الا هو) الآية وتكلمنا فيه عن الكشف وغير ذلك من معرفة بعض الامور المستقبلة المتعلقة بمسألة الغيب الاضافي أو التي لايصح تسمى غيبا لأن لها أسبابا فطرية [2]. وفي الكلام على اشراط الساعة الذي مر بك قريبا بحث فيما أطلع عليه رسوله بما دون الوحي من بعض الحوادث المستقبلة كتمثل الاشياء له تمثلا متفاوتا في الوضوح، وهو لا يعارض هذه الآية كما علمت

﴿ إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ هذا بيان مستأنف لتعليل لما تقدم من نفي امتيازه (ص) على البشر بملك النفع والضر من غير طرق الاسباب وسنن الله في الخلق — ونفي امتيازه عليهم بعلم الغيب ، عللهما ببيان حصر امتيازه عليهم بالتبليغ عن الله عز وجل ، والتبليغ قسمان : قسم مقترن بالتخويف من العقاب على على الكفر والمعاصي وهو الانذار ، وقسم مقترن بالترغيب في الثواب على الايمان والطاعة وهو البشارة أو التبشير . وكل منهما يوجه إلى جميع أمة الدعوة على الاطلاق والآيات فيه كثيرة ، ويوجه أيضا إلى من يؤمن وإلى من يصر على كفره واجرامه مطلقاً ، واذا ذكر الفريقان جميعاً في سياق واحد يخص الكافرون بالانذار والمؤمنون الصالحون بالتبشير ، وقد ذكر في أول سورة الكهف الانذار المطلق بالقرآن ثم تبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات وإنذار متخذي الولد لله تعالى من الكافرين . ومن المقابلة بين الفريقين قوله تعالى في آخر سورة مريم (لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لداً) وفي معناها آيات أخرى في المقابلة كما ترى في أوائل سورتي البقرة والاسراء ، ولكن بدون ذكر لفظ الانذار . والتبشير لايوجه إلى الكافرين والمجرمين بلقبهم إلا باسلوب التهكم كقوله تعالى

(١) راجع ص ٤٢١ ج ٧ تفسير «٢» راجع ص ٤٥٦ ـ ٤٦٩ منه

(فبشرهم بعذاب أليم) على القول المشهور الذي عليه الجمهور ، وأما الانذار فقد يوجه إلى المؤمنين المتقين على معنى أنهم هم الذين ينتفعون به كقوله في سورة فاطر (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) وقوله في سورة يس (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم)

بناء على هذا قال بعض المفسرين إن قوله تعالى (لقوم يؤمنون) متعلق بالوصفين على معنى أن المؤمنين هم الذين ينتفعون بانذاره فيزيدهم خشية لله واتقاء لما يسخطه، وبتبشيره فيزدادون شكراً له بعبادته وإقامة سننه. وقال بعضهم إنه متعلق بالثاني المتصل به ويدل على حذف مقابله فيما قبله. والتقدير : ما أنا إلا نذير للكافرين وبشير للمؤمنين ، ووجهه أن المقام مقام التبليغ، وهنالك وجه ثالث وهو أن البشارة للمؤمنين خاصة لاتصالها بهم، والانذار عام لهم ولغيرهم، وقد عرف وجههما فصلناه

وقد ورد في مثل هذا من حصر وظيفة الرسول بالانذار والتبشير بلفظيهما معاً أو بأحدهما وبلفظ التبليغ الجامع لهما آيات كثيرة بعضها بالاثبات بعد النفي كما هنا وبعضها بإنما ، والحصر بكل منهما أقوى النصوص القطعية الدلالة ، ومع هذا التكرار والتوكيد كله يأبى غلاة الإطراء للرسل ولمن دون الرسل من الصالحين حقيقة أو توهما إلا أن يشركوهم مع الله سبحانه وتعالى في صفات ربوبيته وأفعاله

قال تعالى في سورة سبأ (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لايعلمون) وقال في سورتي الاسراء والفرقان (وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا) وقال في سورتي الانعام والكهف (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) وقال في سورة النحل (فهل على الرسل الا البلاغ المبين) وفي سورة يس حكاية عن الرسل (وما علينا الا البلاغ المبين) وفي سورتي النور والعنكبوت (وما على الرسول الا البلاغ المبين)

(فان قيل) إن الحصر في هذه الآيات وأمثالها إضافي فان من وظائف الرسل بيان الوحي والحكم بين الناس كما قال تعالى (إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله)وقال عزوجل (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم)والبيان يكون بالافعال كالاقوال بل الافعال أقوى دلالة وأعصى على تأويل المحرفين. وكما قد

امر تعالى بتحكيم رسوله ﷺ والخضوع لحكمه ، امر بالتأسي به في هديه وسنته (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر)

(قلنا) ان هذا لاينافي الحصر الحقيقي لان التبليغ لدين الله وشرعه لايتم الا بالعمل والحكم به وتنفيذ أحكامه فهو داخل في التبليغ وبيان الوحي

وجملة القول ان الرسل عليهم الصلاة والسلام عبيد لله تعالى مكرمون، لا يشاركونه في صفاته ولا في افعاله ، ولا سلطان لهم على التأثير في علمه ولا في تدبيره، وهم بشر كسائر الناس لا يمتازون على البشر في خلقهم وصفاتهم وغرائزهم ، وانما يمتازون باختصاص الله تعالى اياهم بوحيه ، واصطفائهم لتبليغ رسالاته لعباده ، وبما زكاهم وعصمهم فأهلهم لان يكونوا اسوة حسنة وقدوة صالحة للناس في العمل بما جاؤا به عن الله تعالى من الصلاح والتقوى ومكارم الاخلاق .

---

(١٨٩) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٩٠) فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩١) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩٢) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٣) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ

افتتحت هذه السورة بدعوة القرآن إلى دين التوحيد والأمر باتباع ما أنزل الله، والنهي عن اتباع أولياء من دونه ، وتلاه التذكير بنشأة الانسان الاولى في الخلق والتكوين ، والعداوة بينه وبين الشيطان ، ثم اختتمت بهذه المعاني ، وهو التذكير بالنشأة الاولى والنهي عن الشرك واتباع وسوسة الشيطان ، والامر بالتوحيد واتباع القرآن ، قال تعالى

﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ أي خلقكم من جنس واحد أو حقيقة واحدة صورها بشراً سويا ، ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن اليها ﴾ سكونا زوجيا ، أي جعل لها زوجا من جنسها فكانا زوجين ذكراً وأنثى كما قال تعالى (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) كما انه خلق من كل جنس وكل نوع من الاحياء زوجين اثنين قال عز وجل (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) وانا نشاهد ان كل خلية من الخلايا التي ينمي بها الجسم الحي تنطوي على نويّتين ذكر وأنثى يقترنان فيولد بينهما خلية أخرى ، وهلم جراً ، ونعلم أيضاً كيف يتكون في الارحام كل من الزوجين كما قال تعالى (وانه خلق الزوجين الذكر والانثى * من نطفة إذا تمنى) ولكننا لا ندري كيف ازدوجت النفس الاولى بعد وحدتها فكانت ذكراً وأنثى ، قال تعالى (ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) وفي التوراة التي عند أهل الكتاب ان حواء خلقت من ضلع من أضلاع آدم وقد أمرنا نبينا ﷺ أن لا نصدق أهل الكتاب ولا نكذبهم أي فيما لا نص فيه عندنا لاحتماله، فنحن نعمل بأمره ﷺ في هذا الخبر وان حمل عليه بعض المفسرين وغيرهم حديث «استوصوا بالنساء فان المرأة خلقت من ضلع وان أعوج شيء في الضلع أعلاه فان ذهبت تقيمه كسرته ، وان تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء » رواه الشيخان من حديث أبي هريرة مرفوعا ، فان المتبادر منه الذي اعتمده الشراح في تفسيره ان المراد بخلقها منه أنها ذات اعوجاج وشذوذ تخالف به الرجل كما يشير اليه مارواه ابن حبان عن أبي هريرة« ان المرأة خلقت من ضلع أعوج » فهو على حد قوله تعالى (خلق الانسان من عجل) وقال الحافظ في شرحه من الفتح : قيل فيه إشارة إلى أن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر وقيل من ضلعه القصير أخرجه ابن اسحاق وزاد: اليسرى من قبل أن يدخل الجنة وجعل مكانه لحم ، ومعنى خلقت أي أخرجت كما تخرج النخلة من النواة اهـ فتأمل لجعل الحافظ المسألة من باب الاشارة وحكايته لها بصيغة التضعيف ، وما ذكره من تفسيرها الغريب بتشبيه خلق الانسان بخلق النبات ، وظاهره انه لم يطلع على سعة حفظه على قول لمن يعتد بأقوالهم من علماء السلف ومحققي الخلف

في المسألة ، وتذكر ان الله تعالى خاطب الناس في عصر التنزيل بمثل ماحكاه لهم في هذه الآية عن نشأة جنسهم في كونه تعالى خلق لهم أزواجا من أنفسهم فقال في بيان آياته من سورة الروم (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فهذا المعنى عام لاخاص بالانسان الأول

عبر التنزيل عن ميل الزوج الجنسي إلى زوجه هنا وفي سورة الروم بالسكون وذلك ان المرء إذا بلغ سن الحياة الزوجية يجد في نفسه اضطرابا خاصا لا يسكن إلا إذا اقترن بزوج من جنسه واتحدا ذلك الاقتران والاتحاد الذي لا تكمل حياتهما الجنسية المنتجة إلا به ، ولذلك قال بعده ﴿ فلما تغشاها ﴾الخ الغشاء غطاء الشيء الذي يستره من فوقه ، والغاشية الظلة تظله من سحابة وغيرها (والليل إذا يغشى) أي يحجب الاشياء ويسترها بظلامه، وتغشاها اتاها كغشيها ويزيد ماتعطيه صيغة التفعل من جهد ، وهو كناية نزيهة عن أداء وظيفة الزوجية تشير إلى أن مقتضى الفطرة وأدب الشريعة فيها الستر ، ولفظ النفس مؤنث فأنث في أول الآية ، ولفظ الزوج يطلق على الذكر والانثى ولهذا ذكّر هنا فاعل التغشي وأنث مفعوله . أي فلما تغشى الزوج الذي هو الذكر الزوج التي هي الانثى ﴿ حملت حملا خفيفا ﴾ أي علقت منه وهو الحبل ، والحمل بالفتح يطلق على المصدر وعلى المحمول والمشهور انه خاص بما كان في بطن أو على شجرة وان ماحمل على ظهر ونحوه يسمى حملا بكسر الحاء . والحمل هاهنا يحتمل المعنيين وهو يكون في أول العهد خفيفا لاتكاد المرأة تشعر به ، وقد تستدل عليه بارتفاع حيضتها ﴿ فمرت به ﴾ أي فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخداج ولا إزلاق كما قاله الزمخشري أو استمرت في اعمالها وقضاء حاجتها من غير مشقة ولا استثقال ﴿ فلما أثقلت ﴾ اي حان وقت ثقل حملها وقرب وضعها ﴿ دعوا الله ربهما : لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين ﴾ اي توجها إلى الله تعالى ربهما يدعوانه فيما انحصر همهما فيه بعد تمام الحمل على سلامة بأن يعطيهما ولدا صالحا اي سويا تام الخلق يصلح للقيام بالاعمال البشرية النافعة ـ ولا ينبغي أن يدعو العبد غير

ربه ، فيما لا يملك هو ولا غيره من العبيد أسبابه ، دعواه مخلصين مقسمين له على ما وطنا عليه انفسهما من الشكر له على هذه النعمة قائلين لئن اعطيتنا ولدا صالحا لنكونن من القائمين لك بحق الشكر قولا وعملا واعتقادا واخلاصا ، كما يدل عليه الوصف المعرف

﴿ فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما ﴾ اي فلما اعطاهما ولدا صالحا لا نقص في خلقه ، ولا فساد في تركيبه ، جعلا له شركاء في إعطائه أو فيما اعطاه بأن كان سبباً لوقوع الشرك منهما أو ظهور ماهو راسخ في أنفسهما منه ، رسنبين معناه وقرأ نافع وأبو بكر (جعلا له شِركاً) أي شركة أو ذوي شرك ، فالمعنى واحد

﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ اي تعالى شأنه عن شركهم ، فانه هو معطي النسل بما خلقه لكل من الزوجين من اعضاء ، وقدر لها في العلوق والوضع من اسباب ، لا فعل لغيره في ذلك البتة . وجمع الضمير هنا بعد تثنيته الافعال قبله لان المراد فيه بالزوجين الجنس لا فردين معينين : وقال الزمخشري : ان الضمير في (آتيتنا) و (لنكونن) لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما . والآية على كل من القولين بيان لحال البشر فيما طرأ عليهم من نزغات الشرك الخفي والجلي في هذا الشأن وأمثاله ، والجنس يصدق ببعض انواعه وببعض افراده

فمثال الشرك الخفي في انعام الله عليهم بالنسل ما يسندونه إلى الاسباب في سلامة الحامل من الامراض في أثناء الحمل أو في حالة الوضع ، وفي سلامة الطفل عند الوضع وعقبه وفيما بعد ذلك من الموت أو التشويه أو الامراض ، كقولهم : لولا ان فعلنا كذا لكان كذا ، ولولا فلان أو فلانة من طبيب أو مرشد أو قابلة لهلك الولد أو لاجهضت أمه إجهاضا ، أو جاءت بسقط لم يستهل ، أو لمات عقب اسقاطه لعدم استعداده للحياة . وينسون في هذه الاحوال فضل الله تعالى عليهم بما منّ به من العافية والتوفيق وتسخير الاسباب من البشر وغيرهم ، وان كانوا ممن يذكرونها ولا ينكرونها إذا ذكروا بها ـ ذلك شأن كثير من الناس في كل نعمة تمسهم ، أو نقمة يدفعها الله تعالى عنهم ، وهذا الشرك ليس خروجا من الملة ، ولكنه نقص في شكر المنعم ، ويحتمل أن يكون المراد بالشرك هنا ترجيح حب الاولاد على حب الله تعالى وشغلهم للوالدين عن ذكره وشكره ، وإيثارهم لهم على

طاعته والتزام ماشرعه من أحكام الحلال والحرام، وهو كسابقه نقص في التوحيد لا نقض له ، وغفلة عنه لا جحد به

ومثال الشرك الجلي إسناد هذه النعم إلى غيره تعالى ممن يدعونهم من دونه او معه من الاولياء والقديسين ، أو الانبياء والمرسلين ، أو مايذكر بهم او يمثلهم من القبور او الاصنام والتماثيل ، يقولون : لولا سيدي فلان ولولا مولانا علان لما كان كذا مما نحب ، أو لكان كذا وكذا مما نكره ، يعتقدون ان لهم فيما كان من نفع ومنع ضرر تأثيراً غيبياً يستقلون به هو فوق تأثير الاسباب المذكورة عن القسم الاول كما تقدم شرحه مرارا أقربها ما في تفسير الآية السابقة

﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ أي وارتفع مجده ،وتعالى جده، تنزهاعن شرك هؤلاء الاغبياء أوعن شركائهم أن يكون لهم تصرف في خلقه،اوتأثير في صفاته وأفعاله

كنت قرأت منذ سنين جل ماقال المفسرون في تفسير هذه الآيات من كتبهم التي بين أيدينا من مأثور وغيره ، وما أوردوه فيها من الاشكال، وما لهم في الجواب عنه والتفصي منه من اقوال ، ولما أردت كتابة تفسيرها الآن لم أجد مما في ذهني منه شيئاً مرضياً يطمئن به قلبي ، فتوجهت إلى الله تعالى وفكرت في معناها الذي يعطيه الاسلوب العربي وينطبق على سنة الله في البشر ، وفي بيان كتابه لحقائق أحوالهم، فكرت في ذلك قبل النوم وأنا في فراشي، ثم كتبت ماتقدم في آخر النهار، ثم بحثت فيما عندي من كتب التفسير لأكتب خلاصة ماقيل فيها ، وانظر فيما عساه يؤيده ، وأجيب عما ربما يفنده ، فاذا أنا بصاحب الانتصاف يقول بعد ذكر مانقلناه آنفاً من كلمة الزمخشري في ضميري الجمع مانصه : وأسلم من هذين التفسيرين أن يكون المراد جنسي الذكر والانثى لا يقصد فيه إلى معين ، وكان المعنى والله أعلم : خلقكم جنساًواحداً وجعل أزواجكم منكم أيضاً لتسكنوا اليهن، فلما تغشى الجنس الذي هو الذكر الجنس الآخر الذي هو الانثى جرى من هذين الجنسين كيت وكيت . وانما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحدون لأن المشركين منهم كقوله تعالى (ويقول الانسان أإذا مامت لسوف أخرج حياً * قتل الانسان ماأكفره * إن الانسان لفي خسر) إه

وأما الاشكال الذي أشرنا اليه فهو ماروي عن بعض الصحابة والتابعين وفي حديث مرفوع أيضاً من أن الآية في آدم وحواء فقد أخرج احمد والترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وغيرهم من حديث سمرة بن جندب مرفوعا قال « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فانه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان » وهو على كثرة مخرجيه غريب وضعيف كما سيأتي، وقد جاءت الآثار في هذا المعنى مفصلة ومطولة وفيها زيادات خرافية، تشهد عليها بأنها من الدسائس الاسرائيلية ، وهذه الآثار يعدها بعض العلماء من قبيل الاحاديث المرفوعة لانها لا تقال بالرأي، والذي نعتقده وجرينا عليه في التفسير أن كل ماهو منها مظنة للاسرائيليات المتلقاة عن مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه فهي لا يوثق بها، فان كانت مع ذلك مشتملة على ماينكره الدين أو العلم الصحيح قطعنا ببطلانها وكونها دسيسة اسرائيلية، ومنها مانحن فيه لأن فيه طعناً صريحاً في آدم وحواء عليهما السلام ورمياً لهما بالشرك ، ولذلك رفضها بعض المفسرين وتكلف آخرون في تأويلها بما تنكره اللغة . وقد اعتمد بعض المتأخرين كصاحب فتح البيان وصاحب روح المعاني الاخذ بحديث سمرة دون آثار الصحابة والتابعين التي فيها ماليس فيه من رمي آدم بالشرك الصريح، وظنا أنه حجة ووصفاه تبعاً للترمذي والحاكم بالحسن وبالصحيح ، وماهو بحسن ولا صحيح ، على أنه لم يرد تفسيراً للآية كتلك الآثار .

وذهب بعض المفسرين إلى أن الخطاب في الآية لقريش وأن المراد فيها بالنفس الواحدة قصي جدهم ، وأن المراد بجعل زوجها منها أنها قرشية أو عربية لما روي أنها من خزاعة لا من قريش ، وأن المراد بشركهما تسمية أبنائهما الاربعة عبد مناف وعبد شمس وعبد العزى وعبد الدار — يعني دار الندوة — وفيه نظر من وجوه ذكرها بعض المفسرين لا نضيع الوقت بذكرها . وانما الذي يصح أن يذكر ويبين بطلانه فهو الروايات التي انخدع بها ولا يزال ينخدع بها الكثيرون، وعمدتنا في تمحيصها وبيان عللها الحافظ ابن كثير فقد قال في تفسيره مانصه :

« ذكر المفسرون ههنا آثاراً وأحاديث سأوردها وأبين مافيها ثم نتبع ذلك

ببيان الصحيح في ذلك إن شاء الله وبه الثقة . قال الامام أحمد في مسنده : حدثنا عبدالصمد حدثنا عمر بن ابراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ قال « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره » وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار عن بندار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به ، ورواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبد الصمد به وقال هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من حديث عمر بن ابراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه ورواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعا ثم قال هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، ورواه الامام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره عن أبي زرعة الرازي عن هلال بن فياض عن عمر بن ابراهيم به مرفوعا ، وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث شاذ بن فياض عن عمر بن ابراهيم به مرفوعا (قلت) وشاذ هو هلال وشاذ لقبه ، والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه (أحدها) أن عمر بن ابراهيم هذا هو المصري وقد وثقه ابن معين ، ولكن قال أبو حاتم الرازي لايحتج به[1] ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعا فالله أعلم (الثاني) أنه قد روي من قول سمرة نفسه ليس مرفوعا كما قال ابن جرير : حدثنا ابن عبدالاعلى حدثنا المعتمر عن أبيه حدثنا بكر بن عبدالله عن سليمان التيمي عن عبدالاعلى بن الشخير عن سمرة بن جندب قال : سمى آدم ابنه عبد الحارث (الثالث) أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه . قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن (جعلا له شركاء فيما آتاهما) قال كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم ، وحدثنا محمد بن عبد الاعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر قال : قال الحسن عني بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده ، يعني جعلا له شركاء فيما آتاهما ، وحدثنا

«١» وقال أحمد وابن عدي وابن حبان أنه يروي عن قتادة أحاديث منكرة لايوافق عليها وقال الدارقطني ويترك حديثه وقال البزار ليس بالحافظ

بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن يقول : هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا . وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك وهو من أحسن التفسير وأولى ما حملت عليه الآية ، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره لاسيما مع تقواه لله وورعه فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي ، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما كما سيأتي بيانه إن شاء الله ألا انما برئنا من عهدة المرفوع والله أعلم

«فأما الآثار فقال محمد بن اسحاق بن يسار عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فيعبدهم لله ويسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت ، فأتاهما إبليس فقال : إنكما لو سميتماه بغير الذي تسميانه به لعاش ، قال فولدت له رجلا فسماه عبد الحارث ففيه أنزل الله يقول (هو الذي خلقكم من نفس واحدة — إلى قوله — جعلا له شركاء فيما آتاهما) إلى آخر الآية : وقال العوفي عن ابن عباس قوله في آدم (هو الذي خلقكم من نفس واحدة — إلى قوله — فمرت به) شكت أحملت أم لا ؟ (فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين) فأتاهما الشيطان فقال هل تدريان ما يولد لكما أم هل تدريان ما يكون أبهيمة أم لا ؟ وزين لهما الباطل انه غوي مبين، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا فقال لهما الشيطان إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سويا ومات كما مات الاول فسميا ولدهما عبد الحارث فذلك قول الله (فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما) الآية . وقال عبد الله ابن المبارك عن شريك عن خصيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله (فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما) قال : قال الله تعالى (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها، فلما تغشاها) آدم حملت فأتاهما إبليس لعنه الله فقال اني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني أو لأجعلن له قرني أيل فيخرج من بطنك فيشقه ولأفعلن ولأفعلن — يخوفهما — فسمياه عبد الحارث، فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً، ثم حملت الثانية فأتاهما أيضاً فقال:

أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت لتفعلن أو لأفعلن - يخوفهما - فأبيا أن يطيعا فخرج ميتاً ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضاً فذكر لهما فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث فذلك قوله تعالى (جعلا له شركاء فيما آتاهما) رواه ابن أبي حاتم

« وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة، ومن الطبقة الثانية قتادة والسدي وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، وكأنه والله أعلم أصله مأخوذ من أهل الكتاب فان ابن عباس رواه عن أبيّ بن كعب كما رواه ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الجماهير حدثنا سعيد يعني ابن بشير عن عقبة عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب قال : لما حملت حواء أتاها الشيطان فقال لها أتطيعيني ويسلم لك ولدك سميه عبد الحارث فلم تفعل فولدت فمات ، ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل، ثم حملت الثالثة فجاءها فقال : إن تطيعيني يسلم وإلا فانه يكون بهيمة . فهيبهما فأطاعا

« وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال « اذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » ثم أخبارهم على ثلاثة فمنها ماعلمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ومنها ماعلمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً ، ومنها ماهو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته بقوله عليه السلام « حدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج » وهو الذي لا يصدق ولا يكذب لقوله « فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » وهذا الأثر هو من القسم الثاني أو الثالث ؟ فيه نظر ، فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فانه يراه من القسم الثالث ، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ، وانما المراد من ذلك المشركون من ذريته ، ولهذا قال الله (فتعالى الله عما يشركون) ثم قال فذكره آدم وحواء أولا كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) الآية ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء

ليست هي التي يرمى بها ، وانما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسه ولهذا نظائر في القرآن والله أعلم . إه سياق ابن كثير وقد أصاب كنه الحقيقة في قوله ان هذه الآثار مأخوذة من الاسرائيليات ، ولما كانت طعنا في عقيدة أبوينا آدم وحواء عليهما السلام بما تبطله عقائد الاسلام، وجب الجزم ببطلانها وتكذيبهم فيها.

ثم بيّن تعالى سخافة عقولهم وأفن آرائهم بهذا الشرك فقال ﴿ أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يُخلقون ﴾ الاستفهام للانكار والتجهيل ، أي يشركون به سبحانه وتعالى وهو الخالق لهم ولأولادهم ولكل شيء ما لا يخلق شيئا من الأشياء مهما يكن حقيراً كقوله تعالى (ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له) وليس قصارى أمرهم أن الخلق لا يقع منهم، بل هو يقع عليهم، فهم يُخلقون آنا بعد آن ، ولا يليق بسليم العقل أن يجعل المخلوق العاجز، شريكا للخالق القادر ؟ والآية وما بعدها حكاية لشرك عباد الاصنام والتماثيل كافة ، ومنهم مشركو مكة وأمثالهم ممن نزل القرآن في عهدهم ومن يجيء بعدهم ، فقوله (مالا يخلق شيئا) يراد به أصنامهم لأن « ما » لما لا يعقل ولفظها مفرد وهو من صيغ العموم فأفرد الضمير في « يخلق » مراعاة للفظ ثم جمع في «يخلقون» مراعاة للمعنى، وجعله ضمير العقلاء من قبيل الحكاية لاعتقادهم، والتعبير بفعل المضارع « يخلقون » لتصوير حدوث خلقهم، وكون مثله مما يتجدد فيهم وفي أمثالهم من المشركين ، وهذا أسوأ فضائحهم في الشرك

﴿ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ﴾ أي وهم على كونهم مخلوقين غير خالقين لشيء لا يستطيعون لعابديهم نصراً على أعدائهم، ولا يستطيعون لأنفسهم نصراً على من يعتدي عليها باهانتها،أو أخذ شيء من طيبها أو حليها ، كما قال (وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) أي فهم يحتاجون اليكم في تكريمهم وانتم لا تحتاجون اليهم ، بل أنتم الذين تدفعون عنهم وتنصرونهم بالنضال دونهم ، ﴿ وان تدعوهم إلى الهدى لا يتّبعوكم ﴾ قرأ نافع « لا يتْبعوكم » بالتخفيف والباقون بالتشديد أي وان تدعوهم إلى

ماهو الهدى والرشاد في نفسه لايتبعوكم ، ولا هم نفعونكم ولا هم ينتفعون منكم أو المعنى وان تدعوهم إلى إفادتكم لا يستجيبون لكم ﴿ سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ﴾ أي مستو عندكم دعاؤكم إياهم وبقاؤكم على صمتكم ، ولعله لم يقل: صمتم ، أو تصمتون ، لأن إشراكهم بهم كان قد وهن بحيث لم يكونوا يدعونهم عند الاضطرار وكوارث الخطوب بل يدعون الله وحده ، وانما كانوا يتحدثون بتقاليدهم الوثنية فيهم والرجاء شفاعتهم في أوقات الرخاء ، التي لايشعر فيها الانسان بالحاجة إلى الدعاء (فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر اذا هم يشركون) ومنه الدعاء بالولد الصالح عند قرب وضع الحامل ، والشرك بعد وجود الولد الصالح ، فالتعبير بالوصف « صامتون » لافادة كون إحداث الدعاء واستصحاب الحال الثابتة قبله واستمرارها سواء ، وهي تصدق بنفي شعورهم بالحاجة الى دعائهم وعدم خطورهم بالبال عند الشدائد ، والشعور بحاجة المخلوق الى الرب الخالق ، ولو قال: « أصمتم » أو « أم انتم تصمتون » لما كانت المقابلة بين وجود وعدم ، وايجاب وسلب ، لأنه يصدق بتكلف الصمت وكف النفس عن دعائهم ولو للتجربة مع الشعور بالحاجة الى الدعاء . والاول أبلغ في المراد من كون وجود هذه الأصنام وعدمها سواء ، ومن كون دعائها مساويا لترك الدعاء ، ولو مع انصراف القلب عنها ، ولو كانت وسائل تشفع عندالله وتقرب اليه زلفى كما كان يقول أولو الوثنية الكلاسية الخالية ، أو تنفع وتضر بنفسها أو بما أعطاها الله تعالى من التصرف في الكون باستقلالها كما يعتقد أصحاب الوثنية العارية العاطلة — لكان الاعراض عن دعائها ضاراً بهم ، أومضيعا بعض المنافع عليهم

وقد يظن من أشرك بعض الأولياء مع الله تعالى هذا النوع من الاشراك ان هذا التوبيخ لا يوجه اليهم ، وان هذه الحجة لا تقوم عليهم ، لان أولئك كانوا يدعون جماداً أو شجراً لا يعقل ، وهم يدعو أولياء وصلحاء ؛ لأموا تهم حكم الشهداء في الحياة ، وهم يقصدون قبورهم ، يعظمونها لان لأرواحهم اتصالا بها ، وانما جاءت هذه التفرقة من جهلهم بأن اكثر هذه الاصنام لم تنصب إلا للتذكير بأناس من الاولياء الصالحين كما رواه البخاري عن ابن عباس في اصنام قوم نوح التي انتقلت

الى العرب ، وقد كانت اللات صخرة لرجل يلت عليها السويق ويطعمه الناس .
فالاصنام والتماثيل والقبور التي تعظم تعظيما دينيًا لم يأذن به الله كلها سواء في كونها
وضعت للتذكير بأناس عرفوا بالصلاح ،وكانوا هم المقصودين بالدعاء لما تخيلوا فيه
من التأثير في إرادة الله ، أو التصرف الغيبي في ملك الله ، وهو أفحش الشرك بالله،
على أنه لافرق في المسألة بين اشراك الصنم والوثن، واشراك الولي أو النبي أو الملك
فاقرأ الآيات في اتخاذ الولد لله من الملائكة والمسيح في سورة الانبياء (٢١:٢٦-٢٩)

(١٩٤) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٥) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ؟ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٦) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٧) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٨) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ

هذه الآيات تتمة لما قبلها من آيات التوحيد مقررة ومؤكدة لمضمونها، لان توحيد العبادة ونفي الشرك فيها هو أس الاسلام، ولا يتقرر في الاذهان، ويثبت في الجنان، ويكمل بالوجدان، إلا بتكرار الآيات فيه نفيًا وإثباتا لمضمون كلمة (لا إله إلا الله)

﴿ ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ الدعاء مخ العبادة وركنها الاعظم فلا يصح توحيد أحد لله إلا بدعائه وحده وعدم دعاء أحد معه كما قال (فلا تدعوا مع الله أحداً) والمفسرون يقولون ان الدعاء في مثل هذه الآيات معناه العبادة من باب تسمية الكل باسم الجزء فصاروا يفسرون « تدعون » بتعبدون فضل بعض العوام من القارئين وغيرهم في هذا التعبير وظنوا ان المرء لا يكون عابداً لغير الله تعالى إلا إذا كان يصلي له الصلاة المعروفة ويصوم لأجله ، وانه

لاينافي توحيد الله تعالى أن يدعى غيره معه أو يدعى من دونه بقصد التوسل اليه والاستشفاع لديه ، إذا كان لايصلي ولا يصوم له . وقال بعضهم : ان الدعاء هنا بمعنى التسمية فيكون الانكار فيه خاصاً بتسميتهم لأصنامهم وغيرهم من معبوداتهم آلهة . وكل من هذا وذاك ضرب من ضروب الاحتمالات اللفظية التي يتعلق بها من أشرك بالله جاهلا بمعنى الشرك ممن يدعون الموتى من الصالحين لدفع الضر عنهم أو جلب الخير لهم ، من غير طريق الاسباب التي هي من تناول كسبهم وسعيهم ، ولكنهم لايسمونهم آلهة. وهذا هو الشرك الا كبر الذي نعي على المشركين من قبلهم لامجرد التسمية التي لاتكون بدونه صحيحة

والحق الذي لامعدل عنه أن الدعاء هنا هو النداء لدفع الضر أو جلب النفع الموجه إلى من يعتقد الداعي أن له سلطانا يمكنه به أن يجيبه إلى ماطلبه بذاته أو بحمله للرب الخالق على ذلك بحيث يجيب دعاء الداعي لأجله

يقول تعالى ان الذين تدعونهم من دون الله هم عباد لله أمثالكم في كونهم مخلوقين لله تعالى خاضعين لسننه في خلقه ، وإذا كانوا أمثالكم امتنع عقلا أن تطلبوا منهم ما لاتستطيعون نيله بأنفسكم ولا بمساعدة أمثالكم لكم فيما يتوقف على التعاون في اتخاذ الاسباب له . وانما يدعى لما وراء الاسباب المشتركة بين الخلق الربّ الخالق المسخر للاسباب الذي تخضع لارادته الاسباب وهو لايخضع لها ، ولا لارادة أحد بحمله على ما لا يشاؤه منها

وهذه المماثلة انما تظهر فيمن يدعى من دون الله تعالى من الملائكة أو الانبياء أو الصلحاء ، دون ما اتخذ لهم تذكيرا بهم من التماثيل أو القبور أو الاصنام، وقد صار بعض هذه المذكرات يقصد لذاته ، جهلا بما كانت اتخذت لاجله ، وفي هذه الحالة تدخل في المماثلة بطريقة تنزيلها منزلة ما وضعت لاجله ، كأنه يقول ان قصارى أمرها أن تكون من الاحياء العقلاء أمثالكم، فكيف ترفعونها عن هذه المثلية، إلى مقام الربوبية ؟

﴿ فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين ﴾ أي إن كنتم صادقين في زعمكم أنهم يقدرون على مالا تقدرون عليه بقواكم البشرية من نفع أو ضر

بذواتهم فادعوهم فليستجيبوا لكم بأنفسهم ، أو ليحملوا الرب تبارك وتعالى على إعطائكم ماتطلبون منهم ان كنتم صادقين في قولكم (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقولكم (مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) ثم بيّن لهم أنهم أحط رتبة منهم لا أمثالا لهم، فقال

﴿ ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها؟ ﴾ هذا تقريع موجه الى الوجدان ، في إثر احتجاج وجه قبله الى الجنان، والاستفهام فيه للانكار، وهو خاص بالاصنام والاوثان، ومعناه أنهم لفقدهم لجوارح الكسب، التي يناط بها في عالم الاسباب النفع والضر، قد هبطوا عن درجة مماثلتكم من كل وجه ، فليس لهم أرجل يسعون بها الى دفع ضر أو جلب نفع ، وليس لهم أيد يبطشون بها فيما ترجوز منهم من خير أو تخافون من شر، وليس لهم أعين يبصرون بها حالكم ، وليس لهم آذان يسمعون بها أقوالكم ، ويعرفون بها مطالبكم ، فأنتم تفضلونهم في الصفات والقوى التي أودعها الله في الخلق ، فلماذا ترفعونهم عن مماثلتكم ، وهم بدليل المشاهدة والاختبار دونكم ؟ وها أنتم أولاء تستكبرون عن قبول الهدى والرشاد من الرسول وتعللون ذلك بأنه بشر مثلكم ، فيقول بعضكم لبعض (ماهذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون) أفتأبون قبول الحق والخير من مثلكم، وقد فضله الله بالعلم والهدى عليكم ، وهو لا يستذلكم بادعاء انه ربكم أو إلهكم ، ثم ترفعون مادونه ودونكم إلى مقام الالوهية، مع انحطاطه وتسفله عن هذه المثلية ؟

﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المرزوئين بعقولهم ، المحتقرين لنعم الله تعالى عليهم ، نادوا شركاءكم الذين اتخذتموهم أولياء، وزعمتم أنهم فيكم شفعاء، ثم تعاونوا على كيدي جميعاً، واجمعوا امكركم الخفي لايقاع الضر بي سريعا ، فلا تنظرون أي لاتؤخروني ساعة من نهار ، بعد إحكام المكر الكبار . وحكمة مطالبتهم بهذا ان العقائد والتقاليد الموروثة تتغلغل في أعماق الوجدان ، حتى يتضاءل دونها كل برهان ، ويظل صاحبها مع ظهور الدليل على

بطلانها يتوهم انها تضر وتنفع، وتقرب من الله وتشفع، فطالبهم بأمر عملي يستل هذا الوهم من أعماق قلوبهم ، ويقتلع الشعور به من خبايا صدورهم ، وهو أن ينادوا هؤلاء الشركاء نداء استغاثة واستنجاد لابطال دعوة الداعي الى الكفر بها ، واثباته العجز لها ، وبذل الجهد فيما ينسبون اليها من التأثير الباطن ، والتدبير الكامن ، الذي هو عندهم أمر غيبي ، يدخل في معنى الكيد الخفي . فان كان لهاشيء ما من السلطان الغيبي في أنفسها أو عند الله تعالى فهذا وقت ظهوره ، فان لم يظهر لابطال عبادتها وتعظيمها ، ونصر عابديها ومعظمي شأنها ، فمتى يظهر وينتفعون به ؟ وهم منكرون للبعث ، وكل مايرجونه أو يخافونه منها فهو خاص بما يكون في هذه الارض ؟

﴿ ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾ هذا تعليل لجزمه ﷺ بما ذكر من عجز هذه المعبودات وتحقير أمرها وأمر عابديها على ما كان من ضعفه بمكة عند نزول هذه السورة . يقول ان ناصري ومتولي أمري هو الله الذي نزل علي هذا الكتاب الناطق بوحدانيته في ربوبيته ، وبما يجب من عبادته ودعائه في المهمات والملمات وحده ، وبأن عبادة غيره باطلة ، وان دعاء هذه الاوثان هزؤ باطل ، وسخف لايرضاه لنفسه إلا جاهل سافل ، وهو يتولى نصر الصالحين من عباده ، وهم الذين صلحت أنفسهم بالعقائد الصحيحة السالمة من الخرافات والاوهام ، والاعمال التي تصلح بها الافراد وشؤون الجماعات ، فينصرهم على الخرافيين الفاسدي العقائد والمفسدين في الاعمال (فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث في الارض ، كذلك يضرب الله الامثال)

﴿ والذين تدعون من دون الله لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾ أي وأما الذين تدعونهم لنصركم ولغير النصر من منافعكم ودفع الضر عنكم ، فهم عاجزون لا يستطيعون أن ينصروكم ، ولا أن ينصروا أنفسهم على من يحقر أمرهم ، أو يسلبهم شيئاً مما وضع من الطيب أو الحلي عليهم ، وقد كسر ابراهيم ﷺ الاصنام فجعلهم جذاذاً فما استطاعوا أن يدفعوه عن أنفسهم ، ولا أن

ينتقموا منه لها . وروي عن معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل (رض) وكانا شابين من الانصار قد أسلما لما قدم النبي ﷺ المدينة انهما كانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتخذانها حطباً للارامل ليعتبر قومهما بذلك ، وكان لعمرو بن الجموح وكان سيد قومه صنم يعبده فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة فيجيء فيرى ماصنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفا ويقول له انتصر حتى أخذه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه بحبل في بئر فلما رآه كذلك علم بطلان عبادته وأسلم وفيه يقول

تالله لو كنت إلها مستدن لم تك والكلب جميعا في قرن

وبعد أن نفى قدرتهم على النصر ، قفى عليه بنفي قدرتهم على الارشاد اليه فقال

﴿ وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا ﴾ ي وان تدعوهم الى أن يهدوكم إلى ما تنتصرون به من أسباب خفية أو جلية لا يسمعوا دعاءكم مطلقا ، فكيف يستجيبون لكم ؟ على انهم لوسمعوا لما استجابوا لعجزهم عن الفعل، كفقدهم للسمع،

﴿ وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون ﴾ أي وهم فاقدون لحاسة البصر كفقدهم لحاسة السمع ، وتراهم أيها المخاطب ينظرون اليك بما وضع لهم من الاعين الصناعية، والحدق الزجاجية أو الجوهرية ، وجعلها موجهة الى الداخل عليها كأنها تنظر اليه ، وهم لا يبصرون بها لان الابصار لا يحصل بالصناعة ، بل هو من خواص الحياة التي استأثر الله سبحانه بها، وإذا كانوا لا يسمعون دعاء ولا نداء من عابدهم ولا من غيره ، ولا يبصرون حاله وحال خصمه ، فأنى يرجى منهم نصره وشد أزره؟

وفي الآية وجه آخر ذهب اليه بعضهم وهو أن الخطاب فيها للمؤمنين والرسول في مقدمتهم بناء على ان الكلام في الاصنام قد تم فيما قبلها وعاد الكلام في عابديها ، أي وان تدعوا أيها المؤمنون هؤلاء الاغبياء من المشركين، الذين لم يعقلوا هذه الحجج والبراهين ، الى هدى الله وهو التوحيد والاسلام لا يسمعوا دعوتكم سماع فهم واعتبار، وتراهم أيها الرسول ينظرون اليك وهم لا يبصرون ما أوتيت من سمت الجلال والوقار، الذي يميز به صاحب البصيرة بين أولي الجد والعزم ، والصدق في القول والفعل ، وبين

أهل العبث والهزل . ولقد كان بعض ذوي الفطرة السليمة ينظر الى النبي ﷺ فيعرف من شمائله وسيماه في وجهه ، أنه حر صادق ، غير مخادع ولا مماذق ، فيقول والله ماهذا الوجه وجه كاذب

ومازال من المعهود بين الناس ان أصحاب البصيرة والفضيلة من الناس يعرف بعضهم بعضاً بذلك من أول العهد بالتلاقي بما يتوسمون من ملامح الوجه ومعارفه ثم من موضوع الحديث وتأثيره في نفس المتكلم والسامع ثم يكمل ذلك بالمعاشرة. كما يعرفون حال الاشرار والمنافقين بذلك (ولو نشاء لاريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول) بهذه البصيرة النيرة عرفت السيدة خديجة فضلى عقائل قريش فضائل محمد بن عبدالله قبل بعثته ، فاستمالته وخطبته لنفسها على غناها وفقره ، بعد ان رفضت أناساً من كبراء قريش خطبوها بعد موت زوجها الاول، ثم كانت أول من جزم برسالته عندما حدثها بأول مارآه من بدء الوحي وخاف على نفسه منه ، وقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول رجل دعاه الرسول صلوات الله وسلامه عليه الى الاسلام بحسن فراسته فيه فلم يتوقف ولم يتمكث ولم يتريث أن اجاب الدعوة منشرح الصدر قرير العين، لأنه كان أجدر الناس بمعرفة حقيقتها وحقيقة من دعا اليها . وامثلة هذا كثيرة في كل زمان. وكان أظهرها في قرننا هذا تعلق الشيخ محمد عبده بالسيد جمال الدين الأفغاني من أول ليلة رآه فيها ولزامه الى أن فارق هذه الديار، فلم يعرفه حق المعرفة غيره على كثرة المكبرين له والمعجبين به ، وقد كان الكثيرون من أهل الازهر يفرون منه ويصدون عنه ، فأين هم وأين آثارهم في العلم أو الدين ؟ فبأمثال هذه العبر الواقعة تفهم معنى قوله تعالى (وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون) على الوجه الاخير في تفسيرها ، لا بمجرد تسمية هذا التعبير استعارة شبه فيها كذا بكذا. ثم اقرأ في معناه قوله تعالى (١٠ : ٤٢ ومنهم من يستمعون اليك فانت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون * ومنهم من ينظر اليك فانت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون)

---

(١٩٩) خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ

هذه الآية بيان لأصول الفضائل الأدبية وأساس التشريع ، وهي التي تلي في

المرتبة أصول العقيدة المبنية على التوحيد ، الذي تقرر فيما قبلها من الآيات بابلغ التوكيد ، فقوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين ﴾ يأمر فيه بثلاثة أشياء هي أصول كلية للقواعد الشرعية والآداب النفسية والأحكام العملية

(الاصل الأول) العفو وهو يطلق في اللغة على خالص الشيء وجيده، وعلى الفضل الزائد فيه أو منه ، وعلى السهل الذي لا كلفة فيه ، وعلى ما يأتي بدون طلب أو بدون احفاء ومبالغة في الطلب ، وهذه المعاني متقاربة وهي وجودية ، ومن معانيه السلبية إزالة الشيء كعفت الرياح الديار والآثار ، أو إزالة أثره كالعفو عن الذنب وهو منع ما يترتب عليه من العقاب ، فمعاني العفو الوجودية والعدمية أو الموجبة والسالبة كلها احسان ورفق ، وقد ورد عن مفسري السلف في تفسير العفو هنا أقوال كلها ترجع الى هذه المعاني، فرواية العوفي عن ابن عباس في تفسير (خذ العفو) خذ ما عفا لك من أموالهم — أي ما فضل وما أتوك به من شيء . وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها، وبذلك قال السدي وزعم أنها نسخت بآية الزكاة — وفي رواية الضحاك عنه : أنفق الفضل ، ومثلها عن سعيد بن جبير . وفي عدة روايات عن هشام ابن عروة بن الزبير عن أبيه عن عمه عبد الله ابن الزبير أن معناها خذ العفو من أخلاق الناس ومثله وفي رواية لهشام عن عروة عن خالته عائشة أم المؤمنين مثل ذلك وبه قال مجاهد . وروي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن العفو هنا الصفح عن المشركين وكان عشر سنين فنسخ بآية السيف ، وهذا ضعيف لان العفو بهذا المعنى لا يعبر عنه بالأخذ لأنه أمر عدمي هو بالاعطاء أشبه ، ولا بالقبول لأنه لم يطلب . وأحسن الزمخشري ما شاء في تصويره معنى العفو بما تعطيه اللغة فقال: العفو ضد الجهد أي خذ ما عفا لك من افعال الناس واخلاقهم وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة ، ولا تداقهم ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى ينفروا كقوله ﷺ « يسروا ولا تعسروا » قال

خذي العفو مني تستديمي مودتي ولا تنطقي في سورتي حين أغضب

وقيل خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم ، وذلك قبل نزول آية الزكاة . فلما نزلت أمر أن يأخذهم بها طوعا أو كرها اه تقول وبقيت الآية محكمة في صدقة التطوع

والمختار عندنا أن العفو يشمل هذا وذاك فالمراد به ان من أصول آداب هذا الدين وقواعد شرعه اليسر وتجنب الحرج وما يشق على الناس وقد تقدم تفصيل القول في ذلك في تفسير آية الوضوء من سورة المائدة [١] وقد خالف هذه القاعدة لا سياسة أهل الفقه المقلوب فجعلوا العسر والحرج من أهم قواعد الدين وأصول الشرع فعلا لا تسمية وقد صح في الاحاديث ان النبي ﷺ ماخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وترى هؤلاء لا يخير احدهم بين أمرين إلا اختار أعسرهما، ولا سيما عسر على الامة بأسرها، وأما فتاوى الافراد فقد قال بعض المصنفين منهم في المسأله فيها قولان مصححان: نحن مع الدراهم قلة وكثرة!! يعني في الفتوى بأحدهما

(الاصل الثاني) الامر بالعرف وهو ما تعارفه الناس من الخير وفسروه بالمعروف وفي لسان المعروف ضد المنكر والعرف ضد النكر (قال) والعرف والعارفة والمعروف واحد ضد النكر وهو كل ما تعرفه النفس من الخير وتبسأ به [٢] وتطمئن اليه (قال) وقد تكرر ذكر المعروف في الحديث وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب اليه والاحسان الى الناس وكل ماندب اليه ونهي عنه من المحسنات والمقبحات وهو من الصفات الغالبة أي أمر معروف بين الناس اذا رأوه لا ينكرونه، والمعروف النصفة وحسن الصحبة مع الاهل وغيرهم، والمنكر ضد ذلك جميعه اه

والقول الجامع ان العرب تطلق المعروف على ضد المنكر وعلى ضد المجهول، والمنكر هو المستقبح عند الناس الذي ينفرون منه لقبحه أو ضرره ويذمونه ويذمون أهله. والامر به في هذه السورة المكية التي نزلت في أصول الدين وكليات التشريع تثبت لنا ان العرف أو المعروف أحد هذه الأركان للآداب الدينية والتشريع الاسلامي وهو مبني على اعتبار عادات الامة الحسنة وما تتواطأ عليه من الامور النافعة في مصالحها حتى ان كتاب الله عز وجل قد قيد طاعة رسوله ﷺ بالمعروف في عقد مبايعته ﷺ للنساء قال عز وجل في سورة الممتحنة (٦٠:١٢ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك

(١) راجع ص ٢٦٩ ج ٦ تفسير (٢) بسأ به وبسيء: أنس وارتاح

في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم) ومن المعلوم ان عقد المبايعة أعظم العقود في الامم والدول فتقييد طاعة الرسول ﷺ فيه بالمعروف دليل على ان التزام المعروف من أعظم أركان هذا الدين وشرعه ومن المعلوم في السنة ان مبايعته ﷺ للرجال كانت مبنية على أصل مبايعته للنساء المنصوص في هذه الآية . وقال ﷺ « إنما الطاعة في المعروف» وهو في مواضع من الصحيح

وقد تقدم من هذه السورة (الاعراف) وصف النبي ﷺ في بشارة التوراة والانجيل بأنه « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » وورد ذكر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما حكاه تعالى من وصية لقمان في السورة المسماة باسمه وهي مكية كالاعراف ثم تكرر ذكر المعروف في السور المدنية وأكثرها في بيان الاحكام الشرعية العملية وذلك في عشرات من الآيات بعضها في صفة الامة الاسلامية وحكومتها وأكثرها في الاحكام الزوجية والمالية . فمن النوع الاول قوله تعالى في تعليل الاذن للمسلمين بالقتال من سورة الحج فذكر من صفات المأذون لهم به أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق لاجل توحيد الله تعالى ثم قال (٢٢ : ٤١ الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور) ومنه قوله تعالى في سورة آل عمران (٣ : ١٠٣ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وقوله بعدها(١٠٩ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وقوله عز وجل في سورة التوبة (٩:٧١ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) الآية ثم قوله في صفاتهم منها (التائبون العابدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) فهذه الآيات أصول لامندوحة للامة عن التزامها في آدابها وتشريعها

ومن النوع الثاني وهو ماورد في الاحكام الفرعية قوله تعالى في الحقوق الزوجية من سورة البقرة (٢ :٢٢٨ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) وهذه الآية ركن من أركان الحقوق الزوجية يفضل به الاسلام جميع الشرائع والقوانين

في العدل والمصلحة ولم تنل النساء مثله في أمة من الامم . ومنها قوله في أحكام الطلاق (٢٢٩ فامساك بمعروف أو تسريح باحسان) وقوله بعده (٢٣١ فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) –ومثلها في سورة الطلاق – وقوله بعدها في المطلقات الرجعيات (٢٣٢ فلاتعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف) وقوله بعدها فيهن إذا كن مرضعات (٢٣٣ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف – الى قوله فيهن اذا أراد الزوجان الفصال عن تراض منهما وتشاور –وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلاجناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف)وقوله في الآية التي بعدها في معتدات الوفاة (٢٣٤ فاذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف) وقوله بعد آية أخرى في المطلقات (٢٣٦ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) وقوله بعد أربع آيات أخرى (٢٤١ وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) وكقوله في معاشرة الازواج من سورة النساء (٤: ١٩ وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) وهنالك آيات اخرى في العفو عن القصاص وفي الوصية للوالدين والاقربين وفي أكل الوصي من مال اليتيم قيدت بالمعروف

فأنت ترى ان المعروف في هذه الآيات معتبر في هذه الاحكام المهمة وان المعروف فيها هو المعهود بين الناس في المعاملات والعادات ، ومن المعلوم بالضرورة انه يختلف باختلاف الشعوب والبيوت والبلاد والاوقات، فتحديده وتعيينه باجتهاد بعض الفقهاء بدون مراعاة عرف الناس مخالف لنص كتاب الله تعالى . ولشيخ الاسلام ابن تيمية وغيره من فقهاء الحديث والحنابلة أقوال حكيمة في المعروف منها انه يجب على كل من الزوجين من أعمال البيت والاسرة ماجرى العرف به ، وأنه اذا كان من المعروف عن بعض البيوت انهن لايزوجن بناتهن لمن يتزوج عليهن ويضارهن كان هذا كالشرط فلا يجوز للرجل أن يتزوج على المرأة منهن

فان قلت ان بعض العلماء قالوا ان المراد بالعرف والمعروف في الآيات هو المنصوص في الشرع كقول صاحب لباب التأويل في قوله (وامر بالعرف): وامر بكل ما أمرك الله به وعرفته بالوحي. فالجواب ان مثل هذا القول مخالف لما

ذكرنا وما لم نذكر من أقوال السلف والخلف ولا يمكن أن يراد من كل آية ولا من مجموع الآيات المتقدمة وما يحتمله منها كآيات الامر والنهي المدنية لابد أن يكون اللفظ فيها عاما يشمل المعروف في الشرع وفي العادات والمعاملات ولا يظهر هذا في آية الاعراف التي هي الأصل الأول لانها الأولى في الموضوع ، ولم يكن قد نزل قبلها أحكام يفسر بها العرف ويحال عليها فيه — فما قاله صاحب لباب التأويل هو من قشره لا من لبابه ، وأول مايرد عليه انه اذا كان المراد من العرف المعروف بالوحي يقال فيه انه لم يكن قبل الامر به معروفا وبعد الامر به صار من قبيل تحصيل الحاصل

نعم ان مايتقرر بنص الشرع يصير من جملة المعروف الذي هو ضد المجهول كما انه يكون بالضرورة من المعروف الذي هو ضد المنكر · ويبقى تحكيم العرف والمعروف بالمعنى اللغوي العام معتبراً فيما لا نص فيه بخصوصه وللامة فيه عرف غير معارض بنص ، ولا يستقيم نظام الامة على أساس ثابت إذا كان أمر العرف والمعروف فيها فوضى وغير مقيد بأصول وأحكام وفضائل ثابتة، فلابد من شيء ثابت وهو مالا تختلف فيه المصالح والمنافع باختلاف الزمان والمكان وأحوال المعيشة، ولا بد من شيء يحكم فيه العرف وهو مايقابله ، ولذلك جاء الشرع الحكيم بهما معاً ، ولا يضر مع هذا اختلاف الناس فيما يعرفون وينكرون فليكن المعروف كما قال الجصاص من أئمة الحنفية: مايستحسن في العقل فعله ولا تنكره العقول الصحيحة. فيكفي المسلمين المحافظة على النصوص الثابتة إذ لا يمكن أن يستنكر المؤمن ماجاء عن الله ورسوله نصاً حتما لا اجتهاد فيه ، وليكن للجماعة بعده رأي فيما يعرفون وينكرون ، ويستحسنون ويستهجنون ، يكون عمدتهم فيه جمهور العقلاء والعلماء وأهل الادب والفضيلة في كل عصر

(الامر الثالث) الاعراض عن الجاهلين وهم السفهاء بترك معاشرتهم وعدم مماراتهم ، ولا علاج أوقى لاذاهم من الاعراض عنهم ، وشرهم في هذا العصر مرتزقة صحف الاخبار المنتشرة ، فان سفهاءهم شر من سفهاء الشعراء في العصور السابقة ، وقد قل سفه الشعراء في عصرنا هذا فلا أعرف لشاعر مشهور

من القذع والبذاء في المهجو شيئاً مما نعهد في الصحف التي يعبرون عنها بالساقطة، وكم من صحيفة قائمة ناهضة بالثروة، شر من ساقطة بالقلة. وانما يجب الاعراض عن السفهاء لأنهم لا يطلبون الحق اذا فقدوه ، ولا يأخذون فيما يخالف أهواءهم اذا وجدوه ، ولا يرعون عهداً ، ولا يحفظون وداً ، ولا يشكرون من النعمة إلا ما اتصل مدده ، فاذا انقطع عاد الشكر كفراً ، واستحال المدح ذما

أكثر ما كتب المفسرون في هذه الآية مادلت عليه من الآداب ، وأقله مااشتملت عليه من أصول الاحكام، وروي عن جدنا الامام جعفر الصادق رضي الله عنه أنه قال : ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الاخلاق منها ، ووجهوه بأن الاخلاق ثلاثة بحسب القوى الانسانية ، عقلية وشهوية وغضبية ، فالعقلية الحكمة ومنها الامر بالمعروف ، والشهوية العفة ومنها أخذ العفو ، والغضبية الشجاعة ومنها الاعراض عن الجاهلين. وروى الطبري مرسلا وابن مردويه موصولا من حديث جابر وغيره لما نزلت (خذ العفو وأمر بالعرف) سأل النبي ﷺ جبريل عنها فقال «لا أعلم حتى أسأل ثم رجع فقال إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك» اه من فتح الباري ومراد الامام أعلى وأشمل من ذلك وفهمه أبعد وأوسع من فهم من علله أو فسره كما علمت من تفسيرها في الجملة

وذكر ابن كثير أن بعض الحكماء أخذ هذا المعنى فسبكه في بيتين فيهما جناس فقال:

خذ العفو وأمر بعرف كما ... أمرت وأعرض عن الجاهلين
ولن في الكلام لكل الانام ... فمستحسن من ذوي الجاه لين

وقال القاضي أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن : قال علماؤنا هذه الآية من ثلاث كلمات ، قد تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات ، حتى لم يبق فيها حسنة إلا أوعتها ، ولا فضيلة إلا شرحتها ، ولا أكرومة إلا افتتحتها ، وأخذت الكلمات الثلاث أقسام الاسلام الثلاثة : فقوله (خذ العفو) تولى بالبيان جانب اللين ، ونفي الحرج في الاخذ والاعطاء والتكليف ، وقوله (وأمر بالعرف) تناول جميع المأمورات والمنهيات ، وأنهما ماعرف حكمه ، واستقر في الشريعة موضعه ، واتفقت القلوب على علمه ، وقوله (وأعرض عن الجاهلين) تناول

جانب الصفح بالصبر الذي يتأتى للعبد به كل مراد في نفسه وغيره . ولو شرحنا ذلك على التفصيل لكان اسفاراً . اهـ. ومن مباحث البلاغة في الآية أن ماجمعته هذه الكلمات الثلاث من المعاني العالية هو من الاعجاز إعجاز القرآن ، الذي لا مطمع في مثله لانس ولا جان . والله أعلم

---

(٢٠٠) وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم (٢٠١) إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون (٢٠٢) وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون)

بين الله تعالى في الآية التي قبل هذه الآيات أفضل مايعامل البشر به بعضهم بعضا من الوصايا الثلاث التي لا يمكن شرح التعامل بها تفصيلا إلا بسفر كبير ، ولو عمل الناس بهذه الوصايا لصلحت أحوالهم ولم يجد الفساد اليهم سبيلا ـ ثم قفى عليها بهذه الثلاث الآيات في الوصية باتقاء إفساد الشيطان أي جنسه لجنس البشر ، والمراد هنا شياطين الجن المستترة ، فالتناسب القريب بينهن وبين ماقبلهن المقابلة بين معاملة البشر ومعاملة الجن ، ومن فروعه التناسب بين الجاهلين أي السفهاء الذين أمرت الآية السابقة بالاعراض عنهم اتقاء لشرهم ، وبين الشياطين التي أمرت هذه الآيات بالاستعاذة بالله منهم اتقاء لشرهم ، وبعبارة أخرى : اتقاء شر شياطين الانس وشياطين الجن ، فان الشيطان هو الشرير المفسد من الفريقين كما تقدم في سورة الانعام ، ومن فسر آيات (هو الذي خلقكم من نفس واحدة) الخ بما مر من أن شرك الابوين فيما آتاهما الله من الولد الصالح كان باغواء الشيطان يرجعون إليه في التناسب بين الآيات ، يقولون إن الآية بينت لنا أن وسوسة الشيطان لأبوينا كانت سبب ماوقع لهما من الشرك فيما آتاهما من الولد ـ والأولى ارجاع التناسب في هذه المسألة الى مابين في أوائل السورة من خلق آدم وحواء ووسوسة الشيطان لهما ـ ومابين في خواتيمها من الارشاد الى اتقاء نزغ الشيطان ومسه ـ وهو ما أشرنا اليه في بدء سياق هذه الخاتمة

قوله تعالى ﴿ وإمّا ينزغنك الشيطان نزغ ﴾ قال الراغب النزغ دخول في أمر لافساده . واستشهد له بقول يوسف عليه السلام (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي) . وفي الأساس : نزغه مثل نسغه اذا طعنه ونخسه . ومن المجاز : نزغه الشيطان ـ كأنه ينخسه ليحثه على المعاصي . ونزغ بين الناس ـ أفسد بينهم بالحث على الشر اهـ فالنزغ كالنسغ والنخس والنخز والنغز والنكز والوكز والهمز ألفاظ متقاربة المعنى وأصله إصابة الجسد برأس شيء محدد كالابرة والمهماز والرمح أو مايشبه المحدد كالاصبع والمراد من نزغ الشيطان إثارته داعية الشر والفساد في النفس بداعية غضب أو شهوة حيوانية أو معنوية بحيث تتقحم بصاحبها الى العمل بتأثيرها كما تنخس الدابة بالمهماز لتسرع وغلب استعماله في الشر فقط ، وانما قال ينزغنك نزغ والمراد نازغ لأن اسناد الفعل الى المصدر أبلغ . والشيطان تقدم الكلام فيه وفي الجن مراراً أوسعها ماورد في تفسير قوله تعالى (٦ : ٦٨ وإما ينسينك الشيطان) الآية [1] وتفسير قوله تعالى (٦ : ٧١ كالذي استهوته الشياطين في الأرض) الآية [2] وكلتاهما من سورة الانعام وتفسير قصة آدم من هذه السورة والذي يناسب منها ماهنا وهو اغواء الناس بالوسوسة قوله تعالى حكاية عن الشيطان (٨: ١٥ قال فبما أغويتني) الخ [3] وقوله تعالى (٨: ٢٦ يابني آدم لا يفتننكم الشيطان) الخ [4]

وملخص مايجب اعتقاده انه ثبت في وحي الله تعالى الى رسله أن في عالم الغيب خلقاً خفياً اسمه الشيطان لاتدركه حواسنا له أثر في أنفسنا فهو يتصل بها ويقوي داعية الشر فيها بما سماه الوحي وسواساً ونزغاً ومساً، ونحن نجد أثر ذلك في أنفسنا وإن لم ندرك مصدره ، وقد شبهنا تأثير هذه الشياطين الخفية في الارواح بتأثير النسم الخفية المادية المسماة بالبكتيريا وبالميكروبات في الاجساد ، فقد مرت القرون التي لا يحصيها إلا رب العالمين والناس يجهلون هذه النسم الخفية ويجهلون فعلها لعجز الابصار عن ادراكها بنفسها وعن رؤية فعلها لدقتها وتناهيها في اللطف والصغر الى أن اخترعت في هذا العصر المرايا أو النظارات المكبرة التي ترى الجسم أضعاف

(١) راجع ص ٥٠٧ ـ ٥١٦ ج ٧ تفسير (٢) ص ٥٢٤ ـ ٥٦٩ منه

(٣) راجع ص ٣٣٧ ـ ٣٤٤ ج ٨ تفسير (٤) ص ٣٦١ ـ ٣٧٢ ـ منه

أضعاف جرمه فيها رؤيت وعلم مايحدث بسببها في المواد السائلة والرخوة وكل ذات رطوبة من التحول والتغير كالاختمار والفساد وغيرهما ومن الامراض المعدية في الانسان والحيوان كما فصلناه من قبل

وحكمة إخبار الله تعالى إيانا على ألسنة رسله عليهم السلام بهذا العالم الغيبي المعادي لنا الضار بأرواحنا كضرر نسم الامراض بأجسادنا أن نراقب أفكارنا وخواطرنا ولا نغفل عنها ، كما نراقب مايحدث في أجسادنا من تغير في المزاج ، وخروج الصحة عن الاعتدال، فنبادر الى علاجه ـ فمتى فطنا بميل من أنفسنا الى الشر أو الباطل عالجناه بما وصفه الله تعالى لنا من العلاج في هذه الآية وهو قوله عز وجل ﴿فاستعذ بالله انه سميع عليم﴾ أي فالجأ الى الله وتوجه اليه ليعيذك من شر هذا النزغ ، فلا يحملنك على مايزعجك اليه من الشر ، الجأ الى الله بقلبك ، وعبر عن ذلك بلسانك ، فقل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : انه تعالى سميع لما تقول عليم بما تتوجه اليه ، فهو يصرف عنك تأثير نزغه بتزيين الشر . ومن المجرب ان الالتجاء الى الله تعالى وذكره بالقلب واللسان ، يصرف عن القلب وسوسة الشيطان ، (١٦ :٩٨ فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ٩٩ انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) الخ

والخطاب في هذه الآية وأمثالها من آيات التشريع والتأديب موجه الى كل مكلف يبلغه وأولهم الرسول ﷺ ، ومن المفسرين من يقول انه هنا للنبي ﷺ والمراد أمته . وقد تقدم الخلاف في ذلك في تفسير (٦ : ٦٨ واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان) الآية فقد اختلف مفسروها في ترجيح توجيه الخطاب فيها. وذكرناهنالك آية الاعراف هذه وان ظاهر السياق فيها ان الخطاب للنبي ﷺ وإن كان يأتي فيه الوجوه الأخرى في مثلها ، ولكن نزغ الشيطان أقوى من انسائه ومن مسه المبين في الآية التالية فالمختار عندي الآن عصمته (ص) منه وذكرت في الكلام هنالك حديث عائشة وابن مسعود في صحيح مسلم «مامنكم أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن ـ قالوا: وإياك يارسول؟ قال ـ وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم » وهو سياق طويل يراجع هنالك

وقد ورد في سورة حم السجدة (فصلت) مثل هذه الآية بعد آية في معنى قوله (واعرض عن الجاهلين) في آخر الآية التي قبلها ولكن بتعريف السميع العليم وقال صاحب الدرة في الفرق بينهما مانصه :

قوله تعالى (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم) وقال في سورة حم السجدة (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم) للسائل أن يسأل فيقول لأي معنى جاء في الآية من سورة الاعراف سميع عليم على لفظ النكرة وفي سورة حم السجدة معرفتين بالألف واللام مؤكدتين بهو ؟ (والجواب) أن يقال ان الاول وقع في فاصلة ماقبلها من الفواصل أفعال جماعة أو أسماء مأخوذة من الافعال من نحو قوله (فتعالى الله عما يشركون) وبعده يخلقون، وينصرون، ويبصرون، والجاهلين، فأخرجت هذه الفاصلة بأقرب ألفاظ الاسماء المؤدية معنى الفعل أعني النكرة وكأن المعنى استعذ بالله انه يسمع استعاذتك ويعلم استجارتك، والتي في سورة حم السجدة قبلها فواصل يسلك بها طريق الاسماء وهي مافي قوله تعالى (ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) فقوله (ولي حميم) ليس من الاسماء التي يراد بها الافعال وكذلك قوله (انه لذو حظ عظيم) ليس في الحظ معنى فعل، فأخرج (سميع عليم) بعد الفواصل التي هي على سنن الاسماء على لفظ يبعد عن اللفظ الذي يؤدى معنى الفعل فكأنه قال انه هو الذي لايخفى عليه مسموع ولا معلوم فليس القصد الاخبار عن الفعل كما كان في الأولى انه يسمع الدعاء ويعلم الاخلاص فهذا فرق مابين المكانين إه فتأمله فانه دقيق جداً . ثم بين تعالى وجه سلامة من يستعيذ من وسوسة الشيطان لازالة جهل من لم يعلمه أو من لم يفقهه فقال

﴿ ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ﴾
الطوف والطواف والطيف بالشيء الاستدارة به أو حوله. فهو واوي يائي يقال طاف يطوف ويطيف بالشيء (كقال وباع) وطاف الخيال يطيف طيفا : جاء في النوم .وطيف الخيال مايرى في النوم من مثال الشخص وأصله طيف بالتشديد فهو كميت

وميت . وقد قرأ ابن كثير وأبوعمرو والكسائي ويعقوب هنا « اذا مسهم طيف» والباقون « اذا مسهم طائف » والمعنى واحد ورسمه في المصحف الامام (طف) كرسم (ملك) في سورة الفاتحة فتؤدّى قراءة وزن فاعل من الكلمتين بعد الحرف الاول . والمس في أصل اللغة كاللمس ومما يفترقان فيه ان المس يقال في كل ماينال الانسان من شر وأذى بخلاف اللمس ، فقد ذكر في التنزيل مس الضر والضراء والبأساء والسوء والشر والعذاب والكبر والقرح واللغوب والشيطان وطائف الشيطان ، ولم يذكر فيه مس الخير والنفع إلا في قوله في سورة المعارج (إن الانسان خلق هلوعا * اذا مسه الشر جزوعا * واذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين) فقد ذكر الخير هنا في مقابلة الشر ولكن المقام مقام منع الخير لا فعله . واستعمل المس والمسيس بمعنى الوقاع وهو مجاز مشهور كاستعماله في الجنون مجازا

ومعنى الآية « ان الذين اتقوا » وهم خيار المؤمنين الذين وصفوا في أول سورة البقرة « اذا مسهم» أي ألمّ أو اتصل بهم طيف أو « طائف من الشيطان » ليحملهم وسوسته على المعصية، أو ينزغ بينهم لايقاع البغضاء والتفرقة ، «تذكروا» ان هذا من عدوهم الشيطان وإغوائه ، وما أمر الله تعالى به في هذه الحال من الاستعاذة به والالتجاء اليه في الحفظ منه ، وقال بعضهم تذكروا ما أمر الله تعالى به ونهى عنه ،وقال آخرون:تذكروا عقاب الله لمن أطاع الشيطان وعصى الرحمن،وجزيل ثوابه لمن عصى الشيطان وأطاع الرحمن،وقال بعضهم : تذكروا وعده ووعيده ـ ومآل الاقوال كلها واحد وهو يعمها ـ كما تفيده قاعدة حذف المفعول ـ « فاذاهم مبصرون »أي فاذاهم أولوا بصيرة وعلم يربأ بأنفسهم أن تطيع الشيطان،فهو انما تأخذ وسوسته الغافلين عن أنفسهم لايحاسبونها على خواطرها،الغافلين عن ربهم لايراقبونه في أهوائها واعمالها ، ولاشيء أقوى على طرد الشيطان من ذكر الله تعالى بالقلب،ومراقبته في السر والجهر، فذكر الله تعالى بأي نوع من أنواعه يقوى في النفس حب الحق ودواعي الخير ، ويضعف فيها الميل الى الباطل والشر ، حتى لايكون للشيطان مدخل اليها ، فهو إنما يزين لها الباطل والشر بقدر استعدادها لأيّ نوع منهما . فان وجد بالغفلة مدخلا الى قلب المؤمن المتقي لايلبث أن يشعر به لانه غريب عن نفسه، ومتى شعر

ذكر فأبصر فخنس الشيطان وابتعد عنه وان أصاب منه غرة قبل تذكره تاب من قريب

فمثل المؤمن المتقي في عدم تمكن الشيطان من اغوائه وان تمكن من مسه كمثل المرء الصحيح المزاج القوي الجسم النظيف الثوب والبدن والمكان لا تجد جنة الامراض المفسدة للصحة استعدادا لافساد مزاجه واصابته بالامراض فهي تظل بعيدة عنه فان مسه شيء منها بدخوله في معدته أو دمه فتكت بها نسم الصحة والعافية فحالت دون فتكها به ـ وهو ما يسمى في عرف الطب المناعة ـ وكذلك يكون قوي الروح بالايمان والتقوى غير مستعد لتأثير الشيطان في نفسه، فهو يطوف بها يراقب غفلتها وعروض بعض الاهواء النفسية لها من شهوة أو غضب أو داعية حسد أو انتقام، فمتى عرضت اقترصها ، فلابس النفس وقواها فيها ، كما تلابس الحشرات القذرة أو جنة الامراض الخفية ما يعرض من القذر للنظيف والضعف للقوي ، فاذا أهملها بالغفلة عنها فعلت فعلها ، وإذا تداركها نجا من ضررها، ويحسن أن يعبر عن هذا بالحصانة ، فيقال مناعة جسدية وحصانة نفسية او روحية.

ذكرنا في الكلام على الشيطان من أوائل سورة البقرة أن الانسان يشعر بقدر علمه بتنازع دواعي الخير والشر والحق والباطل في نفسه ، وأن لداعية الحق والخير ملكا يقويها ، ولداعية الباطل والشر شيطانا يقويها ، وان النبي (ص) بين هذا بقوله «ان للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك ومن وجد الاخرى فليتعوذ من الشيطان » ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) رواه الترمذي والنسائي في الكبير وابن حبان عن ابن مسعود وعلم عليه السيوطي في الجامع الصغير بالصحة ، ولكن الترمذي قال حسن غريب لا نعلمه مرفوعا الا من حديث أبي الاحوص . وذكرنا هنالك بعض كلام الامام الغزالي في هذا المقام وله فيه تفصيل حسن طويل في كتاب شرح عجائب القلب وغيره من الاحياء وللمحقق ابن القيم كتاب خاص في ذلك اسمه (إغاثه اللهفان، في مصايد الشيطان) فمن قرأ أمثال هذه الكتب ، كان من وسوسة الشيطان على حذر

وما زال الصالحون المتقون يراقبون خواطرهم ويجاهدون الوسواس الذي يلم بها ولهم حكايات في ذلك غريبة . حدثني الشيخ عبد الغني الرافعي الفقيه الصوفي انه دخل في أيام سلوكه وهو في ميعة شبابه بستانا في طرابلس يعمل فيه نساء من نصارى لبنان فاذا بشابة جميلة منهن في مكان خلو فنزغ الشيطان بينه وبينها حتى همّ بمباشرتها فتذكر قوله تعالى (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا) فتردد وانكمش ثم ساورته ثورة الغلمة تهون له الأمر ، ولج به الوسواس : هلمّ هلم ، فقوي سلطان الآية في قلبه حتى صار قلبه يتلو بصوت يسمعه بأذنيه (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا) قال فجعلت أقول بيدي فوق صدري هكذا ـ يعني يمسحه كمن ينحي عنه شيئا ـ أحاول اسكات قلبي فلم استطع إسكاته فتوليت عن المرأة وحفظني الله بذكر الآية من الفاحشة ولله الحمد.

وأقول تحدثا بنعمة الله تعالى ان الشيطان لم يبلغ مني غرة يدعوني فيها الى الفاحشة قط فما ذكرته في مقصورتي في سياق حادثة امتحان امتحنني الله تعالى بها ، قد استمر بفضل الله تعالى من سن الشباب الى سن الشيخوخة ، وأسأله بفضله حسن الخاتمة . وذلك قولي في فتاة بارعة الجمال طلبت مني أن أضع يدي على صدرها أرقيه

ورب ملداء خميصة الحشا بهنانة ترنو بألحاظ اللأى
رقراقة شف زجاج وجهها عن ذوب ياقوت وراءه جرى
خاشعةَ اللحاظ والطرف أتت تلتمس الدعاء مني والرُّقى
أواه يامولاي صدري ضاق عن قلبي وما يفيض عنه من جوى
فضع عليه يدك التي بما بارك فيها الله تبرىء الضنى
أتت فتى خاف مقام ربه مازال ينهى نفسه عن الهوى
لم يقترف فاحشة قطُّ ولم يعزم ولا همّ بها ولا نوى
بغرة منها وحسن نية في معزل تُشهيه أقصى مااشتهى
مما يمنيه به شيطانه من حيث لا يطمع منه في خنا
لكنه استعصم راويا لها ما أمر الله به وما نهى

(وما أبرىء نفسي) مما دون كبائر الاثم والفواحش وهو اللمم (إن النفس لأمارة بالسوء الا مارحم ربي إن ربي غفور رحيم) ولا أعـد من اللمم حضور المراقص النسائية وملاهيها، فأحمد الله تعالى أن نفسي لم تطالبني بحضورها يوما ما ، ولم يجد شيطان الجن من نفسي ميلا اليها فيزينها لي بوسوسته، ولكن دعاني اليها بعض شياطين الانس لاجل اختبارها والنهي عنها على معرفة فأبيت وقلت للداعي حسبك من شر سماعه ، على انني رأيت نموذجا من أهونها عرضا لا قصداً اليها ، وذلك في بعض ملاهي تمثيل القصص التاريخيــة أو الوصفية في ليلة خيرية ، ولم أكن أعلم باستحداث ذلك فيهـا ، وأحمد الله تعالى انني مقتها على غرابة الصنعة والزينة فيها، وخرجت من المكان وآليت أن لا أعود اليه ، فقد صارت هذه الاماكن بؤر فساد، وكان فيها شيء من الادب والعبر وتمرين العوام على اللغة العربية الصحيحة التي تقرب من الفصيحة في الجملة ، ولم يكن يرى الناس فيها من منكرات الزي أكثر مما يرى في الاسواق والشوارع ، فأصبحت كالخمر إثمها أكبر من نفعها

قد يقول من يظنون أن يوسف الصديق عليه السلام هم بالفاحشة : انك قد فضلت نفسك عليه بزعمك أنك لم تهم وهو قد هم ، وأقول انه وإن اختلفت الحال والداعية ، فانه عليه السلام لم يهم بالفاحشة ، وانما همت امرأة العزيز وهم هو بالانتقام ، وهو بطشها به بالقتل أو الضرب، ودفاعه عن نفسه بالفعل، وهذا هو المعتاد في مثل هذه الحال بمقتضى الطبع البشري وشواهده تقع دائما ، والعبارة تدل عليه دون الاول ، فانه لا يقال همَّ بالشخص في مقام الخلاف والمغاضبة إلا اذا أريد الهم بالضرب أو ماهو مثله أو فوقه من الايذاء ، ولا يقال ان المرأة همت بالرجل بالمعنى الآخر لأن الهم يتعلق بالعمل دون الشخص وهي في المباشرة مواتية لاعمل لها، وما استبقا الباب إلا وهو فار من ثورة غضبها وهي مواثبة له تريد البطش به لاهانته إياها بمخالفتها وهو غلامها ، بعد أن ابتذلت نفسها ببذلها له . وما معنى قوله تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) إلا عصمته من البطش بها دفاعا عن نفسه وهو السوء ، وعصمته مما دعته اليــه وهو الفحشاء ، ولولا الروايات الاسرائيلية في القصة لما خطر ببال المفسرين الراسخين في ذوق اللغة العربية غير

هـذا المعنى ، وكم لفتتهم تلك الروايات عما هو أوضح منها ، فتأولوا وتكلفوا لتصحيح حمل الكلام عليها ؟ وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه

الشيطان يزين لكل أحد من الناس ماهو مستعد له وقريب من أخلاقه وآرائه التي تربى عليها ، ومناسب لحاله وشعوره الذي يكون غالباعليه، فاذا أراد الصلاة في الليل وهو في حال نعاس أو فتور زين له النوم وترك الصلاة الى وقت اليقظة والنشاط لأجل اقامتها كما يرضى الله تعالى!! فاذا خالفه وشرع في الصلاة زين له بوسوسته العجلة والاختصار، وقراءة السور القصار ، أو قراءة السورة من متوسط المفصل في ركعتين أو أكثر ، واذا وجد منه جداً ونشاطا فيها فقد يزين له المبالغة في التطويل ليسرع اليه الملل، و « أحب الاعمال الى الله أدومها وإن قل» كما رواه الشيخان في صحيحهما من حديث عائشة . واذا كانت تربيته الدينية منفرة من الكبائر ، أغراه بمقدماتها ووسائلها من الصغائر ، وربما أفتاه بقوله تعـالى (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مُدخلا كريما) وليس المراد بهذا أن يحتقر الانسان الصغائر ويتعمدها ويواظب عليها كالمستحل لها، فان مثل هذا قلما يسلم من التدرج منها الى الكبائر. ولكن المراد به اللمم وهومايلم به المرء اذا ماعرض له ولا يتعمق فيه ولا يصر عليه ، بل يلوم نفسه عليه ويتوب منه ، (وقد بينت هذا المعنى في الكلام على التوبة من تفسير سورة النساء ـ ج٤)فاذا تاب تنتقل نفسه به من دركة (النفس الامارة بالسوء) الى درجة (النفس اللوامة) ولا يزال يجاهدها في مثله الى أن يرتقي الى درجة (النفس المطمئنة) فاذا هو أطاع النفس الأمارة بالسوء فانها تهبط به الى دركة الفحش والفجور ، وربما تهوي به الى استحلال المعاصي وهو من الكفر ، كمن يدمن النظر بشهوة الى بعض الحسان فينتقل من النظر الى المغازلة ، ومن المغازلة الى المهازلة ، ومن المهازلة الى الملاعبة والمباعلة ، ومنها الى المفاعلة . قال الشاعر العربي

فلما رأتني رأرأت ثم أقبلت تهازلني والهزل داعية العهر

وقال شاعر مصر في التنقل من كل حالة الى مابعدها

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقـاء

وقد استفتاني شاب مصري افتتن بفتاة شغفته حباً فكان يخلو بها ـ لما في مصر في هذا العهد من إباحة ذلك عند الكثيرين ـ فيتداعبان حتى يخشى على نفسه الفضيحة الكبرى ثم يتفارقان فيندم ويتوب ، ويعزم أن لا يعود ، حتى اذا مازارته نقض العزم، ثم يفارقها فيبرمه ويؤكده باليمين ، ثم تغلبه على أمره فينكث ما أبرم ، ويحنث بما أقسم ، حتى قال أخيراً : لئن عدت لأكونن بريئاً من دين الاسلام ، ولكنه عاد مغلوبا على أمره ، لايملك تجاه سحر فاتنته شيئاً من قوة ارادته ، فعظم هذا الحنث العظيم عليه ، وجاءني مستفتياً فيما وقع فيه وما يجب عليه ، فوعظته وأرشدته بما ألهمني الله تعالى ولم يعد إلي بعد ذلك، فلا أدري كيف انتهت فتنته ، وقد حدث هذا منذ بضع عشرة سنة هبطت بها البلاد المصرية الى الدركات السفلى من الاباحة

الراجح أن هـذا الشاب من احد البيوت التي لاتزال فيها بقية من التربية الدينية ، وأخلاق العفة والحياء الموروثة ، وهذه التربية وهذه الاخلاق التي كان بها الشعب ذا وجود ممتاز مستقل في نفسه، فطفق دعاة الالحاد والزندقة وإباحة الشهوات يهدمونها باسم التجديد المدني، والتقليد الأوربي ، ومنه وجوب السفور الذي يعنون به إباحة اختلاط النساء بالرجال ، ومعاشرة الفتيان للفتيات بحجة التمهيد للزواج عن تعارف وحب واختبار . . . وقد تفاقمت استباحة التهتك والفجور في هـذه السنين الى حد ينذر بهلاك هذه الأمة ، فالنساء يرقصن مع الرجال كاسيات عاريات، ويسبحن معهن في شواطيء البحار، وقلما تعاشر الفتاة العذراء شابا ولو بقصد الزواج عن تعارف وحب واختبار ، إلا وينتهي هـذا الاختبار بفضيحة الافتراع ، ثم لايكون الزواج مضمونا ، واذا وقع لايكون الوفاق غالباً، ولا حب شهوة الصبا دائما ، بل يصير الاختبار لكل منهما عادة من العادات ، والتنقل من حبيب الى آخر من أفتن اللذات، وان الله يبغض الذواقين والذواقات

وقد استفتاني رجل في امرأة مسلمة متزوجة تختلف الى بيت رجل غير مسلم ولا وطني تزوره بعد العصر في شهر رمضان ثلاثة أيام في الاسبوع فتمكث معه الى قرب المغرب : هل يجوز له أو يجب عليه إيذان بعلها بذلك ؟ وذكر ان سبب افتتان هذه المرأة الخبيثة بهذا الرجل الخبيث انها عرفته عاملا في صيدلية

قصدتها مرة لشراء دواء منها فتصباها حتى صارت تختلف الى الصيدلية لأدنى حاجة ثم لغير حاجة الخ

فسدت العقائد والاخلاق وتركت العبادات، وأبيحت الأعراض واستبيحت المحرمات ، وعبد الشيطان في معصية الرحمن ، وتوجد جمعيات من الرجال ومن النساء يزينون للناس كل هذه الفضائح والقبائح باسم التجديد والتمدن، ولهم جرائد تنشر دعاية الالحاد والزندقة ، والاباحة المطلقة ، إلا من بعض قيود قانون العقوبات في الظاهر دون الباطن. واذا أنذرهم منذر ، وحذرهم من طاعة الشيطان محذر ، قالوا : وما الشيطان؟ وما الدليل على وجود الشيطان؟ فان قلت لهم ان أطباء الارواح ، واساة أمراض الاجتماع ، قد حذرونا بأمر الله خالق مايرى ومالا يرى من نزغ الشيطان ، وتزيينه للفسوق والعصيان ، كما يحذرنا أطباء الاجساد من «ميكروبات» الأمراض ، فهل من مقتضى العقل أن نرد كلام هؤلاء الاطباء بحجة أننا لم نر تلك الميكروبات المرضية، وأن لا نقبل كلامهم ولا نستعمل أدويتهم إلا بعد رؤية ما رأوا ، واختبار ما اختبروا ؟ ألم يقم الدليل على صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام في التبليغ عن وحي الله عز وجل ؟ بلى وقد ثبت بالتجربة والاختبار ان من اتبعوهم صحت عقائدهم، واستقامت أخلاقهم ، وصلحت أعمالهم، وحفظت صحتهم وأعراضهم وأموالهم، فتجربة معالجتهم لأمراض الأنفس والارواح، أثبت من تجربة معالجة الاطباء لامراض الاجساد . وقد ثبت بالمشاهدة والاختبار أيضاً ان هؤلاء الماديين المنكرين لوجود الشياطين هم أشد فساداً وإفساداً منهم : سكيرون مقامرون ، زناة لوطيون ، كذابون منافقون ، مرتشون سراقون ، (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم وما يفترون * ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون)

وفي مثل هؤلاء يقول الله تعالى في هذا السياق ﴿ وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون ﴾ الغي الفساد . والمدّ والامداد الزيادة في الشيء من جنسه ، وقد قرأ نافع يمدونهم بضم الياء وكسر الميم من الامداد والجمهور بفتح الياء وضم

الميم من المدّ وقرىء في الشواذ يمادّونهم بصيغة المشاركة، والمد يستعمل في القرآن في الخلق والتكوين كقوله تعالى (وهو الذي مدّ الارض * ألم تر الى ربك كيف مد الظل * والبحر يمده من بعده سبعة أبحر) وفي مد الناس فيما يذم ويضر كقوله (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا * ونمد له من العذاب مدا * ويمدهم في طغيانهم يعمهون) وأما الامداد ففيما يحمد وينفع كقوله تعالى (أمدكم بأنعام وبنين * وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا * كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك) ومنه امداد النبي (ص) والمؤمنين بالملائكة يثبتون قلوبهم في غزوة بدر ، وحملت قراءة نافع هنا على التهكم . والاِقصار التقصير وأقصر عن الأمر تركه وكف عنه وهو قادر عليه

والمعنى مع سابقه أن شأن المؤمنين المتقين اذا مسهم طائف من الشيطان لحملهم على محاكاة الجاهلين والخوض معهم وعلى غير ذلك من المعاصي والفساد تذكروا فأبصروا فحذروا وسلموا ،وان زلوا تابوا وأنابوا،وأن اخوان الشياطين وهم الجاهلون غير المتقين يتمكن الشياطين من اهوائهم فيمدونهم في غيهم وفسادهم لانهم لايذكرون الله تعالى اذا شعروا في أنفسهم بالنزوع الى الشر والباطل والفساد في الارض ولا يستعيذون به سبحانه من نزغ الشيطان ومسه فيبصروا ويتقوا — إما لانهم لا يؤمنون بالله ، وإما لأنهم لا يؤمنون بأن للانسان شيطانا من الجن يوسوس اليه ويغريه بالشر — ثم لا يقصرون ولا يكفون عن اغوائهم وافسادهم ، فلذلك يصرون على الشرور والفساد لفقد الوازع النفسي والواعظ القلبي . وفي هذا التفسير عود الضمير الى الشيطان بالجمع لأن المراد به الجنس لا الشخص كما تقدم وهو استعمال عربي معروف ومنه (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) . وقيل ان الضمير يعود الى الجاهلين، أي واخوان أولئك الجاهلين من الانس وهم شياطينهم يمدونهم في غيهم وفسادهم ، فيكونون أعوانا لشياطين الجن في ذلك كما بيناه في تفسير الآية التي قبل هذه

---

(٢٠٣) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ، قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

الاجتباء افتعال واختصاص من الجباية . يقال جبى العامل المال يجبيه وجباه يجبوه اذا جمعه للسلطان القيم على بيت مال الامة . و : اجتباه اذا جمعه واصطفاه لنفسه أو احتازه لها ، وفي الكشاف اجتبى الشيء بمعنى جباه لنفسه أي جمعه كقولك اجتمعه ـ أو جبي إليه فاجتباه أي أخذه ، كقولك جليت اليه العروس فاجتلاها اه والآية هنا آية القرآن كما روي عن ابن عباس أو المعجزة المقترحة من قبل المشركين كما روي عن مجاهد وقتادة

والمعنى واذا لم تأتهم أيها الرسول بآية قرآنية بأن تراخى نزول الوحي زمناما قالوا لولا افتعلت نظمها وتأليفها واخترعتها من تلقاء نفسك : أو اذا لم تأتهم بآية مما اقترحوا عليك قالوا : هلا جباها الله لك بأن مكنك منها فاجتبيتها وأبرزتها لنا ﴿ قل إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي ﴾ فما أنا بمبتدع ولا مجتب لشيء من آيات القرآن بعلمي وبلاغتي بل أنا عاجز عن مثله كعجزكم وعجز سائر الانس والجن وفي معناه (١٠ : ١٥ واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا : إئت بقرآن غير هذا أو بدّله ـ قل مايكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا مايوحى إليّ) ـ أو ما أنا بقادر على ايجاد الآية الكونية ولا بمفتات على الله في طلبها وانما أنا متبع لما يوحى إليّ فضلا من ربي عليّ أن جعلني المبلغ عنه ـ وما عليّ إلا البلاغ المبين ،

﴿ هذا بصائر من ربكم ﴾ أي هذا القرآن الذي أوحاه إليّ بصائر وحجج ناهضة من ربكم يعود من تأملها وعقلها بصير العقل بما تدل عليه من الحق إذ هي أدل عليه مما تطلبون من الآيات الكونية لانها تدل عليه مباشرة[1] . وقد سبق في سورة الانعام تفسير قوله تعالى (٦:١٠٤ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ) فيراجع لزيادة البيان[2] ﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ أي وهو هدى كامل يهدي الى الحق والى طريق مستقيم ، ورحمة في الدنيا والآخرة للذين يؤمنون به : كما قال تعالى في سورة الانعام أيضاً (٦:١٥٤ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون (١٥٥) أن تقولوا انما

«١» ص ٣٨٨ ج٧ تفسير «٢» ص٦٥٧ منه

أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين (١٥٦) أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة) الآية [1] قيل ان قوله تعالى لقوم يؤمنون متعلق بالثلاثة وقيل بالهدى والرحمة لان البصيرة قد يتأملها العاقل فيؤمن

---

(٢٠٤) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ

هذه دلالة على الطريقة الموصلة لنيل الرحمة بالقرآن ، والحصانة من نزغ الشيطان، وهي الاستماع له اذا قرىء والانصات مدة القراءة . والاستماع أبلغ من السمع لانه إنما يكون بقصد ونية وتوجيه الحاسة الى الكلام لادراكه ، والسمع ما يحصل ولو بغير قصد ، والانصات السكوت لأجل الاستماع حتى لا يكون شاغلاً عن الاحاطة بكل ما يقرأ . فمن استمع وانصت كان جديراً بان يفهم ويتدبر ، وهو الذي يرجى أن يرحم . والآية تدل على وجوب الاستماع والانصات للقرآن إذا قرىء ، قيل مطلقا سواء كانت القراءة في الصلاة أو خارجها ، وهو مروي عن الحسن البصري وعليه أهل الظاهر ، وخصه الجمهور بقراءة الرسول ﷺ في عهده وبقراءة الصلاة والخطبة من بعده ، وزعم بعضهم أن الآية نزلت في خطبة الجمعة وهو غلط فان الآية مكية وصلاة الجمعة شرعت بعد الهجرة وقال بعضهم ان الامر للندب لا للوجوب ولكن روي أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة فحرم بنزولها الكلام فيها

وحكي ابن المنذر الاجماع على عدم وجوب الاستماع والانصات في غير الصلاة والخطبة . وذلك أن ايجابهما على كل من يسمع أحداً يقرأ فيه حرج عظيم لأنه يقتضي أن يترك له المشتغل بالعلم علمه، والمشتغل بالحكم حكمه ، والمبتاعان مساومتهما وتعاقدهما

«١» راجع ص ٢٠٤ وكذا ٢٧٥ ج ٧ تفسير

وكل ذي شغل شغله . فأما قراءة النبي (ص) فكان بعضها تبليغاً التنزيل وبعضها وعظا وإرشادا فلا يسع أحداً من المسلمين يسمعه يقرأ أن يعرض عن الاستماع أو يتكلم بما يشغله أو يشغل غيره عنه ، وهذا شأن المصلي مع إمامه وخطيبه ، إذ هو موضوع الصلاة والواجب فيها ، ولهذا استدلوا بالآية على امتناع القراءة خلف الامام في الصلاة الجهرية واستثنى بعضهم الفاتحة لما ورد في الأحاديث الصحيحة من أن الصلاة لا تجزيء بدونها جمعاً بين النصوص . وورد في السنة سكوت الامام بقدر مايقرأ المأموم الفاتحة . على انه اذا قرأ الفاتحة مع الامام أو بعده آية آية لا يعد غير مستمع للقرآن ولا غير منصت ، وقد بينا تحقيق الحق في قراءة الفاتحة لمأموم كغيره في متممات تفسيرها من الجزء الأول

ومن فروع طلب الاستماع والانصات ان القاريء لايطالب منه ترك قراءته للاستماع لقاريء آخر بل يختار لنفسه مايراه خيراً لها من الأمرين ، فقد يخشع بعض الناس بقراءة نفسه ، ويخشع آخر بالاستماع من غيره ، أو من بعض القراء دون بعض ، واذا تعدد القراء في مكان استمع كل حاضر لمن كان أقرب اليه أو لمن يرى قراءته أشد تأثيراً في نفسه . وما يفعله جماهير الناس في المحافل التي يقرأ فيها القرآن بمصر كالمآتم وغيرها من ترك الاستماع والاشتغال بالأحاديث المختلفة مكروه كراهة شديدة ، وتكون على أشدها لمن كانوا على مقربة من التالي . وأما تعمد الاعراض عن السماع للقرآن فلا يكاد يفعله مؤمن به ، وكذلك رفع الصوت بالكلام على صوت القاريء عمداً ، فاذا كان الله تعالى قد أدب المؤمنين مع رسوله (ص) بقوله (يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون) فرفع أصواتهم على صوت التالي لكلامه عز وجل أولى بأن ينهى عنه ، والأدب معه فوق الادب مع كلام النبي (ص) بالضرورة . وقد كان الصحابة وغيرهم من فصحاء العرب يعبرون عن سماع القرآن بقولهم : سمعت الله تعالى يقول كذا . ولا يجوز لقاريء أن يقرأ على قوم لايستمعون له ، فان كان في المجلس كثير من الناس يستمعون وينصتون ، فشذ بعضهم بمناجاة صاحبه بالجنب من غير تهويش

على القاريء ولا على المستمعين كان الخطب في هذا هينا لا يقتضي ترك القراءة ولا ينافي الاستماع

ويجب على كل مؤمن بالقرآن أن يحرص على استماعه عند قراءته كما يحرص على تلاوته، وأن يتأدب في مجلس التلاوة، وملاك هذا الأدب للقاريء أن لا يكون منه ولا من غيره ولا من حال المكان ما يعد في اعتقاده أو في عرف الناس منافياً للأدب ، وقد ذكر الفقهاء في المسألة آدابا وأحكاما قد يختلف بعضها باختلاف الاعتقاد والعرف، وصرحوا بقراءة القرآن في كل حال من قيام وقعود واضطجاع ومشي وركوب فلا تكره في الطريق نصاً ولا مع حدث أصغر ونجاسة بدن وثوب، ولكن يمسك عن القراءة في حال الحدث ، ويستحب الوضوء لها استحبابا ، ولا سيما للقاريء في المصحف، وتكره مع الجنازة جهراً لأنه بدعة ،وفي المواضع القذرة بأن يجلس فيها للقراءة وأما من مر بمكان منها وهو يقرأ فلا يطلب منه ترك القراءة وكذلك من عرض له الجلوس في بعض الملاهي غير المباحة لا يكره له التلاوة سراً، وصرحوا بأنه لا يكره له أن يتلو في بيته اذا كانت زوجه غير مستورة عورة الصلاة .

وتستحب القراءة بالترتيل والتغني بالنغم المفيد للتأثير والخشوع من غير تكلف صناعي. وفي حديث أبي هريرة مرفوعا « ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن - زاد غيره في رواية - يجهر به » رواه الشيخان وأذن هنا بمعنى استمع أو سمع . ومصدره بفتحتين وروى أحمد وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم والبيهقي عن فضالة بن عبيد مرفوعا « لله أشد أذَنَاً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة الى قينته » والقينة الأمة المغنية ، وروى البخاري عن أبي هريرة مرفوعا : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » ويستحب البكاء مع القراءة والخشوع وإلا فالتباكي والتخشع ، وأن يستعيذ بالله قبلها ويدعو الله في أثنائها بحسب معاني الآيات كسؤال الرحمة عند ذكرها والاستعاذة من العذاب عند ذكره . وكان أنس (رض) يجمع أهله وولده عند ختم القرآن فاستحبوا الاقتداء به

واعلم أن قوة الدين وكمال الايمان واليقين لا يحصلان إلا بكثرة قراءة القرآن

واستماعه مع التدبر بنية الاهتداء به والعمل بأمره ونهيه . فالايمان الاذعاني الصحيح يزداد ويقوى وينمي وتترتب عليه آثاره من الاعمال الصالحة وترك المعاصي والفساد بقدر تدبر القرآن ، وينقص ويضعف على هذه النسبة من ترك تدبره ، وما آمن أكثر العرب إلا بسماعه وفهمه ، ولا فتحوا الاقطار، ومصروا الامصار ، واتسع عمرانهم، وعظم سلطانهم، إلا بتأثير هدايته ، وماكان الجاحدون المعاندون من زعماء مكة يجاهدون النبي ويصدونه عن تبليغ دعوة ربه إلا بمنعه من قراءة القرآن على الناس ، (وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) وما ضعف الاسلام منذ القرون الوسطى حتى زال أكثر ملكه إلا بهجر تدبر القرآن ، وجعله كالرقى والتعاويذ التي تتخذ للتبرك أو لشفاء أمراض الابدان، وجل فائدة الصلاة وهي عماد الدين بتلاوة القرآن مع التدبر والتخشع ، فاذا زال منها هذا صارت عادة قليلة الفائدة . والآيات الدالة على ذلك فيه كثيرة تقدم بعضها مع تفسيرها فمن التطويل في غير محله إيراد شيء منها هنا

وإنني أختم هذا البحث بأول حديث عائشة (رض) الطويل في الهجرة من رواية صحيح البخاري للاستشهاد به على ما كان من تأثير سماع القرآن عند مشركي العرب قال: حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل قال ابن شهاب اخبرني عروة ابن الزبير أن عائشة (رض) زوج النبي (ص) قالت لم أعقل أبويّ قط إلا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة [1] وهو سيد القارة ، فقال أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الارض وأعبد ربي . قال ابن الدغنة فان مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج : انك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جارٌ ، ارجعْ واعبد ربك ببلدك.

(١) تعني با بتلاء المسلمين اضطهاد المشركين لهم لارجاعهم عن الاسلام بالقوة والقهر . ولفظ الدغنة يضبطه المحدثون بفتح الدال وكسر الغين وتخفيف النون وتشديدها واللغويون بضمهما وتشديد النون

فرجع وارتحل معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم ان أبا بكر لايخرج مثله ولا يخرج أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق ؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا لابن الدغنة مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها وليقرأ ماشاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به فانا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا. فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره ، ثم بدا لابي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فيتقذف [٢] عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون اليه ، وكان أبوبكر رجلا بكاء لايملك عينيه اذا قرأ القرآن. وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا الى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه فان أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد اليك ذمتك فانا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان . قالت عائشة فأتى ابن الدغنة الى أبي بكر فقال قد علمت الذي عاقدت لك عليه فاما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلي ذمتي فاني لاأحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له ، فقال أبوبكر فاني أرد اليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل اهـ المراد منه

بعد الامر بالاستماع والاصغاء لتلاوة القرآن ، في سياق حصانة الانفس من مس الشيطان ، أمرنا تعالى بالذكر العام الشامل للقرآن تلاوة وتدبرا ولغيره فان كل نوع من أنواع ذكره تعالى حصن للنفس وتزكية لها فقال

---

(٢) وفي رواية يتقصف والمراد يزدحمون عليه حتى يسقط بعضهم على بعض حتى كأن كل أحد يقذف غيره، وتقاذف الركاب ترامیها وقد أخطأ من قال إن هذه الرواية لا معنى لها فالقذف هنا أظهر من القصف وهو الكسر — وكأنما يقصف بعضهم بعضا. وفي الاساس : وتقصف القوم : لجوا في خصومة أو وعيد

﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول ﴾ قال ابن جرير إن الأمر بالذكر هنا موجه إلى مستمع القرآن أمر بأن يتدبر في نفسه مايسمع ، وقال عطية العوفي إن المراد بالذكر هنا الدعاء ـ والجمهور على أنه أمر عام كما تقدم وأن الخطاب فيه للنبي ﷺ ومن اتبعه . والتضرع إظهار الضراعة وهي الذلة والضعف والخضوع بكثرة وشدة عناية .والخيفة حالة الخوف والخشية ـ أي واذكر ربك الذي خلقك ورباك بنعمه في نفسك بأن تستحضر معنى أسمائه وصفاته وآياته وآلائه وفضله عليك وحاجتك اليه متضرعاً له خائفا منه، راجياً نعمه ـ واذكره بلسانك مع ذكره في نفسك ذكراً دون الجهر برفع الصوت من القول، وفوق التخافت والسر ، بل ذكراً قصدا وسطاً ـ كما قال في آخر سورة الاسراء (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) ولا تحصل فائدة الذكر باللسان إلا مع ذكر القلب وهو ملاحظة معاني القول، وكأي من ذي ورد يذكر الله ذكراً كثيرا يعد بالسبحة منه المئين أو الألوف ثم لايفيده كل ذلك معرفة بالله ولا مراقبة له ، بل هو عادة تقارنها عادات أخرى منكرة شرعا . وما ذلك إلا أنه ذكر لساني محض لا حظ فيه للقلب . ذكر النفس نفسه ينفع دائما ، وذكر اللسان وحده قلما ينفع وقد يكون في بعض الاحوال ذنبا . والأكمل الجمع بين ذكر اللسان والقلب .

وبعد أن بين تعالى صفة الذكر والذاكر بين وقته فقال ﴿ بالغدو والآصال ﴾ الغدو مصدر غدا يغدو ـ كعلا يعلو علوا ـ أي ذهب غدوة وهو اول النهار من طلوع الفجر الى طلوع الشمس، ثم توسع فيه حتى استعمل بمعنى الذهاب مطلقا ـ ويقابله الرواح وهو الرجوع ـ ومنه (غدوها شهر ورواحها شهر) والآصال جمع أصيل وهو العشي من وقت العصر الى غروب الشمس فهو كقوله تعالى في سورة الاحزاب (٣٣ . ٤١ ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا) وقوله في سورة الدهر أو الانسان ٧٦ : ٢٥ (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا) وقوله في سورة آل عمران ٣ : ٤١ (وسبح بالعشي والابكار) وخص هذان الوقتان بالذكر لانهما طرفا النهار ومن افتتح نهاره بذكر الله واختتمه به كان جديراً بأن يراقبه تعالى

ولاينساه فيما بينهما واهم الذكر فيهما صلاتا الفجر والعصر اللتين تحضرهما ملائكة الليل وملائكة النهار ويشهدان عند الله تعالى بما وجدا عليه العبد كما ورد في الصحيح

﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ عن ذكره تعالى في سائر الاوقات وانما يتسامح بقلة الذكر فيما بين البكرة والاصيل لانه وقت العمل للمعاش فمن غفل عن ذكره تعالى مرض قلبه ، وضعف ايمانه ، واستحوذ عليه الشيطان فأنساه نفسه ، ولله در القائل:

اذا مرضنا تداوينا بذكركم ونترك الذكر أحيانا فننتكس

ثم عزز عز وجل هذا الامر وهذا النهي بما يعد خير أسوة للانسان ، وهو التشبه والمشاركة للملائكة الرحمن ، فقال ﴿ ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ﴾ أي ان ملائكة الله المقربين الذين هم عنده كحملة عرشه والحافين به ومن شاء تقدس وتعالى بهذه العندية الشريفة التي لا يعلمها سواه وهم أعلى مقاما من الموكلين بالمخلوقات وتدبير نظامها كالسحاب والمطر والريح والجنة والنار — ان هؤلاء المقربين العالين عنده لا يستكبرون عن عبادته كما يستكبر عنها هؤلاء المشركون الذين عد بعضهم السجود لله تعالى حطة وضعة لا تحتمل ﴿ ويسبحونه ﴾ أي ينزهونه عن كل مالا يليق بعظمته وكبريائه وجلاله وجماله من اتخاذ الند والشريك والظهير والمساعد على الخلق والتدبير ، كما يفعل الذين اتخذوا من دونه شفعاء انداداً لله يحبونهم كحب الله ويعبدونهم مع الله ﴿ وله يسجدون ﴾ أي وله وحده يصلون ويسجدون فلا يشركون معه أحدا ، فيجب أن يكون لكل مؤمن أسوة حسنة بخواص ملائكته وأقرب المقربين عنده ، تبارك اسمه وتعالى جده .

وقد شرع الله تعالى لنا السجود عند تلاوة هذه الآية أوسماعها إرغاما للمشركين ، واقتداء بالملائكة العالين ، ومثلها آيات اخرى بمعناها في الجملة ، وهذه هى الاولى في ترتيب المصحف . ونسأله تعالى أن يجعلنا من خير الذاكرين له ، الشاكرين لنعمه ، المسبحين بحمده ، الساجدين له دون سائر خلقه وأن يوفقنا لاتمام تفسير كتابه ، إنه على كل شيء قدير

خلاصة سورة الاعراف

وهي تدخل في ستة أبواب :

(أولها) توحيد الله تعالى ايمانا وعبادة وتشريعاً ، وصفاته وشؤون ربوبيته
(ثانيها) الوحي والكتب والرسالة والرسل
(ثالثها) الآخرة والبعث والجزاء
(رابعها) أصول التشريع وبعض قواعد الشرع العامة
(خامسها) آيات الله وسننه في الخلق والتكوين
(سادسها) سنن الله تعالى في الاجتماع والعمران البشري وشؤون الأمم المعبر عنه في عرف عصرنا بعلم الاجتماع

الباب الاول

توحيد الله تعالى ايمانا وعبادة وتشريعا وصفاته وشؤون ربوبيته

﴿ وفيه ١٢ أصلا ﴾

(١) دعاء الله وحده واخلاص الدين له وتخصيصه بالعبادة وكون الاخلال بذلك شركا وكفراً بالله تعالى . قال تعالى في الآية ٢٨ (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) أي بأن لا تشوبه أدنى شائبة من التوجه إلى غيره في الدعاء ولا في غيره من دينكم كالتوجه إلى الانبياء والصالحين أو ما يذكر بهم كقبورهم فذلك شرك ينافي خلوصه له ، قل أو كثر ، سمي شركا أو سمي توسلا وتبركا (راجع ٣٧٥ ج ٨ تفسير) وقال تعالى في بيان حال المشركين عند موتهم من الآية ٣٧ (حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا : أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) راجع ص ٤١٣ منه ، وأمرنا تعالى في الآية ٥٤ بأن ندعوه تضرعا وخفية ـ ونهانا عن الاعتداء

في الدعاء ، وفي آية ٥٥ بأن ندعوه خوفا وطمعا ، وفي الاول صفة دعاء الاخلاص اللسانية ، وفي الثاني صفته القلبية (راجع ص ٤٥٦ و٤٦٢ منه)

ومن الامر بعبادة الله وحده وترك عبادة غيره ماحكاه عن تبليغ الرسل لأقوامهم فدل على أنه أصل دينه على ألسنة جميع رسله قال تعالى (٤٨ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) ومثله عن رسوله هود عليه السلام في الآية ٦٤ مع حكاية قول قومه له (٦٩ قالو أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا ؟) ومثله ماحكاه عن رسوله صالح عليه السلام في الآية ٧٢ وما حكاه عن رسوله شعيب عليه السلام في الآية ٨٤

ومن بيان بطلان عبادة غير الله تعالى ونزغات الوثنية في اتخاذ الآلهة اتخاذاً ماورد في الآيات ١٣٨ — ١٤٠ من طلب بني اسرائيل من موسى أن يجعل لهم إلهاً كالقوم الذين رأوهم يعكفون على أصنام لهم ورد موسى (ع ٠ م) عليهم فيراجع تفسيرها (في ص ١٠٧ ــ ١١٥ ج ٩ تفسير) وفيه بيان خطأ الرازي في فهم معنى الاله لجريه على اصطلاح المتكلمين .

(٢) انكار الشرك وإقامة الحجة على أهله واثبات التوحيد وكونه مقتضى الفطرة في الآيات ١٧٢ و١٧٣ في أخذ الرب الميثاق من ذرية بني آدم واشهادهم على أنفسهم أنه ربهم، ويراجع تفسيرهما (من ص ٣٨٥ ــ ٤٠٤ ج ٩)

(٣) بيان أن شارع الدين هو الله رب العالمين فيجب اتباع ماأنزله ولايجوز اتباع أولياء من دونه في العقائد ولا العبادات ، ولا التحليل والتحريم الديني ، وهو نص قوله تعالى في الآية الثانية (اتبعوا ماأنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء) لا أولياء يتولون التشريع لكم بما ذكر كالذين (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله) يحلون لهم ويحرمون عليهم فيتبعونهم كما فسره الحديث المرفوع ولا أولياء يتولون أموركم فيما عدا ماسخره الله لكم من الاسباب وهذا عين توحيد الربوبية . واتباع رسوله (ص) لا يدخل في عموم النهي هنا فانه تعالى أمر باتباعه في الآية ١٥٨ من هذه السورة وفي غيرها وجعل طاعته فيما أرسله به وحياً وبيانا للوحي عين طاعته كما في سورة النساء فلا يكون ولياً من دونه بل من عنده كما بيناه

في تفسير الآية (يراجع ص ٣٠٦ ـ ٣١٠ ج ٨ تفسير)

(٤) حظر القول على الله بغير علم بتشريع أو غيره . وذلك قوله تعالى في الرد على المشركين من الآية ٢٧ (أتقولون على الله مالا تعلمون) وقوله تعالى في آخر أصول المحرمات في الآية ٣٣ (وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) وقد بينا في تفسيرها مفاسد هذه الجريمة الشركية (ص ٣٩٨ ـ ٤٠١ ج ٨ تفسير) ومنه يعلم خطأ الذين أنكروا الحسن والقبح في الاشياء مطلقا والذين حكموا العقل في التشريع الديني

(٥) كون جميع مايشرعه الله تعالى حسناً في نفسه وتنزيهه عن الامر بالقبيح وهو نص قوله تعالى في الآية ٢٧ (واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لايأمر بالفحشاء) وقوله في الآية ٢٣ (قل انما حرم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن) الخ فان الفواحش ماظهر قبحه وعظم ؛ والاثم مايضر ، والبغي تجاوز حدود الحق والعدل ، والشرك بالله بغير سلطان أي برهان جهل ، والقول على الله بغير علم جهل وتعـد على حقوق الرب تعالى . وكل ذلك قبيح في نظر العقل وبعضه قبيح في الحس أيضا . فكل ماأمر الله تعالى به فهو حسن في نفسه وإن خفي حسن بعضه على بعض ضعفاء الناظرين ، وكل مانهى عنه فهو قبيح في نفسه وإن جهل قبحه بعض الغاوين ، ولكن العقل على إدراكه لذلك لايستقل بمعرفة كل حسن وكل قبيح بالاحاطة والتحديد ، بل تصده عن كثير من المحاسن والقبائح التقاليد والعادات وضعف النظر والبحث

(٦) استواء الرب على عرشه وعلوه على خلقه ، وهو في الآية ٤٣ وفي تفسيرها تحقيق الحق في مذهب السلف (وهو في ص ٤٥١ ج ٨ تفسير)

(٧و٨) تكليم الرب لموسى عليه السلام ومسألة رؤيته سبحانه وتعالى وبيان ذلك في تفسير قوله تعالى (١٤٣ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر اليك قال : لن تراني) الخ وتفسيرها (في ص ١٢٢ ـ ١٩٢ ج ٩ تفسير) وفيه من التحقيق والحكم في مسائل الخلاف مالا تجد له نظيراً في كتاب لافي أصل المسألتين ولا في متعلقاتهما كتجلي الرب سبحانه والحجب بينه وبين خلقه وتجليه

في الصور المختلفة ، ومسائل الارواح والكشف والرؤيا والعمل النومي والتنويم المغناطيسي وأنواع مدركات النفس ومادة الكون الاولى والنور والكهرباء وما يقال من أنها أصل هذه الكائنات ، والخلاف في إمكان معرفة كنه الخالق وأول المخلوقات، ومنها مسائل الكلام ومراتبه ومن ذكر الحرف والصوت في كلامه تعالى. وتحقيق رجحان مذهب السلف على جميع مذاهب المتكلمين وفلسفتهم في الكلام والرؤية وسائر صفات الرب سبحانه وتعالى وشؤونه

(٩) هداية الله واضلاله في آية (١٧٨ من يهدي الله فهو المهتدي) الخ ، وآية (١٨٦ من يضلل الله فلا هادي له) الخ، وفي تفسيرها تحقيق أن هذا الاضلال لا يقتضي الاجبار وانما هو مقتضى سنة الله تعالى في خلق الانسان، وارتباط المسببات من أعماله بالاسباب ، فليس حجة للمعتزلة ومن شايعهم ولا للاشعرية والجبرية (راجع ٤٥٩ ج ٩) ومثله قوله تعالى (١٤٦ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق) وكذلك الطبع على القلوب في آيتي ١٠٠ و ١٠١ كل ذلك بيان لسنن الله تعالى في طباع البشر وأعمالهم

(١٠) الكلام في رحمة الله تعالى ومغفرته، ومنه قرب رحمته من المحسنين في آية ٥٤ وكونه أرحم الراحمين في الآية ١٤١ ورحمته ومغفرته للتائبين في الآية ١٥٣ وكونه خير الغافرين ١٥٥ وسعة رحمته كل شيء ومن يكتبها أي يوجبها لهم ١٥٦

(١١) أسماء الله الحسنى ودعاؤه بها والالحاد فيها وهو نص الآية ١٨٠ وفي تفسيرها تحقيق ما ورد من هذه الاسماء في القرآن وحديث «إن لله تسعة وتسعين اسما » الخ (ص ٤٣١ ج٩)

(١٢) الامر بذكر الله تضرعا وخيفة سراً وجهراً وكونه غذاء الايمان، وبعبادته وتسبيحه والسجود له وحده وهو في الآيتين اللتين ختم الله بها السورة ٢٠٤ و ٢٠٥.



الباب الثاني

الوحي والكتب والرسالة والرسل وفيه ٣ فصول فيها ٢٤ أصلا أو مسألة

﴿ ما جاء فيها بشأن القرآن ﴾

(١) انزال القرآن على خاتم الرسل محمد ﷺ للانذار به وذكرى للمؤمنين وهو في الآية الاولى من السورة ، وفيها نهي الرسول أن يكون في صدره حرج منه

(٢) أمر المؤمنين باتباع المنزل اليهم من ربهم وهو القرآن وأن لا يتبعوا من دونه أولياء وهو الآية الثانية وبيان أنهم إذا لم يؤمنوا به فلا يرجى أن يؤمنوا بكتاب غيره كما قال في آخر الآية ١٨٥ (فبأي حديث بعده يؤمنون)

(٣) وصفه تعالى للقرآن بأنه فصله على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، وهو نص الآية ٥١

(٤) بيانه تعالى لما سيكون عند إتيان تأويل القرآن أي ظهور صدقه بوقوع ما أخبر بوقوعه من أمر الغيب وهو أن الذين نسوه فلم يؤمنوا به في الدنيا يؤمنون يومئذ ويشهدون لجميع الرسل بأنهم جاؤا بالحق ويتمنون الشفعاء أو الرد إلى الدنيا ليعملوا غير ما كانوا يعملون ، وهو في الآية ٥٢

(٥) ولاية الله لرسوله بانزاله الكتاب عليه في الآية ١٩٦

(٦) الامر بالاستماع لقراءة القرآن والانصات له رجاء الرحمة بسماعه والاهتداء به

﴿ ما جاء فيها خاصا بنبينا (ص) ﴾

(٧) قوله تعالى في الآية الاولى (فلا يكن في صدرك حرج منه) أي الكتاب هو نهي عن ضيق الصدر بعظمة القرآن وجلال الأمر الذي أنزل لأجله وشدة وقع سلطانه في القلب، أو عن ضيقه بمشقة الانذار به والتصدي لهداية جميع البشر وقد غلب عليهم الشرك والضلال ، أو بما يتوقع من شدة معارضة الكفار وعدوانهم ـ وقيل هو دعاء، وقيل هو حكم منه تعالى بمضمونه (راجع ص٣٠٣ ج ٨)

(٨) أمره تعالى له بأن يعتز بأنه هو وليه وناصره وبأنه تعالى يتولى الصالحين فلا خوف على أتباعه من اضطهاد الكفار لهم ، وهو في الآية ١٩٦ وقد ذكرت في مسألة أخرى

(٩) قوله تعالى في الآية ١٨٤ (أو لم يتفكروا مابصاحبهم من جنة) الآية وهي تفنيد لرمي بعض مشركي مكة إياه ﷺ بالجنون يعني أن التفكر الصحيح في حاله ﷺ من أخلاقه وهديه وسيرته وفيما جاء به العلم والهدى ينفي أن يكون به ﷺ أدنى مس من الجنون كما زعموا ، فما عليهم إلا أن يتفكروا (راجع تفسيرها في ص ٤٥٣ ج ٩)

(١٠) بيان أنه ﷺ لم يعط علم الساعة أيان مرساها ومتى تقوم : بل هو من علم الغيب الخاص بالله تعالى وذلك نص الآية ١٨٧

(١١) بيان أنه صلوات الله وسلامه عليه لا يملك لنفسه ـ أي ولا لغيره بالاولى ـ نفعا ولا ضراً ـ إلا ما مكنه الله منه بتسخير الاسباب من الاعمال الاختيارية ـ وبيان أنه لا يعلم الغيب مؤيداً بالدليل الحسي والعقلي وذلك قوله تعالى (١٨٨ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون) راجع تفسيرها في صفحة ٥٠٧ ـ ٥١٦ ج ٩

(١٢) بيان عموم بعثته وشمول رسالته لجميع الامم والشعوب ومنهم أهل الكتاب والشهادة له في كتبهم. يدل عليه في الآية الاولى حذف مفعول (لتنذر به) فهو يدل على العموم ، وكذلك الخطاب العام بعده في الامر باتباع الناس ما أنزل اليهم من ربهم وهو القرآن المذكور في الآية الاولى . والنص في ارساله الى أهل الكتاب قوله تعالى فيمن يكتب لهم رحمته (١٥٧ الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل) الخ وقد بينا في تفسيرها نصوص التوراة والانجيل المشار اليها فيها (ص ٤٢٢ ـ ٢٩٩ ج ٩ تفسير)

وأما النص الصريح في عموم الرسالة فهو قوله تعالى (١٥٨ قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) الآية، وكذا كل خطاب خوطب به بنو آدم في الآيات

٢٥ و١٦ و ٣١ ومابعدها من آيات التشريع العام ولكن هذا كله مشترك بين أمة خاتم النبيين وأمم الانبياء قبله ، وأصرح منه في الاشتراك العام ما ترى في أول الكلام في الرسالة العامة .

ماورد في الرسالة العامة والرسل

(١٣) بعثة الرسل إلى جميع بني آدم في قوله تعالى (٣٥ يابني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي) الخ ويدل على إرسالهم إلى الامم المختلفة قوله تعالى (٣ وكم من قرية أهلكناها) إلى آخر الآية الخامسة . فالمراد بالقرى الكثيرة أمم الرسل بدليل مابعده

(١٤) سؤال الرسل يوم القيامة عن التبليغ وسؤال الامم عن الاجابة وهو نص الآية الخامسة

(١٥) جزاء بني آدم على اتباع الرسل وطاعتهم وعلى تكذيبهم إياهم واستكبارهم عن اتباعهم وهو في الآيتين ٣٥ و ٣٦

(١٦) وظيفة الرسل تبليغ رسالات ربهم بشارة وإنذارا قولا وعملا وهو صريح في الآيات : ١ و ٦٢ و ٩٣ و ١٨٨

(١٧) أول مادعا اليه الرسل توحيد الالوهية بالأمر بعبادة الله وحده ونفي عبادة إله غيره كما هو صريح في الآيات ٥٩ و ٦٥ و ٧٠ و ٧٣ و ٨٥

(١٨) مجيء الرسل بالبينات من الله تعالى وهي تشمل الآيات الكونية والحجج العقلية كما ترى في الآيات ١٣ و ٨٥ و ١٠٣ و ١٠٥ و ١٠٧ و ١٠٨

(١٩) الآيات الكونية التي أيد الله تعالى بها رسله هي حجة له على الامم وهي غير مقتضية للايمان اقتضاء عقليا ولا ملجئة اليه طبعا ، ولو كانت مقتضية له قطعا أو ملجئة اليه طبعا لما يتخلف عنها ، ولكان خلاف مقتضى التكليف المبني على الاختيار ، والملجأ لا يستحق جزاء . ونحن نرى في قصة موسى مع فرعون وقومه من هذه السورة وغيرها أن السحرة قد آمنوا إيمانا يقينيا على علم ، وان الجماهير من قومه ظلوا على كفرهم ، ولكن الله تعالى أخبرنا في سورة النمل أنه

لما جاءتهم الآية الكبرى قالوا انها لسحر مبين (٢٧: ١٤ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) أي عاندوا موسى عليه السلام عناداً باظهار الكفر بها في الظاهر مع استيقانها في الباطن، وأن سبب هذا الجحود هو الظلم والعلو والكبرياء في الارض وهذا وصف فرعون وملائه أي كبار رجال دولته إذ من المعلوم أن سائر الشعب كان مستذلا ، وهو مقلد للرؤساء لجهله وقد صدقهم في قولهم إن موسى ساحر وإن السحرة كانوا متواطئين معه ولذلك أظهروا الايمان به لأجل إخراج فرعون ورجال دولته من مصر والتمتع بكبرياء الملك بدلا منهم. كما تدل عليه آيات أخرى ولو فهم جمهور الشعب من الآيات ما فهموا لآمن كما آمنوا، لانه لم يكن لديه من عتو العلو والكبرياء مايصرفه عن الايمان، ولا شك أن السحرة كانوا أكرم منزلة في الدولة من سائر الشعب ولكن كرامتهم لم تكن بالغة درجة العظمة والعلو المانعة لصاحبها من تركها لاجل الحق. وقد امتاز خاتم النبيين ﷺ بأن جعل الله آية نبوته الكبرى علمية لاصعوبة في فهم دلالتها على عامي ولا خاصي على انه أيده في زمنه بعدة آيات كونية

(٢٠) نصيحة الرسل للامم وأمرهم بالحق والفضيلة ونهيهم عن ضدهما كما في الآيات ٦٢ و ٦٣ و ٦٨ و ٧٤ و ٧٩ و ٨٢ و ٨٥ و ٨٦ و ٩٣

(٢١) شبهة الامم على الرسل التي أثارت تعجبهم واستنكارهم هو كون مدعي الرسالة رجلا مثلهم كما في الآية ٦٣ و ٦٩

(٢٢) اتهام الكفار رسل الله بالسحر كما فعل فرعون والملأ من قومه باتهام موسى في الآية ١٠٩ وما يليها من الآيات في قصة سحرة المصريين مع موسى. وهي شبهة جميع أقوام الرسل على آياتهم من حيث ان كلا منهما أمر غريب لايعرفون سببه، ومن خطأ المتكلمين التفرقة بين المعجزة والسحر باختلاف حال الاشخاص ، وقد عقدنا في تفسير الآيات فصلا في حقيقة السحر وأنواعه لايجد القارىء مثله في شيء من تفاسيرنا وكتبنا الكلامية «وهو في ص٤٥ ـ ٦٠ ج ٩»

(٢٣) عقاب الامم على تكذيب الرسل وهو في الآيات ٦٤ و٧٣ و٧٨ و٨٤ و ٩١ و ٩٢ و ١٣٣ و ١٣٦ و ١٣٧

(٢٤) قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب . وهي من آية ٥٩ إلى ٩٣

قصة موسى مع فرعون وقومه وسحرته من آية ١٠٣ الى ١٣٧ وقصته مع قومه وحدهم من ١٣٨ — ١٧١ وفيها من العبر والفوائد ماذكر بعضه في أبواب من هذه الخلاصة وبقي ماسبب إنزالها وإنزال غيرها من المقاصد المصرح بها في غير هذه السورة ككونها من أخبار الغيب الماضية الدالة على كون القرآن وحياً من الله تعالى (١١ : ٤٩ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وكونها تسلية للنبي (ص) عما يلاقي من اعراض المشركين وأذاهم وتثبيتاً لقلبه في النهوض باعباء الرسالة كما قال تعالى (١١ : ١٢٠ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك) ـ وكونها موعظة وذكرى للمؤمنين كما قال تعالى في تتمة هذه الاية (وموعظة وذكرى للمؤمنين) وكونها عبرة عامة للعقلاء من المؤمنين والكافرين المستعدين للاعتبار كما قال تعالى (١٢ : ١١١ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب) وغير ذلك مما سنفصله إن شاء الله تعالى في تفسير سورة هود . فقد طال تفسير هذه السورة جداً .

الباب الثالث

عالم الآخرة والبعث والجزاء

(وفيه ١٢ أصلا)

(الاصل الاول) البعث والاعادة في الآخرة وهو قوله تعالى في الآية ٢٥ (ومنها تخرجون) وفي ٢٩ (كما بدأكم تعودون) وفيه دليل على إمكان البعث لأنه كالبدء أو أهون على المبدىء بداهة فكيف وهو القادر على كل شيء بدءاً وإعادة على سواء ـ وفي الآية ٥٧ تشبيه إخراج الموتى باخراج النبات من الارض الميتة بعد إنزال المطر عليها وهذا التشبيه يتضمن البرهان الواضح على قدرة الله تعالى على احياء الموتى بعد فناء أجسادهم ، وقد أطلنا في تفسيرها الكلام في المسألة

من الجهة العلمية المتعلقة بالعلوم العقلية والكونية (فتراجع في ص٤٧٠ ـ ٤٨١ ج ٨)

(الاصل الثاني) وزن الاعمال يوم القيامة وترتيب الجزاء على ثقل الموازين وخفتها وهو في الآيتين الثامنة والتاسعة

(الاصل الثالث) سؤال الرسل في الآخرة عن التبليغ وأثره وسؤال الامم عن إجابة الرسل وهو في الآية السادسة

(الاصل الرابع) كون الجزاء بالعمل وجزاء المكذبين المستكبرين والمجرمين والظالمين ودخول الامم من الانس والجن في النار ولعن بعضهم بعضاً ، وشكوى بعضهم من اضلال بعض والدعاء عليهم بمضاعفة العذاب وتحاورهم في ذلك . راجع الآيات ٣٦ ـ ٤١ و١٤٧ و١٧٩

(الاصل الخامس) جزاء المتقين المصلحين في الآية ٣٥ وجزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات وإيراثهم الجنة وحالهم ومقالهم فيها وذلك في الآيتين ٤٢ و٤٣ ـ ومن ذلك قوله تعالى في الزينة والطيبات من الرزق من الآية ٣٢ (قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) .

(الاصل السادس) إقامة أهل الجنة الحجة على أهل النار في قوله تعالى (٤٣ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ماوعد ربكم حقاً ؟ قالوا نعم) الخ وفي تفسيرها بيان لما في صناعات هذا العصر من إزالة الاستبعاد والاستغراب من تحاور الناس مع بعد المسافات بينهم (راجع ص٤٢٤ ج ٨ تفسير)

(الاصل السابع) الحجاب بين أهل الجنة وأهل النار وهو الاعراف وأهله وتسليمهم على أهل الجنة وخطابهم لأناس يعرفونهم بسيماهم في النار بما يذكرهم بضلالهم في الدنيا وغرورهم بأموالهم الخ وهو في الآيات ٤٦ ـ ٤٩

(الاصل الثامن) نداء أصحاب النار أصحاب الجنة (أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) وجواب أهل الجنة لهم في الآية ٤٨

(الاصل التاسع) اعتراف أهل النار في الاخرة بصدق الرسل وتمنيهم الشفعاء ليشفعوا لهم ، أو الرد إلى الدنيا ليعملوا غير الذي كانوا يعملون . وحكم الله تعالى عليهم بأنهم خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون من القول بأن من كانوا

يدعونهم في الدنيا سيشفعون لهم عند الله . وهو في الآية (٥٣)

(الاصل العاشر) الدعاء بخير الآخرة مع الدنيا وهو ماورد في دعاء موسى عليه السلام من قول الله تعالى حكاية عنه (١٥٦ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة) فهو موافق لما ورد في القرآن تشريعا لهذه الأمة . فغاية دين الله على ألسنة جميع رسله سعادة الدارين كما ترى بيانه في السنة ٤ من الباب السادس

(الاصل الحادي عشر) صفة أهل جهنم (١٧٩ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لايفقهون بها) الخ ، وفي تفسيرنا لها من العلم والحكمة مالا تجد مثله في تفسير ولا في كتاب آخر ـ فراجعه (ص ٤١٨ ج ٩)

(الاصل الثاني عشر) مسألة قيام الساعة وكونها تأتي بغتة وهي فى الاية ٨٧ وفي تفسيرها مباحث مسائل مبتكرة في أشراطها (راجع ص ٤٦١-٥٠٧ ج ٩)

الباب الرابع

أصول التشريع وفيه ٩ أصول

(الاصل الاول) بيان ان شارع الدين هو الله تعالى كما في الآية الثانية من السورة ، وتقدم في الباب الاول من هذه الخلاصة ، وهناك قد ذكر من حيث إنه حق الرب سبحانه وتعالى ، ويذكر هنا من حيث إنه الاصل الاول من أصول الاحكام التشريعية . والمراد بشرع الدين والتشريع الديني مايجب اتباعه وجوبا دينيا على أنه قربة يثاب فاعله ويعاقب تاركه في الآخرة · وأما التشريع الدنيوي الذي يحتاج إليه الناس في مصالحهم الدنيوية فقد أذن الله تعالى به في الاسلام للرسول ولأولي الامر من المسلمين كما بيناه بالتفصيل الواسع في تفسير قوله تعالى (٤ : ٥٩ ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) واشترط في هذا الاذن أن يردوا ماتنازعوا فيه من شيء إلى الله ورسوله بالرجوع إلى الكتاب وإلى الرسول في عهده ، وإلى سنته من بعده ، كما هو صريح بقية الآية مع بيان علته (راجع تفسيرها في ص ١٨٠ ـ ٢٢٢ ج ٥ تفسير)

(الاصل الثاني) تحريم التقليد في الدين والاخذ فيه باراء البشر ، وهو نص النهي في الآية الثانية معطوفا على الامر باتباع ماأنزل إلى الناس من ربهم وهو (ولا تتبعوا من دونه أولياء) وقدصرح بذلك المفسرون. ومن النصوص في بطلانه الانكار على احتجاج المشركين به في الآية (٢٨ واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) الآية (راجع تفسيرها في ص٣٧٣ ج ٨) وفي الآية ١٧٣

(الاصل الثالث) تعظيم شأن النظر العقلي والتفكر لتحصيل العلم بما يجب الايمان به ومعرفة آيات الله وسننه في خلقه وفضله على عباده فمن ذلك قوله تعالى في آية ٣٣ (وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا) السلطان البرهان ، فتقييد تحريم الشرك بانتفائه تعظيم لشأنه . ومنه قوله في آخر الآية ١٦٩ (أفلا تعقلون؟) وسيذكر في الاصل الرابع. ومنه قوله تعالى بعد ضرب المثل للمكذبين بآياته من آية ١٧٦ (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) ومنه قوله في الآية ١٨٤ (أو لم يتفكروا ؟ مابصاحبهم من جنة) وفي الآية ١٨٥ (أولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وماخلق الله من شيء ؟) الخ — والآية الجامعة في هذا المعنى قوله تعالى (١٧٩ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالانعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) وهي شاملة للنظر العقلي المحض ولكل ماكان مصدره الرؤية والسماع وهما أعم وأكثر مصادر العلم

(الاصل الرابع) تعظيم شأن العلم الشامل للعلم النقلي وهو ما أنزل الله من الكتاب والحكمة ، وما بينه به رسوله (ص) من سنة ، والعلم المستفاد من الحسّ والعقل ، والمراد من العلم هنا متعلق المصدر وهو المعلومات ، ففارق ماقبله . ومن الآيات في ذلك قوله في آخر الآية ٢٧ (أتقولون على الله مالا تعلمون) وقوله في آخر الآية ٣١ (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) وهي من النوع الثاني لان موضوع الآية مسألة الامر بالأكل من الطيبات وبالزينة والانكار على من حرمهما وهي من مسائل علم الاجتماع والمصالح البشرية كما فصلناه في تفسيرها (راجع ٣٠٣ ج ٨) وقوله تعالى في آخر آية ٣٣ التي بين فيها أنوع المحرمات العامة (وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) السلطان البرهان ـ وقوله تعالى

في آخر آية ١٣٠ (ولكن أكثرهم لا يعلمون) وهو في زعم آل فرعون وخرافاتهم أن ماينالهم من الحسنات والخيرات فهو حق لهم وأن ماينالهم من السيئات فهو بشؤم موسى وقومه وتطيرهم بهم. والعلم المنفيّ عنهم هنا هو العلم بسنن الله في طباع البشر والاسباب والمسببات في العالم ــ وقوله تعالى في حكاية توبيخ موسى (ع . م) لقومه على مطالبتهم إياه بأن يجعل لهم إلهاً كآلهة الذين رأوهم يعكفون على أصنام لهم من آخر الآية ١٣٨ (إنكم قوم تجهلون) وما علل به الحكم بجهلهم في الآيتين بعدها فهذه جامعة لبيان فضل العلم النقلي والعلم العقلي وذم الجهل بهما معاً فان موسى (ع . م) علل تجهيلهم أولا بعلة عقلية وثانيا بعلة دينية عقلية (فراجع تفسيرهن في ص ١٠٥ ــ ١١٥ ج ٩) ــ وقوله تعالى في الآية ١٦٩ (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا مافيه) وهو من العلم النقلي ولكنه أيد بالعقلي في ختم الآية بقوله (أفلا تعقلون)

فهذه الشواهد على هذا الأصل وما قبله المؤيدة بأضعافها في السور الأخرى تثبت تعظيم القرآن لشأن التفكر والنظر والاستدلال لتحصيل العلم بالله وشرائعه المنزلة وبسننه وآياته في خلقه ونعمه على عباده ــ وتعظيم شأن جميع العلوم النافعة من نقلية وعقلية وهي حجة على نقص أهل الجهل بها .

(الأصلان الخامس والسادس) أمر الناس بأخذ زينتهم عند كل مسجد وبالأكل والشرب من الطيبات المستلذات ، والانكار على من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وبيان أنها حق للذين آمنوا في الحياة الدنيا أولا وبالذات بقيد عدم الاعتداء والاسراف فيها ، وان شاركهم غيرهم فيها بعموم فضل الله لا باستحقاقهم ،وانها تكون خالصة لهم في الآخرة ، وذلك نص الآيتين ٣١ و ٣٢ وهذان الاصلان هما الركنان اللذان يقوم عليها بناء الحضارة بعلومها وفنونها وصناعاتها وإظهارها لما في هذا الكون من سنن الله تعالى وآياته وأسرار صنعه الدالة على توحيده وقدرته وحكمته وإحسانه على عباده ــ وهما المبطلان لأساس الديانة البرهمية من جعل مقصد الدين تعذيب النفس وحرمانها من الزينة واللذة ،وقلدهم في ذلك النصارى وابتدعوا الرهبانية لاجله ولم يقفوا عند حد تقليدهم في الدنيا حتى

زعموا أن دار النعيم في الآخرة خالية من اللذات الجسدية وليس فيها إلا النعيم الروحاني خلافا لبعض تصريحات الانجيل من شرب الخمر في الملكوت وكون الصائمين والجياع والعطاش من أجل البر يشبعون هنالك

ولما كان الغلو في الدين كغيره من أمور البشر يقوى الاستعداد له في بعض الناس من كل أمة بدأ بعض أصحابه المبالغين في العبادة بترك أكل اللحم وهمّ بعضهم بالاختصاء فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك وعن المبالغة في العبادة ونزل في شأنهم (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا) الايات من سورة المائدة وهي بمعنى ماهنا . ولم يمنع ذلك كله بعض مسلمي المتصوفة من الغلو في ترك الزينة والطيبات ، وصار الجاهلون بكنه الاسلام يعدون الغلو في ذلك هو الكمال في الدين ، وأهله من أولياء الله المقربين ، وإن كانوا جاهلين خرافيين . ويراجع ما في تفسيرنا للآيتين من الاحكام والحكم والفوائد ومنها مالم يكن يخطر في بال أحد من مفسرينا المتقدمين رحمهم الله تعالى (ص٣٦٩ - ٣٩٤ ج ٨)

(الاصل السابع) هداية الناس بالحق والعدل به وقد وصف الله تعالى بذلك خيار قوم موسى عليه السلام في الآية ١٥٩ وخيار أمة محمد ﷺ في الآية ١٨١ فهذا من أصول دين الله العامة في جميع شرائعه. والحق هو الامر الثابت المتحقق في الشرع إن كان شرعيا وفي الواقع ونفس الامر إن كان أمرا وجوديا ، والعدل ما تحري به الحق من غير ميل إلى طرف من الطرفين أو الاطراف المتنازعة فيه أو المتعلقة به ويدخل في هـذا الأصل الدعوة الى الحق والخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة العامة والخاصة والاصلاح بين الناس

ومنه الامر بالعدل المطلق في الاحكام والاعمال بقوله [١٨ قل أمر ربي بالقسط] وهذا هو الاصل العام لجميع الاحكام بين الناس كما قال تعالى في سورة النساء المدنية إذ صار للامة حكم ودولة [وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل] وفي سورة النساء والمائدة آيات أخرى في وجوب عموم العدل والمساواة فيه بين المؤمن والكافر والبر والفاجر والغني والفقير والقريب والبعيد، وقد تقدمت مع تفسيرها. فمن تحرى العدل بغير محاباة وعرف مكانه فحكم به كان حاكما بحكم الله تعالى من غير حاجة إلى

نص خاص في الشريعة به فان وجد النص كانت الثقة بالعدل أتم بل لا حاجة مع النص الى الاجتهاد كما ان الاجتهاد المخالف للنص الخاص أو للعدل العام باطل .

(الاصل الثامن) حصر أنواع المحرمات الدينية العامة في قوله تعالى (٣٣ قل إنما حرم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) يراجع بيان وجه الحصر في تفسيرها [ص٣٩٤ ـ ٤٠١ ج ٨]

[الأصل التاسع] بيان أصول الفضائل الادبية والتشريعية الجامعة بأوجز عبارة معجزة في قوله تعالى [١٩٩ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين] فيراجع تفسيرها من آخر ص ٥٣٣ ـ ٥٣٩ ج ٩

الباب الخامس

في آيات الله وسننه في الخلق والتكوين

(وفيه ١٤ أصلا)

(١) خلقُ الله السموات والارض في ستة أيام واستواؤه على عرشه ونظام الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والنجوم بأمره ، وكون الخلق والامر له وحده ، وذلك فى الآية ٥٤ وهي تتضمن الترغيب في علمي الفلك والجغرافية الطبيعية دون علم التنجيم الخرافي ، وقد بلغ أهل الغرب من العلم بذلك مالو ذكر أبسطه وأبعده عن الغرابة في غير هذا العصر لقال فيه أذكى العقلاء إنه من هذيان المجانين، أو تخيل الحشاشين ، ولا يوجد علم أدل على عظمة الخالق وقدرته وسعة علمه ودقة حكمته من علم الفلك ، وقد كان قومنا العرب في عهد حضارتهم الاسلامية أعلم البشر به فصاروا أجهلهم به

(٢) خلق الله الرياح والمطر واحياؤه الارض به واخراجه الثمرات والخصب وضده وذلك في الآيتين ٥٧و٥٨ وذلك يتضمن الترغيب في العلم بسنن الله تعالى في هذه المخلوقات كما قلناه فيما قبله لان في العلم بذلك كله من معرفة آيات الله وكمال صفاته مايعطي متأمله اليقين في الايمان اذا قصده ويغدق عليه نعمه التي من

عليها بها ويعدّه لشكرها فتجتمع له بذلك سعادة الدارين وقد اتسعت علوم بعض البشر بذلك فاستحوذوا على أكثر خيرات الأرض في بلادهم وبلاد الجاهلين بها الذين أضاع الجهل عليهم دنياهم ودينهم بالتبع لها

(٣) خلقُ الله الناس من نفس واحدة وخلق زوجها منها ليسكن إليها وإعداد الزوجين الذكر والانثى للتناسل كما في الآية ١٨٩ وفي قصة جنة آدم ومعصيته وتوبته من الآيات ١٩ـ٢٥ بعض صفات النشأة البشرية واستعدادها وحالها في سكنى الارض

(٤) تفضيل الله تعالى للانسان على من في الارض جميعاً كما أفاده قوله تعالى (١٠ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس لم يكن من الساجدين) وبيان هذه المسألة بالتفصيل في تفسير سورة البقره لأنها أوسع تفصيلا لما تقتضيه قصة آدم المطولة فيها والتصريح فيها بجعل آدم خليفة في الارض ، وفي باب التأويل هنالك سبح طويل للاستاذ الامام رحمه الله تعالى لم يسبقه إليه أحد فيما نعلم فيراجع في الجزء الاول من هذا التفسير

(٥) خلق بني آدم مستعدين لمعرفة الله تعالى وإشهاد الرب إياهم على أنفسهم أنه ربهم، وشهادتهم بذلك بمقتضى فطرتهم، وما منحوه من العقل والفكر، وحجته تعالى عليهم بذلك كما في الآيتين ١٧٢ و١٧٣ فيراجع تفسيرهما (في ص ٣٨٦ـ٤٠٤ ج) وكذا خلقهم مستعدين للشرك وما يتبعه من الخرافات كما في الاية الثانية منهما والاية ١٩٠

(٦) ضرب المثل لاختلاف استعداد البشر لكل من الخير والشر والبر والاثم وعلامة كل منهما فيهم وكونهم يعرفون بثمارهم، وذلك قوله تعالى (٥٧ والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا) ،وفيه إرشاد الى طلب معرفة الشيء بأثره، ومعرفة الأثر بمصدره ، وفيه دليل على ان في الاشياء خبيثاً وطيباً، وجيداً ورديئاً. ويؤيده حديث « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة » إلخ وهو في الصحاح وغيرها

(٧) الكلام في إبليس وهو الشيطان وعداوته لآدم وامتناعه من السجود له ووسوسته له ولزوجه بالاغراء بالمعصية بالأكل من الشجرة وعاقبة ذلك . وهو في الآيات ٢٠ ـ ٢٣ وكونه من المنظرين إلى يوم القيامة

(٨) عداوة إبليس والشياطين من نسله لبني آدم وتزيينهم لهم الشر والباطل

واغرائهم بالفساد والمعاصي وحكمة ذلك ، وهي في الآيات ١٦و١٨و٢٠ـ٢٢و٢٧ وتحذيرهم منه في الآية ٢٦ مع بيان أنه يراهم هو وقبيله من حيث لايرونهم

(٩) نزغ الشيطان للانسان ومقاومته بالاستعاذة بالله تعالى وكون المتقين اذا مسهم طائف منه تذكروا فاذا هم مبصرون لاتطول غفلتهم فيغرهم وسواسه وذلك في الآيتين ٢٠٠ـ٢٠٢

(١٠) بيان أن الشياطين أولياء المجرمين الذين لايؤمنون من بني آدم وهو في فاصلة الآية ٢٧ وبيان أن اخوان الشياطين من بني آدم يمكنون الشياطين من انفسهم بعدم تقواهم فهم يمدونهم في الغي ولا يقصرون فيه وذلك نص الآية ٢٠٢

قد سبق الكلام في تفسيرنا هذا على مباحث الشياطين والجن في عدة مواضع قد أحلنا عليها في تفسير آيات الاعراف وزدنا على ذلك عقد فصل استطرادي في حكمة خلق الله تعالى الخلق، واستعداد الشيطان والبشر للشر . فيراجع في (ص ٣٤٠ ـ ٣٤٤ ج ٨)

(١١) منة الله على البشر بتمكينهم في الارض وتسهيل أسباب المعايش لهم كما في الآية ٩ ومن الشكر الواجب له تعالى على ذلك طلب سعة العلم باستعمار الارض ووسائل المعايش

(١٢) منة الله على البشر باللباس والزينة كما في الآية ٢٦ وراجع في ذلك الاصلين ٥ و ٦ من الباب الرابع من هذه الخلاصة

(١٣) صفات شرار البشر المستحقين لجهنم وهم الذين أهملوا استعمال عقولهم وحواسهم فيما خلقت لأجله من اقتباس العلم والحكمة ـ وذلك نص الآية ١٧٩ وذكرت في أصل الجزاء في الآخرة (وهو ١١ من الباب الثالث) وفي تعظيم شأن النظر والتفكر لتحصيل العلم (وهو الاصل ٣ من الباب ٤ .)

(١٤) آياته تعالى ونعمه على بني اسرائيل وتراجم في قصة موسى معهم

الباب السادس

في سنن الله تعالى في الاجتماع والعمران البشري

(وفيه ٧ أصول)

(١) اهلاك الله الامم بظلمها لنفسها ولغيرها كما في الآيتين ٣ و ٤ ومصداقه في خلق آدم الذي هو عنوان البشرية وجعله تعالى المعصية بالأكل من الشجرة ظلماً للنفس في الاية ١٩ واعتراف آدم وحواء في دعاء توبتهما بذلك في قولهما (ربنا ظلمنا أنفسنا) وبأن شأن المعصيه من الافراد أن تغفر بالتوبة فيعفى عن عقابها وهو خسران النفس كما في قولهما (وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن الخاسرين) وأما خسارة الامم فهي إضاعة استقلالها وسلطان أمة أخرى عليها تستذلها . وجملة ذلك أن العقوبة أثر طبيعي لازم للعمل وأن ذنوب الامم لا بدّ من العقاب عليها في الدنيا قبل الآخرة، وأما ظلم الأفراد وعقابهم عليه في الآخرة فيراجع في الاصل ٤ من الباب الثالث

(٢) بيان أن للأمم آجالا لا تتقدم ولا تتأخر عن أسبابها التي اقتضتها السنن الالهية العامة ، وهو نص الآية ٣٤ وكونها اذا كانت جاهلة بهذه السنن تؤخذ بغتة وعلى غفلة ليلا أو نهاراً كما يؤخذ من الآيات ٩٤ — ١٠٠ وهذه الآيات وردت في عقاب الامم التي عاندت الرسل وكان عقابها وضعياً لا اجتماعيا — وقد سبق لنا في هذا التفسير أن العقاب الالهي للافراد وللامم نوعان (أحدهما) العقاب بما توعد تعالى به على مخالفة رسله ومعاندتهم وهو من قبيل عقاب الحكام لرعاياهم على مخالفة شرائع أمتهم وقوانينها ونظمها (وثانيهما) العقاب الذي هو أثر طبيعي للجرائم، وهو من قبيل ما يعاقب به المريض على مخالفة أمر طبيبه في معالجته له من الحمية والاقتصار على كذا من الغذاء والتزام كذا من الدواء . (راجع ص ٣٠٨ ج ٧ تفسير)

(٣) ابتلاء الله الامم بالبأساء والضراء تارة وبضدها من الرخاء والنعماء تارة أخرى، فاما أن تعتبر بذلك فيكون تربية لها وإما أن تغبى وتغفل فيكون مهلكة لها كما في الآيات ٩٤ وما بعدها مما تقدم الكلام عليه في السنة الثانية من وجه آخر

(٤) بيان أن الايمان بما دعا الله اليه والتقوى في العمل بشرعه فعلا وتركا سبب اجتماعي طبيعي لسعة بركات السماء والارض وخيراتها على الامة كما في قوله تعالى (٩٦ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض) وهو موافق لآيات أخرى في سور أخرى [منها] الاية ٥٢ من سورة هود [١١] والآيات ١٢٣-١٢٧ من سياق بيان سننه تعالى في النشأة البشرية من سورة طه ومثله في الآيات ١٠-١٢ من سورة نوح والآيتين ١٦ و١٧ من سورة الجن بعدها وغيرها ، وقد بينا وجه ذلك في التفسير والمنار ومنه تحقيق معنى التقوى واختلافها باختلاف مواضعها من أمور الدين والدنيا في مقالة عنوانها (عاقبة الحرب المدنية) نشرت في (ج٧م٢١ من المنار)

[٥] استدراجه تعالى للمكذبين والمجرمين واملاؤه لهم كما في الآيتين ١٨٢ و١٨٣ وهو في معنى ماسبقه من سنة أخذ الله للأمم بذنوبها ومن سنة ابتلائها بالحسنات والسيئات فان من لا يعتبر بذلك ولا يتربى يصر على ذنبه ولا يرجع عنه وذنوب الامم لابد من العقاب عليها - راجع تفسير الايتين في ص٤٥١ و٤٤٩ ج٩ ففيه بيان هذه السنة موضحا

(٦) سنة الله في ارث الارض واستخلاف الامم فيها والاستيلاء والسيادة على الامم والشعوب . فقد بين الله تعالى لنا في قصة موسى مع قومه أن وطأة فرعون وقومه اشتدت على بني اسرائيل وصرح بوجوب الاستمرار على تقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم لاجل أن تنقرض الامة بعد استذلال من يبقى من النساء إلى أن ينقرض الرجال وما ازدادوا إلا ذلا وخنوعا - وهم مئات الالوف - كما هو شأن الشعوب الجاهلة المستضعفة ولكن الله تعالى أمر رسوله موسى أن ينلخ ذلك اليأس من قلوبهم بقوة الايمان بما حكاه عنه بقوله (١١٨ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ، إن الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) أي بين لهم أن الارض ليست رهن تصرف الملوك والدول بقدرتهم الذاتية فتدوم لهم وانما هي لله ، وله سبحانه وتعالى سنة في سلبها من قوم وجعلها إرثا لقوم آخرين بمحض مشيئته وسلطانه ، ومدار هذه السنة على أن العاقبة في التنازع بين الامم على الارض التي تعيش فيها أو تستعمرها للمتقين ، أي الذين يتقون أسباب

الضعف والخذلان والهلاك كاليأس من روح الله والتخاذل والتنازع والفساد في الارض والظلم والفسق، ويتلبسون بضدها وبسائر ماتقوى به الامم من الاخلاق والاعمال، وأعلاها الاستعانة بالله الذي بيده ملكوت كل شيء. والصبر على المكاره مهما عظمت ، وهذان الامران هما أعظم ماتتفاضل به الامم من القوى المعنوية باتفاق الملاحدة والمليين من علماء الاجتماع وقواد الحروب

وقد تكررت هذه القاعدة في القرآن الحكيم وفي معناها قوله تعالى من سورة الانبياء [٢١ : ١٠٥ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون] وانما الصالحون هم الذين يصلحون لاقامة الحق والعدل وسائر شرائع الله وسننه في العمران، وهي بمعنى مايسميه علماء الاجتماع «بقاء الاصلح أو الامثل في كل تنازع» ويدل عليه المثل المشهور في سورة الرعد [١٣ : ١٧ أنزل من السماء ماء — إلى قوله — فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث في الارض]

ومن العجيب أن ترى بعض الشعوب الاسلامية المستضعفة في هذا العصر بسيادة الاجانب عليها يائسة من استقلالها وعزتها بل من حياتها الملية والقومية بما ترى من خفة موازينها ورجحان موازين السائدين عليها في القوى المادية والآلية واستذلال هؤلاء السائدين عليها لها، جهلا منها بسنة الله تعالى التي بينها في هذه الآية وغفلتها عن كون رجحان قوى فرعون وقومه على بني اسرائيل وقهره لهم كانا فوق رجحان قوى سائديها عليها وقهرهم إياها ، وفي هذا العصر من العبر التاريخية بسقوط بعض الدول القوية مالا يقل عن العبرة بأحداث التاريخ القديم

ثم بين لنا تعالى في الآية التالية لتلك الاية [١٢٩] أن موسى عليه السلام شكا له قومه إيذاء فرعون وقومه لهم قبل مجيئه وبعده على سواء. فذكر لهم ماعنده من الرجاء باهلاك ربهم لعدوهم واستخلافهم في الارض الموعودين بها ليختبرهم فينظر كيف يعملون، ويكون ثبات ملكهم وسلطانهم على حسب عملهم الذي تصلح به الارض وأهلها أو تفسد . وهو مافصله تعالى لنا بعد ذلك في آيات أخرى منها في إفسادهم قوله تعالى [١٧ : ٤ وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض] إلى تتمة الآية الثامنة

ثم بين لنا تعالى في الآية ١٣٧ من هذا السياق أنه أورثهم الارض المباركة وتمت كلمته الحسنى عليهم [بما صبروا] أي لا بمجرد آيات الله لموسى وما أيده به ، فعلم منه بالفعل أن الامة المستضعفة مهما يكن عدوها الظالم لها قويا فليس لها أن تيأس من الحياة . وهو تحقيق لرجاء موسى هنا ولوعد الله إياه بذلك صريحاً في قوله من سورة القصص [٢٨ : ٥ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الارض] الاية

ترى شعوب المسلمين يجهلون هذه السنن الالهية وماضاع ملكهم وعزهم إلا بجهلها الذي كان سبباً لعدم الاهتداء بها في العمل، وما كان سبب هذا الجهل إلا الاعراض عن القرآن ودعوى الاستغناء عن هدايته بما كتبه لهم المتكلمون من كتب العقائد المبنية على القواعد الكلامية المبتدعة وما كتبه الفقهاء من أحكام العبادات والمعاملات المدنية والعقوبات والحرب وما يتعلق بها، وهذه السورة الجليلة الكبيرة القدر والفوائد (الاعراف) خالية من هذه الاحكام كلها، ومن نظريات المتكلمين في العقائد وتقريرهم لها ، وكذلك غيرها من السور المكية . فهل أنزل الله تعالى هذه السور كلها للتعبد بتجويد ألفاظها بدون فهم ، أو لاتخاذها رقى وتمائم ، وكسباً لقراء المآتم ؟

وأعجب من هذا كله أن الجهل بلغ بهم بعد ذلك أن ظهر فيهم فريق خصم لهذا الفريق المقلد المحافظ على كتب القرون الوسطى دون هدي السلف، خصم يقول إن دين الاسلام هو السبب في جهل المسلمين وضعفهم ولا حياة لنا إلا باقتباس علم الاجتماع وسنن العمران من الامم غير الاسلامية التي سادتنا بهذه العلوم وما يؤيدها من الفنون والصناعات، وهؤلاء أجهل بالاسلام من أولئك ، فكتاب الاسلام هو المرشد الاول لسنن الاجتماع والعمران، ولكن المسلمين قصروا في طور حياتهم العلمية عن تفصيل ذلك بالتدوين لعدم شعورهم بالحاجة اليه، وكان حقهم في هذا العصر أن يكونوا أوسع الناس به علما لان كتاب الله مؤيد للحاجة بل الضرورة التي تدعو إليه

(٧) إن سنة الله في الامم التي ترث الارض من بعد أهلها الاصلاء هي سنته تعالى في أهلها ، فاذا كان هؤلاء قد غلبوا عليها بسبب ظلمهم وفسادهم وجهلهم وعمى قلوبهم ، فكذلك يكون شأن الوارثين لها من بعدهم اذا صاروا مثلهم في

ذلك ، وذلك قوله تعالى (١٠٠ أولم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون) وكنا نرى الذين ورثوا ممالك المسلمين متعظين بمعنى هذه الآية من بعض الوجوه فهم على كثرة ذنوبهم بالظلم وافساد العقائد والاخلاق وسلب الاموال يتحرون أن يكون ظلمهم دون ظلم حكام أهل البلاد الذين أضاعوها ، وعقولهم تبحث دائما في الاسباب التي يخشى أن تكون سببا لسلبها منهم لاجل اتقائها ، وآذانهم مرهفة مصيخة لاستماع كل خبر يتعلق بأمرها وأمر أهلها وشؤون الطامعين فيها حذراً منهم أن يسلبوهم اياها

وقد قلنا في تفسير هذه الاية: قد كان ينبغي للمسلمين وهذا كتابهم من عند الله عز وجل أن يتقوه تعالى باتقاء كل ماقصه عليهم من ذنوب الأمم التي هلك بها من كان قبلهم ، وزال ملكهم، ودالت بسببها الدولة لأعدائهم - إلخ ماتراه في ص ٣٠ و ٣١ ج ٩

هذا مافتح الله به علينا من أصول وأمهات هداية هذه السورة الجليلة بمراجعتها المرة بعد المرة مروراً على الآيات بالنظر ، ولو أعدنا قراءتها مع قراءة تفسيرها بالتدبر لظهر لنا أكثر من ذلك وانما أردنا التلخيص ، ونسأله تعالى أن يجعلها هي وسائر كتابه المجيد حجة لنا لا علينا ويوفق أمتنا للرجوع الى الاهتداء به بالتوبة اليه كما تاب أبوهم وأمهم عليهما السلام

﴿ تنبيه ﴾

قد وقع خطأ في عدد آيات هذه السورة بالنسبة الى عدد المصحف الجديد الذي طبعته الحكومة المصرية والفرق بينهما آية واحدة من أول السورة إذ عدت فيه (المص) آية ولم نعدها آية - ثم وافقنا عدده من الاية ١٦٧ الى آخر السورة .

وقد اعتمدنا في شواهد خلاصة السورة على عدد المصحف لا التفسير

لأننا استنبطناها من مراجعة المصحف نفسه غالبا

فليعلم هذا ويتذكر عند مراجعة

شواهد التفسير

سورة الانفال

-٨-

(وهي السورة الثامنة في العدد ووضعت موضع السابعة من السبع الطُّوَل مع أنها من المثاني وهي دون المئين التي تلي الطول لما سيأتي — وعدد آياتها ٧٥ آية في عد الكوفي و٧٦ في الحجازي و٧٧ في الشامي)

سورة الانفال مدنية كلها كما روي عن الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء وعبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت . وقال ابن عباس إنها نزلت في بدر وفي لفظ تلك سورة بدر . وقيل إنها مدنيـة الا آية (٦٤ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنـين) فقد روى البزار عن ابن عباس أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب (رض) فعلى هذا وضعت في سورة الانفال وقرنت مع آياتها التي نزلت في التحريض على القتال في غزوة بدر لمناسبتها للمقام . وروي عن مقاتل استثناء قوله تعالى (٣٠ واذ يمكر بك الذين كفروا) الآية لان موضوعها ائتمار قريش بالنبي ﷺ قبيل الهجرة بل في الليلة التي خرج فيها رسول الله ﷺ مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه بقصد الهجرة وباتا في الغار ، وهـذا استنباط من المعنى وقد صح عن ابن عبـاس أن الآية نفسها نزلت في المدينة . وزاد بعضهم عنه استثناء خمس آيات أخرى بعد هذه الآية أي إلى الآية ٣٥ للمعنى الذي ذكرناه آنفا وهو أن موضوعها حال كفار قريش في مكة وهذا لا يقتضي نزولها في مكة، بل ذكر الله بها رسوله بعد الهجرة . وكل ما نزل بعد خروج النبي ﷺ مهاجراً فهو مدني

ووجه مناسبتها لسورة الاعراف أنها في بيان حال خاتم المرسلين ﷺ مع قومه وسورة الاعراف مبينة لأحوال أشهر الرسل مع أقوامهم ، هـذا هو العمدة وهناك تناسب خاص بين عدة آيات من السورتين يقوي هذا التناسب ولكنه لا يصح أن يكون شيء منه سبباً للمقارنة بينهما لان مثل هـذا الاتفاق في بعض

المعاني مكرر في أكثر السور الكبيرة ، وأنقل هنا عن روح المعاني مانقله عن السيوطي في وضع هذه السورة هنا وما تعقبه به وهو :

«والظاهر أن وضعها هنا توقيفي وكذا وضع براءة بعدها وهما من هذه الحيثية كسائر السور ، وإلى ذلك ذهب غير واحد كما مر في المقدمات ، وذكر الجلال السيوطي أن ذكر هذه السورة هنا ليس بتوقيف من الرسول ﷺ للصحابة رضي الله تعالى عنهم كما هو المرجح في سائر السور ، بل باجتهاد من عثمان رضي الله تعالى عنه، وقد كان يظهر في بادي الرأي أن المناسب ايلاء الاعراف بيونس وهود لاشتراك كل في اشتمالها على قصص الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأنها مكية النزول خصوصاً أن الحديث ورد في فضل السبع الطول ، وعدوا السابعة يونس وكانت تسمى بذلك كما أخرجه البيهقي في الدلائل ففي فصلها من الاعراف بسورتين فصل للنظير من سائر نظائره، هذا مع قصر سورة الانفال بالنسبة الى الاعراف وبراءة، وقد استشكل ذلك قديماً حبر الامة رضى الله تعالى عنه فقال لعثمان رضي الله تعالى عنه : ماحملكم على أن عمدتم الى الانفال وهي من المثاني ، والى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا البسملة بينهما ووضعتموها في السبع الطول؟ ثم ذكر جواب عثمان رضي الله تعالى عنه وقد أسلفنا الخبر بطوله سؤالا وجوابا ثم قال وأقول يتم مقصد عثمان رضي الله تعالى عنه في ذلك بأمور فتح الله تعالى بها

(الاول) أنه جعل الانفال قبل براءة مع قصرها لكونها مشتملة على البسملة فقدمها لتكون كقطعة منها ومفتتحها ، وتكون براءة لخلوها من البسملة كتتمتها وبقيتها ، ولهذا قال جماعة من السلف إنها سورة واحدة

(الثاني) وضع براءة هنا لمناسبة الطول فانه ليس بعد الست السابقة سورة أطول منها وذلك كاف في المناسبة

(الثالث) أنه خلل بالسورتين أثناء السبع الطول المعلوم ترتيبها في العصر الاول للاشارة الى أن ذلك أمر صادر لاعن توقيف والى أن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يبين كلتيهما فوضعاهنا كالوضع المستعار بخلاف مالو وضعا بعد السبع الطول فانه كان يوهم أن ذلك محلهما بتوقيف ، ولايتوهم هذا على هذا الوضع ، للعلم بترتب

السبع، فانظر الى هذه الدقيقة التي فتح الله تعالى بها ولا يغوص عليها الاغواص

(الرابع) أنه لو أخرهما وقدم يونس وأتى بعد براءة بهود كما في مصحف أبيّ لمراعاة مناسبة السبع وايلاء بعضها بعضاً لفات مع ماأشرنا اليه أمر آخر آكد في المناسبة فان الاولى بسورة يونس أن يؤتى بالسور الخمس التي بعدها لما اشتركت فيه من المناسبات من القصص، والافتتاح بآلر، وبذكر الكتاب، ومن كونها مكيات، ومن تناسب ماعدا الحجر في المقدار، ومن التسمية باسم نبي، والرعد اسم ملك وهو مناسب لاسماء الانبياء عليهم الصلاة والسلام. فهذه عدة مناسبات للاتصال بين يونس وما بعدها وهي آكد من هذا الوجه الواحد في تقديم يونس بعد الاعراف. ولبعض هذه الامور قدمت سورة الحجر على النحل مع كونها أقصر منها ولو أخرت براءة عن هذه السور الست لبعدت المناسبة جداً لطولها بعد عدة سور أقصر منها بخلاف وضع سورة النحل بعد الحجر فانها ليست كبراءة في الطول

«ويشهد لمراعاة الفواتح في مناسبة الوضع ماذكرناه من تقديم الحجر على النحل لمناسبة (الر) قبلها وماتقدم من تقديم آل عمران على النساء وان كانت أقصر منها لمناسبتها البقرة في الافتتاح بالم، وتوالي الطواسين والحواميم، وتوالي العنكبوت والروم ولقمان والسجدة لافتتاح كل بالم، ولهذا قدمت السجدة على الاحزاب التي هي أطول منها. هذاما فتح الله به علي

« ثم ذكر أن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قدم في مصحفه البقرة والنساء وآل عمران والاعراف والانعام والمائدة ويونس، راعى السبع الطول فقدم الاطول منها فالاطول، ثم ثنى بالمئين فقدم براءة ثم النحل ثم هود ثم يوسف ثم الكهف وهكذا الاطول فالاطول وجعل الانفال بعد النور، ووجه المناسبة أن كلا مدنية ومشتملة على أحكام، وأن في النور (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض) الآية، وفي الانفال (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الارض) الخ، ولا يخفى مابين الآيتين من المناسبة فالاولى مشتملة على الوعد بما حصل وذكر به في الثانية فتأمل اه كلام السيوطي

(الآلوسي) » وأقول قدمن الله تعالى على هذا العبد الحقير، بما لم يمن به على هذا المولى الجليل ، والحمد لله تعالى على ذلك حيث أوقفني سبحانه على وجه مناسبة هذه السورة لما قبلها وهو لم يبين ذلك، ثم ماذكره من عدم التوقيف في هذا الوضع في غاية البعد كما يفهم مما قدمناه في المقدمات ، وسؤال الحبر وجواب عثمان رضي الله تعالى عنهما ليسا نصاً في ذلك وما ذكره عليه الرحمة في أول الامور التي فتح الله تعالى بها عليه غير ملائم نظاهره ظاهر سؤال الحبر رضي الله تعالى عنه حيث أفاد أن اسقاط البسملة من براءة اجتهادي أيضاً، ويستفاد مما ذكره خلافه، وما ادعاه من أن يونس سابعة السبع الطول ليس أمراً مجمعاً عليه ، بل هو قول مجاهد وابن جبير ورواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وفي رواية عند الحاكم أنها الكهف ، وذهب جماعة كما قال في اتقانه الى أن السبع الطول أولها البقرة وآخرها براءة ، واقتصر ابن الاثير في النهاية على هذا

وعن بعضهم أن السابعة الانفال وبراءة بناء على القول بأنهما سورة واحدة وقد ذكر ذلك الفيروز ابادي في قاموسه ، وما ذكره في الامر الثاني يغني عنه ماعلل به عثمان رضي الله تعالى عنه فقد أخرج النحاس في ناسخه عنه أنه قال : كانت الأنفال وبراءة يدعيان في زمن رسول الله ﷺ القرينتين فلذلك جعلتها في السبع الطول . وما ذكره من مراعاة الفواتح في المناسبة غير مطرد فان الجن والكافرون والاخلاص مفتتحات بقل مع الفصل بعدة سور بين الاولى والثانية والفصل بسورتين بين الثانية والثالثة وبعد هذا كله لايخلو ماذكره عن نظر كما لايخفى على المتأمل فتأمل . إه ماذكره الالوسي رحمه الله تعالى

وأقول ان جواب عثمان لابن عباس (رضي الله عنهم) هو كما رواه أحمد وأصحاب السنن الثلاثة وابن حبان والحاكم : كان رسول الله ﷺ ينزل عليه السور ذوات العدد فكان اذا نزل عليه الشيء دعا من كان يكتب يقول «ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا» وكانت الانفال من أوائل مانزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت انها منها ؛ فقبض رسول الله (ص) ولم يبين لنا انها منها. فمن أجل ذلك قرنت

بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتهما في السبع الطول اه

ولأجل هـذه الرواية ذهب البيهقي الى أن ترتيب جميع السور توقيفي عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا الانفال وبراءة ووافقه السيوطي . ويرد عليه انه لا يعقل أن يرتب النبي ﷺ جميع السور إلا الانفال وبراءة ، وقد صح انه ﷺ كان يتلو القرآن كله في رمضان على جبريل عليه السلام مرة واحـدة من كل عام فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه القرآن مرتين فأين كان يضع هاتين السورتين في قراءته ؟ التحقيق ان وضعهما في موضعهما توقيفي وإن فات عثمان أو نسيه ، ولولا ذلك لعارضه الجمهور أو ناقشوه فيه عند كتابة القرآن كما روي عن ابن عباس بعد سنين من جمعه ونشره في الاقطار

وهذا الحديث قال الترمذي حسن لا نعرفه إلا من حديث عوف (بن أبي جميلة) عن يزيد الفارسي عن ابن عباس ، ويزيد الفارسي هذا غير مشهور اختلفوا فيه هل هو يزيد بن هرمز أو غيره والصحيح انه غيره ، روى عن ابن عباس وحكى عن عبد الله بن زياد وكان كاتبه وعن الحجاج بن يوسف في أمر المصاحف . وسئل عنه يحيى ابن معين فلم يعرفه ، وقال أبو حاتم لا بأس به .اه ملخصا من تهذيب التهذيب ، فمثل هذا الرجل لا يصح أن تكون روايته التي انفرد بها مما يؤخذ به في ترتيب القرآن المتواتر



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٤) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

روى أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال « من قتل قتيلا فله كذا وكذا ، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا » فأما المشيخة (أي المشايخ) فثبتوا تحت الرايات . وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقالت المشيخة للشبان : انا كنا لكم ردءاً ولو كان منكم شيء للجأتم الينا فاختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت (يسألونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول) وذلك في غزوة بدر . وروى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن سعد بن أبي وقاص أنه قتل سعيد بن العاص وأخذ سيفه واستوهبه النبي ﷺ فمنعه اياه ، وأن الآية نزلت في ذلك فأعطاه اياه لان الامر وكل اليه ﷺ . وعن ابن جرير أنهم سألوا النبي ﷺ عن الخمس بعد الاربعة الاخماس فنزلت هذه الآية . وجملة القول أنها نزلت في غنائم غزوة بدر تنازع فيها حائزوها من الشبان وسائر المقاتلة . وقيل المهاجرون والانصار

قال تعالى ﴿ يسألونك عن الانفال ﴾ الانفال جمع نفل بالتحريك وهو في

أصل اللغة من النفل ـ بفتح وسكون ـ أي الزيادة عن الواجب ومنه صلاة النفل. قال الراغب النفل قيل هو الغنيمة بعينها لكن اختلفت العبارة عنه لاختلاف الاعتبار فانه اذا اعتبر بكونه مظفوراً به يقال له غنيمة ، واذا اعتبر بكونه منحة من الله ابتداء من غير وجوب يقال له نفل ، ومنهم من فرق بينهما من حيث العموم والخصوص فقال الغنيمة كل ماحصل مستغنما بتعب كان أو بغير تعب ، وباستحقاق أو بغير استحقاق ، وقبل الظفر كان أو بعده . والنفل مايحصل للانسان قبل القسمة من جملة الغنيمة ، وقيل هو مايحصل للمسلمين بغير قتال وهو الفيء ، وقيل مايحصل من المتاع قبل أن تقسم الغنائم . وعلى هذا حملوا قوله (يسألونك عن الانفال) الآية

والمعنى يسألونك أيها الرسول عن الانفال لمن هي ؟ ألشبان أم المشيخة ؟ أو للمهاجرين أم للانصار { قل الانفال لله والرسول } أي قل لهم الانفال لله يحكم فيها بحكمه وللرسول يقسمها بحسب حكم الله تعالى وقد قسمها ﷺ بالسواء . وهذا لا ينافي التفصيل الذي سيأتي في قوله تعالى (واعلموا أن ماغنمتم من شيء فان لله خمسه) الخ فيكون التفصيل ناسخاً للاجمال كما قال مجاهد وعكرمة والسدي فالصواب قول ابن زيد ان الآية محكمة وقد بين الله مصارفها في آية الخمس. وللامام أن ينفل من شاء من الجيش ماشاء قبل التخميس { فاتقوا الله } في المشاجرة والخلاف والتنازع وسيأتي في السورة مضار ذلك ولا سيا في حال الحرب { وأصلحوا ذات بينكم } أي أصلحوا نفس ما بينكم وهي الحال والصلة التي بينكم تربط بعضكم ببعض وهي رابطة الاسلام واصلاحها يكون بالوفاق والتعاون والمواساة وترك الاثرة والتفوق ، وبالايثار أيضاً . والبين في أصل اللغة يطلق على الاتصال والافتراق وكل مابين طرفين كما قال (لقد تقطع بينكم) ويعبر عن هذه الرابطة بذات البين . وأمرنا في الكتاب والسنة باصلاح ذات البين فهو واجب شرعا تتوقف عليه قوة الامة وعزتها ومنعتها وتحفظ به وحدتها { وأطيعوا الله ورسوله } في الغنائم وفي كل أمر ونهي وقضاء وحكم ، فالله تعالى يطاع لذاته لأنه رب العالمين ومالك أمرهم ، والرسول يطاع في أمر الدين لأنه مبلغ له عن الله تعالى ومبين لوحيه فيه بالقول والفعل والحكم وهذه الطاعة له تعبدية لارأي لأحد فيها وتتوقف عليها

النجاة في الآخرة والفوز بثوابها، ويطاع في اجتهاده في أمر الدنيا المتعلق بالمصالح العامة ولا سيا الحرب من حيث انه الامام والقائد العام، فمخالفته اخلال بالنظام العام وافضاء إلى الفوضى التي لاتقوم معها للامة قائمة. فهذه الطاعة واجبة شرعا كالأولى إلا أنها معقولة المعنى، فقد أمره الله تعالى في تنفيذ أحكامه وادارته بمشاورة الامة كما تقدم في سورة آل عمران وأشرك معه في هذه الطاعة أولي الامر كما تقدم في سورة النساء، وسيأتي كيف راجعه بعضهم في هذه الغزوة المفصلة أحكامها في هذه السورة ورجع عن رأيه ﷺ إلى الرأي الذي ظهر صوابه، ولكن الامر الاخير لابدّ أن يكون له كما شاورهم في غزوة أحد في الخروج من المدينة أو البقاء فيها. فلما انتهت المشاورة وعزم على تنفيذ رأي الجمهور راجعوه فلم يقبل مراجعة، وقد بينا هذا مع حكمته في تفسير (وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله) وترى في تلك السورة كيف كانت مخالفة الرماة له ﷺ سبباً في ظهور العدو على المسلمين فراجع تفسير (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم) في ص ٢٢٤ الجزء الرابع

ولأئمة المسلمين منهم من حق الطاعة في تنفيذ الشرع وادارة الامور العامة وقيادة الجند ماكان له ﷺ منه مقيداً بعدم معصية الله تعالى وبمشاورة أولي الامر كما تقدم تفصيله في تفسير (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) الآية

ثم قال تعالى ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي فامتثلوا الأوامر الثلاثة فان الايمان يقتضي ذلك كله لان الله تعالى أوجبه، والمؤمن بالله غير المرتاب بوعده ووعيده يكون له سائق من نفسه إلى طاعته إلا أن يعرض له مايغلبه عليها أحياناً من ثورة شهوة أو سورة غضب، ثم لايلبث أن يفيء إلى أمر الله ويتوب اليه مما عرض له كما تقدم في تفسير (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) الخ، ثم وصف الله المؤمنين بما يدل على هذا ويثبته فقال

﴿ انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ هذه جملة مستأنفة لبيان حال المؤمنين الذين بين في شرطية الآية قبلها شأنهم من التقوى واصلاح ذات البين في الامة وطاعة الله ورسوله على قاعدة أن النكرة اذا أعيد ذكرها معرفة تكون عين الاولى

أو بيان حال المؤمنين الكاملي الايمان مطلقاً ليعلم منه أن تلك الامور الثلاثة هي بعض شأنهم ، وقد بين صفاتهم بصيغة الحصر التي يخاطب بها من يعلم ذلك أو ينزل منزلة العالم به الذي لاينكره وهي « انما » كما حققه امام الفن الشيخ عبد القاهر . وصفهم بخمس صفات

(الصفة الاولى) قوله (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) قال الراغب : الوجل استشعار الخوف. يعني مايجعل القلب يشعر به بالفعل وعبر غيره عنه بالفزع والخوف (وبابه فرح وتعب) وذلك أن الخوف توقع أمر مؤلم في المستقبل قد يصحبه شعور الالم والفزع ، وقد يفارقه لضعفه أولاعتقاد بعد أجله، فالوجل والفزع أخص منه . وفي سورة الحجر من حوار ابراهيم ﷺ مع ضيفه المنكرين(١٥:٥٢ قال انا منكم وجلون ٥٣ قالوا لاتوجل) الخ ، وفي سورة المؤمنين في صفة المؤمنين المشفقين من خشية ربهم (٢٣ : ٦١ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم إلى ربهم راجعون)فالوجل هنا مقترن بالعمل الصالح وهو البذل والعطاء، وفي سورة الحج (٢٢:٣٢ وبشر المخبتين ٢٣ الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) وهي بمعنى آية الانفال، وليس للوجل ذكر في غير هذه الآيات ، ويتفق معنى الوجل فيها بأنه الفزع وشعور الخوف يلم بالقلب، وقد يكون هذا الخوف من العاقبة المجهولة ، وقد يكون من الاجلال والمهابة ، وقد روي عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء : الوجل في القلب كاحتراق السعفة ، ياشهر بن حوشب أما تجد له قشعريرة ؟ قلت بلى، قالت فادع الله فان الدعاء يستجاب عند ذلك . وعن ثابت البناني : قال فلان اني لأعلم متى يستجاب لي ، قالوا ومن أين لك ذلك ؟ قال اذا اقشعر جلدي ، ووجل قلبي ، وفاضت عيناي ، فذلك حين يستجاب لي .وعن عائشة (رض) قالت : ماالوجل في القلب الا كضرمة السعفة ، فاذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك. السعفة بالتحريك واحدة السعف وهو جريد النخل اذا احترق يسمع له نشيش، شبهت به أم المؤمنين وأم الدرداء شعور الوجل يلم بالقلب من ذكر الله فيخفق له

والمراد بذكر الله ذكر القلب لعظمته وسلطانه وجلاله أو لوعيده ووعده ،

ومحاسبته لخلقه وإدانتهم ، وغير ذلك من صفاته وأفعاله سواء صحبه ذكر اللسان أم لا ، وأعظم ذكر اللسان مع القلب ترتيل القرآن بالتدبر ، وقد يقول المؤمن في صلاة التهجد في الخلوة « الله أكبر » مستحضراً لمعنى كبريائه عز وجل فينتفض ويقشعر جلده ، فمن خص الذكر هنا بالوعيد غفل عن كل هـذا وظن أن الوجل لا يكون الا من خوف العذاب، وكأنه لم يذق طعم الخشية والوجل من مهابة الله وعظمته وكبريائه وعزة سلطانه وغير ذلك من معاني أسمائه وصفاته ، ولم يقرأ قوله تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) ولم يعلم أن من عباد الله من يخشع قلبه ويفيض دمعه من ذكر أسماء الله في آخر سورة الحشر (٥٩ : ٢١ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله. وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ٢٢ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم) الخ ولا يجد مثل هذا الوجل عند وصف جهنم وذكر الحساب والجزاء. وانما يأخذ مثل هذا معاني القرآن من فهمه لظواهر بعض الالفاظ بدون شعور بما لها من التأثير في القلوب فيقابل بين هذه الآية وما في معناها وبين قوله تعالى في سورة الرعد (١٣ : ٢٩ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فيظن أن بينهما تعارضا فيحاول التفصي منه بحمل هذا على ذكر الوعد والآخر على ذكر الوعيد ، ولا تعارض في الحقيقة ولا تنافي ففي كل من الوعد والوعيد وصفات الكمال وذكر آيات الله تعالى في الانفس والآفاق اطمئنان للقلوب بالايمان بالله تعالى والثقة بما عنده ، وغير ذلك مما يأتي بسطه في محله إن شاء الله تعالى . ولا ذكر يضرم سعفة الوجل في القلب كتلاوة كلام الرب عز وجل (٣٩ : ٢٢ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهاً مثانيَ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد)

(الصفة الثانية) قوله تعالى ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾ أي إذا تليت عليهم آياته المنزلة على خاتم أنبيائه ﷺ زادتهم إيمانا أي يقينا في الاذعان، وقوة في الاطمئنان ، وسعة في العرفان ، ونشاطا في الاعمال ، ويطلق الايمان في عرف الشرع على مجموع العلم والاعتقاد والعمل بموجبه وعلى كل منهما والقرائن

تعين المراد ، وفيما رواه البخاري ومسلم في كتاب الايمان من صحيحهما شواهد صريحة في ذلك ومن أهمها أحاديث أقل الايمان المنجي في الآخرة وحديث «الايمان بضعة وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الاذى عن الطريق » ولهذا حمل بعض الناس زيادة الايمان على زيادة العمل اللازم له، وبعضهم على زيادة مايتعلق به الايمان الذي فسروه بالتصديق القطعي، والحق أن الايمان القلبي نفسه يزيد وينقص أيضا فان ابراهيم ﷺ كان مؤمنا باحياء الله للموتى لما دعاه أن يريه كيف يحييها (قال أولم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) فمقام الطمأنينة في الايمان يزيد على مادونه من الايمان المطلق قوة وكمالا ، ويروى عن علي المرتضى كرم الله وجهه : لو كشف الحجاب ما ازددت يقينا . وهذا أقوى من الايمان بالبرهان وهو أقوى من إيمان التقليد الذي قال به الاكثرون إذا وافق الحق وكان يقينا، والعلم التفصيلي في الايمان أقوى وأكمل من العلم الاجمالي ، مثال ذلك أن الايمان بتوحيد الله تعالى لا يكمل إلا بمعرفة أنواع الشرك الظاهر والباطن التي تنافيه أو تنافي كماله ومنها ماهو أخفى من دبيب النمل ، وقد ورد في الدعاء المأثور « اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئا وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم» رواه ابن حبان والحكيم الترمذي في نوادر الاصول وأبو يعلي وغيرهم من حديث أبي بكر (ض) وضعفه ابن حبان والبيهقي وحسنه غيرهما وكم من مدع لتوحيد الله وناطق بكلمة الاخلاص وهو يعبد غير الله بدعائه مع الله أو من دون الله و «الدعاء هو العبادة » رواه أحمد والبخاري في الادب المفرد وأصحاب السنن الاربعة وغيرهم من حديث النعمان ابن بشير مرفوعا

ومثل آخر: من آمن بأن لله تعالى علما محيطا بالمعلومات ، وحكمة قام بها نظام الارض والسموات ، ورحمة وسعت جميع المخلوقات ، وكان علمه بهن إجماليا لو سألته أن يبين لك شواهده في الخلق لعجز عنها ـ لا يوزن إيمانه بايمان ذي العلم التفصيلي بسنن الله في الكائنات وعجائب صنعه فيها على النحو الذي جرى عليه العلامة المحقق ابن القيم في كتابه تفصيل النشأتين والامام أبو حامد في كتاب التفكر من الاحياء ، وقد اتسعت معارف البشر بهذه السنن والاسرار في كل نوع من أنواع المخلوقات فعرفوا منها مالم يكن يخطر عشر معشاره لاحد من علماء

القرون الخالية ومن كلام العلماء في ذلك قول الواحدي عن عامة أهل العلم إن من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان إيمانه أزيد . وقال الكرخي ان نفس التصديق يقبل القوة وهي التي عبر عنها بالزيادة للفرق المميز بين يقين الانبياء وأرباب المكاشفات ويقين آحاد الامة .وضرب الغزالي مثلا لتفاوت قوة الايمان وسائر أنواع العلم بمن يرى شبح إنسان في السدفة ثم يراه بعد وضوح الاسفار على بعدفلا يميز صفاته ثم يراه في نور الشمس بجانبه فهل يكون علمه به في كل هذه الاحوال واحدا ؟

وجملة القول أن زيادة الايمان ثابتة بنص هذه الآية وآيات أخرى كقوله تعالى في سورة آل عمران في وصف الذين استجابوا لله والرسول اذ دعاهم الى القتال بعد ما أصابهم القرح في غزوة أحد(٣ : ١٢٣ الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) وفي معناه قوله تعالى في سورة الاحزاب (٣٣ : ٢٢ ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ررسوله وصدق الله ورسوله . ومازادهم إلا إيمانا وتسليما) وعطف التسليم على الايمان هنا يؤيد كون المراد به إيمان القلب لا العمل . وفي معناه قو تعالى في أول سورة الفتح (٤٨ : ٤ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) فهو في إيمان القلب كما هو المتبادر . وأما آيتا أواخر التوبة (٩ : ١٢٥ و ١٢٦) وآية سورة المدثر (٧٤ : ٣١) فما يحتمل أن تكون زيادة الايمان فيها زيادة متعلقة بما نزل من القرآن . على أن البخاري استدل بآيتي التوبة وأمثالها على زيادة الايمان في القلوب وعليه جمهور السلف . بل حكى الاجماع عليه الشافعي وأحمد وأبو عبيد كما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره . فمن العجب بعد هذا أن تنقل هفوة لبعض العلماء أنكر فيها زيادة الايمان بالمعنى المصدري لشبهة نظرية ويجعل مذهبا يقلد صاحبه فيه تقليدا، وتؤول الآيات والاحاديث لأجله تأويلا

(الصفة الثالثة) قوله تعالى ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي يتوكلون على ربهم وحده لا يتوكلون على غيره ولا يفوضون أمورهم الى سواه عز وجل كما أفاده تركيب الجملة . وعن ابن عباس قال : لايرجون غيره . والتوكل أعلى مقامات التوحيد ، فان من كان موقنا بان ربه هو المدبر لاموره وأمور العالم كلها لا يمكن

أن يكل شيئا منها الى غيره ، ولما كان من المعلوم من الشرع والطبع والعقل بالضرورة أن للانسان كسبا اختياريا كلفه الله العمل به وأن يؤمن بأنه يجازى على عمله ان خيراً فخير وان شراً فشر – وجب على الانسان أن يسعى في تدبير أمور نفسه بحسب ماعلمه من سنن الله تعالى في نظام الاسباب وارتباطها بالمسببات معتقداً أن الاسباب مايعقل منها كالانسان ومالا يعقل لم تكن أسبابا الا بتسخير الله تعالى ، وأن ماينا له باستعمالها فهو من فضل ربه الذي سخرها وجعلها أسبابا وعلمه ذلك . وأما ما لا يعرف له سبب يطلب به فالمؤمن يتوكل فيه على الله وحده واليه يتوجه واياه يدعو فيما يطلبه منه ، وأما ترك الاسباب وتنكب سنن الله تعالى في الخلق وتسمية ذلك توكلا فهو جهل بالله وجهل بدينه وجهل بسننه التي أخبرنا بأنها لاتتبدل ولا تتحول . ومثله فيه كمثل من أمره ملكه أو مالكه بأن يعول في طعامه وشرابه وسائر حاجه عليه ولا يطلب من غيره شيئا ، وكان ذلك الملك أو المالك قد أعد له ولامثاله كل يوم مائدة لطعامهم وشرابهم فتنطع هو وامتنع عن الاختلاف الى المائدة مع أمثاله زاعما أن هذا عصيان لامر الملك في التعويل عليه وانظر أن يرسل اليه طعاما خاصا – أي أنه يطالب من ربه أن يبطل سننه في خلقه لاجله – فما أعظم جهله وغروره به ؟

وقد تقدم تحقيق معنى التوكل مع بسط القول فيه وكونه يستلزم الاخذ بالاسباب في تفسير (٣ : ١٦٠ وعلى الله فليتوكل المؤمنون)من سورة آل عمران فيراجع في ص ٢٠٧ — ٢١٤ وسيأتي التذكير ببعضه في الكلام على توكل النبي ﷺ من تفسير هذه السورة (الانفال)

(الصفة الرابعة) قوله تعالى ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ تقدم في تفسير هذه الجملة في أول سورة البقرة وفي تفسير (واستعينوا بالصبر والصلاة) منها، وفي تفسير آيات أخرى في معناها، وملخصها ان إقامة الصلاة عبارة عن أدائها مقومة كاملة في صورتها وأركانها الظاهرة من قيام وركوع وسجود وقراءة وذكر، وفي معناها وروحها الباطنة من خشوع وحضور في مناجاة الرحمن، وتدبر واتعاظ بتلاوة القرآن ، وتقدم أن

هذه الاقامة هي التي يستفيد صاحبها بها ماجعله الله تعالى ثمرة للصلاة من الانتهاء عن الفحشاء والمنكر وغير ذلك مما يراجع في موضعه

(الصفة الخامسة) قوله تعالى ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أي وينفقون بعض مارزقهم الله في وجوه البر من زكاة مفروضة لاقامة دولة الاسلام وغير ذلك من النفقات الواجبة والمندوبة للأقربين والمعوزين ومصالح الامة . وتقدم تفسيرها في أول سورة البقرة وفي مواضع أخرى مع التنبيه إلى كثرة ماورد في الكتاب العزيز من جعل الزكاة أو النفقة مقارنة للصلاة لانهما العبادتان اللتان عليهما مدار الاصلاح الروحي والاجتماعي في الملة . والتعبير بالانفاق أعم من التعبير بالزكاة كما علمت

﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ أي أولئك الموصوفون بتلك الصفات كلها هم دون سواهم ممن لم يتصف بها المؤمنون إيمانا حقا أو حق الايمان الذي لانقص فيه، أوحق ذلك حقاً أوحققته حقا، ذلك بأن الايمان حق الايمان هو ماأعقب التصديق الاذعاني فيه أثره من أعمال القلوب والجوارح وبذل المال في سبيل الله عز وجل. وقد جمعت الصفات التي وصفوا بها كل ذلك بحيث تتبعها سائر شعب الايمان ، تقول العرب فلان شاعر حقا أو فارس حقا لمن نبغ في الشعر ولمن كملت فيه صفات الفروسية. روى الطبراني بسند ضعيف يؤثر للعبرة عن الحارث بن مالك الانصاري (رض) انه مر برسول الله ﷺ فقال له « كيف أصبحت ياحارثة ؟» قال أصبحت مؤمنا حقا . قال « انظر ماذا تقول فان لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ » فقال عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . فقال« ياحارثة عرفت فالزم » ثلاثا ـ وروي عن الحسن أن رجلا سأله أمؤمن أنت ؟ قال الايمان إيمانان فان كنت تسألني عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن وإن كنت تسألني عن قوله تعالى (انما المؤمنون) ...فوالله لاأدري أنا منهم أم لا

ثم بيّن تعالى جزاء هؤلاء المؤمنين الكملة فقال ﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾ الدرجات منازل الرفعة ومراقي الكرامة وكونها عند الرب تعالى

وذكره مضافا الى ضميرهم تنبيه الى عظم قدر هذه الدرجات وتكريم لأهلها ، فان الله تعالى فضل بعض الناس ورفعهم على بعض درجة أو درجات في الدنيا وفي الآخرة وعند الرب عز وجل وهذا الاخير وان كان يكون في الآخرة فان وصفه بكونه عند الرب وباضافة اسم الرب الى أصحاب الدرجات يدل على مزيد رفعة واختصاص

واذا أردت أن تفقه معنى الدرجات في التفاضل بين الناس فتأمل قوله تعالى بعد بيان تساوي الرجال والنساء في الحقوق (وللرجال عليهن درجة) وهي درجة الولاية العامة والخاصة . وقوله تعالى في فضل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين (٤ : ٩٤ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى . وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما (٩٥) درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيما) وهنا جمع بين الدرجة والدرجات فقيل الدرجة تفضيلهم في الدنيا وقيل منزلتهم عند الله تعالى والدرجات منازلهم في الجنة . وفي معناه قوله تعالى في تفضيل الايمان والهجرة والجهاد في سبيل الله على سقاية الحاج من سورة التوبة (٩ : ٢٠ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون) الخ الآيتين بعدها . وقال تعالى في بيان التفاوت والبعد بين متبعي رضوانه ومتبعي سخطه من سورة آل عمران (هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون) والظاهر ان العندية هنا عندية الحكم أو الجزاء لا المكانة لانها محمولة على الفريقين . وقال تعالى في الرسل (٢ : ٢٥٣ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) الآية قالوا هذه لنبينا صلى الله عليه وسلم ، وقال تعالى في إبراهيم عقب ذكر محاجته لقومه (٦ : ٨٤ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) وقال في سياق قصة يوسف مع أخوته عقب ذكر أخذه لاخيه الشفيق منهم بوجه شرعي (١٢:٧٦ كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك الا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم) وقال في درجات الدنيا وحدها وهي آخر آية من سورة الانعام (٦.١٦٧ وهو

الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم) وقال في درجات الدار الآخرة بعد بيان التفاضل في الرزق بين الكفار مريدي الدنيا وحدها والمؤمنين مريدي الآخرة (٢١:١٦ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا)

وجملة القول ان الله خلق البشر متفاوتين في الاستعداد والعقول والاعمال واقتضى ذلك بنظام سننه في خلقه تفضيل بعضهم على بعض درجات في الدنيا وفي الآخرة وفي المكانة عند ربهم وهذه الاخيرة عليا الدرجات وأفضلها

وقوله تعالى ﴿ ومغفـرة ورزق كريم ﴾ معناه ولهم مغفرة من الله لذنوبهم الحقيقية التي سبقت وصولهم إلى درجة الكمال إن كانت كبيرة وما كان من قبيل اللمم ، ولذنوبهم الاضافية التي يحاسبون بها أنفسهم بعد بلوغ الكمال كالغفلة عن ذكر الله حينا ، وترك الافضل إلى مادونه حيناً آخر ، وفوت بعض أعمال البر الممكنة أحياناً ، وأمثال ذلك مما يعبر عنه بحسنات الابرار سيئات المقربين ، ورزق كريم في الجنة ، والكريم تصف به العرب كل شيء حسن في بابه لاقبح فيه ولا شكوى منه .

---

(٥) كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٦) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٧) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٨) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ

تقدم في تفسير قصة البقرة من سورتها أن سنة القرآن في ذكر القصص والوقائع مخالفة للمعهود في أساليب الكلام من سردها مرتبة كما وقعت ، وإن

سبب هذه المخالفة أنه لا يقص قصة ولا يسرد أخبار واقعة لأجل أن تكون تاريخا محفوظا، وانما يذكر ما يذكر من ذلك لاجل العبرة والموعظة، وبيان الآيات الحكم الالهية والاحكام العملية. بدئت قصة البقرة بأمر موسى لقومه بذبح بقرة وذكر في آخرها سبب ذلك خلافا للترتيب المألوف من تقديم السبب على مسببه كتقديم العلة على معلولها والمقدمات على نتيجتها. ولكن أسلوب القرآن البديع أبلغ في بابه كما بسط هنالك

وههنا بدئت قصة غزوة بدر الكبرى التي كانت أول مظهر لوعد الله تعالى بنصر رسوله والمؤمنين، والادالة لهم من أكابر مجرمي المشركين، بذكر حكم الغنائم التي غنمها المسلمون منهم — ويالها من براعة مطلع — مقرونا ببيان صفات المؤمنين الكاملين الذين وعدهم النصر كما وعد النبيين، وهم الذين يقبلون حكم الله وقسمة رسوله في الغنائم — ويالها من مقدمات للفوز في الحرب وغيرها — ثم قفى على ذلك بذكر أول القصة وهو خروج النبي ﷺ من بيته في المدينة وكراهة فريق من المؤمنين لخروجه، خلافا لما يقتضيه الايمان من الاذعان لطاعته، والرضاء بما يفعله بأمر ربه، وما يحكم أو يأمر به، كما علم من الشرط في الآية الاولى (إن كنتم مؤمنين) ولعل بيان هذا الشرط وما وليه من بيان صفات المؤمنين حق الايمان هو أهم ما في هذه السورة على كثرة أحكامها وحكمها وفوائدها الروحية والاجتماعية والسياسية والحربية والمالية

قال تعالى ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون ﴾ أي ان الانفال لله يحكم فيها بالحق ولرسوله يقسمها بين من جعل الله لهم الحق فيها بالسوية، وإن كره ذلك بعض المتنازعين فيها، والذين كانوا يرون أنهم أحق بها وأهلها، فهي كاخراج ربك إياك من بيتك بالحق للقاء إحدى الطائفتين من المشركين في الظاهر، وكون تلك الطائفة هي المقاتلة في الواقع، والحال ان كثيراً من المؤمنين لكارهون لذلك لعدم استعدادهم للقتال أوله ولغيره من الاسباب التي تعلم مما يأتي.

هذا ما أراه المتبادر من هذا التشبيه وقد راجعت بعض كتب التفسير فرأيت للمفسرين فيها بضعة عشر وجها أكثرها متكلف وبعضها قريب ولكن هذا أقرب وقد بسطه الامام أبو جعفر بن جرير الطبري باعتبار غايته وما كان من المصلحة فيه وهو حق في نفسه ولكن اللفظ لا يدل عليه، وذكره الزمخشري مبنياً على قواعد الاعراب

ولا يظهر المعنى تمام الظهور في الآيات إلا ببيان ما وقع من ذلك وأجمعه رواية محمد بن إسحق قال: حدثني محمد بن مسلم الزهري وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير، وغيرهم من علمائنا عن عبد الله بن عباس، كل قد حدثني بعض هذا الحديث فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر قالوا لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين اليهم وقال هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا اليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربا وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز من يتجسس الاخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفا على أمر الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم ابن عمر الغفاري فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ واديا يقال له ذفران فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم فاستشار رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال فأحسن، ثم قام عمر رضي الله عنه فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال يارسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد يعني مدينة الحبشة لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير، ثم قال رسول الله ﷺ «أشيروا على أيها الناس» وإنما يريد الانصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يارسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا فاذا وصلت الينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، وكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لاتكون الانصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن

يسير بهم إلى عدو من بلادهم. فلما قال رسول الله ﷺ ذلك قال له سعد بن معاذ والله لكأنك تريدنا يارسول الله قال «أجل» فقال فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أمرك الله فوالذي بعثك بالحق ان استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك مايتخلف منا رجل واحد ، ومانكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، انا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء[1] ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال « سيروا على بركة الله وأبشروا فان الله قد وعدني احدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم »

﴿ يجادلونك في الحق بعدماتبين ﴾ قال بعض العلماء ان هذه الآية نزلت في مجادلة المشركين للنبي ﷺ في أمر الدين والتوحيد . وهي بهم أليق ، ولكن ماقبلها وما بعدها في بيان حال المؤمنين وما كان من هفوات بعضهم التي محصهم الله بعدها فتعين كونها فيهم وفاقا لابي جعفر ابن جرير فيه وفي رد ذلك القول ومشايعة ابن كثير له ، وذكر أن مجاهداً فسر الحق هنا بالقتال وكذا ابن إسحاق وعلل الجدال فيه بقوله كراهية للقاء المشركين وإنكاراً لمسير قريش حين ذكروا لهم. وبيان ذلك ان المسلمين كانوا في حال ضعف فكان من حكمة الله تعالى أن وعدهم الله أولا إحدى طائفتي قريش تكون لهم على الابهام فتعلقت آمالهم بطائفة العير القادمة من الشام لأنها كسب عظيم لامشقة في إحرازه لضعف حاميته، فلما ظهر أنها فاتتهم وأن طائفة النفير خرجت من مكة بكل ما كان عند قريش من قوة وقربت منهم وتعين عليهم قتالها اذ تبين أنها هي الطائفة التي وعدهم الله تعالى اذ لم يبق غيرها ، صعب على بعضهم لقاؤها على قلتهم وكثرتها ، وضعفهم وقوتها ، وعدم استعدادهم للقتال كاستعدادها ، وطفقوا يعتذرون للنبي ﷺ اعتذارات جدلية بأنهم لم يخرجوا الا للعير لانه لم يذكر لهم قتالا فيستعدوا له ، كأنهم يحاولون اثبات ان مراد الله تعالى باحدى الطائفتين العير بدليل عدم أمرهم بالاستعداد للقتال ،

«١» صبر وصدق كل منهما بضمتين جمع صبور وصدوق

ولكن الحق تبين بحيث لم يبق للجدال فيه وجه ما ـ لا بأن يقال ان طائفة العير مراد الله تعالى فانها نجت وذهبت من طريق سيف البحر ولو كانت هي المرادة لما نجت ، ولا بأن يقال اننا لم نعدّ للقتال عدته فلا يمكننا طلب الطائفة الاخرى. فانه مهما تكن حالها فلابد من الظفر بها لوعد الله تعالى فلم يبق لجدالهم وجه الا الجبن والخوف من القتال ولذلك قال ﴿ كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون ﴾ أي كأنهم من فرط جزعهم ورعبهم يساقون الى الموت سوقا لامهرب منه لظهور أسبابه حتى كأنهم ينظرون اليه بأعينهم ، وهي ما ذكرنا من التفاوت بين حالهم وحال المشركين في العدد والعدد والخيل والزاد ، ولكن الله تعالى وعد رسوله والمؤمنين الظفر بهم، وهذا دليل قطعي لا يتخلف عند المؤمن الموقن ، وما تلك الا أسباب عادية كثيرة التخلف ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، وهكذا أنجز الله وعده وكان الظفر التام للمؤمنين ، وقد بين تعالى ذلك كله بقوله

﴿ واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم ﴾ تولى الله تعالى اقامة الحجة عليهم بالحق فيما جادلوا فيه رسوله بالباطل ووجه الخطاب اليهم بعد ان كان الخطاب له(ص) فقال واذكروا اذ يعدكم الله احدى الطائفتين ـ العير أو النفير ـ انها لكم ، وهذا التعبير آكد في الوعد من مثل : واذ يعدكم الله از احدى الطائفتين لكم . لان هذا اثبات بعد اثبات ، اثبات للشيء في نفسه ، واثبات له في بدله

﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ أي وتحبون وتتمنون ان الطائفة غير ذات الشوكة وهي العير تكون لكم لانه لم يكن فيها إلا أربعون فارسا . والشوكة الحدة والقوة، وأصلها واحدة الشوك شبهوا بها أسنة الرماح .ثم أطلقوها تجوزاً على كل حديد من السلاح ، فقالوا : شائك السلاح وشاكي السلاح . وانما عبر عنها بهذا التعبير للتعريض بكراهتهم للقتال ، وطمعهم في المال ، ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ﴾ أي ويريد الله بوعده غير ما أردتم ، يريد أن يحق الحق الذي أراده بكلماته المنزلة على رسوله أي وعده لكم أحدى الطائفتين

حبهمة وبيانها له معينة مع ضمان النصر له ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾ المعاندين له من مشركي مكة وأعوانهم باستئصال شأفتهم ومحق قوتهم ، فان دابر القوم آخرهم الذي يأتي في دبرهم ويكون من ورائهم، ولن يصل اليه الهلاك الا بهلاك من قبله من الجيش ، وهكذا كان الظفر ببدر فاتحة الظفر فيما بعدها الى أن قطع الله دابر المشركين بفتح مكة، وما تخلل ذلك من نيلهم من المؤمنين في أحد وحنين فانما كان تربية على ذنوب لهم اقترفوها كما قال تعالى في الأولى (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم) الى أن قال (وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) وقال في الثانية (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ـ الى قوله ـ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) الخ

قال في الكشاف : يعني انكم تريدون الفائدة العاجلة وسفساف الامور وأن لا تلقوا مايرزؤكم في أبدانكم وأموالكم والله عز وجل يريد معالي الامور وما يرجع الى عمارة الدين ونصرة الحق وعلو الكلمة والفوز في الدارين، وشتان ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة، وكسر قوتهم بضعفكم، وغلب كثرتهم بقلتكم ، وأعزكم وأذلهم ، وحصل لكم مالا تعارض أدناه العير وما فيها.

﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ﴾ أي وعد بما وعد وأراد باحدى الطائفتين ذات الشوكة ليحق الحق أي يقره ويثبته لأنه الحق ـ وهو الاسلام ـ ويبطل الباطل أي يزيله ويمحقه ـ وهو الشرك ـ ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ أولو الاعتداء والطغيان من المشركين . واحقاق الحق وابطال الباطل لا يكون باستيلائهم على العير بل بقتل أئمة الكفر والطاغوت من صناديد قريش المعاندين الذين خرجوا اليكم من مكة ليستأصلوكم . وقد علم مما فسرنا به الحق في الآيتين انه لا تكرار فيه ، فالحق الاول هو القتال لطائفة النفير مع ضمان النصر للمؤمنين ، ومحق الكافرين ، والثاني هو الاسلام، وهو المقصد الاول وسيلة له . وهذا أظهر مما قاله الزمخشري وابن المنير

(٩) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (١٠) وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١١) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١٢) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا. سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٤) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ

روى أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن عبد الله بن عباس (رض) قال حدثني عمر بن الخطاب (رض) قال لما كان يوم بدر نظر النبي (ص) إلى أصحابه وهم ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلا ، ونظر الى المشركين فاذا هم ألف وزيادة فاستقبل نبي الله القبلة ثم مد يده وجعل يهتف بربه : «اللهم أنجز لي ماوعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام لاتعبد في الأرض » فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر (رض) فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يانبي الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ماوعدك . فأنزل الله تعالى (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) فلما كان يومئذ والتقوا هزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلا وأسر سبعون» الخ ،

وأما البخاري فروى عن ابن عباس قال: قال النبي (ص) يوم بدر « اللهم اني أنشدُكَ عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد » فأخذ أبو بكر بيده فقال حسبك، فخرج وهو يقول [سيهزم الجمع ويولون الدبر] وعن سعيد بن منصور من طريق عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ الى المشركين وتكاثرهم والى المسلمين فاستقلهم فركع ركعتين وقام أبو بكر عن يمينه فقال رسول الله ﷺ وهو في صلاته « اللهم لاتودّع مني ، اللهم لاتخذلني ، اللهم لاتترني[1] اللهم أنشدك ما وعدتني » وعن ابن إسحاق في سيرته أنه ﷺ قال « اللهم هذه قريش أتت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرَكَ الذي وعدتني »

وقد استشكل ما ظهر من خوف النبي ﷺ مع وعد الله له بالنصر عاما وخاصا ومن طمأنينة أبي بكر (رض) على خلاف ما كان ليلة الغار إذ كان النبي ﷺ آمنا مطمئنا متوكلا على ربه ، وكان أبو بكر خائفا وجلا كما يدل عليه قوله عز وجل (٩ : ٤٠ إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذهما في الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم)

قال الحافظ في الفتح قال الخطابي لايجوز أن يتوهم أحد أن أبا بكر كان أوثق بربه من النبي ﷺ في تلك الحال ، بل الحامل للنبي ﷺ على ذلك شفقته على أصحابه وتقوية قلوبهم لانه كان أول مشهد شهده فبالغ في التوجه والدعاء والابتهال لتسكن نفوسهم عند ذلك لانهم كانوا يعلمون أن وسيلته مستجابة فلما قال له أبو بكر ماقال كف عن ذلك وعلم أنه استجيب له لما وجد أبو بكر في نفسه من القوة والطمأنينة فلهذا عقب بقوله (سيهزم الجمع) انتهى ملخصاً

---

١) هو من وتره يتره « من باب وعد » وله معان متقاربة منها جعله وتراً بقطع أهله أو أنصاره ومنها مسه بالاذى ومنها نقصه حقه وظلمه وَمنه (ولن يتركم أعمالكم) أي لن ينقصكم من جزائها شيئا ، وقوله بعده : أنشدك ماوعدتني من نشده ينشده « من باب قتل » ومعناه أستنجزك وعدك إياي بالنصر والغلب

« وقال غيره وكان النبي ﷺ في تلك الحالة في مقام الخوف وهو أكمل حالات الصلاة ، وجاز عنده أن لا يقع النصر يومئذ لأن وعده بالنصر لم يكن معيناً لتلك الواقعة وانما كان مجملا . هذا الذي يظهر ، وزل من لا علم عنده ممن ينسب إلى الصوفية في هذا الموضع زللا شديداً فلا يلتفت اليه ولعل الخطابي أشار اليه. اه ماأورده الحافظ في الفتح فهو لم يطلع على أحسن منه على سعة اطلاعه

وأقول يصح أن يكون من مقاصده ﷺ من الدعاء يومئذ تقوية قلوب أصحابه وهو مايعبر عنه في عرف هذا العصر بالقوة المعنوية ولا خلاف بين العقلاء حتى اليوم في أنها أحد أسباب النصر والظفر ، ولكن لا يصح أن يكون علم باستجابة الله له لما وجد أبو بكر في نفسه القوة والطمأنينة فعلمه ﷺ بربه وبوقت استجابته له أقوى وأعلى من أن يستنبطه استنباطا من حال أبي بكر (رض)

وأما قول بعضهم إن النبي (ص) كان يومئذ في مقام الخوف فهو ظاهر ولكنه لم يبين معه سببه ولا كونه لا ينافي كمال توكله على ربه ، وكونه فيه أعلى وأكمل من صاحبه بدرجات لا يعلوها شيء ، وقد بينا ذلك بالتفصيل في تفسير (٣: ١٦٠ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وهي في سياق غزوة أحد(١) ونعيد البحث مع زيادة فائدة فنقول إنه (ص) اعطى كل مقام حقه بحسب الحال التي كان فيها ، فلما كان عند الخروج الى الهجرة قد عمل مع صاحبه كل ما أمكنهما من الأسباب لها وهو إعداد الزاد والراحلتين والدليل والاستخفاء في الغار لم يبق عليهما إلا التوكل على الله تعالى والثقة بمعونته وتخذيل أعدائه فكان ﷺ لكمال توكله آمنا مطمئنا بما أنزل الله عليه من السكينة وأيده به من أرواح الملائكة ، وأبو بكر (رض) لم يرتق إلى هذه الدرجة فكان خائفا حزينا محتاجا الى تسلية الرسول ﷺ له

وأما يوم بدر فكان المقام فيه مقام الخوف لا مقام التوكل المحض ، وذلك أن التوكل الشرعي بالاستسلام لعناية الرب تعالى وحده انما يصح في كل حال بعد اتخاذ الاسباب لها المعلومة من شرع الله ومن سننه في خلقه كما بيناه في تفسير قوله

١) راجع ص ٢١٣ ج ٤ تفسير

تعـالى (٣ : ١٥٩ فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله) من ذلك السياق ومن المعـلوم بالقطع أن أسباب النصر والغلب في الحرب لم تكن تامة عند المسلمين في ذلك الوقت لا من الجهة المادية كالعدد والعدد والغذاء والعتاد والخيل والابل بل لم يكن من هذه الجهة إلا شيئا ضعيفا ، ولا من الجهة المعنوية لما تقدم من كراهة بعضهم للقتال وجدال النبي ﷺ فيه . لهذا خشي ﷺ أن يصيب أصحابه مهلكة على قلتهم لتقصيرهم في بعض الاسباب المعنوية فوق التقصير غـير الاختياري في الاسباب المادية ، فكان يدعو بأن لا يؤاخذهم الله تعالى بتقصير بعضهم في اقامة سننه عقابا لهم كما عاقبهم بعد ذلك في غزوة أحد ذلك العقاب المشار اليه بقوله تعالى (٣ : أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم)

وأما أبو بكر (رض) فلم يكن يعلم من ذلك كل مايعلمه الرسول ﷺ وقد رآه منزعجا خائفاً فكان همه تسليته ﷺ وتذكيره بوعد ربه لشدة حبه له ، وفي الغار كان خائفا عليه ولـكنه رآه مطمئنا فلم يحتج إلى تسليته بل كان ﷺ هو المسلي له لما رأى من خوفه ان يعرض له ألم أو أذى ،

فالرسول (ص) هو الذي أعطى كل مقام حقه مقام التوكل المحض بعد استيفاء أسباب اتقاء أذى المشركين عند الهجرة ، ومقام الخوف على جماعة المؤمنين لما ذكرنا آنفاً من كراهة بعضهم للقتال ومجادلتهم له فيه بعد ماتبين لهم أنه الحق الذي يريده الله تعالى بوعده اياهم احدى الطائفتين . أجل ، كان ﷺ يعلم ان شؤون الاجتماع البشري كسائر أطوار العالم لله تعالى فيها سنن مطردة لاتتغير ولا تتبدل كما تكرر ذلك في السور المكية بوجه عام ، ثم ذكر بشأن القتال خاصة في الكلام على غزوة أحـد من سورة آل عمران المدنية (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا) ثم في سورة الاحزاب المدنية التي نزلت في غزوتها التي تسمى غزوة الخندق أيضاً . وكان صلى الله عليه وسلم يعلم أن سننه تعالى في القتال كسائر سننه في أنها لا تبديل لها ولا تحويل من قبل نزول ماأشرنا اليه في هاتين السورتين المدنيتين اللتين نزلتا بعـد غزوة بدر فلذلك كان خوفه على المؤمنين عظيما

(فان قيل) كيف يصح هـذا وقد وعده الله تعالى احدى الطائفتين أنها تكون للمؤمنين و كشف له عن مصارع صناديد المشركين ؟ فاذا كان قدجوز أن يكون وعده العام بالنصر له و للمؤمنين (وهو مكرر في السور المكية والمدنية وصرح في بعضها بأنه من سننه في رسله والمؤمنين بهم) غير معين أن يكون في هذه الغزوة كما قال بعض العلماء. فلا يأتي مثل هـذا الجواز في وعدهم احدى الطائفتين فيها ولا سيما بعـد أن نجت طائفة العير ، وانحصر الوعد في طائفة النفير ، و بعد أن كشف تعالى له عن مصارع القوم ؟

(قلنا) أما كشف مصارع القوم له فالظاهر المتعين أنه كان عقب دعائه و استغاثته ربه ، ولذلك تمثل بعده بقوله تعالى في سورة القمر (سيهزم الجمع ويولون الدبر) وزال خوفه وصار يعين أمكنة تلك المصارع . وأما الوعد فسيأتي فيه انه كان في زمن الاستغاثة والاستجابة فان كان قبله فأمثل مايقال فيه وأقواه ماقاله العلماء في كثير من وعود الكتاب والسنة المطلقة بالجزاء على بعض الاعمال بأنه مقيد بما تدل عليه النصوص الاخرى من الايمان الصحيح واجتناب الكبائر ، ومن ذلك أن الوعد المطلق بالنصر للرسل والمؤمنين في عدة آيات مقيد بما اشترط له في آيات أخرى، مثال الاول قوله تعالى في سورة المؤمن المكية (٤٠:٥١ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد) وقوله في سورة الروم المكية أيضاً (٣٠:٤٥ وكان حقا علينا نصر المؤمنين) ومثال الثاني قوله تعالى في الآيات التي أذن الله فيها للمؤمنين بالقتال دفاعا عن أنفسهم أول مرة وذلك في سورة الحج المدنية (٢٢:٤٠ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز) وقوله بعد ذلك في سورة القتال (أو محمد) [٤٦:٨ ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم] وقد سبق لنا بيان هـذا المعنى في التفسير وإقامة الحجة به على المسلمين الجاهلين المغرورين والخرافيين الذين يتكلون في أمورهم على الصلحاء الميتين في قضاء حوائجهم بخوارق العادات، وتبديل سنن الله في الاسباب والمسببات، حتى كأن قبورهم معامل للكرامات ، يتهافت عليها الافراد والجماعات ، يدعون أصحابها خاشعين ، مالا يدعو به الموحدون الا الله رب العالمين. كما فعل رسول الله (ص) وجماعة المؤمنين.

وجملة القول في هذا المقام أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان يعلم باعلام القرآن أن للنصر في القتال أسبابا حسية ومعنوية ، وأن لله تعالى فيها سننا مطردة، وأن وعد الله تعالى وآياته منها المطلق ومنها المقيد ، وأن المقيد يفسر المطلق ولا يعارضه، ولا اختلاف ولا تعارض في كلام الله تعالى، وكان يعلم مع ذلك أن الله تعالى عناية وتوفيقا يمنحه من شاء من خلقه فينصر به الضعفاء على الاقوياء، والفئة القليلة على الفئة الكثيرة بما لا ينقض به سننه، وأن له فوق ذلك آيات يؤيد بها رسله، فلما عرف من ضعف المؤمنين وقلتهم ما عرف استغاث الله تعالى ودعاه ليؤيدهم بالقوة المعنوية، ويحفهم بالعناية الربانية، التي تكون بها القوة الروحانية، أجدر بالنصر من القوة المادية، وكان كل من علم بدعائه يؤمن عليه، وكانوا يتأسون به في هذا الدعاء ، فيستغيثون ربهم كما استغاثه وقد أسند الله اليهم ذلك وأجابهم الى ماسألوا بقوله :

﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾ الآية ، قيل إن هذا بدل من قوله تعالى(وإذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم) وظاهر هذا أن زمن الوعد والاستغاثة والاستجابة واحد على اتساع فيه وحينئذ يرتفع الاشكال الذي أجبنا عنه آنفاً من أصله، وظاهر الروايات وكلام المفسرين أن الاستغاثة وقعت بعد الوعد وقد وجهوا ذلك بما ليس من موضوعنا بيانه مع القطع بأنه عربي فصيح، وقيل إنه متعلق بقوله(ليحق الحق ويبطل الباطل) أو بمحذوف علم من السياق ومن نظائره في آيات أخرى تقديره «اذكر» أو « اذكروا » إذ تستغيثون ربكم . والاستغاثة طلب الغوث والانقاذ من الهلكة

﴿ فاستجاب لكم أني ممدكم ﴾ هو في قراءة الجمهور بفتح الهمزة أي بأني ممدكم ، وقرأها أبو عمرو بكسرها أي قائلا إني ممدكم أي ناصركم ومغيثكم ﴿ بألف من الملائكة مردفين ﴾ قرأ الجهور مردفين بكسر الدال من أردفه اذا أركبه وراءه وذلك أن الذي يركب وراء غيره يركب على ردف الدابة غالباً وقرأها نافع ويعقوب بفتحها ، وفي كل منهما احتمالات لايختلف بها المراد . أي يردفونكم أو يردف بعضهم بعضاً ويتبعه ، أو يردفهم ويتبعهم غيرهم . وتقدم في تفسير مثل

هذه الآية من سورة آل عمران وتفسير قوله تعالى (واخوانهم يمدونهم في الغي) من الاعراف معنى المدد والامداد في اللغة .

ثم بين تعالى أن هذا الامداد أمر روحاني يؤثر في القلوب فيزيد في قوتها المعنوية فقال ﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ﴾ أي وما جعل عز شأنه هذا الامداد إلا بشرى لكم بأنه ينصركم كما وعدكم ﴿ ولتطمئن به قلوبكم ﴾ أي تسكن بعد ذلك الزلزال والخوف الذي عرض لكم في جملتكم فكان من مجادلتكم الرسول في أمر القتال ما كان . فتلقون أعداءكم ثابتين موقنين بالنصر ، وسيأتي في مقابلة هذا إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ دون غيره من الملائكة أو غيرهم كالاسباب الحسية فهو عز وجل الفاعل للنصر كغيره مهما تكن أسبابه المادية أو المعنوية إذ هو المسخر لها وناهيك بما لا كسب للبشر فيه كتسخير الملائكة تخالط المؤمنين فتستفيد أرواحهم منها الثبات والاطمئنان ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ عزيز غالب على أمره ، حكيم لا يضع شيئاً في غير موضعه

وفي التفسير المأثور عن ابن عباس رضي الله عنه أنه فسر «مردفين» بالمدد وبقوله « ملك وراء ملك » وعن الشعبي قال : كان ألف مردفين وثلاثة آلاف منزلين ، فكانوا أربعة آلاف وهم مدد المسلمين في ثغورهم . وعن قتادة متتابعين ، أمدهم الله تعالى بألف ثم بثلاثة ثم أكملهم خمسة آلاف (وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم) قال يعني نزول الملائكة عليهم السلام (قال) وذكر لنا أن عمر (رض) قال : أما يوم بدر فلا نشك أن الملائكة عليهم السلام كانوا معنا ، وأما بعد ذلك فالله أعلم . وعن ابن زيد : مردفين قال بعضهم على أثر بعض . وعن مجاهد في قوله (وما جعله إلا بشرى) قال انما جعلهم الله يستبشر بهم . هذا جملة ماجمعه في الدر المنثور من المأثور في الآيتين . وظاهر نص القرآن أن إنزال الملائكة وإمداد المسلمين بهم فائدته معنوية كما تقدم وأنهم لم يكونوا محاربين وهنالك روايات أخرى في أنهم قاتلوا وسيأتي بحثه . وما قاله الشعبي وقتادة من العدد لا يقبل إلا بنص من الشارع قطعي الرواية والدلالة لانه خبر عن الغيب

وقد خلطت بعض الروايات بين الملائكة المردفين الذين أيدالله بهم المؤمنين في غزوة بدر ، وبين الملائكة المنزلين والمسومين الذين ذكر خبرهم في سياق غزوة أحد من سورة آل عمران، وقد حققنا هذا المبحث في تفسير تلك الآيات فيها واعتمدنا في جله على تحقيق ابن جرير وذكرنا فيه ما جاء هنا ، وجملته أن الله تعالى أمد المؤمنين يوم بدر بألف من الملائكة كان قوة معنوية لهم وأما يوم أحد فقد حدثهم الرسول ﷺ بالامداد ووعدهم به وعدا معلقا على الصبر والتقوى ولكن انتفى الشرط فانتفى المشروط . ويراجع تفصيل ذلك (في ص ١١٠—١١٦ ج ٤ تفسير) فانه مفيد في تحقيق ماهنا ولذلك لم نطل الكلام فيه

﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾ هذه منة اخرى من مننه تعالى على المؤمنين، التي كانت من اسباب ظهورهم على المشركين، وهي إلقاؤه تعالى النعاس عليهم حتى غشيهم ـ أي غلب عليهم فكان كالغاشية تستر الشيء وتغطيه ـ تأمينا لهم من الخوف الذي كان يساورهم من الفرق العظيم بينهم وبين عدوهم في العدد والعدد وغير ذلك . روى أبو يعلى والبيهقي في الدلائل عن علي كرم الله وجهه قال ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ،ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم الا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة حتى أصبح . وذلك أن من غلب عليه النعاس لا يشعر بالخوف، كما أن الخائف لا ينام ، ولكن قد ينعس ، والنعاس فتور في الحواس وأعصاب الرأس يعقبه النوم فهو يضعف الادراك ولا يزيله كله فمتى زال كان نوماً ولذلك قال بعضهم هو أول النوم . وفي المصباح : وأول النوم النعاس وهو ان يحتاج الانسان الى النوم ، ثم الوسن وهو ثقل النعاس ، ثم الترنيق وهو مخالطة النعاس للعين ، ثم الكرى والغمض وهو ان يكون الانسان بين النائم واليقظان، ثم العفق وهو النوم وانت تسمع كلام القوم، ثم الهجود والهجوع اه وهو يفيد ان الوسن والترنيق درجتان من درجات النعاس وأن الكرى مرتبة فاصلة بين النعاس والنوم، وفي المصباح أيضا ان النعاس اسم مصدر لنعس من باب قتل ، والجمهور على انه من باب فتح فهو من البابين ، وضعوا اسمه بوزن فعال بالضم كأنهم عدوه من الأمراض كالسعال والفواق والكباد

وقال علي(رض) انهم ناموا يومئذ وظاهر عبارته أنهم ناموا في الليل والمتبادر

ان نعاسهم كان في أثناء القتال، وقد ذكرنا الخلاف في ذلك وتحقيق الحق فيه في تفسير قوله تعالى (٣ : ١٥٤ ثم انزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم) وهو في سياق غزوة أحد. وقلت هنالك : قد تقدم في ملخص القصة ذكر هذا النعاس وأنه كان في أثناء القتال، وانما كان مانعا من الخوف لانه ضرب من الذهول والغفلة عن الخطر، ولكن روي ان السيوف كانت تسقط من أيديهم واختار الاستاذ الامام انه كان بعد القتال الخ فيحسن مراجعته ففيه الكلام على النعاس يوم بدر أيضا وهو في (ص ١٨٥: ١٨٦ ج ٤ تفسير)

قرأ الاكثرون (يغشيكم) بالتشديد من التغشية وهو إما للتدريج واما للمبالغة في التغطية، وقرأه نافع بالتخفيف من الاغشاء، وقرأه ابن كثير وابو عمرو (يغشاكم) من الثلاثي ورفع النعاس على انه فاعله، وهذا لا يخالف القراءتين قبله بل هو كالمطاوع لهما ومعنى الثلاثة أن الله تعالى جعل النعاس يغشاكم فغشيكم، وأما صيغ الفعل ودلالة قراءة التشديد على التدريج أو المبالغة دون قراءة التخفيف فيحمل اختلافهما على اختلاف حال من غشيهم النعاس فهو لا يكون عادة الا بالتدريج ويكون أشد على بعض الناس من بعض، وقد ذكرنا بحث صيغة (غ ش ي) في اللغة في تفسير سورة الاعراف.

﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به، ويذهب عنكم رجز الشيطان، وليربط على قلوبكم، ويثبت به الاقدام ﴾ وهذه منة ثالثة منه عز وجل على المؤمنين، كان لها شأن عظيم في انتصارهم على المشركين، روى ابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جرير عن ابن عباس (رض) ان المشركين غلبوا المسلمين في أول أمرهم على الماء فظمىء المسلمون وصلوا مجنبين محدثين، وكان بينهم رمال فألقى الشيطان في قلوبهم الحزن وقال أتزعمون ان فيكم نبيا وانكم أولياء الله وتصلون مجنبين محدثين؟ فانزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادي ماء فشرب المسلمون وتطهروا وثبتت أقدامهم (اي على الدهاس او الرمل اللين لتلبده بالمطر) وذهبت وسوسته. هذا أثبت وأوضح وابسط ما ورد في المأثور عن هذا المطر في بدر، وعن مجاهد انه كان قبل النعاس خلافا لظاهر الترتيب في الآية والواو لا توجبه.

ولولا هـذا المطر لما أمكن المسلمين القتال لانهم كانوا رجالة ليس فيهم الا فارس واحد هو المقداد كما تقدم وكانت الارض دهاسا تسيخ فيها الاقدام أو لا تثبت عليها . قال المحقق ابن القيم في الهدي النبوي : وانزل الله عز وجل في تلك الليلة مطرا واحـدا فكان على المشركين وابلا شـديدا منعهم من التقدم ، وكان على المسلمين طلا طهرهم به واذهب عنهم رجس الشيطان ، ووطأ به الارض وصلب الرمل ، وثبت الاقدام ، ومهد به المنزل ، وربط على قلوبهم . فسبق رسول الله واصحابه الى المـاء فنزلوا عليه شطر الليل وصنعوا الحياض ثم غوروا ماعداها من المياه ، ونزل رسول الله ﷺ وأصحابه على الحياض وبني لرسول الله ﷺ عريش يكون فيها على تل مشرف على المعركة ومشى في موضع المعركة وجعل يشير بيده « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان إن شاء الله تعالى » فما تعدى أحد منهم موضع اشارته اه

وقد ذكر ابن هشام مسألة المطر بنحو مما قال ابن القيم ثم قال :

قال ابن اسحاق فحدثت عن رجال من بني سلمة انهم ذكروا ان الحباب بن المنذر ابن الجموح قال يارسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا ان نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال « بل هو الحرب والرأي والمكيدة » قال يارسول الله فان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغوّر ماوراءه من القلب [بضمتين جمع قليب وهي البئر غير المطوية أي غير المبنية بالحجارة] ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ « لقد أشرت بالرأي » وذكر انهم فعلوا ذلك

ذكر تعالى لذلك المطر أربع منافع (الأولى) تطهيرهم به أي تطهيراً حسياً بالنظافة التي تشرح الصدر وتنشط الاعضاء في كل عمل – وشرعيا بالغسل من الجنابة والوضوء من الحدث الاصغر (الثانيـة) اذهاب رجز الشيطان عنهم . والرجز والرجس والركس كلها بمعنى الشيء المستقذر حساً أو معنى والمراد هنا وسوسته كما تقدم في المأثور (الثالثة) الربط على القلوب ويعبر به عن تثبيتها وتوطينها على الصبر كما قال تعالى (٢٨ ، ٩ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا

على قلبها . وتأثير المطر في القلوب تفسره المنفعة (الرابعة) وهو تثبيت الاقدام به فان من كان يعلم أنه يقاتل في أرض تسوخ فيها قدمه كلما تحرك وهو قد يقاتل فارساً لا راجلا لا يكون إلا وجلا مضطرب القلب .

﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ الظرف هنا غير بدل من اذ ، في الآيات التي قبله ولا متعلق بما تعلقت به بل هو متعلق بيثبت والمعنى أنه يثبت الاقدام بالمطر في وقت الكفاح الذي يوحي فيه ربك إلى الملائكة آمراً لهم أن يثبتوا به الانفس بملابستهم لها واتصالهم بها وإلهامها تذكر وعد الله لرسوله وكونه لا يخلف الميعاد ، والمعية في قوله «إني معكم» معية الاعانة كقوله [إن الله مع الصابرين]

﴿ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ الرعب بوزن قفل اسم مصدر من رعبه (وتضم عينه) وبه قرأ ابن عامر والكسائي ومعناه الخوف الذي يملأ القلب، ولما فيه من معنى الملء يقال رعبت الحوض أو الاناء أي ملأته ، ورعب السيل الوادي . وقيل أصل معناه القطع إذ يقال رعبت السنام ورعبته ترعيبا اذا قطعته طولا ، وفسره الراغب بما يجمع بين المعنيين فقال الرعب الانقطاع من امتلاء الخوف اهـ . ويقال رعبته [من باب فتح] وأرعبته ، وأبلغ منه تعبير التنزيل بالقاء الرعب وبقذف الرعب في القلب لما فيه من الاشعار بأنه

يصب في القلوب دفعة واحدة ﴿ فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ أي فاضربوا الهام وافلقوا الرءوس ـ أو اضربوا على الاعناق ـ واقطعوا الأيدي ذات البنان التي هي أداة التصرف في الضرب وغيره وهو متعين في حال هجوم الفارس من الكفار على الراجل من المسلمين فاذا لم يسبق هذا الى قطع يده قطع ذاك رأسه . والبنان جمع بنانة وهو أطراف الاصابع

وفي تفسير ابن كثير عن بعض المغازي ان النبي ﷺ جعل يمر بين القتلى ببدر ـ أي بعد انتهاء المعركة ـ ويقول« نفلق هاما » فيتم البيت أبو بكر «رض» وهو

نفلق هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

وهو يدل على ألمه صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله من الضرورة التي اضطرتهم إلى قتل صناديد قومه. واسم التفضيل في أعق وأظلم هنا على غير بابه مراعاة للظاهر

فان المشركين وحدهم هم الذين عقوه ﷺ وظلموه هو ومن آمن به حتى اخرجوهم من وطنهم بغيا وعدوانا ثم تبعوهم الى دار هجرتهم يقاتلونهم فيها ، وروي انه أوصى بنفر من بني هاشم آله خرجوا مع المشركين كرها أن لا يقتلوا ، كان منهم عمه العباس (رض) ولم يكن أسلم

مقتضى السياق ان وحي الله للملائكة قد تم بامره اياهم بتثبيت المؤمنين كما يدل عليه الحصر في قوله عن امداد الملائكة [وما جعله الله الا بشرى] الخ وقوله تعالى [سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب] الخ بدء كلام خوطب به النبي (ص) والمؤمنون تتمة للبشرى فيكون الأمر بالضرب موجها إلى المؤمنين قطعا وعليه المحققون الذين جزموا بان الملائكة لم تقاتل يوم بدر تبعا لما قبله من الآيات وقيل ان هذا مما أوحي إلى الملائكة ، وتأوله هؤلاء بانه تعالى أمرهم بأن يلقوا هذا المعنى في قلوب المؤمنين بالالهام كما كان الشيطان يخوفهم ويلقي في قلوبهم ضده بالوسواس . ولا يرد على الأول ماقيل من أنه لا يصح الا اذا كان الخطاب قد وجه الى المؤمنين قبل القتال والسورة قد نزلت بعده ـ لأن نزول السورة بنظمها وترتيبها بعده لا ينافي حصول معانيها قبله وفي أثنائه ، فان البشارة بالامداد بالملائكة وما وليه قد حصل قبل القتال واخبر به النبي ﷺ اصحابه ، ثم ذكرهم الله تعالى به بانزال السورة برمتها تذكيراً بمننه ، ولولا هذا لم تكن للبشارة تلك الفائدة ، والخطاب في السياق كله موجه الى المؤمنين وانما ذكر فيها وحيه تعالى للملائكة بما ذكر عرضا . وقد غفل عن هذا المعنى الآلوسي تبعاً لغيره وادعى ان الآية ظاهرة في قتال الملائكة ، وقد وردت روايات ضعيفة تدل على قتال الملائكة لم يعبأ الامام ابن جرير بشيء منها ولم يجعلها حقيقة أن تذكر ولو لترجيح غيرها عليها

وما ادري اين يضع بعض العلماء عقولهم عند مايغترون ببعض الظواهر وبعض الروايات الغريبة التي يردها العقل ، ولا يثبتها ماله قيمة من النقل فاذا كان تأييد الله للمؤمنين بالتأييدات الروحانية التي تضاعف القوة المعنوية ، وتسهيله لهم الاسباب الحسية كانزال المطر وما كان له من الفوائد لم يكن كافيا لنصره إياهم على المشركين بقتل سبعين وأسر سبعين حتى كان ألف — وقيل آلاف — من

الملائكة يقاتلونهم معهم فيفلقون منهم الهـام ، ويقطعون من ايديهم كل بنان ، فأي مزية لأهل بدر فضلوا بها على سائر المؤمنين ممن غزوا بعدهم وأذلوا المشركين وقتلوا منهم الألوف؟ وبماذا استحقوا قول الرسول ﷺ لعمر (رض) «ومايدريك لعل الله عز وجل اطلع على اهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ؟» رواه البخاري ومسلم وغـيرهما . وفي كتب السير وصف للمعركة عُلم منـه القاتلون والآسرون لأشد المشركين بأساً ـ فهل تعارض هذه البينات النقلية والعقلية بروايات لم يرها شيخ المفسرين ابن جرير حرية بأن تنقل. ولم يذكر ابن كثير منها الا قول الربيع بن أنس كان النـاس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوا بضرب فوق الاعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به. ومن أين جاء الربيع بهذه الدعوى ؟ ومن ذا الذي رؤي من القتلى بهذه الصفة ؟ وكم عدد من قتل الملائكة من السبعين وعدد من قتل أهل بدر غير من سموا وقالوا قتلهم فلان وفلان؟ كفانا الله شر هذه الروايات الباطلة التي شوهت التفسير وقلبت الحقائق حتى انها خالفت نص القرآن نفسه، فالله تعالى يقول في إمداد الملائكة (وماجعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم) وهذه الروايات تقول بل جعلها مقاتلة وان هؤلاء السبعين الذين قتلوا من المشركين لم يمكن قتلهم الا باجتماع الف أو ألوف من الملائكة عليهم مع المسلمين الذين خصهم الله بما ذكر من أسباب النصرة المتعددة !

ألا ان في هذا من شأن تعظيم المشركين ورفع شأنهم وتكبير شجاعتهم وتصغير شأن أفضل أصحاب الرسول وأشجعهم مالا يصدر عن عاقل الا وقد سلب عقله لتصحيح روايات باطلة لايصح لهـا سند ولم يرفع منها الا حديث مرسل عن ابن عباس ذكره الآلوسي وغيره بغير سند وابن عباس لم يحضر غزوة بدر لانه كان صغيراً فرواياته عنها حتى في الصحيح مرسلة وقد روى عن غير الصحابة حتى عن كعب الاحبار وأمثاله

﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ أي ذلك الذي ذكره كله من تأييده تعالى للمؤمنين وخذلانه للمشركين بسبب انهم شاقوا الله ورسوله أي عادوهما فكان

كل منهما في شق غير الذى فيه الآخر فالله هو الحق والداعي إلى الحق ورسوله هو المبلغ عنه الحق ، والمشركون على الباطل وما يترتب عليه من الشرور والخرافات ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب ﴾ أي فان عقاب الله شديد ،وأحق الناس به المشاقون له بايثار الشرك وعبادة الطاغوت على توحيده وعبادته ، وبالاعتداء على اوليائه أولا بمحاولة ردهم عن دينهم بالقوة والقهر واخراجهم من ديارهم ثم اتباعهم الى مهجرهم يقاتلونهم فيه

﴿ ذلكم فذوقوه ﴾ الخطاب للمشركين المنكسرين في غزوة بدر أي لمن بقي منهم من الاسرى والمهزومين على طريق الالتفات عن الغيبة في قوله تعالى قبله (بأنهم شاقوا الله ورسوله) والمعنى الامر ذلكم — اي ان الامر المبين آنفاً وهو أن الله تعالى شديد العقاب لمن يشاقه هو ورسوله — فذوقوا هذا العقاب الشديد وهو الانكسار والانهزام مع الخزي والذل أمام فئة قليلة العدد والعدد من المسلمين، ﴿ وان للكافرين عذاب النار ﴾ هذا عطف على ماقبله اى والامر المقرر مع هذا العقاب الدنيوى ان للكافرين عذاب النار في الآخرة ، فمن اصر منكم على كفره عذب هنالك فيها وهو شر العذابين وأدومهما،وفي الجمع بين عذاب الدنيا والآخرة للكفار آيات متفرقة في عدة سور

---

(١٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ
الْأَدْبَارَ (١٦) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا
إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
(١٧) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ
رَمَىٰ ، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
(١٨) ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٩) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ
الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ
فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ

نبدأ بتفسير الالفاظ الغريبة في الآيات فنقول (الزحف) مصدر زحف اذا مشى على بطنه كالحية ، أو دب على مقعده كالصبي ، أو ، على ركبتيه قال امرؤ القيس :

فأقبلت زحفا على الركبتيـ ـن فثوب لبست وثوب أجر

والمشي بثقل في الحركة واتصال وتقارب في الخطو كزحف الدبا (صغار الجراد قبل طيرانها) قال في الاساس : وزحف البعير وأزحف : أعيا حتى جر فرسنه وزحّف الشيء جره جراً ضعيفا ، وزحف العسكر الى العدو :مشوا اليهم في ثقل لكثرتهم ، ولقوم زحفا ، وتزاحف القوم وزاحفناهم ، وأزحف لنا بنو فلان صاروا زحفا لقتالنا . اه ملخصاً والزحف الجيش ويجمع على زحوف لخروجه عن معنى المصدرية . (والادبار) جمع دبر (بضمتين) وهو الخلف ومقابله القبل بوزنه وهو القدام ،ولذلك يكنى بهما عن السوأتين .وتولية الدبر والادبار عبارة عن الهزيمة لان المنهزم يجعل خصمه متوليا ومتوجها الى دبره ومؤخره ، وذلك أعون له على قتله اذا أدركه (والمتحرف) للقتال أو غيره هو المنحرف عن جانب الى آخر وأصله من الحرف وهو الطرف ، وصيغة التفعل تعطيه معنى التكلف أو معاناة انفعل المرة بعد المرة أو بالتدريج وفي معناه (المتحيز) وهو المنتقل من حيز الى آخر ، والحيّز المكان ، ومادته الواو ، فالحوز المكان يبنى حوله حائط ، قال في الاساس: انحاز عن القوم : اعتزلهم ، وانحاز اليهم وتحيز انضم .وذكر جملة الآية (والفئة) الطائفة من الناس (والمأوى) الملجأ الذي يأوي اليه الانسان وينضم و (موهن) الشيء مضعفه اسم فاعل من أوهنه أي أضعفه ومثله وهنه وهنا ووهنه توهينا . و (الكيد) التدبير الذي يقصد به غير ظاهره فتسوء غايته المكيد به كما تقدم في تفسير الآية ١٨٣ من سورة الاعراف . والاستفتاح طلب الفتح والفصل في الامر ، كالنصر في الحرب.

والمعنى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتموا الذين كفروا زحفا ﴾ أي اذا لقيتموهم حال كونهم زاحفين زحفا لقتالكم كما كانت الحال في غزوة بدر فان الكفار هم الذين

زحفوا من مكة الى المدينة لقتال المؤمنين فتقفوهم في بدر ﴿ فلا تولوهم الادبار ﴾.

أي فلا تولوهم ظهوركم وأقفيتكم منهزمين منهم وان كانوا أكثر منكم عدداً وعدداً، واذا كان التزاحف من الفريقين أو كان الزحف من المؤمنين فتحريم الفرار والهزيمة أولى، ولفظ لقيتموهم زحفا يصلح للاحوال الثلاثة ورجح الاول هنا بقرينة الحال التي نزلت فيها الآية وكون النهي عن التولي والفرار انما يليق بالمزحوف عليه لانه مظنة له، ويليه ما اذا كان التزاحف من الفريقين. وأما الزاحف المهاجم فليس مظنة للتولي والانهزام فيبدأ بالنهي عنه وهو منه أقبح ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ عبر بلفظ تولية الدبر في وعيد كل فرد كما عبر به في نهي الجماعة لتأكيد حرمة جريرة الفرار من الزحف وكون الفرد فيها كالجماعة وآثر هذا اللفظ مفرداً وجمعاً على لفظ الظهور والظهر أو القفا والأقفية زيادة في تشنيعها لانه لفظ يكنى به عن السوأة أي وكل من يولهم يوم إذ تلقونهم دبره ﴿ إلا متحرفا لقتال ﴾ أي إلا متحرفا لمكان من أمكنة القتال رآه أحوج إلى القتال فيه — أو متحرفا لضرب من ضروبه رآه أبلغ في النكاية بالعدو كأن يوهم خصمه أنه منهزم منه ليغريه باتباعه فينفرد عن أشياعه فيكرّ عليه فيقتله ﴿ أو متحيزاً الى فئة ﴾ أي منتقلا الى فئة من المؤمنين في حيز غير الذي كان فيه لينصرهم على عدو تكاثر جمعه عليهم، فصاروا أحوج اليه ممن كان في حيزهم ﴿ فقد باء بغضب من الله ﴾ أي فقد رجع متلبسا بغضب عظيم من الله عليه ﴿ ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ ومأواه الذي يلجأ اليه في الآخرة جهنم دار العقاب وبئس المصير جهنم، كأن المنهزم أراد ان يأوي الى مكان يأمن فيه من الهلاك فعوقب على ذلك بجعل عاقبته التي يصير اليها دار الهلاك والعذاب الدائم، أي جوزي بضد غرضه من معصية الفرار، وقد تكرر في التنزيل التعبير عن جهنم والنار بالمأوى وهو إما من قبيل ما هنا وإما للتهكم المحض، فانك إذا راجعت استعمال هذا الحرف في غير هذا المقام من التنزيل تجده لا يذكر الا في مقام النجاة من خوف أو شدة كقوله تعالى (إذ أوى الفتية الى الكهف) وقوله (أو آوي الى ركن شديد) وقوله (سآوي الى جبل يعصمني من الماء) وقوله (والذين آووا ونصروا) الخ

والآية تدل على أن الفرار من الزحف من كبائر المعاصي وقد جاء التصريح

بذلك في أحاديث أصحها عن أبي هريرة مرفوعا عند الشيخين «اجتنبوا السبع الموبقات» أي المهلكات، قالوا يارسول الله وماهن؟ قال «الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وقد قيد بعض العلماء هذا بما اذا كان الكفار لا يزيدون على ضعف المؤمنين، وعدَّ بعضهم الآية منسوخة بقوله تعالى من هذه السورة (٦٦ الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا) الآية وستأتي. وهذا ظاهر على قول من يسمي التخصيص نسخا كالمتقدمين. قال الشافعي رحمه الله تعالى: اذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو حرم عليهم أن يولوا الا متحرفين لقتال أو متحيزين الى فئة. وان كان المشركون أكثر من ضعفهم لم أحب لهم أن يولوا ولا يستوجبون السخط عندي من الله لو ولوا عنهم على غير التحرف للقتال أو التحيز الى فئة، وروى هو وابن أبي شيبة عن ابن عباس قال: من فر من ثلاثة فلم يفر ومن فر من اثنين فقد فر

وقد روي عن عمر وابنه وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وأبي بصرة وعكرمة ونافع والحسن وقتادة وزيد بن أبي حبيب والضحاك ان تحريم الفرار من الزحف في هذه الآية خاص بيوم بدر – قيل إنه بناء على ان قوله تعالى (يومئذ) يراد به يوم بدر، ولكن هذا خلاف قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويؤيده نزول الآية بعد انتهاء الغزوة، فانه ليس فيها ذكر «يوم بدر» وانما المراد بتنوين يومئذ مافهم من أول الآية أي يوم لقائهم زحفا كما تقدم فاليوم فيه بمعنى الوقت. وانما قد يتجه بناء التخصيص على قرينة الحال لو كانت الآية قد نزلت قبل اشتباك القتال– خلافا للجمهور – مع ما للغزوة بدر من الخصائص ككونها أول غزوة في الاسلام لو انهزم فيها المسلمون والنبي ﷺ فيهم لكانت الفتنة كبيرة، وتأييد المسلمين فيها الملائكة يثبتونهم، ووعده تعالى بنصرهم وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم – فاذا نظرنا الى مجموع الخصائص وقرينة الحال في النهي اتجه كون التحريم المقرون بالوعيد الشديد الذي في الآية خاصا بها، أضف الى ذلك ان الله تعالى امتحن الصحابة (رض) بالتولي والادبار في القتال مرتين مع وجوده ﷺ معهم: يوم أحد وفيه يقول الله تعالى (٣: ١٥٥ ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض

ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ان الله غفور حليم) ويوم حنين وفيه يقول الله تعالى (٩: ٢٥ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين (٢٦ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) الخ وهذا لاينافي كون التولي حراما ومن الكبائر، ولا يقتضي أن يكون كل تول لغير السببين المستثنيين في آية الانفال يبوء صاحبه بغضب عظيم من الله ومأواه جهنم وبئس المصير. بل قد يكون دون ذلك ويتقيد بآية رخصة الضعف الآتية في هذه السورة وبالنهي عن القاء النفس في التهلكة من حيث عمومها كما تقدم في سورة البقرة وسيأتي تفصيله قريبا

وقد روى أحمد وأصحاب السنن الا النسائي من حديث ابن عمر قال : كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة [1] وكنت فيمن حاص ، فقلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا لو دخلنا المدينة فبتنا ، ثم قلنا لو عرضنا نفوسنا على رسول الله ﷺ فان كان لنا توبة والا ذهبنا . فأتيناه قبل صلاة الغداة [2] فخرج فقال « من الفرارون ؟» فقلنا نحن الفرارون . قال « بل أنتم العكارون [3] أنا فئتكم وفئة المسلمين» قال فأتيناه حتى قبلنا يده . ولفظ أبي داود : فقلنا ندخل المدينة فنبيت فيها لنذهب ولا يرانا أحد ، فدخلنا فقلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فان كانت لنا توبة أقمنا وإن كان غير ذلك ذهبنا ، فجلسنا لرسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر فلما خرج قمنا اليه فقلنا نحن الفرارون الخ، تأول بعضهم هذا الحديث بتوسع في معنى التحيز إلى فئة لايبقى معه للوعيد معنى ولا للغة حكم ، وقد قال الترمذي فيه : حسن لا نعرفه الا من حديث يزيد بن أبي زياد. أقول وهو مختلف فيه ضعفه الكثيرون، وقال ابن حبان كان صدوقا الا أنه لما كبر ساء حفظه وتغير فوقعت المناكير في حديثه فمن سمع منه قبل التغير صحيح . وجملة القول أن هذا الحديث لا وزن له في هذه المسألة لا متنا ولا سندا ، وفي معناه أثر عن عمر هو دونه فلا يوضع في ميزان هذه المسألة

«١» حاص عن الشيء حاد وهرب «٢» أي الصبح «٣» العكار كالعطاف والكرار لفظا ومعنى

وأما قوله ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ فهو وصل للنهي عن التولي بماهو حجة على جدارتهم بالانتهاء ، فان كانت الآية التي قبله قد نزلت بعد انتهاء القتال في غزوة بدر كسائر السورة كما عليه الجمهور فوجه الوصل بالفاء ظاهر جلي، كأنه يقول ياأيها المؤمنون لاتولوا الكفار ظهوركم في القتال أبدا ، فأنتم أولى منهم بالثبات والصبر ثم بنصر الله تعالى، فها أنتم أولاء قد انتصرتم عليهم على قلة عددكم وعددكم وكثرتهم واستعدادهم ،وانما ذلك بتأييد الله تعالى لكم ، وربطه على قلوبكم وتثبيت أقدامكم، فلم تقتلوهم ذلك القتل الذريع بمحض قوتكم واستعدادكم المادي ولكن الله قتلهم بأيديكم بما كان من تثبيت قلوبكم بمخالطة الملائكة وملابستها لأرواحكم ، وبالقائه الرعب في قلوبهم، فهو بمعنى قوله عز وجل (٩:١٤قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم) الآية ، والمؤمن أجدر بالصبر الذي هو الركن الاعظم للنصر من الكافر ، لأنه أقل حرصا على متاع الدنيا ، وأعظم رجاء بالله والدار الآخرة كما قال تعالى (ولا تهنوا في ابتغاء القوم، ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله مالا يرجون) وقال حكاية لرد المؤمنين بهذا الرجاء ، على الخائفين من كثرة الاعداء (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين)

ثم التفت عن خطاب المؤمنين المقاتلين بأيديهم ،والمجندلين لصناديد المشركين بسيوفهم، الى خطاب قائدهم وهو الرسول المؤيد منه تعالى بالآيات(ص) ومنها أنه رمى المشركين يومئذ بقبضة من التراب قائلا «شاهت الوجوه» فأعقبت رميته هزيمتهم ، روي عن أبي معشر المدني عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي بالمعنى وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ان النبي (ص) لما قال في استغاثته يوم بدر « يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الارض أبدا » قال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم ـ ففعل فما من أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين . وروى السدي انه (ص) طلب من علي أن يعطيه حصبا من الارض فناوله حصبا عليه تراب فرماهم به الخ . وعن عروة ومجاهد وعكرمة وقتادة أيضا أن الآية في رميه (ص) في بدر . فاذا لم تكن رواية من هذه الروايات وصلت الى درجة الصحيح فمجموعها

مع القرينة حجة على ذلك . وروي مثل هذه الرمية في غزوة حنين فحمل الآية بعضهم على ذلك وهو شاذ وحملها بعضهم على رميه (ص) لأمية بن خلف بالحربة يوم أحد وهو مقنع بالحديد فقتله وهو شاذ أيضا فالآية بل السورة نزلت في غزوة بدر . والمعنى ﴿ وما رميت إذ رميت ﴾ الخ رميت أيها الرسول أحداً من أولئك المشركين في الوقت الذي رميت فيه تلك القبضة من التراب بالقائها في الهواء فأصابت وجوههم فان ما أوتيته كأمثالك من البشر من استطاعة على الرمي لا يبلغ هذا التأثير الذي هو فوق الاسباب الممنوحة لهم ﴿ ولكن الله رمى ﴾ وجوههم كلهم بما أوصل التراب الذي ألقيته في الهواء اليها مع قلته، أو بعد تكثيره بمحض قدرته ، وحذف مفعول الرمي للدلالة على عمومه في كل من الاثبات والنفي كما قدرنا فيهما وفاقا لما تقرر في علم المعاني - وقد علم من هذا التفسير المتبادر من اللفظ بغير تكلف وجه الفرق بين قتل المؤمنين للكفار الذي هو فعل من أفعالهم المقدورة لهم بحسب سنن الله في الاسباب الدنيوية ، وبين رمي النبي ﷺ إياهم بالتراب الذي ليس بسبب لشكاية أعينهم وشوهة وجوههم لقلته وبعدهم عن راميه وكونهم غير مستقبلين كلهم له ،ولاجل هذا الفرق ذكر مفعول القتل مثبتا ومنفيا - وهو ضمير المشركين — فنفى القتل المحسوس مطلقا وأثبت المعقول مطلقا لعدم تعارضهما فالمراد من كل منهما ظاهر بغير شبهة ، ولو أثبت لهم القتل مع نفيه عنهم بان قال : اذ قتلتموهم - لكان تناقضا ظاهراً يخفي وجه جعل المثبت منه غير المنفي. وقتلهم لهم مشاهد لا يحتاج الى اثبات من حيث كان سبباً ناقصا ، وانما الحاجة الى بيان نقصه وعدم استقلاله بالسببية ، ثم بيان ما لولاه لم يكن وهو اعانة الله ونصره .

وأما رمي النبي (ص) لوجوه القوم فلم يكن سبباً عاديا لاصابتهم وهزيمتهم لا مشاهداً كضرب أصحابه لأعناق المشركين ولا غير مشاهد ، والجمع بين نفيه واثباته لا يوهم التناقض للعلم بعدم السببية . ولم يذكر مفعول الرمي بأن يقال « وما رميت وجوههم » إذ لا شبهة هنا في عدم استطاعة النبي ﷺ لهذا استقلالا بكسبه العادي، وأما هنالك فالظاهر أن القتل من كسبهم الاستقلالي . والحقيقة أنه لولا تأييد الله تعالى ونصره بما تقدم بيانه لما وصل كسبهم المحض إلى

هذا القتل ، وقد علمنا ما كان من خوفهم وكراهتهم للقتال ومجادلة النبي ﷺ فيه (كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون)فلو ظلوا على هذه الحالة المعنوية مع قلتهم وضعفهم لكان مقتضى الاسباب أن يمحقهم المشركون محقا .

وأما الفرق بين فعله تعالى في القتل وفعله في الرمي فالاول عبارة عن تسخيره تعالى لهم أسباب القتل التي تقدم بيانها كما هو الشأن في جميع كسب البشر وأعمالهم الاختيارية من كونها لا تستقل في حصول غاياتها الا بفعل الله وتسخيره لهم وللاسباب التي لا يصل اليها كسبهم عادة، كقوله تعالى (أفرأيتم ماتحرثون * أءنتم تزرعونه أم نحن الزارعون؟ لو نشاء لجعلناه حطاما) الخ فالانسان يحرث الارض ويلقي فيها البزر ولكنه لا يملك انزال المطر ولا إنبات الحب وتغذيته بالتراب المختلف العناصر، ولا دفع الجوائح عنه. ولا يستقل ايجاد الزرع وبلوغ ثمرته صلاحها بكسبه وجده .
وأما الثاني فهو من فعله تعالى وحده بدون كسب عادي للنبي ﷺ في تأثيره فالرمي منه كان صوريا لتظهر الآية على يده صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله فمثله في ذلك كمثل أخيه موسى عليه السلام في إلقائه العصا (فاذا هي حية تسعى) فخاف منها أولا كما ورد في سورتي طه والنمل

هذا مايدل عليه نظم الكلام بلا تكلف ولا حمل على المذاهب والآراء الحادثة من كلامية وتصوفية وغيرها، فالجبري يحتج بها على سلب الاختيار وكون الانسان كالريشة في الهواء ، والاتحادي يحتج بها على وحدة الوجود، وكون العبد هو الرب المعبود ، والاشعري يحتج بها على الجمع بين كسب العبد وخلق الرب باسناد الرمي إلى النبي ﷺ وإلى الخالق عز وجل . وهو يغني عن إسناد القتل إلى المؤمنين بالاولى ، والقرآن فوق المذاهب وقبلها ، غني بفصاحته وبلاغته عن هذه التأويلات كلها (كل حزب بما لديهم فرحون) وكلام الله فوق مايظنون .

وأما موقع الفاء في أول الآية على القول بأن الآية السابقة عليها نزلت قبل القتال تحريضاً عليه فقد قيل إنها واقعة في جواب شرط مقدر واختلفوا في تقديره وقال بعضهم بل هي لمجرد ربط الجمل بعضها ببعض ، وقد يقال إنه لا مانع من نزولها بعد المعركة ووصلها بما قبلها للدلالة على ماذكرنا من التعليل والاحتجاج

على مشروعية النهي عن الهزيمة. وأولى منه أن يستدل بها على نزول ماقبلها في ضمن السورة بعد المعركة .

وأما قوله تعالى ﴿ وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا ﴾ فهو معطوف على تعليل مستفاد مما قبله ، أي انه فعل ماذكر لاقامة حجته وتأييد رسوله (وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا) بالنصر والغنيمة وحسن السمعة . والبلاء الاختبار بالحسن أو بالسيء كما قال تعالى في بني اسرائيل (وبلوناهم بالحسنات والسيئات) وتقدم بيانه بالتفصيل. وختم الآية بقوله ﴿ إن الله سميع عليم ﴾ وهو تعليل مستأنف للبلاء الحسن والمراد أنه تعالى سميع لما كان من استغاثة المؤمنين مع الرسول ربهم ودعائهم اياه وحده ، عليم بصدقهم واخلاصهم، وبما يترتب على استجابته لهم من تأييد الحق الذي هم عليه وخذلان الشرك، كما أنه سميع لكل نداء وكلام ، عليم بالنيات الباعثة عليه ، والعواقب التي تنشأ عنه ، وبكل شيء

ولما كان من سنة القرآن المقابلة بين الايمان والكفر وبين أهل كل منهما وجزائهما عليهما قال ﴿ ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ أي الامر في المؤمنين وفائدتهم مما تقدم هو ذلكم الذي سمعتم ، ويضاف اليه تعليل آخر وهو أن الله تعالى موهن كيد الكافرين ، أي مضعف كيدهم ومكرهم بالنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ومحاولتهم القضاء على دعوة التوحيد والاصلاح قبل أن تقوى وتشتد ، قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر (موهن) بتشديد الهاء والتنوين ونصب (كيد) والتشديد للمبالغة في الوهن. وقرأ حفص عن عاصم بالتخفيف والاضافة والباقون بالتخفيف والنصب

وقد صرح التنزيل بجزاء الفريقين في تعليل آخر في عاقبة الحرب ، قال في سياق غزوة أحد من سورة آل عمران(٣ : ١٤٠ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس ـ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين (١٤١ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين)

﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ قيل ان الخطاب للكفار ذكر خذلانهم واضعاف كيدهم ثم التفت عنه الى تذكيرهم وتوبيخهم على استنصارهم إياه على رسوله (ص)

ذكر محمد بن اسحاق وعروة عن الزهري عن عبدالله بن ثعلبة بن صعير أن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم أينا كان أقطع للرحم وأتى بما لا يعرف فأحنه الغداة . فكان ذلك استفتاحا منه . رواه عنه أحمد ورواه النسائي في التفسير والحاكم في المستدرك عن الزهري، وروي مثله عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم. وقال السدي كان المشركون حين خرجوا من مكة الى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين ، فقال الله (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) يقول قد نصرت ما قلتم وهو محمد ﷺ ، وفي رواية أن أبا جهل قال حين التقى الجمعان: اللهم رب ديننا القديم ودين محمد الحديث فأي الدينين كان أحب اليك وأرضى عندك فانصر أهله اليوم. فالفتح هو نصر النبي ودينه وأتباعه . وهذا يدل على ان أبا جهل كان مغروراً بشركه واثقا بدينه ولم يكن أكثر أكابر مجرمي مكة كذلك بل كان كفرهم عن كبر وعلو وحسد للنبي ﷺ .

﴿وان تنتهوا فهو خير لكم﴾ أي وان تنتهوا عن عداوة النبي ﷺ وقتاله فالانتهاء خير لكم لانكم لا تكونون الا مغلوبين مخذولين كقوله (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد) والخيرية في هذه الحالة بالاضافة الى الاستمرار على العدوان والقتال، ويحتمل أن يراد به الانتهاء عن الشرك فتكون الخيرية على حقيقتها وكمالها ﴿ وان تعودوا نعد ﴾ أي وإن تعودوا الى مقاتلته نعد لما رأيتم من الفتح له عليكم حتى يجيء الفتح الاعظم الذي يذل فيه شرككم ، وتدول الدولة للمؤمنين عليكم ﴿ ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت ﴾ أي ولن تدفع عنكم جماعتكم من المشركين شيئا من بأس الله وبطشه ولو كثرت عدداً فالكثرة لا تكون سببا للنصر ، إلا إذا تساوت مع القلة في الثبات والصبر ، والثقة بالله عز وجل ﴿ وان الله مع المؤمنين ﴾ بالمعونة والولاية والتوفيق فلا تضرهم قلتهم . قرأ نافع وابن عامر (وأن) وحفص بفتح الهمزة بتقدير اللام أي ولأن الله مع المؤمنين

كان الامر ماذكره ، وقرأها الباقون بالكسر على الاستئناف

وقيل ان الخطاب في الآية للمؤمنين كسابقه ولاحقه والمعنى : ان تستنصروا ربكم وتستغيثوه عند شعوركم بالضعف والقلة فقد جاءكم النصر وإن تنتهوا عن التكاسل في القتال والرغبة عما يأمر به الرسول ومجادلته في الحق بعد ماتبين فهو خير لكم . وإن تعودوا اليه نعد عليكم بالانكار أو تهييج العدو ، ولن تغني عنكم كثرتكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر ،فها نحن أولاء قد نصرناكم على قلتكم وضعفكم . هذا أقوى من كل ماراًيناه في تصوير المعنى فأكثر ماقالوه ظاهر التكلف، ولولا السياق لكان المعنى الأول أرجح لانه أظهر

---

(٢٠) يَاءَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢٢) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٣) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ

كانت السورة من أولها إلى هنا في قصة غزوة بدر الكبرى إلا انها افتتحت بعد براعة المطلع — وهو السؤال عن الغنائم — بالمقصد من الدين وهو الايمان وطاعة الله ورسوله ووصف الايمان الكامل ، وانتقل منها إلى مقدمات الغزوة وما كان من عناية الله فيها بالمؤمنين ، ثم انتقل هنا أو فيما قبله إلى نداء المؤمنين المرة بعد المرة وتوجيه الأوامر والنواهي اليهم في مقاصد الاسلام والايمان والاحسان ـ وينتهي هذا بالآية ٢٩ ثم ينتقل من ذلك إلى شؤون الكفار مع المؤمنين وعداوتهم لهم وللرسول ﷺ وكيدهم له وعدوانهم عليه ، وفتنة المؤمنين به ـ ومنه إلى الامر بقتالهم وحكمته ثم يعود الكلام الى غزوة بدر وما كان فيها من حكم وسنن وأحكام وتشريع ، وهذا يدخل في أول الجزء العاشر وهو آية (٤١ واعلموا انما غنمتم من شيء) الخ

قال تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ﴾ ذكرت هذه الطاعة في

الآية الاولى من هذه السورة وأعيدت هنا ليعطف عليها قوله ﴿ ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ أي ولا تتولوا وتعرضوا عن الرسول ﷺ والحال أنكم تسمعون منه كلام الله المصرح بوجوب طاعته وموالاته واتباعه ونصره، والمراد بالسماع هنا سماع الفهم والتصديق والاذعان الذي هو شأن المؤمنين الذين دأبهم أن يقولوا (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير) والموصوفين بقوله عزوجل (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب)

ثم قرر هذا المعنى وبين مقابله بقوله ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ وهم فريقان (الاول) الكفار المعاندون (٤ : ٤٥ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا — ليا بألسنتهم وطعنا في الدين — ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) وأمثالهم من الكفار المعاندين والمقلدين، وورد فيهم آيات سيذكر بعضها هنا (الثاني) المنافقون الذين قال تعالى في بعضهم (٤٧ : ١٧ ومنهم من يستمع اليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا ؟) وتقدم في سورة الاعراف من صفات أهل النار في الدنيا (ولهم آذان لا يسمعون بها) مع آيات أخرى والمراد في هذا كله انهم لا يسمعون سماع تفقه واعتبار يتبعه الانتفاع والعمل

ثم علل الامر والنهي بقوله ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾ الدواب جمع دابة وهو كل ما يدب على الأرض قال في سورة النور (٢٤ : ٤٣ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع) الآية وقلما يستعمل هذا اللفظ في الانسان وحده وانما يغلب في الحشرات ودواب الركوب، فان كان قديماً فهو هنا يشعر بالاحتقار

والمعنى ان شر ما يدب على الارض في حكم الله الحق هم الاشرار من البشر «الصم» الذين لا يلقون السمع لمعرفة الحق والاعتبار بالموعظة الحسنة فكانوا بفقد

منفعة السمع كالذين فقدوا حاسته «البكم» الذين لايقولون الحق، كأنهم فقدوا قوة النطق، « الذين لا يعقلون» أي فقدوا فضيلة العقل الذي يميز بين الحق والباطل، ويفرق بين الخير والشر ، إذ لو عقلوا لطلبوا ، ولو طلبوا لسمعوا وميزوا ، ولو سمعوا لنطقوا وبينوا ، وتذكروا وذكروا ، كما قال تعالى (ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) فهم لفقدهم منفعة العقل والسمع والنطق كالفاقدين لهذه المشاعر والقوى ، بأن خلقوا خداجا أو طرأت عليهم آفات ذهبت بمشاعرهم الظاهرة والباطنة، بل هم شر من هؤلاء لان هذه المشاعر والقوى خلقت لهم فأفسدوها على أنفسهم لعدم استعمالها فيما خلقها الله تعالى لأجله في سن التمييز ثم التكليف ، فهم كما قال الشاعر :

خُلقوا وما خلقوا لمكرمة   فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رُزقوا وما رزقوا سماح يد   فكأنهم رزقوا وما رزقوا

وإذا أردت فهم الآية فهما تفصيلياً فارجع إلى تفسيرنا لقوله تعالى (٧: ١٧٩ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها. أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) ولم يصفهم هنا بالعمى كما وصفهم في آية الاعراف وآيتي البقرة لأن المقام هنا مقام التعريض بالذين ردّوا دعوة الاسلام، ولم يهتدوا بسماع آيات القرآن،

﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾ أي ولو علم الله فيهم استعداداً للايمان والهدى ببقية من نور الفطرة ، لم تطفئها مفاسد التربية وسوء القدوة ، لأسمعهم بتوفيقه وعنايته الكتاب والحكمة سماع تفقه وتدبر ، ولكنه علم انه لا خير فيهم لانهم ممن أحاطت بهم خطاياهم وختم على قلوبهم ﴿ ولو اسمعهم ﴾ وقد علم أن لا خير فيهم ﴿ لتولوا ﴾ عن القبول والاذعان لما فهموا ﴿ وهم معرضون ﴾ والحال أنهم معرضون من قبل ذلك بقلوبهم عن قبوله والعمل به ـ كما هو مدلول الجملة الحالية ـ كراهة وعناداً للداعي إليه ولا هله، لا توليًا عارضا موقتا، وفرق عظيم بين التولي العارض لصارف موقت وتولي الاعراض والكراهة الذي فقد صاحبه الاستعداد للحق وقبول الخير فقداً تاما . ومن اضطرب في فهم الجمع بين التولي والاعراض

فقد جهل معنى الجملة الحالية الفارق بينها وبين الحال المفردة كما بينه الامام عبدالقاهر في دلائل الاعجاز ، والآية نص في انه تعالى لم يسمعهم أي لم يوفقهم للسماع النافع، لان الباعث عليه هو مافي الفطرة من نور الحق المحبب للنفس في الخير، وقد فقدوا ذلك بافسادهم لفطرتهم، واطفائهم لنور الاستعداد للحق والخير الذي يذكيه سماع الحكمة والموعظة الحسنة ، فصاروا ممن وصفهم في سورة المطففين المكية بقوله (٨٣ : ١٤ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) وقوله في سورة البقرة (٢:٨١ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ووصفهم فيها بقوله (١٨صم بكم عمي فهم لا يرجعون) وضرب المثل لسماعهم بقوله في الآية الاخرى منها (٢:١٧١ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمي فهم لا يعقلون) يعني أنهم كسارحة النعم تسمع صراخ الناعق فترفع رءوسها ولكنها لا تفهم له معنى فاذا سكت عادت الى رعيها كما قال ابن دريد في مقصورته :

نحن ولا كفران لله كما قد قيل في السارب أخلى فارتعى
اذا أحس نبأة ريع وإن تطامنت عنه تمادى ولها

وفي الآيتين ٤٢ و٤٣ من سورة يونس (١٠) إيئاس النبي ﷺ من أسماع هؤلاء الصم وهداية هؤلاء العمي وقفى على ذلك بقوله تعالى (٤٤ إن الله لا يظلم الناس ولكن الناس أنفسهم يظلمون) فامثال هذه الآيات تحثو التراب في في من يزعم أن الآية تدل على الجبر وعدم اختيار العبد في كفره وإيمانه ، كما انها تسجل الجهل باللغة على من يزعم ان فيها إشكالا في النظم بجواز تقدير :ولو أسمعهم لعلمه بأن فيهم خيراً لتولوا وهم معرضون عن الايمان والهدى، ونقول ان تقديره هذا هو الباطل لانه نقيض ماأفادته «لو» من أنه علم أنه لاخير فيهم فهو لا ينتج إلا باطلا ، وعفا الله عمن صوروا هذا الاشكال الوهمي بالاصطلاح المنطقي الفلسفي وأطالوا في الرد عليه من تلك الطرق الاصطلاحية الشاغلة عن كتاب الله تعالى

ألم يك خيراً لهم من هذه الحذلقة اللفظية الصارفة عن القرآن توجيه قلب سامعه لمحاسبة نفسه على هذا السماع ودرجة حظه منه ؟ فان للسماع درجات باعتبار مايطالبه الله تعالى به من الاهتداء بكتابه : أسفلها أن يتعمد من يتلى عليه القرآن أن لا يسمعه

مبارزة له بالعداوة من أول وهلة خوفا من سلطانه على القلوب أن يغلبهم عليها كالذين قال الله فيهم (٤١:٢٦ وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) ويليها من يستمع وهولا ينوي أن يفهم ويعلم كالمنافقين المشار اليهم في آية سورة القتال (٤٧:١٧) وذكرت في هذا السياق - ويليها من يستمع لأجل التماس شبهة للطعن والاعتراض، كما كان يفعل المعاندون من المشركين وأهل الكتاب، وكما يفعل في كل وقت مرتزقة دعاة النصرانية وغيرهم اذا استمعوا للقران أو نظروا فيه - ويليها أن يسمع ليفهم ويعلم ثم يحكم للكلام أو عليه

وهذه الدرجات كلها لغير المؤمنين به والمنصف منهم الفريق الأخير وكم آمن منهم من تأمل وفهم: نظر طبيب إفرنسي معاصر في ترجمة القرآن فرأى ان كل ما يتعلق بالطب والمحافظة على الصحة منه - كالطهارة والاعتدال وعدم الاسراف - موافق لأحدث المسائل التي استقر عليها رأي الاطباء في هذا العصر، فرغبه ذلك في تأمله كله فأسلم... ونظر (مستر براون) وهو ربان بارج من الانكليز في ترجمة مستر سايل الانكليزية له فاستقصى فيه الكلام عن البحار والرياح فظن ان النبي (ص) كان من أكبر رباني الملاحين فسأل عنه فقيل له انه لم ير البحر قط وكان مع ذلك أميا لم يقرأ كتابا، ولا تلقى عن أحد درسا، (قال) فعلمت ان هذا كان بوحي من الله لانه حقائق لم يعلمها من اختباره بنفسه، ولا بتلقيه عن غيره من المختبرين، وقد أسلم وتعلم العربية رحمه الله تعالى

وأما المسلمون في هذه البلاد فأكثرهم اليوم يسمعون القارىء يتلو القرآن فلا يستمعون له ولا يشعرون بأنهم في حاجة الى سماعه، وأكثر الذين يستمعون له وينصتون يقصدون بذلك التلذذ بتجويده وتوقيع التلاوة على قواعد النغمات، ومنهم من يقصد سماعه التبرك فقط، ومنهم من يحضر الحفاظ لتلاوته عنده في ليالي رمضان لأن ذلك من شعائر أكابر الوجهاء، وانما تكون التلاوة في حجرة البواب أو غيره من الخدم، واذا سمعت بعض السامعين للتلاوة يقول: الله الله، أو غير ذلك من كلمة مفردة أو مركبة أوصوت لامعنى له فانما ينطق به إعجابا بنغمة التالي، حتى انهم لينطقون عند سماعه ببعض الاصوات التي تخرج من أفواههم عند سماع الغناء

دعيت مرة الى حفلة عرس فاذا أنا بقارىء يتلو بالنغم والتطريب وبعض

الحاضرين يهتز وينطق بتلك الحروف المعتادة في مجالس الغناء ويستعيدون بعض الجمل أو الآيات كما يستعيدون المغني على سواء، وكان القارىء يتلو تلك الوصايا الصادعة من سورة الاسراء وما يتلوها من وصف القرآن وهدايته ومواعظه وتوبيخ المعرضين عنه كقوله تعالى (١٧: ٤١ ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا ـ الى قوله (٤٥ واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ٤٦ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ، واذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ٤٧ نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون اليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا)

فلما سمعت مكاء أولئك السفهاء وأصواتهم المنكرة عند سماع هذه الحكم الروائع، والمواعظ الصوادع، لم أملك نفسي أن صحت فيهم صيحة مزعجة ووقفت على الكرسي الذي كنت جالساً عليه وبختهم توبيخا شديداً مبيناً لهم مايجب من الأدب والخشوع والخشية عند سماع القرآن ولا سيما أمثال هذه الآيات ، وتلوت عليهم قوله تعالى (٥٩: ٢١ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) فسكنوا وسكتوا إلا واحداً منهم أخذته العزة بالاثم ، ولكنه صار يتظاهر بأنه يهتز متخشعاً ، ويهمهم معتبراً متدبرا .

وليعلم القارىء ان لفهم الكلام نفسه درجات فمن الناس من لا يفهم من الكلام إلا مدلولات الالفاظ على ما فيها من إجمال وإبهام ، بحسب ما تفسر به المفردات في معاجم اللغة، أو مع المركبات بحسب قواعد النحو والبيان، ككون لفظي الصم والبكم هنا من مجاز الاستعارة مثلا ، وهذا الفهم قاصر لا يتسع عقل صاحبه للتدبر والتذكر المطلوب ، ومنهم من يكون فهمه تفصيلياً ينتقل من الكليات إلى الجزئيات، ويعدو المفهومات الذهنية إلى الماصدقات، ولكنه يجعلها بمعزل عن نفسه، ويتصور أن الكلام كله لغيره وفي غيره ، بان يقول هذه الآية نزلت في الكافرين أو المنافقين، لا في أمثالي من المؤمنين، وإن كان متصفاً بما تنهى عنه وتتوعد عليه من صفاتهم وأعمالهم، فصاحبها يصدق عليه بوجه ما انه من الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون،

وإنما الدرجة العليا للسماع أن تسمع فتفقه وتعقل وتتدبر فتعتبر وتعمل، حتى لا تقول يوم القيامة (٦٧: ١٠ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير)

(٢٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٥) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٦) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

يقال دعاه فأجابه واستجابه واستجاب له ، وكثر المتعدي في التنزيل ويقول الراغب ان أصل الاستجابة التهيؤ والاستعداد للاجابة فحل محلها، أقول والاقرب الى الفهم قلب هذا وعكسه وهو ان الاستجابة هي الاجابة بعناية واستعداد فتكون زيادة السين والتاء للمبالغة ، وهو يقرب مما قالوه في معانيهما من التكلف والتحري أو هو بعينه إلا انه لا يعبر به فيما يسند إلى الله تعالى كقوله (فاستجاب لهم ربهم)

فقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ معناه اذا علمتم مافرضنا عليكم من الطاعة ، وشأن سماع التفقه من الهداية ، وقد دعاكم الرسول بالتبليغ عن الله تعالى لما يحييكم ، فاجيبوا الدعوة بعناية وهمة ، وعزيمة وقوة ، فهو كقوله تعالى (خذوا ما آتيناكم بقوة) والمراد بالحياة هنا حياة العلم بالله تعالى وسننه في خلقه ، وأحكام شرعه ، والحكمة والفضيلة والاعمال الصالحة التي تكمل بها الفطرة الانسانية في الدنيا وتستعد للحياة الابدية في الآخرة ، وقيل المراد بالحياة هنا الجهاد في سبيل الله لانه سبب القوة والعزة والسلطان ـ والصواب ان الجهاد يدخل فيما ذكرنا وليس هو الحياة المطلوبة بل هو وسيلة لتحققها وسياج

لها بعد حصولها ، وقيل هي الايمان والاسلام، وانما يصح باعتبار ما كان يتجدد من الاحكام ، وثمرته في القلوب والاعمال ، وبما في الاستجابة من معنى المبالغة في الاجابة، وإلا فالخطاب للمؤمنين. وقيل هي القرآن ولا شك انه ينبوعها الاعظم، الهادي الى سبيلها الاقوم ، مع بيانه من سنة الرسول وهديه الذي أمرنا بان يكون لنا فيه أسوة حسنة ، ويدل عليه اقتران طاعته بطاعة الله تعالى ، بل قال بعض العلماء انه كان اذا دعا شخصاً وهو يصلي يجب عليه أن يترك الصلاة استجابة له وان الصلاة لا تبطل باجابته بل له أن يبني على ما كان صلى ويتم، واستدلوا على ذلك بحديث رواه البخاري عن سعيد بن المعلى قال : كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه ـ أو قال فلم آته حتى صليت ثم أتيته ـ فقلت يارسول الله اني كنت أصلي ، فقال «ألم يقل الله (استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم) » الحديث . وروى الترمذي والحاكم من حديث أبي هريرة انه ﷺ دعا أبيّ بن كعب وهو في الصلاة وذكر نحواً مما رواه البخاري عن أبي سعيد وصححه. وقال الحافظ في باب فضائل الفاتحة من الفتح عند ذكر فقه الحديث: وفيه ان الامر يقتضي الفور لانه (ص) عاتب الصحابي على تأخير اجابته، وفيه استعمال صيغة العموم في الاحوال كلها. قال الخطابي: فيه ان حكم لفظ العموم أن يجري على جميع مقتضاه وان الخاص والعام اذا تقابلا كان العام منزلا على الخاص ، لان الشارع حرم الكلام في الصلاة على العموم ثم استثنى منها اجابة دعاء النبي ﷺ في الصلاة (وفيه) أن اجابة دعاء النبي ﷺ لا تفسد الصلاة — هكذا صرح به جماعة من الشافعية وغيرهم وفيه بحث لاحتمال أن تكون اجابته واجبة مطلقاً سواء كان المخاطب مصلياً أو غير مصل، اما كونه يخرج لاجابته من الصلاة أو لا يخرج فليس في الحديث ما يستلزمه ، فيحتمل أن تجب الاجابة ولو خرج المجيب من الصلاة ، والى ذلك جنح بعض الشافعية الخ ما أورده ولا تعرض فيه لما يدعو المرء اليه وهل يشترط لما ذكر أن يكون من أمر الدين أم لا ؟ وقد كان (ص) دعا سعيداً هذا ليعلمه فضل سورة الفاتحة وانها السبع المثاني ، وفي متن الحديث شيء من الاضطراب. على أنه لا يتعلق به بعده (ص) عمل .

وأحق من هذا بالبيان ان طاعته ﷺ واجبة في حياته وبعد مماته فيما علم

أنه دعا اليه دعوة عامة من أمر الدين الذي بعثه الله تعالى به كبيانه لصفة الصلوات وعددها والمناسك ولو بالفعل مع قوله « صلوا كما رأيتموني أصلي » وقوله « خذوا عني مناسككم » ومقادير الزكاة وغير ذلك من السنن العملية الدينية المتواترة وكذا أقواله المتواترة التي أمر بتبليغها فيما تدل عليه دلالة قطعية - وأما غير القطعي رواية ودلالة من سننه فهو محل الاجتهاد، فكل من ثبت عنده شيء منها ببحثه أو بحث العلماء الذين يثق بهم على انه من أمر الدين فينبغي له الاهتداء به فيما دل عليه من الاحكام الخمسة بحسبها - الوجوب والندب والحرمة والكراهة والاباحة - لان الامور العملية الاجتهادية يكتفى فيها بالظن الراجح في الدليل وفي دلالته، ولكن لا يملك أحد من المسلمين أن يجعل اجتهاده تشريعاً عاما يلزمه غيره أو ينكر عليه مخالفته أو مخالفة من قلده هو فيه، إلا الائمة أولي الامر فتجب طاعتهم في اجتهادهم في أحكام المعاملات القضائية والسياسية اذا حكموا بها لاقامة الشرع وصيانة النظام العام - وعلى هذا كله جرى السلف الصالح وجميع أئمة الامصار، ومن كلامهم ان المجتهد لا يقلد مجتهداً، وانه لا يجب على أحد أن يقلد أحداً معينا دينه، ولكن من عرض له أمر يستفتي فيه من يطمئن قلبه لعلمه بالكتاب والسنة ويأخذ بفتواه إذا اطمأن لها . وقد امتنع الامام مالك من إجابة المنصور ثم الرشيد إلى ما عرضاه عليه من الزام الناس العمل بكتبه حتى الموطأ الذي هو سنن واطأه جل علماء المدينة عليها

وأما من يقولون أن النبي ﷺ إنما كانت تجب طاعته في عهده ولا يجب العمل بعده إلا بالقرآن وحده فهم زنادقة ضالون مضلون يريدون هدم الاسلام بدعوى الاسلام، بل تجب طاعة الرسول كما أطلقها الله تعالى ويجب التأسي به في كل زمان إلى يوم القيامة. بل نقول اننا نهتدي بخلفائه الراشدين، وأئمة أهل بيته الطاهرين، وعلماء أصحابه العاملين، وعلماء السلف من التابعين وأئمة الامصار من أهل البيت والفقهاء والمحدثين، نهتدي بهم في آدابهم واجتهاداتهم القضائية والسياسية مع مراعاة القواعد الشرعية والمصالح العامة، ولا نسمي شيئا منها دينا ندين الله به الا

ما ثبت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على الوجه المتقدم ، وأما السنن والارشادات النبوية في أمور العادات كاللباس والطعام والشراب والنوم فلم يعدها أحد من السلف ولا علماء الخلف من أمور الدين فتسمية شيء منها ديناً بدعة منكرة لانه تشريع لم يأذن به تعالى. وقد فصلنا هذه المسألة من قبل في هذا التفسير وفي غيره من مقالات المنار

﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون ﴾ هذا تنبيه لامرين عظيمين أمرنا الله أن نعلمهما علما يقينا إذعانيا لما لهما من الشأن في مقام الوصية بالاستجابة لدعوة الحياة الانسانية العليا التي فيها سعادة الدنيا والآخرة ، (الاول) ان من سنة الله في البشر الحيلولة بين المرء وبين قلبه ، الذي هو مركز الوجدان والادراك ذي السلطان على ارادته وعمله ،وهذا أخوف ما يخافه المتقي على نفسه ، إذا غفل عنها وفرط في جنب ربه ، كما انه أرجى ما يرجوه المسرف عليها اذا لم ييأس من روح الله فيها ، فهذه الجملة أعجب جمل القرآن ولعلها أبلغها في التعبير ، وأجمعها لحقائق علم النفس البشرية ، وعلم الصفات الربانية ، وعلم التربية الدينية،التي تعرف دقائقها،ما تثمره من الخوف والرجاء،فبينا زيد يسير على سبيل الهدى، ويتقي بنيات طرق الضلالة الموصلة إلى مهاوي الردى ، اذا بقلبه قد تقلب بعصوف هوى جديد ، يميل به عن الصراط المستقيم ، من شبهة تزعزع الاعتقاد ، أو شهوة يغلب بها الغي على الرشاد ، فيطيع هواه ، ويتخذه إلهه من دون الله ، (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا؟)على انه فيه مختار، فلا جبر ولا اضطرار.

ويقابل هذا من الحيلولة ما حكي بعضهم عن نفسه ، انه كان منهمكا في شهواته ولهوه ، تاركا لهداه وطاعة ربه ، فنزل يوما في زورق مع خلان له في نهر دجلة للتنزه ومعهم النبيذ والمعازف ، فبيناهم يعزفون ويشربون ، اذ التقوا بزورق آخر فيه تال القرآن يرتل سورة(اذا الشمس كورت) فوقعت تلاوته من نفسه موقع التأثير والعظة،فاستمع له وأنصت ، حتى إذا بلغ قوله تعالى(وإذا الصحف نشرت) امتلأ قلبه خشية من الله ، وتدبراً لاطلاعه على صحيفة عمله يوم يلقاه ، فأخذ العود من المعازف

فكسره وألقاه في دجلة ، وثنى بنبذ قناني النبيذ وكؤوسه فيها ، وصار يردد الآية ، وعاد إلى منزله تائبا من كل معصية ، مجتهداً في كل ما يستطيع من طاعة

فتذكير الله تعالى إيانا بهذا الشأن من شؤون الانسان ، وهذه السنة القلبية من سنن الله تعالى في الارادات والاعمال ، وأمره ايانا بان نعلمها علم ايقان واذعان، يفيدنا فائدتين لا يكمل بدونهما الايمان ، وهما أن لا يأمن الطائع المشمر من مكر الله فيغتر بطاعته ويعجب بنفسه ، وأن لا ييأس العاصي والمقصر في الطاعة من روح الله ، فيسترسل في اتباع هواه ، حتى تحيط به خطاياه . ومن لم يأمن عقاب الله،ولم ييأس من رحمة الله،يكون جديراً بان يراقب قلبه،ويحاسب نفسه على خواطره ، ويعاقب نفسه على هفواته ، لتظل على صراط العدل المستقيم، متجنبة الافراط والتفريط ، ويتحرى أن يكون دائما بين خوف يحجزه عن المعاصي ورجاء يحمله على الطاعات، ويساعدنا على ذلك (الأمر الثاني) وهو تذكر حشرنا اليه عز وجل ومحاسبته إيانا على أعمالنا القلبية والبدنية ، ومجازاته إيانا عليها إما بالعذاب الاليم، وإما بالنعيم المقيم ، وهذا منه مقتضى الفضل، وذلك أثر العدل،

ومما يؤيد ما فهمناه في هذا المقام مقام حرمان الراسخين في الكفر من سماع الفقه والهدى، والحيلولة بين المرء وقلبه أن يعصي الهوى ، (٤٥:٢٣ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعدالله ؟ أفلا تذكرون) فهي صريحة في أن من هذا حاله ليس مجبوراً عليه وان الله لم يحرمه الهدى باعجازه عنه وهو يؤثره ويفضله ، أو باكراهه على اتباع الهوى وهو كاره له ، فانه أسند اليه اتخاذ هواه إلهه ، وقد قال تعالى لنبيه داود عليه السلام (٢٦:٣٨ ياداود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) الآية

فهذا نص في ان اتباع الهوى سبب للضلال عن سبيل الله ، فقوله في آية الجاثية (وأضله الله على علم) ليس معناه انه تعالى خلق فيه الضلال استقلالا كما يدعي بعض المتكلمين بل هو داخل في سنته تعالى في الاسباب والمسببات ويؤيده

اثبات كون ضلاله على علم وهو انه متعمد لاتباع الهوى ، مؤثراً له على الهدى، والله تعالى يسند الامور الى أسبابها تارة واليه تعالى تارة من حيث انه خالق كل شيء وواضع سنن الاسباب والمسببات . ومن الاسباب ما جعله من أفعال المخلوقات الاختيارية على علم ، وما جعله باسباب لا يعلم للخلق اختيار فيها ولا علم، وكل من القسمين يسند الى سببه تارة والى رب الاسباب تارة والجهة مختلفة معروفة، ويختار هذا أوذاك في البيان بحسب سياق الكلام كقوله تعالى في الحرث(أفرأيتم ماتحرثون* أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون؟) فهل يقول عاقل ان الفلاح لا فعل له ولا اختيار في زرعه ،وان الله يخلقه له بدون إرادته ولا فعله، أو ان فعله وتركه في أرضه سواء ،وتلقيحه لنخله وعدمه سيان ؟

وجملة القول ان من سننه تعالى في البشر ان من يتبع هواه في أعماله ويستمر على ذلك ويدمنه الزمن الطويل تضعف إرادته في هواه، حتى تذوب وتفنى فيه، فلا تعود تؤثر فيه المواعظ القولية ، ولا العبر المبصرة ولا المعقولة ، وهذه الحالة يعبر عنها بالختم والرين والطبع على القلب ، وبالصمم والعمى والبكم كما تقدم آنفا، وسبق مثله في تفسير سورة البقرة وغيرها ،

وأمثال هذه الامثال المضروبة لهذه الحالة قد ضل بها الجبرية غافلين عن كونها عاقبة طبيعية لادمان تلك الاعمال الاختيارية، كالخمار الذي يعتري مدمن الخمر،فيشعر بفتور وألم عصبي لا يسكن إلا بالعودة الى الشرب ، على ان هذه الآية علمتنا عدم اليأس

ومن تفسير القرآن بالقرآن في تقليب القلوب والحيلولة بينها وبين إرادة الانسان المتصرفة في قدرته ومشاعره قوله تعالى من سورة الانعام (٦ : ١٠٩ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة . ونذرهم في طغيانهم يعمهون) فيراجع معناها في آخر تفسير الجزء السابع ، وقال الراغب : تقليب الله القلوب صرفها من رأي الى رأي . وذكر آية الانعام هذه

ومن تفسير الآية المأثور في السنة مارواه ابن مردويه في تفسيرها عن ابن عباس مرفوعا« يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الهدى» وسنده ضعيف

كما قال الحافظ في الفتح وله ولغيره آثار في هذا المعنى . وروى البخاري وأصحاب السنن إلا أبا داود من حديث عبد الله بن عمر قال كانت يمين النبي (ص) « لا ومقلب القلوب » وفي رواية له عنه : أكبر ما كان النبي ﷺ يحلف « لا ومقلب القلوب » وفي معناه أحاديث أخرى عند ابن ماجه وغيره وللمفسرين وشراح الاحاديث أغلاط لفظية ومعنوية في تفسير لفظ القلب وفي تقليب الله تعالى له. وقد تقدم تفسيره اللفظي من قبل ، ومعنى تقليبه آنفا ، وقولهم ان الله خالق القلوب ومقلبها حق وكذا أفعال العباد كلها ، وليس بحق ماعبر به بعضهم عن ذلك بأن الله تعالى يمنع الكافر بمحض قدرته عن الايمان وغيره من أفعال الخير مباشرة ، ويخلق في قلبه ولسانه الكفر اعتقاداً ونطقا خلقا أُنُفًا لا فعل له فيه ، فالجمع بين الآيات التي أوردناها وما في معناها يبطله ويثبت الاسباب الاختيارية ، والقائلون بما ذكر يثبتون قول القدرية ويحتجون به على قول الجبرية، فهم يؤيدون الفاسد بالفاسد ولا يشعرون، ويمدهم إخوانهم الصوفية في الغي ثم لا يقصرون .

بعد هذه الأوامر والنواهي الخاصة باعمال الناس الاختيارية الشخصية ، وما يخشى أن تؤدي إليه مما يحرمهم من الهداية الخصوصية، بانتهاء الاختياري منها الى مايكاد يخرج عن الاختيار ، باضعاف الارادة واستعبادها للاهواء ، — أمرهم باتقاء نوع من أنواع الفتن الاجتماعية التي تكون تبعة عقوبتها مشتركة بين المصطلي بناره فعلا ، وبين المؤاخذ به لتقصيره في درئه ، وإقراره على فعله ، فقال ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ أي واتقوا وقوع الفتن القومية والملية العامة التي من شأنها أن تقع بين الأمم في التنازع على مصالحها العامة من الملك والسيادة أو التفرق في الدين والشريعة، والانقسام الى الاحزاب الدينية كالمذاهب، والسياسية كالحكم، فان العقاب على ذنوب الامم أثر لازم لها في الدنيا قبل الآخرة كما تقدم مراراً، ولهذا عبر هنا بالفتنة، دون الذنب والمعصية ، والفتنة البلاء والاختبار كما تقدم بيانه مرارا .

روى أحمد والبزار وابن المنذر وابن مردويه عن مطرف قال قلنا للزبير ياأبا عبد الله ضيعتم الخليفة حتى قتل ثم جئتم تطلبون بدمه ؟ فقال إنا قرأنا

على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) ولم نكن نحسب انا أهلها حتى وقعت فينا حيث وقعت . وروى عنه جمهور مخرجي التفسير المأثور : لقد قرأناها زمانا وما نرى انا من أهلها فاذا نحن المعنيون بها . وأخرج ابن جرير من طريق الحسن عنه قال لقد خوفنا بهذه الآية ونحن مع رسول الله ﷺ وما ظننا انا خصصنا بها . قال الحافظ في الفتح وأخرجه النسائي من هذا الوجه نحوه ، وله طرق أخرى عن الزبير عند الطبري وغيره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر في الآية قال : نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير ـ وعبد بن حميد عنه قال : أما والله لقد علم أقوام حين نزلت أن يستخص بها قوم . وهو وأبو الشيخ عن قتادة قال : علم والله ذوو الالباب من أصحاب محمد ﷺ حين نزلت هذه الآية أن سيكون فتن . وابن جرير وأبو الشيخ عن السدي في الآية قال : نزلت في أهل بدر خاصة، فاصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا فكان من المقتولين طلحة والزبير وهما من أهل بدر. وآخرون عنه قال : أخبرت انهم أهل الجمل . وابن أبي حاتم عن الضحاك قال : تصيب الظالم والصالح عامة . وأبو الشيخ عن مجاهد قال : هي (يحول بين المرء وقلبه) حتى يتركه لا يعقل . وروى جمهورهم عن ابن عباس قال : أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب

قال الحافظ ولهذا الاثر شاهد من حديث عدي بن عميرة سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه ، فاذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة » أخرجه أحمد بسند حسن وهو عند أبي داود من حديث العرس بن عميرة وهو أخو عدي وله شواهد من حديث حذيفة وجرير وغيرهما عند أحمد وغيره

وهذه الروايات متفقة صحيحة المعاني الا قول من قال بالتخصيص فهي عامة إلى يوم القيامة لانها بيان لسنة من سنن الله تعالى في الامم والملل كما بينا . وأما فتنة عثمان فكانت أول هذه الفتن التي اختلفت فيها الآراء فاختلفت الاعمال من أهل الحل والعقد فخلا الجو للمفسدين من السبأيين وأعوانهم من زنادقة اليهود

والمجوس وغيرهم ، وأعقبت فتنة الجمل وصفين ، ثم فتنة ابن الزبير مع بني أمية ثم قتلهم الحسين عليه السلام الخ . ولو تداركوها كما تدارك أبوبكر (رض) عنه الردة لما كانت فتنة تبعتها فتن كثيرة لايزال المسلمون مصابين بها ومعذبين بعذابها وأكبرها فتن الخلافة والملك وفتن افتراق المذاهب

﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ لمن خالف سننه في الامم والافراد التي لاتبديل لها ولا تحويل ، ولمن خالف هداية دينه المزكية للانفس وقطعيات شرعه المبنية على درء المفاسد والمضار وحفظ المصالح والمنافع . وهذا العقاب منه مايقع في الدنيا والآخرة ومنه مايقع في احداهما فقط ، سواء كان للأفراد أو للأمم ، وعقاب الامم المذكور في هذه الآية مطرد في الدنيا ، وأول من أصابه من أمتنا الاسلامية أهل القرن الاول الذي كانوا خيرها بل خير الأمم كلها ولكنهم لما قصروا في درء الفتنة الاولى عاقبهم الله عليها عقابا شديداً كما تقدم آنفاً ، وهكذا تسلسل العقاب في كل جيل وقع فيه ذلك ، ثم امتزجت الفتن المذهبية بالفتن السياسية الخاصة بالخلافة والسلطان ، ولهذا كانت فتنة الخلاف بين أهل السنة والشيعة أشد مصائب هذه الامة وأدومها ، فزالت الخلافة التي تنازعوا عليها ، وتنافسوا فيها ، وتقاتلوا لأجلها ، ولم تزل هي تزداد قوة وشبابا ، وقد شرحنا هذا الموضوع في مواضع من مجلة المنار

﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الارض﴾ قيل ان الخطاب للمهاجرين يذكرهم بما كان من ضعفهم وقلتهم بمكة — وقيل إنه للمؤمنين كافة في عهد نزول السورة يذكرهم بما كان من ضعف أمتهم العربية في جزيرتهم بين الدول القوية من الروم والفرس ، ولا مانع فيه من ارادة هذا وذاك معاً. فقوله تعالى ﴿ تخافون أن يتخطفكم الناس ﴾ أي تخافون من أول الاسلام إلى وقت الهجرة أن يتخطفكم مشركو قومكم من قريش وغيرها من العرب ، أي أن ينتزعوكم بسرعة فيفتكوا بكم — كما كان يتخطف بعضهم بعضاً خارج الحرم وتتخطفهم الامم من أطراف جزيرتهم. قال تعالى في أهل الحرم (أولم يروا انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس

من حولهم؟) ﴿ فآواكم ﴾ يامعشر المهاجرين إلى الانصار ﴿ وأيدكم ﴾ وإياهم ﴿ بنصره ﴾ في هذه الغزوة، وسيؤيدكم على الروم وفارس وغيرهم كما وعدكم في كتابه بالاجمال وبينه لكم الرسول ﷺ بالتصريح ﴿ ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ هذه الثلاث وغيرها من نعمه، فيزيدكم من فضله كما وعدكم بقوله (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)

وقد جاء في الدر المنثور من تفسير هذه الآية بالمأثور باختصار قليل ما نصه:

أخرج ابن المنذر وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله (واذكروا إذ أنتم قليل) الآية ، قال كان هذا الحي أذل الناس ذلا وأشقاه عيشاً وأجوعه بطونا ، وأعراه جلوداً وأبينه ضلالة، معكوفين على رأس حجر بين فارس والروم لا والله مافي بلادهم مايحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقياً ومن مات منهم ردي في النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، لا والله مانعلم قبيلا من حاضر الارض يومئذ كان أشر منزلا منهم ، حتى جاء الله بالاسلام فمكن به في البلاد ووسع به في الرزق ، وجعلكم به ملوكا على رقاب الناس ، وبالاسلام أعطى الله مارأيتم فاشكروا لله نعمه فان ربكم منعم يحب الشكر وأهل الشكر في مزيد من الله عز وجل

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله (يتخطفكم الناس) : في الجاهلية بمكة (فآواكم) الى الاسلام، وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والديلمي في مسند الفردوس عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ في قوله (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الارض تخافون أن يتخطفكم الناس) قيل يارسول الله: ومن الناس؟ قال« أهل فارس» وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (فآواكم) قال الى الانصار بالمدينة (وأيدكم بنصره) قال يوم بدر اه

ومن العبرة في الآيات انها حجج تاريخية اجتماعية على كون الاسلام إصلاحا أورث ويورث من اهتدى به سعادة الدنيا والسيادة والسلطان فيها قبل الآخرة، ولكن أعداءه الجاحدين لهذا على علم قد شوهوا تاريخه ، وصدوا الناس عنه بالباطل ـ وان أهله قد هجروا كتابه وتركوا هدايته وجهلوا تاريخه ، ثم صاروا

يقلدون أولئك الاعداء في الحكم عليه حتى زعموا انه هو سبب جهلهم وضعفهم وزوال ملكهم الذي كان عقوبة من الله تعالى لخلفهم الطالح على تركه ، بعد تلك العقوبة لسلفهم الصالح على الفتنة بالتنازع على ملكه . فالى متى الى متى أيها المسلمون ؟ إنا لله وإنا اليه راجعون

(٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

قد بينا وجه التناسب بين هذه النداءات الالهية للمؤمنين وما قبلها وما بعدها الى آخر هذا الجزء . وورد في سبب نزول هذا النداء بالنهي عن الخيانتين هنا من حديث جابر ان أبا سفيان خرج من مكة — وكان لايخرج إلا في عداوة الرسول (ص) والمؤمنين — فأعلم الله رسوله بمكانه ، فكتب رجل من المنافقين الى أبي سفيان: إن محمداً يريدكم فخذوا حذركم. فأنزل الله (لاتخونوا الله والرسول) الآية . والمراد ان فيها تعريضاً بفعلة المنافق الذى يدعي الايمان بأن عمله خيانة تنافيه . والخيانة للنـاس وحدها من أركان النفاق كما ثبت في الحديث الصحيح ـ وسيأتي ـ فكيف بمثل هذه الخيانة لله والرسول والمؤمنين ؟

وفي عدة روايات عن عبدالله بن قتادة والزهري والكلبي والسدي وعكرمة أنها نزلت في أبي لبابة (رض) فانه كان حليفا لبني قريظة من اليهود فلما خرج اليهم النبي (ص) بعد إجلاء إخوانهم من بني النضير أرادوا بعد طول الحصار أن ينزلوا من حصنهم على حكم سعد بن معاذ — وكان من حلفائهم من قبل غدرهم ونقضهم لعهد النبي (ص) فأشار اليهم أبو لبابة بأن لايفعلوا وأشار الى حلقه يعني ان سعداً يحكم بذبحهم ، فنزلت الآية . قال أبو لبابة مازالت قدماي حتى علمت اني خنت الله ورسوله ـ وفي رواية عبد بن حميد عن الكلبي ان

رسول الله (ص) بعث أبا لبابة الى قريظة وكان حليفا لهم ، بل روي انه كان وضع ماله وولده عندهم ، فأومأ بيده الى الذبح فأنزل الله الآية (وذكرها ثم قال) فقال رسول الله (ص) لامرأة أبي لبابة « أيصوم ويصلي ويغتسل من الجنابة؟» فقالت انه ليصوم ويصلي ويغتسل من الجنابة ويحب الله ورسوله. والمراد ان النبي (ص) شك في ايمانه حتى انه سأل امرأته هل يقوم في بيته بواجبات الاسلام ؟ فأجابته بصيغة التأكيد التي يجاب بها من أظهر شكه ، وفيه عبرة لمنافقي هذا الزمان الذين يخلصون الخدمة ويسدون النصيحة الى أعداء ملتهم وأوطانهم فيما يمكن لهم السلطان في بلادهم والسيادة على أمتهم

ولينظر المعتبر كيف عاقب أبو لبابة نفسه توبة الى الله تعالى : شد نفسه على سارية من المسجد وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علي - فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشياً عليه ثم تاب الله عليه فقيل له قد تيب عليك فقال والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله (ص) هو الذي يحلني ، فجاءه فحله بيده . وغزوة بني قريظة كانت بعد غزوة بدر التي نزلت فيها سورة الانفال بسنين فيحتمل أن يكون المراد بنزول الآية في أبي لبابة أنها تتناول فعلته - وهذا التعبير يكثر مثله عنهم فيما يسمونه أسباب النزول كما قاله شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره . ومن ذلك قول المغيرة بن شعبة : نزلت هذه الآية في قتل عثمان (رض) . ويحتمل أن تكون الآية نزلت بعد نزول السورة فألحقت بها بأمر الله لرسوله (ص)

ومهما يكن سبب النزول فالآية عامة تشمل كل خيانة ولذلك فسر ابن عباس خيانة الله بترك فرائضه وارتكاب معصيته ، والأمانة بكل ما ائتمن الله عليه العباد بأن لا ينقصها رواه عنه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم .

والخيانة في أصل اللغة تدل على معنى الاخلاف والخيبة بنقض ما كان يرجى ويؤمل من الخائن أو نقص شيء منه ينافي حصوله وتحققه. ومنه: خانه سيفه، اذا نبا عن الضريبة: وخانته رجلاه اذا لم يقدر على المشي ، وخان الرشاء الدلو اذا انقطع . ومن معنى النقص أو الانتقاص في المادة قوله تعالى (علم الله أنكم كنتم تختانون

أنفسكم) أي تنقصونها بعض ما أحل لها من اللذات ، ومثله التخوّن ويفترقان في معنى الصيغة قال الزمخشري في الاساس: وتخوّن فلان حقي اذا تنقصه كأنه خانه شيئا فشيئا ، وكل ما غيَّرك عن حالك فقد تخونك ، قال لبيد * تخوّنها نزولي وارتحالي * اه وقال في تفسير الآية من الكشاف وتبعه غيره : معنى الخون النقص كما أن معنى الوفاء التمام ومنه تخونه اذا تنقصه ، ثم استعمل في ضد الامانة والوفاء ، لانك اذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه اه وما قلناه أولا أعم من هذا وأشمل لما ورد من الاستعمال في كلام الله وكلام العرب. وقال الراغب الخيانة والنفاق واحد إلا ان الخيانة تقال اعتباراً بالعهد والامانة ، والنفاق يقال اعتباراً بالدين ، ثم يتداخلان الخ ماقاله وهو يدخل في عموم ماقلناه ولا يصح كونه حداً تاما

والمعنى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله ﴾ تعالى بتعطيل فرائضه أو تعدي حدوده وانتهاك محارمه التي بينها لكم في كتابه ﴿ والرسول ﴾ بالرغبة عن بيانه لكتاب الله تعالى الى أهوائكم ، أو آراء مشايخكم أو آبائكم ، أو المخالفة عن أمره الى أوامر أمرائكم وترك سنته الى سنة أوليائكم ، بناء على زعمكم انهم أعلم بمراد الله ورسوله منكم ﴿ وتخونوا أماناتكم ﴾ أي ولا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وبين أولياء أموركم من الشئون السياسية ولا سيما الحربيـة وفيما بينكم بعضكم مع بعض من المعاملات المالية وغيرها حتى الاجتماعية والادبية فقد ورد في الحديث « المجالس بالامانة » رواه الخطيب من حديث علي وحسنوه وأبو داود عن جابر بزيادة « إلا ثلاثة مجالس : سفك دم حرام أو فرج حرام أو اقتطاع مال بغير حق » وهو حسن أيضاً ، وروى أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه والضياء من حديث جابر أيضاً « اذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة » ورواه أبو يعلى عن أنس ، وأشار في الجامع الصغير الى صحته. فافشاء السر خيانة محرمة ويكفي في العلم بكونه سراً القرينة القولية كقول محدثك : هل يسمعنا أحد ؟ أو الفعلية كالالتفات لرؤية من عساه يجيء . وآكد أمانات السر وأحقها بالحفظ مايكون بين الزوجين

الخيانة من صفات المنافقين ، والامانة من صفات المؤمنين ، وقال أنس بن مالك : قلما خطبنا رسول الله (ص) إلا قال « لا إيمان لمن لا عهد له ، ولا دين

لمن لا عهد له » رواه أحمد وابن حبان في صحيحه . وروى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة ان النبي (ص) قال « آية المنافق ثلاث: اذا حدث كذب، واذا وعد أخلف ، واذا ائتمن خان » زاد مسلم « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » وقد ورد في الاحاديث إطلاق الامانة على الطاعة والعبادة والوديعة والثقة والامان، وليس المراد بهـذا الحصر ، بل كل ما يجب حفظه فهو أمانة ، وكل حق مادي أو معنوي يجب عليك أداؤه الى أهله فهو أمانة . قال الله تعـالى في سورة البقرة (٢:٢٨٣ فان أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته، وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا) وقال في سورة النسـاء (٤ : ٧٥ إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها)

وقد أوردنا في تفسير آية النسـاء هذه مباحث نفيسة في الامانات والعدل منها (المسألة الثالثة) في أنواع الامانة (والمسألة السادسة) في حكمة تأكيـد الأمر بالامانة . وأوردنا في هذه ماقاله حكيم الشرق السيد جمال الدين الافغاني في بيان كون الامانة من الصفات الدينية التي قام عليها بناء المدنيـة وبها حفظ العمران ولاصلاح لحال أمة ولا بقاء لدولة بدونها لان عليها مدار الثقة في جميع المعاملات[1] وناهيكم بما عظم الله من أمر الامانة في قوله (٣٣ : ٧١ إنا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا)

وأما قوله ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ فمعناه والحال أنكم تعلمون مفاسد الخيانة وتحريم الله تعالى إياها وسوء عاقبة تلك المفاسد في الدنيا والآخرة ، أو تعلمون ان مافعلتموه خيانة لظهوره ، وأما ماخفي عنكم حكمه فالجهل له عذر إذا لم يكن مما علم من الدين بالضرورة أو مما يعلم ببداهة العقل ، أو استفتاء القلب ، كفعلة أبي لبابة التي كانت هفوة سببها الحرص على المال والولد ، ولذلك فطن لها قبل أن يبرح موقفه (رض) ولما كان حب الاموال والاولاد مزلة في الخيانة أعلمنا به عقب النهي عنها فقال

﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ الفتنة هي الاختبار والامتحان بما يشق على النفس فعله أو تركه أو قبوله أو إنكاره، فتكون في الاعتقاد والاقوال والافعال والاشياء. يمتحن الله المؤمنين والكافرين، والصادقين والمنافقين، ويحاسبهم

«١» فيراجع ذلك كله في ص ١٧٣—١٧٩ من ج٥ تفسير

ويجزيهم بما يترتب على فتنتهم من اتباع الحق أو الباطل ، وعمل الخير أو الشر؛ وقد تقدم الكلام في الفتنة مراراً من وجوه . وفتنة الاموال والاولاد عظيمة لا تخفى على ذي فهم إلا ان الافهام تتفاوت في وجوهها وطرقها ، فأموال الانسان عليها مدار معيشته وتحصيل رغائبه وشهواته ودفع كثير من المكاره عنه ، فهو يتكلف في كسبها المشاق ويركب الصعاب ، ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام ، ويرغبه في القصد والاعتدال ، ثم انه يتكلف العناء في حفظها ، وتتنازعه الاهواء المتناوحة في انفاقها ، فالشرع يفرض عليه فيها حقوقا مقدرة وغير مقدرة ، ومعينة وغير معينة ، ومحصورة وغير محصورة ، كالزكاة ونفقات الازواج والاولاد وغيرهم ، وكفارات بعض الذنوب المعينة من عتق وصدقة ونسك وغير ذلك . ويندب له نفقات أخرى للمصالح العامة والخاصة تكفر الذنوب غير المعينة ، ويترتب عليه شيء عظيم من الأجر والثواب . والضابط لجميع أنواع البذل من صفات النفس السماحة والسخاء من أركان الفضائل ، ولجميع أنواع الامساك البخل وهو من أمهات الرذائل ، ولكل منهما درجات ودركات .

وأما الاولاد فهم كما يقول الادباء : ثمرة الفؤاد وأفلاذ الاكباد ، وحبهم كما قال الاستاذ الامام : ضرب من الجنون يلقيه الفاطر الحكيم في قلوب الامهات والآباء ، يحملها على بذل كل مايستطاع بذله في سبيلها من مال وصحة وراحة وغير ذلك ، بل روى أبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعا إلى سيد الحكماء وخاتم الانبياء ﷺ « الولد ثمرة القلب وإنه مجبنة مبخلة محزنة » فان كان سنده ضعيفاً كما قالوا فمتنه صحيح ، فحب الولد قد يحمل الوالدين على اقتراف الآثام في سبيل تربيتهم والانفاق عليهم وتأثيل الثروة لهم : يحملهما ذلك على الجبن عند الحاجة إلى الدفاع عن الحق أو الحقيقة ، أو الملة والامة ، وعلى البخل بالزكاة والنفقات المفروضة ، والحقوق الثابتة ، دع صدقات التطوع والضيافة ، كما يحملهما الحزن على من يموت منهم على السخط على الرب تعالى والاعتراض عليه وغير ذلك من المعاصي كنوح الامهات وتمزيق ثيابهن ولطم وجوههن ، ففتنة الاولاد لها جهات كثيرة فهي أكبر من فتنة الاموال وأكثر تكاليف مالية ونفسية وبدنية ، فالرجل يكسب الحرام

ويأكل أموال الناس بالباطل لأجل أولاده كما يفعل ذلك لكبائر شهواته ، فاذا قلت شهواته في الكبر فصار يكفيه القليل من المال يقوى في نفسه الحرص على شهوات أولاده ، وما يكفي الواحد لا يكفي الا حاد ، وفتنة الاموال قد تكون جزءاً من فتنة الاولاد ، فتقديمها وتأخير فتنة الاولاد من باب الانتقال من الادنى إلى الاعلى

فالواجب على المؤمن اتقاء خطر الفتنة الاولى بكسب المال من الحلال ، وانفاقه في سبيل الله من البر والاحسان ، واتقاء الحرام من الكسب والانفاق ، واتقاء خطر الفتنة الثانية من جهة ما يتعلق منها بالمال وغيره مما يشير اليه الحديث ، وبما أوجب الله على الوالدين من حسن تربية الاولاد على الدين والفضائل ، وتجنيبهم أسباب المعاصي والرذائل ، قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً)

وقد عطف على هذا التحذير قوله ﴿ وإن الله عنده أجر عظيم ﴾ لتذكير المؤمنين بما يعينهم على ما يجب عليهم من اتقاء الفتنتين وهو إيثار ما عند الله عز وجل من الاجر العظيم لمن راعى أحكام دينه وشرعه في الاموال والاولاد ووقف عند حدوده وتفضيله على كل ما عساه يفوته في الدنيا من التمتع بهما ، لعلهم يتقون مثل هفوة أبي لبابة حين حذر أعداء الله ورسوله من فتح حصنهم والنزول على حكم سعد بن معاذ ، لما كان له من الاعتماد عليهم في حفظ ماله وولده ، على أن للمؤمن الصادق حسن قدوة بأبي لبابة في توبته النصوح ، اذا ألم به ضعف فوقع في مثل هفوته أو مادونها من خيانة ، وأين مثل أبي لبابة رضي الله عنه في ذلك ؟ ونحن نرى كثيراً ممن يدعون الايمان يخونون الله ورسوله في انتهاك حرمات دينهم ، ويخونون أمتهم ودولتهم بثمن قليل أو كثير من المال يرجونه أو ينالونه من عدوهم ، ـ وقد يكون من مال أمتهم وغنائم وطنهم ـ أو خوفا على مالهم وولدهم من سلطانه قبل أن يستقر له السلطان ، وقد أسقطت الخيانة دولة كانت أعظم دول الارض قوة وبأسا بارتكاب رجالها الرشوة من أهلها ومن الاجانب حتى مسخت فصارت دويلة صغيرة فقيرة ، ولكن الخلف المغرور لذلك السلف المخرب يدعون انما أسقطها تعاليم الاسلام القويمة ، لأنها صارت قديمة ، ولو أنهم أقاموا واجبا واحدا أو أدبا واحداً من آداب القرآن ، لكان كافيا لوقايتها من الزوال .

(٢٩) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ

هذه الآية آخر وصايا المؤمنين في هذا السياق وهي أعمها ، والاصل الجامع لها ولغيرها ، وكلمة الفرقان فيها كلمة جامعة ككلمة التقوى في مجيئها هنا مطلقة ، فالتقوى هي الشجرة ، والفرقان هو الثمرة ، وهو صيغة مبالغة من مادة الفرق ومعناها في أصل اللغة الفصل بين الشيئين أو الاشياء. والمراد بالفرقان هنا العلم الصحيح والحكم الحق فيها، ولذلك فسروه بالنور، وذلك أن الفصل والتفريق بين الاشياء والامور في العلم هو الوسيلة للخروج من حيز الاجمال إلى حيز التفصيل، وأما العلم الصحيح هو العلم التفصيلي الذي يميز بين الاجناس والانواع والاصناف والاشخاص ، وإن شئت قلت بين الكليات والجزئيات ، والبسائط والمركبات ، والنسب بين أجزاء المركبات، من الحسيات والمعنويات، ويبين كل شيء من ذلك ويعطيه حقه الذي يكون به ممتازاً من غيره . وإيراد الامثلة على ذلك يطول فيشغل عن القدر المحتاج اليه في تفسير لفظ الفرقان إلا أن نترك عوالم المادة وقواها ونأتي بمثال من اللغة لان لفظ الفرقان من مفرداتها فنقول إن العامي يعلم من اللغة أمراً إجمالياً وهو أنها الفاظ يعبر بها الانسان عما يحتاج إلى بيانه من علمه، ومن العلم التفصيلي فيها ماهو مبين في علم النحو والصرف وفي علوم المعاني والبيان والبديع والوضع والاشتقاق وأصول الفقه — كالعام والخاص والمطلق والمقيد من الاخير مثلا — وأنت ترى انك بهذا البيان الوجيز لمعنى الفرقان قد اتضح لك من دلالته على العلم الصحيح والحكم الرجيح ما كان خفياً، وفصل منها ماكان مجملا ولذلك نعده من تفسير اللفظ لا استطراداً أجنبيا ، ولاسيلا أتيا ، كأكثر الذي يأتيه أكثر المفسرين من مباحث النحو وفنون البلاغة وغيرها.

وكما يكون الفرقان في مسائل العلوم وموادها من طبيعية وعقلية ولغوية، وفي الموجودات التي استنبطت العلوم منها يكون في الاحكام والشرائع والاديان ، وفي الحكم بين الناس في المظالم والحقوق وفي الحروب ، وقد أطلق الفرقان على

أشهر الكتب الالهية وهي التوراة والانجيل والقرآن وغلب على القرآن (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) لان كلام الله تعالى يفرق في العلم والاعتقاد بين الايمان والكفر والحق والباطل ، وفي الاحكام بين العدل والجور ، وفي الاعمال بين الصحيح والفاسد والخير والشر . وأطلق هذا اللفظ على يوم بدر كما سيأتي في هذه السورة مع بيان وجهه ومتعلق فصله وتفرقته

فقوله تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾ معناه إن تتقوا الله في كل ما يجب أن يتقى بمقتضى دينه وشرعه ، وبمقتضى سننه في نظام خلقه ، يجعل لكم بمقتضى هذه التقوى ملكة من العلم والحكمة تفرقون بها بين الحق والباطل ، وتفصلون بين الضار والنافع ، وتميزون بين النور والظلمة ، وتزيلون بين الحجة والشبهة . وقد روي عن بعض مفسري السلف تفسير الفرقان هنا بنور البصيرة الذي يفرق بين الحق والباطل وهو عين مافصلناه من الفرقان العلمي الحكمي ، وعن بعضهم بالنصر يفرق بين المحق والمبطل ، بما يعز المؤمن ويذل الكافر ، وبالنجاة من الشدائد في الدنيا ومن العذاب في الآخرة . وهذا من الفرقان العملي الذي هو ثمرة العلمي ذكر كل مارآه مناسباً لحال وقته أو حال من لقنه ذلك ، ولم يقصد تحديد المدلول اللغوي ، ولا المعنى الكلي الذي هو ثمرة التقوى بأنواعها ، وهذا النور في العلم الذي لايصل اليه طالبه الا بالتقوى هو الحكمة التي قال الله فيها (يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر الا أولو الالباب) فهو كعهد الله في إمامة الناس بالحق لاينال الظالمين لأنفسهم بالتقليد لغيرهم لاحتقارها في جنب اطرائهم لمقلديهم ، بل هم لايطلبونه ولا يقصدون الوصول اليه لانهم صدقوا بعض الجاهلين في ادعائهم اقفال بابه ، وكثافة حجابه ، بل أصحابه هم الائمة المجتهدون في الشرع والدين والواضعون للعلوم التي تنفع الناس ، وكان لشيخنا الاستاذ الامام حظ عظيم منه

أمر الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه باتقائه وباتقاء النار وباتقاء الشرك والمعاصي وباتقاء الفتن العامة في الدول والامم وتقدم في وصايا هذا السياق – وباتقاء الفشل والخذلان في الحرب وباتقاء ظلم النساء ، وبين ان العاقبة في إرث الارض

للمتقين ، كما أن الجنة في الآخرة للمتقين ، وقال (٦٥ : ٢ ، ٤ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب * ومن يتق الله فهو حسبه * ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً) وأمثال ذلك في التقوى العامة والخاصة وأجرها وعاقبتها كثير ، فمعنى التقوى العام اتقاء كل ما يضر الانسان في نفسه وفي جنسه الانساني القريب والبعيد وما يحول بينه وبين المقاصد الشريفة والغايات الحسنة والكمال الممكن ولذلك قال العلماء انها عبارة عن ترك جميع الذنوب والمعاصي وفعل ما يستطاع من الطاعات . وزدنا على ذلك اتقاء الاسباب الدنيوية المانعة من الكمال وسعادة الدارين بحسب سنن الله تعالى في الكون كالنصر على الاعداء ، وجعل كلمة الله هي العليا في الارض ، كما هي في الواقع ونفس الامر ، وكلمة الذين كفروا السفلى كذلك . وكمال ذلك يتوقف على العلم الواسع بالكتاب والسنة - وكمال هذا يتوقف على معرفة سنن الله تعالى في الانسان مجتمعاً ومنفرداً كما أرشد اليه في آيات من كتابه ، ومن ثم كانت ثمرة التقوى العامة الكاملة هنا حصول ملكة الفرقان التي يفرق صاحبها بنوره بين الاشياء التي تعرض له من علم وحكم وعمل فيفصل فيها بين ما يجب قبوله وما يجب رفضه ، وبين ما ينبغي فعله وما يجب تركه ، وتنكير الفرقان للتنويع التابع لانواع التقوى كالفتن في السياسة والرياسة والحلال والحرام والعدل والظلم ، فكل متق لله في شيء يؤته فرقانا فيه وبذلك كان الخلفاء والحكام من أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم من خلفاء العرب أعدل حكام الامم في الارض حتى في عهد الفتح ، قال بعض حكماء الافرنج : ماعرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب ، ولكنهم لم يتقوا فتن السياسة والرياسة لقلة اختبارهم فعوقبوا عليها بتفرقهم فضعفهم فزوال ملكهم وكان من بعدهم من أعاجم المسلمين دونهم لجهلهم بكل نوع من أنواع التقوى الواجبة ، وحرمانهم من فرقانها يزعمون أنهم يجددون مجدهم مع جهل هذا الفرقان المبين ، وعدم الاعتصام بالتقوى المزكية للنفس ، المؤهلة لها للاصلاح في الارض ، بل مع انغماسهم في السكر والفواحش لظنهم ان الافرنج قد ترقوا في دنياهم بفساقهم وفجارهم ، وانما ترقوا بحكمائهم وأبرارهم ، الذين

وقفوا حياتهم على العلم والعمل النافع ﴿ ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ﴾

هذا عطف على(يجعل لكم فرقانا)أي ويمحو بسبب هذا الفرقان وتأثيره ماكان من تدنيس سيئاتكم لأنفسكم فنزول منهاداعيةالعود اليها المؤدي إلى الاصرار المهلك ويغفرها لكم بسترها وترك العقاب عليها ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ ومن أعظم فضله أن جعل هذا الجزاء العظيم بقسميه السلبي والايجابي جزاء للتقوى وأثراً لها

(٣٠) وَإِذ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ (٣١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَـٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ

هاتان الآيتان ومابعدهما تذكير للنبي ﷺ بما كان من حاله وحال قومه معه في مكة كما سبقت الاشارة إلى ذلك وقد حسن هذا التذكير بذلك في أول العهد بنصره تعالى له على أولئك الجاحدين المعاندين، الفاتنين المفتونين ، الصادين عن سبيل الله تعالى وعن اتباع رسوله بالقوة القاهرة

قال عز وجل ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ﴾ أي واذكر أيها الرسول في نفسك ، ماتقصه في الكتاب على المؤمنين والكافرين في عهدك ومن بعدك ، لانه حجة لك على صدق دعوتك ،ووعد ربك بنصرك - اذكر ذلك الزمن القريب الذي يمكر بك فيه الذين كفروا من قومك في وطنك، بما يدبرون فيما بينهم بالسر من وسائل الايقاع بك ﴿ ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾ فأما الاثبات فالمراد به الشد بالوثاق والارهاق بالقيد والحبس المانع من لقاء الناس ودعوتهم إلى الاسلام وأما القتل فالمكر فيه طريقته وصفته المكنة التي لايكون ضررها فيهم عظيما وهو ماتبينه الرواية الآتية عنهم ، وأما الاخراج فهو النفي من الوطن ، وقد روى كبار مصنفي التفسير المأثور أن أبا طالب قال للنبي ﷺ : ما يأتمر به قومك ؟ قال

« يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني » قال من حدثك بهذا ؟ قال « ربي » قال نعم الرب ربك فاستوص به خيراً قال « أنا استوصي به ؟ بل هو يستوصي بي » فنزلت (وإذ يمكر بك الذين كفروا) ولهذا قال ابن جريج ان الآية مكية وهو قول ضعيف كما تقدم في الكلام على نزول السورة في أول تفسيرها والصحيح ان التشاور في الامور الثلاثة بدار الندوة كان عقب موت أبي طالب وخديجة رضي الله عنها وكان الخروج للهجرة في الليلة التي أجمعوا فيها أمرهم على قتله ﷺ كما يأتي بيانه ، ويجوز أن يكونوا قد تحدثوا به قبل اجماعه وارادة الشروع فيه الذي وقع بعد موت أبي طالب فبلغه فسأل النبي ﷺ عنه

وأما قوله تعالى ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ فهو بيان لحالتهم العامة الدائمة في معاملته ﷺ هو ومن اتبعه من المؤمنين بعد التذكير بشرّ ما كان منها في مكة ولذلك لم يقل « ويمكرون بك » أي وهكذا دأبهم معك ومع من اتبعك من المؤمنين يمكرون بكم ويمكر الله لكم بهم كما فعل من قبل إذ أحبط مكرهم ، وأخرج رسوله من بينهم ، الى حيث مهد له في دار الهجرة ، ووطن السلطان والقوة ، والله خير الماكرين لان مكره نصر للحق واعزاز لأهله ، وخذل للباطل واذلال لأهله ، واقامة للسنن ، واتمام للحكم ، وقد بينا حقيقة المكر في اللغة في تفسير قوله تعالى (٣: ٥٤ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) وفي تفسير (٧ : ٩٨ أفأمنوا مكر الله) الآية وخلاصته ان المكر هو التدبير الخفي لايصال المكروه الى الممكور به من حيث لا يحتسب ، ووقاية الممكور له من المكروه كذلك . والغالب في عادات البشر أن يكون المكر فيما يسوء ويذم من الكذب والحيل ولذلك تأول المفسرون ما أسند الى الله تعالى منه فقالوا في مثل هاتين الآيتين — آية الانفال وآية آل عمران — انه أسند إلى الله تعالى من باب المشاكلة بتسمية تخييب سعيهم في مكرهم أو مجازاتهم عليه باسمه ، والحق ان المكر منه الخير والشر والحسن والسيء — كما قال تعالى (٣٥: ٤٣ استكباراً في الارض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) ومن الدعاء المرفوع « وامكر لي ولا تمكر علي » رواه أبو داود ويراجع تفسير آية آل عمران من الجزء الثالث وتفسير آية الاعراف من الجزء التاسع

وأما قصة مكرهم الذي ترتب عليه هجرة المصطفى وظهور الاسلام وخذلان الشرك ففيها روايات أوفاها رواية ابن اسحاق في سيرته وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في تفاسيرهم وأبو نعيم والبيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس (رض) بألفاظ متقاربة ننقل ماأورد السيوطي في الدر المنثور منها عنه قال

ان نفراً من قريش ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة واعترضهم ابليس في صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا من أنت ؟ قال شيخ من أهل نجد سمعت بما اجتمعتم له فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم مني رأي ونصح ، قالوا أجل فادخل فدخل معهم فقال انظروا في شأن هذا الرجل فوالله ليوشكن أن يؤاتيكم في أمركم بأمره فقال قائل احبسوه في وثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: زهير ونابغة فانما هو كأحدهم فقال عدو الله الشيخ النجدي لا والله ماهذا لكم برأي والله ليخرجن رائد من محبسه لأصحابه فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم ثم يمنعوه منكم فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم فانظروا في غير هذا الرأي، فقال قائل فاخرجوه من بين أظهركم فاستريحوا منه فانه إذا خرج لم يضركم ماصنع وأين وقع وإذا غاب عنكم أذاه استرحتم منه فانه إذا خرج لم يضركم ماصنع وكان أمره في غيركم فقال الشيخ النجدي لا والله ماهذا لكم برأي ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذه القلوب بما تسمع من حديثه، والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب لتجتمعن اليه ثم ليسيرن اليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم، قالوا صدق والله فانظروا رأيا غير هذا فقال أبوجهل والله لأشيرن عليكم برأي لا أرى غيره قالوا وما هذا ؟ قال نأخذ من كل قبيلة غلاما وسطا شابا نهداً ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما ثم يضربونه به ضربة رجل واحد فاذا قتلتموه تفرق دمه في القبائل كلها فلا أظن هذا الحي من بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلهم وانهم اذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا وقطعنا عنا أذاه فقال الشيخ النجدي هذا والله هو الرأي القول ماقال الفتى لا أرى غيره وتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له ، فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه وأخبره بمكر القوم

فلم يبت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة وأذن الله له عنـد ذلك في الخروج وأمرهم بالهجرة وافترض عليهم القتال فأنزل الله (أذن للذين يقاتلون) فـكانت هاتان الآيتان أول ما أنزل في الحرب وأنزل بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه (وإذ يمكر بك الذين كفروا) الآية اه وسائر خبر الهجرة معروف

ثم ذكر تعالى مكابرة من مكابرات هؤلاء المشركين المعاندين الماكرين قالها بعضهم فأعجبت أمثاله منهم فرددوها فعزيت اليهم على الاطلاق وهي ﴿ واذا تتلى عليهم آياتنا ﴾ المنزلة في القرآن ، الذي يعجز عن مثله الثقلان ، فيما أودع من علم وحكمة وتشريع وقصص وبيان ، وماله من التأثير في نفس كل انسان ، بقدر ما أوتي من بلاغة وعقل وقلب ووجدان ﴿ قالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ نقل هذا القول جمهور رواة التفسير المأثور عن النضر بن الحارث من بني عبد الدار وعلل هذه الدعوى الكاذبة بما هو أكذب منها وهو قوله ﴿ إن هذا إلا أساطير الاولين ﴾ أي قصصهم وأحاديثهم التي سطرت في الكتب على علاتها وما هو بوحي من عند الله تعالى . قال المبرد في أساطير: هي جمع أسطورة كأرجوحة وأراجيح وأثفية وأثافي وأحدوثة وأحاديث وفي القاموس الاساطير الاحاديث لا نظام لها جمع أسطار وأسطير وأسطور وبالهاء في الكل . وأصل السطر الصف من الشيء كالكتاب والشجر اه . قال المفسرون وكان النضر هذا يختلف إلى أرض فارس فيسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار وكبار العجم ويمر باليهود والنصارى فيسمع منهم التوراة والانجيل ، كأنهم يعنون أن أخبار القرآن عن الرسل وأقوامهم اشتبهت عليه بقصص أولئك الامم فقال انه يستطيع أن يأتي بمثلها فـما هي من خبر الغيب الدال على أنه وحي من الله . ولعله أول من قال هذه الكلمة فقلده فيها غيره ، ولم يكونوا يعتقدون أنها أساطير مختلقة ، وأن محمداً ﷺ هو الذي افتراها ، فانهم لم يكونوا يتهمونه بالكذب كما نقل عن كبار طواغيتهم ومنهم النضر بن الحارث ، وقد قال تعالى في ذلك (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) بل كانوا يوهمون عامة العرب أنه اكتتبها وجمعها كما في آية الفرقان (٢٥ : ٥ وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا) أي ليحفظها ولم يكن كبراء مجرمي قريش ولا أهل مكة يعتقدون هذا أيضا

فانهم كلهم كانوا يعلمون أنه أمي لم يتعلم شيئا، بل تشاوروا في شيء يقولونه ليصدوا به العرب عن القرآن فكان هذا القول منه ، وقد كذبهم الله تعالى فيه فما استطاعوا له اثباتا وكان النضر بن الحارث من أشدهم كفراً وعناداً ، وحرصاً على صد الناس عن القرآن ، وقد روي عنه أنه هو الذي نزل فيه قوله تعالى (٣١ : ٦ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً) اذ اشترى قينة جميلة كانت تغني الناس بأخبار الامم وغير ذلك لصرفهم عن سماع القرآن اليها وهو الذي نزلت فيه الآية التي بعد هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها وهي الدالة على منتهى الجحود والعناد على قول بعض الرواة

وهذا القول الذي قاله النضر لايدل على أنه كان يرى من نفسه القدرة على معارضة القرآن في أسلوبه أو بلاغته وتأثيره وهو من بلغاء قريش اذ لوقدر لفعل لانه كان من أحرصهم على تكذيبه بل هو طعن في أخبار القرآن عن الرسل لتشكيك العرب فيه وصرفها عنه ، وقد حكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا « افتراه » وقد يكون بعضهم اعتقد ذلك اذا كان نفي الله لتكذيبهم اياه خاصا ببعضهم كالوليد بن المغيرة الذي قال لابي جهل والاخنس وغيرهما حين دعوه لتكذيبه إن محمداً لم يكن يكذب على أحد من الناس أفيكذب على الله ؟ وقد شمل التحدي بالقرآن هؤلاء المفترين عن اعتقاد أوغير اعتقاد إذ قال في سورة يونس (١٠ : ٣٨ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) أي بسورة مثله مفتراة كما صرح بالوصف في سورة هود فقال (١١ : ١٣ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) الخ وبينا الفرق بين هاتين الآيتين وآية سورة البقرة في التحدي عند تفسير هذه الاخيرة (راجع ص ١٩٢ و١٩٣ من الجزء الاول تفسير) ولقد كان زعماء طواغيت قريش كالنضر بن الحارث هذا وأبي جهل والوليد بن المغيرة يتواصون بالاعراض عن سماع القرآن كما يمنعون الناس منه ثم يختلفون أفراداً إلى بيت النبي ﷺ ليلا يستمعون اليه ويعجبون منه ومن تأثيره وسلطانه على العقول والقلوب وكان يلتقي بعضهم ببعض أحيانا فيتلاومون ويؤكد بعضهم لبعض القول بعدم العود إلى ذلك ، ومما كان من تأثير استماعهم أن قال الوليد بن المغيرة

فيه كلمته المشهورة في وصفه ومنها أنه يعلو ولا يعلى وأنه يحطم ما تحته . فخافوا أن تسمعها العرب فما زالوا يلحون عليه في قول كلمة منفرة تؤثر عنه حتى اذا ما أقنعوه بوجوب ذلك أطال التفكير والتقدير والنظر والتأمل والعبوس والتقطيب حتى اهتدى إلى الكلمة المأثورة عن جميع مكذبي الانبياء في تسمية آياتهم سحراً فقال: سحر يؤثر – وقد تقدم بيان هذا في بحث الاعجاز من تفسير آية البقرة في التحدي .

(٣٢) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٣) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٤) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٥) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ

بعد أن بين تعالى مكر قريش بالنبي ﷺ بين ما يدل على أن سببه الجحود والعناد فقال

﴿ وإذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم ﴾ في صحيح البخاري أن قائل هذا ابو جهل. قال الحافظ في شرحه من الفتح الظاهر انه ابو جهل وان كان هذا القول نسب الى جماعة فلعله بدأ به ورضي الباقون فنسب اليهم ، وقد روى الطبراني من طريق ابن عباس ان قائل ذلك هو النضر بن الحارث قال فأنزل الله (سأل سائل بعذاب واقع) وكذا قال مجاهد وعطاء والسدي ولا ينافي ذلك ما في الصحيح لاحتمال ان يكونا قالاه ولكن نسبته الى ابي جهل اولى ، وعن قتادة قال : قال ذلك سفهة هذه الامة وجهلتها . اه وقال القسطلاني في شرحه له : وروي ان النضر بن الحارث لعنه الله لما قال (ان هذا إلا اساطير الاولين) قال النبي (ص) «ويلك انه كلام الله» فقال هو وابو جهل

(اللهم ان كان هذا) الخ واسناده إلى الجمع اسناد ما فعله رئيس القوم اليهم اهـ
والمعنى اللهم إن كان هذا القرآن وما يدعو اليه هو الحق منزلا من عندك ليدين به عبادك كما يدعي محمد (ص) فافعل بنا كذا وكذا – اي أنهم لا يتبعونه وان كان هو الحق المنزل من عند الله لانه نزل على محمد بن عبدالله الذي يلقبونه بابن أبي كبشة بل يفضلون الهلاك بحجارة يرجمون بها من السماء أو بعذاب اليم آخر يأخذهم على اتباعه ، ومن هذا الدعاء علم أن كفرهم عناد وكبرياء وعتوّ وعلو في الأرض لا لان ما يدعوهم اليه باطل أو قبيح أو ضار ، روي أن معاوية قال لرجل من سبأ ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ؟ فقال أجهل من قومي قومك حين قالوا (اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء) ولم يقولوا فاهدنا له اهـ وما يحكيه القرآن من أقوال المشركين وغيرهم قد يكون بالمعنى دون نص اللفظ كما هو المعتاد بين الناس ، وقد يكون نظمه مع أدائه للمعنى بدون اخلال مما يعجز المحكي عنهم عن مثله ، وقد يتعين هذا في الكلام الطويل الذي يتحقق بمثله الاعجاز

قال تعالى ردا عليهم ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ أي وما كان من شأن الله تعالى وسنته ، ولا من مقتضى رحمته ولا حكمته ، ان يعذبهم وأنت أيها الرسول فيهم وهو انما أرسلك رحمة للعالمين ونعمة ، لا عذابا ونقمة ، بل لم يكن من سنته ايضا ان يعذب امثالهم من مكذبي الرسل وهم فيهم بل كان يخرجهم منهم أولا كما قال ابن عباس ﴿ وما كان الله معذبهم ﴾ هذا النوع من العذاب السماوي الذي عذب بمثله الامم فاستأصلهم او مطلقا ﴿ وهم يستغفرون ﴾ أي في حال هم يتلبسون فيها باستغفاره تعالى بالاستمرار روى الشيخان من حديث انس قال ابو جهل (اللهم ان كان هذا هو الحق) – الآية – فنزلت (وما كان الله ليعذبهم) الى قوله (ومالهم ألا يعذبهم الله) الآية قال الحافظ في شرح الحديث من الفتح روى ابن جرير من طريق زيد بن رومان انهم قالوا ذلك ثم لما امسوا ندموا فقالوا اغفرانك اللهم فأنزل الله (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وروى ابن أبي حاتم من طريق علي بن ابي طلحة عن ابن عباس ان معنى قوله (وهم يستغفرون) اى من سبق له من الله انه يؤمن وقيل المراد من كان بين اظهرهم حينئذ

من المؤمنين ، قاله الضحاك وابو مالك ويؤيده ما اخرجه الطبري من طريق ابن ابزى قال كان رسول الله (ص) بمكة فأنزل الله (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) ثم خرج الى المدينة فأنزل الله (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وكان من بقي من المسلمين بمكة يستغفرون ، فلما خرجوا أنزل الله (ومالهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام) الآية . فأذن الله في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم الله تعالى . وروى الترمذي من حديث أبي موسى رفعه قال «أنزل الله على أمتي أمانين » فذكر هذه الآية قال «فاذا مضيت تركت فيهم الاستغفار» وهو يقوي القول الاول والحمل عليه أولى وإن العذاب حل بهم لما تركوا الندم على ماوقع منهم وبالغوا في معاندة المسلمين ومحاربتهم وصدهم عن المسجد الحرام والله أعلم اه ما أورده الحافظ ويرد عليه ان الله عذبهم بالقحط لما دعا به عليهم النبي (ص) كما ثبت في الصحاح حتى أكلوا الميتة والعظام ولم يرتفع إلا بدعائه (ص) ولا يندفع إلا بتفسير العذاب الممتنع مع وجود الرسول والاستغفار بعذاب الاستئصال . ويؤيده أن ما عذب الله به قوم فرعون كان مع وجود موسى عليه السلام فيهم كما تقدم في سورة الاعراف والآيات نزلت مع السورة بالمدينة

وأما قوله تعالى ﴿ ومالهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ أي وماذا ثبت لهم مما يمنع تعذيبهم بما دون عذاب الاستئصال عند زوال المانعين منه بعد والحال أنهم يمنعون المسلمين من دخول المسجد الحرام ولو للنسك ، قيل المراد به صدهم النبي (ص) وأصحابه عام الحديبية سنة ست والآية نزلت عقب غزوة بدر سنة اثنتين والمنع كان واقعاً منذ الهجرة ، ما كان يقدر مسلم أن يدخل المسجد الحرام فان دخل مكة عذبوه اذا لم يكن فيها من يجيره . والمراد بالعذاب هنا عذاب بدر إذ قتل صناديدهم ورءوس الكفر فيهم ومنهم أبو جهل وأسر سراتهم لا فتح مكة كما قال الحافظ ـ بل لم تكن الهجرة نفسها إلا بصد المؤمنين عنه فقد كانوا يؤذون من طاف أو صلى فيه منهم اذا لم يكن له منهم أو من غيرهم من الاقوياء من يمنعه ويحميه ، وقد وضعوا على ظهر الرسول (ص) فرث الجزور وهو ساجد فلم يتجرأ أحد على رميه عنه إلا بنته فاطمة عليها السلام ـ ومنعوا أبا بكر من

الصلاة وقراءة القرآن فيه فبنى لنفسه مسجداً كان يصلي فيه ويجهر بالقرآن فصدوه عن الصلاة فيه أيضاً لأن النساء والاولاد كانوا يجتمعون لسماع قراءته المؤثرة فخافوا عليهم أن يهتدوا الى الاسلام. وقد تقدم خبره في ذلك وإجارة ابن الدغنة له ثم اضطراره الى رد جواره وهو من حديث الهجرة في البخاري (راجع ص ٥٥٥)

﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ أي مستحقين الولاية عليه لشركهم ومفاسده فيه كطوافهم فيه عراة الاجسام رجالا ونساء، ولما أجاب الله دعاء أبيهم ابراهيم بأن يجعل للناس أئمة من ذريته كما جعله إماما لهم أجابه الله تعالى بأن عهده بالامامة لا ينال الظالمين، وأي ظلم أعظم شناعة وفساداً من الشرك ؟ (إن الشرك لظلم عظيم) وكانوا يقولون : نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء(١) فقال تعالى ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾ للشرك وسائر الفساد والظلم وهم المسلمون الصادقون وقد وجدوا. وهذا غاية التأكيد فانه بعد أن نفى ولاية المشركين عن بيت الله تعالى نفى كل ولاية على الاطلاق واستثنى منها ولاية المتقين من المسلمين وهم عدولهم وخيارهم لا من لا فضل لهم في أنفسهم، وانما يدعون حق الولاية بانسابهم. وقيل ان الضمير في الموضعين لله تعالى أي ولم لا يعذب الله هؤلاء المشركين بعد انتفاء سببي منع العذاب والحال انهم ليسوا أولياءه وأنصار دينه الذين لا يعذبهم؟ وكان سائلا يسأل: من أولياؤه تعالى إذاً ؟ فأجيب بصيغة الحصر بالاثبات بعد النفي: ما أولياؤه إلا المتقون. أي الذين صارت التقوى العامة صفة راسخة فيهم، وتقدم ما يدل عليه هذا الاطلاق فيها من التفصيل في تفسير آية (إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) وما هي ببعيد. والقول الاول أقرب في هذا

«١» من العبر ان بعض شرفاء مكة الذين كانوا يتولون الحكم فيها الى عهد قريب قال هذا القول الشركي الجاهلي بعينه في الاسكندرية معبراً عن عقيدة أهل بيته بمناسبة ذكر ما كان من منعهم لاهل نجد من أداء فريضة الحج، ونقل قوله مراسل بعض جرائد القاهرة من الاسكندرية في حديث له معه، فكان انتزاع الله منهم الولاية على البيت بأيدي من كانوا يصدونهم عنه وهم أهل نجد كما سبق للنبي (ص) والمؤمنين مع طغاة قريش الاولين. وقد آن للمتعالين بالانساب أن يفقهوا ان غرورهم بها مخالف للقرآن والوجدان والجنان وطبع هذا الزمان

السياق والثاني أخص ويؤيده في حد ذاته قوله تعالى (١٠: ٦٢ ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ٦٣ الذين آمنوا وكانوا يتقون) ويجوز الجمع بينهما

﴿ ولكن أكثرهم لايعلمون﴾ انه لا حق لهم في الولاية على هذا البيت ولاسيما بعد ظهور الاسلام ووجود أولياء الله الموحدين الصالحين ، وكانوا يدعون هذا الحق بنسبهم الابراهيمي وقد أبطله الظلم ، وبقوتهم في قومهم وإن كانت الى ضعف ، أو لا يعلمون انهم ليسوا أولياء الله عز وجل ، ولا ان أولياءه ليسوا إلا المتقين فهم الآمنون من عذابه ، بمقتضى عدله في خلقه ، والحقيقون بالولاية على بيته ، على ما أعد لهم من الثواب والنعيم بفضله ، كما صرحت به آياته في كتابه . وقد أسند هذا الجهل الى أكثرهم إذ كان فيهم من لايجهل سوء حالهم في جاهليتهم ، وضلالهم في شركهم ، وكونه لايرضي الله تعالى ، فان امتنع رؤساؤهم من الاسلام كبراً وعناداً ، فقد كان فيهم من يكتم ايمانه خوفا من الفتنة ، ويتربص الفرصة لاظهاره بالاستعداد للهجرة ، ومنهم المستعدون له بسلامة الفطرة ، والتفاوت في الاستعداد كان يظهر المرة بعد المرة . والناس يطلقون الحكم في مثل الحال التي كانوا عليها على الجميع ويقولون ان القليل لا حكم له إن وجد فكيف ونحن لا نعلم بوجوده . ولكن الله تعالى لا يخفى عليه شيء ، ولا يقول إلا الحق ، ومثل هذا الحكم على أكثر الأمم والشعوب أو استثناء القليل منهم بعد إطلاق الحكم عليهم ، هو من دقائق القرآن في تحرير الحق ، وهو مكرر في مواضع من عدة سور ، وسبق تنبيهنا لهذا في تفسير ماتقدم منها .

هذا وإن جماهير المسلمين في أكثر بلادهم صاروا في هذا العصر أجهل من مشركي قريش في ذلك العصر بمعنى ولاية الله وأوليائه — سواء في ذلك ولاية الحكم والسلطان وهي الامامة العامة ، وولاية التقوى والصلاح ، وهي الامامة الشخصية الخاصة ، وجهلهم بهذه أعم وأعمق ، فالولاية عندهم تشمل المجانين والمجاذيب الذين ترتع الحشرات في أجسادهم النجسة ، وثيابهم القذرة ، ويسيل اللعاب من أشداقهم الشرهة ، وتشمل أصحاب الدجل والخرافات ، والدعاوى الباطلة للكرامات ، والشرك بالله بدعاء الاموات ، ومن أدلتهم عليها مايتخيلون من رؤى الانبياء والاقطاب في المنام ، وما يتزعمون من تلقيهم عنهم ماتنبذه شريعة المصطفى عليه السلام ، حتى صار ماهم

عليه دين شرك منافيا لدين الاسلام، فعليك بمطالعة كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لشيخ الاسلام ابن تيمية ومن أولى منه بمثل هذا الفرقان ؟

ثم عطف على الحكم عليهم ماهو حجة على صحته وهو بيان حالهم في أفضل ما بني البيت لأجله وهو الصلاة، إذ كان سوء حالهم في الطواف عراة معروفا لايجهله أحد، أو في العبادة الجامعة للطواف والصلاة فقال ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾ من المعلوم أن البيت اذا أطلق معرفا انصرف عندهم إلى بيت الله المعروف بالكعبة والبيت الحرام على القاعدة اللغوية في انصراف مثله إلى الأكمل في جنسه كالنجم للثريا وهي أعظم النجوم هداية . روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق . وقال المكاء الصفير والتصدية التصفيق، وقال كان أحدهم يضع يده على الاخرى ويصفر، وروي عنه أن الرجال والنساء منهم كانوا يطوفون عراة مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيهـا ويصفقون، وروى الطستى فيما روى من أسئلة نافع بن الازرق له انه قال له أخبرني عن قوله عز وجل (إلا مكاء وتصدية) قال المكاء صوت القنبرة والتصدية صوت العصافير وهو التصفيق وذلك أن رسول الله ﷺ كان اذا قام إلى الصلاة وهو بمكة كان يصلي بين الحجر (الاسود) والركن اليماني (يعنى أنه يتوجه الى الشمال ليجمع بين الكعبة وبيت المقدس في الاستقبال) فيجيء رجلان من بني سهم يقوم أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ويصيح أحدهما كما يصيح المُكاء والآخر يصفق بيديه تصدية العصافير ليفسدا عليه صلاته قال (نافع) وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم أما سمعت حسان بن ثابت يقول :

تقوم إلى الصلاة اذا دعينا وهمتك التصدي والمكاء

وفي بعض كتب اللغة ان المكاء طائر أبيض، وعن سعيد بن جبير : كانت قريش يعارضون النبي ﷺ في الطواف يستهزئون ويصفرون فنزلت (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) وقال الراغب: مكا الطير يمكو مكاء : صفر . وذكر أن المكاء في الآية جار مجرى مكاء الطير في قلة الغناء ؛ قال والمكاء (بالضم والتشديد) طائر، ومكت آسته صوتت اه ويحتمل أن هـذه الفعلة القبيحة كانت تقع منهم

عمداً أيضا فذكر اللفظ المشترك ليدل عليها ولم يذكر اللفظ الذي وضع لها وحدها نزاهة ، وقال في التصدية: كل صوت يجري مجرى الصدى في أن لا غناء فيه اه
وجملة القول أن صلاتهم وطوافهم كان من قبيل اللهو واللعب سواء عارضوا بذلك الرسول ﷺ في طوافه وخشوع صلاته وحسن تلاوته أم لا

قال تعالى ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ فسر الضحاك العذاب هنا بما كان من قتل المؤمنين لبعض كبرائهم وأسرهم لآخرين منهم يوم بدر أي وانهزام الباقين مكسورين مدحورين . وفيه إشارة إلى قولهم (أو ائتنا بعذاب أليم) كأنه يقول : فذوقوا العذاب الذي طلبتموه ، وما كان لكم أن تستعجلوه .

(٣٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٧) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ

نزل هذا في استعداد قريش لغزوة بدر وما سيكون من استعدادهم لغيرها بعدها. ويشمل اللفظ بعمومه ماسيكون مثل ذلك من الكافرين في كل زمن. ذكر رواة التفسير عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم أن هذه الآية الاولى نزلت في أبي سفيان وما كان من انفاقه على المشركين في بدر ومن اعانته على ذلك في غزوة أحد وغيرها ففي بعض الروايات أنه لما نجا بالعير بطريق البحر إلى مكة مشى ومعه نفر من المشركين يستنفرون الناس للقتال فجاؤا كل من كان لهم تجارة فقالوا يامعشر قريش ان محمداً قد وترکم وقتل رجالكم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا ندرك منه ثأراً — ففعلوا . وقال سعيد بن جبير إنه استأجر يوم أحد ألفين من الاحابيش من بني كنانة يقاتل بهم رسول الله ﷺ سوى من استجاش من العرب . وفيهم قال كعب بن مالك

وجئنا إلى موج من البحر وسطه أحابيش منهم حاسر ومقنع
ثلاثة آلاف ونحن عصابة ثلاث مئين ان كثرنا فأربع

وقال الحكم بن عتيبة في الآية : نزلت في أبي سفيان أنفق على المشركين يوم أحد أربعين أوقية من ذهب وكانت الاوقية يومئذ اثنين وأربعين مثقالا، هذا على ما كان معروفا من بخل أبي سفيان كما قالت زوجته يوم المبايعة لرسول الله (ص)

﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ﴾ أي عن الاسلام واتباع خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام ﴿ فسينفقونها ﴾ في سبيل الشيطان صداً وفتنة وقتالا ﴿ ثم تكون عليهم حسرة ﴾ وندما وأسفا ، لذهابها سدى، وخسرانها عبثا، إذ لا يطيعهم ممن أراد الله هدايتهم أحد ﴿ ثم يغلبون ﴾ المرة بعد المرة، وينكسرون الكرة بعد الكرة ﴿ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ أي يساقون يوم القيامة اليها دون غيرها كما أفاده تقديم الظرف على متعلقه. هذا اذا أصروا على كفرهم حتى ماتوا عليه ، فيكون لهم شقاء الدارين وعذابهما . ومن العبرة في هذا للمؤمنين أنهم أولى من الكفار ببذل أموالهم وأنفسهم في سبيل الله لان لهم بها من حيث جملتهم سعادة الدارين ، ومن حيث افرادهم الفوز باحدى الحسنيين[1] هكذا كان في كل زمان قام المسلمون فيه بحقوق الاسلام والايمان ، وهكذا سيكون ، اذا عادوا إلى ما كان عليه سلفهم الصالحون . والكفار في هذا الزمان ينفقون القناطير المقنطرة من الاموال للصد عن الاسلام، وفتنة الضعفاء من العوام ، بجهاد سلمي، أعم من الجهاد الحربي ، وهو الدعوة الى أديانهم ، والتوسل الى نشرها بتعليم أولاد المسلمين في مدارسهم، ومعالجة رجالهم ونسائهم في مستشفياتهم . والمسلمون مواتون ، يرسلون أولادهم اليهم ولا يبالون ما يعملون (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون)

﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ يعني أن الله تعالى كتب النصر والغلب والفوز لعباده المؤمنين المتقين، والخذلان والحسرة لمن يعاديهم ويقاتلهم من الكافرين للصد عن سبيل الله الذي استقاموا عليه ، وجعل هذا جزاء كل من الفريقين

«١» الغنيمة أو الشهادة

ماداما على حالهما، فاذا غيرا ما بأنفسهما غير الله مابهما. جعل هذا جزاءهما في الدنيا وجعل جهنم مأوى للكفار وحدهم في الآخرة ، لأجل أن يميز الكفر من الايمان ، والحق والعدل من الجور والطغيان ، فلن يجتمع في حكمه سبحانه الضدان ، ولا يستوي في جزائه النقيضان (٥ : ١٠٣ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله ياأولي الالباب) فالخبيث والطيب المعنويان في حكم العقلاء والفضلاء ، كالخبيث والطيب الحسيين في حكم سليمي الحواس ولاسيما الشم . وقد سبق لنا تحقيق هذا المعنى في تفسير هذه الآية من سورة المائدة [١] وفي تفسير (٣:١٦٩ ما كان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) [٢] قرأ حمزة والكسائي (يميز) بالتشديد من التمييز وقرأها الجمهور بالتخفيف . والمراد بالميز والتمييز ما كان بالفعل والجزاء كما قلنا لا بالعلم فهو بكل شيء عليم ، وهذا التمييز الالهي بين الأمرين في الاجتماع البشري يوافق مايسمى في عرف هذا العصر بسنة الانتخاب الطبيعي وبقاء أمثل الأمرين المتقابلين وأصلحهما . وسنن الله في الدنيا والآخرة واحدة كما قال أبو حامد الغزالي (رح) وإن جهل ذلك الخبيثون المتكلون على الشفاعات والمغترون بالالقاب الدينية من كل ملة وأمة. فالخبيث في الدنيا خبيث في الآخرة لاينفعه شيء ، ولذلك قال ﴿ ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا ﴾ أي ويجعل سبحانه الخبيث بعضه منضما متراكبا على بعض بحسب سنته تعالى في اجتماع المتشاكلات، وانضمام المتناسبات، وائتلاف المتعارفات، واختلاف المتناكرات، يقال ركمه اذا جمع بعضه إلى بعض ومنه (سحاب مركوم) ﴿ فيجعله في جهنم ﴾ بجعل أصحابه فيها يوم القيامة ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ التامو الخسران وحدهم ، لانهم خسروا أموالهم وأنفسهم

جاء مصر القاهرة من عهد قريب صاحب صحيفة سورية دورية من دعاة الالحاد المتفرنجين ، فأقام فيها أياما قلائل استحكمت فيها له مودة أشهر ملاحدة مصر ودعاة الزندقة والاباحة فيها، فعاد ينوه بهم، وينشر دعايتهم ، ويزعم أنهم

«١» راجع ص١٢٢ج ٧تفسير «٢» ص٢٥٣ ج ٤ منه

دعامة الترقي والعمران، بالدعاية الى تجديد ثقافة لمصر تخالف ما كان لها من ثقافة العرب والاسلام، والحق أن هؤلاء كلهم هدامون للعقائد والفضائل وجميع مقومات الامة ومشخصاتها ، وليسوا بأهل لبناء شيء لها ، الا اذا سميت الزندقة واباحة الأعراض وتمهيد السبيل لاستعباد الاجانب لا متهم بناء مجد لها . وقد ذكرني ذلك رجلا من قرية صالحة مر به رجل من معارفه كان في احدى المدن فطفق يسأله عن المساجد ومدارس العلم فيها وعن الصالحين من أهلها . فأجابه الرجل: أعن هذا تسأل مثلي ؟ سلني عن أهل الحانات والمواخير ، فانني بها وبهم عليم خبير (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون)

---

(٣٨) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ

لما بين الله تعالى حال الكفار الذين يصرون على كفرهم وصدهم عن سبيل الله وقتال رسوله والمؤمنين وما لهم في الدنيا والآخرة قفى عليه ببيان حكم الذين يرجعون عنه ويدخلون في الاسلام ، لان الأنفس صارت تتشوف الى هذا البيان ، وتتساءل عنه بلسان الحال أو المقال ، وهو ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء الكفار أي لأجلهم وفي شأنهم فاللام للتبليغ : إن ينتهوا عما هم عليه من عداوتك وعنادك بالصد عن سبيل الله والقتال لاوليائه المؤمنين بالدخول في الاسلام ﴿ يغفر لهم ماقد سلف ﴾ منهم من ذلك ومن غيره من الذنوب، يغفر الله لهم ذلك في الآخرة فلا يعاقبهم على شيء منه ، ويغفر لهم الرسول والمؤمنون مايخصهم من إجرامهم فلا يطالبون قاتلا منهم بدم، ولا سالبا أو غانما بسلب أو غنم ، وقرأ ابن مسعود «إن تنتهوا يغفر لكم» بالخطاب روى مسلم من حديث عمرو بن العاص

قال فلما جعل الله الاسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت ابسط يدك أبايعك، فبسط يمينه فقبضت يدي قال «مالك؟» قلت أردت أن أشترط قال «تشترط بماذا؟» قلت أن يغفر لي، قال «أما علمت يا عمرو ان الاسلام يهدم ما كان قبله وان الهجرة تهدم ما كان قبلها وان الحج يهدم ما كان قبله؟» الحديث ﴿ وإن يعودوا ﴾ الى العداء والصد والقتال ﴿ فقد مضت سنة الاولين ﴾ أي تجري عليهم سنته المطردة في أمثالهم من الاولين الذين عادوا الرسل وقاتلوهم، وقال مجاهد: في قريش وغيرها يوم بدر والامم قبل ذلك، أقول وهي السنة التي عبر عنها بمثل قوله (٥٨: ٢٠ ان الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الاذلين ٢١ كتب الله لاغلبن أنا ورسلي ان الله قوي عزيز) وقوله (٤٠: ٥١ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد) فاضافة السنة إلى الاولين لملابستها لهم وجريانها عليهم

﴿ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ أي وقاتلهم حينئذ أيها الرسول أنت ومن معك من المؤمنين حتى تزول الفتنة في الدين بالتعذيب وضروب الايذاء لاجل تركه كما فعلوا فيكم عند ما كانت لهم القوة والسلطان في مكة حتى أخرجوكم منها لاجل دينكم ثم صاروا يأتون لقتالكم في دار الهجرة، وحتى يكون الدين كله لله لايستطيع أحد أن يفتن أحداً عن دينه ليكرهه على تركه إلى دين المكره له فيتقلده تقية ونفاقا - ونقول ان المعنى بتعبير هذا العصر: ويكون الدين حراً، أي يكون الناس أحراراً في الدين لا يُكره أحد على تركه اكراها، ولا يؤذى ويعذب لاجله تعذيبا، ويدل على العموم قوله تعالى (٢: ٢٥٦ لااكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) وسبب نزول هذه الآية ان بعض الانصار كان لهم أولاد تهوَّدوا وتنصروا منذ الصغر فأرادوا إكراههم على الاسلام فنزلت فأمرهم النبي (ص) بتخييرهم، ولكن المسلمين انما يقاتلون لحرية دينهم، وان لم يكرهوا عليه أحداً من دونهم، ومارضي الله ورسوله في معاهدة الحديبية بتلك الشروط الثقيلة التي اشترطها المشركون الا لما فيها من الصلح المانع من الفتنة في الدين المبيح لاختلاط المؤمنين بالمشركين واسماعهم القرآن اذ كان هذا اباحة للدعوة الى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ولرؤية المشركين حال المؤمنين ومشاهدتهم انها خير من حالهم، ولذلك كثر دخولهم في

الاسلام بعدها. وسمى الله هذا الصلح فتحاً مبينا. وأما ورود الحديث بقتل المرتد فله وجه آخر من منع العبث بالاسلام كان له سبب سياسي اجتماعي بيناه في موضعه.

هذا هو التفسير المتبادر من اللفظ بحسب اللغة العربية وتاريخ ظهور الاسلام ، وروي عن ابن عباس تفسير الفتنة بالشرك قال ابن كثير وكذا قال أبو العالية ومجاهد والسدي ومقاتل وزيد بن أسلم. أقول وعليه جمهور مؤلفي التفاسير المشهورة من الخلف قالوا وقاتلوهم حتى لا يبقى شرك وتزول الاديان الباطلة فلا يبقى إلا الاسلام ولذلك قال بعضهم : لم يجيء تأويل هذه الآية بعد وسيتحقق مضمونها إذا ظهر المهدي فانه لا يبقى على ظهر الارض مشرك أصلا على ما روي عن أبي عبد الله (رض). كتب هذا الآلوسي وهو لا يصح أصلا ولا فرعا ، ويؤيد الاول ما روى البخاري عن عبد الله بن عمر أن رجلا جاءه فقال يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) الى آخر الآية فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله في كتابه ؟ فقال يا ابن أخي أعيَّر بهذه الآية ولا أقاتل أحب اليّ من أن أعير بهذه الآية التي يقول الله تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمداً) الى آخرها قال فان الله يقول (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) قال ابن عمر قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ اذ كان الاسلام قليلا فكان الرجل يفتن في دينه اما يقتلوه واما يوثقوه حتى كثر الاسلام فلم تكن فتنة، الخ فابن عمر رضي الله عنهما يفسر الفتنة في آية الانفال هذه بما قلنا انه المتبادر منها ويقول إنها قد زالت بكثرة المسلمين وقوتهم فلا يقدر المشركون على اضطهادهم وتعذيبهم ولو كانت بمعنى الشرك لما قال هذا فان الشرك لم يكن قد زال من الارض ولن يزول (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) الآية

وقد ذكر هذه الرواية ابن كثير في تفسير الآية وزاد عليها روايات عنه أخرى بمعناها منها أنه جاءه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا إن الناس قد صنعوا ما ترى وانت ابن عمر بن الخطاب وأنت صاحب رسول الله (ص) فما يمنعك أن تخرج؟ قال يمنعني ان الله حرم علي دم أخي المسلم . قالا أولم يقل الله (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ؟) قال قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله وأنتم تريدون ان تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله ، وفي رواية زيادة: ويذهب الشرك. وذكر

أيضا أن رجلا أورد الآية على أسامة بن زيد وسعد بن مالك (رض) فقالا قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله . وهذا وماقبله من رواية ابن مردويه في تفسيره وقال محمد بن اسحاق بلغني عن الزهري عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا (حتى لاتكون فتنة) حتى لايفتن مسلم عن دينه

﴿ فان انتهوا ﴾ أي فان انتهوا عن الكفر وعن قتالكم ﴿ فان الله بما يعملون بصير ﴾ فيجازيهم عليه بحسب علمه . وقرأ يعقوب (تعملون) بالتاء الفوقيـة بالخطاب . وفي سورة البقرة (٢ : ١٩٣ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله . فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) ﴿ وان تولوا ﴾ وأعرضوا عن سماع تبليغكم ولم ينتهوا عن كفرهم وفتنتهم وقتالهم لكم ﴿ فاعلموا أن الله مولاكم ﴾ أي فأيقنوا أن الله تعالى هو ناصركم ومتولي أموركم فلا تبالوا بهم ولا تخافوا فهو ﴿ نعم المولى ونعم النصير ﴾ هو فلا يضيع من تولاه ولا يغلب من نصره

(فان قيل) إن انتصار المسلمين في القرون الأولى كان لاسباب اجتماعية فلما تغيرت هذه الاسباب خانهم النصر حتى فقدوا أكثر ممالكهم، وإننا لنرى الامم ينتصر بعضها على بعض بالاستعداد المادي من سلاح وعتاد وبالنظام الحربي الذي جهله المسلمون بغرورهم بدينهم واتكالهم على خوارق العادات، وقراءة الاحاديث والدعوات، ولذلك ترك ساسة الترك وأسسوا لأنفسهم حكومة مدنيـة إلحادية تناهض الاسلام ،ويوشك أن يتبعهم ساسة المصريين والافغان .

(قلنا) إن ماذكره المعترض وهو واقع لامفروض ـ حجة على المسلمين المتأخرين لا على الاسلام، فالاسلام يأمر باعداد القوى المادية، ويضيف اليها القوى المعنوية ، ومنها بل أعظمها الايمان بالله ودعاؤه والاتكال عليه باتفاق العقلاء حتى الماديين منهم ، ولم يشرع للناس الاتكال على خوارق العادات، حتى في أيام الرسول المؤيد بالآيات البينات ، ولما غُلب المسلمون في وقعة أحد لتقصيرهم في الاسباب وتعجبوا من ذلك أنزل الله تعالى (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم) وقد وفينا هذا البحث حقه في تفسير هذه الآية وأمثالها من الآيات التي نزلت في تلك الغزوة من سورة آل عمران وسنعود اليه في تفسير آية (وأعدوا لهم ما استطعتم

من قوة) وغيرها من هذه السورة قريباً إن شاء الله تعالى

وما أضعف الترك والمصريين وغيرهم من شعوب المسلمين إلا تركهم لهداية القرآن في مثل هذا وغيره من اقامة العدل والفضائل وسنن الله في الاجتماع التي انتصر بها السلف الصالح، واستبداد حكامهم فيهم، وانفاق أموال الأمة والدولة فيما حرم الله عليهم من الأسراف في شهواتهم ، وقد اتبع الافرنج تعاليم الاسلام في الاستعداد للحرب وفي غير ذلك من سنن الله في العمران، فرجحت بهم كفة الميزان، وسيتبعونها في الامور الروحية، بعد أن تبرح بهم التعاليم المادية والبلشفية، ويتفاقم فسادها في أممهم، حتى تخرّب بيوتهم بأيديهم ، من حيث فقد المسلمون الجغرافيون النوعين كليهما من تعاليمه ، وقام الجاهلون منهم يحتجون عليه ، بما أفسدوا وابتدعوا فيه ونسبوه اليه ، وهو حجة عليهم وعلى جميع الخلق :

وأما الأمور الاجتماعيـة التي مكنت سلف المسلمين من فتح بلاد كسرى وقيصر وغيرهما من الشعوب فهي أكبر حجة للاسلام أيضا ، إذ ليست تلك الامور إلا ما كان أصاب تلك الشعوب من الشرك وفساد العقائد والآداب، ومساوىء الاخلاق والعادات، من فشو الفواحش والمنكرات، وسلطان البدع والخرافات ، التي جاء الأسلام لازالتها ، واستبدال التوحيد والفضائل بها ، ولهذا وحده نصرهم الله على الأمم كلها ، إذ لا خلاف بين أهل العلم والتاريخ في ان العرب كانوا دون تلك الشعوب كلها في الاستعداد الحربي المادي، فلم يبق لهم مايمتازون به إلا اصلاح الاسلام المعنوي، ولما أضاع جماهير المسلمين هذه العقائد والفضائل، واتبعوا سنن تلك الامم من البدع والرذائل — وهو ماحذرهم الاسلام منه — ثم قصروا في الاستعداد المادي للنصر في الحرب ففقدوا النوعين منه ، عاد الغلب لغيرهم عليهم

فنسأله تعالى هداية هذه الامة ، وكشف ماهي فيه من غمة ، لتستحق نصره باتباع شرعه ، ومراعاة سننه في خلقه ، وبتقواه المثمرة للفرقان في العلوم والاحكام والاعمال ، فيعود لها ما فقدت من الملك والسلطان اللهم آمين

﴿ تم تفسير الجزء التاسع كتابة وتحريراً بفضل الله وحوله وقوته ﴾

(في أواخر شهر شعبان سـنة ١٣٤٦ ونسأله الاعانة والتوفيق لاتمـام ما بعده)

ولله الحمـد والشكر أولا وآخراً